الدكتور توفيق سلطان اليوزبكي

الملامح العامة للمطامع الاستعمارية في الخليج العربي بين القرنين السادس عشر والعشرين

بحث
ألقي في مؤتمر تاريخ شرق الجزيرة العربية
المعقود في قطر/الدوحة بين ٢١-٢٧ آذار ١٩٧٧


ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

ان المتتبع لتاريخ العرب الحديث والمعاصر يرى أن ماشهدته الأمة العربية من تجزئة واحتلال يعود لما للوطن العربي من موقع ستراتيجي مهم جعله يتحكم ويشرف على معظم طرق المواصلات العالمية الرئيسة واهم ممراته المائية وماإحتوته أرضه من خيرات وثروات هائلة جعلته حلم الطامعين وعرضته لغزو مستمر .

التكوين الاقليمي للخليج العربي :

يشكل الخليج العربي الجناح الشرقي من الوطن العربي والذي تعاظمت أهميته خاصة بعد أن قويت حركة الاستكشافات الجغرافية .وقد تركزت هذه الاهمية بسبب موقعه على الطرق البحرية التي تربط بين آسيا وأفريقيا بواسطة البحر الأحمر والمحيط الهندي .وهو نقطة توزيع في المواصلات العالمية المؤدية إلى أجزاء العالم عن طريق موانئه البحرية والجوية .وانتاجه الوفير لمواد الطاقة الاساسية (النفط) وتملكه أضخم مخزون احتياطي من هذه الطاقة (١) . ولهذه الأسباب أصبح أكثر مناطق العالم تأثيراً بالاحداث العالمية والصراع الدولي وأصبح أساساً للمجابهة العسكرية والسياسية والاقتصادية بين عوامل حركة التحرر العربي الصاعدة وبين القوى الامبريالية والرجعية العربية التي تعمل على تكبيل المنطقة العربية باغلال السيطرة والتبعية (٢) .

ويشكل الخليج العربي الامتداد البحري الكبير الذي يخرج من المحيط الهندي من الجنوب الشرقي الى الشمال الغربي ، حيث يجتمع بالقرب منه نهرا دجلة والفرات مكونين شط العرب وتتباين سواحل هذا الخليج من حيث ظروفها الجغرافية .فالساحل الشرقي ضيق تطل عليه سلاسل جبلية عالية ومعظم سكانه من العرب الذين قدموا اليه من الساحل الغربي نتيجة لبعض الحركات التاريخية. أما الساحل الغربي للخليج العربي فيمتد من شط العرب في الشمال حتى رأس الحد

(١) توفيق اليوزبكي وآخرون : دراسات في الوطن العربي (الحركات الثورية والسياسية) ط١ص ٢٧٤.

(٢) سيد نوفل : الخليج العربي ص١٦.

في الجنوب ، ويضم كلا من العراق والكويت والبحرين وقطر ودولة اتحاد الامارات العربية وعمان وتتناثر على امتداده الكثيرمن الجزر العربية (١) .

لقد حاول الكثير من الباحثين الاجانب تجاوز اعتبار العراق والسعودية ضمن الاقطار الخليجية ، وإذا ماعدت السعودية ضمن دول الخليج العربي في مؤلفات عديدة فان العراق الذي يشكل امتدادا شماليا للخليج قلما نجد له ذكراً في بعض المؤلفات التي تعرضت لتاريخ الخليج ، إذ يحاول الكثيرون تجاهله بحجة أن منفذه الى الخليج محدود ، ويبدو أن ذلك الاتجاه مقصود منه عزل العراق عن اداء دوره الطليعي القومي في الخليج العربي ، وقد أشيع لدى الكثير من أبناء الخليج العربي أوهام « الاطماع العراقية في الخليج » وهي في الحقيقة أوهام ومخاوف أوجدها الاستعمار وعملاؤه وغذاها لقطع صلة العراق الوطني والقومي بالخليج ، وعزله عن التأثير في مصير الخليج ومستقبله في وقت الزم العراق نفسه بعد ثورة ١٧ تموز / ١٩٦٨ أن ينطلق من مواقع الشعور بالمسؤولية القومية ومن المصلحة العربية العليا وان هدفه الحقيقي والاساسي — أولا وآخرا — الحفاظ على عروبة الخليج وصيانته من المخاطر المحدقة (٢)به وتهدف هذه الصيغ إلى سد المنفذ الجنوبي الوحيد للعراق الذي ينتهج سياسة تقدمية معادية للاستعمار ووضع الحواجز أمام دعمه للشعب العربي في الخليج، واستمرار الامبريالية العالمية في سرقة ثروات المنطقة المعدنية (٣)

اهمية الخليج العربي :

لقد اكتسب الخليج العربي أهمية استثنائية على مر العصور ، فلطالما جذب الانظار اليه بسبب أهمية موقعه وكثرة خيراته ، ولطالما كان حلقة اتصال بين

(١) بدر الدين عباس الخصوصي : الخليج العربي والمطامع الاستعمارية، بحث مقدم للمؤتمر الدولي للتاريخ المنعقد ببغداد/١٩٧٣ .

(٢) مصطفى عبد القادر النجار ، الخليج العربي ، دراسة لتاريخه المعاصر ، مجلة الخليج العربي العدد الثالث ١٩٧٥ ،ص١٣٧ .

(٣) الاستراتيجية الانكلوامريكية ومرتكزاتها في الخليج العربي : منشورات وزارة الاعلام العراقية، بغداد ١٩٧٢ ، ص٢٤ — ٢٥

دول العالم القديم وهو الطريق الى الهند والشرق الاقصى ، وهو زيادة على ذلك عريق في حضارته وتراثه ، كما أنه يزخر بالثروات الاقتصادية .

ولقد أبدت المكتشفات الاثارية التي عثر عليها في مناطق مختلفة من الخليج ، آثار الانسان العربي الذي عاش على سواحله منذ العصور القديمة .كما جاء ذكر أقوام عربية مدونا في الواح السومريين . وهذا يدفعنا إلى القول بأن العرب هم شعب هذا الساحل منذ العصور القديمة .كما أن الشعب المعيني والذي تطورت حضارته في اليمن كان في الأصل من البحرين (١).

ولكن بعد سقوط الدولة الكلدانية وسقوط بابل على يد الأخمينيين سنة ٥٣٨ق.م بقي الخليج العربي بعيداً عن تحديات هذه الدولة . لأنها لم تكن ذات عناية أو أثر واضح على الخليج العربي . وبمجيء الاسكندر الكبير إلى العراق تبلورت الأطماع الأجنبية بصورة واضحة في الخليج العربي بمشاريعه التي جاء بها لاكتشاف سواحل الخليج العربي (٢) عندئذ برزت أهميته بصورة خاصة خلال الربع الأخير من القرن الرابع قبل الميلاد وذلك عندما غزا الاسكندر الاكبر بلاد فارس ، إذ ينسب لحملته تلك فضل الكشف عن شواطىء الخليج ،ففي أثناء عودته من الهند وجه قائد اسطوله البحري سنة ٣٢٤ ق.م نياروموس الى استطلاع الجانب الشرقي من الخليج العربي واحتلال جزر مضيق هرمز والسيطرة عليها لما لهذه المنطقة من أهمية ستراتيجية (٣) . ثم تزايدت أهمية الخليج بعد ذلك خلال العصور التاريخية القديمة والوسطى . الا أنه حظي منذ مطالع العصور الحديثة باهتمام القوى الاستعمارية والامبريالية . فلقد أشار الاميرال ماهان الى أهمية الخليج العربي في الصراع الاوربي الدولي بالنسبة لستراتيجية الولايات المتحدة الامريكية

(١) منذر البكر وآخرون ، صور من المقاومة العربية للاطماع الاجنبية في الخليج العربي ، بحث القي في المؤتمر الدولي للتاريخ ببغداد ١٩٧٣ ص ٣ .

(٢) المصدر نفسه ص ٢

(٣) للتفاصيل انظر : الخصوصي ، المصدر السابق ص٢/سيد نوفل ، المصدر السابق ، ص٢٠، هادى طعمة ، الخليج العربي في الاستراتيجيات الاستعمارية ص٤٥.

وركز على « أطماع » روسيا في الاقطار العربية من جهة والمصالح البريطانية من جهة أخرى (١) .

أما السياسي البريطاني « ريموندداوشي » فقد اوضح في كتابه (ملوك الرمال في عمان) أهمية الخليج بالنسبة للستراتيجية البريطانية بقوله :

« ان الخليج العربي شريان الحياة الرئيسي بالنسبة لبريطانيا، وقد أكد اكتشاف النفط وتقدم الطيران هذه الحقيقة وسيظل الخليج يسيطر على ستراتيجيتنا ، فهو يتوسط جميع خطوطنا البحرية والجوية إلى الشرق ، ويحوي الموانىء والمراكز البحرية ومحطات الوقود لاساطيلنا وبواخرنا وطائراتنا والدول التي تستولي على الخليج وعلى ساحل عمان ، تستطيع أن تحكم جزيرة العرب والعراق وايران وافريقيا . وتستطيع أن تغلق قناة السويس ، وان تقطع خطوط المواصلات الجوية والبحرية الى الهند وافريقيا ، وإذا قامت في الخليج دولة معادية فانها تستطيع أن تدق المسمار الأخير في نعش النفوذ البريطاني بجنوبي البحر المتوسط كله » (٢) .

كما أولى الالمان موقع الخليج العربي اهتماما بالغا بوصفه نقطة النهاية بالنسبة لمشروعهم المعروف « سكة حديد بغداد » ، وكذلك حصلوا على امتياز من حكومة طهران لبناء طريق من طهران الى خانقين يتصل ببغداد فالبصرة لتحقيق الوصول الى الكويت (٣) .

أما بالنسبة للستراتيجية الفرنسية ، فقد عبر السفير الفرنسي في لندن عن وجهة نظر حكومته بقوله : ان على بريطانيا أن تفسح المجال للالمان والفرنسيين لبناء سكة حديد من الاناضول الى بغداد فالخليج العربي (٤) .

---

(١) الداود : الخليج العربي والعلاقات الدولية ص١٥١ .
(٢) سيد نوفل ، الخليج العربي ، ص٤٩
(٣) الداود ، الخليج العربي ص١٦٥ .
(٤) المصدر السابق ص١٦٨ .

لقد وضع ظهور النفط في الخليج العربي منذ النصف الثاني من القرن العشرين المنطقة جميعها في دائرة الصراعات والتنافسات الدولية وذلك لما للنفط من أهمية كبيرة في الصناعة وآلات النقل والحرب لدى الدول الصناعية الاستعمارية فلم تعد هذه المنطقة موطناً لاستخراج اللؤلؤ، ولامنطلقاً إلى الشرق، ولامعبراً الى الهند فحسب بل أصبحت مصدراً مهماً من مصادر الطاقة في العالم، وقد لعبت هذه المنطقة دوراً مهماً في تقرير سياسة العالم، واخذت الدول الاستعمارية تتكالب للسيطرة عليه والحصول على امتيازات استغلال النفط فيه، فأخذت تتصارع فيما بينها سياسياً وعسكرياً واقتصادياً لاحتكاره ولجأت هذه الدول الى التحرك عسكرياً في الخليج وفي مداخله فأنشأوا القواعد العسكرية في هرمز والبحرين والشارقة ومسقط وعمان والظهران وأقاموا الاحلاف العسكرية للوقوف بوجه حركة الثورة العربية والمقاومة العربية في الخليج التي أصبحت تهدد المصالح الاستعمارية والوجود الاستعماري فيه (١).

وبقدر ماترك ظهور النفط من نتائج حسنة على مواقع المنطقة الاقتصادي والاجتماعي إلا أنه قوى الشعور الذاتي الاقليمي عند بعض المشيخات والامارات مما قد يكون معرقلاً لقضية الوحدة، ومن ناحية أخرى ادى النفط إلى ظهور طبقات جديدة في المجتمع حلت ببطء محل النظام الاقطاعي القبلي. ونعني بذلك طبقتي المجتمع الحديث: البرجوازية والعاملة الامر الذي أدى إلى تنامي الحركة الوطنية في أقطار عديدة من الخليج العربي (٢).

أما مضيق هرمز فقد لعب دوراً كبيراً في مرور التجارة ومواد الطاقة حيث أن مايقرب من ٨٦٪ من نفط المنطقة يمر عبر هذا المضيق (٣).

وان معظم تلك الكميات كانت تجهز لتغطية نفقات الحركات العسكرية المجابهة للثورات التحررية العالمية ولاسيما في فيتنام ولاوس وكمبوديا وجنوب

(١) الجنابي: من تاريخ الخليج العربي ص٧٣.

(٢) منذر البكر وآخرون: صور من المقاومة العربية للاطماع الاجنبية في الخليج العربي، محاضرة القيت في المؤتمر الدولي للتاريخ في بغداد آذار ١٩٧٣.

(٣) الجنابي: من تاريخ الخليج العربي ص٦٩.

أفريقيا وغيرها (١) .فقد بلغت كمية النفط المنتج من الخليج العربي عام ١٩٧٠ بما يقرب من ٦٠٠ مليون طن وان ماتحصل عليه انكلترة وحدها من أرباح عوائد النفط يقرب من ألف مليون جنيه اضافة إلى أن لبريطانية (٩٠٠) مليون جنيه مستثمرة في المنطقة (٢) .كما يشكل نفط الشرق الاوسط ٨٥ ٪من احتياطي النفط العالمي بضمنها ٧٠ ٪من هذا الاحتياطي الهائل يشكله النفط العربي ، وتستهلك اوربا الغربية وحدها ٨٥ ٪من النفط العربي المصدر (٣) .

اما الولايات المتحدة فقد استوردت بشكل مباشر او غير مباشر ٢٠٪ من انتاج الاوبك من النفط في العام ١٩٧٦ – اي بمقدار ٦/١ مليون برميل يومياً و١٥٪ من النفط الذي انتجته منظمة البلدان العربية المصدرة للنفط (اوابك) . وهذا يعني زيادة في الاستيراد بلغت ١٨٪ و١١٪ على التوالي عن استيراد عام ١٩٧٥وقد ارتفع مجموع استيرادات الولايات المتحدة المباشرة وغير المباشرة من النفط العربي بنسبة ٥٥٪ لتصل الى ٢/٨ مليون برميل يومياً عام ١٩٧٦ (٤) .

إذا كان النفط العربي يلعب دوراً خطيراً في الاقتصاد العالمي ، وفي حياة الشعوب الغربية خاصة فان ذلك يتطلب العمل على وضع سياسة عربية موحدة لتنعكس آثارها السياسية والاقتصادية على الوضع السياسي للوطن العربي وعلى الاقتصاد القومي العربي وتطوره . (٥)

وانطلاقاً من هذا التصور العلمي الدقيق لاهمية النفط وضعت القيادة السياسية في القطر العراقي شعار « نفط العرب للعرب» موضع التطبيق واعتبرت تأميم النفط هدفاً ستراتيجياً من أهداف الثورة العربية . فكان قرار التأميم في العراق ابتداء من الأول من حزيران ١٩٧٢ ذا بعد قومي ودولي . إذ أسهم اسهاماً فعالاً في الكشف عن أزمة الطاقة في العالم الغربي وتبيان ابعادها السياسية والستراتيجية الخطيرة فهو بحق بداية مرحلة دولية جديدة تفتح الآفاق أمام

(١) طعمة : الخليج العربي ص٤٧ .
(٢) الجنابي : ص٧٠.
(٣) العزي : الخليج العربي في ماضيه وحاضره ص٨٨.
(٤) مجلة النفط والتنمية ، السنة ٢ العدد ٩ حزيران ١٩٧٧ ص١٣٣ – ١٣٤
(٥) المصدر السابق ص٩٢ .

وقوع تغييرات جذرية في موازين القوى في العالم لصالح حركة الشعوب. كما كان أول ضربة حاسمة وجذرية يوجهها الشعب العربي للامبريالية العالمية(١).

مراحل التغلغل الاستعماري في الخليج العربي

ان من جملة عوامل التنافس الاستعماري بين الدول الاوربية خاصة هو اكتشاف قارات جديدة (الامريكتين) واجزاء مهمة من القارات القديمة (في اسيا وافريقيا) لم تكن معروفة من قبل وقد ادى ذلك الى زيادة موارد الدول الاوربية التجارية التي راحت تبحث عن الموارد والمواد الاولية واحتكار الطرق المؤدية اليها، ومما زاد في حدة التنافس بينها انتشار الثورة الصناعية وتطورها في الاقطار الاوربية، وتطور وسائل النقل والانتاج دفعتها إلى التسابق في استعمار البلدان التي تكثر فيها هذه المواد واتخاذها سوقا لتصريف السلع الفائضة وتشغيل الرساميل المتولدة من الصناعة في انتاج المواد الخام والقيام بمشاريع في المستعمرات .

ولقد اندفع الاوربيون بحماس كبير يجوبون بحار العالم ومحيطاته منذ بداية العصور الحديثة بحثا عن طريق توصلهم إلى الشرق . وبينما اتجه الاسبان في توسعهم إلى الامريكتين بصورة خاصة ، نجح البرتغاليون في اقامة امبراطورية متسعة الارجاء في اسيا وافريقيا . وقد احكموا سيطرتهم على البحار والممرات المائية المؤدية اليها .

ولم يكن التوسع البرتغالي سوى البداية . ففي خلال القرنين السادس عشر والسابع عشر كانت هناك شعوب اوربية اخرى (وهم الانكليز والفرنسيون والهولنديون) تتحفز لمشاركة البرتغاليين في مكاسبهم السابقة ، بل حرمانهم منها ان امكن ذلك . وساندت حكومات تلك الشعوب المستكشفين ومنحتهم تسهيلات وامتيازات سخية . وقام التجار بتاسيس شركات احتكارية تتولى الاستكشاف والمتاجرة مع انحاء العالم المختلفة .

(١) التقرير السياسي للمؤتمر القطري الثامن لحزب البعث العربي الاشتراكي ، كانون الثاني ١٩٧٤ ، ص٦١ – ٦٢ .

ومع ان منطقة الخليج العربي كانت مطمح انظار الاوربيين وموضع اهتمامهم منذ بداية حركة التوسع الاوربي ، الا ان سكانها – كما سنرى – نجحوا حتى مطلع القرن التاسع عشر في الحيلولة دون ترسيخ اقدام الاوربيين فيها (١).

وكان بامكان العثمانيين الذين ترجع اهتماماتهم بالخليج العربي منذ فتحهم العراق سنة ١٥٣٤ (٢) أن يلعبوا دوراً مهماً في الخليج العربي (٣). إلا أنهم منذ اندحارهم أمام البرتغاليين في سلسلة المعارك البحرية التي استمرت حتى أوائل النصف الثاني من القرن السادس عشر (٤). لم يلعبوا دوراً ذا بال في هذه الانحاء . لذا فسوف نركز على تتبع التغلغل الأوربي وردود الفعل العربية عليه .

لقد بدأ الخطر البرتغالي يقترب من الخليج العربي منذ نجاحهم الجغرافي في اكتشاف رأس الرجاء الصالح والدوران حوله والوصول إلى مناهل الشرق لأول مرة عبر ذلك الطريق إذ اكتشف بارتليو نيبازينة ١٤٨٨ ذلك الرأس ثم دار حوله فاسكوديكاما سنة ١٤٩٧ حيث الساحل الأفريقي الشرقي (مدغشقر) منطلق سنة ١٤٩٨ إلى كاليكوت في الهند بارشاد الملاح العربي أحمد بن ماجد الملقب بـ(أسد البحر) حيث وصلها سنة ١٤٩٩ وعاد في نفس السنة إلى لشبونة

---

(١) عبد الامير محمد امين ، دور القبائل العربية في صد التوسع الاوربي في الخليج العربي محاضرة القيت في المؤتمر الدولي للتاريخ ، آذار ١٩٧٣

(٢) وجه العثمانيون بعد استيلائهم على مصر حملات عديدة إلى منطقة الخليج العربي لمقاومة البرتغاليين .وكان حاكم كوجرات وامبراطور دلهي المسلم وحاكم القطيف العربي قد استنجدوا بالسلطان سليمان القانوني الذي امر واليه في مصر سليمان باشا بالتوجه نحو منطقة الخليج العربي لطرد البرتغاليين ،وبالفعل استطاعت الحملة تحرير سواحل عدن واليمن ومسقط واستولت على البحرين والاحساء والقطيف واصبحت هذه المناطق عثمانية منذ سنة ١٥٥٥ بينما بقيت المراكز الاخرى كهرمز تحت النفوذ البرتغالي ،الا أن المجهودات العثمانيه لم تستمر .للتفاصيل انظر : خالد العزي ،الخليج العربي ماضيه وحاضره ،بغداد ١٩٧٢ ،ص ٣٩.

(٣) عن تفاصيل المعارك البحرية بين العثمانين والبرتغاليين انظر : اسماعيل سرهنك حقائق الأخبار عن دول البحار ، (القاهرة ، ١٣١٢ هـ) ج ١ ،ص ٥٤٧ – ٥٥٠.
وكذلك لوريمون ،دليل الخليج ، ١ج ، ص٥ – ٦ .

(٤) انظر :صالح محمد العابد ،دور القواسم في الخليج العربي ،١٨٤٧ – ١٨٢٠ .بغداد ١٩٧٦ ص٢٠

بسفينة واحدة من أصل ثلاث وقد غطت أرباح التوابل المحمولة بها نفقات الحملة بما يربو على الستين ضعفا .

وقد عاد المكتشف البرتغالي على نفس الطريق عام ١٥٠٢م ومعه قوة بحرية من اجل اقامة مراكز حربية بين افريقيا والهند ، وللقضاء على التجارة العربية في البحر الاحمر والمحيط الهندي والخليج العربي ، وتولى (الفونسو البوكيرك) قيادة البحرية البرتغالية التي قامت باحراق الموانيء العربية التي مروا بها ، واغراق السفن التجارية ، تمهيدا لاقامة امبراطورية برتغالية في الشرق (١) . وعمد الاسطول البرتغالي إلى التغلغل في البحر الاحمر والخليج العربي تمهيدا لغزو الخليج فاحتل الاسطول البرتغالي جزيرة سقطرة. وجزيرة قشم وسد منافذ البحر الاحمر (٢) بوجه التجار العرب وسفنهم. وفي عام ١٥٠٦م هاجم الاسطول البرتغالي جزيرة هرمز في مضيق هرمز واحتلها ثم اتجه إلى مسقط ودمرها بعد مقاومة عنيفة من سكانها وتابع البرتغاليون زحفهم على سواحل عمان فاستولوا على مدنها. كما هاجموا البحرين واستولوا عليها واخذوا يبنون القلاع على سواحلها (٣).

وقد ظل البرتغاليون في البحرين قرنا كاملا حتى اخرجهم العرب والفرس منها سنة ١٦٣٢ ثم تحررت من النفوذ الفارسي عام ١٧٨٣ (٤) .

بدأ النفوذ البرتغالي يضعف ويتدهور منذ اوائل القرن السابع عشر بسبب استمرار المقاومة العربية للنفوذ البرتغالي ، فقاموا بسلسلة من الثورات والانتفاضات الوطنية

---

(١) محمود بهجت ستان : البحرين درة الخليج العربي ، دار الفكر بدمشق ١٩٦٢،

(٢) طه : الصراع على الخليج ص٢٨ ،

(٣) العزى : الخليج العربي ص٢٣٦ .

(٤) طه : نفس المصدر السابق ص٣٣.

التي اودت احداها في عام ١٥٢٨ م بقتل اخي نائب الملك البرتغالي بالهند في البحرين واضطر البرتغاليون الى الجلاء عن بعض مناطق الخليج (١).لقد شهدت الفترة بين ١٦٤٠ – ١٦٤٩ ثورات عنيفة ضد الوجود البرتغالي في الخليج بسبب تعصبهم الديني وقساوتهم إلى جانب جشع حكامهم وموظفيهم مما جعلهم مكروهين بين سكان الخليج (٢) . فاستولى سلطان عثمان على صحار وفي خلال الفترة بين١٦٤٨ – ١٦٤٩م حاصر العرب مسقط واستولوا عليها،وفي عام ١٦٥٠م فقد البرتغاليون جميع مراكزهم في عمان بسبب تنامي روح المقاومة العربية لدى العرب في عهد اليعاربة (٣) هذا بالاضافة إلى ظهور قوى اوربية اخرى منافسة للبرتغاليين وهم الانكليز والهولنديون ولكي يحتفظ البرتغاليون بقبضتهم على التجارة حاولوا منع السفن الاجنبية من الملاحة في هذه الجهات دون الحصول على اذن مرور من السلطات البرتغالية ،وقد اثار هذا الاجراء معارضة شديدة بين وكلاء شركة الهند الشرقية البريطانية التي أسست في ٣١/كانون الاول/١٦٠٠م الذين عولوا على انتهاز اى فرصة مواتية لسلب سيادة البرتغاليين على الخليج فاصطدم الانكليز بهم وحاول الهولنديون والفرس اخراجهم من هرمز . (٤) وزال نفوذهم نهائيا في عام ١٦٨٩ م من منطقة الخليج العربي (٥) .

برزت هولندا على المسرح الاستعماري بعد قيام اسبانيا باغلاق موانيها بوجه التجار الهولنديين الذين اخذوا يبحثون بانفسهم عن طريق جديد يوصلهم

(١) نوفل : الخليج العربي ص٢٢ .

(٢) Abdul Amir Amine, British interist in the Persian Gulf, P.2.

(٣) العابد : دور القواسم في الخليج العربي ص٢٣ .

(٤) Kalley , J . B,Britain and the Persian Gulf P.8.

(٥) الداود : الخليج العربي ص١٧.

إلى الشرق فارسلوا عدة بعثات استكشافية كان اهمها البعثة التي قادها (بان فان لتشوتن) الذي وصل الهند عام ١٥٨٣م وتبعها بعثات استكشافية اخرى في الفترة الواقعة بين ١٥٨٩ — ١٦١٤م استطاعت ان تصل إلى الهند وجزر الهند الشرقية والملايو واندونيسيا واستراليا (١) . ولضمان السيطرة على مناطق نفوذهم في جنوب شرقي اسيا والهند واستولوا على بعض المواقع في الخليج العربي وركزوا نشاطهم الاستعماري في ايران فاستطاعوا عام ١٦٤٥م من الحصول على امتياز تصدير الحرير من ايران دون ضرائب ، وواصلوا نفوذهم في الخليج وبلغ ذروته في عام ١٦٤٩م حين حصلوا من السلطان العثماني على ترخيص بالمتاجرة مع الموانيء العربية الخاضعة للسلطان العثماني، مما أدى إلى تهديد المصالح البريطانية وقيام سلسلة من الحروب بين الهولنديين والانكليز ١٦٥٤ — ١٦٦٥ م انتهت بعقد الصلح بينهما (٢) لم يؤد ابعاد البرتغاليين عن منطقة الخليج إلى تخلص الانكليز من المنافسة السياسية والتجارية لانه مع تدهور قوة البرتغاليين كانت قوة الهولنديين تتزايد سريعاً وقد عمد الهولنديون إلى اتباع اساليب الرشوة ، ورفع اسعار السلع لدى فارس لزحزحة الانكليز من منطقة الخليج ، وبدلا من اتباع سياسة التعاون والتحالف مع الانكليز سعى الهولنديون للحصول وحدهم على الافضلية التي استمرت حتى نهاية القرن السابع عشر عندما اخذ النفوذ البريطاني ينمو على حساب الهولنديين ، ثم لم يلبث ان تحول هذه التنافس إلى صراع مسلح انتهى بتحطيم الاساطيل الهولندية على يد الفرنسيين فجاء ذلك ضربة قاضية لتجارتهم في الخليج ، ومن ثم فقدوا نفوذهم نهائيا في منتصف القرن الثامن عشر (٣) .

---

(١) طه : الصراع على الخليج ص٤١ وما بعدها .

(٢) العزي : الخليج العربي ص٣٠.

(٣) المصدر السابق : ص٢٩.

وكان للتحالف البريطاني – الايراني دور كبير ، في اضعاف النفوذ الهولندي في الخليج حيث كرهت السلطات الايرانية اساليب الهولنديين الدبلوماسية والعسكرية(١) واضطر الهولنديون إلى الانسحاب من بندر عباس عام ١٧٣٠م ومن البصرة عام ١٧٥٢ م وفي بقية اجزاء الخليج العربي وبلاد ايران عام ١٧٦٥ م (٢) وبذلك خلا البحر للنفوذ البريطاني في مناطق الخليج العربي .

يعود اتصال الانكليز بالخليج العربي إلى عام ١٥٨٣ م عندما ارسلت اربعة من المغامرين قاموا برحلة من طرابلس على البحر المتوسط ، وانحدروا في نهر الفرات حتّى مدينة الفلوجة ، ومنها انتقلوا إلى بغداد فالبصرة ، ثم دخلوا الخليج العربي حتّى وصلوا جزيرة هرمز وبعد هذه المحاولة ازداد اهتمام الانكليز بالشرق ، فأسست (شركة الهند الشرقية البريطانية) في ٣١/ كانون الاول / عام ١٦٠٠ م ، ومن هناك بدأ الاخطبوط الانكليزي يمد اصابعه إلى المشيخات العربية والعراق وايران المطلة على الخليج (٣) . واخذت شركة الهند الشرقية تنشط ليس في عملية نقل التجارة بين الهند واوربا وانما اخذت تؤسس مراكز تجارية في الهند وايران وكان هدفها من الوصول إلى الخليج هو بيع الاصواف الانكليزية في ايران مقابل الحصول على الحرير(٤). اضافة إلى قيامها بتجارة التوابل والاصباغ والنشاء (٥) .

وفي نهاية القرن الثامن عشر ، وفي وقت اتساع مناطق النفوذ الروسي والفرنسي ارسلت بريطانيا عام ١٧٩٩م قوة بحرية احتلت بها جزيرة بريم في مضيق باب

---

(١) الداود : الخليج العربي ص١٧.
(٢) العزي : الخليج في ماضيه وحاضره ص٢٩.
(٣) طه : الصراع على الخليج ص٥٣.
(٤) Amin , Op , Cit , p, 4.
(٥) طه : ص٥٥.

المندب ، واتخذتها بريطانية قاعدة لها للوثوب على جنوب الجزيرة العربية لتأمين طرق مواصلاتها إلى الهند وتتبع ذلك محاولات عديدة لاحتلال عدن فاستطاعت عام ١٨٣٩ م من احتلالها وتعيين مقيم بريطاني عسكري فيها (١) . لاهميتها السّتراتيجية والتجارية من وجهة النظر البريطانية ولموقعها المهم في الزاوية الجنوبية الغربية من الجزيرة العربية على خليج عدن(٢) فلجأ الاستعمار البريطاني لتحقيق اغراضه في السيطرة على الخليج إلى ترسيخ التجزئة بعد ان قسمه إلى كيانات سياسية ضعيفة وإلى تغذية وتشجيع الحروب القبلية والخلافات العائلية بين حكام هذه الاجزاء وعمد إلى فرض المعاهدات الثنائية والجماعية التي مكنته من تثبيت هذا الواقع المجزأ ولكي يحكم الانكليز قبضتهم على الخليج اتخذوا لانفسهم شعارات ومبادىء انسانية مزيفة كرغبتهم في القضاء على القرصنة ومحاربة تجار الرقيق . وكانت تلك الشعارات سبيلا سلكته للوصول لفرض حمايتها على السفن التجارية وتفتيشها (٣) والاستيلاء على بعضها .

اما فرنسا فقد دخلت ميدان الصراع الاستعماري في الخليج العربي والهند لعوامل اقتصادية وسياسية وثقافية فمنذ سنة ١٦٢٦ م حصلت فرنسا من ايران على نفس الحقوق والامتيازات الممنوحة للدول الاوربية في ايران وفي عام ١٧٥٠ انشأ الفرنسيون وكالة تجارية في البصرة تحولت عام ١٧٦٥م إلى قنصلية (٤). واخذ بعض العاملين في القنصلية يقومون بالاضافة إلى اعمالهم القنصلية ببعض النشاطات التبشيرية واعمال البحث والتنقيب عن الاثار (٥).

وظهر النشاط الفرنسي في عمان في اواخر القرن السابع عشر الا أن النشاط الفرنسي لم يتسم بالثبات لان ميدان الصراع الحربي بين بريطانيا وفرنسا كان

(١) نوفل : الخليج العربي ص٣١.
(٢) الداود : الخليج العربي والعلاقات الدولية ص٥٨.
(٣) بدر الدين عباس : الخليج العربي والمطامع الاستعمارية: بحث مقدم للمؤتمر التاريخي ببغداد عام ١٩٧٣.
(٤) طه : الصراع على الخليج ص٥٦.
(٥) لوريمر : دليل الخليج ج١ ص٢٦٧.

في البحار الهندية ففي خلال حرب السنوات السبع (١٧٥٦ – ١٧٦٣ م) نشطت السفن الحربية في توجيه الضربات للسفن البريطانية في مياه الخليج العربي ، لانه يمثل موقفا مركزيا في الطريق إلى الهند فقد اصبحت اهميته الستراتيجية الخطيرة محط اهتمام متزايد من قبل بريطانيا لغايات دفاعية واقتصادية في حين كانت المخططات الفرنسية ترمي إلى توجيه ضربة مميتة لبريطانية بانتزاع الهند منها (١) . وقد عبر عن ذلك الباحث الفرنسي في الشؤون العربية (جان جاك بيربي)بقوله : (وهذا الشرق العجيب الذي كثر عنه الحديث عن السنة الخبراء انما ينحصر اغلبه في الخليج العربي بصورة خاصة ، لان الخليج هو قلب الشرق الاوسط جغرافيا وبابه السحري وصندوقه الذهبي الرائع الذي يسيل له اللعاب) (٢) وقد مثلت الفترة النابليونية (١٧٩٨ – ١٨١٠ م) قمة الصراع البريطاني – الفرنسي لتحقيق التفوق الذي تسعى اليه الدولتان في الخليج وغيره فقد تركز النشاط البريطاني لضرب المخططات الفرنسية الرامية إلى الوثوب على الهند ، وكان النفوذ الفرنسي واضحا في عمان بعد ان حصلوا على موافقة امام عمان بانشاء مركز فرنسي في مسقط عام ١٧٩٩ م وخوفا من ان يمتد النفوذ الفرنسي إلى اجزاء اخرى من الخليج فقد اجرت الحكومة الهند البريطانية اتصالات مع امام مسقط ، وشاه ايران لوضع اتفاقية سياسية كان الغرض منها ابعاد النفوذ الفرنسي عن اراضيها (٣) . ومن جانب ايران فقد حققت بريطانية اهدافها في اقناع الشاه بان يعد للوقوف إلى جانب بريطانية في حالة وقوع تحرك عسكري فرنسي باتجاه الخليج (٤) . وفي الوقت نفسه كان نابليون قد اعد خطه اخرى للوصول الى الشرق عن طريق الفرات إلى العراق والانحدار نحو البصرة وتحصينها واتخاذها مقرا لجيوشه ولتدابيره السياسية والعسكرية في الخليج ، ولتنفيذ هذه الخطة قام بمفاوضة الاتراك وشاه ايران ولتفادي نجاح المخطط الفرنسي

---

(١) العابد : دور القواسم في الخليج العربي ص١١٥.
(٢) جان جاك بيربي : الخليج العربي ص١٩٨.
(٣) العابد : دور القواسم في الخليج العربي ١٩٨.
(٤) Dkumer Ravider,India and Persaian Gulf,1858-1907 Indie 1965 P. 12.

شرعت بريطانية باحتلال عدن لانها المفتاح الجنوبي لمدخل البحر الاحمر (١). واجتازت نهر الفرات إلى الخليج العربي وعقدت معاهدات صداقة وتحالف مع امام مسقط .

وبعد زوال نابليون من المسرح السياسي استمر الصراع بين فرنسا وانكلترة واشتد في مدينة مسقط حتى توصل الطرفان إلى اتفاق في ١٨٦٢ م والذي تعهدتا باحترام استقلال مسقط ، واستطاعت بريطانية عام ١٩٠٠ م من ايجاد نوع من العلاقة الحسنة مع امير مسقط وتمت السيطرة غير المباشرة عليها (٢) . اما بالنسبة لنشاط فرنسا في العراق، فقد ظهرت بداياته الاولى منذ منتصف القرن السابع عشر . وتعتبر المصالح الفرنسية اقدم المصالح الاجنبية في العراق. وكانت تشتمل على مصالح سياسية ودينية واثرية . فاما المصالح السياسية فقد سعت فرنسا إلى تأسيس نفوذ لها في العراق لاسيما في القسم الجنوبي منه . وحاولت الحد من تصاعد النفوذ البريطاني في العراق وفي الخليج العربي .

وكان لفرنسا منذ مطلع القرن التاسع عشر مركز قنصلي في كل من بغداد والبصرة والموصل .

اما المصالح الثقافية والعربية والاثرية فقد تناولت نشر الثقافة الفرنسية في العراق عن طريق المدارس التبشيرية. كما اشتملت على اجراء تنقيبات في ارجاء مختلفة من العراق (٣).

استطاع عرب الخليج ان يستعيدوا مجدهم البحري سواء في مسقط وعمان او في البحرين وقطر والكويت في الوقت الذي كان الانكليز قد ركزوا جهودهم في مقاومة نابليون في اوربا وتصفية مشاكلهم في الهند ، ولم تتحقق للانكليز السيطرة على الخليج الا في النصف الثاني من القرن التاسع عشر (٤) . اما روسيا فقد اخذت تبدي اهتماماً واضحا بمنطقة الخليج العربي من اواخر العقد التاسع من القرن التاسع عشر . لذلك اعتقد الانكليز بأن الخطر

---

(١) طه : الصراع على الخليج ص٥٩.

(٢) الجنابي : من تاريخ الخليج العربي ص١٥.

(٣) للتفاصيل انظر : جاسم محمد حسن ، العراق في العهد الحميري ١٨٧٦ - ١٩٠٩ ، رسالة ماجستير قدمت لجامعة بغداد ١٩٧٦ ، ص ص٣٤ — ٣٥ .

(٤) الداؤد : الخليج العربي والعلاقات الدولية ص١٨

الروسي المباشر على منطقة الخليج العربي انما يأتي من ايران حيث كانت روسيا قد بسطت نفوذها بشكل دائمي على شمال ايران ، فقد تواردت للانكليز معلومات عن وجود عملاء روس في الكويت وبعثة روسية علمية (١) .

لقد سعت روسيا إلى خلق نوع من الوفاق مع ايران لايجاد منفذ لها يمر في فارس إلى الخليج العربي مستفيدة من (معاهدة كلستان) ١٨١٣ م والتي انتزعت روسيا بموجبها بعض المناطق في شمال ايران ، وكانت روسيا منذ عهد بطرس الأكبر ترسم سياستها للوصول إلى الخليج عن طريق ايران والعراق . لقد اتخذ النشاط الروسي في منطقة الخليج العربي خلال العقدين الاخيرين من القرن التاسع عشر اشكالا متعددة بارسال العديد من الخبراء الروس إلى منطقة الخليج للتعرف على اصلح المناطق لكي تتخذها قواعد لارتكاز النفوذ الروسي فيها والسعي للحصول على امتياز مد السكك الحديدية وبتنفيذ بعض مشاريع هذه السكك التي تهدف الربط بين روسيا والخليج العربي عبر الاراضي الايرانية ، وكذلك قيام بعض قطع الاسطول الروسي بالابحار إلى منطقة الخليج (٢) . ففي سنة ١٨٨٧ م ارسلت روسيا احد الضباط لتفقد منطقة الخليج العربي وفي ربيع عام ١٨٩٥ م اوفدت ضابطاً اخر إلى هرمز تمهيداً لاتخاذها مخزناً روسياً في منطقة الخليج (٣) . واقلقت تلك المحاولات الروسية الاوساط البريطانية ، فاعلنت بريطانية في سنة ١٨٩٦ م بان اي تقدم لروسيا في منطقة الخليج سوف يقابل بمهاجمة بريطانية منطقة عربستان لمنع تقدم روسيا إلى الخليج والمحيط الهندي ، واعلنت روسيا عن عدم اعترافها باي افضلية لبريطانيا في الخليج وان منطقة الخليج يجب ان تبقى ذات صبغة تجارية دولية . (٤) وإلى شيء من هذا القبيل يشير اللورد كرزن (٥) حيث يقول ان انشاء ميناء روسي على الخليج

(١) المصدر نفسه ص٢٧ .
(٢) بدرالدين عباس الخليج العربي والاستعمار ص٧ .
(٣) لوريمر : دليل الخليج ج١ص٤٧٧ .
(٤) الجنابي : من تاريخ الخليج العربي ص١٨ .
(٥) العقاد : الاستعمار في الخليج العربي .

هو حلم الروس ولكن مثل هذا الميناء سيكون عنصر الاضطراب في الخليج وقت السلم وسيفقد توازن القوى الذي وضعته بريطانية بعد مجهود شاق كما انه سيلحق الضرر بتجارتنا ...) .

وكان الانكليز يفكرون في حالة استخدام لاحد موانيء الخليج سيساعدها على الاتصال بامراء الخليج واستمالتهم إلى جانبها ، وقد حدث ذلك فعلا حين حاول الروس الاتصال بالكويت وامير نجد عام ١٩٠٢ م (١) على ان عاملا جديدا ظهر على مسرح الصراع في الخليج ودفع روسيا وبريطانيا إلى ايقاف الصراع بينهما هو بروز النفوذ الالماني الذي اخذ يشق طريقه نحو العراق والخليج العربي . وقد وجدت بريطانية وروسيا ان مصالحهما تقضي بالاتفاق على تقسيم ايران وقد تم ذلك في ١٢ / ايلول / ١٩٠٧ بالمذكرة التي تقدموا بها إلى ايران وسويت بمقتضاها الخلافات بينهما ، اذ قسمت ايران إلى ثلاثة مناطق تصبح الشمالية منها منطقة روسية في حين تخضع المنطقة الجنوبية منها للنفوذ البريطاني على الا تحاول اي من الدولتين الحصول على اية اتفاقات سياسية او تجارية في مناطق نفوذ الدول الاخرى واما المنطقة الثالثة (الوسطى) فتصبح محايدة وتشترك الدولتان في تقدير مايتعلق بشأنها(٢) وبمقتضى هذا الاتفاق ابعدت انكلترة الخطر الروسي عن الخليج اذا لم يبق لروسيا طريق للوصول اليها (٣).

ولم تظهر رغبة الاتحاد السوفيتي في الحصول على نفوذ لها في الخليج العربي الا في الفترة بين ١٩٣٩ — ١٩٤١ م حين اصر مولوتوف وزير الخارجية السوفيتي في محادثاته السرية مع روبنتروب وزير الخارجية الالمانية ان تكون جميع المناطق إلى الجنوب من باكو في اتجاه الخليج العربي مناطق نفوذ روسية،

(١) الجنابي : من تاريخ الخليج العربي ص١٩.
(٢) العقاد : التيارات السياسية في الخليج ص٢٢ والتي بعدها ، وكذلك بدر الدين عباس الخصوصي : الخليج العربي والاستعمار ص ٢١
(٣) بدر الدين عباس : الخليج العربي والاستعمار ص١٢.

ولكن الاحداث السياسية العالمية واعلان هتلر الحرب على الاتحاد السوفيتي ترك موضوع الخليج العربي وثيقة تاريخية فقط (١) .

اما المانيا فقد وجدت نفسها انها تأخرت كثيرا عن الدول الاوربية في ميدان الاستعمار ولذلك اندفعت بقوة كبيرة في منافسة الدول الاوربية في استعمار افريقيا واسيا، فقد ركزت اهتمامها في آسيا بالدرجة الاولى على الدول العثمانية للاستحواذ على مافيها من اسواق وخامات واستثمار رؤوس الاموال الالمانية في مناطق غير متطورة من الناحية الاقتصادية، وقد هيأ التدهور الاقتصادي والارباك المالي في تركية مجالا واسعا امام المموليين الالمان للقيام بمدسكك الحديد وانشاء المصارف ومد خطوط البرق ففي سنة ١٨٨٨ م نجح البنك الالماني في التوقيع على اتفاقية مع تركية لمد سكك حديد حيدر باشا - انقرة ، وكان من المقرر أن يمتد هذا الخط إلى ديار بكر والموصل وبغداد فالخليج العربي .

وفي عام ١٨٩٨ م توغل الراس المال الالماني في الولايات العثمانية فتأسس عام ١٨٩٩ م البنك الالماني الفلسطيني في القدس وفتحوا له فروعا في غزة وحيفا ويافا والناصرة وطرابلس وبيروت ودمشق وحلب(٢). وقد تراءى لدى السلطان العثماني بأن المانيا هي الدولة الوحيدة من دول اوربا الكبرى التي لا تهدف تقسيم الامبراطورية العثمانية بل على استعداد لانعاشها اقتصاديا (٣) .

لقد اثار حصول الالمان على امتياز سكة حديد بغداد موجة من القلق في الاوساط السياسية في بريطانية وفرنسا وروسيا . واحسوا بالخطر على مصالحهم في الخليج لان خطورة المشروع تكمن ليس في وصول الخط إلى الخليج العربي وانما سيتبعه تعاظم النفوذ الالماني الاقتصادي والسياسي والعسكري في المنطقة (٤).

(١) الداود : الخليج العربي والعلاقات الدولية ص١٥٠ .
(٢) طه : الصراع على الخليج ص٨٨ - ٨٩.
(٣) الداود : الخليج العربي ص١٦٥.
(٤) طه : الصراع على الخليج ص٩١.

فقد كانت السياسة البريطانية في هذه الفترة تقوم على الحفاظ على كيان الدولة العثمانية خوفا من وقوعها بيد دولة اوربية قوية ، وذلك نظرا للاهمية الستراتيجية التي تمتاز بها بلدان تركية الاسيوية بالنسبة للتجارة البريطانية المارة بالعراق والخليج العربي ، كما تهدف السياسة البريطانية كذلك إلى منع روسيا من الوصول الى المضايق والظهور في مياه البحر المتوسط (١) . وقد حاولت بريطانيا حل قضية سكة حديد بغداد بعد ان فشلت في منعها بعد الاتفاق مع السلطان العثماني على مركز الكويت في الخليج العربي ، وتوصل الطرفان في اتفاق ٢٩ / تموز / ١٩١٣ م على الاعتراف بالكويت جزءاً من الدولة العثمانية واعترف السلطان العثماني بعدم التدخل في الشؤون الداخلية للكويت وتعهدت بريطانية باعلان الحماية على الكويت واعطي لامير الكويت صلاحيات مطلقة في الشؤون الداخلية للكويت (٢) وفي الخامس عشر من حزيران سنة ١٩١٤ م اتصلت انكلترا سرا بالمانيا واتفقت معها على اقتسام مناطق النفوذ في الامبراطورية العثمانية تعهدت بريطانية بموجبها بمساندة مشروع السكة وان يتفاوض الطرفان حول ايصاله إلى الخليج العربي وتهدد الالمان بالكف عن انشاء ميناء لهم على الخليج العربي (٣) . اما روسيا فقد ابدت معارضتها للمشروع لأن آمالها في التوسع على حساب الامبراطورية العثمانية ولذلك سارع السفير الروسي في اسطنبول بابلاغ السلطان العثماني بان حكومته تعتبر الخط تهديدا لممتلكاتها وكانت المانيا قد استطاعت في التاسع من آب سنة ١٩١١ م ان تعقد اتفاقاً مع روسيا تعهدت فيه روسيا بالكف عن مقاومة مشروع سكة حديد بغداد مقابل تعهد المانيا بعدم التدخل في شؤون ايران وعدم المساس بامتيازات روسيا في ايران (٤) . وفرنسا فقد توقفت عن

(1) Britain and The foreign state papers, 1877 – 8 , London1885 p· 1314
(٢) الداود : الخليج العربي ص٢٠٤.
(٣) طه : الصراع على الخليج ص٩٤.
(٤) المصدر السابق ص٩٣.

معارضة المشروع بعد ان اشتركت فيه وبعد ان منحها السلطان العثماني امتيازات مماثلة في سوريا وفلسطين (١).

وإلى جانب مشروع سكة حديد بغداد اخذت المانيا تسعى لايجاد علائق مختلفة مع اقطار الخليج العربي فافتتحت قنصليات في البصرة وابو شهر واخذت المؤسسات التجارية والمالية تقيم علاقات تجارية واقتصادية وتؤسس شركات النقل البحري بين الموانيء الاوربية وموانيء الخليج العربي (٢) .

وكانت المانيا اسبق الدول الاوربية في البحث عن النفط في ولايتي بغداد والموصل العثمانيتين فقد حصلت على امتياز التنقيب عن النفط فيهما منذ عام ١٨٩٦ م وتبعها كل من بريطانية وامريكا واصبح البحث عن النفط مرحلة جديدة من مراحل الصراع على الخليج اذ اتجه الصراع في اوائل القرن العشرين للسيطرة على منابع النفط وليس احتكار التجارة وطرق المواصلات (٣) .

موقف عرب الخليج من الغزو الاستعماري :

كان الوضع في الخليج العربي في أبان الغزو الاستعماري على اسوأ مايكون بالنسبة للعرب والسيادة العربية وسبب ذلك يعود إلى ان المشيخات والامارات العربية في الخليج كانت متنافرة متناحرة فيما بينها تكيد الواحدة منها للاخرى اذ تتحالف مع القوى الاجنبية. فتحالف بعض الامارات العربية مع البرتغاليين ضد الامارات الاخرى كماحالف غيرهم الانكليز والفرس والفرنسيين والهولنديين ولم تستطع هذه الامارات والمشيخات العربية ان تتوحد في دولة واحدة، ولم تكن لديها قوة بحرية موحدة تستطيع مواجهة الاساطيل البحرية الاوربية (٤).

(١) الداود : الخليج العربي ص٢٠٢.
(٢) العزي : الخليج العربي ص٣٦.
(٣) طه : الصراع على الخليج ص١٠٠.
(٤) المصدر السابق ص٦١.

ومع هذا لم يقف الشعب العربي في الخليج من الاستعمار الاوربي موقف المتفرج او موقف اليأس والخضوع فقد قاوم الاستعمار الاوربي بكل قوة وضراوة وكثرت في الخليج العربي فعاليات القبائل العربية في بعض المناطق مثل بوشير وبندر ريق وخارج. وقد ظهر في هذه الاماكن رئيسان عربيان بامرة كل منهما اسطول قوي . وهذان الرئيسان هما مير مهنا حاكم جزيرة خارج وميناء بندر ريق القريب منها وشيخ سلمان رئيس قبيلة كعب . ومنذ اوائل العقد السادس من القرن الثامن عشر ، اصطدم مير مهنا بالانكليز . (١)

اما في الفترة بين ١٧٣٧ — ١٧٦٧ فقد تزعمت المقاومة العربية قبائل بني كعب. (٢) التي كانت تقيم في عربستان والضفة الغربية لشط العرب(٣).

وقد توسعت هذه القبائل في مناطق الايرانيين يدعون حق السيادة عليها . كما اصطدمت بالقوات الانكليزية مرات عديدة الى درجة ان الانكليز كانو يحاولون انهاء القتال مع «كعب» باي ثمن . وقد اعترف الانكليز ان خسائرهم مع كعب تفوق فوائدهم ومنافعهم التجارية في المنطقة . (٤)

وخلال النصف الثاني من القرن الثامن عشر بظهور القبائل العربية التي كانت مسيطرة على سواحل الكويت الشمالية وقطر والبحرين وهي قبائل شديدة البأس مقاتلة من بينها قبيلة القواسم (٥) التي تميزت بالصدام مع الدولة الاستعمارية بشكل دائم وكانت لهم سفن عديدة خاضت معارك كبيرة مع القوات البحرية البريطانية على سواحل الخليج العربي (٦) ومما زاد في قوتهم

---

(١) للتفاصيل انظر : عبد الامير محمد امين، القوة البحرية في الخليج العربي ص ٣٧ وما بعدها

(٢) الداود : الخليج العربي ص١٩.

(٣) العزي : الخليج العربي ص٢١ .

(٤) عبد الامير محمد امين : القوة البحرية في الخليج العربي ص ٤٩ — ٥٠

(٥) عن القواسم انظر بالتفصيل : صالح محمد العابد ، دور القواسم في الخليج العربي ١٧٤٧ — ١٨٢٠ ، (بغداد ١٩٧٦) .

(٦) العزي: الخليج العربي ص٢١.

تحالفهم مع السعوديين فاخذوا يهاجمون السفن الانكليزية وغيرها فذاع صيتهم وصيت زعيمهم سلطان بن صقر الاول واتخذ الشارقة عاصمة له (١) .

ولقد مثلت قوة القواسم البحرية ونشاطاتها الخليجية وضعا مربكا للمخططات البريطانية وتهديدا مباشرا لامن مواصلاتها البحرية . ولهذا فقد توجه اهتمام بريطانيا في الشرق من خلال شركة الهند الشرقية الانكليزية وبشكل متزايد منذ ١٨٠٥ وحتى ١٨١٩ لاخضاع هذه القوة العربية وتجريدها من سلاحها البحرى (٢) . ولقد عبر عن ذلك جاك بيربي بقوله : ان القواسم نكدوا عيش بريطانية طيلة قرن من الزمان (٣) ... كما اشار إلى دور المقاومة العربية للقبائل الاخرى في الخليج بقوله : انهم عرب اشداء مقاتلون بواسل ولطالما ذادوا عن حياضهم وقاوموا الغزاة الذين حاولوا اغتصاب البلدان ايرانيين كانوا ام برتغاليين ام هولنديين ام فرنسيين ام انكليز (٤) .

استمرت المقاومة العربية في عمان ومسقط ضد الاسطول البريطاني واستبسل عرب الخليج في مقاومة الوجود الاستعماري وممارسة سيادتهم على بلادهم في عمان والساحل العماني والبحرين وظلت السيادة العربية على المنطقة حتى عام ١٨٠٢ م عندما دب الخلاف بين سعيد بن سلطان امير مسقط وسلطان بن صقر مما مكن الانكليز عام ١٨٠٦ م من القضاء على الاسطول العربي (٥).

حقيقة استطاعت بريطانيا منذ عام ١٨٣٩ من عقد هدنة مع روسيا ، وشيوخ القبائل العربية في الخليج والتي اطلق عليها « الهدنة البحرية » وكانت هذه بداية الهيمنة البريطانية التي يقدر لها ان تعيش حوالي قرن ونصف من الزمن والتي قدر ان ترى ايامها الاخيرة (٦) . ولاشك ان المنازعات الداخلية بين القبائل

---

(١) طه : الصراع على الخليج ص٦٢ .
(٢) العابد : المصدر السابق ص٦ .
(٣) طه : الصراع على الخليج ص٦٦.
(٤) طعمة : الخليج العربي في الستراتيجيات الاستعمارية ص١٠
(٥) طعمة : الخليج العربي ص١٦.
(٦) للتفاصيل انظر عبدالامير محمد امين : القوة البحرية في الخليج العربي من القرن الثامن عشر (بغداد ١٩٦٦) ص ٤٠-٥١

العربية هي التي اضعفت القوى العربية المناوئة للنفوذ البريطاني وجعلتها تستسلم للسياسة التي فرضتها بريطانيا عليها ولقد انتهجت بريطانيا وصولا إلى احكام السيطرة على الخليج والجزيرة العربية سياسة ذات وجهين : الاول قائم على استغلال النعرات الطائفية والخلافات العشائرية والثاني : استخدام القوة العسكرية لقمع الحركات الثورية والتصدي للانظمة المعادية للوجود الامبريالي(١)

الاستعمار الامريكي في الخليج العربي :

ظلت بريطانيا تعتبر نفسها حتى الحرب العالمية الثانية مسؤولة وحدها عن الدفاع عن الخليج العربي ، غير ان تلك الحروب لم تلبث ان خلقت وضعا جديدا فقد انتهى ذلك العهد الذي كانت فيه بريطانية تعتبر الخليج منطقة نفوذها الخاص بسبب تزايد الوجود الامريكي في الخليج العربي .

لقد بدأ التحرك الامريكي في منطقة الخليج العربي بنفس اسلوب التحرك البريطاني فقد اخذت امريكا في سنة ١٨٣٣ م على عقد اتفاقية مع حاكم مسقط تحت ستار المودة والتجارة كما جاء في بنود الاتفاق (ان تمنح حق المرور والاقامة لرعايا الولايات المتحدة في مسقط وتبيح ارسال الممثلين الامريكيين التجاريين وان تمنح مسقط لامريكا حق تعيين قنصل في البلاد الخاضعة لسلطان مسقط وذلك كمقدمة لممارسة استعمارها لاقطار الخليج العربي (٢).

الا أن النشاط الامريكي مع هذا لم يدخل منطقة الخليج الا في اوائل القرن الحالي على شكل بعثات تبشيرية خلال السنوات ١٨٩١ – ١٨٩٣ – ١٩١١ أو على شكل حملات استكشافية واخذت تزاحم الانكليز في اعمال البحث والتنقيب عن النفط باسم (سياسة الباب المفتوح) في الشؤون الاقتصادية ومن ثم امكن لبعض الشركات الامريكية في ظل تلك السياسة ان تحصل على امتيازات بترولية خاصة بها او مشاركة الشركات العالمية الاخرى المستغلة للنفط ، هذا

---

(٢) منذر البكري واخرون : المصدر السابق ص٣٣.

(٢) طعمة : الخليج العربي ص١١.

لم يمنع امريكا من الحرص على التسليم لبريطانية بالتفوق في الشؤون السياسية (١) واتجهت الولايات المتحدة بكل ثقلها إلى ان تحل محل النفوذ البريطاني ،وكان اول صورة واضحة لهذا الصراع توقيع اتفاقية ارامكو (شركة النفطالعربية الامريكية) في السعودية في ٣٠ / كانون اول / ١٩٥٠ م التي سيطرت بموجبها الاحتكارات الامريكية على حقول السعودية الغنية بالنفط ، وطردت النفوذ البريطاني نهائيا على ان هذا الصراع اتضح اكثر بعد تأميم النفط الايراني في ١٢ / ايار / ١٩٥١ م فالدكتور مصدق لقي تشجيعاً لعملية التأميم من لدن الدوائر الامريكية التي ماكانت تتصور ان تطور مسالةالنفط في ايران لدرجة التاميم الكامل ، ومنذ ذلك التاريخ اسفرت المصالح الامريكية عن رغبتها في انتزاع النفوذ البريطاني في منطقة الشرق الاوسط (٢) وقد آثرت امريكا الا تدخل في صراع حاد مكشوف مع بريطانيا في محاولة لانتزاع السيطرة منها على الخليج فقد املت امريكا على الانكليز تسيير المواصلات العسكرية الجوية والبحرية وتوفير المراكز المختلفة لها في مناطق النفوذ البريطاني(٣).

وعلى هذا النحو بدأت منطقة الخليج العربي في اعقاب الحرب العالمية الثانية وكأنها منطقة تقاسم النفوذ فيها كل من انكلترا وامريكا ومن ثم دأبت الدولتان على تنسيق سياستها الدفاعية فيها حتى بدأ الامر وكأن امريكا بقاعدتها في الظهران وبمقر قيادتها البحرية في البحرين تتولى مهام الدفاع عن القسم الشمالي من الخليج بينما تتولى بريطانية مهمة الدفاع عن القسم الجنوبي منه (٤).

---

(١) بدر الدين عباس : الخليج العربي ص١٣.

(٢) سيد نوفل : الخليج العربي ص٧٧.

(٣) طعمة : الخليج العربي ص ١٢

(٤) العقاد : التيارات السياسية في الخليج العربي ص٣٣٠.

لقد بدأ النفوذ الامريكي المباشر لمنطقة الخليج العربي منذ عام ١٩٢٤م وفي عام ١٩٥٨ م اتجه الاستعمار الامريكي وشركاته الاحتكارية بالبحث عن النفط في المملكة العربية السعودية في منطقة الاحساء خاصة ، وذلك نتيجة لتناقص الاحتياطي الامريكي من النفط وانسجاماً مع السياسة الامريكية بايجاد مناطق نفطية خارج حدودها ، فأدى ذلك الى تفاقم التنافس الامريكي والبريطاني ، واستطاعت امريكا ان تشتري خدمات جون فيلبي البريطاني الذي اقام بالجزيرة العربية ، واطلع على احوالها واستخدمته في خدماتها في نطاق سياستها في منطقة الخليج العربي (١) .

وفي سبيل السيطرة الاستعمارية على الخليج العربي انتهج الاستعماريون سياسة بعيدة المدى تعتمد بالاضافة الى الاحتلال المباشر – في بعض مناطق الخليج وايجاد نوع من الاتفاقيات والمعاهدات لضمان وجودهم في المنطقة – تنظيم الهجرة الاجنبية وعلى نطاق واسع بهدف خلخلة واقعها القومي ، وبذلك يمكن في نظرهم عزل المنطقة عن المحيط العربي ومنع تحررها ووحدتها مع الاقطار العربية المجاورة (٢) .

برز التدخل الاستعماري الامريكي بصورة مكشوفة وباساليبه العدوانية منذ عام ٤٧ – ١٩٤٨ م باقرار مشروع التقسيم والاعتراف بالكيان الصهيوني في فلسطين وكان هذا التحول في السياسة الامريكية تجاه الوطن العربي تتجه لواقع تدهور الاستعمار البريطاني في الوطن العربي ورغبة الامبريالية الامريكية ملء ماسموه بـ (الفراغ الغربي) وان قيام الثورات العربية في الوطن العربي خلال مرحلة الخمسينات كرد فعل للواقع العربي الذي عاشته الامة العربية اثر قيام الكيان الصهيوني اجرت الامبريالية الامريكية تغييراً في سياستها تجاه اقطار الوطن العربي عامة والخليج العربي خاصة لوجود النفط فيه والذي يعتبر عنصراً خطيراً من عناصر الصراع الدولي (٣) .

---

(١) طعمة : الخليج العربي ص ١٢
(٢) العقاد : التيارات السياسية في الخليج العربي ص ٣٣٠
(٣) نوفل : الخليج العربي ص ٨٨ – ٩٦

وخلال مرحلة الستينات بذلت القوى الامريكية والبريطانية جهوداً واسعة لترتيب اوضاع الخليج العربي بشكل جديد ظاهره الانسحاب البريطاني المباشر ومنح الاستقلال للامارات العربية وباطنه احكام السيطرة الاقتصادية والعسكرية على هذه المنطقة (عن طريق المعاهدات والاتفاقيات) لاحتواء هذه المنطقة بضمنها العراق والسعودية والكويت على اكبر مخزون للطاقة في العالم قد جعلها وبعد تفاقم ازمة الطاقة من اهم المناطق واكثرها حساسية بالنسبة للامبريالية لان [illegible] يشكل قضية ستراتيجية كبرى تتصل اتصالا وثيقاً وخطيرا بموقع الامبريالية وخاصة الامريكية في الصراع الدولي . وبمصالحها الجوهرية كما تتعلق ايضاً بمصير العالم الغربي (١) .

وفي اعقاب حرب حزيران عام ١٩٦٧ م اعلنت بريطانية من جانبها عن عزمها على سحب جميع قواتها من شرق السويس ضمن برنامج يهدف إلى خفض نفقات قواتها العسكرية نتيجة الازمة الاقتصادية البريطانية أثر انخفاض الجنيه الاسترليني فقد اعلنت عزمها على الانسحاب من الخليج العربي في مدة اقصاها بداية عام ١٩٧١م(٢) وفي مقابل ذلك يتم تشكيل حلف دفاعي قوامه تركية والكويت والباكستان والسعودية وايران وامريكا لسد فراغ القوات البريطانية . وهنا برزت بوادر التامر الامريكي بدعوة ملء الفراغ والحفاظ على أمن المنطقة وقد هاجم الاتحاد السوفيتي هذا الادعاء كما ان تركية رفضت فكرة الانضمام إلى الحلف الدفاعي ، واكدت وزارة الخارجية الباكستانية ان ليس لها الرغبة في الدخول في اى حلف ، كما اعلنت الكويت بانها تقف ضد الاحلاف ، وهاجمت الاقطار العربية الاخرى فكرة ملء الفراغ المزعوم ، وعلى أثر ذلك ظهرت فكرة اتحاد الامارات العربية الذي قوبل برضى جميع الاقطار العربية (٣) ومنها اقطار الخليج العربي ، لم تكن الولايات المتحدة تجهل عزم بريطانية

---

(١) التقرير السياسي الصادر عن المؤتمر القطري لحزب البعث العربي الاشتراكي ص ٩٠
(٢) محمود بهجت ستان : الشخصية العربية في الخليج ص ٨٥
(٣) الجنابي : من تأريخ الخليج العربي ص ١١٣

هذا فقد صرح ولسن رئيس وزارة بريطانية بانه سيبلغ الرئيس الامريكي جونسون عن عزم بريطانية عن سحب قواتها من منطقة شرقي السويس وستتم هذه الخطوة تجنباً لحدوث الفراغ العسكري في المنطقة ، ومراعاته لانشغال الولايات المتحدة في حرب فيتنام وقد صرح وزير الخارجية الامريكية روستو في العشرين من كانون الثاني ١٩٦٨م بانه يجري في الوقت الحاضر اتخاذ الاجراءات اللازمة لملء الفراغ الذي يتركه انسحاب القوات البريطانية من شرق السويس ... وان الاجراءات التي اتخذت من اجل عقد اتفاق للامن يتم بالتعاون مع الولايات المتحدة الامريكية وبريطانية وبعض الدول الاخرى في منطقة الخليج لتتولى مسؤولية اقرار الامن الاقليمي لمنطقة الخليج العربي(١) وقد كشف الانسحاب البريطاني عن المخطط الاستعمارى الرامي إلى السيطرة على بعض اجزاء الخليج العربي (٢).

وقد عبر ماشفيلد عن فكرة ملء الفراغ بقوله : (انه يجب على الولايات المتحدة ان تملأ الفراغ العسكري الذي سيكون بعد ان تسحب بريطانيا قواتها) (٣). وبهذا الشكل حاول السياسيون الامريكيون الاستناد إلى (الفراغ) إلى نظرية مخصصة لتبرير تدخل الولايات المتحدة في الشؤون الداخلية للبلدان الاخرى. وحتى التدخل المسلح فيها ، وبهذه النظرية ايضاً تعتمد الولايات المتحدة ان بامكانها فرض سيطرتها على العالم كله علماً بانه لم يكن هناك اى فراغ الا بالمنطق الاستعمارى وحده .

مما تقدم يتضح ان النفط العربي يلعب دورا مزدوجاً في قوة وجبروت العالم الرأسمالي واحتكاراته بوصفة يقدم المادة الستراتيجية الحيوية والاموال الضخمة ، وازاء ذلك تقف الشركات موقف المسيطر المتحكم من المنطقة نتيجة لاتحادها في كارتل نفطي احتكارى لمواجهة وضرب نشاط الدول المنتجة للنفط (الاوبك) .(٤)

(١) طعمة : الخليج العربي ص ٥٦

(٢) بدر الدين عباس : الخليج العربي ص ١٣ .

(٣) الجنابي : من تأريخ الخليج العربي ص ١٢٠ .

(٤) مجلة نفط العرب – العدد السابع – نيسان – ١٩٧١ .

وتتضح لنا هذه الحقيقة اذا علمنا ان الامريكان استخرجوا من نفط الخليج سنة ١٩٧٠ ما يعادل (١٣٠) مليون طن ثم ان (٥٥) من النفط المستخرج في اربع اقطار عربية وهي العراق والكويت وليبيا والسعودية سنة ١٩٧٠ يعود لشركات احتكارية امريكية عاملة في هذه الاقطار اذ حصلت هذه الشركات لوحدها ارباحاً بلغت ١٠٧٩ مليون دولار كما لجأت الدول الراسمالية ذات المصالح في الخليج العربي إلى التركز عسكرياً في المنطقة فأنشأت القواعد العسكرية والمطارات واقامت الاحلاف (١) لضمان وجـــودها في المنطقة .

غير ان تلك القوة عليها ان تدرك ان شعب الخليج بالرغم من ظروفه العصيبة التي يمر بها وعلى الرغم من المرحلة الحرجة التي تمر بها الامة العربية قادر على ملء مايسمونه بالفراغ عن طريق وحده الارض والشعب في اطار ثورية القومية العربية والوحده وقادرة على ان تثبت وجودها كأمة تستطيع ان تحدد مصير العالم اذا ماحاولت يوماً ايقاف تدفق النمط العربي فستجعل اوربا والعالم يقف على حافة الهاوية بتوقف مصانعهم واساطيلهم وسيقدر للامة العربية ان تفرض ارادتها وتستعيد قوتها ومكانتها الدولية .

(١) الاستراتيجية الا نكلوامريكية ص ١٠ ،ص ١٣ .

(المصادر)

اعلام وزارة الاعلام
١ – الاستراتيجية الانكلو امريكية ومرتكزاتها في الخليج العربي
بغداد ١٩٧١ .

أمين عبد الأمير محمد
٢ – (دور القبائل في صد التوسع الأوربي في الخليج العربي)
محاضرة المؤتمر الدولي للتأريخ ، بغداد ١٩٧٣ .

الاشتراكي البعث العربي
٣ – التقرير السياسي الصادر عن المؤتمر القطري الثامن
مطابع دار الثورة كانون الثاني ١٩٧٤ .

البكر منذر البكر
٤ – (صور من المقاومة العربية للأطماع الأجنبية في الخليج العربي)
محاضرة المؤتمر الدولي للتأريخ بغداد ١٩٧٣

الجنابي داود محمد
٥ – (من تأريخ الخليج العربي)
مطبعة الكلية العسكرية بغداد / ١٩٧٣ .

حسن جاسم محمد ، العراق في العهد الحميدي ، رسالة ماجستير
قدمت لجامعة بغداد وهي غير منشورة

الخصوصي بدر الدين عباس
٦ – (الخليج العربي والمطامع الاستعمارية)
بحث مقدم للمؤتمر الدولي للتأريخ والآثار بغداد / ١٩٧٣.

الداود محمود علي
٧ – (الخليج العربي والعلاقات الدولية)
دار المعرفة/القاهرة
٨ – (أحاديث عن الخليج العربي)
منشورات وزارة الاعلام / بغداد .

زكريا جمال

٩ – (الخليج العربي) دراسة لتأريخ الامارات العربية (١٨٤٠ – ١٩١٤) مطبعة جامعة عين شمس القاهرة/١٩٦٦.

سنان محمد بهجت

١٠ – (الشخصية العربية في الخليج)
مطبعة الشعب بغداد/١٩٧٢ .

١١ – (البحرين درة الخليج العربي)
دار الفكر بدمشق/١٩٦٢ .

طعمة هادى

١٢ – (الخليج العربي في الستراتيجيات الاستعمارية والبريطانية خاصة) منشورات وزارة الاعلام بغداد / ١٩٧١ .

طه سليم

١٣ – (الصراع على الخليج العربي)
وزارة الاعلام بغداد / ١٩٦٦ .

العابد صالح محمد

١٤ – (دور القواسم في الخليج العربي)
مطبعة العاني بغداد / ١٩٧٦ .

العزى خالد

١٥ – (الخليج العربي في ماضيه وحاضره)
مطبعة الجاحظ بغداد / ١٩٧٢ .

العقاد صلاح الدين

١٦ – (التيارات السياسية في الخليج العربي)
مكتبة الانجلو المصرية القاهرة / ١٩٦٥ .

١٧ – (الاستعمار في الخليج العربي)
محاضرة القيت في المؤتمر الدولي للتاريخ والاثار بغداد / ١٩٧٣.

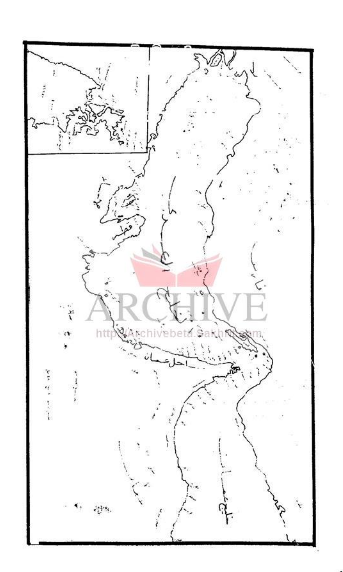
لوريمر ١٨ – (دليل الخليج) القسم التاريخي (مترجم)
النجار مصطفى عبد القادر
١٩ – (مقالة) مجلة الخليج العربي ، العدد الثالث / ١٩٧٥
نوفل سيد
٢٠ – (الخليج العربي) او الحدود الشرقية للوطن العربي
مطبعة دار الطليعة / بيروت ط ١ / ١٩٦٩ .
اليوزبكي توفيق سلطان
٢١ – (دراسات في الوطن العربي) الحركات الثورية والسياسية
مطبعة جامعة الموصل / ط ٢ / ١٩٧٥ .
٢٢ – (مجلة نفط العرب)
العدد السابع نيسان / ١٩٧١ .

23– Abdul Amier Amin.
British Interist in The Persian Gulf.
(Leden 1967).

24- Dkumor Ravider.
India and Perainn Gulf 1858–1907
(India 1965).

25- J.B. Kelly.
Britain and The Persion Gulf.
1795–1880. (Oxford 1968).

26– Britain and the Foreign state Papers,
1877–1878, (London, 1885), P. 1314


احل عمان

الدكتور عماد الدين خليل





بدء نور الدين محمود بن عماد الدين زنكي حكمه عام / ٥٤١هـ — ١١٤٦م لامارة محدودة لاتتجاوز مدينة حلب الا قليلا : وتوفي (عام ٥٦٩هـ — ١١٧٣م) وهو يحكم دولة تمتد من حدود بلاد فارس حتّى صحراء ليبيا. ومن جبال الاناضول حتّى النوبة واليمن ....

ليس هذا فحسب بل انه انشأ دولته هذه وسط تحديات الغزاة الصليبيين الذين انزرعوا في قلب المنطقة(في الجزيرة الفراتيه والشام وفلسطين) : وكانوا لايزالون —حتّى ذلك الحين — يملكون قوتهم وحيويتهم وقدرتهم على الامتداد .

لقد نفذ الرجل سلسلة من الانتصارات العسكرية والسياسية ضد الصليبيين . وعزز بذلك المنجزات السابقة التي حققها قادة سابقون في مراحل (البدايات): مودود بن التونتكين (٥٠٢ — ٥٠٧هـ) = (١١٠٨ — ١١١٣م) آق سنقر البرسقي (٥١٨ — ٥٢١هـ) = (١١٢٤ — ١١٢٧م) : من ولاة السلاجقة في الموصل : سقمان بن ارتق (٤٩١ — ٤٩٨هـ) =(١٠٩٧ — ١١٠٤م) ايلغازي بن ارتق (٥١٣ — ٥١٦هـ)=(١١١٩ — ١١٢٢م)بلك بن بهرام(٥١٦ — ٥١٨هـ)= (١١٢٢ — ١١٢٤م) من اراتقة ديار بكر عماد الدين زنكي (٥٢١ — ٥٤١هـ)= (١١٢٧ — ١١٤٦م) مؤسسي اتابكية الموصل وحلب ، وفتح الطريق لظهور القيادات التي قامت بعملية التصفية النهائية للوجود الصليبي : الناصر صلاح الدين والظاهر بيبرس وآل قلاوون. فهو— من ثم — يعد حلقة الوصل الخطيرة في تاريخ الصراع ضد الصليبيين . ومن هنا كسب نور الدين اهميته في ميدان البحث التاريخي حيث توالت الابحاث عن دوره هذا بينما بقيت الجوانب الاخرى : الادارية والاجتماعية والاقتصادية والثقافية ، والتي لاتقل اهمية عن سابقتها بقيت لاتحظى الا بقدر قليل من الاهتمام .

وليس هذا البحث سوى محاولة : قد تعقبها محاولات : لدراسة الجوانب

الاخرى في دولة نور الدين هذه . بدأتها بتحليل للظروف التي تشكل فيها الجهاز الاداري للدولة والرجالات الذين شغلوا اهم مناصبه اعقب ذلك عرض مقارن لوظائف هذا الجهاز ومؤسساته الرئيسية . وجاء المقطع الذي يليه لكي يعالج (القضاء) كمؤسسة تمتعت باستقلال كبير وصلاحيات واسعة ويعرض لاهم الرجالات الذين شغلوه ؛ وخلصت – أخيراً – لعرض الملامح الاساسية لادارة نور الدين تلك .



اعتمد نور الدين في ادارة دولته المتنامية على عدد كبير من الرجال كان يعرف كيف ينتقيهم بعيدا عن انتماءآتهم الاجتماعية . وناظرا إلى قدراتهم ونزاهتهم وثقافتهم وقبولهم لدى جماهير المسلمين . وكان يعرف كيف يخضعهم لمراجعته الدقيقة الصارمة ويوقفهم في الوقت المناسب منزلا بهم العقاب العادل (١). وكان كما يصفه العماد الاصفهاني« ذكياً المعياً ،فطناً لوذعياً ،لاتشتبه عليه الاحوال ، ولا يتبهرج عليه الرجال» (٢) . ولم يتقدم لديه الا ذوو الفضل والقدرة على الانجاز الامين المسؤول(٣)،بغض النظر عن الاعتبارات الشكلية التي يرفضها نور الدين اشد الرفض . حتى ان عددا من كبار موظفيه كان من الخدم والعبيد وعددا آخر كان من غير الشاميين . ممن جاءوا من اقاصي المشرق والمغرب ، فولوا اعلى المناصب وصعدوا قدما صوب ارقى الدرجات لانهم جاءوا إلى نور الدين وهم يملكون كفاءات الادارة الناجحة التي اشرنا اليها قبل قليل .

ويبدو ان نور الدين اعتمد نفس النظم الادارية المعمول بها في عصره والتي كان السلاجقة قد ارسوا قواعدها العريضة ، وجاء الايوبيون والمماليك من بعدهم لكي يسيروا بها نحو مزيد من النضج والتخصص والشمول . لكن نور الدين اكد على مؤشر اساسي في ميدان الادارة ذلك هو ان كفاءة اجهزتها وحصيلة معطياتها لاتعتمد على بنيان الجهاز او تركيب المنصب نفسه قدر اعتمادها على (الرجال) انفسهم الذين يعهد اليهم بتسييرها . ومن ثم فاننا نجد نور الدين

---

(١) انظر ابن القلانسي : دمشق ص ٣٣٦ وابن قاضي شهبه : الكواكب ص ٢٥ والعماد الاصفهاني : البرق ص ١٢٠ – ١٢٢ ، ١٤٦ – ١٤٧ وابا شامه : الروضتين ١/٥٨٢ – ٥٨٣ وابن واصل : بني ايوب ١/٢٦٩ .

(٢) البرق : ص١٢٠ – ١٢١ .

(٣) Elisseeff : Nur Ad -- dın, PP 785 -- 786

يملأ اجهزته بنماذج متنوعة من هؤلاء الرجال كانوا يتباينون في الانتماء الجنسي والجغرافي والاجتماعي ولكنهم – في الاغلب – يجتمعون على تلك الميزات التي لاتستقيم بدونها ادارة ما .

في البداية . عندما قتل ابوه عماد الدين زنكي عام(٥٤١هـ = ١١٤٦م)وجد في بعض رجالاته المتقدمين في ميادين الادارة المدنية والعسكرية ساعده الايمن الذي اعتمده في الوصول إلى الحكم في حلب وتثبيت اركان امارته الفتية هناك. اتصل به اسد الدين شيركوه عم الناصر صلاح الدين وقال له : « اعلم ان الوزير جمال الدين الاصفهاني – اكبر وزراء زنكي – قد اخذ عسكر الموصل وعمل على تقديم اخيك (سيف الدين غازى) وتمليكه الموصل وقد انضوى اليه جل العسكر . وقد انفذ الي يغريني على اللحاق به . فلم استجب لطلبه وقد رأيت ان اصيرك إلى حلب فتجعلها كرسي ملكك وتجتمع في خدمتك عساكر الشام.وانا اعلم ان الامر يصير جميعه اليك لان من ملك الشام ملك حلب ، ومن ملك حلب استظهر على بلاد الشرق». فما كان من نور الدين الا ان اصدر امره بان ينادى ليلا في عساكر الشام للاجتماع ، وانطلق من ثم إلى حلب فدخلها في السابع من ربيع الاول . واعتمد اسد الدين شيركوه الذي اصبح اشبه بوزيره الاول (٤).

ولم يكن دور كل من سيف الدين سوار ، القائد العسكري المشهور الذي عمل نائباً لزنكي في حلب ، وصلاح الدين الياغسياني ، رجل زنكي المعتمد وأحد كبار مستشاريه (٥)، ليقل عن دور شيركوه في اسناد مركز نور الدين في الايام الفاصلة التي اعقبت مقتل زنكي ،وتمكينه من انشاء امارته في حلب (٦)

---

(٤) ابو شامة : الروضتين ١/١/١١٩ – ١٢٠ .

(٥) انظر فصل،نظم الموصل الادارية في عهد زنكي من كتاب (عماد الدين زنكي) للمؤلف ص١٩٤ – ١٩٥ ، ٢٤٥ – ٢٤٦ .

(٦) انظر ابن القلانسي : دمشق ص٢٨٥ وسبط بن الجوزي ١٩١/٨ .

وفي عبارة لابن العديم يقول فيها ان الياغسياني « كان يدبر امور نور الدين في حلب ويقوم بحفظ دولته » وفي ايامها الاولى (٧) ما يوحي بأن الرجل ظل على ما كان عليه ايام زنكي : مستشار الامارة الاول واحد كبار اداريها . كما ان نور الدين اتصل عام ٥٤٤هـ بجمال الدين الاصفهاني ، كبير وزراء الموصل في عهد زنكي وابنه سيف الدين غازي من بعده وصاحب الخدمات الادارية الممتازة وحاول اقناعه بالالتحاق بخدمته قائلا له « لابد من ان تكون عندي فلي من الحق مثل ما لأخي — غازي — وانا احوج اليك منه » فاجاب الرجل«انت فيك من الكفاية ما يستغنى به عن وزير ومشير ، وليس عندك من الاعداء ما عند اخيك ، لان عدوك كافر فالناس يدفعونه ديانة ، واعداء اخيك مسلمون فيحتاج من يقوم بدفعهم ، واذا كنت عند اخيك فالنفع عائد اليك » (٨) فكف نور الدين عن المطالبة به .

ويبدو ان نور الدين لم يشأ ان يجعل جل اعتماده على العناصر الادارية المخضرمة ورأى ان يطعمها بعناصر جديدة اكثر ملائمة وفهماً لاهدافه ، اسوة بما يفعله مؤسسو الدول في اعادة تنظيم اجهزتهم الادارية وترشيح العناصر الاكثر تقبلا للوضع الجديد وتجانساً معه . وقد كان مجد الدين محمد ابو بكر ابن الداية ، شقيق نور الدين في الرضاعة ، واخوته شمس الدين علي وسابق الدين عثمان وبدر الدين حسن وبهاء الدين عمر ، الذي لم يبرز في ميدان الادارة كما برز اخوته ربما لصغر سنه ، على رأس هذه العناصر دون شك ، حيث استناب نور الدين اولهم في حلب وولاه كما يقول ابن ابي طي « جميع اموره وجميع مملكته » (٩) واصبح استناداً إلى ذلك رجل الدولة الاول بعد نور الدين منذ عام (٥٤١ هـ = ١١٤٦م)وحتّى وفاته عام(٥٦٥هـ= ١١٦٩م)

(٧) زبدة الحلب ٢٨٩/٢ – ٢٩٠

(٨) ابن الاثير : الباهر ص٩٧ .

(٩) ابو شامه : الروضتين ١٢٤/١/١ وانظر ابن العديم : زبدة الحلب ٣٠٢/٢

ويتحدث العماد الاصفهاني عن المكانة العالية التي بلغها مجدالدين واخوتهفي امارة نورالدين فيقول « كان مجد الدين رضيع نورالدين قد تربى معه ولزمه وتبعه إلى أن ملك الشام بعد والده ففوض اليه نورالدين جميع مقاصده وحكمه في الملك فلا يحل ولايعقد إلا برأيه » وكان يسكن قلعة حلب . وقد سلمت قلعة جبر وتل باشر لاخيه الاصغر سابق‌الدين عثمان ، وحارم لاخيه الثالث بدرالدين حسن . وثمة مواقع عديدة أخرى مثل عزاز وعين تاب وغيرهما كان مجدالدين يشرف عليها بنفسه عن طريق نوابه (١٠) . وعندما هدمت الزلازل شيزرعام ٥٥٢هـ = ١١٥٧ م واستولى عليها نورالدين من بني منقذ سلمها إلى مجدالدين (١١) . ويؤكد سبط بن الجوزي ان مجدالدين واخوته « كانوا أعز الناس على نورالدين وكان قد اسكنهم معه في قلعة حلب ولا يصدر الا عن رأيهم » (١٢) .

ويكاد المؤرخون يجمعون على أن مجدالدين أحسن تدبير المهمة التي عهدت‌اليه وانه كان عند حسن الظن . (١٣) وظل طوال خمسة عشر عاماً يتمتع بثقة سيده ومحبته وتفويضه الامور في قاعدة ملكه حلب . وقد امتاز الرجل بشجاعته وتدينه وتعشقه لتقديم الخدمات الاجتماعية (١٤) وعندما توفي عام ٥٦٥هـ= ١١٦٩ م نفس السنة التي توفي فيها نائب كبير آخر في دولة نورالدين يدعى العمادي محمد ، حزن نورالدين حزناً عميقاً وقال وهو يبكي : لقد قصت جناحاي »(١٥) وسرعان ماعهد بجميع ماكان له من مناصب وصلاحيات إلى

---

(١٠) عن ابي شامة : الروضتين ١/٥٩٣ .

(١١) ابو شامة : الروضتين ١/١/٢٧٦ .

(١٢) مرآة ٨/٣٢٤ - ٣٢٥ .

(١٣) انظر ابن العديم : زبدة الحلب ٢/٣٠٢ وسبط بن الجوزي : مرآة ٨/٢٨٠ - ٢٨١ وابن الاثير : الكامل ، ١١/٣٥٩

(١٤) سبط : مرآة ٨/٢٨١ .

(١٥) نفسه ٨/٢٨١

أخيه شمس الدين علي(١٦) الذي غدا بمرور الوقت « أكبر الامراء النورية في حلب » (١٧) أما أخوه الآخر سابق الدين عثمان فقد جعله مقدم عساكره(١٨).

وفي عام ٥٦٩هـ = ١١٧٣م ، السنة التي توفي فيها نورالدين ، كان بنوالداية قد تمكن نفوذهم في حلب تماماً وأصبح « امرها اليهم ، وعساكرها معهم في حياة نور الدين وبعده » (١٩) . وكان شمس الدين علي قد عهدت اليه أمور الجيش والديوان ، وعهدت الشحنكية إلى أخيه بدرالدين حسن ، وكانت بيد هؤلاء الاخوة جميع المعاقل المحيطة بحلب(٢٠) .

ولا يذهبن إلى الظن أن تفويض أمور حلب إلى بني الداية يشير إلى نوع من الضعف الاداري أو الاتكالية في موقف نورالدين . فمن جهة رأينا قوة شخصيته وهيمنته على أجهزة الدولة وموظفيها وممارسته الامور بنفسه (٢١)، ومن جهة اخرى كانت ساحات الجهاد قد استغرقت معظم وقته مما لم يتح معه التفرغ الكامل للاعمال الادارية الداخلية ، ومن جهة ثالثة لم يكن بنو الداية يمارسون صلاحياتهم الواسعة إلا في اقليم واحد فحسب من أقاليم الدولة النورية الواسعة هو اقليم حلب ، وثمة أقاليم ومدن اخرى كان رجال آخرون وأسر أخرى يمارسون صلاحياتهم فيها بما لايقل في اتساعه عما فوض به بنو الداية ، لابل أن الصلاحيات الشاملة التي عهدت إلى العماد الاصفهاني كانت أوسع بكثير مما عهد إلى بني الداية ، وسنرى ، فضلاً عن هذا وذاك ، ان بني الداية لم يكونوا هم أول وآخر من برز في ميدان الادارة بل برزت معهم ، وطيلة العصر النوري ، اسماء لم تكن لتقل عنهم شهرة وانجازاً . . .

---

(١٦) ابن الاثير : الكامل ٣٥٩/١١ .

(١٧) ابن الاثير : الكامل ٤٠٧/١١ الباهر ص١٦٣ ابن العديم ، زبدة ١٠/٣ – ١١..

(١٨) سبط : مرآة ٢٨١/٨ .

(١٩) ابن الاثير : الباهر ص١٦٣ ابن العديم ، زبدة ١٠/٣ – ١١.

(٢٠) ابو شامة : الروضتين ٥٩٥/١

(٢١) وانظر شهادة العماد الاصفهاني في البرق ص١٢٠ – ١٢٢ ، ١٣١ – ١٣٢ .

ولابن ابي طي تفسير لهذه الخطوة التي خطاها نورالدين بصدد اعتماد مجدالدين بن الداية ،لايستقيم ومجريات الاحداث ، فهو يقول «انه لما بلغ نورالدين اتفاق نجم‌الدين ايوب مع صاحب دمشق من آل طغتكين ،خاف أن يفسد عليه أسد الدين لصالح صاحب دمشق بحصول أخيه نجم‌الدين عنده فمال إلى ابن الداية حتى ولاه جميع اموره .. فشق ذلك على أسد الدين» (٢٢). ونحن نعرف أن علاقة أسد الدين بنورالدين ظلت كما هي قوة وانسجاماً، بل أنها أخذت تزداد مع الايام حتى بلغت قمتها في ترشيح أسدالدين لقيادة الحملة النورية على مصر في رحلاتها الثلاث .. ونعرف كذلك أن نورالدين اعتمد اسد الدين للاتصال بأخيه نجم الدين في دمشق والتمهيد لدخولها سلماً بعد إذ تبين استحالة أخذها عنوة .وقد توجت هذه الاتصالات الناجحة بدخول نورالدين دمشق عام ٥٤٩هـ= ١١٥٤م بمعونة الاخوين نجم الدين وأسد الدين حيث ازدادت مكانتهما ارتفاعاً وبرز إلى دائرة الضوء ابنا نجم‌الدين وهما الناصر صلاح‌الدين وتورانشاه كأميرين متقدمين في الدولة كما سنرى ..وأبو شامة يشير بالحرف الواحد إلى أنه «كان لأسدالدين اليد الطولى في فتح دمشق فولاه نورالدين امرها ورد اليه جميع أحوالها» (٢٣) . وزاد على ذلك فاقطعه الرحبة (٢٤). .... ويواصل أبو شامة حديثه فيقول « وتوسط أسدالدين في أمر أخيه نجم‌الدين مع نورالدين (والوساطة هنا – كمايبدو – لاتأتي بمعنى المصالحة وانما بمعنى التعريف والتقديم) فأقطعه اقطاعاً وسيره الى دمشق فاقام فيهاورد نظر دمشق اليه ، وولى ولده تورانشاه شحنكية دمشق فساسها أحسن سياسة ولم يزل بها إلى أن استبدل بأخيه صلاح‌الدين»(٢٥). وكان صلاح‌الدين قد

(٢٢) ابو شامة : الروضتين ١٢٤/١/١
(٢٣) الروضتين ٢٣٩/١/١
(٢٤) المصدر نفسه .
(٢٥) الروضتين ٢٥٠/١/١ – ٢٥١

فارق اباه نجم الدين منذ عام ٥٤٦هـ = ١١٥١م وانتقل إلى خدمة عمه أسد الدين في حلب ، فقدمه بين يدي نور الدين فقبله واقطعه اقطاعاً حسناً (٢٦) ..

وابن أبي طي هو نفسه الذي يحدثنا كيف ان نور الدين « استخص صلاح الدين والحقه بخواصه فكان لا يفارقه في سفر ولا حضر » (٢٧) ... ويذكر ابن الاثير كيف ان كلا من نجم الدين وأسد الدين صارا عند نور الدين بعد فتح دمشق ، في اعلى المنازل « لاسيما نجم الدين فان سائر الامراء كانوا لايقعدون عند نور الدين الا ان يأمرهم أو احدهم بذلك، الا نجم الدين فإنه كان اذا دخل اليه قعد من غير ان يؤمر بذلك» (٢٨). كما يحدثنا كيف ان اسد الدين كان قد لزم خدمة نور الدين منذ ايام والده زنكي .. وبعد ان تولى امارة حلب راح يقربه ويقدمه « ورأى منه شجاعة يعجز غيره عنها فزاده حتى صار له حمص والرحبة وغيرهما ، وجعله مقدم عسكره » (٢٩) .

وإلى جانب بني الداية وبني ايوب تبرز اسماء لامعة اخرى في ميدان الادارة يقف العماد الاصفهاني الكاتب في قمتها ولا ريب ...

غادر العماد بغداد ميمما شطر الشام فوصل إلى دمشق في شعبان سنة ٥٦٢هـ =١١٦٦م واعانه قاضي القضاة كمال الدين الشهرزوري، وانزله بالمدرسة الشافعية النورية وسرعان ما توثقت العلاقة بينه وبين بني ايوب : نجم الدين ، اسد الدين وصلاح الدين .. ثم ما لبث كمال الدين الشهرزوري ان قدمه في اواخر السنة إلى نور الدين ونوه بشأنه . فرتبه نور الدين في ديوانه منشئا في مطلع عام (٥٦٣هـ =١١٦٧م) وصار رئيس ديوان الانشاء وكاتب السر ومدبج الوثائق الرسمية حتى وفاة نور الدين . وكان يتلقى من بني ايوب في مصر تقارير

(٢٦) الروضتين ١/١/٢١٠
(٢٧) نفسه ١/١/٢٥١ – ٢٥٢.
(٢٨) الباهر ص١٢٠ .
(٢٩) الكامل ٣٤٢/١١ .

مفصلة عما يستجد فيها من احداث فيقرؤها على نور الدين ويكتب اجوبتها.
وقد جاء تعيين العماد في هذا المنصب - كما يذكر هو نفسه - بعد استعفاء ابي اليسر شاكر بن عبدالله من الخدمة في ديوان الانشاء واعتكافه في بيته . وهو يذكر ايضاً انه وجد من نور الدين منذ ذلك الوقت « الاعزاز والتمكين على الايام » .
وقد اعتمده نور الدين ، فضلا عن ذلك ، في عدد من السفارات : إلى شاه ارمن صاحب خلاط في ارمينيا اواخر سنة ٥٦٤هـ = ١١٦٨م والى الخليفة العباسي في اوائل سنة ٥٦٦هـ=١١٧٠م كما فوضه الاشراف على المدرسة النورية في دمشق ، والتي سميت بعدئذ بالمدرسة العمادية ، نسبة اليه ، في رجب سنة ٥٦٧هـ = ١١٧١م وفي العام التالي اصبح العماد مشرفاً على دواوين المملكة كلها ، إضافة إلى مهمته في ديوان الانشاء والاشراف هو المراقبة وتفتيش امور الدواوين ، فكأن المشرف هو المفتش العام للحكومة (٣٠) « فجمعت ، يقول العماد ، بين المنصبين ، وقسمت زماني على النصيبين فمرة للكتب والمناشير وتارة للاثبات في الدساتير (٣١) ولم أثق بنائب وباشرت العمل بنفسي» (٣٢) .
وبعد توجه الموفق خالد القيسراني إلى مصر قام العماد مقامه وصار مستوفي المملكة واصبح بذلك الرجل الاول في الدولة واكثر من يعتمدهم نور الدين من الرجال حتى وفاته ، اذ اصبح العماد بمناصبه الثلاث تلك المسؤول الاول عن الكتابة والاشراف الاداري والمالي (٣٣) .
ويحدثنا العماد عن الثقة المتبادلة بينه وبين نور الدين ، وحرص الاخير على تجاوز (الروتين) الاداري فيقول «..وقد مال الي نور الدين وعول في مناصبه علي وطالعته كل يوم بمرافق عملي ومنافع شغلي . فما اتحف بتحفة .

---

(٣٠) دوزى : معجم ١/٧٥٠ عن العماد الا صفهاني : البرق ص١٢٠ هامش رقم ٢ .
(٣١) الدستور : هو الدفتر الذي تكتب فيه اسماء الجند ومرتباتهم (البرق ص١٢٢ هامش ١).
(٣٢) العماد الا صفهاني : البرق ، ص١٢٠ - ١٢٢
(٣٣) انظر العماد الا صفهاني : البرق ، المقدمة ص١٠ - ١١ ، ٣٦ ، ١٢٠ - ١٢٢ ابو شامة الروضتين ١/٣٧٧ - ٣٧٨ ، ٥٢٤ .

ولا اخص من احد بعطية الا اطالعه به واطلعه على سببه . فكان يعجبه مني تلك الشيمة ويقول : تصرف فيه تصرفك في مالك » (٣٤) ويمضي العماد إلى القول « ثم اعتمد علي اعتمادا كلياً وجعلني له نجياً ، واذا اراد ان يكتب إلى احد في مهم يقول : اكتب اليه من عندك . ومن جملة ذلك ان سعد الدين كمشتكين ، نائبه في الموصل ، اخذ من رجل الف دينار بعلة عللها ، فجاء — الرجل — وتظلم ، فأمرني نور الدين بان اكتب اليه بردها عليه . فقال كمشتكين : ما ينفعني الا كتابه وتوقيعه فانهيت ذلك اليه فقال : ما معناه ؟ اما يعلم كمشتكين انك كاتبي واميني وصاحبي ولا تكتب الا بامرى ؟ فان خالف كتابك اليه قلعت عينيه ! ! فمضى اليه بكتابي فسارع إلى طاعته وردعليه الالف في ساعته » (٣٥).

ومما لاشك فيه أن العماد الاصفهاني قد حقق نجاحاً كبيراً في مهماته الادارية الأمر الذي أكسبه ثقة نورالدين المتزايدة وجعله يظفر سريعاً ، في مدى لايتجاوز السنوات الست باهم وظائف الدولة واعلاها : الكتابة والاشراف (الاداري) والاستيفاء (المالي) وإذا صح ما يقوله الرجل عن نفسه ، وهو الارجح ، لما سبق وان ذكرناه ، فان نورالدين كان قد اعتمده إلى حد تفويضه الامر كاملاً في مناصبه تلك . ورغم ذلك فان العماد ماكان ليقدم على خطوة الا بعد أن يطلع سيده عليها ... وقد عمق هذا الموقف الذكي من الرجل الثقة بين الطرفين تلك التي استمرت حتى نهاية حكم نورالدين .

تلي هذه الاسماء في ميدان الادارة (أي بنو الداية وبنو أيوب والعماد الاصفهاني) أسماء أخرى أقل منها أهمية ، وان كان بعضها قد بلغ القمة التي بلغها اولئك الرجال رغم أن المصادر لم تشر اليها الا عرضاً ولم تقدم لنا عنها الشيء الكثير .

---

(٣٤) البرق : ص١٣١ — ١٣٢

(٣٥) البرق : ص١٣٢ — ١٣٣

هناك الموفق خالد بن محمد القيسراني مستوفي المملكة حتى عام٥٦٨ هـ = ١١٧٢م والذي يصفه العماد بانه كان عند نورالدين «في مقام الوزير ؛ وله انبساط زائد » (٣٦) ويذكر في (الخريدة) انه لما وصل الشام وجد القيسراني «في صدر مناصبها وبدر مراتبها ... وكان نورالدين قد رفعه واصطنعه وبلغ منه مبلغاً من الأمر كأنه اشركه في الملك معه .ولقد كان حقيقاً بذلك »(٣٧) ويتحدث عنه أحد أحفاده المدعو معين الدين بن محمد فيقول « كان جدي خالد قريب المنزلة من نورالدين إلى الغاية ،واليه استيفاء دواوينه باسرها وكتابة الانشاء وامرة مجلسه ،وهو المشير الوزير،والامور كلها عائدة اليه(٣٨) وواضح أن عمله في كتابة الانشاء كان في الفترة التي سبقت توليها من قبل العماد الاصفهاني .

وهناك محمد العمادي صاحب نورالدين وأمير حاجبه وأحد كبار نوابه في حلب وصاحب بعلبك وتدمر .(٣٩) كان كما يصفه سبط بن الجوزي « عزيزاً عند نورالدين ومن أعظم امرائه » ولدى سماع الاخير نبأ وفاته عام ٥٦٥هـ = ١١٦٩م ووفاة مجدالدين بن الداية في العام نفسه ،بكى وقال: قص جناحاي، وكافأ أولاد العمادي بمدينة بعلبك (٤٠)

والشيخ الامير مخلص الدين أبو البركات عبدالقاهر بن علي بن أبي جرادة الحلبي الامين على خزائن أموال نورالدين.توفي عام ٥٥٢هـ — ١١٥٧م ويصفه ابن القلانسي بانه كان خير كاتب بليغ مستحسن الفنون ؛ حسن الخط مع صفاء الذهن وتوقد الفطنة والذكاء .وكان على علاقة وثيقة بابن القلانسي نفسه بحكم تردده بين حلب ودمشق ،وقد ريع الرجل لدى سماعه نبأ وفاة صديقه (٤١) .

(٣٦) البرق: ص١١٦.
(٣٧) قسم شعراء الشام: ص١٢٥ .
(٣٨) ابن واصل : بنو ايوب ٢٧٠/١
(٣٩) ابو شامة : الروضتين ٤٥٨/١ سبط : مرآة ٢٨٠/٨
(٤٠) مرآة ٢٨١/٨.
(٤١) دمشق: ص ٣٤٥ سبط فيجعل وفاته عام ٥٥٦هـ (مرآة ٢٣٩/٨ - ٢٤٠) .

وأبو سالم بن همام الحلبي الذي ولي الاشراف على الديوان بدمشق حتى عام ٥٥١هـ – ١١٥٦ م حينما كشف التحقيق معه عن استغلاله المنصب لسرقة أموال الدولة فألقي القبض عليه واعتقل ثم اصدر نورالدين أمراً بكشف خيانته للناس وعقابه عقاباً قاسياً والطواف به في الأسواق حيث كان المنادي يصيح « هذا جزاء كل خائن » وبعد أن أقام في المعتقل بدمشق أياماً أمر نورالدين بنفيه إلى حلب فغادر دمشق « على أقبح صفة من لعن الناس ونشر مخازيه ..(٤٢)

يلي هؤلاء موظفون آخرون لانجد عنهم سوى اشارات مقتضبه إلى أسماء الوظائف التي عهدت اليهم (٤٣) . وثمة حشد من الامراء الذين وردت

---

(٤٢) ابن القلانسي : دمشق ص ٣٣٦ .

(٤٣) وهم : عبدالله بن احمد الحمدي المعروف بابن النقار الذي عمل كاتباً لنور الدين وكان يتميز بقدرته على الكتابة ونظم الشعر (سبط : مرآة ٢٨٩/٨) والشيخ ولي الدين اسماعيل الذي تولى خزانة بيت المال (العماد : البرق ص ٧٥) وضياء الدين بكريسان : الامير الحاجب مفتش العروض العسكرية الذي كان يعد من اكابر الامراء واعتمده نور الدين في كثير من الامور (نفسه ص ١٢٢) وجمال الدين ريحان الذي وصف بانه من اكبر الخدم (ابو شامة : الروضتين ٥٨٦/١) وهمام الدين مودود الذي كان – هو الآخر – من كبار الامراء وتولى حلب في بدء عهد نور الدين (نفسه ٥٧٩/١ – ٥٨٠) وابو شام المحالي : ضامن دار الزكاة (ابن واصل : بنو ايوب ٢٦٩/١) وابو اليسر شاكر بن عبدالله المعري الذي تولى كتابة الانشاء قبل العماد الاصفهاني ، فلما استعفى وقعد في بيته تولى العماد كتابة الانشاء بعده (الطباخ : تاريخ حلب ٢٧٣/٤) والامير جمال الدين شاذبخت : الخادم الهندي عتيق نورالدين كان نائباً عن نور الدين في حلب وهو الذي بنى المدرسة المعروفة بأسمه هناك (ابن العديم : زبدة ٩/٣ ، ابو شامة : الروضتين ٥٩٥/١) وشهاب الدين ابو صالح العجمي : ناظر الديوان (العماد : البرق ص ١٣١) وشمس الدين محمد بن عبدالملك المعروف بابن المقدم الذي تولى اتابكية الملك الصالح بن نورالدين (ابن كثير : البداية ٢٨٥/١٢) ويبدو انه تولى هذه المهمة بعد تعيين الاتابك السابق سعدالدين كمشتكين نائباً لنور الدين في قلعة الموصل عام ٥٦٦ هـ (انظر : ابا شامة الروضتين ٥٨٧/١ والعماد : البرق ص٩٩) وابو نصر : الحاجب)(نفسه ص ١٤٦ – ١٤٧) وابو محمد الحكم : المشرف على رئاسة حلب (ابن العديم : زبدة ١٨/١٣) .

وامين الدين زين الحاج ابو القسم : متولي الديوان (ابن القلانسي : دمشق ص ٥٥) وعز الدين جورديك المملوك : متولي ولاية القلعة (نفسه) ورضي الدين ابو غالب بن اسد التميمي : رئيس دمشق (ابو شامة : الروضتين ٤١/١/١ – ٤٢) ونظام الدين بن ابي المضاء : متولي الوزارة

اسماؤهم بين الحين والآخر ،دون أن يشار إلى الوظائف التي تسلموها ولعل أغلبهم كانوا قادة عسكريين أو امراء مرافقين لنورالدين في مهماته المدنية والحربية على السواء ،وبعضهم اشترك في حملات أسدالدين شيركوه على مصر واستقر به المقام هناك وتولى ،فيما بعد في عصر الايوبيين ،ارفع المناصب (٤٤)

أما الولاة والمقطعون ففيما يلي قائمة باهم الاسماء التي يستطيع الباحث أن يضع يده عليها .

مجدالدين بن الداية : قلعة جعبر ،عين تاب ،عزاز ، شيزر (٤٥)

بدرالدين بن الداية : حارم (٤٦) .

سابقالدين بن الداية : تل باشر . وعموماً فقد كانت لبني الداية جميع المعاقل المحيطة بحلب (٤٧) .

اسدالدين شيركوه : حمص واعمالها عام ٥٦٣هـ — ١١٦٧م الرحبة . ولما استقر بنو أيوب في مصر استرد نورالدين هذين الموقعين وعين عليهما عمالا آخرين (٤٨) .

بدمشق (نفسه) والمنتخب ابو سالم بن عبد الرحمن الحلبي : متولي كتابة الجيش وعرض ألا خبز في ديوان نور الدين (ابن القلانسي : دمشق ص٣٥٣ — ٣٥٤) وابو الفتح عمر بن حموي شيخ الشيوخ الذي فوضه نور الدين امر الربط والزوايا والاوقاف في عدد من المدن الشامية (سبط: مرآة ٢٧٢/٨) ويبدو ان ذلك تم قبل منح صلاحية الاشراف على اوقاف المملكة لقاضي القضاة كمال الدين الشهرزوري . او لعله كان يعمل وغيره تحت امره الشهرزوري كمشرف عام.

(٤٤) من بين هذا الحشد من الامراء تبرز اسماء : غرس الدين قلج ، شرف الدين بزغش ، عين الدولة الياروقي،سيف الدين المشطوب الهكاري،شهاب الدين محمود الحارمي،الفقيه عيسى الهكاري،حسام الدين بن عيسى الجراحي،فخر الدين بن الزعفراني،اسامة بن منقذ الشاعر المؤرخ المعروف .

(٤٥) ابن الاثير : الباهر ١٣٦ — ١٣٧ ، ابن العديم : زبدة ٣٢٥/٢ ، ابو شامة : الروضتين ٣٨٦/١ — ٣٨٧ ، ٥٩٣ .

(٤٦) ابو شامة : الروضتين ٥٩٣/١ .

(٤٧) نفسه: ٥٩٣/١، ٥٩٥ .

(٤٨) نفسه: ٣٨٣/١، ٤٤١ .

الناصر صلاح الدين : مدكين (من ضياع كفر طاب) وزردنا من ضياع حلب (عام ٥٦٣هـ) = ١١٦٧م (٤٩)
مجاهد الدين بزان بن مامين : صرخد (عام ٥٤٢هـ)= ١١٤٧م (٥٠)
محمد العمادي : بعلبك ، تدمر وبعد وفاته عام ٥٦٥هـ = ١١٦٩م اعطيت بعلبك لاولاده (٥١) .
زين الدين عمر بن لاجين : حصن بعرين ، وعندما اتجه إلى مصر رتب نور الدين بدلا منه الامير عين الدولة الياروقي (٥٢) .
حسان المنبجي : سلم مدينة تل باشر سنة ٥٤٩هـ = ١١٥٤ م قبل أن يتولاها سابق الدين بن الداية (٥٣) .
قطب الدين ينال بن حسان : منبج (عام ٥٦٢هـ) = ١١٦٦م (٥٤)
علم الدين علي كرد : حماة (٥٥) .
حسام الدين طومان بن ملاعب : الرقة . (٥٦)
شهاب الدين مالك العقيلي : اخرج من قلعة جعبر عام ٥٦٤هـ = ١١٦٨ م وعوض بمدينة سروج واعمالها (٥٧) .

(٤٩) العماد : البرق ص ٧٠ – ٧١ .
(٥٠) ابوشامة : الروضتين ١/١/١٤٩ هامش ٧ . وقد اشتهر الرجل باوقافه الكثيرة على ابواب البر منها المدرستان المنسوبتان اليه في دمشق (أبو شامة : الروضتين ١/١/٣٠٩) ويصفه ابن القلانسي بانه كان وجيهاً في الدولة ، موصوفاً بالشجاعة والسماحة ، مواظباً على الصلاة وعلى بث الصدقات في المساكين والفقراء مع الزمان (دمشق ص ٣٥٩) .
(٥١) ابو شامة : الروضتين ١/٥٨ ابن شداد : الا علاق ص ٤٢ النعيمي : الدارس ٢/٢٥٩)
(٥٢) العماد البرق ص ٩٢ . .
(٥٣) ابن الاثير : الكامل ١١/١٩٩ .
(٥٤) نفسه ١١/٣٢٩ الباهر ص ١٣٤ – ١٣٥ ابن العديم : زبدة ٢/٣٢٤ – ٣٢٥ .
(٥٥) ابن منقذ : الاعتبار ص ١٩٨ هامش ٣٥ .
(٥٦) النعيمي : الدارس ١/٥٤٢ – ٥٤٣ .
(٥٧) ابن الاثير : الباهر ص ١٣٦ – ١٣٧ ابن العديم : زبدة ٢/٣٢٥ ابو شامة : الروضتين ١/٣٨٦ – ٣٨٧ .

قايماز الحراني (مملوك نورالدين) : حران (٥٨) .
خادم أسود لنورالدين (؟) : الرها (٥٩)
سعدالدين كمشتكين (خادم كذلك): قلعة الموصل (٥٦٦هـ) =١١٧٠م(٦٠)

ومن خلال الروايات الشحيحة عن الجانب الاداري والتي عرضنا لها في الصفحات السابقة نستطيع ان نتبين قائمة بأهم الادارات والوظائف في دولة نور الدين : النائب ، الوزير ، ناظر الديوان ، المستوفي ، المشرف ، امير حاجب ، والي الاقليم ،والي البلد ، والي القلعة ،الشحنة ، رئيس البلد ، الاتابك ، الخادم .

وكما سبق ان ذكرنا فان نور الدين اعتمد نفس النظم الادارية المعمول بها في عصره والتي كان السلاجقة قد ارسوا قواعدها العريضة ، وكان ابوه زنكي قد اعتمدها وافاد منها إلى حد كبير طيلة عشرين عاماً (٥٢١ — ٥٤١هـ) ١١٢٧ — ١١٤٦م وجاء الايوبيون فيما بعد ، والمماليك في اعقابهم ، لكي يسيروا بها نحو مزيد من النضج والتخصص والشمول . وثمة اشارة للمؤرخ الفرنسي (فيت) تتضمن تأكيداً هذه الحقيقة فهو يقول بان المنطقة كانت قد تأثرت في هذه المرحلة التاريخية إلى حد كبير او صغير ، بما أنشأه السلاجقة من نظم حربية واقتصادية وما لجأوا اليه من انشاء المدارس (٦١) . وقد اشار القلقشندي إلى هذه المؤثرات الحضارية للسلاجقة ، والاتابكيات التي تفرعت عنها في مختلف انحاء المنطقة ، بحيث ان اهم الدول والامارات التي قامت فيها كانت تستمد نظمها من هؤلاء في معظم الاحيان (٦٢).

وثمة نتيجة تتمخض عن هذه الاعتبارات وهي ان كل دراسة للنظم التي

---

(٥٨) ابن الاثير : الكامل ٤٠٧/١١ .
(٥٩) نفسه .
(٦٠) العماد : البرق ص ٩٩ .
(٦١) L'Egypte Arabe, P.230
(٦٢) صبح الاعشى ٥/٤ .

التزمتها الدولة السلجوقية ، او الدول والامارات التي اخذت عنها كاتابكية الموصل والدولة الايوبية وغيرهما (٦٣) تلقي ضوءاً في الوقت ذاته على المعالم الاساسية للادارة في عصر نور الدين ، خاصة وان دولته شملت مدناً ومواقع كان ابوه زنكي ، والسلاجقة من قبله ، قد نسقوا شؤونها الادارية ووضعوا بصماتهم عليها . ولنا هنا ان نمر على اهم هذه الوظائف – بايجاز – ووفق تسلسلها في الاهمية لكي نعرف بها تعريفاً سريعاً قدر ما يسمح به المجال (٦٤) .

فالنائب – كما يعرفه القلقشندي – هو «القائم مقام السلطان في عامة اموره او غالبها» (٦٥) وقد كان النائب في العصرين الايوبي والمملوكي يشترك مع السلطان في منح لقب الامارة ، وتوزيع الاقطاعات ، وتعيين الموظفين ، ويعرض عليه كشفاً باسماء الاشخاص الذين يرى وجوب ترشيحهم للمناصب المختلفة ، فيقرها السلطان دون ان يرفض تعيين احد المرشحين الا نادرا (٦٦). وكان من اعمال النائب كذلك توقيع المراسيم والمنشورات وتنفيذ القوانين والركوب على رأس فرق الجيش في المواكب الرسمية (٦٧). وترؤس اجتماعات ديوان الجيش (٦٨) وتلقي مكاتبات نواب المدن بصدد الامور المتعلقة بنياباتهم (٦٩) . وهكذا كان النائب هو المتصرف المطلق في

---

(٦٣) انظر : القلقشندي : صبح الاعشى ٤/٥ .

(٦٤) سبق وان حللنا بالتفصيل كافة الوظائف والادارات المشار اليها آنفاً في بحثين سابقين ؛ اولهما (عماد الدين زنكي) (الفصلان التاسع والعاشر) وثانيهما (الامارات الارتقية في ديار بكر) (الفصل الأخير) . وقد نشر البحث الأول (الدار العلمية ، بيروت – ١٩٧١) أما الثاني فلم ينشر بعد .

(٦٥) صبح الاعشى ٥٣/٥ .

(٦٦) المقريزي : خطط ٢١٥/٢ السبكي : معيد النعم ص ٣٤ .

(٦٧) القلقشندي : صبح الاعشى ١٧/٤ .

(٦٨) نفسه ١٦/٤ المقريزي : خطط ٢١٤/٢ .

(٦٩) المقريزي : خطط ٢١٥/٢ .

شتى المجالات العسكرية والمالية والادارية (٧٠) وقد اكد (فان برشم) على ان نائب السلطنة كان على رأس الموظفين (٧١). وكان النائب في عهد زنكي والد نور الدين ، يمارس – هو الاخر – سلطات واسعة في شتى المجالات الادارية والمالية والعمرانية والعسكرية ، ذلك انه كان معتمده الاول في امارته (٧٢) وفي عهد نور الدين شهدت المدن الكبرى لدولته : حلب ، دمشق ، نولياً كان يستخلصهم من بين اكثر رجالاته كفاءة واخلاصاً ، وكانوا يمارسون صلاحيات واسعة في المجالات العسكرية والمالية والادارية وكانت تقام لدى تعيين احدهم حفلة رسمية يمنح فيها خلعة شرفية وتقليداً رمزياً وكتاباً رسمياً يسمى التشريف (٧٣) . ولكن يجب ان لايغيب عن بالنا هنا ان مهمات نائب السلطنة في العصر المملوكي، كما يبينها القلقشندي وغيره ، لا تتطابق بالكلية مع مهماته في عهد نور الدين وأبيه زنكي من قبل ، وان مصطلح (نائب السلطنة) لم يرد بصيغته هذه الا في عصور تالية ، لا سيما وان ايا من الرجلين لم يتخذ لقب (السلطان) .

وتثير مشكلة (الوزارة) في عهد نور الدين نفس التعقيدات التي اثارتها بالنسبة لابيه زنكي (٥٢١ – ٥٤١هـ) بسبب غموض النصوص ، وندرتها واعتمادها طريقة التعميم الذي لاتتضح معه طبيعة الصلاحيات التي انطيت بالوزير . واغلب الظن ان ادخال وظيفة (النائب) إلى الجهاز الادارى منذ العصر السلجوقي جعل معظم اختصاصات الوزير وسلطاته العملية تتحول إلى هذا الموظف الرئيسي ، ومن ثم غدا منصبه اقل اهمية من ذى قبل .

---

(٧٠) نفسه .

(٧١) علي ابراهيم حسن : المماليك البحرية ص ٢١٥ .

(٧٢) عماد الدين خليل : عماد الدين زنكي ص ٢٣٤ – ٢٣٥ وانظر الامارات الارتقية ٣٠٤ – ٣٠٥ .

(٧٣) انظر : – . Elisseeff : Nur Ad-din,pp. 778-790

ويشير اليسيف إلى ان الوزير – عموماً – هو رئيس الادارة والمسؤول عن الدوائر الكبرى .

الخزينة ، الدواوين ... الخ لكنه غدا في حكم نورالدين في الدرجة الثانية وأصبح أشبه بمستشار سياسي للدولة (٧٤) .

ومع ذلك فان الوزارة في هذا العهد والعهدين الايوبي والمملوكي اللذين أعقباه لم تفقد مكانتها نهائياً بدليل ما أورده المؤرخون المعاصرون لتلك الفترة عن هذا المنصب .فالظاهري يقول « ومن انتصب لهذه الوظيفة – أي الوزارة لزمه النهوض بمهمات الدولة وامور المملكة ، بان يحمل أثقالها ويزيح اختلالها ويصلح أحوالها ويحفظ رجالها وينمي أموالها ،ويستخدم الكفاة ويوليهم أعمالهم ... فمن أخلص رفعه ومن غدر عزله .ويعتني بجهات الاموال وحراسة أسبابها ..وضبط حسابها والعدل في جبايتها ..ويقوم بتوزيع القطائع »(٧٥) كما يذكر القلقشندي أن الوزارة« من أجل الوظائف وارفعها رتبة في الحقيقة»(٧٦)

الا أن الذي حد من نفوذ الوزير في هذا العهد ليس فقط النائب وانما ايجاد مجموعة من الوظائف على رأس كل منها شخص يدعى الناظر ،كناظر الجيش وناظر الدولة (أي الذي يشارك الوزير في الأمور العامة والقضايا المالية) فضلاً عن الوظائف الاخرى آنفة الذكر (٧٧). ويجب أن نلاحظ – كذلك أن المصادر لم تشر بوضوح تام إلى منصب الوزير في عهد نورالدين ؛فهي إذ تتحدث عن أحدهم تصفه حيناً بأنه كان (في مقام وزير) وحيناً آخر بأنه (المشير والوزير) أو (متولي الوزارة)، وهذا مما يزيد المشكلة تعقيداً لاسيما إذا تذكرنا أن بعض الحكام لم يشاءوا اتخاذ الوزراء احتراما للخليفة العباسي

---

(٧٤) Nurad, – PP· 786–787

(٧٥) زبدة كشف الممالك ص ٩٣–٩٥ .

(٧٦) صبح الاعشى ٣٨/٤ .

(٧٧) انظر : عماد الدين زنكي (للمؤلف) ص ٢٥٦ – ٢٦١ .

أما ناظر الديوان فكان يطلق – لدى المماليك – بصورة عامة على المسؤول الاعلى للديوان سواء كان ديوان انشاء أو بريد أو نظر (أي مالية) ...وكان يساعده في تسيير شؤون ديوانه عدد من الموظفين كالوكيل ومستوفي الدولة، وعدد من صغار المستوفين . كما كان يطلق بشكل خاصة على المسؤول عن القضايا المالية « وهو مخاطب عن كل مايتم في معاملته من خلل (٧٨) ».

وتعد وظيفة الاستيفاء من الوظائف المهمة التي عرفت لدى الدولة السلجوقية، وكان المستوفي يلي الوزير في الاهمية ،وكان من واجبه الاشراف على حسابات الدولة وتدقيقها وضبط الاموال المتعلقة بالجيش وادارة ديوان الاستيفاء (٧٩).

أما الاشراف على الديوان فكان يعد من الوظائف المهمة لدى السلاجقة ولها ديوان خاص يقوم المشرف بادارته ،وهو يعني بالاشراف على ضبط الحسابات والصادرات والواردات والموازنة بينهما ،وهو في الحقيقة مكمل لديوان الاستيفاء ،ومثل المشرف كمثل المستوفي يستطيع أن ينيب عنه في كل ولاية نائباً .ونظراً لما بين المستوفي والمشرف من علاقة ،يكون المستوفي مراقباً لديوان الاشراف (٨٠) .

والامير الحاجب يشرف على ديوان الجيش ، وتختلف وظيفته عن وظيفة الحجاب القدماء اذ ان عمله هو ان « ينصف بين الامراء والجند ، تارة بنفسه وتارة بمشاورة السلطان وتارة بمراجعة النائب ،واليه تقديم من يعرض ومن يرد، وعرض الجند وما ناسب ذلك (٨١) اما الحاجب نفسه فقد اختلفت صلاحياته حسب الازمنة اختلافاً كبيرا . وفي العصر الذي نتحدث عنه اصبحت مهمته

(٧٨) ابن مماتي : قوانين الدواوين ص ٢٩٨ علي ابراهيم حسن : المماليك البحرية ص ٢١٣ عماد الدين خليل : الامارات الارتقية ص ٣٠٦ .

(٧٩) حسين امين : نظام الحكم في العصر السلجوقي، مجلة سومرمجلد ٢٠ سنة ١٩٦٤ ، الامارات الارتقية ص ٣٠٧ – ٣٠٨ .

(٨٠) حسين امين : المرجع السابق ، الامارات الارتقية ص ٣٠٦ – ٣٠٨ .

(٨١) القلقشندي : صبح الاعشى ١٩/٤ وانظر : المقريزي خطط ٢١٩/٢ ، عماد الدين زنكي ص ١٩١ – ١٩٥ .

ابلاغ السلطان حالة الشعب وكشف مظالمهم امامه واطلاعه على الامور الرئيسية للدولة ، ومطاردة الظلم وفق توجيهات المسؤول الاعلى ؛ فالحاجب اذن — يشبه وزير الداخلية حالياً (٨٢) .

- فاذا ما جئنا إلى ولاة الاقاليم والمقطعين فاننا لانجد المصادر تمنحنا قدرا كافياً من الروايات عن طبيعة المسؤولية التي كلف الولاة بها ، والجهاز الاقليمي الذي يعاونهم في شؤون الادارة ، وصلاحية تعيين اعضائه ، ولما كانت معظم المواقع (الولايات) يوم ذاك ذات قلاع وحصون فالمرجع ان اهم اعمال اولئك الولاة كانت ، حسبما ذكره القلقشندى « حفظ تلك القلاع وعمارة ما دعت الحاجة إلى عمارته منها ، واخذه بقلوب من فيها ، وجمعهم على الطاعة بالاحسان اليهم ، وتحصينها بالآت الحصار وادخار الآت الحرب ومهماتها والاعتناء بغلق ابواب القلعة وفتحها ، وتفقد احوالها في كل صباح ومساء ، واقامة الحرس وادامة العسس ، وتعرف احوال المجاورين لها من الاعداء ، والمطالعة بكل ما يتجدد لديه من الاخبار » (٨٣) هذا بالاضافة إلى مهمات الوالي المالية والعسكرية الاخرى كمساعدة السلطان في عملياته الحربية بشكل مباشر ، اى بامداده بالجند والميرة ، او غير مباشر ، كأن يقوم بتوسيع منطقة ولايته والدفاع عنها ضد هجمات الاعداء (٨٤).

ونلاحظ ان المصادر استعملت كلمات مختلفة بالنسبة لتعيين الولاة على المدن مثل (تولى) و (سلم) و (اقطع) و (اعطي) و (رتب) و(عين) كما انها سمت بعضهم بـ(صاحب كذا ....).

بدلا من وال : وهذا يشير — بطبيعة الحال — إلى نوعية السلطة والاختصاصات التي كان الوالي يمارسها ؛ حيث نجد ان المقطع يتمتع بصلاحيات اوسع في

---

(٨٢) Elisseeff : Nur Ad-din, PP. 787-788,
وانظر السبكي : معيد النعم ص ٣٠ — ٣١ .

(٨٣) صبح الاعشى : ٩٢/١١ .

(٨٤) عماد الدين خليل : الامارات الارتقية ص ٣٠٤ ، عماد الدين زنكي ص ٢٤٦ — ٢٤٩.

مجال اقطاعه ، من الوالي الذي يمارس عملا ادارياً فحسب (٨٥) .
ويجب ان نلاحظ ان اقطاع امير ما مدينة من المدن ليس معناه — بالضرورة ان نور الدين جعله صاحبها ، بل المراد انه خوله الحق في ان يأخذ لنفسه صافي ايرادها بعد نفقات المنافع العامة ومرتبات الموظفين عسكريين ومدنيين وقد يقيم المقطع في اقطاعه اولاً يقيم ، لان ادارته كانت بيد رجال السلطان أي ان الاقطاع — على هذا — كان نوعا من المكافأة المالية إلى جانب الراتب(٨٦)

وعلى العموم فقد قسمت دولة نور الدين — ادارياً — إلى عدة اقاليم شهد كل منها عددا من الولاة او المقطعين : القسم الشمالي من بلاد الشام وقاعدته حلب ، والقسم الاوسط وقاعدته دمشق ، ومقاطعة حمص ، واقليم الجزيرة الذي ضم ثلاث مقاطعات : ديار ربيعة وقاعدتها الموصل ، وديار مضر وقاعدتها الرقة ، وديار بكر وقاعدتها امد . هذا فضلا عن الأقاليم التي فتحت فيما بعد كمصر واليمن ... ولم يغفل نور الدين عن ضرورة ربط هذه الاقاليم الادارية جميعاً بسياسة مركزية موحدة لمجابهة تحديات الصليبيين من جهة ، ومحو اثار التمزق الذي عانته المنطقة طيلة العقود السابقة من جهة اخرى(٨٧) فهي — اذن — ليست محاولة لتنمية (الروح السورية) كما استنتج اليسيف(٨٨).

اما والي البلد فيرجح انه كان يقوم بنفس مهام الوالي المركزي لدى الايوبيين والمماليك — فيما بعد — حيث كانت مهمته « الاستعلام عن مجددات ولايته من قتل او حريق كبير او نحو ذلك (٨٩) » . وهو الذي ينفذ الاحكام ويقيم الحدود ويتعقب المفسدين ومثيري الفتن ومدمني الخمر ومن اختصاصه

(٨٥) انظر عماد الدين زنكي ص ٢٤٩ .

(٨٦) حسين مؤنس : نور الدين محمود ص ٣٨٤ — ٣٨٥ وانظر عن (الاقطاع) في هذا العصر بالتفصيل الصفحات ٢١٢ — ٢٢٥ من كتاب (عماد الدين زنكي) و Lambton Landlord and Peasant in Persia, (London 1953).

(٨٧) انظر : Elisseeff : Nur — Ad — din, PP. 781 - 783.

(٨٨) Ibid

(٨٩) القلقشندي : صبح الاعشى ٤/٦٠ .

ايضا مراقبة ابواب المدينة والطواف باحياء التجارة والمال (٩٠) اي ان مهمته اشبه بمهمة كل من البلدية والشرطة في الوقت الحاضر (٩١) .

وكانت اختصاصات والي القلعة — فيما يبدو — مشابهة إلى حد كبير لاختصاصات نائب القلعة لدى المماليك — فيما بعد — حيث كان هذا يقوم بالاشراف على فتح واغلاق باب القلعة المخصص لدخول الجند وخروجهم ويتفقد اسوار القلعة ومنافذها ويعمل على اصلاحها، ثم اصبح من اختصاصه الفصل فيما يقع بين العامة من الخصومات ، وهي اشبه بوظيفة الشرطة او الانضباط العسكري في الوقت الحاضر . وكان يتمتع باستقلال كبير عن النائب (٩٢) .

والشحنة وظيفة استحدثها السلاجقة ويعين صاحبها من قبل السلطان وهي اشبه ماتكون بوظيفة الحاكم العسكري في عصرنا الحاضر ، يتمتع شاغلها بسلطات بوليسية وادارية ، وهو المسؤول عن ادارة المدينة وملاحظة الخارجين على النظام (٩٣) .

اما رئيس البلد ، او رئيس الاحداث ، فيتولى رئاسة جماعات مسلحة من سكان المدينة اشبه بالقوات الشعبية . وكانت هذه الجماعات قد ازداد شأنها في بلاد الشام في مستهل القرن السادس الهجري واصبحت لهم السيطرة على الحياة في دمشق وصار لهم رئيس اتخذ لهم لقب رئيساً الاحداث او رئيس

---

(٩٠) علي ابراهيم حسن : المماليك البحرية ص ٢٣٠

(٩١) الامارات الارتقية ص ٣١٠ .

(٩٢) القلقشندى : صبح الاعشى ٢٢/٤ – ٢٣ ، العمري التعريف بالمصطلح الشريف ص٩٤– ٩٦ ، ١٤٨–١٤٩ ، علي ابراهيم حسن : المماليك البحرية ص ٢٣١ ، الامارات الارتقية ص ٣٠٦ .

(٩٣) حسين امين : نظام الحكم في العصر السلجوقي ، مجلة سومر مجلد ٢٠ سنة ١٩٦٤ وانظر الامارات الارتقية ص ٣١٠–٣١١ ، Elisseeff ; Nur Ad -- din, P. 833

البلد ، ويقر والي المدينة اختياره ، وقد قلدت حلب اختها دمشق في ذلك (٩٤).

اما (الاتابـــك) فهي كلمة تتالف من لفظين تركيين هما (اتا) بمعنى أب و (بك) بمعنى امير ، اى الامير الوالد (٩٥) « وليس للاتابك وظيفة ترجع إلى حكم وامر ونهي ، وغايته رفعة المحل وعلو المقام » وكان الاتابك يكلف من قبل السلطان الحاكم بالوصاية على واحد او اكثر من ابنائه الذين لم يبلغوا سن الرشد (٩٦) .

وكان الخدم ، او الخدام ، يعملون سوية مع الحجاب في قضايا التشريفات والوفود وتنظيم امور القصر وتلقي المكاتبات احيانا (٩٧) .

وقد اولى نور الدين المؤسسة القضائية اهتماماً كبيرا وجعلها — بما انها الاداة التنفيذية لاقرار مبادىء الحق والعدل ، وتحويل قيم الشريعة ومبادئها إلى واقع ملتزم — في قمة اجهزته الادارية ، وخول القضاة ، على اختلاف درجاتهم في سلم المناصب القضائية ، صلاحيات واسعة ، ان لم نقل مطلقة ومنحهم استقلالا تاما (٩٨) في دراسة القضايا المعروضة عليهم واصدار احكامهم بصددها ، وتوج ذلك كله بانشاء (دار العدل) التي كانت بمثابة (محكمة عليا) لمحاسبة كبار الموظفين وارغامهم على سلوك المحجة البيضاء او طردهم واستبدالهم بغيرهم ان اقتضى الامر .

(٩٤) C. Cahen : Mouvements populaires, pp. 11--16 .
Elisseeff : op. cit, pp. 830 -- 832
السيد الباز العريني : الشرق الاوسط والحروب الصليبية ٢٤/١ — ٢٥ ، الامارات الارتقية ص ٣٠٩ — ٣١٠ .

(٩٥) ابن خلكان / وفيات الاعيان ٣١٦/١ .

(٩٦) القلقشندي : صبح الاعشى ١٨/٤ ، عماد الدين زنكي ص ٢٢٦ هامش ١٧٦
Gibb : Damascus chronicle, pp. 23-27
Encyclopeadia of Islam, ed. 2, art : Atabak (by cl. cahen).

(٩٧) انظر القلقشندي : صبح الاعشى (طبعة ٢) ٢٦٧/٧ — ٢٦٩ ، ٢٢٥/٨ ، ٢٢٩ الامارات الارتقية ص ٣٠٨ — ٣٠٩ .

(٩٨) ابن قاضي شهبة : الكواكب ص ٢٥ .

وكان شعاره ماأكده اصحابه مرارا « حرام على كل من صحبني ولايرفع الي قصة مظلوم لايستطيع الوصول الي » (٩٩) . ويحكي خادمه شاذبخت الطواشي الهندي الذي كان احد نوابه في حلب ، هذه الحادثة ذات الدلالة الواضحة في هذا المجال : كنت يوما انا ورجل واقفين على رأس نور الدين وقد صلى المغرب وجلس وهو مفكرا فكرا عظيماً وجعل ينكش باصبعه الارض ، فعجبنا من فكره وقلنا : في اى شي يفكر ؟ في عائلته او في وفاء دينه ؟ وكأنه فطن بنا فرفع رأسه وقال : ماتقولان ؟ فأجبناه بعد تردد فقال : والله اني افكر في وال وليته امور المسلمين فلم يعدل فيهم ، او فيمن يظلم المسلمين من اصحابي واعواني ، واخاف المطالبة بذاك (امام الله) فبالله عليكم ،والا فخبروني عليكم حرام : لاتريان قصة ترفع الي ، او تعلمان مظلمة ، والا واعلماني بها وارفعاها الي (١٠٠) .

يصفه ابن الاثير بانه « كان يتحرى العدل ، وينصف المظلوم من الظالم كائنا من كان . القوي والضعيف عنده في الحق سواء ، فكان يسمع شكوى المظلوم ويتولى كشف حاله بنفسه ، ولا يكل ذلك الى حاجب ولاأمير ، فلا جرم ان سار ذكره في شرق الارض وغربها (١٠١)

وكانت قمة اجراءاته القضائية انشاؤه دارا في دمشق لكشف المظالم سماها (دار العدل) وكانت — كما ذكرنا — اشبه بمحكمة عليا لمحاسبة كبار الموظفين ثم عممت صلاحياتها فامتدت اقضيتها إلى سائر ابناء الامة . وقد جاء انشاؤها بسبب من تزايد عدد من كبار الامراء في دمشق ، وبخاصة اسد الدين شيركوه وتماديهم في اقتنـاء الاملاك ، وتجاوز بعضهـم حقوق البعض الاخر ، فكثرت الشكـوى إلى قاضي القضـاة كمال الدين الشهرزوري فانصف بعضهـم مـن بعض لكنه لم يقدم على الانصـاف مـن شيركـوه .

(٩٩) ابن قاضي شهبة : الكواكب ص ٧٠

(١٠٠) نفسه ص ٢٥ .

(١٠١) الباهر ص ١٦٦ .

فانهى الحال إلى نور الدين ، فاصدر امره حينئذ ببناء دار العدل . يقول ابن الاثير « فلما سمع شيركوه ذلك احضر نوابه جميعهم وقال لهم : اعلموا ان نور الدين ما امر ببناء هذه الدار الا بسببي وحدي ، والا فمن هو الذي يمتنع على كمال الدين ؟ والله لئن حضرت إلى دار العدل بسبب احدكم لاصلبنه فامضوا إلى كل من بينكم وبينه منازعة في ملك فافصلوا الحال معه وارضوه باى شيء امكن ولو أتى على جميع مابيدي . فقالوا له : ان الناس اذا علموا هذا اشتطوا في الطلب . فقال : خروج املاكي من يدي اسهل عندي من ان يراني نور الدين بعين اني ظالم ، او يساوى بيني وبين احاد العامة في الحكومة (اى القضاء) ، فخرج اصحابه من عنده وفعلوا ما امرهم ، وارضوا خصماءهم واشهدوا عليهم . فلما فرغت دار العدل جلس نور الدين فيها لفصل الحكومات فلم يحضر عنده احد يشكو من اسد الدين ، فعرفه الحال فقال : الحمد لله إذ اصحابنا ينصفون من انفسهم قبل حضورهم عندنا » (١٠٢).

وكان نور الدين يجلس في دار العدل مرتين في الاسبوع ، وقيل اربع مرات او خمس(١٠٣) للنظر في امور الرعية وكشف ظلاماتهم « لايطلب بذلك درهما ولادينارا ولازيادة ترجع الى خزانته ، وانما يفعل ذلك ابتغاء مرضاة الله » (١٠٤). وكان يحضر معه قاضي القضاة كمال الدين الشهرزوري وكبار العلماء والفقهاء من سائر المذاهب ، لاعتمادهم كمجلس استشاري لاتخاذ القرارات النهائية « ويامر بازالة الحاجب والبواب حتى يصل اليه الضعيف والقوي والفقير والغني ، ويكلمهم باحسن الكلام ويستفهم منهم بابلغ النظام حتى لايطمع الغني في دفع الفقير بالمال ولاالقوى في دفع الضعيف بالقتال . ويحضر في مجلسه العجوز الضعيفة التي لاتقدر على الوصول إلى خصمها ولا المكالمة معه فتغلب خصمها طمعا في عدله،ويعجز الخصم عن دفعها خوفا من عدله.

(١٠٢) ابن الاثير : الباهر ص ١٦٨ .
(١٠٣) انظر : ابا شامة : الروضتين ٣٣/١/١ .
(١٠٤) نفسه .

فيظهر الحق عنده فيجرى الله على لسانه ماهو موافق للشريعه ، ويسأل العلماء والفقهاء عما يشكل عليه من الامور الغامضة فلا يجري في مجلسه الا محضي الشريعة » (١٠٥) .

ولم يميز نور الدين في دار العدل هذه بين ابناء امته على اى دين كانوا فكان كما يقول ابن الاثير «ينصف المظلوم ولو انه يهودي من الظالم ولو انه ولده او اكبر أميرعنده » . (١٠٦) وكان قبل انشائه هذه الدار يجلس كل يوم ثلاثاء في المسجد المعلق بدمشق « ليصل اليه كل احد من المسلمين واهل الذمة حتّى نساؤهم» (١٠٧) الامر الذي يفسر لنا مااورده الرحالة اليهودي بنيامين التطيلي من تواجد العدد الكبير من اليهود في دمشق وحلب حيث بلغ في الاولى نحو ثلاثة الاف (١٠٨) وفي الثانية الفا وخمسمائة ، كما يفسر لنا اتخاذ دمشق مقرا لرأس المثيبة(١٠٩) لعلماء فلسطين(١١٠) وتواجد العدد الجم من هؤلاء فيها » (١١١)

اما النصارى المتواجدون في دولة نور الدين فانهم لم يمسوا باذى — رغم ظروف الصراع الاسلامي الصليبي — وعوملوا كمواطنين لهم حق الرعاية الكاملة ولم يعرف عنه « انه هدم في حياته كنيسة ولا آذى قسا او راهبا.

---

(١٠٥) نفسه وانظر ابن الاثير : الباهر ص ١٦٨ وابن كثير : البداية ٢٨٠/١٢ و .
Elisseeff ; Nur Ad- din. pp.843–847

(١٠٦) ابن الاثير : الكامل ٤٤/١١

(١٠٧) ابن قاضي شهبة : الكواكب ص ٢٥ .

(١٠٨) حوالي سنة ٥٧٧هـ (١١٨٠م) ، اي بعد اقل من مرور عقد على وفاة نورالدين وجد فيها الرحالة اليهودي الاخر المدعو (فتاحية) عشرة الاف يهودي : رحلة ٧٦م عن التطيلي رحلة ، ص ١١٧ هامش ١ .

(١٠٩) اللفظة ارامية تعني المجلس : المصدر السابق ص ١١٧ هامش رقم ٢ .

(١١٠) كان بيت المقدس مقر المثيبة حتّى الغزوة الصليبية الاولى وعندها لجأ علماؤها اليهود الى (حدرخ) على مقربة من دمشق ، ومنها انتقلت الى العاصمة نفسها . وفي هذه المرحلة أصبحت مثيبة دمشق في منطقة نفوذ رأس مثيبة بغداد: المصدرالسابق ص١١٧ هامش ٣.

(١١١) المصدر السابق ص ١١٧ ، ١٢٢ .

وقد كان الصليبيون اذا دخلوا بلدا قتلوا جل اهله المسلمين. ولو انه تاثر بذلك وعاملهم بالمثل لقام له في ذلك عذر ، ولكنه كان انسانا عظيماً لايقيس نفسه باولئك الجفاة الذين اساؤا حتى إلى نصارى البلاد ، فظلت الكنائس في بلاده عامرة باهلها .. بل ان الصليبيين كانوا اذا خرجوا من بلد تنفس نصاراه الصعداء وامنوا إلى عدله وانصافه » (١١٢) .

وما كان نور الدين ، هذا الحاكم العادل ، ليضع بينه وبين الرعية حدا او جدارا : فيستثني نفسه من حضور مجلس القضاء والاذعان لحكمه اذا اذا ماادين بتهمة او ثبتت عليه .. وماا اكثر مايحكيه المؤرخون ويتناقلونه من روايات تبين لنا كيف كان الرجل يذعن للطلب ويذهب لحضور ساحة القضاء وتلقي كلمته كما يذهب اى مواطن عادى.

طلب مرة من قبل احد المدعين فما كان من احد كبار موظفيه الا ان دخل عليه ضاحكا وقال مستهزئاً : يقوم المولى إلى مجلس الحكم !! فانكر نور الدين على الرجل سخريته وقال : تستهزيء بطلبي إلى مجلس الحكم ؟ واردف : يحضر فرسي حتى نركب اليه ، السمع والطاعة : قال الله تعالى (انما كان قول المؤمنين اذا دعوا إلى الله ورسوله ليحكم بينهم ان يقولوا سمعنا واطعنا (١١٣) ثم نهض وركب حتى دخل باب المدينة واستدعى احد اصحابه وقال له:امض إلى القاضي وسلم عليه وقل له:اني جئت هاهنا امتثالا لامر الشرع : (١١٤) .

ويوما كان يلعب الكرة ، هوايته المفضلة ، في دمشق ، فرأى رجلا من اتباعه يحدث اخر ويومىء بيده اليه ، فارسل اليه يسأله عن حاله ،فاعلمه ان له مع نور الدين خصومة حول بعض الاملاك ، وطلب حضوره إلى مجلس القضاء للفصل في المسألة . فتردد الغلام في عرض الموضوع على

(١١٢) حسين مؤنس : نور الدين ص ٣٦٧ – ٣٦٨ .
(١٣) سورة النور ، آية ٥١ .
(١١٤) ابو شامة : الروضتين ١/١/٣٦ – ٣٧ .

نور الدين ، لكن هذا الح عليه ، فلما تبين له الامر القى العصا من يده وخرج من الميدان وسار إلى القاضي كمال الدين وقال له ، انني قد جئت محاكما فاسلك معي ماتسلكه مع غيري . فلما حضر المدعي ساوى كمال الدين بينه وبين خصمه واذا لم يثبت ضده شيء قال للقاضي ولكافة الحضور : هل ثبت له عندي حق ؟ قالوا : لا . فقال اشهدوا انني قد وهبت له هذا المال الذي حاكمني عليه . وقد كنت اعلم انه لاحق له عندي وانما حضرت معه لئلا يظن انني ظلمته ، فحيثما ظهر ان الحق لي وهبته اياه (١١٥) « تلك هي غاية العدل والانصاف بل غاية الاحسان ، وهي درجة وراء العدل كما يعلق ابن الاثير »(١١٦) .

في عام ٥٥٨هـ =١١٦٢م ادعى رجل على نورالدين ان اباه(زنكي) اخذ من ماله شيئا بغير حق وانه يطالب بذلك . فقال نور الدين : انا لااعلم شيئا عن ذلك فان كان لك بينة تشهد بذلك فهاتها وانا ارد اليك مايخصني ، فاني ماورثت جميع ماله فقد كان هناك ورثة غيري ... فمضى الرجل ليحضر البينة (١١٧) .

وفي حادثة اخرى تلتقي بنور الدين وقد استدعي إلى مجلس الحكم فمضى مسرعاً الا انه وجد اثناء طريقه مامنعه من العبور ، فوكل وكيلا واشهد عليه شاهدين بالتوكيل وقفل راجعا (١١٨) .

ولم يكن نور الدين يصدر العقوبة على الظنة والتهمة بل يطلب الشهود على المتهم فان قامت عليه البينة الشرعية عاقبه العقوبة العادلة من غير تعد « فدفع الله بهذا الفعل عن الناس من الشر مايوجد في غير ولايته مع شدة السياسة والمبالغة في العقوبة والاخذ بالظنة وامنت بلاده مع سعتها ، وقل المفسدون ببركة العدل واتباع الشرع المطهر» (١١٩) . ويحدثنا ابن الاثير كيف ان احد اسباب

---

(١١٥) ابن الاثير : الباهر ص ١٦٦ - ١٦٧ .
(١١٦) نفسه ص ١٦٧ .
(١١٧) ابو شامة : الروضتين ٣٤/١/١ .
(١١٨) نفسه ١٦/١/١ .
(١١٩) ابن الاثير : الباهر ص ١٦٧ .

اقالة عبد المسيح، احد كبار مسؤولي الموصل، من وظيفته عام٥٦٦هـ=١١٧٠م كان خشونة الرجل على الرعية والمبالغة في اقامة السياسة (١٢٠) .

هذا على مستوى القضايا الخاصة ، واما القضايا العامة التي تكون (الحكومة) فيها طرفا في الموضوع ، او تتخذ اجراء باسم الصالح العام قد يمس بحقوق المواطنين فان نور الدين لم يكن اقل تحريا للحق والتزاماً بالعدل . وثمة وثيقة قيمة يثبتها لنا ابو شامة بنصها عن احد المحاضر التي دونت بصدد عدد من من قضايا الوقف والاملاك كانت قد ادخلت ضمن اوقاف الجامع الاموي بدمشق وسعى نور الدين إلى فصلها واعادتها إلى قطاع المنافع العامة وبخاصه مسائل الدفاع والامن . وقد تمثلت في تلك الوثيقة بوضوح الرغبة الجادة لدى نور الدين في التزام الاسلوب الشوري الحر باعتباره الطريق الذي لاطريق غيره للوصول إلى الحق وفيما يلي بعض مقاطع هذا المحضر ونماذج من المناقشات التي دارت فيه والاراء التي طرحت خلاله :

« حضر عند نور الدين بقلعة دمشق يوم الخميس تاسع عشر صفر سنه ٥٥٤هـ=١١٥٩م القاضي زكي الدين ابو الحسن علي بن يحيى القرشي ، والفقهاء الشيخ شرف الدين بن ابي عصرون والخطيب عز الدين ابو البركات والامام عز عز الدين ابو القاسم بن الماسح الشافعيون وشرف الدين ابو القاسم عبد الوهاب المالكي وشرف الاسلام محمد بن عبد الوهاب الحنبلي ورضي الدين ابو غالب بن محمد بن اسد التميمي رئيس دمشق ونظام الدين بن أبي المضاء متولى الوزارة بدمشق ، وعدد من الاعيان من شهود العدالة بدمشق .فسألهم (نور الدين) عن المضاف إلى اوقاف المسجد الجامع بدمشق من المصالح التي ليست وقفا عليه ، وان يظهر كل واحد منهم مايعلمه من ذلك ليعمل به ويقع الاعتماد عليه وقال لهم : ليس يجوز لاحد منكم يعلم من ذلك شيئا الا ويذكره ولاينكر مما يقوله غيره الا وينكره والساكت منكم مصدق للناطق ومصوب، لقوله وليس العمل الا على ماتتفقون عليه وتشهدون به . وعلى هذا كان

(١٢٠) الباهر ص ١٥٣ — ١٥٤ .

الصحابة رضي الله عنهم يجتمعون ويتشاورون في مصالح المسلمين .. ثم امر نور الدين متولي اوقاف الجامع والمساجد والبيمارستان وقني السبيل وما يجري مع ذلك ان يقرأ عليه بمحضر من المذكورين ، ضريبة الاوقاف موضعا ليفرد مايعلمون انه للمصالح (العامة) دون الوقف . فافتتح بالسوق المستجد تحت المئذنة الغربية جوار البيمارستان ، فقال بعضهم هذا السوق بكماله لمصالح المسلمين وليس من وقف الجامع لانه احدث في طريق المسلمين وقد صرف، في الجامع من اجوره اوفى مما عزم على عمارته من وقفه. فصدقهم الحاضرون على ماشهدوا به. ثم عين للمصالح أيضاً (بعدد الأماكن واحداً واحداً)..فلما شهدوا بصحة جميع ماذكر وأن منافع ذلك واجوره جارية في المصالح ،قال نور الدين ان أهم المصالح سد ثغور المسلمين . وبناء السور المحيط بدمشق، والخندق ، لصيانة المسلمين وحريمهم واموالهم فصوبوا ماأشار اليه وشكروه. ثم سألهم عن فواضل الأوقاف هل يجوز صرفها في عمارة الأسوار وعمل الخندق للمصلحة المتوجهة للمسلمين؟ فافتى شرف الدين المالكي بجواز ذلك ومنهم من روّى في مهلة النظر ، وقال الشيخ ابن أبي عصرون الشافعي : لايجوز أن يصرف وقف مسجد إلى غيره ، ولا وقف معين إلى جهة غير تلك الجهة ، وإذا لم يكن بدء من ذلك فليس طريقه إلا أن يقترضه من اليه الأمر من بيت مال المسلمين فيصرفه في المصالح ويكون القضاء واجباً من بيت المال . فوافقه الأئمة الحاضرون معه على ذلك . ثم سأل ابن ابي عصرون نور الدين: هل أنفق شيء قبل اليوم على سور دمشق وعلى بناء (بعض) العمارات المتعلقة بالجامع المعمور بغير إذن مولانا ؟ وهل كان إلا مبلغاً للأمر في عمل ذلك ؟ فقال نور الدين : لم ينفق ذلك ولا شيء منه إلا باذني وانا امرت به ...»(١٢١)

(١٢١) الروضتين ٤١/١/١ – ٤٤ (يجد القارىء هناك النص الكامل للوثيقة) .

اعتمد نور الدين في أجهزته القضائية رجالا ثقاة عرف كيف ينتقيهم ، بعد إذ رأى فيهم من الفقه الواسع والتقوى العميقة ، مايؤهلهم لتسلم منصب القضاء الذي تربع في عهده - كما رأينا - قمة مؤسسات الدولة ، وحظى باستقلال تام واصبح حكمه هو الحكم الملزم للجميع بما فيهم السلطان نفسه وكبار امرائه.

ويبرز ، من بين حشد كبير من القضاة ،آل الشهرزوري وعلى رأسهم كمال الدين ابي الفضل محمد بن الشهرزوري ، اولئك الذين كانوا قد تخصصوا منذ عهد عماد الدين زنكي وماقبله ، في المهام القضائية وبرعوا فيها ، كما يبرز اسم شرف الدين بن أبي عصرون .

وحدث في مطلع عام ٥٥٥هـ = ١١٦٠م أن تقدم قاضي دمشق زكي الدين أبو الحسن علي بن القرشي برقعة إلى نور الدين يطلب فيها اعفاءه من القضاء، فأجابه إلى طلبه وولى قضاء دمشق القاضي الامام كمال الدين بن الشهرزوري وهو كما يصفه ابن القلانسي المعاصر له « المشهور بالتقدم ووفور العلم وصفاء الفهم والمعرفة بقوانين الأحكام وشروط استعمال الأنصاف والعدل والنزاهة وتجنب الهوى والظلم ، وحكم بين الرعايا باحسن أفعال في الحكم ».. وكتب له نور الدين منشورا بذلك بين فيه أنه في حالة غيابه أو اشتغاله بمهمة مافإن ولده محيي الدين ينوب عنه في منصبه (١٢٢) .

كان كمال الدين قد ولد عام ٤٩١ هـ = ١٠٩٧ م وتفقه ببغداد وسمع الحديث من كبار المحدثين وولى قضاء بلدة الموصل ، وكان يتردد إلى بغداد وخراسان رسولا من عماد الدين زنكي ثم مالبث أن وفد على نور الدين(١٢٣) ويبدو من رواية لابن العديم (١٢٤) أن كمال الدين أصبح بعد أقل من عامين (٥٥٧هـ= ١١٦١م) قاضياً لقضاة الدولة كلها « وامر نور الدين القضاة ببلاده أن يكتبوا

(١٢٢) دمشق ص ٣٥٩ - ٣٦٠ .
(١٢٣) ابن طولون : قضاة دمشق ص ٤٧ - ٤٨ .
(١٢٤) زبدة ٣١٢/٢ .

الكتب نيابة عنه» ، وان زكي الدين قاضي دمشق لم يتقدم بالاعفاء عام٥٥٥هـ=١١٦٠م وانما اعفاه نور الدين بسبب امتناعه عن ان يكون احد نواب كمال الدين .
ومهما يكن من أمرفان كمال الدين قد تمكن من منصبه واصبح في دمشق ، كما يقول العماد « الحاكم المطلق»(١٢٥)واصبحت دولته نافذة الأوامر منتظمة الامور(١٢٦) .وورد عنه كذلك انه « ارتقى إلى درجة الوزارة فكان له الحل والعقد في أحكام الشام » (١٢٧) .وكان له من صفاته الشخصية وسياسته القائمة على البر بالابرار وحفظ الأصدقاء (١٢٨) ، ومن ثقافته الواسعة وخبرته الفقهية والقضائية والسياسية ، خير معين على مواصلة الطريق حتى النهاية . ولم يكتف كمال الدين بمهامه القضائية بل كان يملك نزعة متأصلة للبناء والأعمار فأشرف بنفسه على بناء اسوار دمشق ومدارسها ومارستاناتها (١٢٩) ،وقد فوضه نور الدين مهمة الاشراف على دار الضرب واوقاف الدولة وتوجيه مصارفها لبناء الاسوار وحفظ الثغور فانجز مهمته على خير وجه (١٣٠) ، كما أولى عناية خاصة باعمار الجامع الأموي بدمشق والانفاق عليه بسخاء(١٣١).
وزاد نور الدين على ذلك كله فاعتمده مبعوثاً على الخليفة العباسي في بغداد(١٣٢).
كما اعتمد ابنه محيي الدين نائباً عنه في قضاء حلب والبلدان التابعة لها فضلاً عن النظر في امور ديوانها. وكان محي الدين هذا ، كما يصفه العماد « من أهل

---

(١٢٥) البرق ص ٢٢٢ .
(١٢٦) نفسه ص ١٤٦ - ١٤٧ .
(١٢٧) العماد : الخريدة قسم الشام ص ٢٤٦ هامش ٤ وقد اخطأ ابن طولون في تفسير هذه العبارة فظن ان نور الدين قد استوزره (قضاة دمشق ص ٤٧ - ٤٨) .
(١٢٨) العماد : البرق ص ٢٢٢ - ٢٢٤ .
(١٢٩) نفسه .
(١٣٠) نفسه ص ١٤٦ - ١٤٧ .
(١٣١) ابن كثير : البداية ٢٧٨/١٢
(١٣٢) ابن الاثير : الكامل ٣٩٥/١١ .

الفضل ، وله نظم ونثر وخطب ، وكانت معرفته (بالفقه) في أيام التفقه في بغداد في المدرسة النظامية منذ سنة ٥٣٥ هـ =١١٤٠م » (١٣٣) ، كما اعتمد في حماة وحمص قضاة آخرين من بني الشهرزوري أنفسهم (١٣٤).وعندما دخل الموصل عام ٥٦٦هـ = ١١٧٠ م أقر على قضائها حجة الدين بن نجم الدين الشهرزوري (١٣٥).

أما الشيخ شرف الدين أبو سعد بن أبي عصرون الذي تولى قضاء سنجار ونصيبين وحران وغيرها من مدن ديار بكر، واصبح هناك أشبه بقاضي القضاة، ينوب عنه في سائر المدن نواب اشرف على تعيينهم بنفسه(١٣٦)، فقد ولد بالموصل سنة ٤٩٢هـ (أو ٤٩٣) = ١٠٩٩ م وتفقه على جماعة من العلماء ، وانتقل إلى حلب سنة ٥٤٥هـ = ١١٥٠ م ثم قدم دمشق لدى دخول نور الدين اليها عام ٥٤٩ هـ =١١٥٤م ودرس في جامع دمشق ، وتولى اوقاف المساجد ، ثم رجع إلى حلب واقام بها ، وصنف كتباً كثيرة في الفقه والمذاهب ودرس على يديه عدد كبير من التلاميذ وانتفعوا به . وكان فقيها من طراز أول ،ووصف بأنه من أفقه أهل عصره وانه أمام اصحاب الشافعي يومذاك ، وكان متوحداً في العلم والعمل . وسرعان ماتقدم عند نور الدين فكلفه بالاشراف على بناء المدارس في حلب وحمص وحماة وبعلبك وغيرها ثم مالبث أن ولاه قضاء ديار بكر ومنحه ــ كما سبق وان ذكرنا ــ صلاحيات واسعة .(١٣٧). كما اعتمده عام ٥٦٦هـ =١١٧٠م رسولا إلى الخليفة المستضيىء في بغداد (١٣٨). وقد توفي عام ٥٨٥ هـ = ١١٨٩ م .

---

(١٣٣) عن ابي شامة : الروضتين ٤٧٠/١ .

(١٣٤) ابو شامة : الروضتين ٤٧٠/١ ابن طولون : قضاة دمشق ص ٤٧ ــ ٤٨ .

(١٣٥) العماد : البرق ص ٩٧ .

(١٣٦) نفسه ص ١٠٠ .

(١٣٧) ابن خلكان : وفيات ٥٣/٣ ــ ٥٦ ابن طولون : قضاة دمشق ٤٩ــ ٥١ .
التميمي : الدارس ٣٩٩/١ــ ٤٠٢ .

(١٣٨) سبط : مرآة ٢٨٣/٨ .

يمكن أن يخلص الباحث – أخيراً – إلى القول بأن إدارة نور الدين محمود سارت على خطط متوازٍ في رجالاتها وأجهزتها على السواء، فمن ناحية اعتمد نور الدين عدداً من الإداريين المخضرمين الذين سبق وان اعتمدتهم دول اخرى من قبل ،كما اعتمد الكثير من الأجهزة والمؤسسات المعمول بها في عصره. ومن ناحية اخرى عرف كيف يطعم إدارته هذه بعناصر شابة جديدة ،ويجري بعض التغييرات والتعديلات في عدد من وظائف دولته كي تكون أكثر ملاءمة لتسيير امور دولة وجدت نفسها في قلب الصراع مع الصليبيين .وفيما يتعلق بالقضاء بلغ نور الدين مرحلة متقدمة في منحه الاستقلال وتفويضه الاشراف على الكثير من القضايا الخاصة والعامة على السواء .



المصادر

ابن الأثير : عز الدين محمد بن عبد الكريم الشيباني (ت ٦٣٠ ﻫ)
التاريخ الباهر في دولة الاتابكة ، تحقيق عبد القادر طليمات
دار الكتب الحديثة ، القاهرة — ١٩٦٣ م.
الكامل في التأريخ ، دار صادر ،بيروت — ١٩٦٦ م.

التطيلي : بنيامين بن يونة النباري الأندلسي (٥٦١ — ٥٦٩ﻫ).
رحلة بنيامين التطيلي: ترجمة عزار حداد ، المطبعة الشرقية
بغداد/ ١٩٤٥ م.

ابن خلكان : شمس الدين أحمد بن محمد (ت ٦٨١ ﻫ)
وفيات الأعيان وانباء أبناء الزمان، تحقيق احسان عباس.
دار صادر،بيروت —١٩٦٨ م.

سبط بن الجوزي: شمس الدين يوسف بن قزاوغلي (ت ٦٥٤ﻫ).
مرآة الزمان في تاريخ الأعيان ، دائرة المعارف العثمانية،
حيدر آباد الدكن — ١٩٥١م.

أبو شامة : شهاب الدين عبد الرحمن بن اسماعيل المقدسي (ت٦٦٥ﻫ)
كتاب الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية
تحقيق محمد حلمي أحمد ، المؤسسة المصرية العامة ،القاهرة
—١٩٦٢م

ابن شداد : عز الدين محمد بن علي (ت ٦٨٤ ﻫ) .
الأعلاق الخطيرة في ذكر امراء الشام والجزيرة.
قسم دمشق ،تحقيق سامي الدهان :المعهد الفرنسي .دمشق
— ١٩٥٦ م.
قسم حلب، تحقيق سورديل ، المعهد الفرنسي ، دمشق —
١٩٥٣ م.

ابن طولون : شمس الدين (ت ٩٥٣ هـ) .
قضاة دمشق الثغر البسام في ذكر من ولي قضاء الشام)
تحقيق صلاح الدين المنجد ، مطبوعات المجمع العلمي العربي ، دمشق — ١٩٥٦ م .

الظاهري : غرس الدين خليل بن شاهين (ت ٨٧٣ هـ) .
زبدة كشف الممالك .صححه بولس راويس المطبعة الجمهورية ، باريس / ١٨٩٤ م .

ابن العديم : كمال الدين عمر بن هبة الله (ت ٦٦٠ هـ)
زبدة الحلب من تأريخ حلب ، تحقيق سامي الدهان ، المعهد الفرنسي للدراسات العربية ، دمشق — ١٩٥٤م.

العمادالأصفهاني: محمد بن حامد (ت ٥٩٧هـ).
جريدة القصر وجريدة العصر ، جزء ٢ ، قسم شعراء الشام ، تحقيق شكري فيصل ، المطبعة الهاشمية ، دمشق — ١٩٥٩م .

سنا البرق الشامي ، وهو مختصر البرق الشامي اختصره الفتح بن علي البغدادي (ت٦٤٢هـ) ، القسم الأول ، تحقيق رمضان ششن ، دار الكتاب الجديد ، بيروت — ١٩٧١م .

العمري : شهاب الدين أحمد بن فضل الله (ت ٧٤٩هـ) .
التعريف بالمصطلح الشريف ، مطبعة العاصمة ، القاهرة — ١٣١٢ هـ .

ابن قاضي شهبة : بدر الدين (ت ٨٧٤هـ) .
الكواكب الدرية في السيرة النورية ، تحقيق محمود زايد ، دار الكتاب الجديد ، بيروت — ١٩٧١م .

ابن القلانسي : أبو يعلي حمزة (ت ٥٥٥هـ).
ذيل تأريخ دمشق ، تحقيق امدروز مطبعة الاباء اليسوعيين، بيروت — ١٩٠٨م (اعادت طبعه مكتبة المثنى — بغداد).

القلقشندي : أبو العباس أحمد بن علي (ت ٨٢١هـ) .
صبح الأعشى في صناعة الانشا ، نسخة مصورة عن الطبعة الأميرية وزارة الثقافة ، القاهرة — ١٩٦٣م (سلسلة تراثنا)

ابن كثير : اسماعيل بن عمر الدمشقي (ت ٧٧٤هـ) .
البداية والنهاية في التأريخ ،مطبعة السعادة القاهرة — ١٩٣٢م

المقريزي : تقي الدين أحمد بن علي (ت ٨٤٥هـ) .
المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار ،مطبعة بولاق، القاهرة — ١٢٧٠ هـ.

ابن مماتي : الأسعد (ت ٦٠٦هـ).
قوانين الدواوين ، تحقيق عزيز سوريال عطية ،مطبعة مصر— ١٩٤٣م .

ابن منقذ : اسامة بن مرشد الشيزري (ت ٥٨٤هـ) .
كتاب الاعتبار، تحقيق فيليب حتي ،مطبعة الجامعة برنستون الولايات المتحدة — ١٩٣٠م ، (اعادت طبعه مكتبة المثنى — بغداد) .

النعيمي : عبد القادر محمد الدمشقي (ت ٩٢٧هـ) .
الدارس في تأريخ المدارس تحقيق جعفر الحسني ، مطبوعات المجمع العلمي العربي ، دمشق — ١٩٤٨ — ١٩٥١م .

ابن واصل : جمال الدين محمد بن سالم (ت ٦٩٧هـ)
مفرج الكروب في أخباربني أيوب ، تحقيق جمال الدين الشيال ، جامعة فؤاد الأول ،القاهرة — ١٩٥٣م .

أهم المراجع

حسن : علي ابراهيم
دراسات في تأريخ المماليك البحرية ، ط٢، مكتبة النهضة المصرية ،القاهرة ــ ١٩٤٨م .

الطباخ : محمد راغب بن محمود هاشم الحلبي .
اعلام النبلاء بتأريخ حلب الشهباء ،المطبعة العلمية ،حلب ٩٢٣ ــ ١٩٢٦م .

العريني : السيد الباز
الشرق الأوسط والحروب الصليبية ،دار النهضة العربية، القاهرة ــ ١٩٦٣م .

Elisseeff: Nikita.
Nur Ad-din: un Grand Prince Musulman De. Syrie Au Temps' Des Croiades, Institut. Franc ais De Damas, Damas 1967.

Gibb: H . H . R.
The Damascus Chronicle of the crusao es, London-1932

Th Encyclopaedia of Islam, 2ed.

الدكتور كاظم هاشم النعمة

الرأي العام العراقي واتفاقية ١٩٣٠

دوره وأثره على سير المفاوضات


ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

(١)

لقد كانت اتفاقية ١٩٣٠ خاتمة لسلسة من المعاهدات والاتفاقيات المعقودة بين النظام الملكي وبريطانيا والتي مارست عن طريقها السلطات البريطانية سياستها الاستعمارية في العراق من خلف ستار من الشرعية الدولية التي اقرتها عصبة الامم باسم الانتداب . وقد كتب وبحث الكثيرون في جوانب متعددة من تطور العراق منذ الحرب العالمية الاولى وحتى الاستقلال في ١٩٣٢ (١). ولكن مازالت قضية الراى العام العراقي تفتقر إلى بحث تحليلي في اطارها العام والمحدد . وسأحاول في هذا البحث دراسة تطور الرأي العام العراقي خلال الانتداب من اجل تقييم دوره واثره في سير المفاوضات التي جرت بين الجانبين العراقي والبريطاني خلال اشهر معدودات ، وليس التعرض إلى مواقف اركان ومواطن الرأي العام بعدما تم عقد الاتفاقية مجددا ولذلك ستكون منهجية البحث الاستعانة باساليب دراسة العلوم السياسية ، وبعيدة نوعاما عن الطريقة التقليدية للدراسة التاريخية . وتحديد المفاهيم يصبح في هذه الحالة ضرورة ملحة . فالرأي العام — في احسن حالاته — هو ماذهب اليه جيمس برايس على انه الاراء الذي تمارسه مجموعة من المواطنين لها اراؤها الاقتصادية والسياسية والاجتماعية والثقافية والدينية والتي تعرب عنها بتأييدها او معارضتها لفكرة او سياسة تتبناها او تسعى لتنفيذها الفئات الحاكمة (٢) . ويميز برايس ثلاث فرق في الرأي العام اولئك الذين يعنون جديا بالشؤون العامة وهم السياسيون ورجال السلطة التشريعية والصحفيون واساتذة المؤسسات العلمية والموظفون ، وعلى الرغم من قلة عددهم فانهم في واقع الامر يشكلون مجموعة تصنع الرأي . وهناك فريق ثان يكون له رأياً عن طريق وسائط الاتصالات السياسية والاجتماعية والاعلامية ، واخيرا هناك من يتبع الرأي السائد في ساحة الشؤون العامة (٣) .

. لقد اسهمت في العملية السياسية (Political Process) في مرحلة الانتداب اربعة عناصر : السلطات البريطانية ، البلاط ، الحكومة العراقية والراي العام .

غير ان تشخيص العناصر المتفاعلة لايعني ان مهمة مراقبة دور وأثر كل عنصر بالمهمة السهلة . فهناك محاذير يجب ان ننتبه اليها . اولا : ان كل عنصر لايشكل وحدة في الموقف لفترة طويلة ، ثانيا : ان القضايا التي نسجت مادة العملية السياسية لم تكن هي الاخرى مستقرة ، ثالثا : كانت اهداف العناصر الاربعة متباينة . وبالتالي كانت النتيجة تشكيلات من العلائق المتداخلة فيما بينها . وبالاضافة إلى ذلك ، فان الانقسامات التي طرأت على مواقف كل عنصر من تلك العناصر تجعل عملية تحليل الادوار اكثر صعوبة وخطورة ، فعلى الرغم من الخلافات الجزئية بين لندن ودار الاعتماد ، فان السلطات البريطانية تمسكت بمواقف محددة في اغلب الاحايين . اما البلاط، فان شخصية فيصل وتصوره للموقف والعملية السياسية دفعت به إلى التذبذب تارة او الاقدام اوالسلبية تارات اخرى . وبحكم تباين الوزارات فإن مواقف الحكومة العراقية كانت متباينة ومنقسمة فيما بينها وبين غيرها . وربما كان الرأي العام اكثر العناصر تبايناً وانقساما، وهذا شيء طبيعي في السياسة، في مواقفه، واذا كان بالامكان رسم صورة انماط تلك العلائق فاننا مازلنا نفتقر إلى وسائل علمية دقيقة تخدمنا في تحديد قرب وبعد كل عنصر من العناصر الاخرى، ومدى تأثيره في العملية السياسية ، وقياس التجاوب والنفور بين الرأي العام والعناصر الاخرى (٤) . ومع هذا فان الوثائق الرسمية والمقابلات الشخصية والمذكرات والصحف يمكن الاعتماد عليها في محاولة دراسة الرأي العام العراقي واتفاقية ١٩٣٠ .

(٢)

يعتبر الاحتلال البريطاني نقطة تحول حاسمة في تطور الوعي السياسي في العراق وبالتالي في دور الرأي العام في تحديد العلاقات العراقية — البريطانية فقد شهدت السياسة العامة انقلابية في المضمون والشكل ، وتعاظم عدد المهتمين بالقضايا الحيوية التي اثارها الاحتلال البريطاني وفكرة الانتداب وتنوعت وسائل التأثير والافصاح عن مواقف الرأي العام من السلطات البريطانية

وسياسات الحكومات العراقية المتعاقبة والاكثر من هذا فإن اساليب التأثير لم تقتصر على طرق الاقناع السياسي التقليدي وتسليط الضغوط (كالصحافة والاجتماعات) وانما تخطتها إلى التهديد باللجوء إلى الانتفاضة المسلحة او الثورة فعلا .

لقد شجع الاحتلال البريطاني على احتدام جدال سياسي بين المعنيين بالشؤون العربية والعراقية بعد ماكانت قد طغت عليه اعتبارات موضوعية طيلة العقود التي سبقت الحرب العالمية الاولى . ففي الفترة الحميدية (١٨٧٦ — ١٩٠٩) كان الحوار الذي جرى بين صفوف الرأي العام العراقي منصبا على طرفي معادلة سياسية وكيفية التوليف بينهما : وهما القضية العربية (القومية كعقيدة) والولاء للدولة الاسلامية (الدولة العثمانية كنظام سياسي) (٥) ولكن التطورات السياسية في تركيا بعد ثورة ١٩٠٨ ، وترابط التطورات الاقتصادية في العراق مع الرأسمالية العالمية ، ونمو البرجوازية في المدن والتي «سارت لملاقاة العناصر الاقطاعية» (٦) كل هذه العوامل جعلت عملية التوليف بين طرفي المعادلة السياسية اكثر صعوبة (٧) . ومما اضاف إلى تلك الصعوبة هو ان الاحتلال البريطاني للعراق اصبح عاملا حاسماً في تعضيد الاتجاهات السياسية داخل الرأي العام في الميل إلى تفضيل احد طرفي المعادلة السياسية . وهكذا واجهت اقطاب الرأي العام العراقي معضلة جديدة في احرج مرحلة من تاريخ العراق السياسي ، وهي كيفية التوليف بين النزعة إلى القومية العربية (كعقيدة اولا مع احتمال ترجمتها إلى سياسة ونظام بعد خروج سوريا من السيطرة العثمانية وتطلع مصر إلى الاستقلال) وبين الاقليمية السياسية (الوطنية) وبسبب الاغراءات السياسية والاقتصادية والاجتماعية التي روجتها السلطات البريطانية وبسبب مااصاب قضية القومية العربية من تطويق وبالتالي تقسيم استعماري بين الحلفاء فان كفة النزعة إلى الاقليمية السياسية (الاستقلالية الاقليمية) اصبحت هي الراجحة .

صعدت الفئات السياسية والدينية والعشائرية من نشاطاتها على أثر الاحتلال البريطاني للعراق . فقد انخرطت في العملية السياسية قوى ، كانت تمتلك التأثير بفضل مكانتها الدينية والاجتماعية والاقتصادية والشخصية ، بعدما كانت قد انكمشت عن العملية السياسية ابان الحكم العثماني المتأخر في العراق (٨) . ولكن بزوال الوازع الديني اسرعت المراكز الدينية والعشائرية إلى ترجمة قوتها السياسية الكامنة إلى قوة تأثير فعلية . وتمكنت بالتعاون مع مواطن القوى السياسية في المدن من تحفيز وتوجيه الراى العام العراقي لسنين عديدة . وكان اقطاب المعارضة السياسية يلجأون إلى المراكز الدينية للافادة من علاقاتها الايجابية مع العناصر العشائرية من اجل تسليط الضغوط على السلطة وذلك كلما عجزوا عن تحقيق مكاسب بطرقهم الخاصة (٩) .ثم ان تلك المراكز الدينية اظهرت عداء سافرا للانتداب (١٠) وتحسست بمشاعر الراى العام واتجاهاته اكثر من غيرها . فضلا على ذلك فانها كانت تستغل المناسبات الدينية المتعددة للاعراب عن مواقفها. واذا كان اخماد ثورة العشرين واعتلاء فيصل للعرش قد وضعتا نهاية للتضامن الفعلي بين مراكز واقطاب الراي العام العراقي ، فان دروس ثورة العشرين اغنت النضال السياسي في العراق . فهي نبهت السلطات البريطانية والحكومات العراقية والبلاط والقوى السياسية المعارضة إلى حقيقة واضحة وهي ان القوة الكامنة للراي العام العراقي يمكن ترجمتها إلى قوة فعلية اذا تضافرت لها اوضاع مواتية ثانيا، فانها وضعت قيوداً على السياسة البريطانية في العراق ولم تترك لبريطانيا حرية صياغة الانتداب حسب رغباتها ، كما انها زودت المعارضة والبلاط بسلاح تهديدي ورادع ضد السلطات البريطانية يمكن استخدامه في حالات التأزم في العلاقات العراقية — البريطانية . (١١)

أسهمت الصحافة العراقية في عملية تثقيف وتوجيه وتطور الرأي العام العراقي . ويظهر أثر ذلك بازدياد عدد الصحف المطرد وباقبال العراقيين على قراءتها نظراً لمعالجتها للقضايا السياسية الداخلية والقومية والاجتماعية (١٢).

ولكن مع هذا كله لابد لمن يحاول أن يقيم الصحافة العراقية الالتفاف إلى الأخطاء التي كانت في الصحافة لكونها لم تمر بتجربة طويلة . فقد كان اسلوبها بعيداً عن الاتزان ، واراؤها متقلبة الاتجاهات ، وكانت لسان حال اصحابها ثم أنها افتقرت إلى الأمانة والصراحة . ولم ترتح لدور الصحافة كل من المعارضة والحكومة . فالاخاء الوطني ترى الاقلام « تنقلب إلى حراب ونبال . وتكشف العورات ويروج النفاق ويبجل الوضيع ويحتقر الرفيع ، ويعرج اذاك إلى السماء ويصافي الملائكة الكرام ويهبط هذا إلى الحضيض ويعانق الأجنة والشياطين» (١٣) أما صدى العهد فتعتقد أن « معظم الجرائد وسيلة للارتزاق وكان هدفها أحياناً اثارة العواطف، وادخلت الهول على الرأي العام فافسدت احكامه في كثير من الأحيان » (١٤).

وإذا كانت عيوب ومشاكل الصحافة العراقية قد عرقلت من تطور الرأي، على عكس ماهو معهود في صحافة النظم السياسيه المتقدمة ، فان الاحزاب هي الأُخرى تتحمل قسطاً من المسؤولية في هذا المجال فصحيح أن عدد الأحزاب والجمعيات والنوادي ازداد خلال فترة الانتداب (١٥) ، إلا أن ظاهرة تكاثر الأحزاب بهذه السرعة وعلى هذا النمط المتذبذب لم يغير من حقيقة الأمر (١٦) . فزعماء الأحزاب جنحوا إلى « معالجة القضية العراقية في طرق ملتوية والتزموا خطة التعمية والغموض والتكتم» (١٧) . وقلما كانت الأحزاب قومية وذات مناهج واضحة ، وكانت وسيلة للوصول إلى سدة الحكم والمناصب السياسية ، وسادت عليها المنازعات الشخصية والقبلية . ثم أنها غالت في أفكارها ، ان كان لها أفكار ، وجعلت من أهدافها مصائد لجلب المؤيدين ، بينما كانت تتغافل عن الأهداف حالما يصل زعماؤها إلى الحكم(١٨). وكانت قوة الأحزاب تعتمد بالدرجة الاولى « على قوة بعض شخصياتها لاعلى قوة مبادئها خاصة في فترة الأحزاب البرلمانية » (١٩) وقد كان عمر الأحزاب مقروناً باعمار وانتماء أقطابها ، الذين لم يجدوا معوقات عقائدية أو سياسية

تمنعهم من الانتقال من جهة إلى اخرى ، ويؤكد ذلك ماذكره ياسين الهاشمي في الجلسة الحادية والثلاثين للبرلمان إذ قال : « بصفتي طفيلي اضيف لوزارة الاكثرية وكان لي مدة من الزمن شرف الانتساب إلى المعارضة » (٢٠).

ومما يستحق الاشارة هو أن أغلب الأحزاب العراقية لم تطرح على المسرح السياسي بدائل واضحة المعالم يلتف حولها الرأي العام ،بل كانت في أحسن الأحوال تعلن رفضها للسياسة الرسمية ومن ثم تلزم جانب العزلة أو الصمت ولسان حالهم يقول :

« إننا انما نعمل واجبنا في خدمة بلادنا على قدر طاقتنا واننا عندما نلاقي العراقيل والمخالفات والأكاذيب من الانكليز نترك الحكم لهم وللملك يتصرفون به كيفما يشاؤون ويجنون العواقب الوخيمة بيدهم » (٢١). كما أن واقع الأحزاب فتح المجال للبلاط والحكومة والسلطات البريطانية للتأثير عليها واربا كها داخلياً وخارجياً .

لقد أقامت السلطات البريطانية نظاماً برلمانياً في العراق ،لكن النظام ولد جرثومة فساده فيه . فقد أصر المشرعون البريطانيون على ،أن تترك مجالات ممارسة السيطرة على العراق من غير عائق،وبذلك ناقضوا مفهوم البرلمانية والدستورية التقليدي . وبالتالي افرغت الأجهزة السياسية فيالنظام من معا نيها وادوارها في العملية السياسية (٢٢) ، واعطت للملك مكاناً سياسياً هاماًفي النظام (٢٣) ،وذلك لكي تغلق المسالك أمام الفئات السياسية للوصول إلى هذه الاجهزة فتؤثرمن خلالها على تطور العلاقاتالعراقية–البريطانية.بينما سخرت دار الاعتماد السلطة التشريعية لأغراضها .ولم تتردد الحكومات والبلاط من عرقلة نمو النظام البرلماني في العراق .فالانتخابات كانت تزور ،وكان بعض النواب يعين « قبل أن تنظم مضابطهم الانتخابية » (٢٤).أما مبدأ الأكثرية البرلمانية وهو الذي يعكس ثقل الفئات السياسية بين الرأي العام ،فقد اقتصر

على كونه صيغة شكلية لتملأ الفراغ في الحياة البرلمانية : « إن الأكثرية كانت مصطنعة وضالة ومجردة من الكرامة وضربية الضمير .. (و) عقبة كأداء أوقعت البلاد في المهاوي المهلكة وشتى المصائب وكانت الانتخابات مزورة » (٢٥).

وهكذا قد تدفع هذه المقدمة إلى نظرةمضطربة عندما نقيم الرأي العام العراقي ودوره واثره في العملية السياسية : « إن هذا الرأي العام لايزال سائراً وراء العواطف أكثر مما يسير وراء المنطق والعقل ،ولايزال في حكمه بعيداً عن مواطن الصواب والسبب في ذلك أن هذا الرأي لم يتعهده أقطاب سياسة عندنا ولم يبذلوا الجهود اللازمة لتهذيبه وارشاده » (٢٦) .

بيد ان هذا الحكم مستعجل ويخفق في ادراك ماللرأي العام العراقي من اثر على سير العلاقات العراقية ــ البريطانية ، لالانه اظهر ثقله ومواقفه في العملية السياسية باستمرار فحسب ، بل لانه كان قوة كامنة لم تقدر الاطراف المتفاعلة في العملية السياسية (دار الاعتماد ، البلاط ، الحكومة ، القوى الوطنية) اسقاطها من اعتباراتها . والأكثر من هذا ان فاعلية القوة التأثيرية للرأي العام العراقي ظهرت في حالات التأزم . واذا تمعنا في تاريخ العلاقات العراقية ــ البريطانية فانها باختصار مراحل تأزم وانفراج ينتهي في تأزم وسنحاول الآن معالجة هذا التأزم كما حدث في ١٩٣٠ .

ــ ٣ ــ

لم تكن مفاوضات ١٩٣٠ غير متوقعة . ففي الواقع كان تطور العلاقات العراقية ــ البريطانية يدور حول محور مسألة حيوية : التخلص من عبودية الانتداب . وكانت المعاهدات والاتفاقيات المعقودة بين الطرفين مابين ١٩٢٢ ــ ١٩٣٠ مجرد محاولات لنقل السلطة تدريجياً الى النظام الملكي ، صاحبتها صراعات سياسية حادة بين البلاط والحكومة العراقية والقوى الوطنية من جهة وبين السلطات البريطانية من جهة أخرى . ففي ١٤ ايلول ١٩٢٩ صدر

التصريح البريطاني الذي تعهدت بموجبه الحكومة البريطانية بالسعي من اجل ادخال العراق الى عصبة الامم في١٩٣٢ (٢٧) . وكان للتصريح اثر مباشر على الشؤون الداخلية في العراق . لذلك لابد من تحليل الاوضاع السياسية للفترة مابين ايلول١٩٢٩ وحتى اختيار نوري السعيد رئيساً للوزراء في آذار ١٩٣٠ وتوكيله للقيام بالمفاوضات مع الجهات البريطانية .

لقد كانت حكومة ناجي السويدي (١٨ تشرين الثاني ١٩٢٩ — ١١ آذار ١٩٣٠) ، ،في واقع الحال، حكومة انتقالية لالتقاط النفس في فترة حرجة (بعد انتحار السعدون) . اذ احتاج كل طرف في المنافسة الى التقاط النفس ومراجعة الموقف وتحديد الاهداف على ضوء تصريح ١٤ ايلول . واذا كانت القوى الوطنية قد عانت من كثرة الفجوات في جدار واجهتها، فان الاطراف الثلاثة الاخرى (البلاط ، دار الاعتماد ، والحكومة) لم تكن هي الاخرى مصونة من الخلافات فيما بينها ، بيد ان الفجوات كانت قابلة للردم حالما اتضح الهدف العام الذي رسمه التصريح . بيد ان التطور الهام في الموقف في تلك الفترة هو التحول الذي طرأ على موقف البلاط ،وبالتالي اصبح من الضروري على القوى الوطنية ان تعجل في تعديل مواقفها لمواجهة الواقع الجديد . فحتى اذار ١٩٣٠ لم يكن في وسع البلاط الدخول في مفاوضات مع السلطات البريطانية بتأييد من حكومة قوية من صنع يديه وحده ومعه قوى وطنية صامدة تعزز موقفه . والسبب في ذلك هو ان دار الاعتماد كانت تصر على التدخل في تأليف الوزارات واقالتها ، اضف إلى ذلك ان منطق المصلحة البريطانية يحتم عليها ان لاتتفاوض مع فيصل وهو في موقف القوة . من هنا كانت للاتصالات السرية والعلنية القائمة بين البلاط والقوى الوطنية اهمية حاسمة في تحديد تطور العلاقات العراقية — البريطانية . وقد تكاتفت جملة عوامل على اعطاء هذه الاهمية لتلك الاتصالات : — اولا ان القوى الوطنية

قد استعصت على دار الاعتماد على الرغم من المحاولات الناجحة بعض الشيء لاستمالة عدد كبير من الشخصيات السياسية والدينية والعشائرية في العراق (٢٨) ثانيا ، ان السلطات البريطانية لم تطمئن إلى مواقف ومشاعر الراى العام العراقي وثالثا ، كان الراي العام يعتبر مركز قوة يساند البلاط إذا اختار البلاط التمسك بخط متصلب بوجه دار الاعتماد . وأخيرا كانت الجسور مابين البلاط ومواطن القوة في الراي العام غير خاضعة كلياً للانضباطية ورقابة السلطات البريطانية فكان فيصل يعبر من عليها لتحريك الراى العام وتصعيد المعارضة للوجود البريطاني ، وقد اتخذ فيصل هذه السياسة كلما عجزت وسائل المساومة لديه عن تحقيق مكاسب لنظامه اومن اجل تبرير موقفه الرافض لبعض البنود في مسودة الاتفاقيات .

لقد كان هدف التفاعل بين البلاط ومراكز القوة في الرأي العام واضحة لكل الاطراف المعنية في العملية السياسية . فتهديد المصالح البريطانية بالهيجان الشعبي (وصدى ثورة العشرين لم يخرس بعد) (٢٩) كان في نظر السلطات البريطانية يعني اما محاولة فيصل ارغام دار الاعتماد على تولي الحكم بصورة مباشرة وذلك بعد ان يتظاهر بعجزه عن السيطرة على مشاعر الرأي العام ، او محاولة فيصل ادامة التوتر في الشؤون الداخلية ، ومما لاشك فيه ان كلا المخرجين لايخدمان المصلحة البريطانية . فالاول معناه دعوة إلى لندن لتحمل حكم العراق بكلفة باهضة (بينما كان تتويج فيصل وسيلة لانقاص تلك الكلفة) .

اما الحل الثاني فكان معناه ان فيصل والقوى الوطنية سيتناصران للتضييق على الوجود البريطاني (وهذا بدوره يعني هزيمة للسياسة البريطانية)وهنا بالذات تكمن تلك المصلحة المتبادلة بين النظام الملكي والوجود البريطاني : وهي ان فيصل . يمثل واجهة زهيدة الكلفة ولندن تقوم بدور الحامي الفعلي للنظام داخلياً والوصي عليه امام عصبة الامم .

حاولت حكومة ناجي السويدي تقديم طلبات طموحة كان لابد وان تصطدم بمعارضة دار الاعتماد فمسألة كلفة دار الاعتماد ، والموظفين البريطانيين والاشراف الدقيق من دار الاعتماد على سياسة الحكومة العراقية (٣٠) كلها ردت بتدخل من الملك على اثر طلب دار الاعتماد . (٣١) ولما كان من الصعب على ناجي السويدي تحمل المسؤولية في ظرف انكمش فيه البلاط عن تحديد موقفه ، وشنت صحف المعارضة والقوى الوطنية حملة شعواء على السياسة البريطانية في العراق ، وتصلبت دار الاعتماد في موقفها ، لذا استقال ناجي السويدي (٣٢)وتوتر الموقف الداخلي فالبلاط كان امام ثلاثة اختيارات: حكومة موالية له كليا ، او حكومة ائتلافية او حكومة مؤقتة وقد وقع اختيار البلاط على الحل الاول .

في ٢٣ اذار ١٩٣٠ شكل السعيد وزارته الاولى . وكان السعيد مخلب قط للنظام الملكي . وكانت مهمة الحكومة الجديدة واضحة : عقد المعاهدة التي كانت مسودتها قد ارسلت إلى بغداد (٣٣) . ومن اجل اعداد المناخ الداخلي ليقوم السعيد بدوره ، مورست سياسة التضييق على نشاطات القوى الوطنية (٣٤) وعطل المجلس النيابي من المدة التي كانت قد مددت جلساته اليها (٣٥) بحجة ان المعاهدة يجب «ان تعرض على الامة لابداء رأيها فيها»(٣٦) ومما اضر في مواقف الحركة الوطنية ، بشكل اكثر ، ان فيصل ايد وزارته في اجراءاتها تلك

وهذا خطأ شنيع ارتكبه الجانب العراقي اذ انه حرم نفسه من احد الوسائل التي كان فيصل يستخدمها في مساوماته مع السلطات البريطانية ويتحمل كل من البلاط وحكومة السعيد مسؤولية تقييد حرية حركة المفاوض العراقي مقدما اذ انه قطع صلاته مع مواطن القوة الاحتياطية . ومن ضروريات المساومات السياسية ان يترك المفاوض لنفسه مخرجا ، بينما نرى البلاط وحكومة السعيد

يغلقان المخرج بايديهما . لماذا ؟ ان تعليل هذه الخطوة من زاوية انهما كانا على استعداد للامتثال للسياسة البريطانية لايسلط جميع الاضواء على المسألة . وذلك لان المفاوضات شهدت مواقف تباينت فيها طلبات الجانب العراقي عن شروط مسودة الاتفاقية البريطانية . وكان فيصل يعرب عن تردده في قبول البنود العسكرية لالانه اراد ان يظهر بالمدافع عن حقوق العراق بل في اعتقادي ان ثقل الراي العام العراقي كان له دور كبير في فرض هذا الموقف على فيصل . وربما لانبالغ اذا قلنا بان السلطات البريطانية كانت اكثر تحسساً وخشية من ثقل الراي العام ولذلك فان اخفاق البلاط وحكومة السعيد في فهم وتقدير هذه الحقيقة اضاع على المفاوض العراقي استخدام الموقف لصحاله اذ كان بوسعهما تهديد بريطانيا عن طريق تقوية جسورهما مع مواطن الراي العام العراقي . فكما سنرى ان غموض موقفيهما وتمويه نواياهما دفع بمواطن الراي العام إلى التشكيك بحسن نيتهما . وحسن النية شرط اساسي في اي اتفاق لكن هذا العجز في الاتصالات لم يمنع الراي العام من فرض نفسه على سير المفاوضات رغم محاولات السلطات البريطانية بمساعدة حكومة السعيد، ابقائه في عزلة من المفاوضات .

ففي الجلسة الاولى للمفاوضات اكد همفريز ، المندوب البريطاني ، على ضرورة كتمان سير المفاوضات وعلى ان تقتصر المعلومات المنشورة على بيانات صحفية يدلي بها الطرفان ، وذلك لانه « ليس هناك مايضر بسير المفاوضات بين الطرفين اكثر مما سيسببه تسرب وجهات نظر الطرفين المتفاوضين الى الصحافة ، خاصة اذا رافقتها مقالات معارضة (للاتفاقية) (٣٧) . في ٨ نيسان لفت همفريز نظر فيصل الى ما حدث بعد الجلسة الاولى اذ تسربت المعلومات وراحت الصحف المعارضة تشن هجوماً على بنود المسودة (التي لم تنشر بعد) ووافق الوفد العراقي على اصدار بيان يؤكد ان استقلال

العراق لن يبدأ – كما طالب الرأي العام – بتصديق الاتفاقية ، وانما بدخول العراق الى العصبة (٣٨)

هنا يجب ان نقف ونتساءل : هل كانت السلطات البريطانية قد خشيت من الرأي العام العراقي ؟ وكيف ادخلته في حساباتها ؟ هل اسقط المفاوض العراقي دور الرأي العام من اعتباراته ؟ من هو الذي سرب المعلومات ولماذا ؟ واخيراً ماهي النتيجة الناجمة عن هذه الحركة ؟

ان مهمة السياسة البريطانية في العراق في ١٩٣٠ كانت تتعلق بكيفية تحويل صيغة الانتداب الى استقلال قانوني دون المساس بمصالح بريطانيا السياسية والاقتصادية والعسكرية . لذلك فانها جابهت رأياً عاماً اوضحت له الصحافة والمعارضة بأن الخلاص من الانتداب يكمن في نيل الاستقلال التام . وهذا يعني زوال السيطرة البريطانية بجميع اشكالها . اما السلطات البريطانية والبلاط وحكومة السعيد فقد فسرت الاستقلال التام بمعان مختلفة . فلقد ارتأت لندن ان لاتعطي للعراق تنازلات كبيرة غير التي جاءت في المعاهدات السابقة (٣٩) . ونظر البلاط الى الاستقلال من زاوية امن نظامه وقد سانده في ذلك نوري السعيد . فالوجود البريطاني كان ضرورياً للابقاء على النظام الملكي . لكنه لم يكن مستعداً لمجابهة الرأي العام باتفاقية لاتنص صراحة وتؤكد استقلال العراق التام . وهكذا يتضح ان كلا من السلطات البريطانية والبلاط (وحكومة السعيد) خشيت من الرأي العام. وليس هناك دليل تاريخي يثبت ان السلطات البريطانية هي التي كانت وراء تسرب المعلومات عن سير المفاوضات إلى مراكز الراي العام. وانما الصورة العامة للموقف دفعتنا إلى الاعتقاد بان السلطات البريطانية كانت تسعى لتترك الراي العام في عزلة ولتواجهه بالامر الواقع بعد توقيع الاتفاقية وذلك لسببين اولا: انها كانت مدركة جيدا بأن اقطاب الراي العام يرفضون الانتداب البريطاني

والسيطرة البريطانية تحت اية واجهة كانت . وعلى الرغم من الاختلافات التي عانت منها القوى الوطنية ، فان اغلب اعضائها كانوا مجمعين على اخراج العراق من الانتداب (٤٠) ثانيا ـ ان تسرب المعلومات سيخلق جوا مرتبكا في الساحة الداخلية مما يجعل الراى العام يقف إلى جانب حكومته او يندد بها. وكلا الحالتين لاتخدم المفاوض البريطاني فتاييد الراي العام لموقف حكومة السعيد سيشجعها على التصلب امام الضغوط البريطانية ، وفي حالة التنديد بموقف السعيد والبلاط فان السلطات البريطانية ستجد نفسها امام حكومة لاتستطيع القبول بمسودة الاتفاقية البريطانية لانها ستصطدم بالراي العام . وكذلك فان اضطراب الوضع الداخلي سيدفع بفيصل ، وهو الذي ابدى استعدادا للتفاوض من اجل الاتفاق ، إلى الرجوع إلى اللعبة السياسية .

التي طالما مارسها : وهي ارغام بريطانيا على مجابهة رأي عام صاخب من دون تايد من البلاط لموقف دار الاعتماد . وكما هو معلوم ان هذا الاحتمال كان مفتوحا امام البلاط طيلة الفترة ، اذ ان السلطات البريطانية كانت قد قوت النظام الملكي وجعلته واجهة لوجودها الموفوض بيد انها لم تدفع الثمن الذي كان البلاط يطالب به دائما . وفي مثل هذه الظروف سيجد فيصل فرصة مواتية لأرغام لندن على تقديم الثمن لكي ينقذها من موقفها . وحينئذ كان الثمن تنازلات ملائمة للنظام الملكي اي استقلال اقرب إلى الاستقلال التقليدي .

وهكذا يبدو ان الوفد العراقي قد كان وراء تسرب المعلومات بصدد المسودة والمفاوضات . وهناك جملة اسباب تدعو إلى ترجيح هذا الرأي اولا كشف تاريخ الحكومات العراقية منذ تاسيسها ، بانها لم تسقط الراى العام من حسابها في تعاملها مع السلطات البريطانيا . فهو عنصر فاعل في العملية السياسية عمل لصالح وضد تلك الحكومات. وكما يظهر من وثائق المفاوضات،فان الوفد العراقي الح على الوفد المقابل ان يدرك موقفه المحرج امام الرأي العام العراقي

فلذلك لابد من مخاطبته « بشكل يظهر للرأي العام على ان وضع العراق – كما هو مصرح في الاتفاقية – سيكون وضع دولة حرة » (٤١) ثم عاد الوفد العراقي فشدد اثناء الجلسة الثالثة (١٥ نيسان ١٩٣٠) على ضرورة ادخال عبارة الاستقلال التام

على صيغة الديباجة ،وذلك «لأرضاء الرأي العام» (٤٢). يستنتج من هذا أن الوفد العراقي تحسس بثقل الرأي العام العراقي ، الا أنه لجأ إلى المناورة والتضليل بدلا من جعل هذه الحقيقة اداة تخدمه في مفاوضاته لكسب تنازلات لصالح العراق ثانياً ، ان الرأي العام العراقي لم يكن في عتمة تامة عما يجري وراء الستار من مفاوضات سرية بين الحكومة العراقية ودار الاعتماد . فقد أشارت الصحف بان الحكومة السعيدية ستدخل في مفاوضات بشأن مسودة اتفاقية جديدة (٤٣) ، اضف إلى ذلك ان استقالة حكومة ناجي السويدي زودت الرأي العام بمناسبة تظاهر فيها ضد السلطات البريطانية وسياسة التمويه والتضليل وقد تنبهت الحكومة المرشحة بما كان يطالب الرأي العام به ، وعلى الرغم من هذا التصعيد في نشاط الرأي العام نجد أن القرار في اتخاذ موقف ما من الرأي العام تحول من جانبه إلى جانب البلاط والحكومة السعيدية . ولكن يظهر أن البلاط قرر أن يمسك العصا من الوسط . فهو لم يلزم نفسه لمواقف ونداءات الرأي العام (٤٤) لأنه يخشى أن يسير في نهاية الصف بعد ما كان يطمح دائماً وافلح في أكثر من مرة أن يكون في مقدمته . فقد عزم فيصل على أن يناور الرأي العام إلى الجهة التي تتناسب مع تقديراته وعلى أن لايكون مشدوداً إلى أحاسيس الرأي العام. وبالتالي سيجد نفسه في خندق المجابهة ضد السلطات البريطانية وهذا الخندق لم يكن فيصل قد حبذه لامن ناحية تفكيره السياسي (٤٥) «فهو منصب وليس منتخباً وهو متوج ولا يحكم »ولامن ناحية ضرورة احتفاظه بحرية المناورة .ان ربط البلاط إلى الرأي العام كان ،في نظرفيصل ، سيعيق فرص احتمال التوصل إلى اتفاق مع لندن . لقد حرص فيصل على نيل مساندة حكومة

من صنع يديه فان اختار حكومة من المعارضة وهذا اختيار قائم وآزرها على خوض المفاوضات مع السلطات البريطانية فسيعرض حكمه للخطر من جانب المعارضة نفسها ومن جانب دار الاعتماد فالمعارضة سوف لن تلين أمام بنود مسودة الاتفاقية ، والسلطات البريطانية لن تتنازل ، وبالتالي سيضطر فيصل أن يدفع الثمن بنفسه بتهديد نظامه من الداخل والخارج وبالاضافة إلى ذلك فان وضع يد فيصل في أيدي المعارضة رسمياً لايتناسب مع حقيقة أدوار النظام الملكي والسلطات البريطانية . وأخيراً ، فان المعارضة سوف لن تتورط في تفاهم مع البلاط مالم تتساوم مع فيصل حول النقطة الاساسية : الاستقلال التام . وهكذا فكيف سيكون في وسع فيصل أن يفاوض المعارضة للاتفاق على موقف معين في الوقت الذي كان يطمح فيه للوصول إلى اتفاق مع السلطات البريطانية . لذلك فان البلاط والسعيد حاولا التقرب إلى الرأي العام بحذر .

ولكن على الرغم من وجود بعض الادلة التي تشير إلى مفاتحة فيصل والسعيد لبعض اقطاب الرأي العام (٤٦) فانه من الصعب جداً تحديد تلك الاتصالات وفيما اذا افاد نوري منها في تفهم الجوانب الغامضة من البنود العسكرية والمالية ثم هناك مسألة ملحة وهي هل اقام نوري السعيد جسوراً مع بعض اقطاب المعارضة مقابل تعهد قدم له ، او انه كان يناور المعارضة ويموهها . ان الراى الثاني هو الارجح . ففي ١٥ نيسان قال نوري السعيد للصحفيين انه « لن يذيع مايجري من مفاوضات » (٤٧) . وكان بذلك يرد على مطالبة جعفر ابو التمن في ١١ نيسان في خطاب امام الحزب الوطني . بينما كان يجري مباحثات بحضور الملك مع ياسين الهاشمي (٤٨) يبدو ان السعيد كان يرمي إلى شطر صف المعارضة . وذلك لكي لاتتصدى له في جبهة واحدة . ومثل هذا المكسب شرط اساسي لانجاح المفاوضات بعيدا عن مظاهر الرفض التي سيقوم بها اقطاب الرأي العام ومن هنا يمكن الاخذ بفكرة ان نوري السعيد والبلاط تكاتفا على اقصاء الرأي العام من العملية السياسية الا بالقدر الذي يخدم مصلحتهما وربما هناك تفسير اخر . وهو ان نوري السعيد كان يبذل جهدا لاستمالة اقطاب المعارضة إلى

جانب المسودة وذلك بعد ما اتضح انه يستعصي على السلطات البريطانية اقناع او ارغام الرأي العام على القبول بالبنود التعسفية .

وبعد سلسلة من جلسات المفاوضات لم يتوصل الطرفان إلى صيغة متكاملة للاتفاقية بل ظلت جملة امور استوجب التشاور بصددها في لندن . وكان الملك فيصل قد سافر إلى اوربا ومنها إلى لندن في ٢٣ حزيران . وقد تبعه نوري السعيد في ١ تموز وهو اليوم الذي حل فيه المجلس النيابي وربما يبدو ان وجود فيصل ونوري في لندن سيقيهما ضغوط الرأي العام ، الا ان واقع الحال يؤكد على العكس من ذلك . فقد حاول نوري السعيد تحقيق صيغ تفاوضيه هدفها ايهام الرأي العام تحسبا منه بانه سوف يقابل بانتقادات حادة . وتعكس مسألة كلفة مطار الهنيدي والموصل هذه الحقيقة بشكل واضح . فقد الح نوري المفاوض البريطاني ان لايشير في الاتفاقية إلى المبلغ الذي طالبت به السلطات البريطانية في مقابل تخليها عن منشأتها في مطاري الهنيدي والموصل (والذي حدد بـ ١٢٠/٠٠٠ باوند استرليني) واعرب عن استعداده لقبول صيغة دفع دفع ثلث الكلفة . وبذلك تمكنت السلطات البريطانية من تقدير الكلفة بمبلغ ١/٠٠٠/٠٠٠ فكان على العراق ان يدفع اكثر مما طلبت وزارة الطيران البريطانية في بادىء الامر . (٤٩)

والاهم من هذا كله فان نوري السعيد كان قد تباحث مع ياسين الهاشمي بصدد مصاحبة الاخير له في سفرته إلى لندن . وكاد الهاشمي يوافق الا انه عدل عن ذلك في آخر الامر (٥٠) ويبدو ان نوري السعيد كان يحاول الايقاع بياسين الهاشمي فيشركه في المفاوضات في مرحلتها الاخيرة وفي جانبها المالي فياسين كان من اكثر الوزراء العراقيين اطلاعاً بالشؤون المالية . وبما ان القضايا المالية كانت حساسة ولياسين موافقة في ذلك فان نورى كان ينوي وضع المسؤولية على اكتاف ياسين متذرعاً بان البنود المالية قد بحثت وتم التفاوض عليها من قبل قطب من اقطاب المعارضة بالاضافة إلى كونه مضطلعاً بالامور المالية .

في ١٩ آب ١٩٣٠ وقع الطرفان على الاتفاقية في لندن ، تلك الاتفاقية التي بموجبها احتفظت بريطانيا بمصالحها وكسبت لنفسها حق صيانتها بأقل كلفة مالية وعسكرية واصبح العراق مرتبطاً ببريطانيا على الرغم من استقلاله السياسي وليس هناك من شذوذ في العلاقات الدولية ان يكون قطر ما متعاقدا مع دولة كبرى ، بيد ان صيغة تعاقد ١٩٣٠لم تكن متكافئة ، فهي امتداد للنفوذ البريطاني ناقصاً التزامات بريطانيا امام العصبة .

لقد اظهر المفاوض العراقي (وهما فيصل ونوري السعيد بشكل اساسي) عدم رغبته وقدرته على استخدام مواقف الرأي العام العراقي الذي كشف عن قوته التأثيرية الكامنة طيلة سنين الانتداب . تلك القدرة التي كانت ستنال للعراق تنازلات من الجانب البريطاني فالرأي العام العراقي ، على الرغم من عدم اتخاذه موقفاً موحداً فقد ترك اثره على السياسة البريطانية في العراق. فقد ادركت السلطات البريطانية كلفة المجابهة مع رأي عام غاضب وثائر . ومن هنا كان بامكان المفاوض العراقي ان يلزم نفسه مقدماً إلى موقف الرأي العام مهما كانت واجهته . وبالوقت نفسه فقد اخفق اقطاب الرأي العام في تصعيد المناهضة للمفاوضات من اجل ارغام الحكومة العراقية والوفد البريطاني على التجاوب مع طموحات الرأي العام وهكذا مكنوا البلاط من التردد في فتح حوار معهم كان سيكسب للعراق حقوقاً جديدة تختلف عما جاء في الاتفاقيات السابقة خاصة في المجال العسكري والسياسي .

ان ابتعاد البلاط والحكومة العراقية عن التكاتف مع اقطاب الرأى العام جعل مسيرة مفاوضات ١٩٣٠ اقل صعوبة من سابقاتها ولكن يجب ان لا نفهم النتيجة على انها حصيلة سلبية موقف اقطاب الرأي العام بل ان ايجابيته هي التي دفعت بالاطراف الاخرى إلى العزلة ، لان الطرفين المتفاوضين كانا قد عزما على المتفاوضين الوصول إلى اتفاق وهذه النتيجة كانت ستعرقله إذا ما أشرك الرأى العام في العملية السياسية آنذاك .

الهوامش

(١) هناك مجموعة كبيرة من الكتب والأطروحات والمقالات التي تناولت دراسة تاريخ العراق الحديث والمعاصر من جوانب متعددة . إلا ان موضوع الرأي العام العراقي لم يحض بقسط وافر من عناية الكتاب والباحثين . وبالأضافة إلى قلة ماكتب بصدده ، فان الباحثين. اهتموا بمواقف وردود فعل الرأي العام من الشؤون العامة والسياسية ، واغفلوا ادوار صناع الراى العام ومؤيديه في العملية السياسية ومدى اسهامهم في تطور الاحداث ،فقد كتب فاضل حسين عن مشكلة الموصل والرأي العام (مشكلة الموصل ، بغداد ، ١٩٥٥) ودرس الحكام والحركة الوطنية في العراق، بيدانه تحاشى تحليل ادوار عناصر الحركة الوطنية في تكوين السياسة واثرها على العلاقات العراقية – البريطانية .

(٢) Bryce J : Modern Democracies, 1929 Vol. 1, P. 173 ,
لا يوجد تعريف جامع شامل يتفق عليه الدارسون للرأي العام . وقد أشار شلدز إلى خمسين تعريفا للرأي العام .
Childs,H,L.:Public Opinion Nature,Formation and Role,1965 PP.12-28.

(٣) هناك تصانيف مختلفة وادوار متعددة تقرن بالرأي العام ، ويمكن التعرف عليها عند :
Key , V. O. :Public Opinion and American Democracy , 1961
Doop, L. W. :Public Opinion and Propaganda, 1948 .
International encyclopedia of the Social Science, Vol. 13 PP. 188-103 .
اما عن موقف فرقة معينة من الشؤون السياسية فانظر :
Aziz, K. K. British and muslim india 1963.

(٤) لم يعتمد البحث طريقة المقابلات الشخصية مع اقطاب الرأي العام لاستقصاء ذلك ، كما أنه لم يلجأ إلى الاسلوب الاحصائي لتحديد ثقل التأييـد والمعارضة او لاستخراج نمطية معينة لمواقف الرأي العام . ولهذا جاءت ضرورة اعتماد المصادر التاريخية وتطويقها للمنهج التحليلي .

(٥) للتوسع راجع جورج انطونيس ، يقظة العرب . وقد درس غسان عطية تطور الوعي السياسي في العراق من ١٩٠٨– ١٩٢١ في اطروحة دكتوراه منشورة باللغة الانكليزية .
Atiyah, G. R. Iraq. 1908–1920: Apolltical Study, 1973.

(٦) مانتيشا شيلي ، آ.م. العراق في فترة الانتداب البريطاني ، ١٩٦٩ ، ص ٥٦ . بالروسية .

(٧) يستخلص ابراهيم خليل من دراسة " ولاية الموصل دراسته في تطوراتها السياسية،١٩٧٥" بالرغم من الانتكاسات التي واجهتها الفئات الوطنية العربية في ولاية الموصل في المجالات العسكرية وتبعثر الجهود بين الوطنية والقومية والاسلامية والكمالية . فقد اصبحنا نلاحظ اتجاها وطنياً عراقياً ينتظم كافة الاتجاهات المتناقضة وقد بدأ ذلك الاتجاه يتوضح منذ الاستفتاء على تتويج فيصل ملكا على العراق ص ٦٣١ . ويرى حميد حمدان "أن الموقف المعلن بأسم البصرة ، بصورة عامة ، واليا لسلطة الاحتلال ، وسلبيا على المستوى الوطني . واحيانا شاجبا لمواقف القوى الوطنية في بغداد والنجف والفرات الاوسط وغيرها من

اجزاء الوطن المعارضة لوجود واستمرار الاحتلال تحت آية واجهة وفي ظل أي مبرر تقدمه السلطة المحتلة "البصرة في ظل الاحتلال البريطاني ١٩١٤ - ١٩٢١ - ١٩٧٥ ، ص ٦٤٨ . اطروحة ماجستير غير منشورة . ويشير حسين هادى شلاه إلى تواجد رأي عربي قوى عراقي في البصرة ، « ان طالب النقيب بهذا يكون اول وطني عراقي اكتشف القومية العربية العراقية ولا ندرى إن كان هو يشعر بذلك فعلا أم أنه بطبيعة الظروف وقدرته على السير بالاتجاه السليم وجد نفسه في هذا الطريق » . طالب النقيب ، رسالة ماجستير غير منشورة ، ١٩٧٠ ، ص ٢٦٠ .

(٨) Atiyah, Ibid. , p. 70.

(٩) تناولت رجاء حسين خطاب اقطاب الرأي العام العراقي من زاوية المؤيدين والمعارضين للوجود البريطاني ، وشخصت في الجهة الاولى زعماء العشائر سواء من كان منهم مواليا أو مناهضا للأتراك ، وبعض الاقليات السكانية والجهاز الاداري . أما في الجهة الثانية فقد وضعت رجال الدين والاحزاب السياسية . إلا انها اسقطت من تحليلها صيغ التاثير التي اتبعتها هذه الفئات ولم تعالج فاعلية الرأي العام في العملية السياسية . العراق بين ١٩٢١- ١٩٢٧ ، بغداد ، ١٩٧٦ ، ص ٢٥٩ - ٣٤٨ .

(١٠) مهدي كبة ، مذكراتي في صميم الاحداث ، ١٩٦٥ ، ص ١٨ .

(١١) لم يتردد فيصل عن تهديد السلطات البريطانية بتذكيرها ان نفاذه كان مخرجاً لها من ازمتها في ادارة العراق . فهدد اكثر من مرة بالتنحي عن الحكم ليترك المسؤولية لدار الاعتماد . وكان يقوم بهذه الحركة كلما ضغطت عليه السلطات البريطانية للانصياع كلياً إلى تعليماتها ؛ وكلما اخفق في كسب تنازلات منها . وبالمقابل كانت دار الاعتماد ولندن تهددانه باقصائه اذا تمادى في سياسته واغفل الارشادات . في ١٩٢١ قام فيصل بعرشه عندما أخبر كوكس بانه يرى من الضروري تأجيل جلوسه على العرش إلى ان يتم الاتفاق بصدد مسودة الاتفاقية العراقية - البريطانية " .

Colonial Office ,730 -4 -40 743 ,tel no . 390 , 14 Augut 1921 , Cox to Churchill ,

وفي حزيران ١٩٢٧ اقترح هنري دوبز ، المعتمد البريطاني في بغداد، على لندن تنحية فيصل عندما تأزم الوضع بشأن اتفاقية ١٩٢٧ .

Colonial Office , 730-120-40299 Part 11, D. O, no, S. O. 344, 14 June 1927 ,Dobbs to Amery .

(١٢) كان في العراق قبل ١٩٠٨ ثلاث صحف ، وزاد عددها إلى ٦٩ صحيفة قبيل الحرب واثنائها . وصدرت ٦١ صحيفة سياسية مابين ١٩١٤ - ١٩٣٣ . عبد الرزاق الحسني ، تاريخ الصحافة العراقية ، ١٩٧١ ، ص ٥٧ - ١٠٣ . وللتوسع حول الصحافة راجع روفائيل بطي ، الصحافة في العراق ، ١٩٥٥ ، وفائق بطي ، الصحافة العراقية ميلادها

وتطورها ، ١٩٦٩ ، وكذلك صحافة الاحزاب وتاريخ الحركة الوطنية ، ١٩٦٩ وعباس الزيدي ، تايخ الصحافة في العراق ، اطروحة دكتوراه غير منشورة ، ١٩٧٥ وفليح ابراهيم صالح ،ابراهيم صالح شكر : شخصية من تاريخ الصحافة العراقية ١٨٩٢ — ١٩٤٤ ، ١٩٦٩ .

(١٣) الاخاء الوطني ، ١٢ آب ، ١٩٣١

(١٤) صدى العهد ، ١٠ تشرين الثاني ، ١٩٣٠

(١٥) يرى غسان العطية انه لم يكن في العراق أحزاب قبل ١٩٠٨ . في تلك السنة تشكل فرع للأخاء والترقي في بغداد

Atiyah, Ibid, ,P, 53

ويذكر الحسني اسماء تسعة احزاب شهدها العراق خلال فترة الانتداب راجع احزابنا السياسية ، مجلة العربي ، عدد ١٢ ، ١٩٤٦ . وكانت احزاب عهد الاحتلال البريطاني هي : حزب العهد (١٩١٣) ، جمعية حرس الاستقلال (١٩١٩) ، جمعية البصرة الاصلاحية (١٩١٣) . اما احزاب المعارضة في عهد الانتداب فهي : الحزب الوطني (لا تاريخ له) ، حزب النهضة (١٩٢٢) ، حزب الاخاء (١٩٣٠) ، حزب الاستقلال والوطني في الموصل (١٩٢٤) ؛ حزب الامة (١٩٢٤) . اما الاحزاب الحكومية آنذاك فهي : الحزب الحر العراقي (١٩٢٢) ؛ حزب التقدم (١٩٢٤) ، حزب الشعب (١٩٢٧) ، وحزب العهد (١٩٣٠) . انظر قاسم جميل قاسم ، الحزب الوطني الديمقراطي في العراق دراسة سياسية اقتصادية اجتماعية ، رسالة ماجستير غير منشورة ، ١٩٧٣ ، ص ٥ — ١٥ .

(١٦) يذهب فاروق العمر إلى عكس ذلك اذ يرى "رغم كل النواقص والانتقادات التي وجهت إلى هذه الاحزاب فإنها عملت على تقوية الوعي الوطني في العراق " الاحزاب العراقية ، أطروحة ماجستير غير منشورة ١٩٧١ ، الخلاصة .

(١٧) البلاد ، ١٠ اذار ، ١٩٣٠ .

(١٨) عبد النافع محمود ، ظاهرة عدم الاستقرار السياسي في العراق ، اطروحة ماجستير ، جامعة القاهرة ، ١٩٧٣ ص ٢٢٩ — ٢٣١ .

(١٩) فاروق العمر ، المصدر السابق ، الخلاصة .

(٢٠) الاوقات العراقية ، ٢٧ اذار ، ١٩٣٠ . حديث لياسين الهاشمي في الجلسة الحادية والثلاثين لمجلس النواب .

(٢١) عبد العزيز القصاب ، من ذكرياتي ، ١٩٦٢ ص٢٨٢ .

(٢٢) في١٩٢٦ شكل جعفر العسكري وزارته الثانية ولم يكن له في البرلمان اغلبية ، فقد كان حزب التقدم ، الذي لم ينتم له العسكري ، يتمتع بالاغلبية وبزعامة عبد المحسن السعدون، عبد الرزاق الحسني ، تاريخ الوزارات ١٩٦٥ ، ج ٣ ص ٨١ — ٨٢ .

(٢٣) "فقد منح الملك سلطات تفوق تلك السلطات المقررة لرئيس الدولة في نظام برلماني تقليدي " فائز عزيز أسعد ،انحراف النظام البرلماني في العراق ، ١٩٧٥ ص ٣٣ .

(٢٤) الاصلاح ، ٢٩ حزيران ، ١٩٣٥ .

(٢٥) الاخاء الوطني، ١٦ آب ، ١٩٣١ .

(٢٦) صدى العهد ، ١٠ تشرين الثاني ،١٩٣٠ .

(٢٧) British Public Record Office, Cabinet 23-61, Cabinet Meeting, September 1929.

وقد أبلغ القرار إلى الحكومة العراقية في ١٢ تشرين الثاني ١٩٢٩ ، الحسني، الوزارات ج ٢ ، ص ٢٦٤ .

(٢٨) « كانت السلطات البريطانية تسعى للتوفيق بين الملاكين وافندية المدن وبين طبقة الشيوخ وذلك لبناء قاعدة إجتماعية وسياسية قادرة على اسناد السلطات البريطانية والوجود البريطاني في العراق » عماد أحمد الجواهري ، تأريخ مشكلة الأراضي في العراق ١٩١٤ – ١٩٣٢؛ رسالة ماجستير غير منشورة ، ١٩٧٥ ،ص ٣٤٨ .وقد تمتع الشيوخ بثقل سياسي حاسم بفضل عدد اصواتهم في البرلمان ،إذ شكلوا نسبة ٤١٪ من مجموع ١٠٠ عضواً في المجلس التأسيسي .

Abdul H. Ruoof Iraq Political System:1920-1958 Unpublished Ph.D. thesis. New York 1965, p. p. 262 ,

موجود عند عماد الجواهري ، المصدر نفسه ، ص ٣٤٩ .

(٢٩) ظلت دار الاعتماد تعاني من "عقدة " ثورة العشرين لسنين عديدة بعد قيامها . وقد حذر كلايتين ، المعتمد البريطاني ، حكومته في ايلول ١٩٢٩ بانها إذا لم تسارع في إتخاذ موقف صريح بصدد موعد دخول العراق إلى عصبة الامم ونيل استقلاله فإنها ستواجه أوضاعاً خطيرة تشبه أحداث ثورة ١٩٢٠. فقد كتب إلى وزير المستعمرات « انني لا أنظر إلى الموقف الراهن بعين متوجسة بيد انني لا أستطيع تغافل دروس سنة ١٩٢٠ »

Colonial Office 730 – 148 - 68444 part I tel no, 299, Ist September 1929, Clayton to Lord Passfi ld,

(٣٠) Colonial Office , 730-151-780 29, secret, no. 2999' 8 December 1929 Naji to young ,

(٣١) مركز حفظ الوثائق ، بغداد ، ملفات مجلس الوزراء

Confidential, no. R. O. 73, 1 March 1930, Humphrys to Fiesal

وكذلك Colonial Office, 730–152-78077, No. R. O. 240. 31 December 1930, Humphrys to Fiesal.

(٣٢) لقد رافقت استقالة ناجي السويدي ملابسات سياسية . فقد تردد فيصل في تأييد السويدي . وبعد ما تم التفاهم بين دار الاعتماد والسويدي على ارجاء المواضيع المستعصية الحل إلى وقت لاحق بشرط استمرار السويدي على رأس الوزارة عارض فيصل وطلب من كورنواليس التدخل لأجهاض التفاهم بين السويدي والمعتمد البريطاني .توفيق السويدي ، مذاكراتي ، نصف قرن من تأريخ العراق والقضية العربية ، ١٩٥٩ ، ص ١٨٦ — ١٨٨ .وكذلك.

Colonial Office 730- 152- 78077 , private 11, March 1930, Humphrys to Lord Passfield .

33– Foreign Office , 731-14503-1662 tel. no, 178,28 Mareh 1930, Humphrys to Lord Passfield .

34– Ibid,, 15 75, tel no, 168, 24 March 1930, Humphrys to Lord Pasrfield.

(٣٥) الأوقاف ، ٢٧ آذار ١٩٣٠ . الحسني ، الوزارات ، ج ٣ ، ص ١٦

(٣٦) البلاد ، ٢٧ آذار ، ١٩٣٠ .

37– Foreign Office , 371 - 14504 Record of Proceeding of First Meeting with the Iraqi Delegation on April 3, 1930.

(٣٨) الحسني ، الوزارات ، ج ٣ ص ١٤ .

39– Colonial Office, 730 - 148 -68444, Part I, Sub - File A, 10 October 1929, Minute.

(٤٠) « كانت الأحزاب تلتقي جميعها المعتدل منها والمتطرف في هدف الغاء الانتداب وطلباً للاستقلال ». فاروق العمر ، المصدر السابق ، الخلاصة .

41– Foreign Office, 371–1450, H Record of Proceeding of First Meeting with the Iraqi Delegation on April 3, 1930.

(٤٢) فاروق العمر ، المعاهدات العراقية — البريطانية وأثرها في السياسة العراقية ١٩٢٢ — ١٩٤٨ ، رسالة دكتورة غير منشورة ١٩٧٥ ، ص ٢٧٨ .

(٤٣) البلاد ، ٢٦ آذار ١٩٣٠ ، والأوقاف العراقية ، ٢٤ آذار ، ١٩٣٠

(٤٤) قامت مظاهرات في بغداد في ٢١ آذار ١٩٣٠ وفي الموصل مطالبة بالاستقلال ومنددة بالسياسة البريطانية ، الحسني ، الوزارات ، ج ٢ ، ص ٣١٥ .ناجي شوكت ، سيرة وذكريات

١٩٧٥ ، ص ١٨١ – ١٨٢ . وأشار أحد الخطباء :« لسنا في اجتماعنا هذا وتظاهرنا من بعد نريد اعلان سخطنا وتذمرنا من بريطانيا فحسب ولكن لنجهر أيضاً بافهام اولئك الذين يتولون المناصب لا لخدمتنا بل لخدمة المستبدين ونيل الفضلات من موائد الاستعمار لنفهمهم اننا لواقفون لهم بالمرصاد وسنحاسبهم يوماً ». البلاد ، ٢٤ آذار ، ١٩٣٠.

(٤٥) لقد كانت الأفكار السياسية والممارسة الفعلية لفيصل بعيدة كل البعد عن مبادىء النظم البرلمانية والدستورية . فكان يرى أن البلاد يجب أن تحكم وفقاً للضرورة السياسية ، ويدعي أن تدخله في الوقت المناسب في شؤون الحكومة والبرلمان كان كفيلا لانجاح النظام الملكي في العراق واعتبر الأحزاب صيغاً عابرة افرزتها الوقائع السياسية ولا تتسم بمناهج واضحة وقد انهكتها المنازعات والانقسامات .

مركز حفظ الوثائق ،البلاط ١١/١ ؛ رسالة من فيصل إلى كلايتين ، ٣٠ حزيران ١٩٢٩ .

(٤٦) سامي عبد الحافظ القيسي ،ياسين الهاشمي ١٩٧٥ ، ج ٢ ص ١١٤ – ١٢٢.
صدى العهد ، ١٤ آيلول ١٩٣١ ، الاخاء الوطني ،١٥ آيلول ١٩٣١ .

(٤٧) الأوقات البغدادية ، ١٥ نيسان ١٩٣٠ .

(٤٨) القيسي ،المصدر السابق، ص ١١٤ – ١٢٢

49- Colonial Office, 730-158- 78388, Negotiations with Iraqi Prime Minister Financial Question 2 July 1930,
Ibid., Record of the Conference on Outstanding Iraq Financial Questions, 24 July 1930.
Ibid, Minute 16 July 1930.

(٥٠) القيسي ،المصدر السابق ، ص ١١٤ – ١٢٢.

الدكتور عبد الأمير عبد دكسن

عمان في كتابات جغرافيي القرنين الثالث والرابع الهجري



لأشك ان تاريخ عمان في العصور الوسطى لايزال بكرا ، لم يحظ بعد بما يستحقه من عناية من لدن الباحثين المحدثين ففيما عدا النزر اليسير (١) مما كتب عن تاريخ هذا الجزء من الوطن العربي ، فانه لايزال بحاجة إلى المزيد من الدراسات العلمية الموضوعية التي تكشف الغموض عنه وتجلي معالمه التي لايزال الكثير منها — مع الاسف — خافياً علينا .

ولعل هذا النقص في الدراسات عن تاريخ عمان الوسيط يعود بالدرجة الاولى إلى قلة المادة التاريخية وندرتها في مصادرنا التاريخية بشكل عام ، وذلك لان رواياتنا التأريخية لم تكن لتعني نفسها كثيرا في العادة باحداث الاصقاع النائية من الامبراطورية العربية الاسلامية ، بل ركزت جل اهتمامها على احداث مركز الخلافة وكذلك على ما يجري في تلك الاجزاء القريبة من المركز ، وهكذا فان احداث تاريخ عمان لم يعالج الا باقتضاب شديد من جانب هذه المصادر .

ومع ذلك فانه لمن الجائز ايضاً ان تاريخ عمان في هذه الفترة كان قد كتب شأنه شأن غيره من التواريخ الاخرى ولكنه لم يصل الينا بشكله التام المتكامل بسبب كون غالبية سكان عمان في هذه الفترة التي نحن بصددها من معتنقي مذهب الخوارج الاباضية ، وهذا بلا شك يعني انهم كانوا خارجين على السلطة المركزية الشرعية « الخلافة » .. وهكذا فمن غير المستبعد ان تكون السلطة آنذاك قد لعبت دورا في طمس اخبارهم ومنع تدوينها . هذا من جهة . ومن جهة اخرى فان الموقف العدائي بين السلطة وبينهم ربما كان قد جعل الرواة أنفسهم يتهيبون من تناقل مثل هذه الاخبار وتدوينها .

على انه مما يضيف إلى معلوماتنا عن تاريخ عمان في هذه الفترة موضوعة البحث ، ويسد جزء من هذا النقص ، هو ما نجده في كتب الجغرافيين العرب والمسلمين وخاصة اولئك من القرنين الثالث والرابع الهجري

التاسع والعاشر الميلادي ، لكون كتاباتهم تتسم بنوع من الاصالة بشكل عام ، رغم ان التأثر بجغرافيي اليونان يظهر في البعض منها .

ومن بين جغرافيي هذه الفترة الذين ننوي ان نستعرض ما قدموه من مادة عن عمان : ابن الفقيه الهمداني (ت٢٨٩هـ – ٩٠٢م) وابن خرداذبه (ت٣٠٠هـ – ٩١٢م) وابن رسته (ت٣١٠هـ – ٩٢٢م) ، وقدامة بن جعفر (ت٣٢٠هـ – ٩٣٢م) ، والهمداني (ت٣٣٤هـ – ٩٤٥م) ، وابن حوقل (ت٣٦٧هـ – ٩٧٩م)، والمقدسي (تحوالي ٣٨١هـ – ٩٩١م) والاصطخري (تالنصف الاول من القرن الرابع الهجري – العاشر الميلادى) .

وتزداد اهمية المادة التي يقدمها هؤلاء الجغرافيون اذا ما اخذنا بنظر الاعتبار ان منهم من كان يشغل وظائف في الدولة آنذاك مما يسر له الاطلاع على امور هامة ودقيقة كتلك التي تتعلق بطرق البريد والخراج والتجارات وطرقها ووسائلها ، ومن ثم فان هذه المادة التي يقدمها لنا جغرافيونا هؤلاء هي اشبه ما تكون بمادة وثائقية حصلوا عليها بحكم الوظائف التي شغلوها .

لقد كان ابن خرداذبة صاحب البريد في اقليم الجبال من بلاد فارس ، وكان ابن رسته يشغل منصباً حكومياً لانعرف طبيعته بالضبط . اما قدامة ابن جعفر فكان يتولى الخراج .

هذا من ناحية ومن ناحية اخرى فان كلا من الاصطخرى وابن حوقل والمقدسي كان من اصحاب الرحلات والاسفار . فابن حوقل مثلا شاهد جميع الاصقاع التي كتب عنها وعاينها ما عدا الصحراء الغربية الكبرى فانه يقر بعد مشاهدته لها جميعها . اما المقدسي فقد سافر هو الآخر إلى جميع انحاء العالم الاسلامي المعروفة آنذاك عدا الاندلس والسند وسجستان . ومن هنا فان ما ذكروه بهذا الشأن كان وصف مشاهد معاين مما يجعل لمادتهم اهمية خاصة تختلف عن تلك التي تقوم على السماع والرواية الشفوية فقط .

ومما تجدر الاشارة اليه هنا ان المقدسي يقدم مادة غزيرة عن عمان تمتاز بدقتها وتفصيلاتها مما جعله متميزا عن اقرانه في هذا المجال .

ولسنا هنا في مجال الكتابة عن تاريخ عمان عامة أو التطرق إلى حدث من احداثه ، بل نود أن نلفت النظر إلى المادة التي يقدمها هؤلاء الجغرافيون عن عمان وطبيعتها من خلال استعراضها مما قد يعين الباحث في هذا المجال ليضيفها إلى ماهو متوفر في كتب التاريخ العام وكتب التاريخ المحلي ،وبذلك تكتمل الصورة لديه أو تكاد عن تأريخ هذا القطر الخليجي في العصر الوسيط .

أسماء عمان ومواقعها وحدودها :

ينفرد كل من الهمداني والمقدسي من بين الجغرافيين الذين نحن معنيون بهم بذكر أسماء أخرى لعمان.فيذكر الأول: وكذلك تسمى عمان منقطع التراب(٢) أي منقطع الارض بالبحر . وهذا بلا شك انعكاس لطبيعةأرضها وموقعها الجغرافي .أما الثاني فيقول: « . . . ومن المدن مالها أكثر من أسم نحو عمان صحارمزون » (٣) .ولعل هذه التسمية الثانية ناتجة عن كون صحارهي قصبة عمان الرئيسية حيث يصفها على النحو التالي : . . ليس على بحرالصين اليوم بلد أجل منه عامر آهل حسن طيب نزه ذو يسار وتجار وفواكه وخيرات ... (٤) . ولذلك فقد اطلق اسمها على عمان من باب تغليب الجزء على الكل لاهميته

وبينما لايعطي الجغرافيون حدوداً دقيقة لعمان،فان كلا من ابن رستة والمقدسي يتفقان على وقوعها في الاقليم الأول (٥) .ولكن المقدسي من جهة أخرى هو الوحيد بين الجغرافيين الذي يعتبر جزيرة العرب وحدة بلدانية واحدة مؤلفة من اربع كور احداها عمان إذ يقول : « وهذه صورة جزيرة العرب وقد جعلناه اربع كور جليلة واربع نواح نفيسة والكور أولها الحجاز ثم اليمن ثم عمان ثم هجر والنواحي الاحقاف والاشحار ،اليمامة ،قرح ..» (٦).

كذلك ينفرد المقدسي بذكر مساحة عمان ويحددها بثمانين فرسخاً مربعاً: وعمان كورة جليلة تكون ثمانين فرسخاً في مثلها . (٧)

أما الاصطخري فيدخل بلاد مهرة ضمن اقليم عمان استناداً إلى السماع ويعترف بذلك إذ يقول: «وأما بلاد مهرة فان قصبتها تسمى الشحر... ويقال أنها من عمان(٨).

من كل هذا يمكن الاستنتاج ان جميع هؤلاء الجغرافيين متفقون على ان عمان بلد متميز دون ان يحددوه بصورة دقيقة ، وحتى المقدسي الذي ميز نفسه بذكر مساحتها لم يذكر الزمن الذي كانت فيه كذلك ، خاصة وان الحدود السياسية والادارية لم تكن ثابتة بل عرضه للتوسع والانكماش .

مدن عمان وضواحيها :

يعدد المقدسي عند ذكره عمان ستة عشر مركزا هي : صحار ، نزوة ، السر ضنك ، حفيت ، دبا ، سلوت ، جلفار، سمد، لسيا، ملح، برنم، القلعة ضنكان ، مسقط، توأم، ، وقد اطلق على اولها وهي صحار اسم القصبة اي مركز عمان ، واهم مدينة فيها ، وقد وصفها بشكل مفصل على النحو التالي : وهي قصبة عمان ليس على بحر الصين اليوم بلد أجل منه عامر آهل حسن طيب نزه ذو يسار وتجار وفواكه وخيرات اسرى من زبيد وصنعاء ، اسواق عجيبة ، وبلدة طريفة ممتدة على البحر ، دورهم من الآجر والساج شاهقة نفيسة ، والجامع على البحر له منارة حسنة طويلة في آخر الاسواق ، ولهم آبار عذبة وقناة حلوة ، وهم في سعة من كل شيء دهليز الصين وخزانة الشرق والعراق ومغوثة اليمن قد غلب عليها الفرس المصلى وسط النخيل ومسجد صحار على نصف فرسخ ثم بركت ناقة رسول الله (ص) (٩) قد بنى احسن بناء وهواه اطيب هواء من القصبة ومحراب الجامع بلولب يدور تراه مرة اصفر وكرة اخضر وحينا احمر »(١٠) .

اما الاصطخرى فيقدم وصفاً آخر لصحار يمتاز بالاقتضاب فهو يقول : « وهي على البحر .... أعمر مدينة بعمان واكثرها مالا ولا تكاد تعرف على شاطيء البحر ، بجميع بلاد الاسلام مدينة اكثر عمارة ومالا من بحار

وبها مدن كثيرة،وبلغني ان حدود اعمالها نحو ثلثمائة فرسخ (١١) . واخيرا يصفها الهمداني بكونها اهم كور عمان : « ارض عمان كورتها العظمى صحار ، واما قراها فاكثر مجامعها هرود من اوديتها ». (١٢).

ومن مقارنة هذه النصوص الثلاثة عن صحار ببعضها نجد أن المقدسي ينفرد بهذا الوصف الشامل الدقيق لصحار ، إذ لم يترك شيئاً إلا وصفه . ومن جهة أخرى يقدم المقدسي كذلك وصفاً للمراكز الخمسة عشر الاخرى فيقول: «ونزوة في حد الجبال كبيرة بنيانهم طين والجامع وسط السوق إذا غلب الوادي في الشتاء دخله ،شربهم من أنهار وآبار ،والسر أصغر من نزوة والجامع في السوق وشربهم من أنهار وآبار قد التفت بها النخيل،وضنك صغيرة في النخيل أبدا،بها سلطان قوي لانهم شراة عصاة ،وحفيت كثيرة النخيل من نحو هجر الجامع في الاسواق وسلوت مدينة كبيرة على يسار نزوة، ودبا وجلفار وهما من نحو هجر قريبتان من البحر، وسمد منبر لنزوة. ولسمد وملح وبرنم والقلعة وضنكان مدن أيضاً، والمسقط اول مايستقبل المراكب اليمنية ورأيته موضعاً حسناً كثير الفواكه، وتوأم قد غلب عليها قوم من قريش فيهم بأس وشدة» . (١٣) .

وفيما عدا المقدسي لايذكر أحد من جغرافيينا هؤلاء وصفاً لاي مدينة من هذه المدن سوى ابن الفقيه الذي يشير الى مسقط من حيث موقعها فقط فيقول: «وهو آخر عمان» (١٤) .

وهكذا فالمقدسي لم يقتصر على ذكر أسماء المدن فحسب بل ميز بين صغيرها وكبيرها ، وصف ابنيتها وحدد موقع المسجد فيها وموقعها بالنسبة لبعضها البعض كما وصف حال أهلها ونوع ولاءهم السياسي ومابها من أشجار وطريقة الري فيها ،ومن هنا يظهر تفوقه على سواه .

خراج عمان :

يورد قدامة بن جعفر خراج عمان كما عمله ابن المدبر عام ٢٣٧هـ / ٨٥١م

ويحده كما يأتي : «ومقاطعة عمان من العين ثلثمائة ألف دينار»(١٥). أما المقدسي فينقل هذا الرقم عن قدامة ولكنه يضيف إلى ذلك أمراً مهماً ذلك هو مقدار الضريبة التي كانت تؤخذ على كل نخلة فيذكر : «يؤخذ بعمان من كل نخلة»(١٦)

على انه مما يؤسف له حقاً ان لانجد عند الجغرافيين الآخرين ذكرا لخراج عمان او ما يتعلق بذلك ، مما يجعل من المتعذر مقارنة الارقام ببعضها والاستنتاج منها . ومع ذلك فبالامكان القول ان هذا الرقم الذي اورده قدامة واكده المقدسي يمكن الاطمئنان اليه طالما ان قدامة هذا من المعنيين بالخراج والمهتمين به والمتولين له وان كتابه يكاد يكون مكرساً له .

المسافات من والى عمان :

يحدد ابن الفقيه المسافة بين سيراف ومسقط وهي آخر عمان بـ« مائتي فرسخ »(١٧) اما ابن خرداذبة فيحدد المسافات من البصرة إلى عمان في البحر كالاتي : من البصرة إلى عبادان اثنا عشر فرسخاً ثم الخشبات فرسخان ومن الخشبات إلى مدينة البحرين في شط العرب سبعون فرسخاً ... ومنها إلى الدردر مائة وخمسون فرسخاً ثم إلى عمان خمسون فرسخاً .(١٨)

ويصف ابن حوقل المسافات بديار العرب قائلا : واما المسافات بديار العرب فان الذي يحيط بها من عبادان إلى البحرين نحو احدعشرة مرحلة ومن البحرين إلى عمان نحو شهر ومن عمان إلى اوائل مهرة نحو مائة فرسخ (١٩) ثم ينقل عن ابي القاسم البصري فيقول : « من عمان إلى عدن ستمائة فرسخ، منها خمسون فرسخاً إلى المسقط عامرة وخمسون لاساكن فيها إلى اول بلاد مهرة وهي الشحر وطولها اربعمائة فرسخ والعرض في جميع ذلك من خمسة فراسخ إلى ثلاثة فراسخ .... (٢٠)

ويصف المقدسي الطريق من عمان إلى مكة محددا مسافاته : « وان اردتها من عمان فخذ من صحار إلى نزوة ثم إلى عجلة ٣٠ ميلا ثم إلى عضوة ٢٤ميلا

وهو حصن ثم إلى بئر السلاح ٣٠ ميلا ثم إلى مكة ٢١ يوماً فيها اربع مياه وثمان في رملة» . (٢١)

اما الاصطخرى فيذكر : « ومن البحرين إلى عمان نحو من شهر ومن عمان إلى ارض مهرة نحو من شهر » . (٢٢)

ولعل مما يلفت النظر هنا هذا الاختلاف الواضح عند هؤلاء الجغرافيين في وحدة قياس المسافات ، فنجد ابن الفقيه وابن خرداذبة يستعملان الفراسخ بينما يستعمل ابن حوقل المراحل تارة والشهر تارة اخرى . اما عندما ينقل عن ابي القاسم البصري فيرجع إلى الفراسخ في تحديد المسافات . اما المقدسي فخلافاً لكل ذلك يستعمل الميل بالدرجة الاولى واليوم بالدرجة الثانية . واخيرا فالاصطخرى استخدم الشهر كوحدة قياس للمسافات دون غيرها والذي يمكن قوله هنا ان اليوم والمرحلة متساويان عند هؤلاء الجغرافيين

الطرق من والى عمان :

يصف ابن حوقل الطريق البري من عمان إلى مكة بقوله : «يصعب سلوكه في البرية لكثرة القفار وقلة السكان وانما طريقهم في البحر إلى جدة ...وكذلك مابين عمان والبحرين فطريق شاق يصعب سلوكه لتمانع العرب وتنازعهمفيما بينهم (٢٣) أما الهمداني فيذكر أن طريق الحج البري في زمانه «يأخذ على يبرين وعلى الخن» . (٢٤)

وبينما يهتم ابن حوقل والهمداني في وصف طريق الحج البري من عمان إلى مكة ومافيه من صعوبات ومشاق ،نجد كلا من ابن خرداذبة وقدامة بنجعفر يصف الطريق الساحلي من عمان إلى مكة .فيذكر الاول :«من عمان إلى فرقثم إلى عوكلان ثم إلى ساحل هباه ثم إلى الشحر وهي بلاد الكندر ... ثم إلىمخلاف كندة ثم إلى مخلاف عبدالله بن مذحج ثم إلى مخلاف لحج ثم إلى عدن ،أبينثم إلى مغاض اللؤلؤ ثم إلى مخلاف بني مجيد ثم إلى المنجلة ثم إلى مخلاف الركب ثم

إلى المندب ثم إلى مخلاف زبيد ثم إلى غلافقة ثم إلى مخلاف عك ثم إلى الجردة ثم إلى مخلاف حكم ثم إلى عثر ثم إلى مرسي ضنكان ثم إلى مرسي حلي ثم إلى السرين ثم إلى أغيار ثم إلى الهرجاب ثم إلى الشعيبة ثم إلى منزل ثم إلى جدة ثم إلى مكة» .(٢٥)
أما الثاني فيصفه على النحو التالي: «وأما من عمان إلى مكة فعلى طريق الساحل المنازل: فرق ، عوكلان ، ساحل مناه ، بلاد الشحر مخاليف كندة ، مخاليف عبدالله بن مذحج ، مخلاف لحج ، أبين ، عدن ، مغاض اللؤلؤ ، مخلاف بني مجيد المنجلة ، مخلاف الركب ، المندب ، مخلاف رمح ، زبيد ، مخلاف عك الحردة مخلاف الحكم ، عثر ، فمن أراد طريق الجادة أخذ من عثر الى العرش ثم أجاز على طريق الجادة المخاليف ومن أراد الساحل أخذ من عثر إلى مرسي ضنكان ثم مرسي حلي ثم السرين ثم أغيار ثم الهرجاب ثم الشعيبة ثم منزل ثم جدة ثم مكة » . (٢٦)

ومن المقارنة بين ما أورده الاثنان في هذا المجال نرى التشابه الواضح بينهما رغم بعض الاختلافات البسيطه في بعض الأسماء . ولكن قدامة ابن جعفر يبدو أتم وأكمل في وصفه لهذا الطريق إذ يذكر تفرعه عند عثر إلى طريقين أحدهما بري والآخر بحري ، ومن هنا يظهر تفوقه على ابن خرداذبة .

أما بالنسبة للطريق من البصرة إلى عمان في البحر فيتفق الاثنان كذلك في وصفهما له بشكل عام عدا أن ابن خرداذبة يبدأ به من البصرة وينتهي بعمان في حين أن قدامة بن جعفر يبدأ به من عمان وينتهي بالبصرة .فيذكر الأول :

«من البصرة إلى عبادان ثم إلى الحدوثة ثم إلى عرفجا ثم إلى الزابوقة ثم إلى المقرة ثم إلى عصى ثم إلى المعرس ثم إلى خليجة ثم إلى حسان ثم إلى القرى ثم إلى مصلحة ثم إلى حمص ثم إلى ساحل هجر ثم إلى العقير ثم إلى قطر ثم إلى السبخة ثم إلى عمان وهي صحار ودبا » . (٢٧)

أما الثاني فيقول : «والمنازل من عمان إلى البصرة السبخة وهي بين عمان

والبحرين ،قطر العقير ، ساحل هجر ،حمص ،مسلحة القرنثين ،حسان ،خليجة المعرس ، عصى ، المقر ، الزابوقة ، عرفجا ،الحدوثة ،عبادان » . (٢٨)

الحياة الاقتصادية في عمان :

لم يعن الجغرافيون أنفسهم كثيراً في وصف الحياة الاقتصادية في عمان من حيث كونها زراعة وتجارة وصناعة .ومع ذلك فهناك اشارات كثيرة لكنها مقتضبة تتعلق بهذه النواحي نجدها في كتاباتهم ، فيذكر ابن الفقيه ان عمان كانت مشهورة بالقنى فيقول : ... «والقنى من عمان (٢٩) ثم يعدد مافيهامن اصناف التمور فيذكر :..«قالوا أجود تمر عمان الفرض والبلعق والخبوت(٣٠) وأخيراً يشير إلى شهرتها بالاسماك قائلاً : « ... ريف الدنيا من السمك مابين ماهيرويان إلى عمان (٣١) . وفي موضع آخر يقول : « وفي السمك عمان » (٣٢) ويذكر ابن الفقيه نقلاً عن سليمان التاجر نصاً يعكس أهمية عمان من الناحية التجارية وكذلك يعطي صورة عن طبيعة مياهها وحالة الرعي فيها فيقول : ان أكثر السفن الصينية تحمل من البصرة وعمان وتعبأ بسيراف وذلك لكثرة الامواج في هذا البحر وقلة الماء في مواضع منه،فاذا عبأ المتاع استعذبوا الماء إلى موضع منا يقال له مسقط وهو آخر عمان وبين سيراف وهذا الموضع نحو مائتي فرسخ ،وفي شرقي هذا البحر فيما بين سيراف ومسقط من البلاد سيف ... وفي غربي هذا البحر جبل عمان وفيها الموضع الذي يسمى دردور وهو مضيق بين جبلين تسلكه السفن الصغار ولاتسلك فية الصينية وفيه جبلا كسير وعوير فاذا جاوزت الجبال صرت إلى موضع يقال له صحار عمان فيستعذب الماء من مسقط من بئر فيها وهناك جبل فيه رعاء غنم من بلاد عمان فتختطف السفينة فيها إلى بلاد الهند وتقصد إلى كولوكلي وفيها مسلحة لبلاد الهند وبها ماء عذب فاذا استعذبوا من هناك الماء أخذوا من الركب الصيني ألف درهم ومن غيرها عشرة دنانير إلى العشرين ديناراً » . (٣٣)

أما ابن خرداذبة فيوضح أهمية موقع عمان في التجارة الدولية آنذاك من خلال وصفه لمسلك التجار اليهود الراذانية في نص طويل ننقله فيما يلي : « ... الذين (أي التجار اليهود) يتكلمون بالعربية والفارسية والرومية والافرنجية والاندلسية والصقلبيه وانهم يسافرون من المشرق إلى المغرب ومن المغرب إلى المشرق براً وبحراً يجلبون من المغرب الخدم والجواري والغلمان والديباج وجلود الخز والفراء والسمور والسيوف ويركبون من فتحة في البحر العربي فيخرجون بالفرما ويحملون تجاراتهم على الظهر إلى القلزم وبينهما خمسة وعشرون فرسخاً ثم يركبون إلى البحر الشرقي من القلزم إلى الجار وجدة ثم يمضون إلى السند والهند والصين فيحملون من الصين المسك والعود والكافور والدارصيني وغير ذلك مما يحمل من تلك النواحي حتى يرجعوا إلى القلزم ثم يحملونه إلى الفرما ثم يركبون في البحر الغربي فربما دخلوا بتجاراتهم إلى القسطنطينية فباعوها من الروم وربما صاروا بها إلى ملك فرنجة فيبيعونها هناك وان شاؤوا حملوا تجاراتهم من فرنجة في البحر الغربي فيخرجون بانطاكية ويسيرون على الأرض ثلث مراحل إلى الجابية ثم يركبون في الفرات إلى بغداد ثم يركبون في دجلة إلى الابلة ومن الابلة إلى عمان والسند والهند والصين كل ذلك متصل بعضه ببعض » . (٣٤)

ويصف ابن حوقل موارد عمان قائلا: «... وعمان ناحية ذات اقاليم مستقلة باهلها فسحة كثيرة النخيل والفواكه الجرومية من الموز والرمان والنبق ونحو ذلك وقصبتها صحار وهي على البحر وبهامن التجار والتجارة مالايحصى كثرة ... (٣٥) ويشير كذلك إلى وجود اللؤلؤ فيها ويقارن ذلك بما هو موجود منه في سرنديب فيقول .... وبعمان وبسرنديب في هذا البحر معدنان للؤلؤ ....(٣٦)

اما المقدسي فيتطرق إلى نواح عديدة من الحياة الاقتصادية في عمان فيقول: «... والمسقط ... كثير الفواكه ... وعمان كورة جليلة ... كلها نخيل وبساتين عامة سقياهم من آبار قريبة ينزعها البقر اكثرها في الجبال...» (٣٧) ويعود المقدسي فيذكر ما يرد إلى عمان من السلع التجارية : « ... فالى عمان

يخرج الآت الصيادلة والعطر كله حتى المسك والزعفران والبقم والساج والساسم والعاج واللؤلؤ والديباج والجزع واليوانيت والابنوس والنارجيل والقند والاسكندروس والصبر والحديد والرصاص والخيزران والغضار والصندل والبلور والفلفل وغير ذلك..» (٣٨) ثم يشير إلى وحدات وزنهم فيقول «ولعمان المن» (٣٩) ،ولكنه لايحدد وزنه ثم يذكر دينار عمان وقيمته : « ودينار عمان ثلاثون درهماً غير انه يوزن (٤٠) ولعل في هذا ما يفسر قول قدامة بهذا الصدد حيث يذكر ان سعر الصرف ١٥ درهماً بدينار ». (٤١)

واخيرا فالاصطخرى عند تعرضه إلى منتوجات عمان الزراعية يتفق مع المقدسي ولو بشكل مختصر فيقول :« وعمان مستغلة باهلها وهي كثيرة النخيل والفواكه الجرومية من الموز والرمان والنبق ونحو ذلك .... » (٤٢)

مناخ عمان :

يصف ابن الفقيه بعض مظاهر مناخ عمان وما يعيش فيها من الحشرات فيقول «.... ما يقاسيه اهل عمان ... من اذى السمائم القاتلة وإلى ما يعانونه من الهواء الكدر الغليظ والماء السخن الزعاق وكثرة الذبان والجعلان والخنافس والحيات والعقارب والجرادات والنمل والبعوض والبق والجرجس وذوات السموم القاتلة والحشرات ...» (٤٣) ثم يصف شدة حرارتها بشكل خاص فيقول : « حرها شديد وصيدها عتيد ... » (٤٤) .

اما ابن حوقل فيشير إلى جانب آخر من جوانب مناخها لم يذكره غيره من الجغرافيين وهو سقوط الثلج في بعض مناطقها البعيدة عن البحر ولكنه لم يره بل سمع عنه فهو يقول : « ... وعمان بلاد حارة جرومية ، وبلغني ان بمكان فيها بعيد عن البحر ربما وقع ثلج رقيق ولم ار من شاهد ذلك الا بالبلاغ » . (٤٥)

ويصور المقدسي ارتفاع نسبة الرطوبة في جو عمان فيقول : « وينزل عليهم في الليالي شبه الدبس » . (٤٦)

ونجد هنا ان الاصطخرى يتفق مع ابن حوقل(٤٧) كلمة كلمة دون اي تغيير .

• • •

بعد هذا الاستعراض لما يقدمه جغرافيو القرنين الثالث والرابع الهجري التاسع والعاشر الميلادى من مادة عن عمان ، لابد لنا ان نتساءل : ما هي القيمة التاريخية لهذه المادة ؟ وللاجابة على هذا السؤال لابد لنا ان نؤكد الحقائق التالية : (اولا) انها مادة وفيرة من حيث الكمية خاصة اذا ما قارناها بما هو متوفر في مصادرنا التاريخية من نفس هذه الفترة التي نحن بصددها.

(ثانياً) انها من حيث النوعية تعتبر مادة جيدة لكونها تعتمد في معظمها على المشاهدة والمعاينة لاعلى البلاغ والرواية الشفوية ، الا في النادر حيث يشار إلى ذلك كما هو موجود في مساق بحثنا هذا .

(ثالثاً) ان طبيعة هذه المادة تختلف عن غيرها في كونها تشمل نواح كثيرة لاتهتم بها كتب التاريخ العام او المحلي ، مثال ذلك الوصف الدقيق والشامل للمدن كما على سبيل المثال وصف المقدسي لمدينة صحار الذي تجده فيما تقدم له او في الاشارة إلى الموازين والعملة وطرق الري ووسائله ونوعية المياه والضرائب الزراعية وكمية الخراج وطبيعة المناخ ومناطق الرعي والمنتوجات الزراعية والتجارات وطرقها وطرق الحج البرية والبحرية والمسافات بين الاقاليم وما يترتب على الموقع الجغرافي من اهمية تجارية اضافة تخطيط المدن ونوعية بناء مساكن اهلها وحالهم وولائهم السياسي احياناً . وهكذا فاهمية هذه المادة كثيرة جدا .

(رابعاً) على انه لابد من القول هنا ان مما ينقص كتابات جغرافيينا هؤلاء هو خلوها من اي وصف للاحداث السياسية في هذا الاقليم ، وكذلك عدم توفر الدقة في تحديد الاقسام الادارية — ان وجدت — في تلك الفترة .

الحواشي

(١) انظر مثلا : عبد الرحمن عبد الكريم ، عمان في العصور الاسلامية الاولى ودور اهلها في المنطقة الشرقيةمن الخليج العربي وفي الملاحة والتجارة الاسلامية ، رسالة دكتوراه اجيزت من كلية الاداب- جامعة بغداد ، ١٩٧٥ .

(٢) الاكليل ، ج٢ ، ص ٢٧٠ ، القاهرة ١٩٦٦ .

(٣) احسن التقاسيم في معرفة الاقاليم ، ص ٣٠، ليدن ١٩٠٦ . ومزون من اسماء عمان بالفارسية ، وكانت العرب تسمي عمان المزون . وقال ابن بري والمزون قرية من قرى عمانيسكنها اليهود والملاحون ليس بها غيرهم . انظر : ابن منظور ، لسان العرب، ج٣ ، ص ٤٠٧ .

(٤) احسن التقاسيم ، ص ٩٢ .

(٥) الاعلاق النفيسة ، ص ٩٦ ، ليدن ١٨٩١ ، احسن التقاسم ، ص ٥٩ .

(٦) احسن التقاسيم ، ص ٦٨-٦٩ .

(٧) نفس المصدر ، ص ٩٣ .

(٨) المسالك والممالك ، ص ٢٧ ، القاهرة ١٩٦١ .

(٩) احسن التقاسيم ، ص ٩٢ - ٩٣ . (ولا ادري كيف وصلت ناقة رسول‌الله الى هناك وكيف كان بروكها) .

(١٠) احسن التقاسيم ، ص ٩٢ - ٩٣ .

(١١) المسالك والممالك ، ص ٢٧ .

(١٢) صفة جزيرة العرب ، ص ١٢٥ .

(١٣) احسن التقاسيم ، ص ٩٣ .

(١٤) كتاب البلدان ، ص ١١ .

(١٥) نبذة من كتاب الخراج وصنعة الكتابة ، ص ٢٤٩، ٢٥١، ليدن ٨٨٩ .

(١٦) احسن التقاسيم ، ص ١٠٥ .

(١٧) كتاب البلدان ، ص ١١ .

(١٨) المسالك والممالك ، ص ٦٠ .

(١٩) صورة الارض ، ص ٤٥ ، (طبعة بيروت بلا تاريخ) .

(٢٠) نفس المصدر ، ص ٤٥ .

(٢١) احسن التقاسيم ، ص ١١٠ - ١١١ .

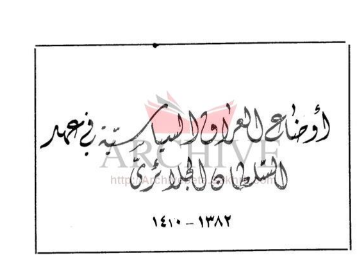
(٢٢) المسالك والممالك ، ص ٢٧ .

(٢٣) صورة الارض ، ص ٤٧ .

(٢٤) صفة جزيرة العرب ، ص ١٤٩ .

(٢٥) المسالك والممالك ، ص ١٤٧ – ١٤٨ .
(٢٦) نبذة من كتاب الخراج وصنعة الكتابة ، ص ١٩٢ – ١٩٣ .
(٢٧) المسالك والممالك ، ص ٥٩ – ٦٠ .
(٢٨) نبذة من كتاب الخراج وصنعة الكتابة ، ص ١٩٣ .
(٢٩) كتاب البلدان ، ص ١٦ .
(٣٠) نفس المصدر ، ص ٣٠ .
(٣١) نفس المصدر ، ص ١١٤ .
(٣٢) نفس المصدر ، ص ١٣٥ .
(٣٣) نفس المصدر ، ص ١١ – ١٢ .
(٣٤) المسالك والممالك ، ص ١٥٤ – ١٥٥ .
(٣٥) صورة الارض ، ص ٤٤ .
(٣٦) نفس المصدر ، ص ٥٢ .
(٣٧) احسن التقاسيم ، ص ٩٣ .
(٣٨) نفس المصدر ، ص ٩٧ .
(٣٩) احسن التقاسيم ، ص ٩٩ .
(٤٠) نفس المصدر ، ص ٩٩ .
(٤١) نبذة من كتاب الخراج وصنعة الكتابة ، ص ٢٤٩ .
(٤٢) المسالك والممالك ، ص ٢٧ .
(٤٣) كتاب البلدان ، ص ٢٣٤ – ٢٣٥ .
(٤٤) نفس المصدر ، ص ٩٢ .
(٤٥) صورة الارض ، ص ٤٥ .
(٤٦) احسن التقاسيم ، ص ٩٥ .
(٤٧) المسالك والممالك ، ص ٢٧ .

ابراهيم خليل





مبررات البحث : —

ينصرف هذا البحث الى دراسة اوضاع العراق السياسية في عهد السلطان احمد الجلائري « ١٣٨٢ — ١٤١٠ » وقد اخترت هذا الموضوع لاعتقادي ان هذا النوع من الدراسات لم ينل الاهتمام الكافي بعد ، خاصة وان هناك من اشار الى اهمال الباحثين لهذه الفترات التاريخية ذات الصلة المباشرة بتاريخنا المعاصر بحجة انها مظلمة لم تتوفر مصادر دراستها خصوصاً تلك الفترات التي اعقبت انهيار الفكر العربي بعد سقوط بغداد بيد المغول وما اعقب ذلك من فترات جلائرية وتركمانية وصفوية وبدايات الحكم العثماني للعراق (١) فأن البحث التالي محاولة متواضعة في هذا المجال .



(١) انظر: فاخر عبدالرزاق المناع ، المنهجية العلمية في دراسة التاريخ العربي ، مجلة افاق عربية السنة (١) العدد (١٢) آب / ١٩٧٦ .

تمهيد : ــ

شهدت بغداد منذ سقوطها على يد هولاكو سنة / ١٢٥٨ م ترديا في اوضاعها السياسية والاجتماعية والاقتصادية (٢) . ولم تسترجع اهميتها كمركز سياسي الا بعد مجيىء الجلائريين اليها .(٣) فقد اتخذها حسن بزرك ابن ايلكان نويان المعروف بالشيخ(٤)حسن جلائر عاصمة له بعد ان ساهم في سلسلة الصراعات الاسرية التي نشبت بين افراد العائلة الحاكمة الايلخانية اثر وفاة الخان ابو سعيد سنة ١٣٣٦ (٥) .

كان الشيخ حسن جلائر يتطلع الى الحكم منذ زمن بعيد ، ويظهر انه وجد في موت ابي سعيد فرصته ، ولكنه شعر بأن التنافس كان قوياً في مركز الدولة . ولمالميكن لحسن جلائر قبل بذلك التنافس اضطر الى البحث عن ميدان آخر يبرز فيه مواهبه ويحقق طموحاته . ولم يكن ذلك الميدان سوى بغداد ، خاصة وان الظروف الموضوعية كانت تساعد على ذلك .

---

(٢) للتفاصيل عن أوضاع العراق في الفترة التي سبقت الغزو المغولي وخلال مراحل الغزو انظر : جعفرحسين خصباك ،العراق في عهد المغول الايلخانيين ،ط١ (بغداد ،١٩٦٨) وكذلك حافظ أحمد حمدي ،الشرق الاسلامي بعد الغزو المغولي (القاهرة ــ لا .ت)

(٣) قبيلة جلائر ،مغولية الاصل ،أستوطنت ضفاف نهرجيحون .للتفاصيل انظر : مكرمين خليل دائرة المعارف الاسلامية الطبعة (التركية)ج٣ ،مادة (جلائر) ص ٦٤ ــ٦٥)

(٤) لقب شيخ يدل على رغبة الأمراء الجلائريين في اضفاء مسحة دينية على أنفسهم ،أو الحصول على ولاء رجال الدين في العراق وايران .ويذكر الباحث نوري عبدالحميد خليل في رسالته للماجستير الموسومة « العراق في العهد الجلائري «١٣٣٧ - ١٤١١» والمقدمة إلى جامعة بغداد وهي غيرمنشور ص ١٦٥ إلا أنه لم يجد مايشير إلى تعصب سلاطين آل جلائر لمذهب من المذاهب الاسلامية ، بل أنهم اظهروا تسامحاً مع الجميع . وابدى الجلائريون اهتماماً شديداً بالمراقد المقدسة جعل كثيرمن الباحثين ومنهم شرين بياني في كتابه بالفارسية (تاريخ ال جلائر)ص ٢٣٦ ينعتون هذه الدوله بالتشيع ولا يوجد أي دليل يدعم هذا الرأي. وقد صادف قيام الدولة الجلائرية نشاط التشيع في العراق .ولكن سياسة التسامح أدت إلى نشاط الصراع المحلي بين الشيعة والسنة حد أدى إلى اربالك الادارة .وقد كانت الخصومة قائمة كذلك بين الحنابلة والشافعية .

(٥) انظر : دائرة المعارف الاسلامية ،مادة حسن بزرك ج٧ ،الطبعة العربية (القاهرة ١٩٣٣) ص ٣٨٩ .

فمد بصره اليها ودخلها فعلا سنة ١٣٣٩ واستقر بها مؤسساً بذلك الدولة الجلائرية، والتي قدر لها ان تخضع العراق(٦)اكثر من سبعين سنة ١٣٣٩–١٤١٠. وقد استمرت في بعض المناطق حتى سنة ١٤٣٣ . ولربما كان زواج الشيخ حسن من دلشاد خاتون ارملة السلطان ابي سعيد(٧)احد العوامل التي ساعدته على ان يعطي لحكمه مظهراً شرعياً ، باعتباره وارثاً لابن خاله السلطان ابي سعيد . وفي ذلك قوة لمركزه ونفوذه . .

الوضع السياسي للدولة الجلائرية قبل تولي السلطان احمد جلائر الحكم : –

لقد شرع الشيخ حسن ببناء دولته واضعاً بذلك الاسس الاولى . وقد ضم الى بغداد بعض المناطق كالحلة . وبعد ان توفي الشيخ حسن في ١٣٥٦ خلفه ابنه معزالدولة اويس (١٣٥٦ – ١٣٧٥) الذي اكمل مشاريع والده في الفتح والضم واستطاع احتلال الموصل سنة ١٣٦٤ (٨) . كما ضم تستر(٩). وتوج انتصاراته تلك بدخوله مدينة تبريز (١٠) في سنة ١٣٥٨ واتخاذه اياها عاصمة للدولة الجلائرية . وهنا عادت بغداد لتصبح مجرد مدينة تدار من تبريز وليست عاصمة . ففي زمن اويس امتدت الدولة الجلائرية من خوزستان جنوباً حتى الموصل واذربيجان شمالا، وفي سنة١٣٧٤ توفي السلطان اويس(١١).

---

(٦) كانت الدولة الجلائرية تضم مناطق أخرى غير العراق ،لذا سوف يشمل البحث العراق بمدلوله السياسي وبحدوده الحالية .

(٧) محمد بن عبدالله بن ابراهيم بن بطوطة ، تحفة النظار في غرائب الامصار وعجائب الاسفار ج١ : (القاهرة ، ١٩٣٨) ص ١٤٥ .

(٨) H. Howorth, History of the Mongols Vol 3 (London, New York 1927) , P. 658.

(٩) تستر أوششتر مدينة بخوزستان اقليم واسع بين البصرة وفارس على جانبي المجرى الأسفل لنهر كارون وتسمى اليوم «عربستان»، انظر : ياقوت الحموي، معجم البلدان، ج٢ (بيروت ، ١٩٥٥) ص ٢٩ .

(١٠) تبريز مدينة أذربيجان ، الحموي ، ج٢ ، ص ١٣ .

(١١) غياث الدين بن همام الدين خوندمير دستور الوزراء (طهران ، ١٣٧٢) ص ٣٢٨ .

ان موت السلطان اويس كان بداية لضعف الدولة الجلائرية وتدهورها . والواقع ان الجلائريين فقدوا بموته شخصية قوية كان لها من الحنكة السياسية والعسكرية والادارية ماساعد على بناء الدولة وتنظيمها واقالتها من العثرات التي صادفتها . يعتبر اويس – بحق – المؤسس الثاني للدولة . وكان كما وصفه احد المؤرخين « ملكاً عادلا واماماً شجاعاً فاضلا (١٢) » . نشبت بعد موت اويس ، سلسلة من الصراعات الاسرية بين اولاده الخمسة وهم – حسين – وعلي – واحمد – وحسن – وبايزيد . وقد حسم الصراع لصالح جلال الدين حسين بهادرخان (١٣٧٥ – ١٣٨٢) ، وقد انصرف حسين الى تصفية مناوئية معتمداً بصورة خاصة على وزير ابيه شمس الدين زكريا والامير عادل اغا حاكم السلطانية . (١٣) وفي تبريز اجتمع الامراء الموالون للسلطان حسين وقتلوا الشيخ حسن وزعموا ان اويساً اوصاهم بقتله (١٤). اما الشيخ علي ابن اويس فقد كان في بغداد وسرعان ماعلن طاعته لاخيه حسين . كذلك فعل الامير احمد الذي كان حاكماً على البصرة .

واجه السلطان الجديد ، العديد من الثورات المبكرة ، وبدلا من ان يعمل على اخمادها فقد انصرف نحو حياة اللهو والطرب والمجون ، وترك شؤون الدولة للوزير شمس الدين زكريا (١٥) . ومن الثورات التي حدثت في عهده تلك التي قادها البغداديون الذين استقدموا الشاه منصور بن محمد من قبيلة القره قوينلو التركمانية (١٦). وقد بلغ من خطر هذه الثورة واتساعها ان اضطر

---

(١٢) ابن عربشا ،عجائب المقدور في أخبار تيمور ،(لاهور ،١٨٦٨) ص ٤٦ .

(١٣) سلطانية،نسبة الى السلطان الذي بناها وهو خربندة بن ارغون بن أبقيا بن هولاكو وهي من مدن العراق العجمي.كان اسمها قنغرلان .أنظر :احمد بن علي بن ابي اليمن القلقشندي ، صبح الاعشى في صناعة الانشا ، ج٤ (القاهرة ، ١٩٦٣) ص ٣٥٨ .

(١٤) عبدالرحمن بن محمد بن خلدون : العبر وديوان المبتدأ والخبر ،ج٥ (بيروت لا،ت) ص ١١٦٩ .

(١٥) عبدالله بن فتح الله الغياثي ، التاريخ الغياثي تحقيق طارق نافع الحمداني (بغداد ،١٩٧٥) ص١٠٠ وكذلك ابن حجر ،انباء الغمر في ابناء العمر ؛ج١ (القاهرة ،١٩٦٩)ص٧٤ .

(١٦) القرة قوينلو من القبائل التركمانية التي حكمت العراق فيما بعد أي بين ١٤١٠ – ١٤٦٧

السلطان حسين إلى اصدار الاوامر لقائده عادل اغا بالتوجه على رأس جيش كبير نحو بغداد واخماد الثورة . تمكن عادل اغا من القضاء على زعماء الثورة، وكتب تقريرا بذلك إلى السلطان حسين الذي اصدر اوامره بتعيين الامير اسماعيل ابن الوزير زكريا حاكما على بغداد على ان يدخل في طاعته الشيخ علي بن اويس، رفض البغداديون ذلك وبايعوا الشيخ علي سلطانا عليهم . فكان لهذا الخبر وقع كبير في بلاط السلطان حسين في تبريز ، فاستعد لمواجهة الامر ، ولم يطل انتعاش الشيخ علي في بغداد طويلا ، اذ توجه السلطان حسين بنفسه نحو بغداد وعندما ايقن الشيخ علي بعدم قدرته على الدفاع انسحب إلى تستر فدخل السلطان حسين بغداد واعاد تثبيت حكمه فيها ثانية . ولكن بغداد ثارت مرة اخرى على السلطان حسين . بعد ان ساءت احوال الادارة وازدادت الضرائب وكثرت حوادث الاعتداء على الناس . ان ذلك كله ساعد على عودة الشيخ علي إلى بغداد واستقراره فيها سنة ١٣٨٠ .

تدهورت اوضاع الدولة الاقتصادية والادارية والسياسية في عهد السلطان حسين (١٧) ذلك ان السلطان حسين اهمل امور الحكم — كما سبق ان قدمنا — لذلك اتفق عدد من الامراء على ضرورة التخلص منه ، واتصلوا خاصة بالامير احمد حاكم البصرة ، وقد استجاب لهم وسار على عجل ،خاصة بعد ان انكشف عجز اخيه في ادارة الدولة وبمساعدة اولئك الامراء الذين قتلوا السلطان حسين تمكن من الاستيلاء على السلطة واعلن نفسه سلطاناً (١٨).

ان الاحداث ، المارة الذكر ، اقامت الدليل على ان الدولة الجلائرية كانت بحاجة إلى شخصية قوية حازمة لادارة شؤونها،ويبدو ان السلطان احمد انتبه لهذا الامر فقدر له ان ينغمس في مشكلات العراق والصراعات التي دارت

---

(١٧) في عهد السلطان حسين تسلط الامراء على شؤون الحكم وكثرت الفتن والاضطرابات.
انظر : خليل ،المرجع السابق ص ٢٩ .

(١٨) الغياثي ،المصدر السابق ، ص ١٠٠ — ١٠١ .

حوله على مدى ثلاثين عاما حافلة بتصادم القوى في المنطقة وفي .كانون الثاني ١٣٨٢ تسلم السلطان احمد مقاليد الحكم (١٩) .

الحركات المحلية في عهد السلطان احمد : —

واجه السلطان احمد الجلائري محاولات عديدة للاطاحة به ، وكان عليه ان يعمل على توطيد مركزه ، والتخلص من العناصر التي كانت تمارس دورا كبيرا في اثارة الفتن وخلق مشكلات في عهد سلفه . وبعد فترة من النضال العنيد استطاع ان يقبض على زمام الامور بقوة ومقدرة عظيمتين . ومن اهم المشكلات والتمردات التي واجهها حركة اخيه بايزيد، وتمرد عادل اغا في السلطانية، وحركة اخيه الشيخ علي وثورة البغداديين وفوق هذا وذاك المشكلات العشائرية (العربية والكردية والتركمانية) . وليس من شك في ان تلك الحركات تركت اثارا سلبية على اوضاع العراق السياسية والاقتصادية والثقافية .

لقد اعلن الامير بايزيد بن اويس التمرد في نفس السنة التي تولى فيها اخوه السلطان احمد السلطة ففر من تبريز إلى السلطانية ، ويظهر ان الامير عادل اغا هو الذي حرضه على التمرد ، وذلك لان الامير عادل اغا حاكم السلطانية احسّ بان الاوضاع قد تتطور لغير صالحه ، وان السلطان الجديد قد يعزله ، وينتزع السلطانية منه . زيادة على ذلك تأثر عادل اغا بمقتل السلطان حسين ،والذي كان من اخلص انصاره،فاوعز صدر بايزيد على اخيه ، واتفقا مع الشاه شجاع المظفرى حاكم فارس ضد السلطان احمد اما السلطان احمد فقد اصطدم بهم في معركة غير متكافئة انهزم في اثرها . وبعد ذلك التجأ إلى قره محمد التركماني صاحب الموصل الذي انجد صهره السلطان احمد بما يحتاجه من مؤن وقوات وخاض السلطان احمد جولة ثانية من الصراع بين اعدائه وقد انتهت هذه الجولة بهزيمة الامير بايزيد وحلفائه . ثم عقدت هدنة بين

(١٩) انظر : تقي‌الدين احمد بن علي المقريزي ،السلوك لمعرفة دول الملوك ج٣

الطرفين كان من احد شروطها ان يستقر بايزيد في السلطانية وينفى عادل اغا خارج البلاد (٢٠).

التفت السلطان احمد نحو الامراء الذين لعبوا دورا كبيرا في اغتيال اخيه السلطان حسين لتصفيتهم ، ولعله اوجس منهم خيفة ، وشعر بانهم قد يتحولوا في مستقبل الايام إلى مراكز قوى جديدة تهدد حكمه (٢١) . ومن هؤلاء الامراء بير علي بادوك ، وعمر قبجاقي اللذين هربا إلى بغداد بعد ان علما بما يدبر ضدهما (٢٢) وقد احتضن حاكم بغداد الشيخ علي بن اويس الامراء الفارين وتوجه بهم على رأس جيش نحو تبريز ، وعندما علم السلطان احمد بذلك خرج عليهم بجيش كبير ، وكان معه حليفه قره محمد التركماني امير القره قوينلو وصاحب الموصل (٢٣) . وعند نهر هشت رود (٢٤) باذربيجان التقت القوات الجلائرية بالقوات الزاحفة في معركة قاسية انحاز فيها احد انصار الشيخ علي ، وهو خضر شاه بن سليمان شاه ، إلى جانب السلطان احمد ، وقد اصيب الشيخ علي بسهم في المعركة فحمل إلى اخيه وبه رمق فمات وكان ذلك سنة ١٣٨٤ ، وبمقتله انتهى عهد الشيخ علي ، وكانت فترة حكمه في بغداد تقرب من عشر سنوات (٢٥) .

---

(٢٠) ابن خلدون ،المصدر السابق ،جه ص ١١٧٢ .

(٢١) يشير عزيز بن اردشير الاسترابادى ، وكان نديم السلطان احمد في بغداد إلا ان السلطان احمد تخلص من عدد من الامراء الكبار ومن هم في تربية السلطنة واعيان رجال الدولة من ذوى الكفاءة والدراية والرأي في تدبير الامور ، ويعيب على السلطان هذا التصرف ويقول انه جمع حوله عددا من الرجال الاسافل ممن عرفوا بالجهل والحماقة واعطائهم مناصب عليا وقد ادى ذلك كله إلى ضعف الادارة وحدوث حركات المعارضة والفتن انظر : كتابه « بزم ورزم» نشره محمد فؤاد كوبرلي (استانبول ، ١٩٢٨) ص١٦- ٢٠.

(٢٢) الغياثي ، المصدر السابق ، ١٠٢ ، غياث الدين بن همام خوانديرحبيب السير،ج٣(طهران ١٣٣٣) ، ص٢٤٧

(٢٣) نظمي زاده افندي مرتضى ، كلشن خلفاء ، ترجمة موسى كاظم نورس (النجف ، ١٩٧١) ص١٦٦ .

(٢٤) نهر ينبع من مرتفعات مراغة واوجان باذربيجان ويلتقي بنهر سفيد قرب ميانيج

(٢٥) الغياثي ، المصدر السابق ، ص١٠٢ - ١٠٣

اما ردود الفعل البغدادية على مقتل الشيخ علي، فقد اتسمت بالسلبية وسرعان ما ارسلوا إلى عادل اغا ، وقد عاد إلى السلطانية بدعوة من بايزيد ، يطلبون منه ان يبعث اليهم حاكما من قبله يتولى امورهم فاجاب الطلب ، وارسل اليهم ابن اخيه طورسون وقوام الدين النجتي وهو من امراء السلطان السابق حسين ولما وصل طورسون بغداد اتخذ عدة اجراءات لتثبيت مركزه .

فقتل حاكم بغداد من قبل احمد جلائر عبد الملك الطمغجي وصادر الفي تومانا (٢٦) (٢٠ مليون دينار) من المال الذي في حوزته ، وقتل عدد اخر من الامراء (٢٧) وقد اتبع طورسون سياسة تعسفية مع البغداديين ، فصادر اموال الاغنياء وكان يرسلها تباعا إلى عادل اغا ، وقد ساءت الامور وسادت الفوضى في بغداد الامر الذي ادى إلى اسراع السلطان احمد بالتوجه نحوها ، وعندما اقترب من بغداد حاول طورسون الهرب ، الا ان الجند تعقبوه والقوا القبض عليه وقتلوه اما عادل اغا وبايزيد فقد هرب الاول من السلطانية والتحق بتيمور الذي كان يغزو المناطق المجاورة للدولة الجلائرية . وتوسط الشاه شجاع المظفري للثاني بعد ان تحسنت العلاقات الجلائرية — الفارسية فوافق السلطان احمد على عودته إلى بغداد وامنه ثم غدر به بعد ذلك وسمل عينيه (٢٨) هذا

---

(٢٦) والتومان Tumen معناه ١٠,٠٠٠ وعندما يتكلم المؤرخ وصاف عن الصين يذكر ان التومن يساوى ١٠,٠٠٠ باليش وان كل باليش يساوى (٦) دنانير ، وعند تدقيق روايات المؤرخين نجد انه لم يجر الحساب بالباليش في الدولة الجلائرية خلال اواخر القرن الثالث عشر وفي القرن الرابع عشر وان الوحدة القياسية في العملة صارت الدرهم وكان وزنه ٢,١٥ غرام . وقد قابل حمد الله القزويني (التومن) في كل مكان في كتابه « نزهة القلوب » بالدينار لا بالدراهم وان هذا الدينار لم يكن الدينار الذهبي انما كان هذا الدينار — كما يقول رشيد الدين — من الفضة واذا كان التومن مساوياً لعشرة الاف دينار ، فان قيمة التومن تكون ٦٠,٠٠٠ درهم . انظر : بارتولد ، الحالة المالية في العهد الايلخاني ، مجلة الدراسات الحقوقية والاقتصادية ، ص١٤٤ — ١٤٦ .

(٢٧) مير خوند ، المصدر السابق ، ج٥، ص٥٩٠ ، ابن خلدون ، المصدر السابق ج٥ص١١٧٣

(٢٨) زينل اوغلو جهانكير ، اذربيجان تاريخي ، (استانبول ، ١٩٢٤) ص٧٤ .

وقد بقي السلطان احمد في بغداد طيلة فصل الشتاء وفي الربيع غادرها عائدا إلى تبريز بعد ان عين الخواجة يحيى السمناني حاكما على بغداد .

بالرغم من رغبة السلطان احمد الجلائري في الانصراف لتنظيم شؤون العراق الاقتصادية والادارية ، فان الحركات المحلية والتمردات العشائرية حالت دون ذلك . فقد استغلت تجمعات عشائرية مختلفة انشغال السلطان احمد في قمع الحركات المحلية وفي مواجهة الخطر التيموري لتقطع صلتها بالحكومة المركزية . فقد بسط نعير بن حيار(٢٩)امير آل فضل نفوذه على جهات الفرات من هيت حتى الانبار ، كما استغل بعض حكام المدن عجز السلطان احمد من السيطرة على العراق فاعلن بعضهم استغلاله وقدم حاكم تكريت وحاكم سنجار ولاءهما للسلطان المصري (٣٠) .

وقد انتعشت سطوة قبيلة خفاجة (٣١) في مناطق الفرات الاوسط واستولت قبائل المنتفق (٣٢) على البصرة وتولى حكمها اميرها صالح بن حولان ، والذي اخضع القبائل العربية فيها ومد نفوذه إلى البحرين وكان يدين بالولاء للسلطان احمـــد ، وقاوم قوات تيمور عند قدومها إلى البصرة بعد احتلال

(٢٩) نعير امير آل فضل بالشام ، تولى الامارة سنة ١٣٧٥ فبسط نفوذه على القبائل العربية في اسفل الفرات وقد اسند المماليك الذين كانوا يحكمون الشام ومصر آنذاك لآل فضل خفارة طرق القوافل بين العراق والشام . وآل فضل بالاصل هم من طي . وكان افرادها يتنقلون بين الشام والجزيرة ونجد انظر : قلائد الجمان في التعريف بقبائل عرب الزمان تحقيق ابراهيم الابياري (القاهرة ١٩٦٣) ٧٦-٧٩ كما وردفي جاسم مهاوي حسين ، تاريخ الغزو التيموري للعراق والشام واثاره السياسية ١٣٨٥– ١٤٠٥ رسالة ماجستير غير منشورة قدمت لجامعة بغداد ، نيسان ١٩٧٦ ، ص٩٠.

(٣٠) المقريزي ، السلوك ، ج٣،ق٢ ، ص٤٩٨ وكذلك ابن حجر ، ابناء الغمر . ج١ص٢٧٦.

(٣١) خفاجة احدى بطون بني عقيل تنتشر تجمعاتهم في الفرات الاوسط والبطاح . كانت من القبائل المهمة في العهد الايلخاني ، خضعوا للجلائريين ، وسيطروا على الحلة سنة ١٤٢٣ انظر : مهاوى المرجع السابق ، ص٩١.

(٣٢) تجمعات عشائرية بين الكوفة والبصرة ، برز نشاطهم في اواخر العصر العباسي وازداد في العهدين الأيلخاني والجلائري ، وهم عبارة عن تآلف بين ثلاث عشائر كبرى هي بنو مالك وبنو سعيد والأجود انظرعنهم:عبدالعزيز سليمان نوار، تاريخ العراق الحديث (القاهرة١٩٦٨)ص١٥٢-١٥٣ .

بغداد ، ثم حكمها احد امراء تيمور المسمى سربدار فترة قصيرة ١٣٩٤ وبعدها انفردت القبائل العربية بحكمها بصورة مستقلة منذ بداية القرن الخامس عشر الميلادي (٣٣) كما سيطر الشيخ اويس زعيم قبيلة عبادة على واسط (٣٤)

اما الموصل فكان يحكمها امراء التركمان القره قوينلو باسم الجلائريين ، فقد ضربت النقود فيها باسم السلطان احمد (٣٥) الا أن امراء التركمان مالبثوا ان اعلنوا انفصالهم عن احمد جلائر بعد تولي قره يوسف زعامة هذه القبائل وكان اخوه يار علي حاكما على الموصل (٣٦) .

ولقد شهدت المناطق الكردية اضطرابات عديدة ، ولم يستطع السلطان احمد ان يبسط نفوذه المباشر عليها ، واكتفى بقبول السيادة الاسمية على المدن والحكام التابعين له بضرب اسمه على النقود ودفع الضرائب التي كانت تجبى بطريقة الضمان (٣٧) . وقد لعبت القبائل الكردية دورا كبيرا في ارباك الادارة ، وساعدت البيئة الجغرافية والمسالك الوعرة على ان يحكم امراءها

---

(٣٣) خليل ، المصدر السابق ، ص٤٧

(٣٤) شرف الدين علي اليزدى ظفر نامة ، (طهران ، ١٣٣٦) ، ج٢ص٢٧٨ .
كما ورد في مهاوي المرجع السابق ص٩٢

(٣٥) لتفاصيل ذلك راجع محمد مبارك ، مسكوكات قديمة اسلامية قتالوغي (قسطنطينية ، ١٣١٨)ص٢٠٦وكذلك مهاوي درويش البكري نقود الدولة الجلائرية ، مجلة سومر ، المجلد ٢٩، ج١ - ٢ ، بغداد ١٩٧٣ ، ص٢٤٣ .

(٣٦) Sauory, The Struggle for supermacy in persia after the death of Timur ,Derislam ,1940,vol,40,pp,36-37,
كما ورد في مهاوى ، المرجع السابق ص٩٤ .

(٣٧) لم يكن اسلوب الادارة في الدولة الجلائرية يخضع لروتين معين ، بل كان يتغير تبعاً للظروف السياسية والاقتصادية والعسكرية للدولة . وفي عهد السلطان احمد استقرت اسلوب الادارة على بعض الاسس والانماط القديمة التي ورثوها عن الايلخانيين، ومن هذه الانماط الحكم بطريقة الضمان وكان الديوان يفوض حكومة احدى المدن الى الضامن مقابل تأدية مبلغ معين من المال، ويقوم الضامن باستحصال حقوق الديوان من منطقة ويحتفظ بالزيادة لنفسه. ومع ان الغرض الرئيس من هذا النوع من الادارة هو تحصيل الموارد الحكومية، فقد كانت تناط بالضامن كافة شؤون المنطقة واشغال الديوان فيها ويعمل على نشر الامن بين السكان واعادة من نزح منهم وغير ذلك . انظر : خليل ، المرجع السابق ج ٧٤ ،

على اتباعهم بصورة مستقلة . وكانوا يتحينون الفرص لمهاجمة القوافل التجارية المارة بين العراق وايران (٣٨) .

في تلك الظروف المشحونة بالاضطرابات والفتن والمشكلات كان على السلطان احمد ان يعمل فما ان تخلص من بعض الاخطار الداخلية حتى بدأت علامات الاندفاع التيموري الاول على الدولة الجلائرية سنة ١٣٨٧ تظهر من بعيد لتضيف إلى مشكلاتها مشكلة جديدة — كما سنرى — .

الصراع الجلائري – التيموري وابعاده :ـ

شهد الشرق الاسلامي في اواخر القرن الرابع عشر ومطلع القرن الخامس عشر تحركات مغولية اكتسحت امامها دولة الخانات الممزقة بتاثير حروب الوراثة الاهلية ، خاصة بعد وفاة الخان ابي سعيد وكانت هذه القوة الفتية بزعامة قائد « اعرج» اسمه تيمور ينتمي إلى عشيرة مغولية تدعى بارالاس Barlas (٣٩) . وقد استطاع تيمور ان يسيطر على اوضاع بلاد ماوراء النهر ويقفز إلى السلطة سنة ١٣٧٠ متخذا من سمرقند عاصمة له ومنطلقاً لغزواته التي شملت اجزاء كبيرة من العالم الاسلامي (٤٠) .

بدأ تيمور غزوه العالم الاسلامي سنة ١٣٧٥ حين اجتاحت جيوشه خوارزم وشيراز ولم تمض فترة طويلة حتى فتح جرجان وطبرستان وسجستان وافغانستان واذربيجان ولم يكن الغزو التيموري للعالم الاسلامي — في الحقيقة — سوى جزء من حركة واسعة النطاق استهدفت اقامة امبراطورية عالمية . ويبدو ان الاوضاع السائدة في المناطق التي شملها الغزو مهدت له سبيل التوسع بشكل واضح . فالحكام في تلك المناطق ، انصرفوا الى اللهو والعبث والتنافس والانقسامات وتصارع القوى . اما الحروب الاهلية فقد ضربت اطنابها بحيث لايتورع الاخ — كما قيل — ان يقتل اخاه ثم يقهقه ضاحكاً ،

---

(٣٨) خليل المراجع السابق ، ص ١٧٨ وكذلك مهاوى ، المراجع السابق ، ص ٩٥ .

(٣٩) CyriL Elgood, Amedical history of persia and Eastern Calphata- Cambridge, 1951, P, 324 .

(٤٠) للتفاصيل انظر : ابن عربشاه ، المصدر السابق

«لقد اقتسمنا العالم هو تحت الارض وانا فوقها»(٤١) اضافة الى ماكانت تتمتع به تلك المناطق من ثروات اقتصادية بجعلها قبلة كل فاتح ومطمح كل طامح(٤٢).

لقد حاول تيمور منذ سنة ١٣٨٦ ان يطرق ابواب الدولة الجلائرية حين تطلع الى تبريز . وبالنظر لانشغال السلطان احمد بمواجهة المحاولات الرامية الى الاطاحة به فانه اهمل المساعي التي بذلها الاميرولي حاكم طبرستان لاقامة تحالف ضد تيمور يضم الدولة الجلائرية والدولة المظفرية وطبرستان كما ساءت العلاقات بين الدولة الجلائرية والدولة المظفرية بسبب تأييد المظفريين لبعض المناوئين للسلطان احمد كما سبق ان قدمنا . ولم يحاول السلطان احمد ان يتخذ اية خطوة ايجابية لتحسين علاقته بالمظفريين لاستخدامهم حزاماً يقيه خطر اندفاع تيمور (٤٣) . وكذلك لم يستفد من الصراع الدائر بين تيمور وتقتش خان حاكم الدشت والقفحاق في الجهة الشمالية ، فكان لذلك اثر في فقده اذربيجان بعد غزو تقتش خان لبعض جهاتها (٤٤) .

التفت السلطان احمد الى الجهة الغربية ، بعد ان تداعت الجبهات الشمالية والشرقية للدولة الجلائرية . فارسل سنة ١٣٨٧ وفداً الى السلطان العثماني مراد الاول (١٣٦٠ - ١٣٨٩) من اجل اقامة تحالف ضد تيمور ، لكن مراد الاول لم يؤيده في مسعاه . ولما مات الاخير سنة ١٣٨٩ ارسل السلطان احمد وفداً الى بايزيد بن مراد (١٣٨٩ - ١٤٠٢) للغرض نفسه ، كان بايزيد اكثر وعياً من ابيه لخطر تيمور كما يبدو ، الا ان انشغاله بالجبهة الاوربية حال دون اتخاذه خطوة عملية للوقوف مع احمد جلائر .

هذا وقد حاول السلطان احمد التعاون مع المماليك الجراكسة ، واتضح هذا التعاون سنة ١٣٨٦ حين ارسل وفداً الى السلطان برقوق يحذره من

---

(٤١) هارولد لامب ، تيمورلنك ،ترجمة عمرابو النصر (بيروت ، ١٩٣٤) ، ص ٨٩ .
(٤٢) Elgood, op, cit, p.329.
(٤٣) مهاوي المرجع السابق ، ص ٩٥ - ٩٧
(٤٤) عن هذا الغزو انظر : الاسترابادى ،المصدر السابق ص ١٦

خطر تيمور . فقام برقوق اثر ذلك بارسال جيوشه الى الشام في السنة التالية استعداداً لمواجهة اي هجوم تيموري ، ولكن رجوع تيمور الى سمرقند بعد ثورة احد اتباعه الامير قمر الدين جعله يسحب قواته الى القاهرة ويلغي الاجراءات الاستثنائية التي اتخذها (٤٥) .

لقد اجتاح تيمور تبريز عاصمة الدولة الجلائرية سنة ١٣٨٦ واضطر السلطان احمد الى الانسحاب نحو بغداد . وقد عاثت جموع تيمور في تبريز سلباً ونهباً حتى ان الناس استعادوا ذكرياتهم المؤلمة عن جنكيزخان وهولاكو. ولكن تيمور عاد الى سمرقند ، وبعد ان اخمد الثورة التي اشرنا اليها آنفاً قرر غزو العراق وكان ذلك بعد ستة اعوام من اجتياحه تبريز .

اتخذ السلطان احمد الاستعدادات العسكرية لمواجهة الخطر التيموري وجهز جيشاً بقيادة الامير (سنتائي) . وقد اصطدم هذا الجيش بمقدمة الجيش التيموري عند مدينة للسلطانية . وكانت نتيجة المعركة تمزق جيش سنتائي وتشتته ، وبالفعل وصلت بعض فلوله مدينة بغداد . اما القائد سنتائي « فقد غضب عليه السلطان احمد واشهره في بغداد بعد ان ضربه واوجعه» (٤٦).

زحف تيمور نحو بغداد ، وواجه جيشاً جلائرياً آخر في طريقه عند قلعة النجق (٤٧) . وهي معقل السلطان احمد؛سابقاً وبها ولده طاهر وزوجته. وكان الحاكم في القلعة رجلا قوياً اسمه « التون » . وقد استطاع ان يصمد اكثر من اثني عشر عاماً ، وكان لحصانة القلعة دور كبير في صعوبة فتحها(٤٨).

---

(٤٥) مهاوى المرجع السابق ،ص (٩٩ - ١٠٠) .

(٤٦) ابن عربشاه ، المصدر السابق ،ص٥٦) .

(٤٧) النجق او النجا ، وهي ناحية في ولاية سيكونكغ وهي الان اطلال في رحاب مدينة نخجوان من اراضي جمهورية آذربيجان السوفيتية الاشتراكية وتقوم قلعة النجق على مسيرة نحو عشرين كيلومترا على قمة جبل بالغ الوعورة قرب مدينة خانقا وقد كان للقلعه هذه شان كبير في عهد التيموريين . والتركمان انظر : دائرة المعارف الاسلامية ، الترجمة العربية ،مادة قلعة النجق ، ص ٩٨ - ٩٩ .

(٤٨) ابن عربشاه ، المصدر السابق ، ص ٥٦ .

لقد كان اخضاع العراق جزء من ستراتيجية شاملة اعدها تيمور للسيطرة على العالم الاسلامي . وتكمن وراء هذا الغزو عوامل عديدة منها اقتصادية ومنها سياسية ــ عسكرية . فقد اراد تيمور بحملته على العراق وايران ان يؤمن طرق المواصلات التجارية بين الصين والهند وبين الغرب عبر الطريق الخراساني ويزيل كل عقبة تحول دون تحقيق ذلك سواء كانت تلك العقبة تجمعاً قبلياً ام كياناً سياسياً . ان اضطراب الوضع في فارس واذربيجان والجزيرة والسيطرة الجلائرية علىالعراق والمملوكية على مصر والشام اضطرت القوافل التجارية القادمة من الصين والهند الى ان تأخذ وجهة جديدة ، فبدلا من ان تسير على الطريق البري من البنجاب فسمرقند ومنها تسلك الطريق الخرساني الى البحر المتوسط ، فان قسماً من هذه القوافل اخذت تسلك الطريق البحري من الهند عبر المحيط الهندي فالبحر الاحمر ومنها الى دمشق والاسكندرية ومن هناك الى اوربا . كما ان تيمور قصد وراء غزوه للعراق ان يؤمن لجيشه موارد اقتصادية جديدة عن طريق ضريبة مال الامان التي فرضها على المدن التي فتحت صلحاً كبغداد والموصل واربيل وكركوك، اوعن طريق عمليات النهب والمصادرة لاموال المدن والمناطق التي فتحت عنوة مثل واسط والحلة والبصرة وتكريت (٤٩) .

مهما يكن من امر فان تيمور كان مصمماً على غزو العراق ذلك ان غزو العراق كان يدخل ضمن ستراتيجية تيمور البعيدة المدى ، والتي كان يهدف من ورائها خلق عمق عسكري وجغرافي لامبراطوريته المنشودة . وكان تيمور قد استولى فعلا على مناطق ماوراء النهر وايران وبقيت العراق وسوريا ومصر تنتظر الفتح .

توجه تيمور نحو بغداد . واثارت انباء وصوله قلقاً بين السكان . وما

(٤٩) للتفاصيل عن ستراتيجية تيمور التوسعية انظر : مهاوي المرجع السابق ،ص ١٠٢-١٠٧

ان سمع السلطان احمد بذلك حتى حاول ان يفتح سبيل المفاوضات مع تيمور املا في التوصل الى حل للمسألة . فارسل اليه مفتي بغداد الشيخ نور الدين عبدالرحمن الاسفراييني البغدادي وهو من اعيان بغداد المعروفين حاملا رسالة السلطان احمد المتضمنة رغبته في الدخول في طاعة تيمور ، وانه لايلجأ الى المقاومة ، وارفق مع الرسالة العديد من الهدايا والتقوزات (٥٠) وقد اكرم تيمور الاسفراييني هذا وطمأنه بانه لايهاجم بغداد (٥١) . ولاجل ذلك ارسل مع الشيخ الاسفراييني رسالة يطمئن فيها السلطان احمد البغداديين ويطلعهم على مادار بينه وبين تيمور من مفاوضات (٥٢) .

ويبدو ان ذلك لم يكن سوى خدعة اراد بها تيمور كسب الوقت ، فنكث وعده ولم يتوان عن غزو بغداد . ويمكن ان نضيف ذلك الى الاسباب التي تجعلنا نأخذ برواية بعض المؤرخين – حول استنجاد البغداديين بتيمور – بحذر ، علماً بأن تيمور ارسل للسلطان احمد خلعة وسكة ، وان السلطان احمد لبس خلعته وضرب السكة باسمه (٥٣) واذعن لطاعته (٥٤) .

تحرك تيمور في ٢٢ آب ١٣٩٣ من منطقة آق بولاق بالقرب من اربيل

---

(٥٠) التقوزات وتعني الاشياء التسعة التي كان من عادة تيمور ان ياخذها ممن يدخل في طاعته وهي ان يقدم كل من يخضع لتيمور تسعة اصناف من انتاج بلده وتكون لها اهمية وتتصف بالندرة ، ولهذا التقليد اهمية اقتصادية وهي محاولة تيمور التعرف على الموارد الاقتصادية للبلدان واهميتها في التجارة والصناعة فضلا عن قيمتها الآنية انظر : ابن عربشاه ، المصدر السابق ص ٥٣ – ٥٤ مهاوي المصدر السابق ص ١٢٤ ، الغياثي المصدر السابق ص ١٠٨ .

(٥١) Howorth, op. Cit ., Vol, 3, P. 662.

(٥٢) ابو المحاسن جمال الدين يوسف ابن تغري بردي ، المنهل الصافي ، والمستوفي بعد الوافي تحقيق احمد يوسف نجاتي ، جـ ١ (القاهره ، ١٩٥٦) ، ص ٢٣٣ .

(٥٣) محمد بن عبد الرحمن بن الفرات ، تاريخ ابن الفرات ، تحرير قسطنطين زريق ، حـ١ (بيروت ص ٣٤٣) .

(٥٤) ابن تغري بردي ، المنهل الصافي ، حـ ١ ، ص ٢٣٢ .

وكان قد توقف فيها ووصل منطقة كورة كوركان بالقرب من شهرزور في كردستان وهزم هناك الجيش القره قوينلوي بقيادة الامير قره محمد التركماني(٥٥)وقد توقف فترة ثم غادر المنطقة حتى وصل قبة ابراهيم(٥٦) التي اسرع اهلها فارسلوا حمامة الى بغداد تنبيء بوصول تيمور وعندما علم تيمور بما فعله اهل القبة اجبرهم على ارسال حمامة اخرى تخبر اهل بغداد بأن الذي شاهدوه لم يكن الا غبار التركمان الفارين امام تيمور نفسه (٥٧) ومن هنا يبدو ماكان يعطيه تيمور من قيمة كبيرة لما يطلق عليه الآن « الحرب النفسية » حيث اتبعها في معظم حروبه بهدف التأثير على معنويات اعدائه ، ولتسهل امامه مهمة القضاء عليهم .

لقد اطمأن السلطان احمد بعد وصول الرسالة الثانية بعض الشيء (٥٨) وهذا يدل على ماتركته الرسالة هذه من تاثير في معنويات السلطان الذي لم يشعر الا وتيمور قد عسكر في الجانب الغربي من بغداد وكان ذلك في ٢٩ آب ١٣٩٣ (٥٩) . وظل السلطان احمد خائفاً يترقب ، وحين سمع صوت النفير فرّنحو الحلة فامر تيمور بتعقبه وقد عبر السلطان إلى الجانب الغربي من نهر الحلة وامر باحراق السفن ، ولكن جنود تيمور عبروا وراءه سباحة وجرت معركة صغيرة بينهم وبين اعوان السلطان عند كربلاء.استطاع خلالها السلطان احمد الهروب نحو الشام فوصل الرطبه واكرمه اميرها ثم اتجه الى حلب فاستقبله نائب

(٥٥) Howorth , op, cit, Vol , 3,P. 663

(٥٦) القبة قرية فيها قرار الشيخ ابراهيم بن يحيى وتسمى قبته باسم قبة ابراهيم الملك جبال حمرين تبعد عن بغداد حوالي سبعه وعشرين فرسخا انظر : خليل ، المرجع السابق هامش ، ص ٧٧ .

(٥٧) الغياثي ، المصدر السابق ، ص ١٨٥ .

(٥٨) Howorth, po. Cit.,Vol,3,, p. 663.

(٥٩) الغياثي : المصدر السابق ، ص ١٨٦ .

السلطان برقوق الامير سيف الدين جلبان فيها بما يليق به (٦٠) وبعد فترة قصيرة سافر السلطان احمد إلى القاهرة، وكانت انذاك مركزا لدولة المماليك الجركسية التي ضمت الشام كذلك. (٦١)

دخل تيمور بغداد يوم السبت ٣٠ آب ١٣٩٣ بعد ان وجد ابواب المدينة مفتوحة امامه ولم يجد اية مقاومة تذكر (٦٢). ويبدو ان اهل بغداد قد خشوا ان يصيبهم مااصاب اسلافهم الذين رفضوا الخضوع لهولاكو سنة ١٢٥٨ (٦٣). فوهنت عزيمتهم وتسرب الياس منذ البداية إلى نفوسهم من قدرتهم على مقاومة الحصار والعمل على رفعه، وخاصة بعد انسحاب احمد جلائر (٦٤). ولما لم يجد مقاومة لقواته، فقد فرض على البغداديين ضريبة السلم المسماة آنذاك بضريبة مال الامان.

وطالب الناس باموال اكثر مما يستطيعون دفعه، وكان الملتزم لعملية الجمع شرف الدين البلقي (٦٥) وقد رافق جمع الضريبة ابشع اساليب التعذيب واقساها، حتى قضى على عدد كبير من الناس قدرهم المقريزي بـ(٣٠٠٠) نفس، بعد ان بالغ في وصف حالة سكان بغداد بعد الغزو (٦٦) وقد اشار

(٦٠) لتفاصيل انظر، المقريزي، السلوك، ج٣، ص ٨٠٠، وشمس الدين محمد بن عبد الرحمن السخاوي الضوء اللامع لاهل القرن التاسع، ج٥ (بيروت لا. ت) ص ٢٤٤، ومحمد ابن علي الشوكاني، البدر الطالع بمحاسن مابعد القرن السابع ج١، (القاهرة، ١٣٤٨)، ص٤٢

(٦١) لتفاصيل عن دولة المماليك انظر: محمود رزق سليم، عصر سلاطين المماليك ج٣ القاهرة، ١٩٦٢) ص ٤١.

(٦٢) ابو البركات محمد بن احمد اياس، بدائع الزهور في وقائع الدهور، ج١ (القاهرة، ١٣١١ هـ)، ص ٢٩٩.

(٦٣) المصدر نفسه، ج١، ص ٢٩٩.

(٦٤) مهاوي، المرجع السابق، ص ١٣٤.

(٦٥) الغياثي، المصدر السابق، ص ١١٣.

(٦٦) المقريزي، السلوك، ج٣، ق٢ص ٧٩٠.

المقريزي كذلك إلى ان تيمور صادر اهل بغداد ثلاث مرات وجمع في كل مرة (١٥٠٠) تومان (٦٧) اى ما مجموعة (٤٥) مليون دينار وقبل ان يتوجه تيمور نحو مدن العراق الاخرى لفتحها عين مسعود السبزاوى حاكما

على بغداد (٦٨) ثم اتجه نحو تكريت فحاصرها اربعين يوما حتى تمكن من دخولها وقضى على المقاومة وقتل اميرها حسن بن بولتمور (٦٩) . وسرعان ماتهاوت المدن الاخرى تحت ضربات تيمور القوية . فخضعت اربيل وكان حاكمها الامير شيخ علي اويرات (٧٠) وعندما وصل تيمور إلى كركوك سنة ١٣٩٣ استقبله حاكمها وقدم ولاءه مع حكام المدن والقلاع المجاورة . فانعم عليهم واكرمهم ووزع عليهم الهدايا والاموال (٧١) . وبعد ذلك توجه تيمور نحو الموصل وكانت انذاك تابعة إلى قره يوسف امير القره قوينلو ويحكمها اخوه بار علي الذي سرعان مااستسلم لتيمور دون اي مقاومة (٧٢) . اما البصرة فقد ارسل تيمور ابنه ميرانشاه على راس جيش لفتحها وكان يحكمها امير المنتفق صالح بن جيلان الذي استنجد بعرب بني عقيل في البصرة ، والبحرين فاجتمع لديه جيش كبير من العشائر العربية ، ولما وصل ميرانشاه بقواته إلى البصرة اشتبك مع قوات التحالف العشائرية في معركة اسفرت عن اندحار القوات التيمورية ، ولكن تيمور اسرع فارسل حملة ثانية اسفرت عن دخول البصرة تحت الاحتلال التيموري . وهكذا اصبح العراق كله جزء من ممتلكات تيمور . (٧٣)

---

(٦٧) المصدر نفسه ، ج٣ ، ص ٧٩٠ .
(٦٨) خليل ، المرجع السابق ص ٣١ .
(٦٩) ابن خلدون ، المصدر السابق ، ج٥ ،ص ١١٧٥
(٧٠) الغياثي ، المصدر السابق ،ص ١٨٩ .
(٧١) خليل ، المرجع السابق ، ص ٦١ .
(٧٢) الغياثي ، المرجع السابق ، ص ١٨٩ .
(٧٣) للتفاصيل انظر : ابن الفرات ، المصدر السابق ، ج٩ص ٣٤٧ .

ان سياسة تيمور في العراق لاتختلف عن سياسته في بقية اقطار مملكته اذ كان اهتمامه منصبا على جعل ماوراء النهر مركز التوجيه والتاثير في العالم الاسلامي(٧٤) . وقد حاول الفاتح ان يظهر بمظهر الملتزل بالاحكام الاسلامية ، فامر اتباعه بغلق بيوت الدعارة في بغداد (٧٥) . كما توجه بنفسه إلى قصر السلطان احمد : وعلى مرأى من العلماء ، طلب من الجند جمع المشروبات الموصلية والدياربكرية الموجودة فيها والقائها في نهر دجلة (٧٦) . ولكن سياسة تيمور الدينية في العراق ارتبطت بموقف العراقيين وموقفه من احمد جلائر ودولة المماليك الذين يتبعون المذهب الشافعي ، ولما كان الشافعية في بغداد يؤلفون الاكثرية ويميلون إلى الجراكسة لذلك قام باضطهادهم والتقرب من اتباع المذهبين الحنفي والحنبلي ، وكذلك استمال الامامية . وقد اتضح ذلك في تخصيصه الاموال والاوقاف لمشاهدهم (٧٧) .

اتخذ تيمور بعض الاجراءات الادارية والسياسية التي تعد نتيجة من نتائج الغزو التيموري الاول اهمها تصفية اعوان السلطان احمد ، وفرض الاقامة الجبرية على قسم منهم كما انتقى تيمور ثلة من المهندسين والمعماريين وامر بتهجيرهم إلى عاصمته سمرقند (٧٨) .

لقد شهد العراق خلال السيطرة التيمورية الاولى فوضى سياسية وادارية واقتصادية وكان ذلك بسبب عوامل مهمة منها بعده عن العاصمة ، وضعف النفوذ العسكري والسياسي للسلطة التيمورية في العراق ، ولعدم وجود معطيات

(٧٤) مهاوي ، المرجع السابق ، ص ١٧٠ .

(٧٥) V. V Barthold, Four studies on the history of central Asia, tr. Form Russiam by Minorsky, Vol, II, (Leiden, 1958) . P.

كما ورد في مهاوي المرجع السابق ص ١٧٢ .

(٧٦) شهاب الدين عبدالله بن لطف الله الخوافي المشهور بحافظ آبرو ، زبدة التواريخ ، (براغ، ١٩٥٦) . ص ١٠٧ كما ورد في مهاوي المرجع السابق ص ١٧٣ .

(٧٧) مهاوي المرجع السابق ، ص ١٧٣- ١٧٤ .

(٧٨) لامب ، المصدر السابق ، ص ١٩١ .

امنية لدى الغزاة تعوض للسكان مافقدوه من كيان سياسي . ناهيك عن توثب اصحاب السلطان الهارب للانقاض على الحكم التيموري من خارج العراق وداخله (٧٩) . ومثال ذلك ماحدث من خروج بعض الامراء في شمال العراق عن طاعتهم لتيمور ومن هؤلاء يار علي حاكم الموصل (٨٠) .

اصبحت امبراطورية تيمور محاددة للمماليك والعثمانيين خاصة في الجهات الشرقية الامر الذي ادى إلى اصطدامه مع هاتين القوتين ، ويبدو ان تيمور قرر تصفية الامر مع المماليك اولا ، ولعل السبب في ذلك يرجع إلى رغبته في تامين قاعدته الجنوبية في جهات سوريا عند قيامه بالهجوم على العثمانيين(٨١)

لقد انتهز تيمور فرصة التجاء السلطان احمد إلى مصر ، فراح يطلب من السلطان برقوق ان يعترف بسيادته على العراق وايران ، وان يكون تابعا له وانالنقود باسمه ، وان يذكره في المساجد ، وقد حمل هذه المطالب وفد برئاسة شيخ شاه الذي توجه في شباط ١٣٩٤ يحمل رسالة طويلة فيها تهديد ووعيد ، فاجابه السلطان برسالة مطولة (٨٢) ثم اقدم على قتل رسل تيمور وجهز نفسه للسفر ، واصطحب معه السلطان احمد فوصلا دمشق في ايار ١٣٩٤ ، واقام بها خمسة اشهر وعشرة ايام ، وبعد سماعه بعودة تيمور إلى بلاده اثر تمرد احد اعوانه عليه جهز السلطان احمد بما يحتاجه استعدادا للعودة إلى العراق والعمل على استعادة نفوذه هناك (٨٣) .

---

(٧٩) مهاوي المرجع السابق ،ص ٣٣٩، ٣٤٣ .

(٨٠) عباس العزاوي ، تاريخ العراق بين الاحتلالين ، ج٣ ، (بغداد ، ١٩٣٦) ، ص٢٨

(٨١) عبد القادر احمد اليوسف ، علاقات بين الشرق والغرب بين القرنين الحادي عشر والخامس عشر (بيروت ، ١٩٦٩) ، ص ٢٤٣ .

(٨٢) أبي العباس بن يوسف بن احمد القرماني ، اخبار الدول والاثار الاول على هامش كتاب الكامل لابن الاثير ، ج٩ ، (القاهرة ، ١٢٩٠ هـ) ، ص ٢٠٦ .

(٨٣) نظمي زاده ، المصدر السابق ، ص ١٢٨ .

اوضاع العراق بعد عودة السلطان احمد الجلائري : -

توجه السلطان احمد نحو بغداد ، وعندما سمع الخواجه مسعود السبزاري بذلك ترك بغداد ، لخوفه من انتقام السلطان احمد ، وعدم قدرته على الدفاع اذ لم يكن يملك اكثر من ٥٠٠٠ جندي . (٨٤) ويبدو ان اتباع السبزاري قرروا المقاومة الامر الذي جعل السلطان احمد يستنجد بحليفه السابق قره يوسف الذي انجده بقوات كبيرة ، فدخل بغداد ، فاعاد تنظيم جيشه واستخدم فيه العرب والتركمان واستطاع ان يعيد سيطرته على جزء كبير من العراق ولكن حالة بغداد الاقتصادية والصحية تدهورت في سنة عودته (١٣٩٤) ، فقد انتشر وباء الطاعون بين السكان اعقبه غلاء فاحش فاضطر السلطان احمد النزوح إلى الحلة ، ثم عاد إلى بغداد في السنة التالية (٨٥).

إن استعادة السلطان احمد الجلائري لبغداد ، جعل الدولة التيمورية تفكر جدياً بخطره وتعمل على استئصال شأفته من جبهتها الغربية، وقد بذل تيمور محاولات سياسية وعسكرية للقضاء على احمد جلائر في الفترة الممتدة من ١٣٩٨ - ١٤٠٠ باءت جميعها بالفشل الذريع . (٨٦) ومن الاساليب السياسية التي لجأ اليها تيمور ما يسمى (بمؤامرة شروان) والذي بعثه تيمور بمهمة تجسسية إلى بغداد . وقد اوهم شروان السلطان احمد بانه قد هرب من تيمور ، واستطاع ان يكسب رضى السلطان احمد الذي اكرمه . ولم يكن يعلم بان هناك مؤامرة تدبر خلفه حيث كان شروان هذا قد اتصل ببعض الامراء واغدق عليهم الاموال . ولكن شاءت الصدف ان تقع الورقة التي تحمل اسماء المتآمرين فاوصلها كوره بهادر إلى السلطان نفسه ، فحكم على جميع

---

(٨٤) المصدر نفسه ، ص ١٦٨ .

(٨٥) ابن حجر ، انباء الغمر بابناء العمر . ص ٤٨٨ .

(٨٦) للتفاصيل ذلك انظر مهاوي المرجع السابق ، ص ١٢٠ - ١٢١ .

المتآمرين بالاعدام ومنهم شروان نفسه . (٨٧) وقد تركت هذه الحادثة – على ما يبدو – اثار عميقة في نفس السلطان احمد الذي اخذ يتوجس خيفة من كل المحيطين به ، واخذ يشك في اقرب الناس اليه ، إلى درجة انه اقدم على قتل عدد من اقربائه ومنهم خالته وفاء خاتون . (٨٨) ثم اعتكف عدة ايام خارج بغداد مع ستة من اتباعه وتوجه بعد ذلك سراً عام ١٤٠٠ إلى قره يوسف امير القره قوينلو طالباً منه المساعدة في صد الغزو التيموري المنتظر خاصة ، وان الوضع العسكري للدولة الجلائرية بات حرجاً بعد عمليتين عسكريتين ارسلهما تيمور إلى العراق بين سنتي ١٣٩٨ – ١٣٩٩ . (٨٩)

لقد قرر تيمور ازاء ذلك غزو العراق ثانية ، لاسيما وانه علم بوفاة السلطان المصري برقوق من جهة ، واستيلاء السلطان العثماني بايزيد على سيواس وملطية من جهة أخرى ، فقصد الجزيرة بلاد الشام اولا (٩٠) وبدأ هجومه على المناطق الخاضعة لنفوذ المماليك في جهات آسيا الصغرى فأوقع هزيمة كبيرة بجيش المماليك في موقعة حلب في ٣ تشرين الاول ١٤٠٠ فسقطت حلب بيده ، ثم توجه الى دمشق حيث استسلمت له صلحاً ، ومع ذلك فلم يراع شروط الصلح فكرر مآسيه واستمرت عمليات القتل والنهب تسعة عشر يوماً (٩١) .

اما السلطان احمد الجلائري ، فقد كان يعاني من حالة الخوف والفزع خاصة بعد ان فقد بوفاة برقوق صديقاً قوياً لـه ، ولكن اين يتجه ؟ فالشام

---

(٨٧) الغياثي المصدر السابق ، ص ١٢٠ – ١٢١ .

(٨٨) المصدر نفسه ، ص ١٢١ – ١٢٢ .

(٨٩) لتفاصيل هذه الحملات انظر مهاوي المرجع السابق ص ٣٤٤ – ٣٤٧.

(٩٠) المرجع نفسه ، ص ٢٣٦

(٩١) ابن تغرى بردي ، النجوم الزاهرة ، ج١٢، ص ٢٤٥ .

ومصر فيهما من الاضطرابات مايجعله غير آمن على حياته وغير قادر على ان يجد العون ؛ لذلك قرر الالتجاء الى العثمانيين ويبدو انه اعتقد بأن الجيوش الغازية اذا مااحتلت الاناضول وسوريا فان منافذ الهروب ستغلق دونه وسيكون تحت قبضة الغزاة لذلك اسرع الى الفرار وترك في بغداد احد نوابه واسمه « فرج » وتوجه اول الامر الى الموصل حيث استقبله فيها قره يوسف الذي انسحب اليها من ديار بكر وقررا سوية اللجوء الى الدولة العثمانية . وقد استقبلهم سلطانها بايزيد « يلدرم » واقطع الاول مقاطعة كوتاهية والثاني مقاطعة آق شهر. (٩٢) .

استعد الامير فرج نائب السلطان احمد للمقاومة ؛ وكانت الاوامر التي لديه تتلخص بعدم المقاومة ازاء تيمور نفسه . وقد تمكن فرج من تحشيد عدد كبير من مقاتلي العرب والتركمان تحت قيادة بعض امراء المدن العراقية امثال حلي قلندر الذي قدم بقوات مندلي ؛ وجاء أحمد الذي قدم بقوات بعقوبة ؛ وفرح شاه حاكم الحلة ، وميكائيل حاكم السيب (٩٣) وصار عددهم ٣٠٠٠ مقاتل ، فاستعدوا لمواجهة الغزاة وزحفوا نحو بغداد . اما الجيش الذي اعده تيمور فقد قدر بعشرين الفاً ، واسند قيادته الى مجموعة من القادة . وقد تحرك الجيش التيموري عبر ديار بكر سنة ١٤٠١ ووصل بعد ذلك الى بغداد وعسكر في القسم الجنوبي من الجانب الغربي لبغداد (٩٤) وقد اشتبكت القوات العراقية بالقوات التيمورية في معركة قرب عمارة السلطان أحمد (٩٥) انكسرت فيها القوات العراقيـة وانسحبت لتتحصن داخل بغداد . وقد بذل فرج جهوداً جبارة للدفاع عن المدينة ؛ ورفض التسليم الالتيمور نفسـه .

---

(٩٢) شرف خان البدليسي ، الشرفنامة ، ترجمة محمد علي عوني ، جـ١ (القاهرة ١٩٥٨) ص ٩٧.

(٩٣) بلدة جنوب مدينة الحلة .

(٩٤) مهاوي المرجع السابق ، ص ٣٥٣ .

(٩٥) وتقع جنوب الكرخ .

جرت مفاوضات بين الطرفين ، مثل فيها الجانب البغدادي الشيخ بشر من محلة الامام الاعظم ابي حنيفة الذي تأكد من شخصية تيمور واقسم لفرج على المصحف بذلك ، ولكن البغداديين اصروا على المقاومة بعد أن انكر قائدهم فرج حضور تيمور مع القوات المهاجمة (٩٦) ، ويبدو انه فعل ذلك لكي يحافظ على ثبات الجبهة الداخلية لبغداد ، لان اشاعة وجود تيمور مع المهاجمين تثير الرعب في نفوس البغداديين ، وتنزع الامل من نفوسهم في احراز النصر ، وقد افلح فرج في خطته ، (٩٧)

شدد تيمور من قبضته على بغداد ، فاستغل وقت الظهيرة وهاجم المدينة واقتحم اسوارها . وقد دام الحصار اربعين يوماً . وقد حلت بالمدينة كارثة اعظم من كارثتها الاولى وكان ذلك يوم السبت ٣٠ حزيران سنة ١٤٠١ ويبدو أن الحصار الاقتصادي الذي فرضه تيمور ، وقلة الاقوات في المدينة ، ولعامل حرارة الجو وتراخي واهمال البغداديين في اثنائه في الدفاع عن الاسوار كان له اثره في سقوط المدينة (٩٨) .

وبعد أن اتم تيمور اخضاع بغداد قرر استعادة نفوذه في المناطق العراقية الاخرى ، فارسل عام ١٤٠١ الخان سلطان محمود واميرانشاه وخليل سلطان وشاه ملك على رأس قوة عسكرية الى الحلة وتمكنت هذه القوة من اخضاع المنطقة الواقعة بينها وبين النجف . (٩٩) اما النجف فقد سلمت من النهب والدماء بفضل مساعي وفد نجفي برئاسة احد ابنائها السيد محمد مفتاح قابل تيمور في بغداد (١٠٠) . وقد واصلت القوات التيمورية زحفها نحو واسط

---

(٩٦) الغياثي ، المصدر السابق ، ص ١٢٥ .

(٩٧) مهاوي المرجع السابق ، ص ٣٥٨ .

(٩٨) الغياثي ، المصدر السابق ، ص ١٢٦ .

(٩٩) مهاوي المرجع السابق ، ص ٣٦٥ .

(١٠٠) المصدر نفسه ، ص ٣٦٥ .

واكتفى تيمور باخضاع مدن الفرات الاوسط ثم قفلوا راجعين وهم محملون بالغنائم (١٠١) .

الحق تيمور العراق بالجزء الغربي من امبراطوريته مرة ثانية ، وكان ابنه ميرانشاه حاكماً على هذا الجزء . كما عين عدة ولاة في مدن العراق كما جعل بابنده حاكماً على بعقوبة وسيد أحمد اويرات على منطقة حربي وتوابعها الواقعة الى الجنوب من تكريت ، وعين ايضاً الامير جلال اسلام مسؤولا عن الشؤون المالية في بغداد ، واسند حكم الموصل الى امير تركماني يدعى حسن ابن حسين بك ليتصدى لقره يوسف اما بغداد فقد اسند حكمها الى حفيده ابي بكر (١٠٢) .

لقد اتجه تيمور بعد ذلك الى آسيا الصغرى لتصفية الحساب مع العثمانيين وكان من اسباب صدامه معهم الدور الذي لعبه الامراء اللاجئون اليه امثال السلطان احمد وقره يوسف . اضافة الى ان تيمور امر باعدام طغرل الابن الاكبر لبايزيد (يلدرم) عند احتلاله سيواس . وقد ارسل تيمور الى بايزيد رسولا يطلب فيه تسليم قره يوسف وكتب له « اننا لا نريد داراً للسلام مثل بلاد الروم مضطرب امرها ، عند غزوي وتعرضي لها ، فاعط مفتاح قلعة كماخ – مدينة من بلاد الروم وتقع بالقرب من اذربيجان لاعواننا ولا تضيق على نفسك العالم الفسيح لان قره يوسف ذلك الشرير ليس الا قاطع طريق (١٠٣)

تطورت الامور ، وتلاقت جيوش تيمور بجيوش بايزيد في سهل انقرة سنة ١٤٠٢ . وكان للحرب النفسية التي شنها تيمور على العثمانيين دور كبير في تمزيق صفوفهم فالتجأ قسم منهم الى تيمور . كما أن بايزيد – على مايبدو – لم يكن قد اخذ اهبة الاستعداد الكافي فهزم واسر سنة ١٤٠٢ ثم مات في الاسر .

---

(١٠١) Sherefedden Al: Al-Yazdi, Zefer Nama, tr; to English by Darby , Vol, 3 (London, 1723), P. 217

كما ورد في مهاوي المرجع السابق ، ص ٣٦٨ .

(١٠٢) مهاوي المرجع السابق ، ص ٣٧٠ . وكذلك نوري ، المرجع السابق ، ٦٤ .

(١٠٣) البدليسي ، المصدر السابق ، جا ، ص ٦٧ .

لقد استفاد السلطان احمد من تلك الاحداث ، ومن الفراغ الذي احدثه انسحاب تيمور الى بلاد الاناضول فسارع مع عدد من اتباعه الى العودة الى العراق فاستولى على بغداد ونصب عليها ابنه طاهراً نائباً عنه في الحلة، والمناطق المجاورة لها . شهدت الفترة بين ١٤٠١ ـ ١٤٠٥ صراعات متداخلة بين السلطان احمد وابنه طاهر وبين السلطان احمد وعدد من اتباعه . وبين السلطان احمد وقره يوسف ففي الوقت الذي تعاون فيه السلطان احمد مع قره يوسف، الذي تكونت له قوة كبيرة من القبائل التركمانية استقر بهم في صحراء هيت ، ضد عدد من الامراء الذين استقطبهم ابنه طاهر امثال حكام ارمي(١٠٤)ومندلي والسيب والحلة نجد ان السلطان احمد اخذ يحس بوطأة مساعدة قره يوسف ، ويبدو أن قره يوسف شك بنواياً السلطان احمد فاسرع الى احتلال بغداد . اما السلطان احمد فقد هرب في ٢٦ / تموز ١٤٠٣ الى تكريت ومنها الى الشام حيث دخل في صورة فقير (١٠٥) .

لم تبق بغداد في يد قره يوسف اكثر من ثلاثة اشهر فما أن انتهى تيمور من تامين الجبهة الغربية لامبراطوريته بانتصاره على بايزيد في معركة انقرة ، كما اسلفنا ـ حتى قرر مواجهة حركة استرداد العراق فحشد اربع فرق عسكرية اعدها في جبهات مختلفة ؛ كانت الاولى بقيادة بوندق والثانية بقيادة ابي بكر والثالثة بقيادة كل من سلطان حسين وخليل سلطان والرابعة بقيادة بير محمد . (١٠٦)

اتجهت الفرقة الاولى من تبريز الى الجزيرة وكردستان وهاجمت القبائل الكردية في شمال العراق حيث اعلنت هذه القبائل تنصلها من الخضوع للسلطة التيمورية فهناك اشارات تدل على تمرد حاكم اربيل المسمى عبدالله على الغزاة . وكذلك القبائل القاطنة بالقرب من سهل شهرزور . اما الحملة الثانية فقد

---

(١٠٤) ارمي مدينة تقع جنوب غرب بغداد .
(١٠٥) ابن الشحنة ، المصدر السابق ، ص ٢٣٩ .
(١٠٦) لتفاصيل هذه الحملات انظر : مهاوي المرجع السابق ، ص ٣٨٠-٣٨٣ .

اتجهت من همدان الى بغداد ، والثالثة من الموصل بطريق جمجمال الى مندلي واتجهت الرابعة من خوزستان نحو واسط لاخضاع قبيلة عبادة التي استولى شيخها اويس على واسط وضواحيها (١٠٧) .

حققت هذه الفرق اهدافها المرسومة لها ، واستعادت بغداد من قره يوسف سنة ١٤٠٣ وقد هرب قره يوسف الى الشام كصاحبه السلطان احمد . واسند تيمور حكم العراق لحفيده الميرزا ابي بكر (١٠٨) . وامره على أن يعمل على تهدئة السكان ومساعدتهم على اعادة تشييد بيوتهم وزراعة اراضيهم . وقد كللت جهوده بالنجاح نسبياً اذ عاد جمع كبير من سكان بغداد الفارين الى مدينتهم وبدأوا بتعميرها ومزاولة نشاطهم فيها . (١٠٩) ويبدو ان ابا بكر استطاع ان يعيد العمران الزراعي الى قسم من الاراضي ويؤيد ذلك كثرة الاراضي الزراعية في بغداد والحلة وكربلاء التي جعلت وقفاً للمراقد السنية والشيعية (١١٠) .

كما استطاع ابو بكر ان يوجد نوعاً من الاستقرار السياسي النسبي ويشيع الامن على طريق المواصلات ومما يؤيد ذلك سفر قافلة كبيرة من الحجاج العراقيين الى الحجاز لاداء فريضة الحج بعد أن انقطع العراقيون عن ذلك منذ الغزو التيموري الاول سنة ١٣٩٣ (١١١). كما قامت قوات تيمور بمطاردة القبائل الكردية التي تتعرض لقوافل التجارة في المناطق الجبلية ، وصار بمقدور رجل او رجلين ان يسافرا بأمان . وقامت هذه القوات ايضاً بمهاجمة القبائل العربية التي تتعرض لقوافل التجارة والحج في الجنوب ووضع قوات كافية في واسط للمحافظة على الامن والسيطرة على هذه القبائل . لهذا فقد نشطت التجارة خلال هذه الفترة (١١٢) .

---

(١٠٧) المرجع نفسه ، ص ٣٧٣-٣٧٦ .
(١٠٨) الغياثي ، المصدر السابق ، ص ٢٠٨-٢٠٩ .
(١٠٩) خليل ، المرجع السابق ، ص ٢٨٩ .
(١١٠) المرجع نفسه ، ص ١٢٠ وكذلك انظر مهاوي ، المرجع السابق ص ٣٨٣-٣٨٤.
(١١١) المقريزي ، السلوك ، جـ٣ ، ق٣ ، ص ١١٦٦ .
(١١٢) انظر خليل ، المرجع السابق ، ص ٣٤٠ .

سقوط الدولة الجلائرية :

عندما هرب السلطان احمد الى الشام القى النائب المملوكي القبض عليه وهو في طريقه من حلب الى دمشق حسب مرسوم من السلطان المملوكي وذلك وفقاً لبعض شروط الصلح الذي تم بين تيمور والمماليك (١١٣) .

كما القى القبض على قره يوسف بموجب المرسوم نفسه . وبعد ان سمع النائب المملوكي بموت تيمور في ١٩ شباط سنة ١٤٠٥ اطلق سراح السلطان احمد الذي كان معتقلا في برج السلسلة . كما اطلق سراح قره يوسف الذي كان معتقلا في برج الحمام (١١٤) . فالتقى الاثنان وتعاهدا وتصالحا (١١٥) . وتحالفا على ان تكون تبريز لقره يوسف وبغداد للسلطان احمد (١١٦) .

لقد ساعد اضطراب الوضع في بلاد الشام نتيجة الثورة التي نشبت هناك ضد السلطان المملوكي فرج .

وكذلك موت تيمور احمد جلائر وقره يوسف على التحرك من الشام مع بعض اتباعهما ومواصلة نشاطاتهما مرة اخرى في العراق واذربيجان لازاحة النفوذ التيموري . وفي ١٦ حزيران ١٤٠٥ (١١٧) . خرج السلطان احمد من دمشق متوجهاً الى العراق . وقد وصل الحلة واستطاع ان يجمع حوله عددا من اتباعه الذين ازداد عددهم في أثناء زحفه الى بغداد . ولما وصل خبر زحفه الى بغداد تمرد سكانها على الوالي التيموري دولت خواجه ايناق ، فاضطر هذا الى الانسحاب الى فارس (١١٨) فدخلها السلطان احمد الجلائري

(١١٣) البدليسي ، المصدر السابق ، ج١ ، ص ٢٨٨

(١١٤) ابن حجر ، انباء الغمر ، ج٢ ص ٢٦٤ .

(١١٥) السخاوى ، المصدر السابق ، ج٥ ص ٢١٦ .

(١١٦) الغياثي ، المصدر السابق ، ص ١٣١ .

(١١٧) مهاوى المرجع السابق ، ٤١٥ .

(١١٨) الدزاوي ، المصدر السابق ، ج٢ ، ص ٢٩٢ – ٢٩٣ .

بدون مقاومة في ٤ تموز ١٤٠٥ (١١٩) .

مكث السلطان احمد في بغداد زهاء خمس سنين ، قرر بعدها التوجه نحو تستر . وعين احد الاشخاص نائباً عنه في بغداد ، فغضب ولده علاء الدولة مسعود حاكم الحلة . فثار عليه ، بالاتفاق مع كيمرز بن شيخ ابراهيم الشيرواني حاكم الدربند واتجه الى تبريز (١٢٠) . اما قره يوسف فكان في ارزنجان ، ولم يكن في تبريز سوى داروغا (١٢١) . وثلثمائة نفر من اتباعه. وقد استطاع الداروغا ان يقبض على الدولة واتباعه بعد خدعة واحضر علاء الدولة الى الامير قره يوسف حيث سجنه . وقد ارسل السلطان احمد الى قره يوسف يعتذر عما بدر من ولده ، وطلب منه اطلاق سراحه ولكن قره يوسف رفض ذلك معتقداً ان السلطان احمد هو الذي ارسل ابنه . وبعد ان فشل السلطان احمد في مساعيه لاطلاق سراح ابنه قرر غزو تبريز . فجمع جيشه وعند مشارف تبريز التقى الطرفان في آذار ١٤١٠ . وكانت النتيجة ان انتصر قره يوسف وهرب السلطان احمد والقى بنفسه في بستان مجاور ولكن امره كشف واخبر قره يوسف بذلك فالقى القبض عليه (١٢٢) . وعند قره يوسف كتب تنازله عن بغداد لقره محمد بن قره يوسف ، ولم يشأ ألامير قره يوسف قتل السلطان احمد الا ان بعض الامراء ومنهم محمد الدوادار الحوا على قتله فاخذوه وخنقوه خنقاً (١٢٣) .

حاصر الامير قره محمد بغداد ، وكان فيها نائب السلطان احمد وهو بخشايش والذي لم يصدق بموت السلطان احمد واستمر على الخطبة له وقد حاول بخشايش

(١١٩) الغياثي ، المصدر السابق ، ١٣١ .

(١٢٠) المصدر نفسه ، ص ١٣١ — ١٣٢ خليل ، المرجع السابق ، ص ١٢ .

(١٢١) داروغا : الرئيس او الحافظ ، وهو في سلطته اشبه بالحاكم السياسي او العسكري في مصطلح اليوم ، انظر : العزاوي ، المصدر السابق ، ج١، ص ٣٠١ .

(١٢٢) الغياثي ، المصدر السابق ، ص ١٣٣ .

(١٢٣) المصدر نفسه ، ص ١٣٥ .

أن يتزوج من دوندي خاتون ولكنها تخلصت منه بمؤامرة دبرتها ضده وقتلته وسيطرت على الامور واشاعت بان السلطان احمد لايزال حياً . (١٢٤) لذلك اصر البغداديون على المقاومة وطالت مدة الحصار ، واصبح عبدالرحيم ابن الملاح حاكماً على بغداد ، واعيدت الخطبة باسم السلطان احمد ويبدو ان دوندي عجزت عن المقاومة وضبط المدينة ، فما كان منها الا انسلت ليلا متجهة الى واسط ثم الى تستر ، وعندما اصبح الصباح علم الناس بالامر فدخل الشاه محمد بغداد وكان ذلك يوم الخميس ٣ كانون الثاني ١٤١١/ ٨١٤هـ جمادى الاول وبذلك انتهت الدولة الجلائرية واصبح العراق جزء من دولة جديدة تركمانية هي دولة القره قوينلو . (١٢٥)

لابد وان للاحداث السياسية والعسكرية التي تعرض لها العراق في عهد السلطان احمد الجلائري اثراً كبيراً في تدهور الاوضاع العامة (١٢٦) فقد كان للصراعات المتكررة على العراق بين الجلائريين والتيموريين من جهة وبين الجلائريين انفسهم من جهة ثانية وبين الجلائريين والتركمان من جهة ثالثة انعكاسات سلبية على مستوى السكان الاقتصادي والاجتماعي والثقافي . فقد استنزفت امكانات العراق الاقتصادية ووجهت لخدمة العناصر المتصارعة وليس لخدمة السكان ورفع مستوياتهم .

(١٢٤) ابن حجر ، انباء الغمر ، ج٢، ص ٤١٦ .

(١٢٥) عبدالكريم غرايبة ، العرب والاتراك ، (دمشق : ١٩٦١) ؛ ص ١٩٤ .

(١٢٦) يشير الباحث نوري عبدالحميد خليل في رسالته المشار اليها الى تقلص مساحة الاراضي الزراعية وقلة الانتاج ، ومعاناة السكان من الجوع والقحط والمرض والاوبئة في سنوات عديدة؛ والى تدهور النشاط التجاري وركوده ، والى فقدان السلطة والامن ، والى قلة موارد الدولة ولغرض تهيئة القوات العسكرية اللازمة في اوقات الخطر والى شيوع الاقطاع بانماطه المختلفة وخاصة من نوع الاستغلال والتمليك والسيورغال (اي منح السلطان الارض لاحد ابناء الاسرة او لاحد ابنائه يعيش على مواردها بدلا من الراتب) ويشير كذلك الى ان الجلائريين لم يشركوا سكان العراق في ادارة بلادهم . ويضيف بان العشائر العراقية ظلت تتمتع بالاستقلال ومع ان الحكومة تمكنت من كسب بعضها ، لكن ولاءها ظل سطحياً . ولكنه ينوه بأن العهد الجلائري لم يخل من محاولات اصلاحية ولكن قلة الامكانات المادية والبشرية حالت دون نجاحها . انظر : صفحات ٤١٦ ، ٤ ، ٣٣٢-٣٣٨ ، ٤١٥ .

المصادر والمرجع

١ — المطبوعات العربية : —

ابن اياس : ابو البركات محمد بن احمد الحنفي (ت ١٥٢٣) ، بدائع الزهور في وقائع الدهور ، جا ، (القاهرة ،١٣١١) .

ابن بطوطة : محمد بن عبدالله بن ابراهيم اللواتي الطنجي (ت ١٣٧٧)، تحفة النظار في غرائب الامصار وعجائب الاسفار ، جا ، (القاهرة، ١٩٣٨) .

ابن تغري بردي : ابو المحاسن جمال الدين يوسف (ت ١٤٦٩) النجوم الزاهرة في ملوك القاهرة ، ج١٣ (القاهرة ١٩٧٠).

المنهل الصافي والمستوفي بعد الوافي ، تحقيق احمد يوسف نجاتي ،ج١، (القاهرة ١٩٥٦) .

ابن حجر : احمد بن علي العسقلاني ، (ت ١٤٤٨) ، انباء الغمر بابناء العمر في التاريخ ، ج١ (القاهرة ، ١٩٦٩) .

ابن خلدون : عبد الرحمن بن محمد (ت ١٤٠٥) العبر وديوان المبتدأ والخبر ، ج٥ (بيروت ، لا . ت)

ابن عربشاه، احمد بن محمد بن محمد عبدالله الدمشقي،(ت١٤٥١) ، عجائب المقدور في اخبار تيمور (القاهرة ، ١٣٠٥) .

ابن الشحنة ، ابي الوليد محمد بن الشحنة (ولد ١٣٩٨) روضة المناظر في اخبار الاوائل والاواخر هامش كتاب الكامل لابن الاثير ، ج١٢، (القاهرة ، ١٢٩٠)

ابن الفرات : محمد بن عبدالرحيم (ت ١٤٠٥) تاريخ ابن الفرات ، تحرير، البدليسي قسطنطين ج١ (بيروت ، ١٩٣٦).

شرف خان (ت ١٥٩٧) ، الشرفنامة ، ترجمة محمد علي عوني ، ج١ (القاهرة ، ١٩٥٨) .

جواد مصطفى واحمد سوسه ، دليل خارطة بغداد ، (بغداد ، ١٩٥٨) .
الحموي : شهاب الدين ابي عبدالله ياقوت (ت ٦٢٦ هـ) معجم البلدان ج١ (بيروت ١٩٥٥) .

خليل،نوري عبدالحميد،العراق في العهد الجلائري ١٣٣٧ ـ ١٤١١ ، رسالة ماجستير قدمت لجامعة بغداد ١٩٧٦ ، وهي غير منشورة.
السخاوي : شمس الدين بن عبدالرحمن ، الضوء اللامع لاهل القرن التاسع ، (ت ١٤٩٧) ج٥ ، (بيروت ، لا . ت) .
سليم ، محمود رزق ، عصر سلاطين المماليك ، ٣ اجزاء ، (القاهرة، ١٩٦٢) .
العزاوي ، عباس ، تاريخ العراق بين احتلالين ، ج٢ (بغداد ،١٩٣٦).
غرايبه ، عبدالكريم : العرب والاتراك ، (دمشق ، ١٩٦١) .
الغياثي ، عبدالله بن فتح الله البغدادي (كان حياً سنة ١٤٧٨) التاريخ الغياثي ، تحقيق طارق نافع الحمداني ،(بغداد) ١٩٧٥) .
القرماني ، ابي العباس بن يوسف بن أحمد الدمشقي (ت١٦٦٠) ،أخبار الدول وآثار الاول ،هامش كتاب ابن الأثير ، (القاهرة ،١٢٩٠).
القلقشندي،أحمد بن علي بن ابي اليمن القاهري الشافعي(ت١٤١٨)صبح الاعشى في صناعة الانشا ١٤ جزء (القاهرة ،١٩٦٣) .
لامب،هارولد،تيمورلنك،تعريب عمر أبو النصر،(بيروت ،١٩٣٤).
مرتضى ،نظمي زادة أفندي(ت١٧٢٤) كلشن خلفا،ترجمة موسى كاظم نورس،(النجف،١٩٧١) .
المقريزي،تقي الدين أحمد بن علي،(ت١٤٤١)السلوك لمعرفة دول الملوك ج٣ ،(القاهرة ١٩٧٠)

مهاوي ، جاسم ، تاريخ الغزو التيموري للعراق والشام واثاره السياسية ١٣٨٥ ـ ١٤٠٥،رسالة ماجستير في التاريخ الحديث قدمت لجامعة بغداد، نيسان ١٩٧٦ وهي غير منشورة .

اليوسف ،عبدالقادر أحمد ،علاقات بين الشرق والغرب بين القرنين الحادي عشر والخامس عشر ، (بيروت ،١٩٦٩)
٢ – المطبوعات الفارسية : –
الاسترابادي ، عزيز بن اردشير ،بزم ورزم ، نشر محمد فواد كوبريلي ، (استانبول ١٩٢٨) .
خوندمير ،غياث الدين بن همام الدين ،دستور الوزراء(طهران١٣١٧)وكذلك حبيب السير ،٤ أجزاء (طهران ، ١٣٣٢) .
٣ – المطبوعات التركية :–
جهانكير ،زينل اوغلو ، اذربيجان تاريخي (استانبول ، ١٩٢٤) .
٤ – الكتب الانكليزية : –
(Elgood ,Cyril, AMedicul History of Persia and the Eastern Calphate' (Cambredge, 1951)
Howorth, U: U: History of the Mongols, Vol, 3 (london, 1888):
٥ – دائرة المعارف الاسلامية ، الطبعة العربية ،(القاهرة ١٩٣٣) .مادةحسن بزرك أحمد جلائر قلعة النجف ،سلطانية .وكذلك دائرة المعارف الاسلامية الطبعة التركية جـ٣ ، مادة (جلائر) .

البحوث اللغوية والأدبية



الدكتور احمد خطاب العمر





عني القراء والنحويون القدماء بموضوع « الوقف والابتداء » وخلفوا فيه عددا من الكتب لم يصل الينا منها الا قليل .

وان كان أولئك القدماء لم يذكروا أسانيد رواياتهم فيه — كما فعلوا بعلم القراءات خاصة — ولم يظهروا في اكثرماروووا آراء من سبقوهم مسندة اليهم ، فانهم كانوا يشيرون إلى انه قد ثبت عندهم انه توقيف عن رسول الله (ص) (١) فقد ذكر النحاس في حديث مسند انه (ص) كان يقطع قراءته . (٢) وروى عن عبدالله بن عمر (رض) قوله : « لقد عشنا برهة من دهرنا وان أحدنا ليؤتي الايمان قبل القرآن ، وتنزل السورة على محمد (ص) فنتعلم حلالها وحرامها ، وما ينبغي أن يوقف عنده منها ، كما تتعلمون أنتم القرآن ، ولقد رأيت اليوم رجالا يؤتى أحدهم القرآن قبل الايمان ،فيقرأ مابين فاتحته إلى خاتمته ، مايدري ماآمره ولا زاجره ولا ماينبغي أن يوقف عنده منه ، وينثره نثر الدقل » (٣) .

وأنهم عندما حددوا المواضع التي يوقف عليها كانوا يقرنون ذلك بتعليلاتهم واكثر ماتتصل تلك التعليلات بقواعد النحو وأحكامه .قال أبو جعفر النحاس : « ويحتاج — أي صاحب علم التمام — إلى المعرفة بالنحو وتقديراته » (٤)

الا أن هذا لايعني أن الباحث فيه لايحتاج إلى غير علم النحو ، فقد نقل النحاس عن ابن مجاهد (٥) قوله : « لايقوم بالتمام الا نحوي، عالم بالقراءة ،

(١) القطع والائتناف، ص ١٧ .
(٢) المصدر نفسه، ص ١٤ .
(٣) المصدر نفسه، ص ١٥ .
(٤) المصدر نفسه، ص ٢١ .
(٥) ابن مجاهد: هو ابو بكر احمد بن موسى، أول من سبع السبعة (٢٤٥-٣٢٤) غاية النهاية ١/١٣٩ .

عالم بالتفسير عالم بالقصص وتلخيص بعضها من بعض ، عالم باللغة التي نزل بها القرآن » ونقل عن غيره قوله « يحتاج صاحب علم التمام الى العرفة باشياء من اختلاف الفقهاء في احكام القرآن » . (١)

وحدد القسطلاني (٢) بقوله : « فاعلم أنه انما يتوقف هذا العلم على معرفتهما — أى الوقف والابتداء — لانه لما كان من عوارض الانسان التنفس ، اضطر القارىء إلى الوقف ، وكان للكلام بحسب المعنى اتصال يقبح معه الوقف وانفصال يحسن معه القطع . فاحتيج إلى قانون يعرف به ما ينبغي من ذلك » (٣)

وتأتي عناية أولئك القدماء بهذا العلم ؛ من ملاحظتهم أن علاقته بالقرآن الكريم أكثر فقد ذكر ابو بكر ابن الانبارى ذلك بقوله : « ومن تمام معرفة اعراب القرآن ومعانية وغريبه معرفة الوقف والابتداء فيه ؛ فينبغي للقارىء أن يعرف الوقف التام والوقف الكافي الذي ليس بتام والوقف القبيح الذي ليس بتام ولاكاف » (٤)

ولكن لايعني هذا — كما يتبادر إلى الذهن — ان علاقته خاصة بالقرآن الكريم ، فقد كانوا يلاحظونه في مخاطباتهم من ذلك مانقله النحاس في كتابه : « أنكر النبي (ص) على من قال : ماشاء الله وشئت ، ولم يسأله عن نيته » واتبعه ابو جعفر بقوله : « وكذا القاطع على مالايجب أن يقف عليه وان كان نيته غيره » ونقل عن ابراهيم النخعي أنه كره أن يقال : لا والحمد لله ، ولم يكره : نعم والحمد لله ، وعن ابي بكر الصديق (رض) أنه قال لرجل معه ناقة : أتبيعها بكذا ؟ فقال : لا عافاك الله فقال : لاتقل هكذا ولكن قل : لا وعافاك الله ، فأنكر عليه لفظه ولم يسأله عن نيته . (٥)

---

(١) القطع والائتناف ص ٢١ .

(٢) القسطلاني : هو ابو العباس احمد بن محمد بن أبي بكر المصري فقيه مقرىء ولد سنة ٨٥١هـ وتوفي سنة ٩٢٣ هـ . تنظر مقدمة كتاب لطائف الاشارات .

(٣) لطائف الاشارات ٢٤٧/١ .

(٤) ايضاح الوقف والابتداء ص ١٠٨ .

(٥) القطع والائتناف ص ٢٠ .

في ثنايا كتب الوقف والابتداء عدد من المصطلحات التي استعملها مؤلفوها يحددون بها مايراد من هذا العلم ، فاننا نجد : الوقف والقطع والسكت مرادا بها معنى متقارب ، ونجد الابتداء والاستئناف او الائتناف لمعنى واحد واختلف القدماء في النوع الاول فقد قال ابن الجزري : (١) « هذه العبارات – اى الوقف والقطع والسكت – جرت عند كثير من المتقدمين مرادا بها الوقف غالبا ، ولا يريدون بها غير الوقف الا مقيدة ، واما عند المتأخرين وغيرهم من المحققين فان : « القطع : عبارة عن قطع القراءة رأسا فهو كالانتهاء ...» والوقف : عبارة عن قطع الصوت على الكلمة زمنا يتنفس فيه عادة بنية استئناف القراءة اما بما يلي الحرف الموقوف عليه او بما قبله .

والسكت : عبارة عن قطع الصوت زمنا ، هو دون زمن الوقف عادة من غير تنفس ، وقد اختلفت الفاظ ائمتنا في التأدية عنه ، بما يدل على طول السكت وقصره » (٢) .

واورد القسطلاني عددا من آراء العلماء السابقين مقارنا بينها قال : « فاما الوقف : فقال ابو حيان (٣) في شرح التسهيل : هو قطع النطق عند آخر اللفظ ، وهو مجاز من قطع السير وكأن لسانه عامل في الحروف ثم قطع عمله فيها .

قال ابن الدماميني (٤) : وهو احسن من قول ابن الحاجب : قطع الكلمة عما بعدها .

---

(١) ابن الجزري : هو محمد بن محمد بن محمد الجزري صاحب غاية النهاية ت ٨٣٣ .

(٢) النشر في القراءات العشر ٢٣٨/١– ٢٤٠ وينظر الاتقان ٨٨/١ .

(٣) ابو حيان : هو محمد بن يوسف الاندلسي (٦٥٤ – ٧٤٥) . غاية النهاية ٢٨٥/٢ .

(٤) ابن الدماميني : هو محمد بن أبي بكر بن عمر ولد بالاسكندرية ومات بالهند (٧٦٣ –٨٢٧) الضوء اللامع ١٨٤/٧ ، بغية الوعاة ٦٦/١ .

وقال الجعبري (١) : قطع صوت القارىء على آخر الكلمة الوضعية (٢) زماناً ، قال وهذا أجود من قولهم : قطع الكلمة عما بعدها ، أو قطع الحرف عن الحركة لعمومه » (٣) .

اما ابو يحيي الانصاري (٤) فقد ذكر :« ان الوقف يطلق على معنيين : احدهما : القطع الذي يسكت القارىء عنده وثانيهما : المواضع التي نص عليها القراء » (٥) .

وعلى هذا فان الوقف قسمان : الاول : مايكون بسبب انقطاع التنفس وهذا له احكامه وكيفية الوقوف على آخر الكلمة فيه والثاني : مايكون بسبب انتهاء العبارة واعتماده في ذلك على اتمام المعاني ، وهذا يتعلق باحكام النحو وهو موضوع بحثنا .

انواع الوقف :

لم يتفق المتقدمون في عدد انواع الوقف ولا في تسمياتها ولو رتبناها حسب ماذكرها اولئك المتقدمون زمنيا لوضح لنا ذلك الاختلاف والتباين في المقصود منها فأبو بكر ابن الانباري ذكرها ثلاثة : تاما وكافيا وقبيحا (٦) وفي موضع آخر : تاما وحسنا وقبيحا (٧) والنحاس ذكرها اكثر من ذلك وهي التام والكافي والحسن والصالح والجيد والبيان والبين والمفهوم والقبيح .

(١) الجعبري : هو ابراهيم بن عمر بن ابراهيم قرأ السبع والعشر (٦٤٠ - ٧٣٢ هـ) . غاية النهاية ٢١/١ .

(٢) المراد بـ (على آخر الكلمة الوضعية) موضعها في التركيب اللغوي سواء ماكان لها تعلق بما بعدها أو لم يكن .

(٣) لطائف الاشارات ٢٤٨/١ .

(٤) ابو يحيى الانصاري : هو زكريا بن محمد بن احمد (٨٢٣ - ٩٢٦ هـ) الاعلام ٨٠/٣

(٥) المقصد لتلخيص ماني المرشد ص ٤ .

(٦) ايضاح الوقف والابتداء ص ١٠٨، ١١٠ .

(٧) المصدر نفسه ص ١٤٩ .

اما الاشموني (١) فهي عنده : تام وأتم وكاف وأكفى وحسن وأحسن وصالح وأصلح وقبيح وأقبح (٢) .

وينفرد السجاوندي (٣) بغير هذه التسميات فجعل لهذه الانواع مراتب استعملها في الكتاب لاتكاد تخرج تعليلاته فيها عن التي استعان بها غيره في تقسيماتهم التي استعرضناها سابقا ، ومراتبها هي : لازم ومطلق وجائز ومجوز لوجه ومرخص ضرورة وما لايجوز الوقف عليه . (٤) ولهذا قال النكزاوي : (٥) « اختلفوا في تقسيمه — أى الوقف — فقال بعضهم ينقسم إلى ثلاثة اقسام : تام وكاف وقبيح ، وقال بعضهم ينقسم إلى سبعة اقسام : تام وتمام وكاف وحسن ومفهوم وصالح وقبيح ، وقال بعضهم ينقسم إلى قسمين تام وقبيح ، وقال بعضهم : مايجوز الوقف عليه وما لايجوز الوقف عليه : واكثر ماذكروه فيه تداخل وعدم انحصار بقواعد .. » (٦)

---

(١) الاشموني : هو علي بن محمد ولد بالقاهرة ، مات سنة ٩٠٠ ﻫ ، الضوء اللامع ٦/٥

(٢) منار الهدى ص ١٠.

(٣) السجاوندى : هو محمد بن طيفور ابو عبدالله مقرىء نحوي مفسر كان في وسط المائة السادسة . غاية النهاية ٢/١٥٧ .

(٤) الوقف والابتداء ورقة ٢ ، اعتمد السجاوندي في كتابه كما ذكر في مقدمته على كتابين : المقاطع والمبادىء لابي حاتم السجستاني ، والمرشد لابي محمد الحسن بن علي العماني (نزل في مصر بعد الخمسمائة)(ينظر غاية النهاية ١/٢٢٣) .

لكنه لم يسر على ما ذكراه من مصطلحات ، لان ابن الجزرى ذكر في (غاية النهاية ١/٢٢٣) ان العماني قال: انه اتبع ابا حاتم في تقسيماته الوقف إلى : التام والحسن والكافي والصالح والمفهوم . أما تعريفاتها عند السجاوندي فهي :

اللازم : ما لو وصل طرفاه غير المرام وشفع معنى الكلام .

المطلق : ما يحسن الابتداء بما بعده كالاسم المبتدأ به .

الجائز : ما يجوز فيه الوصل والفصل لتجاذب الموجبين من الطرفين .

المرخص ضرورة : ما لا يستغني مابعده عما قبله ، لكنه يرخص الوقف ضرورة انقطاع النفس لطول الكلام .

(٥) النكزاوي : هو عبد الله بن محمد بن عبد الله ابو محمد مقرىء ، ولد سنة ٦١٤ﻫ ومات بالاسكندرية سنة ٦٨٣ﻫ . غاية النهاية ١/٤٥٢ .

(٦) الاقتدا في الوقف والابتدا ، ورقة ٨ .

وهي عند أبي يحيى الانصاري على مراتب : « اعلاها التام ، ثم الحسن ثم الكافي ثم الصالح ثم المفهوم ثم الجائز ثم البيان ثم القبيح ، فاقسامه ثمانية ومنهم من جعلها اربعة: تام مختار وكاف جائز وصالح مفهوم وقبيح متروك وهذا اختاره ابو عمرو » (١) .

ففكرة التقسيمات اذاً غير واضحة ولم يتفق من كتب في هذا العلم على اسس التقسيم وتعيين مواضعها ولكن ماشتهر منها مانجده عند النحاس في كتابه « القطع والائتناف» : التام والكافي والحسن والصالح والبيان القبيح لان ابا بكر ابن الانباري- وان كان قد سبق النحاس زمنا- لم يستعمل منها في تطبيقاته الا ثلاثة : التام والحسن والقبيح لانه كان يذكر الوقف الحسن ويريد به الحسن والكافي والصالح وهذه امثلة على ذلك :

١.قال ابو جعفر النحاس في « والذين آمنوا» (البقرة / ٩) : كاف غير تام.
٢.قال ابو جعفر في « وما يخدعون الا أنفسهم » (البقرة / ٩) : كاف .
٣.قال ابو جعفر في « وفي قلوبهم مرض » (البقرة / ١٠) : قطع كاف . (٢)
٤.قال ابو جعفر في « اكبر عند الله » (البقرة / ٢١٧) وقف صالح . (٣)

اما ابو بكر فيقول في الآية الاولى : الوقف عليها حسن وجزأ الاية الثانية فقال في : « وما يخدعون » قبيح ، وفي « الا أنفسهم» حسن ، وقال في الآية الثالثة : حسن (٤) وفي الآية الرابعة : ان الوقف حسن (٥) ويظهر عدم تفريقه بين الوقف الكافي والحسن بصورة اوضح عندما يتناول قوله تعالى : « يؤمنون» (البقرة / ٧) فيقول في الوقف عليها : انه حسن وليس بتام لان قوله : « ختم الله على قلوبهم » (البقرة / ٧) متعلق بالاول من جهة

---

(١) المقصد لتلخيص ما في المرشد ،ص ٦٥ .
(٢) القطع والائتناف ص ٤٤ .
(٣) المصدر نفسه ص ١١٢ .
(٤) ايضاح الوقف والابتداء ص ٤٩٦،٤٩٧ .
(٥) ايضاح الوقف والابتداء ص ٥٥٠ .

المعنى (١) وهو الوقف الكافي عند العلماء كما سنرى .

أما تعريفات انواع الوقف فهي : (٢) .

١. الوقف التام : وهو مايحسن الوقف عليه والابتداء بما بعده ، ولايتعلق مابعده بشيء مما قبله لالفظاً ولامعنى ، وسمي تاما لتمام لفظه بعد تعلقه ، واكثر ما يوجد عند رؤوس الآى ، كما في قوله تعالى : « اولئك هم المفلحون» (البقرة / ٥) لانه آخر صفه المؤمنين ، ويبتدىء به « ان الذين كفروا » (البقرة / ٦) وهو الحديث عن الكفار ، وكذا في « ولهم عذاب عظيم » (البقرة / ٧) لانه آخر صفه الكافرين ، ويبتدىء « ومن الناس من يقول » (البقرة ٨) وهو الحديث عن المنافقين (٣) .

٢. الوقف الكافي : مايحسن الوقف عليه والابتداء بما بعده الا أن له به تعلقاً مامن جهة المعنى ، فهو منقطع لفظا متصل معنى وسمي كافيا لاكتفائه واستغنائه عما بعده ، واستغناء مابعده عنه بأن لايكون مقيدا له ، وهذا واضح في الحروف التي يبتدأ بها في أوائل بعض السور ، فقد نقل ابو جعفر النحاس عن ابي حاتم انه قال في « الم» (البقرة / ١) كاف ، لانه زعم انه لم يدر مامعنى حروف المعجم — أي الحروف المقطعة المستعملة في القرآن الكريم — فجعل الوقف كافيا ، لان مابعدها مفيد ولم يجعله تاما لانه اذا وقف عليه لم يعرف معناه . (٤)

٣. الوقف الحسن : وهو مايحسن الوقف عليه ، ولايحسن الابتداء بما بعده للتعلق اللفظي ، كما في قوله : « هو الذي خلق لكم مافي الارض جميعاً (البقرة / ٢٩) قال ابو حاتم : الوقف على « جميعا» حسن في السمع ، وليس بتمام لان « استوى» (البقرة / ٢٩) معطوف على « خلق » فهو

---

(١) ايضاح الوقف والابتداء ص ٤٩٤ .

(٢) ينظر البرهان في علوم القرآن ٢٤٣/١ وما بعدها ، ومنار الهدى ص ١٠ — ١٢ .

(٣) ايضاح الوقف والابتداء ص ٤٩٢،٤٩٦ ، والقطع والائتناف ص ٤٢،٤٠ .

(٤) القطع والائتناف ص ٣٤ وتوضيح ذلك ان من القراء من يقف على كل حرف من تلك الحروف .

داخل في الصلة ، ولايوقف على الصلة دون الموصول ولا على الموصول دون الصلة ، قال ابو جعفر : الذي قاله كما قال الا أن فيها وجها لم يذكره يجوز ان يكون « ثم استوى » اخبارا من الله (عز وجل) منقطعا من الاول فيصلح الوقف على « جميعاً » (١) .

٤. وقف البيان : وهو ان يبين معنى لايفهم بدونه ، كالوقف على قوله تعالى : « وتوقّروه » (الفتح / ٩) فرق بين الضميرين ، فالضمير في « توقّروه » للنبي (صلى الله عليه وسلم) وفي « تسبّحوه » (الفتح) لله تعالى ، والوقف اظهر هذا المعنى المراد . (٢)



(١) القطع والائتناف ، ص ٥٧ .

(٢) منار الهدى ص ١٠ . اماتعريفات الانواع الاخرى فلم اجد من حددها ، الا ان اباجعفر النحاس ، كان يستعمل "الوقف الصالح" كثيرا ، قال في (ص ٥١) من «القطع» في قوله تعالى : « فأخرج به من الثمرات رزقاً لكم » (البقرة /٢٢) ان رفعت « الذي » — في اول الآية — بالابتداء لم يكن وقفاً كافياً ، وان كان على غير ذلك كان وقفاً صالحاً ، ولم يكن تاماً لا في النماء التي بعده — في قوله : « فلا تجعلوا لله اندادا» — معنى المجازاة ، وقال في (ص ٦٨) : في قوله : «اذ استسقى موسى قومه » (البقرة/٦٠) وقف صالح وليس بتام ، لان ما بعده معطوف عليه — وهو قوله : « فقلنا اضرب بعصاك الحجر»

علاقته بالنحو

اشرنا فيما تقدم الى ان صاحب التمام يحتاج الى العلم بالنحو وتقديراته ويحتاج الى القراءات والى التفسير والى القصص والى الفقه ، وعرفنا انهم اقروا انه لايقوم بالتمام الا نحوي ، وفي هذا اشارة الى صلة هذا العلم بعلم النحو وان كان القدماء قد عدوه جزءا من علم القراءات (١) مع أن استقلاله عنه واضح كل الوضوح ، فللقراءات اركان ثلاثة ليس لحاملها ان يخرج عن واحد منها هي : صحة السند وموافقة المصحف ، وموافقة العربية ولو بوجه، فهي من العلوم المنقولة التي ليس للقارىء فيها اجتهاد . اما في هذا العلم فالمؤلفون فيه لم يتفقوا على مصطلحاته ، وعلى مواضع تلك الانواع ، بل قد عده ابو يوسف ـ صاحب ابي حنيفة ـ بدعة ، فقال : «ان هذه التسميات بدعة».(٢) ثم ان الرأي والتعليل هما اللذان يوجهان كثيراً من مسائله ، قال الاشموني: «وقد يكون تاماً على تفسير واعراب وقراءة غير تام على آخر ». (٣) وكذا قال عن الوقف الكافي والحسن ، ومما يؤكد هذا ما نقله الزركشي فيه « وقال بعض النحويين : الجملة التأليفية اذا عرفت اجزاؤها ، وتكررت اركانها، كل ما ادركه الحس في حكم المذكور فله ان يقف كيف شاء » . (٤)

وفي النص الذي سنذكره تاكيد لهذا ، قال ابن الجزري : «ومن المواضع التي منع السجاوندي الوقف عليها ،وهو من الكافي الذي يجوز الوقف عليه ، ويجوز الابتداء بما بعده قوله تعالى : «هدى للمتقين » (البقرة / ٢) منع الوقف عليه ، قال : لان « الذين » صفتهم وقد تقدم جواز كونه تاماً وكافياً وحسناً واختار كثير من ائمتنا كونه كافياً وعلى كل تقدير فيجوز الوقف عليه والابتداء بما بعده ، فإن كان صفة للمتقين ، فانه يكون من الحسن وسوغ ذلك كونه

---

(١) النشر في القراءات العشر ٢٢٤/١ لطائف الاشارات ١٧٢/١ فقد عده الجزء الثالث من علم القراءآت .

(٢) البرهان في علوم القرآن ٢٥٤/١ والاتقان ٨٨٧/١ لطائف الاشارات ٢٥٠/١ .

(٣) منار الهدى ص ١١ .

(٤) البرهان في علوم القرآن ٣٥٤/١ .

رأس آية » (١) ومن ذلك « فهم لا يرجعون » (البقرة /١٨) منع الوقف عليه للعطف بـ (أو) وهي للتخيير ، قال : ومعنى التخيير لايبقى مع الفصل وقد جعله الداني وغيره كافياً او تاماً ، قلت : وكونه كافياً أظهروا « او » هنا ليست للتخيير في الامر ، او في معناه لافي الخبر ، بل هي للتفصيل اي من الناظرين من يشبههم بحال المستوقد ، ومنهم من يشبههم بحال ذوي صيب ، والكاف من « كصيب » (البقرة /١٩) في موضع رفع لانها خبر مبتدأ محذوف ، اي ومثلهم كمثل صيب ... ويجوز ان تكون معطوفة على ماموضعه رفع ، وهو « كمثل الذي » (٢) (البقرة / ١٧) .

ومن هنا نستطيع ان نتبين تلك الصلة ، وكيف ان التعليلات النحوية اثرت في نوع ذلك الوقف وموضعه او هذا ، وفي قول ابن مجاهد المتقدم : «لايقوم بالتمام الا نحوي عالم بالقراءات » مايعزز ماذهبنا اليه ؛ ثم ان معظم شيوخ النحويين استعملوا مصطلحاته او مايرادفها في كتبهم ؛ قال سيبويه مثلا في قول الشاعر :

اسكران كان ابن المراغة اذ هجا تميماً بجوف الشام ام متساكر

فهو انشاد بعضهم ، واكثرهم ينصب « سكران » ويرفع الآخر ، على قطع وابتداء » . (٣)

وقال : تقول : « مازيد ذاهباً ولا عاقل عمرو ، لانك لو قلت : مازيد عاقلا عمرو ، لم يكن كلاماً ، لانه ليس من سببه ؛ فترفعه على الابتداء والقطع من الاول ، كأنك قلت : وما عاقل عمرو » (٤) .

وقال الفراء : « كل فعل اوقعته على اسماء لها افاعيل ينصب على الحال الذي ليس بشرط ، ففيه الرفع والابتداء ، والنصب على الاتصال بما قبله ،

(١) النشر في القراآت العشر ص ٢٣٤ .
(٢) المصدر نفسه ص ٢٣٥ .
(٣) الكتاب ٢٤/١ .
(٤) المصدر نفسه ٣٠/١ .

من ذلك : رأيت القوم قائماً وقاعداً ، وقائم وقاعد ، لانك نويت بالنصب القطع ، والاستئناف في القطع حسن » . (١)

وقال المبرد في قول ابن جعيل :

واهل العراق لهم كارهينا

محمول على ارى ؛ ومن قال :

واهل العراق له كارهونا

فالرفع من وجهين : احدهما قطع وابتداء ، ثم عطف جملة بالواو ولم يحمله على أرى » . (٢)

وقال ابن جني في : « التائبون العابدون » (التوبة / ١١٢) ويروى عن الاعمش « التائبين العابدين » قال ابو الفتح : اما رفع « التائبون العابدون» فعلى قطع واستئناف اي هم التائبون العابدون » (٣)

وقال مكي في : « ويذرهم في طغيانهم » (الاعراف / ١٨٦) وكلهم قرأ بالرفع « ويذرهم » على القطع والاستئناف ، على معنى : ولكن نذرهم ، في قراءة من قرأ بالنون والرفع » . (٤)

وقال في : « ويجعل لك قصوراً » (الفرقان / ١٠) قرأه ابن كثير وابن عامر وابو بكر بالرفع على الاستئناف والقطع ، وفيه معنى الحتم .. » . (٥)

وقال الجرجاني : ومن المواضع التي يطرد فيها حذف المبتدأ : القطع والاستئناف يبدأون الكلام بذكر الرجل ويقدمون بعض امره ، ثم يدعون الكلام الاول ويستأنفون كلاماً آخر ، واذا فعلوا اتوا في اكثر الامر بخبر من غير مبتدأ ، مثال ذلك قوله :

---

(١) معاني القرآن ١/١٩٣ .

(٢) الكامل ١/٣٢٧ .

(٣) المحتسب ١/٣٠٤، ٣٠٥ .

(٤) الكشف ١/٤٨٥ .

(٥) المصدر نفسه ٢/١٤٤ .

وعلمت أني يوم ذا ك منازل كعباً ونهدا
قوم اذا لبسوا الحديـ ـد تنمروا حلقا ورقدا (١)

وقال ابو البركات ابن الانباري في : « ياليتنا نرد ولا نكذب بآيات ربنا ونكون من المؤمنين » (الانعام / ٢٧) ويقرأ ولا نكذب ونكون بالرفع على وجهين : أحدهما ان يكون معطوفاً على « نرد » ، ويجوز ان يكون الرفع فيهما على القطع والاستئناف ، فانه يجوز في جواب التمني الرفع على القطع والاستئناف » . (٢)

وقال الرضي في : « لايخرج لكم من امري رضى فترضونه ، ولا سخط فتجمعون عليه » . ولا يجوز ان ينفى الاول فقط ، لان الحديث الذي يكون بعد الاتيان لايكون من دون الاتيان ، بلى ان جعلت مابعد الفاء على القطع والاستئناف ، لامعطوفاً على الفعل الاول . (٣)

اما النحويون الذين خلفوا كتباً في هذا العلم فكثيرون منهم : ابو جعفر الرواسي ويحيى بن زياد والاخفش سعيد بن مسعدة ومحمد بن سعدان وابو حاتم السجستاني واحمد بن يحيى ثعلب ومحمد بن احمد كيسان وابو اسحاق الزجاج وابو بكر ابن الانباري وابو جعفر النحاس هذا اذا اضفنا اليهم القراء وهم لغويون ونحويون أدركنا قيمة هذا العلم بالنسبة لعلم النحو .

وقد ذكرنا سابقاً ، ان العلماء عندما حددوا مواضعة وبينوا أنواعه كان للنحو أثره في ذلك ، قالوا في الوقف عامة :(كل كلمة تعلقت بما بعدها وما بعدها من تمامها لايوقف عليها كالمضاف دون المضاف اليه ولا المنعوت دون نعته مالم يكن رأس آية ، ولا على الشرط دون جوابه ، ولا على الرفع دون مرفوعه ، ولا على الناصب دون منصوبه ولا على المؤكد دون توكيده ولا على المعطوف دون المعطوف عليه ولا على المبدل دون المبدل منه . ولا

(١) دلائل الاعجاز، ص ٩٧ .
(٢) البيان في غريب اعراب القرآن ، ٣١٨ .
(٣) شرح الكافية ، ٢٣٠/٢ .

على ان او كان او ظن واخواتهن دون اسمهن ، ولا على اسمهن دون خبرهن ولا على المستثنى منه دون المستثنى لكن ان كان الاستثناء منقطعاً فيه خلاف ،المنع مطلقاً لاحتياجه إلى ما قبله لفظاً والجواز مطلقاً لانه في معنى مبتدأ حذف خبره للدلالة عليه ولا يوقف على الموصول دون صلته ، ولا على الفعل دون مصدره ولا على حرف دون متعلقه ولا على الحال دون صاحبها ، ولا على المبتدأ دون خبره ، ولا على المميز دون مميزه ولا على القسم دون جوابه ولا على القول دون مقوله لانهما متلازمان ولا على المفسر دون مفسره ».(١)

ومن مقتضيات الوقف التام، : الابتداء بالاستفهام ملفوظاً به او مقدرا وبـ (يا) النداء غالباً او بفعل الامر ، او بلام القسم ، او بالشرط لان الابتداء به ابتداء كلام مؤتنف او العدول عن الاخبار إلى الحكاية او الفصل بين الصفتين المتضادتين ، او تناهي الاستثناء او الابتداء بالنهي او بالنفي ، ومنها ان يكون آخر قصة وابتداء اخرى » (٢) .

ومن علامات الوقف الكافي : كل رأس آيه بعدها لام كي ، والا بمعنى لكن ونعم وبئس وكيلا ، وذكر الاشموني : ان يكون ما بعده مبتدأ او فعلا مستأنفاً او مفعولا لفعل محذوف نحو : وعدالله ، وسنة الله ، او كان ما بعده نفياً او ان المكسورة او استفهاماً او بل او الا المخففة او السين او سوف .

اما في الوقف الحسن فكأن تكون آيه تامة وهي متعلقة بما بعدها ككونها استثناء والاخرى مستثنى منها ، اذ ما بعده مع ما قبله كلام واحد من جهه المعنى . او من حيث كونه نعتاً لما قبله او بدلا او حالا او توكيدا . (٣)

ولو استعرضنا آراء من كتب في الوقف والابتداء وحججهم ، لتبينت لنا تلك العلاقة بوضوح ، فانهم كانوا يستعينون بتعليلات النحاة وآرائهم

(١) ايضاح الوقف والابتداء ص ١١٦ وما بعدها ، ومنار الهدى ص ١٧ ، ١٨ .
(٢) البرهان ، ١ / ٣٥٢
(٣) منار الهدى ، ص ١١ .

وذكر خلافاتهم وردودهم ، ليوجدوا الصلة بينه وبين النحو ، قال ابو بكر ابن الانباري في « ويهلك الحرث والنسل » (البقرة / ٢٠٥) قرأت العوام (١) « ويهلك الحرث والنسل » بالنصب ، وقرأ الحسن : « ويهلك الحرث والنسل » بالرفع ، فمن قرأ « ويهلك الحرث » بالنصب نصبه على النسق على قوله : « ليفسد فيها » وليهلك الحرث ، فعلى هذا المذهب لايوقف على « ليفسد فيها » ، ومن قرأ « ويهلك الحرث » كان على معنيين : ان رفعت « ويهلك الحرث» على الابتداء والاستئناف — وهو قول ابي عبيد— وقفت على قوله « ليفسد فيها » ، وابتدأت « ويهلك» ومن رفع « ويهلك» على النسق على « ومن الناس من يعجبك » (البقرة / ٢٠٤) « ويهلك » — وهو قول الفراء — لم يقف على « ليفسد فيها » والوقف على « ويهلك الحرث والنسل » تام وكذلك الوقف على (الفساد) (٢) (البقرة / ٢٠٥) .

وقال ابو جعفر النحاس في « سورة النازعات » : من قال : جواب القسم « ان في ذلك لعبرة لمن يخشى » (النازعات / ٢٦) قال : ها هنا التمام ومن قال : الجواب محذوف ، لانه قد علم المعنى قال : الوقف « فالمدبرات أمراً» « (النازعات / ٥) والتقدير عنده : لتبعثن ولتحاسبن — وهذا مذهب الفراء — ومن قال : التقدير فاذا هم بالساهرة والنازعات ، فالتمام عنده « بالساهرة » « النازعات / ١٤» وهذا القول ذكره ابو حاتم . وهو على بعده خطأ من جهتين : احداهما انه يبتدىء بالفاء . وهذا ما لايجوز عند احد من النحويين والاخرى : ان اول السورة واو القسم ، وسبيل القسم في النحو إذا ابتدىء به الا يلغى ، وان يكون له جواب ، وهذا اصل من اصول النحو » . (٣)

(١) أي عامة القراء . والقراءة في معاني القرآن للفراء ١٢٤/١ ، قال فيها : والوجه الاول — أي النصب — أحسن .
(٢) ايضاح الوقف والابتداء ص ٥٤٧.
(٣) القطع والائتناف ، ص ٧٤٢ .

وقال الداني : من قرأ : « الله ربكم ورب آبائكم الاولين » (الصافات /١٢٦) بالرفع على الابتداء ، او على خبر ابتداء محذوف ، وقف على « احسن الخالقين » (الصافات / ١٢٥) ومن نصب لم يقف على ماقبله ، أي لم يقف على ذلك ان جعله بدلا من فعله « أحسن » ، فان كان منصوباً على المدح بتقدير : اعني ، وقف على ماقبله » .

وقال النكزاوي في : « الم » (البقرة/١) اختلفت الائمة في الوقف عليها، قيل : انه روى عن ابن مهران ، عن الاخفش (١) انه قال : يجوز الوقف على كل حرف منها ويكون وقفاً تاماً ، ويكون كل حرف منها جملة مستقلة بذاتها ... وقيل : لايجوز الوقف على كل كلمة – حرف – منها ، وانما يجوز الوقف على الحروف بجملتها ، فهل يكون وقفاً تاماً او كافياً ، قيل: تام ، واذا كان تاماً ، فهل تكون هذه الحروف في محل رفع او نصب ؟ فقيل: تكون في محل نصب على الاغراء ، تقديره : عليك الم ، وقيل : كاف ، وهو قول ابي حاتم ، واخذ عليه في هذه ، لانه زعم انه مايدري ماحروف المعجم ، حتى يأتي مابعده ... » (٢)

هذه نماذج من اقوال اربعة ممن كتب في هذا العلم تبين تعليلاتهم وتأويلاتهم لايجاد تلك الصلة ، وتبين قوة اعتماد هذا العلم على الاحكام النحوية ، وأشار النحاة الى مسائل اوردوها في تلك الكتب ، حددوا الوقف عليها على اساس من تلك التعليلات والاحكام منها :

١. « الذين أو الذي » :

قال النحاس في : « الذين ينقضون عهد الله من بعد ميثاقه » (البقرة / ٢٧) ان قدرت « الذين » مبتدأ ، وجعلت خبره « اولئك هم الخاسرون » كان «الا الفاسقين» (البقرة / ٢٦) قطعاً تاما ، وان قدرت « الذين » في موضع نصب بمعنى : أعني ، أو في موضع رفع على اضمار مبتدأ كان « الا الفاسقين »

(١) هو ابو الحسن سعيد بن مسعدة (ت ٢١٥) ورأيه هذا في كتاب "القطع والائتناف" ص ٣٤) .
(٢) الاقتدا في الوقف والابتدا ورقة ١٦ ،

قطعاً كافياً ، و « الذين ينقضون عهد الله من بعد ميثاقه » ليس بقطع كاف لأن مابعده معطوف على مافي الصلة ، فهو داخل في الصلة « و » يفسدون في الارض » (البقرة / ٢٧) وقف حسن ، ان لم ترفع « الذين » بالابتداء . ولهذا جاءت تقديراتهم في « الذين أو الذي » على هذه الصورة ، لانها تحتمل التقديرات الاعرابية . (١)

٢. بلى :

وردت بلى في القرآن في اثنين وعشرين موضعاً وهي ثلاثة اقسام :

أ . مايختار فيه كثيرمن القراء واهل اللغة الوقف عليها ، لانها جواب لما قبلها ، غير متعلق بما بعدها ، كقوله : « مالاتعلمون بلى من كسب » (البقرة / ٨٠، ٨١) و « وان كنتم صادقين بلى » (آل عمران / ٧٥، ٧٦) .

ب . مالا يجوز الوقف عليها لتعلق مابعدها بها ، وبما قبلها في سبعة مواضع كقوله « بلى وربنا » (الانعام / ٣٠) .

ج. ما اختلفوا في جواز الوقف عليها والا حسن المنع ، لان مابعدها متصل بها وبما قبلها ، كقوله: «بلى ولكن ليطمئن قلبي» (٢)(البقرة/٢٦٠)

٣. نعم :

قال تعالى : « قالوا نعم فأذن مؤذن » (الاعراف / ٤٤) المختار فيها الوقف على « نعم » لان مابعدها ليس متعلقاً بها ولا بما قبلها ، وقيل : لايوقف على « نعم » في قوله تعالى : « قال نعم وانكم » (الاعراف / ١١٤)،(الشعراء /٤٢) وقوله : « قل نعم وانتم داخرون » (الصافات / ١٨) لتعلقها بما بعدها وبما قبلها ، لاتصاله بالقول ، ولكن الافضل ان يقال : ان وقع بعدها مااختير الوقف عليها ، والا فلا ، او يقال : ان وقع بعدها واو لم يجز الوقف عليها.

---

(١) النص في القطع والائتناف ص ٥٥ . ايضاح الوقف والابتداء ص ٥٠٩، ٥٣٥، ٦٩٢، وينظر البرهان : ٣٥٧/١، ٣٥٨ .

(٢) البرهان ٣٧٤/١ .

والا اختير ، وانت مخير في ايهما شئت » . (١)

٤. كلا :

الذين استقروا مواضع « كلا » في القرآن كثيرون ، فمنهم من ذكرها عرضاً في كتبه كأبي بكر بن الانباري وأبي جعفر النحاس والزركشي (٢)، ومنهم من افرد لها رسالة كأبن فارس ومكي ، ولم تبتعد المعاني التي ذكروها فيها عما ذكره ابو بكر بن الانباري وابو جعفر النحاس ، وسنذكرها هنا على ماذكره ابو جعفر النحاس ملخصة فقد ذكر فيها خمسة اقوال ، وأبدى رأيه في كل نوع مؤكداً ذلك او مخالفاً متميزاً عن غيره في هذا الاستقراء ، قال : فأما الوقوف على « كلا » ففيه خمسة اقوال :

١.فمن النحويين من يقول : لايوقف على « كلا» في شيء في جميع القرآن لانها جواب والفائدة تقع فيما بعدها ، وهذا قول ابي العباس احمد بن يحيى

٢.ومنهم من يقول يوقف على « كلا» في جميع القرآن قال احمد بن جعفر : « عهدا كلا» (مريم/ ٧٨، ٧٩) هذا الوقف وكذا على كل « كلا » في القرآن اذا كانت مثلها .

٣.ومنهم من قال يوقف على ما قبل « كلا» إذا كانت رأس آية ، وهذا قول نصير .

٤.ومنهم من قال : يوقف على ما قبلها بكل حال .

٥.ان « كلا» تنقسم قسمين : أحدهما ان تكون ردعا وزجرا ، وهذا قول الخليل . (٣) وابو حاتم يقول : بمعنى «الا» فاذا كانت كذا كانت مبتدأة كقول الله عز وجل « كلا والقمر» (المدثر / ٣٢) .

---

(١) المصدر نفسه ١/٣٧٥ .

(٢) ينظر ايضاح الوقف والابتداء ص ٤٢١ – ٤٣٢، والقطع والائتناف ص ٤٠٧– ٤١٣ . والبرهان ١/٣٧١ – ٣٧٣ .

(٣) نسب ذلك ابوبكر بن الانباري في ايضاح الوقف والابتداء ص ٤٢٢ إلى الاخفش وزاد في ص ٤٢١ على معاني "كلا" انها بمنزلة سوف – وهو قول الفراء – لانها صلة ، وهي حرف رد فكأنها «نعم ولا» في الاكتفاء قال : وإن جعلتها صلة لما بعدها لم تقف عليها كقوله : « كلا والقمر » الوقف عليها قبيح لانها صلة لليمين .

ثم قال : « وتكون ردعاً وزجرا وردا لكلام تقدم فيكون الوقوف عليها حسناً ، كقول الله (عز وجل) «ام اتخذ عند الرحمن عهدا كلا » (مريم/ ٧٨ ، ٧٩) .

ثم قال : « واما قول من قال : لايوقف عليها في جميع القرآن ، فقول مخالف لاقوال المتقدمين ، واذا كان المعنى يصح بالوقوف عليها لم يمنع ذلك الا بحجة قاطعة .

واما من قال : الوقف عليها في جميع القرآن . فهو اقبح من ذلك ، لان قول الله « عز وجل » : « كلا والقمر » لانعلم بين النحويين فيه اختلافاً اذ « والقمر » متعلق بما قبله من التنبيه .

واما قول من قال : الوقف على ما قبلها في جميع القرآن ، فقول شاذ قبيح لايجوز لاحد الوقف على « قال اصحاب موسى انا لمدركون » (الشعراء/ ٦١) ، قال : لانه لم يأت بما بعد القول .

مما تقدم نستطيع ان نحكم على ان « الوقف والابتداء » من الموضوعات التي تعتمد فيما تعتمد على النحو ، وقد تبين لنا كيف ان احكامه وخلافات النحاة هي التي توجه كثيرا من مواضع الوقف على الكلمة وتبين نوع ذلك الوقف.

مصادر البحث

١. الاتقان في علوم القرآن ، السيوطي ، بيروت ، ١٩٧٣ .
٢. الاعلام ، الزركلي ، (الطبعة الثالثة) .
٣. الاقتدا في الوقف والابتدا ، النكزاوي ، (مخطوط مكتبة الازهر برقم ١٠٩٨٩) .
٤. ايضاح الوقف والابتداء ، ابو بكر الانباري ، تحقيق محيي الدين رمضان دمشق ، ١٣٩١ — ١٩٧٢ .
٥. البرهان ، الزركشي ، تحقيق محمد ابو الفضل ، مصر،١٣٧٦ —١٩٥٧
٦. بغية الوعاة ، السيوطي ، تحقيق محمد ابو الفضل ابراهيم ، مصر ١٣٨٤ — ١٩٦٤ .
٧. البيان في غريب اعراب القرآن ابو البركات بن الانباري ، تحقيق : د. طه عبد الحميد ، مصر ، ١٣٨٩ —١٩٦٩ .
٨. دلائل الاعجاز ، عبد القاهر الجرجاني ، مصر ، ١٣٨١ — ١٩٦١.
٩. شرح الكافية ، الرضي ، ١٢٧٥
١٠. الضوء اللامع ، السخاوي ، نسخة مصورة ، بيروت .
١١. غاية النهاية في طبقات القراء،ابن الجزري ، نشر برجستراسر ، مصر ١٣٥١ — ١٩٥٩ ،
١٢. القطع والائتناف ، ابو جعفر النحاس (بتحقيقنا) مكتوب على الآلة الكاتبة ، ١٩٧٦ .
١٣. الكامل ، المبرد ، تحقيق محمد ابو الفضل وابراهيم والسيد شحاتة،القاهرة.
١٤. الكتاب لسيبويه (نسخة مصورة عن نسخة بولاق) .
١٥. الكشف عن وجوه القراءات وعللها ، مكي بن ابي طالب ، تحقيق : د. محيي الدين رمضان ، دمشق ، ١٣٩٤ — ١٩٧٤ .

١٦. لطائف الاشارات لفنون القراءات ، القسطلاني ، تحقيق : عامر السيد ود. عبد الصبور شاهين ، القاهرة ، ١٣٩٢ — ١٩٧٢ .
١٧. المحتسب في تبيين شواذ القراءات ، ابن جني ، تحقيق : علي النجدي ناصف ود . عبد الحليم النجار ود. عبد الفتاح شبلي ، القاهرة ، ١٣٨٦ .
١٨. معاني القرآن ج١ الفراء ، تحقيق : احمد يوسف نجاتي ومحمد علي النجار ، مصر ، ١٣٧٤ — ١٩٥٥ .
١٩. المقصد لتلخيص ما في المرشد ابو يحيى الانصاري ، على هامش كتاب منار الهدى .
٢٠ منار الهدى في معرفة الوقف والابتدا ، الاشموني ، مصر ١٣٩٣— ١٩٧٣ .
٢١. النشر في القراءات العشر ، ابن الجزري ، دمشق ، ١٣٤٥ .
٢٢. الوقف والابتداء ، السجاوندي ، (مخطوطة مكتبة الازهر برقم ١٦٢٠٢) .

الدكتور سالم احمد الحمداني

ملامح النزعة العاطفية في شعر ابراهيم ناجي



تمهيد في اسباب ظهور النزعة العاطفية :

شهد الشرق العربي في النصف الاول من هذا القرن تأثرا شديدا بالحركة الفكرية الناضجة التي تمخض عن القرن التاسع عشر في اوربا والذي تفجر بدوره عن تيارات ادبية ومذاهب فنية كانت الثمرة الطبيعية لما اسفرت عنه الحركة العلمية والفكرية قبل ذلك القرن .

وقد نتج عن اتصالنا بالغرب عن تململ واضح في اوضاعنا المختلفة ، وكان وليد الاتصال بتلك الحركة ان تأثر ادباؤنا وشعراؤنا بشتى المذاهب الادبية التي ظهرت في اوربا .

ولئن كان تأثرنا بتلك التيارات والمذاهب قد تأخر إلى بداية القرن العشرين فذلك يعود إلى ان امتنا لم تكن تمتلك الاستعداد النفسي او تتقبل تيارات ربما كانت غريبة عن بيئتنا الادبية والفكرية والاجتماعية . ولم تكن تربتنا مستعدة لان ترعى ذلك النبت الغريب قبل ان تتعرف على لونه وشكله .

ثم ان امتنا كانت تنشغل ايضاً في تحدي واقعها في صورته المتفسخة وكادت ان تفقد اصالتها لولا ان هيأ الله لها من اسباب الحياة ما جعلها تصمد امام قسوة الاحداث التي فرضها العثمانيون وغيرهم منذ زمن بعيد .

وقد حدث بعد ذلك ان استقبلت امتنا ريح التغيير الوافدة من اوربا بشيء من الرضا والقناعة بل لقد صار التغيير عند نفر من شبابنا لازمة من لوازم هذا القرن ، وطابعه العنيف المتغير . ووجدنا بعضهم يرى في احتفاظنا بصورتنا الادبية القديمة ، اصراراً لا موجب له في وقت تتحول فيه عجلة الحياة في اوربا إلى صورة اكثر تقدماً وأشد نضجاً .

على ان هذا الاتصال والاحتكاك بأوربا ، لم تكن السبل الوحيدة التي حفزتنا على التململ ، ان اوضاع امتنا في صراعها مع التخلف كانت اول حافز على اتخاذ موقف المبادرة الى تغيير الصورة الادبية والفكرية . ففي تأثير صراعها مع الاحتلال الاجنبي ، وامام مايلقاه شبابنا ورجالنا من عسف وظلم فرضته اصناف الحكم التقليدية ، ووسط رياح التغيير والتطوير التي عصفت

بالمجتمع الانساني كله ، وانتهت بالحرب العظمى الاولى ، وسط ذلك كله ، حيث تعرضت الانسانية لمهانة شديدة خلفتها تلك الحرب وويلاتها ، وما انتهت اليه من ضياع المثل الانسانية وهدر كرامتها ، ثم مااصيبت به امتنا نتيجة لذلك ، من احتلال اراضينا ، وتقيد حريتنا ، وما اصيبت به ثوراتنا من انتكاسات كثورة ١٩١٩ في مصر وثورة ١٩٢٠ في العراق ، ذلك كله أطاح بآمال الامه ، وانعكس اثره على الشعر والادب ، تياراً سلبياً يعكس نفوس الادباء ويجسد احلام الشعراء .

يضاف الى هذا كله ضياع الامال الشخصية المتمثلة بطموحات أولئك الادباء والشعراء نحو حياة افضل ، وهي طموحات خاصة ولكنها جزء من طموحات الامة ، كانت ذات تأثير سلبي على نفوس ادبائنا وشعرائنا بحيث القت بهم في احضان (مرض العصر) الذي صار ظاهرة متميزة من التيار الرومانتيكي في اوربا ، ثم مالبثت ريحه ان وصلت الينا بعد ان توافرت في محيطنا الاسباب التي ادت اليه .

وظاهرة (مرض العصر) هي « حالة نفسية ... تتولد من عجز الفرد عن التوفيق بين القدرة والامل اللذين يتعارضان ، فيشقى الفرد بهذا التعارض . ويظل يشقى شقاء لامفر منه الا بأحد أمرين : اما ان يغير الفرد من طبيعته ويتخلص من آماله ورغباته ، او تغير الاشياء من طبائعها بحيث تستجيب لتلك الآمال والرغبات . ولما كان كلا الامرين عسيراً ان لم يكن مستحيلا ، فان هذا الشقاء اصبح ضرورة يعبرون عنها بمرض العصر ويتخذون الشعر وسيلة لشكواهم ، والانين منه او التمرد عليه) . (١)

والحق ان شعراء مصر أحسوا منذ مطلع هذا القرن بعظم ما يمتلكون من قدرات ومواهب . وزاد احساسهم بها تأثرهم بالافكار الناضجة التي تلت الثورة الفرنسية . ثم ارهق نفوسهم انهم لم يستطيعوا ان يجسدوا طموحاتهم الذاتية في الحب والحرية وفي الحياة وهي طموحات لم تكن بسيطة على حين كانت ظروف مصر والامة العربية لاتتيح لهم تحقيق تلك الطموحات . فهز ذلك

(١) محمد مندور : الأدب ومذاهبه ، ص ٦٢ .

كيانهم وعظم امره في نفوسهم وصعب عليهم ان يتحملوا تلك الحياه بأرزائها وثقلها ، وضاقوا بالحياة التي لاتنقاد لرغباتهم فتأزمت نفوسهم والتهبت عواطفهم . واشتد تمردهم على المجتمع والحياة والكون . وحملوا المجتمع مآل اليه أمرهم . وسعوا إلى تبديل يخفف عنهم اعباء الحياة ، وينسيهم واقعهم . فلجأوا إلى الطبيعة يشكون اليها امرهم ، ويخلعون عليها ما في انفسهم ، وما كان للطبيعة ان تستجيب لكل نداءاتهم ؛ فسموا بخيالهم إلى السماء يتأملون فيه اسراره وينشدون فيه تعطشهم إلى حقيقة الحياة والموت ويسعون إلى فهم الغاز ذلك البناء الواسع المعلق في الفضاء . فأستبدلوا بطبيعة الارض طبيعة السماء ، سائلين مرة ؛ ومستفهمين تارة ومستوضحين كرة ثالثة ؛ ولكنهم اخيرا عجزوا عن فهم اسرار الكون والسماء كما عجزوا من قبل عن فهم الغاز الطبيعة . فوقفوا في حيرة من امرهم ، وشاب نفوسهم وهن حينا واستسلام احيانا اخرى وعجز وهرب في كثير من الاحيان ومن هنا امعنوا في الشكوى والانين والبكاء والعويل واللهفة والحنين والتمرد والثورة . وعبروا عن ضيقهم بالحياة وشعورهم بالضياع وتشاؤمهم من الناس وتغنوا بالوحدة والعذاب واستسلموا للقضاء والقدر . وهذه المعاني تمثل قليلا من كثير حام حولها شعراء جماعة ابولو الذين يشغل شاعرنا مكان الصدارة بينهم .

وعلى الرغم مما يراه بعض الدارسين من انهم امتداد لجماعة الديوان الا ان سبب تمثلهم لهذا التيار لم يكن مبعثه اطلاعهم فقط على نماذج هؤلاء الشعراء بل مبعثه الظروف الصعبة التي اجتازتها مصر والامة العربية والتي اثرت في نفوسهم وهدت كيانهم . (١)
وهذا كله يمثل تياراً رومانتيكياً وصلت بوادره الينا في مطلع هذا القرن ، وتمثله شعراء المهجر وشعراء الديوان ، ومن بعدهم شعراء ابولو .

(١) أنظر شوقي ضيف : الأدب العربي المعاصر في مصر ص ٧٣ . ومحمود حامد شوكت : مقومات الشعر العربي الحديث ص ٢٤٥ .

وفي الوقت الذي اتخذ فيه شعراء الديوان في شرقنا العربي هذا التيار ميداناً لتجاربهم وعواطفهم ، كان شعراؤنا في المهجر الامريكي يتخذون منه مجالا لتجسيد غربتهم وشوقهم وحبهم الى وطنهم الحبيب ، وتلك مصادفة رائعة وضعت اولئك الشعراء في الشرق العربي امام الواقع الادبي الذي فرض نفسه عليهم ، وذلك باتخاذ تيار الرومانتيكية وسيلة من الوسائل التي حققت لادبنا الحديث سمة الحداثة والتجديد وهو (تيار وجداني عاطفي يبالغ في تصوير التجربة الذاتية والانطواء او الهروب ، ووصف الهواجس النفسية ونبضات العاطفة في اسلوب دافق بالحرارة والحياة) . (١)

والرومانتيكية مذهب ادبي ظهر في فرنسا على انقاض المذهب الكلاسيكي منذ اواخر القرن الثامن عشر وبداية القرن التاسع عشر . وتطور تعريفه واتسعت مدلولاته ، ولكنه عموماً يعني كل مايشمل (شبوب العاطفة والاستسلام للمشاعر والاضطراب النفسي والفردية والذاتية) (٢) وهو كمذهب ادبي عاد فيه (الادباء والشعراء الى نفوسهم ووجداناتهم يلوذون بتجاربهم العاطفية ويهتمون بمشاهد الجمال والطبيعة ويميلون الى الاصالة والابتكار والتجديد، متحررين في افكارهم واساليبهم منبعثين في آثارهم عن انفعال قوي وعواطف متقدة ومشاعر حية) . (٣)

وحيث ان هذا المذهب يجسد عواطف الشعراء ويتعمق مشاعرهم الذاتية فقد صار الشعر اقوى الوسائل التي يعبرون بواسطته عما تكنه نفوسهم المريضة وعواطفهم الرقيقة .

وقد جاء هذا المذهب ثورة على التقاليد الاجتماعية الكلاسيكية ، واحتجاجاً على المثل والمواصفات القائمة . وقد تغنى اصحابه بالحرية والحب وحلموا بالطبيعة وتغنوا بجمالها وهاموا حباً بجمال النفوس ، وحلموا بعالم مثالي يحرر الفرد من قيود المجتمع . ولذلك كثرت مطالبهم وتعددت صيحاتهم ، واشتد

(١) عبد العزيز الدسوقي : جماعة أبولو ص ٣٩٢ .
(٢) محمد غنيمي هلال : الرمانتيكية ص ٦ .
(٣) محمد عبد المنعم الخفاجي : دراسات في الأدب المقارن ١٤/٢ .

احتجاجهم على المجتمع وقيوده وعدوه المسؤول عما يصيب الانسان من ظلم وعسف ومن هنا اشتد برمهم بالحياة ، وكثر احتجاجهم على مايقيد الفرد واصيبوا بخيبة امل حين لم تلب مطاليبهم ، فأمعنوا بالشكوى والانين ولهجوا بذكر الطبيعة ولجأوا اليها يستوحونها مافي انفسهم ، وبكوا من اجل الحب، وعبروا عن الاسى والالم واللهفة والضياع .

واذا عرفنا ناجي شخصية رقيقة نشأت في ظل النعمة ، وتربت في احضان الدلال واستندت على اهتمام الاب ورعاية الام ، وعرفنا فيه انسانيته ، ثم عرفنا فشله في اكبر آماله وطموحاته — وهو حبه — وعرفنا ايضاً ان هذا الفشل قد لازم الكثرة الكاثرة من شعراء الرومانتيكية بسبب ماتخيلوه من طموحات تفوق قدراتهم ، وما يمتلكون من وسائل لتحقيقها ... اذا عرفنا ذلك كله توصلنا الى روح ناجي الرومانتيكية ، وتأكد لنا تصوره الحالم وعرفنا — بعد تعثر حبه — لماذا اكثر من الشكوى والانين والبكاء والعويل والتمرد والاستسلام

ولذلك فان هذه الرومانتيكية الغنائية تتمثل في شخص ناجي وشعره اكثر مما تتمثل لدى اي شاعر من شعراء جيله ومذهبه الشعري .

وبعد فما صورة هذه النزعة العاطفية التي تمكنت من نفس ناجي وما العوامل التي ادت اليها ؟ ثم ماهي ملامحها في شعره ؟ واخيراً ما مدى اصالتها في نفسه وصدق انعكاسها في هذا الشعر ؟

هذه مجموعة تساؤلات تتشابك ملامحها بعد ان تستمد جذورها من النزعة العاطفية التي انتهى اليها تمهيدنا ، ثم تلتقي بعد ان يتم انعطافها جميعاً في محيط شعر ناجي الذي تتلاطم امواجه بفعل ذلك التيار الذي جعل من شعره كما يرى محمد مندور (قصيدة غرام) (١) ومن صاحبة كما يرى احمد الصاوي محمد (قصيدة واحدة وقصيدة حب) (٢) ومن صاحبه كما يرى ابو شادي (شاعر اللهفة) . (٣)

---

(١) انظر محمد مندور : الشعر المصري بعد شوقي ص ٥٧ .

(٢) و (٣) انظر محمد المعتصم بالله انظر ناجي شاعر الوجدان الذاتي ص ٣٢ .

والمقصود بهذه النزعة عند ناجي كل مشاعر الحب وتباريح الهوى التي اخذت من نفسه مأخذا شديدا وتأصلت في مشاعره تأصلا عميقاً ، وكان لها في حياته تأثير واضح وفي شعره انعكاس متميز .

وحيث ان هذه النزعة عند ناجي تقوم اولا واخرا على حب تعثر وذوى وان صورة التعبير عن ذلك الحب قد اتسمت بالعفة والطهارة إلى ابعد الحدود وان كل قصائده تقريبا قد نأت عما يشوهها من لذائذ الحب المادى المحسوس لذلك نجدها تقترب اقتراباً شديدا من حب العذريين الذي مثل شعرهم في الحب اروع ظاهرة لصدق العواطف ونبلها ، وحيث ان اهم ما يتميز به شعر ناجي هو صدق العاطفة – كما سنرى – لذلك فان شعر هذا الشاعر في تياره الوجداني يمكن ان يلتقي مع غزل شعرائنا العذريين وعندئذ تتحقق الاصالة التي تربطه بتراثنا العربي الخالد .

فما صورة هذا الحب العذرى اذن وكيف تتحقق العلاقة بينه وبين حب ناجي ؟ « الحب العذرى عاطفة قوية مشبوبة يهيم فيها المحب بحبيبته ويرجو الحظوة بوصالها ولكن تتضاءل النظرة إلى المتع الحسية ، اذ يطغى عليها حرص المحب على استدامة العاطفة في ذاتها وعلى اعتزازه بها مع التضحية في سبيل الابقاء عليها بما يستطيع بذله من جهد وآلام ، ووسيلة السمو بهذه العاطفة على هذا النحو هو الحرمان . (١)

ولا شك ان حب ناجي يمتلك كثيرا من هذة الابعاد إلى ابعد الحدود ، فعاطفته في حبه قوية مشبوبة وقد هام الرجل بحبيبته هياماً شديدا لازمه حتى موته وقد بذل في سبيله من جهد وألم ما نغص عليه كل سني حياته وساد ذلك كله بكاء وأنين وشكوى ولوعة وحرمان ، وقد سما بعاطفته تلك على نحو ما نجد عند العذريين وهذا لا يجعلنا نضع شاعرنا في عداد الشعراء العذريين ولا يمكن ان يتم له مثل ذلك اذا اخذنا بنظر الاعتبار فوارق الزمن والبيئة والظروف والبعد

(١) محمد غنيمي هلال : الحياة العاطفية بين العذريين والصوفيين ، ص ١٣ .

الحضاری ،لكن الذي نقصده ان الحب - حتى هذاالعصر الذي تغلفه حياتنا المادية والحضارية - لم يفقد صورته النقية الصافية وابعاده الروحية عند نفر من الناس يمتلكون من العواطف ونبلها ما لايمتلكه غيرهم - وكان ناجي واحدا من هؤلاء ويشهد عليه شعره بدواوينه الثلاثة : (ماوراء الغمام) و (ليالي القاهرة) و (الطائر الجريح) وفي كل قصائد هذه الدواوين . - الا قصائد قليلة - غناء عاطفي يلهج فيه باسمى ما يحمله العاشق من حب صاف وعفيف .

من خلال هذا الاستعراض الموجز الذي مهد لنا اسبابه الوقوف على طبيعة هذا التيار والعوامل التي ادت اليه نستطيع ان ننفذ إلى العوامل الخاصة التي دفعت ابراهيم ناجي إلى تمثله .

العوامل والاسباب :

قلنا في تمهيدنا : ان النزعة العاطفية وجه من وجوه ذلك التيار الرومانسي الذي وصلت بوادره الينا من الغرب . فأثر فينا وسط عوامل مهدت له وشجعت عليه ثم احتضنته وتبنته .

واذا كانت بوادره ومبادئه قد ظهرت لدى شعراء الديوان وشعراء المهجر الا ان ابعاده عمقاً واتساعاً قد تجسدت بقوة عند شعراء أبولو وكل ما تحت ايدينا من دواوين هذه الجماعة يؤكد ان رائد هذا التيار الذاتي العاطفي هو ابراهيم ناجي دون منازع ، ومن هنا لم يختلف الدارسون - فيما نرى - في أنه (رائد هذه النزعة في جماعة ابولو ، فشعره كله - الا بعض قصائد قليلة - غناء عاطفي حزين كله شجن وألم والتياع ، . وناجي روح عاشق متعطش ...... وتجاربه العاطفية كلها دموع وألم . من هذا الفشل الذي كان يتربص بحبه ، فهو يبكي مصرع حبه دائماً ، ويعيش على الذكريات وكلها ذكريات كئيبة معتمة لاتلوح فيها بارقة امل . ولا نلمح فيها اثرا

للحظة من لحظات الصفو ، وقد استغرقه هذا الوجدان الخالص استغراقاً كبيرا فراح يصوره ويبالغ في تصويره (١)

ومهما يكن من احكام دارسيه حول ريادته في ابولو لهذه النزعة ، فان الذي يهمنا ان نعرف ، ماالذي هيأ لهذا الرجل ان يعيش للبكاء وللألم ، وان يذوق مرارة الحرمان ، فلا يهدأ له بال ، ولا يغمض له جفن وانما هو يسرح الطرف في هذا العالم الذي يغلفه سواد ، وتغطيه عتمة ما تلبث ان تنطبع في نفس شاعرنا وتلجئه في كثير من الاحيان إلى ارتياد الملاهي والى ادمان الخمرة لعل ذلك ان يسري عنه الغم او يخفف عنه الالم .

ومن حسن حظنا وحظ الشاعر ايضاً ، ان الذين ارخوا لحياته ، وتحدثوا عن طبيعته ومزاجه كانوا اقرب المقربين اليه ، وانهم - فيما نرى - قد انصفوه ، - ا ، سلبا وان ايجابا - فأسباب عديدة - فيما يبدو - قد تلاءمت على خلق هذه الشخصية الغريبة في طبعها وفي حبها ويرى احمد هيكل ..(بان طبيعة ناجي وظروف نشأته وحياته قد ساعدت جميعاً على هذا الاتجاه ، فطبيعته كانت طبيعة مفرطةشديدة الشفافية ومفرطة الحساسية ، فيها كثير من الانطواء المقاوم والحياء الغالب . ونشأته كانت نشأة فيها صقل وتهذيب بين بيئة ذات طابع روحي يوشك ان يكون تصوفياً وذات تقليد اجتماعي يكاد يكون انفصالياً ... والرجل لم يكن على حظ من طول القامة كما لم يكن على قسط من الوسامة ، وانما كان ضئيل الجسم قصيرا كبير الرأس تلمع تحت جبينه العريض عينان واسعتان مستديرتان كثيرتا الشرود والاغضاء ، ثم تنبسط تحت انفه الكبير شفتان عريضتان يزيدهما الابتسام عرضاً وبسطاً . هذا مع صوت غير بين النبرات ومخارج حروف غير واضحة المعالم . فاذا كان ذلك الاطار يضم

---

(١) عبد العزيز دسوقي : جماعة ابولو، ص ٤٢٥. وانظر احمد المعتصم باقه : ناجي شاعر الوجدان الذاتي ، ص ٣٢ . و محمد مندور الشعر المصري بعد شوقي ، ص ٥٧ . و بلابل من الشرق ، ص ١٢ .

روحاً طموحاً شديد الشفافية وقلباً كبيرا دائم الحنين ونفساً عظيمة كثيرة المطالبة عرفنا كيف عانى الشاعر من الصراع داخله وخارجه) (١)

ويعلل احمد هيكل فشل ناجي في حبه الاول (بأن فتاة احلامه رفضته لانها لم تجده على الهيأة المحببة لدى النساء . وكان هذا الرفض هو سبب احساسه الدائم بالحرمان وشعوره بالظمأ . فهو يحس بالحرمان نحو كل امرأة جميلة... ولكنهن في الغالب لم يعاملنه كحبيب . ربما كانت تلك هي عقدة حياة ناجي فعلا، تلك العقدة التي عمقت احساسه وافعمت وجدانه الرومانسي بالاحاسيس) (٢) .

وهذا الكلام يحيلنا الى كثير مما يعتقد انه يؤدي الى موقف خاص ازاء الحياة، وهو موقف الشاك المتشائم . يمسح شعره بلون فيه قتامة وفيه سواد .

ولعل ماجاء في وصف سماته الخلقية يمكن ان يسمح لنا باقرار تأثير ذلك في طبيعته النفسية ، ومما يشفع لنا بهذا ان مصادر دراسته تتفق على فشل حبه الاول الذي بقي يلازمه حتى مماته .

ولكنه كان حباً من جانب واحد . وهذا ينتهي بنا الى ماحصل لشاعرنا السياب ، الذي بقي حب (هالة) يلاحقه طوال سني حياته ، كما بقي طيلة حياته يذكر الكثيرات ومنهن (ابنة الجلبي) صاحبة (ديوان الشناشيل) ومنهن فيما اتضح بعدئذ شاعرة أخرى معروفة . وقد حدث لناجي ماحدث للسياب، اذ يرى صالح جودت انه لولا زوجته التي كانت واسعة الافق لما استطاع ناجي ان يواصل رسالته كشاعر بجديد من غزلياته) . (٣)

على ان هذا السبب لم يكن الوحيد الذي طبع شاعرنا بهذا الطابع ، فما اشار اليه ابراهيم المصري من رقة الطبع حيناً ، وحدته احياناً وعطفه وشفقته وحنينه وألمه ، وغير ذلك مما ذكره المصري ، يوحي كله الى هذا الطبع الخاص ذي المزاج السوداوي الخاص .

(١ - ٢) مقدمة ديوان ناجي ص ٣١ . وانظر احمد المعتصم بالله : ناجي ، ص ٣٤ .

(٣) بلا بل من الشرق ص ١١ .ومقدمة الديوان ص ١٧ .

وقد وضع العقاد اصبعه على ناحية تلفت النظر ، وهي ان ناجي كان يشعر في ظل والده (بالحماية ويتفقدها ، ويعيش في ذلك الركن من الرعاية والحنان الذي يثوب اليه طالب الدعة والشكاية) . (١)

وهذه الرعاية التي كان ناجي — في بيته — يتميز بها على اخوته قد اسلمته الى شيء من الدعة والى نوع من الرعاية يمكن ان تطبع في نفسه الاعتماد على الآخرين ويمكن ان تسلمه بعد ذلك الى تفتيش على مزيد من العطف وكثير من التدلل تماماً كما يحدث لأي طفل يتميز على اخوته عند ابيه او امه ، ومن هنا تشتد العاطفة وتطغى الحساسية ويشعر الولد في ظل تلك الحال بالتميز والعطف .

على ان هناك سبباً مهماً كان له اعظم التأثير في طبع مزاج ناجي على الرقة وتوجيهه نحو مسائل الحب الرقيق ، ذلك هو اثر ثقافته في مرحلتها المبكرة، فقد كان ابوه يوجهه إلى القراءة والى الثقافة(وكان بيته منتدى له ولاولاده)(٢) ويبدو ان ما اثر فيه بتوجيه أبيه ، بعض قصص (شرلوك ، هولمز ، ورايدر ها جارد وسواها . واما اكثرها تأثيرا — فيما يبدو — قصة الكاتب الكبير ديكنز) دافيد كوبرفيلد التي تتحدث عن غرامه بالفتاة (دورا) والتي يقول عنها ناجي نفسه (فلم يكن عجيباً ان ينتعش ديكنز في خيالي بسمو روحه ونقاء قلبه ، مع انه لم يكن شاعرا ولكن الذي كتبه نثرا هو في الحق أرفع واعلى من شعر الوف من الشعراء) . وكما عرف ديكنز وجوده العزيز في شخص (دورا) عرف شاعرنا .. وجوده العزيز في فتاته ع . م التي كانت احدى قريباته الجميلات . (٣) ولعل هذا السمو الروحي في قصة (دافيد كوبرفيلد) هو الذي حفزه على ان يكتب اولى قصائده غزلا عفا ، وهو لما يتجاوز الثالثة

(١) احمد المعتصم : ناجي شاعر الوجدان ، ص ١٦ .
(٢) نعمات أحمد فؤاد ، ناجي الشاعر ، ص ٧ .
(٣) المصدر نفسه ، ص ١١ . ومجلة الهلال عدد يونيو ، ٩٧٧ ، ص ٨٩ .

عشرة من العمر ، ولا ننسى تأثره بمطران وبقصيدته (المساء) بالذات ، وهي قصيدة فيها من المشاعر الرقيقة والعواطف الانسانية ما حفز البعض إلى اعتبارها من القصائد الخالدة . (١) وقد حفظ ناجي تلك القصيدة ووعاها وعياً عميقاً ولكن هل من حقنا – مع ذكر كل تلك الاسباب – ان نغفل اثر البيئة في خلق هذه الشخصية الرقيقة العاطفية ، التي انعكست في شعر صاحبها انعكاساً يكاد لايجد له نظيرا عند غيره من شعراء عصره بحيث تميز شعره بما تميزه به شخصيته اشد التميز . والنقد منذ زمن بعيد والى يومنا هذا يضع في حسابه هذا الاثر . فلنحاول ان نتعرف عليه لنعرف مدى تأثيره في طبعه وتجسده في شعره .

خيرما يعيننا على استجلاء الصورة الصحيحة ، هو رفيق عمره – صالح جودت – فهو يشير إلى نشأته الاولى في (شبرا) وقد كانت يومئذ (حقولا تجري من تحتها نهيرات ... وتتفرع منها قنوات (٢).

ويشير صالح جودت إلى اسم تلك المدينة الصغيرة وكانت تسمى آنئذ (مدينة الاحلام ، لجمالها وسحرها . كما يشير إلى حب الشاعر الاول فيها ، ذلك الحب الذي طارد خياله طول حياته على يأس) (٣) .

وهذا الحب الذي اشار اليه صالح جودت يمثل عندنا اهمية بالغة ، لانه يدفع شك الذين ينكرون وقوعه له وصدقه فيه ، ويجيب على تساؤلات الذين يستفسرون عنه وعن مدى تأثيره في نفس الشاعر وانعكاسه في شعره . واليه يشير صفيه وصديق عمره اذ يقول : (وفي بيت من هذه البيوت السبعة ايضاً – ولا اسميه – كان الحب الاول في حياة ناجي الشاعر ... الحب الذي طارد خياله طوال حياته على يأس (٤) .

---

(١) انظر عبد العزيز دسوقي : جماعة ابولو ، ص ٣٨٢ – ٣٨٣ .
(٢) بلابل من الشرق ، ص ٦ .
(٣) المصدر السابق ، ص ٧
(٤) الديوان ص ١٢ .

ونحن نعطي الحق لصالح جودت في عدم اباحته باسم الفتاة لان صاحبته اصبحت سيدة متزوجة .

والى هذا الحب نفسه يشير احمد هيكل بقوله: (ان الرجل قد احب في اول عهده بالشباب) (١) . ومما يؤكد هذا الحب تأكيداً قوياً ماطلع به علينا حسن توفيق في العدد الاخير من مجلة الهلال (اغسطس ١٩٧٧) والذي يقول فيه : (والواقع انه كان بوسعي ان اتحدث عن هذه الحبيبة الاولى التي الهبت خيال الشاعر والتي ابدع فيها ارق واعذب قصائده العاطفية ، لولا ان السيدة اميرة ناجي ابنة الشاعر الكبرى قد اشارت بألا افعل هذا حرصاً على الروابط العائلية ... وتزوجت ع.م واصبح لها حياتها الخاصة بعيداً عن الشاعر لكنه لم يستطع ان يمحو صورتها من ذاكرته) (٢) .

وحيث اننا علقنا اهمية على هذا الحب ــ وهذا ما اكدته عشرات قصائده ــ لذلك فان (مدينة الاحلام) هذه بالغة الاهمية سببا وجه شاعرنا ذلك التوجيه في الحب العاطفي الحالم . وليس هذا فحسب ، فقد انعم الله على ناجي الا يحل في ارض الا ويكون الله قد حباها من نعمة الجمال مايجعلها سببا من اسباب توجيه شعره ، من ذلك انه قضى عدة سنوات في مدينة المنصورة ، وهي كما يصفها صالح جودت (ارض طيبة تنبت الشعر والجمال والحب والخيال)(٣)

وليس هذا هو المهم فقط ، فقد جمعته المنصورة هذه ، بصالح جودت والهمشري وعلي محمود طه المهندس ، وهم شعراء يتنافسون في شعرهم وقدراتهم انتاجاً وفناً عاطفياً ، فهل يمكن ان يتجاهل الدارس اثر البيئة الطبيعية والعشرة الادبية ؟

ويبقى عامل اخير لابد ان نذكره ، وهو ثقافة الشاعر الاجنبية ، وتوجهه اليها وفهمها ، وهو فيما عدا الانكليزية كان يجيد الالمانية والفرنسية والايطالية.

---

(١) الديوان ص ٣١

(٢) مجلة الهلال ؛ عدد اغسطس سنة ١٩٧٧ ، ص ٨٩ — ٩٠ .

(٣) بلابل من الشرق ص ٩

والمهم في هذا كله ، اعجابه بثلاثة من شعراء البحيرات الانكليز وهم شيلي وكيتس ووردزورث ، فاذا عرفنا ان هؤلاء كانوا كلهم شعراء الطبيعة والرقة والعاطفة ، وانهم رومانسيون بكل ماتمتلك الرومانسية من خصائص ومثل اتضح امامنا شدة تأثير ثقافته الاجنبية في توجيه شعره .

ان هذا التيار العاطفي لايمكن التعرف عليه الا من خلال الوقوف على الاسباب التي وقفنا عليها ، وبدونها فان الاحكام تصبح ضرباً من الوهم او اقراراً دون تعليل . وذلك لايصح مهما كان تبريره ، وايا كان تعليله ، خصوصاً ان تلك الظاهرة في نفس ناجي وطبعه وفي شعره ايضاً اصبحت هي الظاهرة الكلية وليست ظاهرة تطفو على السطح ، ان صح التعبير . فما هي اذن صورة هذه النزعة في شعره ؟

لقد اتجه شعراء ابولو في نزعتهم العاطفية الى نوع من انواع الحب الروحي وقد كان كذلك عند ابراهيم ناجي بالذات لانه قد عاني بسببه من عذاب النفس وحرمان القلب ما جعله يتحول الى شعلة من العواطف المتأججة ، وهي عواطف صادقة عميقة . ومن هنا سلك فيها سبيل التسامي فاكتسبت المعاني الانسانية كما اكتسبتها عواطف المحبين من شعراء بني عذرة وهذا النوع من التسامي في عواطف الحب لايتاح (الا للصفوة التي تؤمن بقيم روحية وخلقية تبلور بها عاطفتها ، فالحب العذري عف لانه حب حرم المتعة الجسدية ، وهو عاطفة صادقة لانه يدوم على الرغم من الحرمان) (١) وحب ناجي يقترب في روحه من هذا الحب لاننا سنرى صاحبه يعيش لهذا الحب طوال سني حياته على الرغم من حرمانه فيه . وكذلك فان حب هذا الشاعر يرتفع في اغلب معانيه الى هذه المرتبة التي اشرنا اليها لان صاحبها ما هدف الى المتعة الجسدية منها ، ولعل هذه الناحية تشكل ظاهرة عامة في الحب الرومانتيكي الغنائي على العموم ، ومن هنا فنحن لا نجده عند ناجي فحسب وانما نلاحظه عند اغلب شعراء ابولو ، على الرغم مما نجده يدنو عند بعضهم —وهو

(١) محمد غنيمي هلال : الحب بين العذريين والصوفيين، ص ١٤

قليل جداً – الى مستوى الغريزة الحسية ، كما هو الحال عند صالح جودت .

والحق ان صورة هذه النزعة لا تتمثل عند احد من شعراء ابولو كما تتمثل عند ابراهيم ناجي ، لان شعره لايجسدها بعمق فحسب بل هو يكاد يخلو من غيرها. واذا كانت هذه النزعة قد تأصلت وجداناً عاطفياً ملتهباً في شعر ناجي فما هي ملامحها في شعره ؟

من خلال استقرائنا لشعر ناجي وقفنا على ملامح ذلك التيار واتجاهاته ووجدنا تلك الملامح تتمثل في :

الحب ، عذاب الوحدة والضياع ، الحنين واللهفة ، الضيق بالحياة واللوعة ، التمرد ، الاستسلام للقضاء والقدر ، التعبير عن الطبيعة ، التأمل.

الحب :

والحب هو الاساس الذي يقوم عليه كل شعر ناجي ومن اجله غنى وانشد وتعذب وعرف الحياة ، ويكاد يكون ديوانه كما يقول محمد مندور (قصيدة حب) . والحق ان الدارس يحار اذ هو يحاول اختيار قصيدة حب لان دواوينه الثلاثة تمتلىء بهذه القصائد على اننا نستطيع أن نتعرف على رؤية ناجي في الحياة وموقفه ازاء الناس من خلال حبه الذي يقول فيه .

ذلك الحب الذي علمني	أن احب الناس والدنيا جميعاً
ذلك الحب الذي صور من	مجدب القفر لعيني ربيعا
انه بصرني كيف الورى	هدموا من قدسه الحصن المنيعا
وجلالي الكون في اعماقه	أعينا تبكي دماء لا دموعا (١)

أرايت نزعة شاعرنا ؟ ففي الحب عرف الدنيا واسرارها وفي الحب عرف كيف يحب الناس وفيه احب الدنيا ومنه اطل على الحياة واشرف .

وأي حب هذا الذي يتحدث عنه شاعرنا .. انه حب زوحي عف لايعرف للشهوة اليه طريقا اليس هو القائل للحبيب :

طابت بك الايام وافرحتاه	أنت الاماني والغنى والحياه

(١) ديوان ناجي قصيدة ظلام ص٦٩

احبك الحب وغنى به عف الاماني الهوى والشفاه
وانما الحب حديث العلى انشودة الخلد ونحن الرواة (١)

* * *

وشاعرنا مشدود الى حبه ، لايستطيع العيش بدونه ، لانه يستظل بظله ويستشف من روحه ما يخيل اليه انه يرتفع به الى عنان السماء . ومن هنا ما عرفه شهوة على الارض بل ارتفع معه روحاً الى السماء ، منها يطل على الكون وعلى الحياة . ولنستمع اليه كيف يصوره تصوير المتصوفين الحالمين :

أي روح أحسه أي سر في جناحيك كلما ظللاني
أي روح أحسه أي سحر سكبت في فؤادي العينان
لكأن الرميم مـا تبعثان وكـأن النشور ما تسكبان
وكأنني محلق في سـماء ومطل منهـا علـى الاكـوان

وقد يرتفع الروح والصفاء في هذا الحب إلى درجة أسمى عند شاعرنا ،حتى يشبه إلى حد بعيد غزل المتصوفين الذين يذوبون في حبهم ذوباناً روحياً لاتستطيع معه أن تكشف عن حدود بين المحب والمحبوب فيعود الأول جزءاً من الثاني ويصير الثاني مكملاً للأول . ويشوب هذا الحب صفاء وجلال تغلفه رقة وعذوبة هي رقة العاشقين الولهين وعذوبتهم . وانظر كيف يرتقي بالمحبوبة إلى عنان السماء تماماً كما يفعل المتغزلون من شعراء العذرية وكيف أنه يرتفع على جناحين أما قوله :

أيكون ذنبـي أن رفـعـتك وارتفعت إلى السـمـاء
وعـلـى جنـاحك أو جنا حي قـد رقيـت إلى الصفاء

أي ارتفاع هذا غير ارتفاع الأرواح الذي وجدنا أمثاله عند شعراء بني عذرة من أمثال (قيس بن ذريح) الذي يقرّب في صورته من هذه الصورة التي يجب فيها (أن يجمع بينهما نسيم الجو وان يبصرا معاً قرن الشمس حين تزول وان يجمعها عالم واحد تتزاور فيه ارواحها حين يقول :

إن تك لبنى قد أتـى دون قربها حجـاب منيع مااليه وصول
فإن نسيم الجو يجمع بيننـا ونبصر قرن الشمس حين تزول

(١) ديوانه ص ١٤١ - ١٤٢ ،قصيدة انوار .
(٢) ديوانه قصيدة أنت ، ص ٣١٦ .

وارواحنا بالليل في الحي تلتقي ونعلم بالنهار نتميل
وتجمعنا الأرض القرار وفوقنا سماء نرى فيها النجوم تجول (١)

وإذا كانت هذه الصورة تختلف عن تلك في بعض ملامحها لكن الذي يجمع بينهما هو هذا الصفاء الروحي الذي ابتعد بهما عن كل متاع الحب المحسوس. ثم انظر اليه وهو يقول :

وأراك عافيتي فأضرع طالباً منك الشفاء

هل رايته كيف يسمو بحبه عن كل مادي وحسي ويبتعد بها عن الغريزة الجنسية البحتة وقوله :

وأحس وحيك من عل لي دون أهل الأرض جاء

فهو يقول صراحة ان حبه يرتفع عن الشهوة والدنية :

أيكون ذنبي أن يناط بك التعلل والرجاء

فهو صورة من صور الحب الصوفي تماماً ويصرح بعشق ليس له ثمن فهو إذن يرتفع عن الدنايا :

إني عشقتك ماطلبت على محبتي الجزاء

ثم يشير إلى انشغاله به طول الوقت:

ياللهوى لا صبح لي الا هواك ولا مساء (٢)

وإذا كان منطلق ناجي في هذا الحب هو الارتفاع به عما يشوهه من غرائز الحس وانه قد ساق بسببه مئات من القصائد في حق حبيبته ع . م فكيف يمكن التوفيق بين هذا الحب الخالص الذي لاتشوبه شائبة والذي أكد الدارسون أنه قد وقع له فعلاً وانه قد أوحى اليه بهذا الغزل الروحي وبين بعض قصائده التي تغزل فيها ببعض الفنانات والشاعرات والأديبات ، وهل يوحي هذا إلى تحول الشاعر عن حبه الأول ليرتوي بما يمنحه له حب الاخريات ممن ارتبط

---

(١) محمد غنيمي هلال : الحب بين العذرية والصوفية ص ٣٨

(٢) الديوان من قصيدة ذنبي ص ٦١ .

بهن أحياناً من أمثال الأديبة أمينة نور الدين والشاعرة أماني والفنانات أمينة رزق وزينات صدقي وزوزو حمدي الحكيم وزوزو ماضي .

قبل كل شيء لابد أن نعرف لماذا ارتبط ناجي بهؤلاء اللائي عملن في الوسط الفني دون غيرهن ؟ يقول حسن توفيق في آخر عدد من مجلة الهلال : (وكان عمله الاضافي باعتباره طبيباً لنقابة الفنانين يتيح له أن يلتقي بالكثيرات فضلاً عن سهراته وندواته المتواصلة) .(١) وحيث أن ناجي كان يشعر بالفراغ الذي تركته في نفسه ع . م لذلك حاول أن يسد هذا الفراغ بما يخفف عنه ألم الوحدة وعذاب الضياع فانطلق (انطلاقاً جامحاً بغية أن يرتوي من الحب وكان مجال الوسط الفني مجالا خصباً لبحثه عن الارتواء الروحي لكن هذا المجال لم يكن يخلف في أعماقه سوى الزفرات والحسرات التي تزيد من احساسه بالحرمان الروحي في كل تجربة يخوضها مع فنانة أو كاتبة من الكثيرات اللواتي التقى بهن فقد كان المثال الذي خلقته تصوراته للمرأة .... مستحيل التحقق في واقع الحياة فكان إذا عرف امرأة من الوسط الفني وتوهم أنه وجده فيها عشق فيها هذا المثال إلى أن يدرك شيئاً فشيئاً أنه غير موجود في أعماقها فيتركها إلى غيرها سعياً وراءه من جديد) (٢)

وحيث أنه كان يهدف بهذا الغزل . المثال الذي طالما سعى اليه في حب ع.م تعويضاً عن الفراغ الذي تركه في نفسه هذا الحب فقد جاء غزله بهؤلاء الأديبات والفنانات بعيداً هو الآخر عن المعاني الحسية التي ابتعد عنها في غزله بحبيبته الاولى بل أن الدارس لايستطيع أن يميز هذه القصائد عن تلك التي نظمها في حبه الأول، ونحن نحيل القاريء إلى بعض ماصور به هؤلاء تأكيداً لهذا القول: يقول ناجي من قصيدة صخرة المكس — وهي لم تنشر بديوانه — وكانت ملهمتها الممثلة زوزو ماضي :

(١) مجلة الهلال ،عدد اغسطس ، ص ٩١ .
(٢) المصدر نفسه ، ص ٩١

سلاماً ياعروس المساء أني احباك لاأملّ بك المقاما
أسير إلى لقائك نضو شوقي وأرجع عن ربوعك مستهاما
أراك فتنتشي روحي وقلبي كأني قد سقيت بك المداما
وان طوى البساط فنصب عيني عليك خيال أحبابي القدامى
وان طاح الزمان بكأس حبي فلا الساقي نسيت ولا الندامى(١)

أرأيت استشارته إلى حبه القديم وكيف اطاح الزمان بكأسه اليس في هذه الأبيات التي الهمتها اياه زوزو ماضي عودة وتذكر إلى حبه الأول مما يؤكد ماقلناه من أنه كان يفتش في هذا الغزل عن المثال الذي لايجده في سوى حبه الأول ؟

وحيث أنه لم يثبت في هذا الحب على حال ، فهو ينتقل إلى غيره ليقول في الفنانة والعازفة (انعام) :

رب حسن من الوداعة يبدو فيه عطف وفي حناياه بر
ولقد تحسب الوداعة ضعفا ولها دولة ونهي وأمر
فمرينا انعام من غير أمر نحن أسراك ما بأسراك حر
ومري الدهر يصبح الدهر عبدا واضحكي في فم المنى يفتر
ومري الروض يصبح الروض فينان وينمو ورد ويورق زهر
ومري القلب يخفق القلب فرحان وتحنو روح ويطرب صدر(٢)

وهكذا نجد (القلب يخفق) و (الورد ينمو) و (الزهر يورق) و(الدهر يصبح عبداً) وهي صور في الحب نجد الكثير من أمثالها في حق ع.م حبيبته الاولى

ولتأكيد هذه الظاهرة — وهي أن صورة الغزل في هؤلاء الفنانات والأديبات لا تختلف عنها في حبه الأول — بل انها امتداد لها وتمثل لمعانيها التي لاتعرف سبيلاً إلى الشهوة والحس ،لتأكيد هذه الظاهرة نورد هذه الأبيات التي يصف فيها سامية جمال فيقول :

---

(١) مجلة الهلال ،عدد اغسطس ، ١٩٧٧ ، ص ٩٦ .
(٢) المصدر نفسه ، ص ٩٩ .

عفـو القـوافي وعذرا أن قصـرت في سؤالك
إن لـم تجـد لـك عدلا ولا نظيـر دلالـك
حـاولـت وصـفك لما رأيـت نـور هـلالك
فـحرت مـاقلـت شيئا يليـق بـاستقبالك
يـا فتـنـة فـوق ظني بـالله مـالي ومـالك (١)

أية معاني في الوصف هذه وهي قيلت في حق راقصة ؟ هل تجد فيها هذا الغزل الذي تجده عند نزار قباني وأمثاله ممن كانوا يغشون هذا الوسط الفني وأمثاله يسهرون مع الغواني وبائعات الجسد ثم يقول فيهن مايقول ويصف مايصف مما نجده في كل دواوينه ؟

ثم مارأيك بوصف أو غزل قيل في حق راقصة أو عازفة أو غيرهما أيذهب الظن والتقدير إلى غير الصورة التي نجدها عند نزار وامثاله ؟ نعم هي صورة واقعية لمن يغشى هذا الوسط ويريد أن يعب من الشهوة مايتيحه له هذا الوسط الذي أشرنا اليه . لكن ناجي نأى عن ذلك كله كما رأينا ، وراح يتحدث عن جمال فيه صفاء ورواء وروح وسحر والسهب فيما نرى — أن هذا الشاعر لم يقصد هذا التصوير من أجل المتعة —كما فعل نزار قباني— وانما كان يعتقد أنه يجسد فيه المثال الذي فلت منه ولم يستطع ان يحققه ولذلك فهو ينتقل من واحدة إلى أخرى حتى إذا لم يجد ذلك المثال راح يبكي حظه ويجسد ما يشعر من ضياع العمر والآمال .

ومما يؤكد هذا الاندماج الروحي الذي تذوب فيه ارواح المحبين قوله يتحدث عن حبيبته :

هو في الافـق بعيد وهـو دان هـو لي نفسي وروحـي وكياني
مخطىء مـن ظـن انـا مهجتـان مخطىء مـن ظـن انـا تـوأمـان

---

(١) المصدر السابق ، ص ٩٨ .

هــو شطــر النفس لاتوأمها هنو منها هـو فيها كـل آن
نحن نبض واحـد ، نحن دم واحد حتى الـردى متحـدان

وهذا التصور للحب هو الذي دفع السحرتي لان يفرق بين حب ناجي وحب غيره حين يقول : (لم يكن حبا ماديا خليعا كحب امرىء القيس أو عمر بن أبي ربيعة ، لم يكن حبا ساديا منحرفا كحب أبي نواس ... بل كان حبا روحيا فيه جذل المتصوفة) . (١)

على ان هذه العفة ، عفة الغزلين الذي تغزلوا بالعين وما تثيره في قلوب العاشقين الوالهين لما تنته بانتهاء شعراء بني عذره وامثالهم فشاعرنا يعف ويصف من خلال الاحساس الصادق بتجربة العمر – كما اسلفنا – ولكنه لم ينقطع عن ذلك الشعر العف الذي اشرنااليه بحيث وجدنا من يشير اليه كعامل له تأثيره فيقول : « ويبدو التأثير فيه بمهيار وابن الفارض والشعراء العذريين في العصر الاموي كجميل والمجنون وقيس بن ذريح كما تأثر بديكنز وكيتس»(٢)

وهذا الغزل العف بالعيون قد يضع شاعرنا في موقف مشرق لاأثر للهموم والاحزان فيه ، بل هو يبتسم ويضحك ويشعر بالسعادة تحل محل الشقاء والأمل يأخذ مكان الالم ولعل هذه الابيات من قصيدة (عينان من العراق) تشير إلى هذا الجانب :

عيناك بالصفو الوديع وبالطهارة راهبـان
عيناك بالليل الربيعـي المضيء شبيهتان
عيناك بالألق العجيب المستحب خميلتان
في افق عمري كوكبان وفي شعوري لاعجان
يتخطران عليه أنغاما واعطارا حسان
عيناك اسرار مخالـدة مقدسة المعان

(١) محمد عبد المنعم خفاجي : دراسة في الأدب العربي ، ص ٣٠١ .
(٢) مجلة الأديب ١٩٥٦/٧ ، ص ١٨ .

من صمت صحراء العرا ق وليله مجبولتان
من اعين الغزلان في أرباضه مخلوقتان
من سحر بابل والحلو ن الموصلية غنوتان

° °°

عيناك كنز أودعت فيه الحياة رؤى الجنان
عيناك بالالق العجيـ ـب المستحب ترنمان
ياشاعر الالم السعيـ ـد بلغت شطآن الأمان
وبلغت آمال الفؤاد وحزت بينبوع الحنان (١)

هذا هو غزل ناجي يخلع عليه من الطبيعة مايحرك فيه صورة من صور الحب المتألق ، الذي لايعرف طريقه الى مجون أو خلاعة أو جسد . نعم ، لقد كان غزله بالعينين ، ولكن بم ارتبطتا ؟ بالليل الربيعي ، وبالصفو الوديع ، وبالطهارة والنور . وهما كوكبان ، ولكنهما (يتخطران انغاماً واعطاراً)، ليخفف من اثر الوصف المادي ، حينما شبههما بالكوكبين . وهي صور نستشف من ورائها جمالا لايحققه التشبيه المباشر ، وكأني بشاعرنا يجسد رأي ناقد الديوان ، وهو العقاد ، الذي دعا الى استخدام الصور عن طريق الايحاء والرمز الشفاف بعيداً عن الافراط الذي يصل الى حد الاحاجي والالغاز .

عذاب الوحدة والضياع :

شكا الرومانتيكيون من شعورهم بالضياع ، وجسدوا ألم الاحساس بالوحدة ، وقد ظنوا فيها اولا البديل للهروب من المجتمع . لكن الامهم بقيت تلاحقهم ، وفشلهم اشعرهم بضيق حياتهم ، وها هو ذا شاعرنا لايعتقد ان في هروبه من الحياة خلاصاً . فهيهات هيهات ، تنقذه الوحدة من الضيق ، وتسلمه الى الفرج :

---

(١) ديوانه / من قصيدة عينان من العراق ص ٣٢٦ .

يـاوحـدتي جـئـت أنسى وهاأنذا مـازلـت اسمـع أصداء واصواتاً
مهما تصـامـمت عنها فهي هاتفة يـاأيـهـا الهـارب المسكين هيهاتا(١)

وشاعرنا يكشف عن سبب ضيقه بالوحدة ، ولا يتركنا نحار في التحقق من شعوره بالضياع . فبعد الحبيب عنه هو الذي يجسد شعوره بذلك . بل انه ليشعر بألم الغربة شعوراً حاداً : وقسوة الضياع قسوة مفرطة بسبب غياب الحبيب :

اصبـحـت يـوم الجمعة ذا غـربـة مـاأضيعـه
مـنـفـرداً لا خـل لي وأيـن مـن قـلـبـي معه
ضـاقت الارض فمـا لـي فـسـحـة الكـون سعه
اقطع يـومي مبطئاً كأنني لن اقطعه (٢)

أرأيت قوله (أقطع يومي) ثم يردف (كأنني لم اقطعه) ؟ ألا يدل ذلك على ضيقه بالحياة ولو كان ضيقاً مؤقتاً لأنه اقترن بيوم الجمعة وحسب ؛ فلم يعد يدري اين يضع قدميه :

قـلـبـي خـلا مـن نسمة مـشـرقـة مـرصعـة

نعم لقد فقد شاعرنا ثقته بالحياة ، وفقد معها آمالا ماكان ليظن أنها تتحول الى سراب ووهم .

ان شعور ناجي بالحب ، هو شعوره بالحياة نفسها . ولقد تحول الحب عنده الى معنى انساني نبيل ... الى الحنان .. نعم حنان الحبيب الذي صار اسى ولوعة بعد ان فقد فيه صاحبنا كل أمل بالتحقق . ومن هنا صار بعد المحبوب عند ناجي معادلا للضياع ، بل لقد توسعت دلالته الى ابعد من ذلك . وخاصة حين نفض يديه منه ، فما عاد يتصوره حقيقة يهدف اليها وانما صار خيالا ، ولذلك ارتبط ارتباطاً عضوياً بالهموم والاحزان ، .وها هو ذا ناجي

(١) الديوان : من قصيدة أصوات الوحدة ص ١٠٢ .
(٢) الديوان من قصيدة يوم الجمعة ، ص١٩٦ .

يجسده لنا ويوحي به الى خواطرنا ، وحيث ان التأزم يلازمه ، بل يشدد الخناق عليه ، فانه يشعر بأن اللغة المباشرة تخونه فتفقد القدرة على التعبير .

ومن هنا يلجأ — كعادته — الى الايحاء يصور اعماق تجربته ويجسد ها: (شراء الاحلام) و (بيع العمر) و (سوق المنى) و (سوق الهموم) . ويعبر عنها (بالضياع) و (فقدان الهدى) وغيرها مما يوحي بها ايحاء ليس غير

يـاحناناً كيـد الآسى الرؤوم   وشـعـاعـاً يشتـهى بعد الغيوم
انا فـي بعـدك مفقود الهدى   ضـائـع أعـشو الـى نور كريم
اشترى الاحـلام في سوق المنى   وأبيـع الـعمـر في سـوق الهموم
لاتـقـل لـي في غـد موعدنا   فـالغـد الـموعـود ناء كالنجوم

وناجي في البيت الاخير لايشعر بالضياع فحسب . بل يستسلم استسلاماً لليأس والقدر. فيعلن عن افلاسه « الغد الموعود ناء كالنجوم » .

ثم يقول :

وتـلـفـت فـلا أنـت ولا جـنـة الخـلـد ولا اطياف سعد
واذا بـي غـارق في محنتي وبـلائي ، اقطع الايـام وحدي
هـات قيثاري ودعني للخيال واسقني الـوهم ، وعلل بالمحال(١)

هل رأيت كيف يصير فقدان الحبيب (محنة) و (بلاء) ؟ وكيف انه يصرع شاعرنا فيجعله كتائه في صحراء ، يجرع ألم الوحدة .

ثم هل رأيت الوضوح النفسي للشاعر انه مصمم الا يصدق ،ولذلك فليعش على الامل حتى لو تأكد له انه الخيال وحده . وليعلل نفسه بالوهم فلعله ان يسد به فراغ نفسه .

الحق ان شاعرنا — كما قال عنه دارسوه — وعاش من أجل الحب ومات بسببه ، فحبه في نظرنا هو اساس الحركة والحياة والعيش والفكر وغيابه عنه

(١) الديوان : من قصيدة الغد ،ص٢٨٠ — ٢٨١ .

يعني غياب هذه الحركة وموت تلك الحياة ، وكدر هذا العيش وجفاف ذلكم الفكر . ألم يبذل حياته كلها من اجل ذلك الحب وانه حين شعر بجفافه (نضب خياله) و (غاض طبعه) و (مات زرعه) ؟ ! اسمعه يقول :

اجل اهواك أنت منى حياتي   وأنت احب من بصري وسمعي

وحين شعر بغياب ذلك الحب قال :

وقد نضب الخيال وغاض طبعي   ومات على حياض اليأس زرعي

أجرجر وحدتي في كل حشد   واحمل غربتي في كل جمع(١)

فاذا كان الحب هو موضوع كل شعر ناجي ، فمن الطبيعي ان يقترن به الشعور بملال الوحدة والضيق بسبب الشعور بالضياع .

الحنين واللهفة

لماذا فشل ناجي في حبه ؟ هذا سؤال تسهل الاجابة عنه اذا ربطناه بحياة الشاعر وما احاط بها من ظروف صعبة ومشاكل جمة .

ولكن لماذا امسى ناجي يعلل نفسه بالاماني الحلوة والآمال العريضة ثم اوحى له خياله بالاحلام والتصورات ؟

والاجابة هنا تستحيل الا اذا حاولنا التوصل الى عواطفه ومشاعره وتحدثنا اليها . ثم لو حاولنا ان نربط هذه الحالة بالسلوك العاطفي الرومانتيكي الذي يعتمد على الخيال في رسم الاحلام وتمني الآمال لخلصنا الى نوع من قناعة تفتح لنا نافذة يمكن ان ننفذ منها لنستكشف ونتعرف .

واذن فالحنين واللهفة على حب تعثر أو ذوى ، ظاهرة لاتتحقق في شعر ناجي بالذات وانما تتوافر في شعر الرومانتيكيين كلهم . وشعر هذا الشاعر يمتلىء حنيناً وشوقاً وتلهفاً على الحب ولربما على حبه الاول الذي ولد في — شبرا — قبل ان تلحق بالقاهرة ، وحين كانت طبيعتها الرقيقة وجمالها الأخاذ يوحي الى الحب ويشجع على نموه .

(١) ديوانه : قصيدة : بعد الفراق ، ص ١٩٧ .

ولا شك ان ناجي كان يدرك اخفاق ذلك الحب ولكنه مع ذلك كان يشدو له ، لانه صار عنده ذكريات لاتمحى بل لعله — على الرغم من شعوره بفشله — كان يشعر انه هو الحب . جرياً على رأي الشاعر : ماالحب الا للحبيب الاول .

وهذه الحال تذكرنا بقصة صديقه الشاعر (احمد زكي ابو شادى) الذي احب زينب في عنفوان شبابه ثم تعثر حبه واخفق أمله وظل — على الرغم من زواجه وتوفيقه فيه — يلازمه طيفاً شديداً لايمحي من ذهنه بل لقد ترك لنا ابو شادى ديواناً كاملا يبكي فيه ذلك الحب وهو (ديوان زينب) .

وعلى اية حال فان ناجي أو (ابو شادي) او غيرهما من شعراء هذا التيار العاطفي العنيف في العاطفة كانوا يعيشون على ذكريات (هذا الحب الاول) المتعثر . وعلى الرغم من تعثره الا انه يشكل عندهم ظاهرة جديدة بالدراسة .

والحق ان ظاهرة الحنين في الشعر والادب تتمثل في انواع ولكنها لدى شاعرنا لاتتعدى موضوع الحب وذكرياته :

أمسى يعذبني ويضنيني شوق طغى طغيان مجنون
اين الشقاء ولم يعد بيدي الا أضاليل تداويني

ويبدو ان ناجي كان يريد التهرب منه احياناً لانه يعذبه ويضنيه ، ولكن دون جدوى فهو ابداً يلاحقه ويطعنه :

أبغي الهدوء ولا هدوء وفي صدري عباب غير مأمون
يهتاج ان لج الحنين به ويئن فيه أنين مطعون

وعلى الرغم من حنين شاغرنا الى الحب الا انه كان يدرك أذاه ومر طعمه ولذلك كان يشكو من طيفه احياناً بل انه ليصور قسوته عليه :

ويظل يضرب في اضالعه وكأنها قضبان مسجون
ويح الحنين وما يجرعني من مره ويبيت يسقيني (١)

(١) الديوان : قصيدة الحنين ، ص٣٢٢ .

ومن هنا يصير الحنين واللهفة مصدراً من مصادر الهم والألم على الرغم مما قد يتخيل فيه الشاعر من صور الحب التي قد تملأ فراغ قلبه . لان في هذا الحنين استعادة لذكريات كانت جميلة وقد لاتصبح كذلك بعد مرور الاعوام والسنين بسبب تغير في الموقف او تبدل في الحال . ومن هنا ارتبطت ظاهرة الحنين كما قلنا بالألم كما ارتبطت بالعتاب حيناً آخر . وسواء ارتبطت بهذا المعنى او بذاك ، ففي كلتا الحالتين يثير هذا الحنين اللهفة والاسى والالم ، وقد يثير استغراباً حين يحصل تغير في الموقف كما في قول ناجي من قصيدة العودة التي يعدها محمد مندور (من روائع النغم في الشعر العربي الحديث تندرج تحت فن عربي قديم هو فن بكاء الديار) (١) .

كما يعدها محمود حامد شوكت من اجمل قصائده (التي تتضح فيها نزعة التجديد من تشخيص وتجسيد وحوار داخلي وتنويع في القوافي، ووحدة عضوية وتجربة شعورية وموسيقى صافية داخلية وخارجية تتواءم مع الحس العاطفي)(٢) .

هذه الكعبــة كنـا طائفيها	والمصلين صبـاحاً ومساء
كم سجدنا وعبدنا الحسن فيها	كيـف بالله رجعنـا غرباء

وهنا نجد ناجي يستغرب من موقف ديار الحبيبة :

دار احلامي وحبي لقيتنا	في جمـود مثلما تلقى الجديد
أنكرتنا وهي ان كانت رأتنا	يضحك النـور الينا من بعيد

ونتيجة لهذا التنكر من ديار الحبيبة يتساءل شاعرنا عن سبب عودته وكأنه يلوم نفسه لخذل تلك الديار له :

لم عـدنا او لم نطـو الغرام	وفـرغنـا مـن حنـين وألم
ورضينـا بسـكـون وسلام	وانتهينـا لفـراغ كالعدم

---

(١) انظر محمد مندور : الشعر المصري بعد شوقي ،ص٦٠.
(٢) مقومات الشعر العربي الحديث ، ص٢٥٦ .

ويثير ذلك التنكر في نفس الشاعر الاسى والالم:

آه مما صنع الدهر بنا او هذا الطلل العابس أنتا
والخيال المطرق الرأس أنا شد مابيننا على الضنك وبتا

وحين ينتقل الشاعر الى الحديث عن تلك الديار يذكرنا بموقف شاعرنا الجاهلي على ديار الحبيبة وكأنه يستوحي منه صوره وملامحه فيقول وقد بدت في نبرته الحسرة:

موطن الحسن ثوى فيه السأم وسرت أنفاسه في جوه
وأناخ الليل فيه وجثم وجرت اشباحه في بهوه
والبلى أبصرته رأي العيان ويداه تنسجان العنكبوت
صحت! باويحك تبدو في مكان كل شيء فيه حي لايموت

واذا كان شاعرنا قد تحسر بسبب ماأصاب ديار الحبيب فانه كان يدرك من جانب آخر ان هذه الحسرات لاتلبث ان تذروها رياح الزمن، ذلك ان ماحدث ان هو الاسر الحياة وطبيعتها التي رسمتها الاقدار. ومن هنا يخضع الشاعر الى الاستسلام:

كل شيء من سرور وحزن والليالي من بهيج وشجي
وأنا اسمع اقدام الزمن وخطى الوحدة فوق الدرج
ركني الحاني ومغناي الشفيق وظلال الخلد المعاني الطليح
علم الله لقد طال الطريق وأنا جئتك كيما استريح
وعلى بابك القي جعبتي كغريب آب من وادي المحن
فيك كف الله عني غربتي ورسا رحلي على ارض الوطن
وطني أنت ولكني طريد أبدى النفي في عالم بؤسي
فإذا عدت فللنجوى أعود ثم أمضي بعدما أفرغ كاسي(1)

(1) الديوان قصيدة العودة ص٣٩ - ٤٠ .

م/١٤/آ

ويتفق الدارسون على أن حبه الأول الذي أخفق ، هو السبب في الهام هذه القصيدة التي تحدث عن روعتها الكثيرون . (١).

الضيق بالحياة :

حين أخفق ناجي بحبه ، ونفض منه يديه صار يجتر ذكرياته يواسي بها نفسه فيحن إلى الليالي ويذكر مواقف الحب ، ويحلل ساعات الانتظار ، ولكن دون جدوى حين ينتفض من أحلامه المؤقتة ،أحلام اليقظة التي ماتلبث أن تذوب وتتحول إلى سراب .فيلهث من التعب وتنقض عليه همومه وتشتد به أحزانه وتضيف اليه الحياة من متاعبها ومشاكلها أثقالاً فوق أثقاله لايستطيع شاعرنا أن ينوء بحمله فيضيق بذلك صدره ويشتد بالحياة برمه ويضطر إلى أن يصيح :

حان حرماني وناداني النذير   ماالذي اعددت لي قبل المسير
زمني ضاع وما أنصفتني   زادي الأول كالزاد الأخير
عمري من أكاذيب المنى   وطعامي من عفاف وضمير
وعلى كفك قلب ودم   وعلى بابك قيد وأسير

وإذا كانت هذه هي حاله فما الدنيا وما طعمها وما الحياة وفيم الانتظار ؟

كل شيء صار مراً في فمي   بعدما أصبحت بالدنيا عليما
آه من يأخذ عمري كله   ويعيد الطفل والجهل القديما(٢)

وهكذا تتحول الكلمات عنده إلى آهات ،بعد أن ثقلت الدنيا عليه ، وحملته من همومها واكدارها مالا يطيق ،وكأنه صار يشعر باللهث والتعب من طول المسير والكد العسير .. ومن هنا يصاب بالحنين إلى عهد الطفولة كما يلاحظ ذلك ماهر حسن فهمي . وهذا لايتضح في قوله (ويعيد الطفل والجهل القديما) فقط انما هو يتضح عنده في قصائد كثيرة حتى تصبح ظاهرة في شعره لأن العودة

---

(١) انظر احمد المعتصم بالله ناجي ص ٢٤ . صالح جودت بلابل من الشرق ض ١١ . محمد مندور : ص ٦٠

(٢) الديوان : قصيدة الوداع ، ص١٨١.

إلى الطفولة كما يوضحه الشطر الأخير يعني العودة إلى حبه الأول والعودة إلى هذا الحب « أشبه بفرار الطفل المذعور إلى حضن أمه » (١). وهذا يذكرنا بحنين السياب إلى حبه الأول الذي ارتبط تمام الارتباط بحنينه إلى أمه التي تركته وهو طفل فحرم من حنان الأمومة ،فقد كان حنينه إلى جيكور — موطن حبه— هو الحنين إلى الطفولة الذي ارتبط بحب هالة وبحب الام .

وهذا يلفتنا أيضاً إلى ظاهرة لاتقف عند ناجي أو السياب فقط إذا تذكرنا ان الحب قد توزع عند الرومانتيكيين بين حب الأم وحب الطبيعة وحب الأرض كلها إذ يألف الرومانتيكي الطبيعة (وينشد فيها وحدها العزاء وخاصة إذا ظفر بين مناظر الطبيعة بحبيب يجد فيه العوض عن الجنس الانساني كله .(٢) .

والذي جعلنا نربط بين هذا كله : الحب، الطفولة ، الأم ، الطبيعة ، الأرض هوانها تمثل لدى الرومانتيكيين جانباً انسانياً طالما بحثوا عنه وسعوا من أجله. وهذا الجانب الانساني يمثل عندهم بعواطف مشبوبة لاتلبث أن تنتهي في كثير من الأحيان إلى الضيق بالحياة والشعور بخيبة الأمل والشكوى المقترنة بالحسرة . وهذا ماعبر عنه شاعرنا في قصيدة بعنوان (شكوى الزمن) إذ أنه يتحسر على ماتبقى من عمره ويذكر شيب شعره ويعتب على زمان يذل الرجال ويتالم حين تتحول الآمال إلى سراب وتجدب الأرض بعد نضرة وحياة ، ويتحسر على جهود تضيع ووعود تذروها رياح الأيام :

ياويلتا من عمري الباقي	هذا سواد تحت احداقي
هذا بياض الشيب واعجبي	من مغرب في زي اشراق
ويلي على كأس معربدة	وعلى دم في الكأس مهراق
وعلى سراب خادع	وعلى متالق اللمحات براق
طاف الزمان به على نفر	مالوا بها مات وأعناق

(١) ماهر حسن فهمي : الحنين والغربة في الشعر العربي الحديث ص١٢٤ .

(٢) انظر بحثنا (مظاهر الرومانسية في شعر محمود درويش / مجلة آداب الرافدين ؛ العدد : ٢ لسنة ١٩٧١ ،ص١٤١ ، وانظر غنيمي هلال / الرومانتيكية ، ص١٧١)

ما حيلتي والأرض مجدبة سيان أقلالي واغداقي
أين الذين رفعت فانحدروا وبنيتهم بنيان خلاق
نيهات أنسى انهم عبثوا ووفيت لم أعبث بميثاقي (1)

والضيق بالحياة يدفع بشاعرنا أحياناً إلى الغوص وراء فكرة معينة يناقش بها حياة الانسان ،لماذا يحيا ولماذا يموت ؟ ولكن حين يكون منطلقه الملل من هذه الحياة والضيق بمتاعبها فإنه لاينتظر كثيراً ليعطينا الاجابة ،نعم انه يسرع ليقول لنا أن الانسان ضحية في هذا العالم يتقاذفه الموت والحياة :

مللت هذي العوالم مهزلة الموت والحياة
وصورة القيد في المعاصم ووصمة الذل في الحياة

فهو يمل الحياة إذن لما فيها أيضاً من ذل الانسان وفقد لكرامته ولهذا تراه يكثر من بث الشكوى وبث الأنين ويضيق صدره بحيث لايتسع لهذا وذاك :

كأن صدر الظلام ضاق من كثرة البث كل حين
ياويحه كيف قد أطاق شكوى البرايا على السنين

ومرة أخرى نعود فنسأل : ماسبب هذا الضيق وفيم هذا التحسر ولم هذا التشكي والتبكي ؟ وسرعان مانعثر على اجابة ولكن من دون تخمين أو افتراض ام نقل — قبلا — ان حبه العاثر يشكل مشكلة المشاكل ؟ ها هو ذايجيب بنفسه فتكون الاجابة مقنعة تغنينا عن افتراض الأسباب :

تمر ذكرى وراء ذكرى وكل ذكرى لها دموع
وتعبر المشجيات تترى من كل ماض بلا رجوع

ثم يقول :

ماض وكم فيه من عثار ومن عذاب قد انقضى
كم قلت لايرفع الستار ولا ادكار لما مضى

أرأيت كيف شدد على كلمة « ذكرى »؟ هنا إذن يكمن السبب . ولكي

---

(1) الديوان : قصيدة شكوى الزمن ، ص٢١٣ .

يؤكد الشاعر عمق مأساة حبه العاثر عاد يقول في نهاية القصيدة :

لاتحسبوا البرء قد الـمّ فلم يزل جرحنا جديدا
يخدعنا أنه التأم ولم يزل يخبأ الصديدا

ترى إلام ينتهي حال كهذه ؟

هل نحتاج إلى اعمال الفكر وكد الذهن لكي نعلل ونفسر ؟ لااعتقد لان ناجي نفسه قد وفر علينا هذا التعب فقال من القصيدة نفسها :

ياأيها الليل جئت أبكي وجئت أسلو وجئت أنسى
طال عذابي وطال شكي ومات قلبي وما تأسى (١)

إن لجوء شاعرنا إلى الليل يعكس صورة نفسه المحطمة التي اضناها الانتظار واتعبها العذاب والليل عند الرومانتيكيين قد احتوى تجاربهم وعكس مآسيهم وفي اللجوء اليه نوع من انواع اسقاط الذات على الطبيعة .

التمرد :

ولجوء الرومانتيكيين إلى مظاهر الطبيعة لايعني انه الاستسلام وحده فاقترانه بالبكاء والشكوى والعتب قد يصل بصاحبه إلى نوع من انواع الاستسلام ولكنه قد يدفع به احياناً إلى الثورة وهذا هو الجانب الثاني من الرومانتيكية بل هو الجانب الاقوى فيما نظن . (٢) لان اساس هذه الحركة كان تمردا وثورة على المجتمع الكلاسيكي وقيمه وافكاره . وكان للادب نصيب وافر في هذه الثورة. وهذه المسألة بدهية من بدهات الحياة لان اليأس في كثير من الاحيان لايدفع إلى الاستسلام بل يدفع إلى التمرد .

ولانستغرب من ان يغضب ناجي ويثور ويتمرد بسبب ماقد تجد من استسلامه وبكائه ويأسه . الم نقل ان عمق الالم وشدة المصاب يدفع الانسان

(١) الديوان : قصيدة الليالي ، ص٢٩٠ – ٢٩٢ .

(٢) انظر بحثنا في هذا الموضوع : مظاهر الرومانسة في شعر محمود درويش . مجلة آداب الرافدين . العدد الثاني ، ١٩٧١ ، ص١٣٣ .

احياناً إلى ان يثور ويتمرد ؟ ولكن ماالذي يدفع إلى هذا التمرد ؟ نحن نعتقد ان سببه عند ناجي هو احساسه المفرط بعاطفة الحب واخفاقه فيه ، وهذا لايحمله على الاستسلام بل قد يدفعه إلى الاحتفاظ به تمرداً وثورة .

وهذا بالضبط ماأشار اليه ابراهيم المصري حين قال (إن شدة احساس ناجي بالعواطف الرقيقة هي التي تضاعف شعوره بالألم ... وهذا هو السر في تشاؤم ناجي وفي أزمات التمرد والسخط التي تنتابه) (١).

وانظر اليه كيف يدفعه الألم ويحفزه اخفاق الحب على ألا يستسلم وإنما يغضب ويثور ،ويضطر في آخر الأمر أن يمزق أعزّ مايصل بينه وبين حبه . رسائلها فيقول :

ذوت الصبابة وانطوت　　وفرغت من آلامها
لكنني القى المنا　　يا من بقايا جامها
عادت الي الذكريا　　ت . بحشدها وزحامها
في ليلة ليلاء أ　　رّقني عصيب ظلامها
هدأت رسائل حبها　　كالطفل في أحلامها
فحلفت لا رقدت ولا　　ذاقت شهي منامها
أشعلت فيها النار تر　　عى في عزيز حطامها
تغتال قصة حبنا　　من بدئها لختامها
وبكى الرماد الآدميّ　　على رماد غرامها (٢)

والقصيدة تحمل طابع الرمز الشفاف الذي اتخذه شعراء الديوان وشعراء ابولو والذي دعا اليه العقاد في نقده وهذا هو– في رأيي – سر جمال هذه القصيدة الرائعة لأن مثل هذا الانفعال العاطفي الذي يؤكد عمق التجربة الشعورية لدى شاعرنا في هذا الموقف لاتستطيع به اللغة المباشرة أن تفي بأعمق

(١) ابراهيم المصري ، صوت الجيل ، ص١٤٠ .
(٢) الديوان : قصيدة رسائل محترقة ، ص٢٨٢ .

مشاعر الحب وعواطفه وكانت عنيفة لدى هذا الشاعر– كما عرفنا –ومن هنا يلجأ إلى رمز يوحي به عن مكنونات صدره الذي تتأجحه تلك العواطف التي اليها أشرنا. ومهما يكن من أمر هذه الأبيات فإن الشاعر يبدو فيها وقد تأججت عواطفه وثار على أعزّ ما يمتلك .. نعم ثار على حبيبته من أجل حبه الذي أخلص له وسهر الليالي من أجله .ولكن الحبيب لم يف بوعده فحز ذلك في نفس شاعرنا فتمرد في لحظة من لحظات العنف العاطفي الذي لايقوى على دفعه أو التخلص منه ، الا بهذه الثورة .ولعل ما في هذه الأبيات من الفاظ بعضها يدل على العنف وبعضها الآخر يعبر عن الرقة يدل دلالة أكيدة على صورة التأزم النفسي التي عاناها في مواقف التجربة الأصيلة .

ثم نأتي بعد هذا إلى قصيدة الاطلال وهي (قصه حب عاثر التقيا وتحابا ثم انتهت القصة بأنها هي صارت اطلال جسد وصار هو اطلال روح) (١)

وفي هذه القصيدة الطويلة التي خلدتها ام كلثوم حين غنت بعضها– تكتمل ملحمة الحب الضائع التي راح ضحيتها ناجي نفسه . ففي القصيدة نستطيع ان نتأكد من صدق هذا الجانب الذي ندرسه ، وهو الثورة والتمرد لانه جانب مهم من القصة بل جانب مهم من ابراهيم ناجي الرومانتيكي . والقصيدة تتراوح موجاتها بين الارتفاع الذي يمثله التمرد والانخفاض الذي يجسده الاستسلام والخضوع للقضاء والقدر والذي عبر عنه بقوله :

ايها الشاعر خذ قيثارتـــك	غن أشجانك واسكب دمعك

وهذا جانب سنتركه الآن لنتعرض للجانب الذي يهمنا وهو التمرد وقد عبر عنه بقوله :

اعطني حـريتي اطلـق يـدي	انني اعطيت ماستبقيت شيء
آه مـن قيدك أدمى معصمـي	لم ابقيـه ومـا ابقي علي؟
مااحتفاظـي بعهـود لم تصنها	والام الأسر والدنيـا لـدي (٢)

(١) الديوان ، ص٣٤١ .
(٢) الديوان : قصيدة الاطلال ، ص٣٤١ .

هذه هي صرخة اليأس وهذا هو تمرده ، ولم تستغرب من الشاعر اذهو يستنكر استسلامه ويأسه واحتفاظه بحب الحبيب وهل تعتقد انه فعل ذلك قبل ان يجابهه الموقف الصعب ؟ اذ ليس اصعب على الانسان من ان يضحي بما هو عزيز عليه وهل هناك أعز من حب يكتوي بناره قلب شاعر لايرى فيه وجدانه وحيانه ؟

واذن في حاله لم يستطع فيه شاعرنا ان يمتلك زمام قلبه وعاطفته يتمرد بسبب هجر الحبيب له . واعتقد ان في البيت الثاني مايؤكد وجهه نظرنا فليس اصعب على ناجي من ان يقول (مااحتفاظي بعهود لمْ اصنها) لانه يقول (لم ابقيه وما ابقى علي) لعله فعل كثيراً من اجل ابقاء حبه ولكنه لم يظفر فما حيلته والدم ينزف من جرحه ؟ لاشك انه الغضب والثورة ومن حق صاحب الحق ان يثور :

لكنني والجرح يلهب لي حسي ويكوي كي احراق
هيهات أنسى أنهم عبثوا ووفيت لم اعبث بميثاقي (١)

فشاعرنا يغضب ولكن غضبته سحابة صيف لاتلبث ان تتقشع .

الاستسلام للقضاء والقدر :

واذا حاول ناجي ان يثور لكرامته ويتمرد من اجل حبه في بعض قصائده ، فان هذه القصائد لاتكاد تشكل ظاهرة امام مئات القصائد التي يبدو فيها الشاعر شاكيا باكيا او متشائما ، فهذه الاخيرة لاتشكل ظاهرة او تيارا عاطفيا معينا فحسب وانما هي سمة مميزة لشعره ونزعة أصيلة تؤكد قسوة تجربته التي اخفق فيها الحب .

والحق ان الاستسلام نوع من انواع الهروب من الحياة يصاب به صاحبه حين تعجز الاسباب عن تحقيق أمل او تجسيد طموح او ماشاكل ذلك مما

(١) الديوان ، قصيدة شكوى الزمن ، ص٢١٣ .

يسعى إلى تحقيقه ، فيعجز ثم يكف عن المقاومة ، بعد ان تنهد قواه وتضعف عزيمته ويصبح عاجزا لاحول له ولاارادة .

وقراءة واحدة لديوان ناجي تؤكد لنا طغيان هذه الظاهرة في شعره العاطفي فما بكاؤه وشكواه ، وانينه وكآبته وألمه وعذابه وهروبه من الحياة الا دليل استسلامه .

ويبدو لنا ان احداث الحياة كانت تقسو على عواطفه حتى انهكته وتركته فريسة لأحلام يجترها من ذكرياته الماضية وسنين حبه البعيدة ولكنه ما أن ينتفض من نومه وينتهي من حلمه ويواجه واقعه حتى يهتف :

اصبحت من يأسي لو ان الردى ... يهتف بي صحت به هيا
هيا فما في الارض لي مطمح ... ولاأرى لي بعدها شيا
ماذا بقائي ههنا بعدما ... نفضت منه اليوم كفيا
أهرب من يأسي لكأسي التي ... أدفن فيها ألمي الحيا
ياايها الهارب من جنتي ... تعال أو هات جناحيا
نبكي شبابينا ونبكي المنى ... وترتمي بين ذراعيا (١)

أرأيت كيف يهتف بأعلى صوته طالبا موتا ينقذه من يأسه ويخفف عنه ألمه ؟ وفي البيت الرابع يكشف عما تنطوي عليه حاله من بؤس وشقاء وألم وعذاب فهو موزع بين وساوسه التي ألقت به في احضان اليأس ، حتى اذا لاذ بما ينقذه ، لم يجد غير الكأس يدفن فيها المه . ولك ان تتخيل وصفه وهو يفضي اليك عن استسلامه ويأسه وعن طلبه الموت فيقول متسائلا :

ماذا بقائي ههنا بعدما ... نفضت منه اليوم كفيا

وهل تراك تعجز عن معرفة السبب .. (انه المطمح) الذي اشار اليه في البيت الثاني وهو الحب الذي بكى من اجله ثم تعذب فثار ، واخيرا هو يستسلم فيطلب الموت لانه طريق الخلاص .

---

(١) الديوان : من قصيدة يأس على كأس ، ص٣٤٩ .

وكثيراً مايلجأ ناجي في استسلامه إلى التساؤل والاستفسار ويتحدث إلى حبيبته عما دفعت اليه المقادير وكأنه لم يقنع بما قسمت له هذه المقادير وكأنه ايضا يحتج عليها بما يتخذ من اسلوب المحاجة كأن يقول :

لم يا أليف خواطرى غفت العيون ونحن لم
والام تدفعنا الحوا دث في عباب يلتطم
دفعت بمركبنا المقا دير الخفية والقسم
خرجت وما تدرى الغدا ة بأى صخر ترتطم
بدأت على ريح الرضا والله يدرى المختتم (١)

وهكذا نجد الشاعر يتوقع ما قد تخبئه له المقادير .

ويلاحظ ان ناجي يستسلم للقضاء والقدر حين ييأس وهو يؤمن به حين يشعر ببصيص من امل بتحسن حاله وعودة حبه . كذلك يلاحظ ان الشاعر ههنا لايستقيم على حال من الاحوال ، فبينما نراه في اوج غضبه اذا به يتحول إلى شيء آخر ، شأنه شأن الاطفال الذين لايثبتون على حال ولعل ذلك يرجع إلى ان ناجي (رقيق فياض العاطفة تستطيع دمعة من الحبيب ان تطهر الدنيا التي اشقته بحرا من الآثام) . (٢)

وعلى الرغم من هذا القلق الذي كان ينتاب شاعرنا ويؤدي به إلى الايتخذ موقفا ثابتا لايحيد عنه الا أنه كان شديد الوضوح في مواقفه في كثيرمن الاحيان فاذا كان الحب لديه يعني السعادة فانه امام هذه الفكرة لايساوم ولايجامل اذ السعادة لايمكن ان تتجزأ او تنقص فينال الانسان بعضها ويترك منها البعض الآخر : فقليل من السعادة لايكمل فيه ولايطول الهناء .

ولعل استسلام الشاعر للاقدار لم يكن مسألة سهلة ، يقدم عليها بمحض

(١) الديوان : قصيدة ليالي الارق ص٢٩٥ .
(٢) نعمات احمد فؤاد : ناجي الشاعر ، ص٤١.

ارادته وليس من السهل عليه ايضا ان يرضى بما قدر له ، فهو يخضع ويستسلم ولكن بعد ان لايكون هناك سبيل آخر غير الاستسلام . وفي هذه الحال يواجه شاعرنا الواقع بشيء من القناعة ولكن في حالة من حالات اليأس والاضطراب . وهي حالة قد لايستطيع الانسان فيها ان يمسك زمام السيطرة على تفكيره . وها هو ذا ناجي يسائل نفسه عن سبب بقائه وانتظاره وكل شيء قد ولى وضاع .

مابقائي واجمل العمر ولى وانتظاري حتى يحين الشتاء
يطلع الفجر مرهفا شاحب النور عليه الكلال والاعياء
وبنفسي دب المساء وحل الليل من قبل ان يحين المساء (١)

فهو هنا يحاول ان يقنع نفسه بطلب الموت والرحيل عن الدنيا . وناجي يؤمن بالقضاء ويستسلم للقدر ولعل ذلك يرجع إلى رهافه حسة ورقة عاطفته . وطبع كهذا لايمتلك القدرة على مجابهة الامور وعلى الرغم من انه ثار وتمرد احيانا على قدرة ، لكنه سرعان ماكان ينتهي إلى الاستسلام وهو استسلام يختلط بالأمل كقوله من قصيدة الاطلال :

ياحبيبي كل شيء بقضاء ما بأيدينا خلقنا تعساء
ربما تجمعنا اقدارنا ذات يوم بعدما عز اللقاء
فاذا انكر خل خله وتلاقينا لقاء الغرباء
ومضى كل إلى غايته لاتقل شئنا وقل لي الحظ شاء(٢)

أترى كيف يتعلق شاعرنا ببصيص من امل فاذا هو يستعمل (اذا ، وربما) وامثالهما في شعره كثير . وهو يوحي الينا كيف انه — وهو العاجز المستسلم — لايقنط من رحمة ولايرفض أملا قط .

ثم أترى ايمانه الشديد بالقضاء وبالقدر ، فالبعد واللقاء والسعادة والشقاء كل ذلك شيء مكتوب لاقبل للانسان بمجابهته وتغيير مجراه .

---

(١) الديوان : قصيدة ملحة السراب ، ص٥٧ .
(٢) الديوان : قصيدة ملحمة الاطلال ، ص٣٤٦

ومن منطلق فكرة الجبر هذه ارتبط استسلامه بالشكوى والأنين واختلط اسلوبه بالاستفسار والتساؤل،

هينا شكونا بلا انقطاع ماحظ شاك بلا سميع
وحل شعر اذا أطاع ياليته عاش لايطيع (١)

ومن هنا كثر استخدامه لحروف النداء والاستفهام والشرط وامثالها. وفي معالجة هذا الاتجاه تبرز قدرة ناجي على تصوير مأساة نهاية الشوط ، والاستسلام لايعني الا نهاية الشوط حيث تنتهي المقاومة وينسحب البطل من ساحة المجابهة وذلك يحتاج من الشاعر الفنان قدرة لمعالجة هذا الموقف وحالته النفسية وهي على اشد ماتكون انهاكا وضعفا واستسلاما للمقادير. ويكفي أن نحيل القارىء الكريم إلى بيتين اثنين يجلوان هذه الصورة تعبيراً عن عمق المأساة فيسدل الستار على هذه القصة التي يعبر عنها بقوله :

ياليلا الليل جئت أبكي وجئت اسلو وجئت أنسى
طال عذابي وطال شكي ومات قلبي ومات تأسى (٢)

الرجوع الى الطبيعة :

لماذا يلجأ الرومانتيكيون إلى الطبيعة وبم عبروا عن نفوسهم من خلالها ؟ سؤال لاتصعب الاجابة عليه لدى أي باحث ، حين يعرف طبيعة هؤلاء الناس والشعراء منهم بخاصة وحين يدرك ايضا انهم ضاقوا ذرعا بالمجتمع وبمثله ووضعوا عليه اللوم فيما حاق بهم وضاقت به صدورهم واتهموه بالقسوة والظلم ولم يجدوا خيرا من الطبيعة ينشدون فيها العزاء والسلوان (ويبثونها حزنهم ويناظرون بين مشاعرهم ومناظرها) . (٣) فحديثهم عن هيجان البحر ارادوا به تجسيد مايضطرب في نفوسهم من ثورة وتمرد . ونشدانهم الخريف صوروا به مرض نفوسهم وأفول حياتهم .

(١) الديوان : قصيدة الليالي ، ص٢٩١
(٢) المصدر نفسه ص ٢٩٣
(٣) محمد غنيمي هلال ، الرومانتيكية ، ص١٧٧- ١٧٨

وقد اهتم شعراء ابولو اهتماما خاصا بالطبيعة وسموا بها (في شعرهم فاصبحت الحرم المقدس الذي يلجأون اليه في ابتهالات روحية ضارعة في جدو في احضانها زاداً ورحمة وحنانا . ولايكاد يخلو شعر واحد منهم من ذلك الغناء الروحي الخالص للطبيعة التي تكون في كثير من الاحيان متنفساً لاحزان النفس او تعويضاً عن فشل في التكيف مع واقع الحياة وصراعات المجتمع ودنيا الناس) (١)

وناجي من اكثر شعرائنا المحدثين لجأوا إلى الطبيعة استهوت نفسه بكل مظاهرها ، في حالتي الرضى والغضب والراحة والتعب وحين يكون سعيدا راضيا أو شقياً ساخطا .

فاذا ثار راح يستوحي البحر غضبه حتى او (نزت الامواج في اوصاله) :

وانا اليوم اجتليك من الشاطيء ... تزجى الامواج مثل الجبال(٢)

فاذا بي اثور مثلك يابحر ... وتنزوا الامواج في اوصالي (٣)

واذا ضجر وشعر بقلبه يتزلزل كما يتزلزل البحر على راكبه راح ينظم ابياتا بعنوان (عاصفة) ايصور ماتعصف به نفسه ومايضطرب به فؤاده فيقول :

زلـزل البحـر على راكبـه ... مثلمـا زلزل قلب ضجـر

سفـر صـارعـلى طـالبه ... ركب ضنك والمنايا سمر

وهو يفصح عما في نفسه من ثورة ويأس بما يصور من موج البحر وعبابه وصخوره وكلها رموز توحي إلى مافي نفسه من اضطراب هو اضطراب البحر بقوته وعنفه وثورته :

صورة للبحـر أم صورة نفس ... عندمـا النفس من اليأس تثور

قـد علا الموج وقد عز التأسي ... ثم بعـد الاعباب وصخـور (١)

ارايت كيف تختلط علينا الصور فلا نعرف ايها للشاعر وايها للطبيعة بل لايعرف هو نفسه حدودا بين عاصفة نفسه وعاصفة البحر .

---

(١) محمود حامد شوكت : مقومات الشعر العربي الحديث ، ص٢٦٩

(٢) الديوان : من قصيدة يا بحر ، ص٢٥٧ .

(٣) الديوان : من قصيدة عاصفة ص١٨٤ .

وهكذا نجد شاعرنا في كل قصائده التي يخلع فيها على الطبيعة مايختلج بصدره ويثور في نفسه .

كثيراً مايعتب شاعرنا على البحر لانه :

لايسمع البحر الغضوب إلى شاك ولا يصغي إلى احد
كم لاح لي حرب الحياة على أمواجه المجنونة الزبد

أترى كيف صوره حين منحه الحياة فراح يبثه شكواه ويشكو اليه ضيق صدره لكنه – اى البحر – حين لم يستجب ، صوره شاعرنا بصورة الخصم العنيد وكأن امواجه تجاربه .

أرأيت كيف يستطيع الشاعر الفنان ان يمنح الحياة بكل شيء ، لكن ذلك يستدعي شرطا اساسا في الابداع الفني . وغذاء الشرط هو الصدق في التجربة . وما اظن ان شاعرنا قد فرضت عليه التجربة بل انها قد نبعت من قلبه ، وخرجت من اعماق نفسه المضطربة . ولم يكتف ابراهيم ناجي بما صوره في الابيات السالفة وانما راح يخلع على هذا البحر ضيق نفسه وما تعصف بها من اضطراب . وراح يستوحي تلك الحال من سواد الليل فيقول في القصيدة نفسها :

ورأيت طيف الضنك مرتسما في عاصف الانواء مطرد
في الليل مد رواقة وثوى كجوانح طويت على (١)

واذا كان ناجي قد لجأ إلى الطبيعة ليتخفف من وطأة الحياة وما تملي عليه من مواقف صعبة فهل استجابت الطبيعة لهذه النفس الآسية المكلومة وهل هي بخلت عليه في مظاهرها التي توحي بما في نفس الشاعر وهو لايطيب له ان تتحطم نفسه امام عوادي الرالزمن ومكائد الايام ، بل ان تلك العواطف الرقيقة لايمكن ان تنهض بما يؤجج نفسه من احزان سببها فشل الحب العنيف .

---

(١) الديوان : من قصيدة الميعاد ص١٢٧ .

ومن هنا وجدنا الشاعر يعقد صلته الوثيقة مع الطبيعة ومظاهرها ، وان كانت هذه الصلة قد وصلت حد الخصومة احياناً ، حيث نجد الشاعر يشك في مواقفها حين لاتستجيب لندائه ، فتخفف عنه اعباءه وتكبح من جماح الفشل الذي يلاحقه .

واذا كان البحر — وهو من اكثر المظاهر الطبيعية وروداً على لسان الشاعر ومن اشد المظاهر تجسيدا لحالاته النفسية المتأزمة بما عبر عن غضبه وثورته وصخب نفسه فانه — اى البحر — قد عبر احيانا عن ارتياحه في حالات اشراقه وانفتاحه على الحياة وشعوره — ولو إلى حين — بالسعادة .

ومن هنا كان التعامل مع البحر في صورته الثانية يمثل جانبا ايجابيا ابتعد بالشاعر عن امواجه الصاخبة الهادرة إلى انغامه الحلوة الرقيقة فاذا الامواج هادئة واذا المياه رجراجة توحي بالانغام الجميلة ، واذا بالانوار تذوب فيه بأطيافها السحرية :

في هـــدأة الاظـــلام أحيـــا مـــع الامـــواج
أحيـــا على الانغـــام مـــن مـــائك الــرجــراج

ذابت بك الانوار سحرية الاطياف
نشوانـــــة التيـــار كـــالزورق الرجـــاف

واذا بالشاعر يتعامل مع مظاهر الطبيعة بروح الانسان المرح والفرح بعيدا عن التشاؤم والضيق ، واذا هو يندمج بهذه المظاهر اندماج كل رومانتيكي يرمي نفسه في احضان الطبيعة تخلصا من شرور المجتمع ومتاعب الحياة . ومن هنا صارت :

الصخـــــرة الســـمراء راحـــت تناديـنـــي
والنجمـــة العذراء أمست تناجينـــي
والرمـل والاصداف في بهجـة العـرس
والشاطيء العـــزاف محبب الهـمـس

ولا يكتفي ناجي بهذا كله وهو يقف على شاطيء البحر الابيض في الاسكندرية بل هو يتمنى ان يكون موجة من موجات ذلك البحر ليفني مع لجة سرا من الاسرار :

ياليتني موجــــة من موجك الهدار
أفني مع اللجـــة سرا من الاسرار (١)

ويكفي أن يؤكد هذه الحالة النغم الموسيقي الهاديء والألفاظ المهموسة والتعبيرات الرقيقة وهذا ماسنشير اليه في دراستنا الفنية .

وعلى أية حال فإن البحر كان من أشد مظاهر الطبيعة صلة بشاعرنا ولذلك آوى اليه وخلع عليه من نفسه وحاله مايؤكد هذه الصلة .

ولكن البحر لم يكن إلا مظهراً واحداً من مظاهر الطبيعة فهناك من مظاهرها الأخرى مايمكن أن يستوحيها الشاعر تعبيراً عن حالته المحطمة ونفسه المتأزمة. وثورته العارمة التي تعصف كما تعصف الريح معولة . بل أن ناجي يرسم صورة من صور الطبيعة متكاملة متماسكة فيما وضع داخل اطارها من مجالات الطبيعة الأرضية والطبيعة الفضائية وفيما حققه من وحدة عضوية متماسكة يشدها هذا الخيط الفكري الملفع بالسواد ، المحاط بالتشاؤم الذي ينظر إلى الحياة نظرة سلبية حادة ،يعكسها تأزم حالته النفسية المحطمة وفيما منحه شاعرنا أيضاً لتلك المظاهر من حياة وحيوية ، يجعلنا نعتقد أنه لايتعامل مع مظاهر جامدة لاتنطق أو تفهم ،وإنما هو يجاور انساناً يفهمه ويستمع اليه . متخذاً من لغته وموسيقاها التي تثير أنغام الحزن والأسى ،وسيلة للايحاء عن طريق الرمز الشفاف وبما وفره في هذه الصورة الرائعة من مظاهر الحركة واللون وغيرها وسيلة من أروع الوسائل التي يجسد لنا فيها صدق تجربته الشعورية .

وفي القصيدة كما يبدو ، مصداق لاحدى حالات التأزم والشعور بالأسى العميق والضياع وسط بحر من الآلام والشكوى والأنين وفيها يقول :

---

(١) الديوان : قصيدة إلى البحر ص١١٤.

أقبل الليل بالظلام وبالريح تدوى بصوتها الصخاب

مستسر يدب كالراهب الشيخ مهيبا يسير للمحراب

والنجوم البعاد تومض في الافق وتبدو كأعين المرتاب

وذماء الضياء كفنه الليل فأغفى كنجمة بالعباب

وعويل الرياح يملأ سمعي ويثير الدفين من أوصابي

وطيوف الفناء تعدو أمامي هاجمات على نضير شبابي

° ° ° °

والعواء المخيف ردده الافق فدوى صداه في أحنائي

وهدير الامواج يعصف كالرعب بنفسي في وحدتي الخرساء

والفضاء الجهوم قبر وسيع ساخر مطبق على اشلائي

صارخ انت في ظلام على الار ض وإن كنت من شفيف الضياء

انت اعمى يسير في وحشته القفر وحيداً يدب في الظلماء

والمهاوي على طريقك شتى تتراءى كالفكرة العمياء

فتهاويت في خشوعي للار ض وفي مقلتي دمع ذنوبي

وتلبثت في سجود اصلي وصلاتي في دمعي المسكوب

وانا مطرق اسر الى الا م شكاتي ولوعتي ولغوبي

اين اين المعاد والراحة الكبر ى لنفس المشرد المنكوب

لم تجبني غير الرياح التي هـ زت كياني وجددت تعذيبي

لم تجبني ياحسرتا لم تجبني غير الفين : شقوتي ونحيبي

ودوى الرعد فانتبهت وشيكا واذا بي كالبلبل المسجون

فوددت المسير في المهمة السحـ ـماء لكن طفت بقلبي ظنوني

فتهاويت بين ظلماء يأسي اتنزى بصبرى الموهون

مثل طير مرنم لايبالي والردى بين جنبه المطعون

أتنزى وفي جنوبي شوق لشعاع من الضياء الحنون

غير اني لبثت ارقب فجري وعيوني الى السراب الخئون (1)

هذه هي القصيدة اثبتناها كلها لشعورنا انها تشكل وحدة متكاملة لصورة

(1) الديوان : قصيدة رحلة في الظلام ص٧٨ – ٧٩

التجربة القاسية التي مر بها ابراهيم ناجي . وانا احجم عن محاولة تفسير ماتوحي اليه هذه الصورة بعد ان قدمت لها بعض ما قدمت قبل تسجيلها – لانني ارى – ان محاولتنا لتصوير الاثر النفسي الناتج عن قراءة هذه القصيدة محاولة قاصرة لان فيها وفي امثالها من القصائد الرومانسية المتخفية في ثوب شفاف من الرمزية ، لايكون الانفعال الا من شفة الشاعر مباشرة لان الشاعر لايصرح بكل شيء وانما هو يوحي الى القارىء بجانب من احاسيسه تاركاً له ان يشاركه في تصوير هذه الاحاسيس بل وصنعها (١) . وعلى اية حال فان مايتراءى لنا من صور المقطع الثاني من القصيدة – حيث يرتفع الاثر النفسي للشاعر ويبلغ قمته – يكفي ليقفنا على مدى ماتوحي اليه صورة هذه القصيدة من حالة الشاعر في يأسه وثورته ، وداعته وحدته ، ضعفه وقوته ، وفي وضعه النفساني المتأزم . ومن هذه الصور الموحية على سبيل المثال .

(العواء المخيف) (هدير الامواج) (عصف الرعب) (الوحدة الخرساء) (الفضاء الجهوم) وكثير غيرها توحي الى مدى عمق المأساة التي عاناها الشاعر في لحظة من لحظات تذكر حبه العاثر .

اما الخريف فقد صور به الشاعر ما انطبع في نفسه من شعور بالضياع . ضياع العمر بضياع الحب ، فاذا به يتحدث عن (جفاف الروض) و (الظلال القاتمات) و (الغيوم) و (موت الروض) وغيرها من الصور الجزئية التي ما أن تتآلف حتى تشكل صورة الرجل الحزين الذي يشعر بدنو الاجل ، وانتهاء رواية الحب المحقق وانظر اليه كيف يخلع على الخريف من يأس حاله وضنى قلبه ، وشعوره بالهزيمة ، بل شعوره بالموت ، مايوحي الينا ان هذا الشاعر كان يشعر ان الخريف يتسع لنفسه المعذبة المهزومة . وهذا مايؤكده محمد غنيمي هلال حين يقول متحدثا عن الشعراء الرومانتيكيين (فمن بين فصول السنة يفضلون الخريف لانه يتفق ونفوسهم الآسية .... وفيه تتجرد

(١) انظر : احمد المعتصم بالله ناجي ص٤١ .

الغصون من اوراقها وتعصف الريح بالاوراق الجافة ويقف نبض الحياة في الاشجار وهذه المناظر توحي بالذبول والتحلل والفناء) (١) ونحن مهما حاولنا ان نفسر اثر هذا المظهر الطبيعي في نفس ناجي فلن نصل الى ماوصل اليه بقوله عن الخريف :

ياكنار الروض في ايك الهوى	جفت الروضة من بعد النديم
حل بالايك خريف منكـر	وظلال قاتمات وغيـــــوم
ماتت الروضة الا طائفــا	من هوى حي على الذكرى يقوم
فاذا انكر ماحـل بهــــا	فر يبغي سربه بين النجوم (٢)

واذ كانت صورة هذه المظاهر من الطبيعة قد عكست نظرة الشاعر المتشائمة الى الحياة وهو جانب اسود قاتم ، فان هذا لايعني ان الطبيعة " لم تمد إلى شاعرنا يد الامل ، فتنفث في روحه من سحرها وجمالها وعطرها مايجعلنا نتصور احياناً يفيق من هذا الحلم الثقيل، الذي حول شاعرنا انسان متشائم لايعرف الامل ، ولايفتح صدره للحياة المشرقة الجميلة . نعم لقد لمسنا في شاعرنا حبه للحياة احياناً ، لان قلبه معلق بحبه الاول . ولذلك وجدناه احيانا يقاوم اليأس ويثور ويتمرد .. اليس هذا بسبب الحب ؟ واجمل مافي الحياة هو الحب؟ واذن فقد حركه تعلقة بالحب ان يفتح صدره لجمال الحياة وسحر الطبيعة وها هو ذا ينظم قصيدة نستشف من عنوانها هذا الامل . وهي قصيدة (نسمة الفجر) . وفيها يبدو شاعرنا شديد الامل كثير الحيوية ، ناصعا كالنور حالما بالحب يتنقل في احضان الطبيعة بين سهولها وبحارها ، وتتعلق عيناه باحلام الربيع وعطره وطله ، وهو في كل هذا يحلم بالفجر وبالخلاص ليصل إلى شاطيء السعادة كما يقول :

هبـي كانفاس العطـور	وتـخـطري فـوق الصخـور
كتخـطـر النغـم المخـ	ـلد فـي قـرارات الشعـور

(١) الرومانتيكية : ص١٧٣ . .

(٢) الديوان : من قصيدة الخريف ص٩٢

كالنور هفهافا يدا | عب حالما موج الغدير
هبي على القفر الجديـ | ـب على السهول على البحور
ردحا تعانق كل ما | تلقاه طاهرة الضمير
وتوحد الكون الكبيـ | ـر بحبها العف الكبير
وتثير في القلب المعذ | ب فرحة الطفل الغرير
دوري باحلام الربيـ | ـع وعطره في الافق دوري
وتناثري فرحاً واحلاما | على الروض الشجير
كتناثر الطل الوديـ | ـع على مويجات الاثير
يازفرة الفجر الوليـ | ـد وغنوة الروض النضير
نامي منعمة على | ارجوحة الافق الوثير
واذا ترامى الفجر اضـ | ـواء على العشب الصغير
دوري ودوري غنوة | جمعت ترانيم الدهور
ولهن اذا جاء المسا | ء سعيدة عند البكور (١)

هل رأيت قوله (فرحة الطفل الغرير) و (احلام الربيع) و (الفجر الوليد) و (غنوة الروض النضير) ثم كلماته (الفجر ، الغنوة) و(النور) (العطور) اتراها توحي الى غير ماقلنا ؟ لست اعتقد . بل اجزم بان هذه الصور الحية . المليئة بالحياة والحركة ، والمجسدة للامل والمشرقة لنور الفرح ؛ هذه الصور مع ماتمتلكه من ايحاء جميل ؛ وما احدثه وقع موسيقاها الراقصة السهلة الخفيفة ، ونغمها الحلو الجميل ، هذا كله لايوحي الا الى مارايناه من امل الشاعر وحبه للحياة التي لم يستطع شاعرنا الحزين ان يحققها ولو الى حين :

التأمل :

(واذا كانت ظروف الحياة والاحداث التي عاش في ظلها شعراء ابولو قد جعلتهم ينطوون على انفسهم ، ويعبرون عن تجاربهم الذاتية ؛ في الحب

---

(١) الديوان : قصيدة نسمة الفجرص١٧٤

والالم ، ويتخذون من الرموز وسيلة للتعبير عما يستقر في عقلهم الباطن من انطباعات ، فان هذه الظروف نفسها دفعتهم ايضاً الى التأمل العميق . ليحاولوا الفكاك من قبضتها ، او التماس مخرج يخلصهم من هذا الظلام الذي يعيشون فيه) (١)

وناجي يحاول في تأملاته ان يتساءل عن الحياة والاحياء والحب والزمن والكون . ويلجأ في كل ذلك الى مظاهر الطبيعة لانها مظهر حي ومشاهد تثير الخواطر . وتشحذ التفكير في العالم والكون والحب والحياة .

وهو في كل وقفة يحاول ان يجد لغزا للحياة وفهما للطبيعة وحلا لمسألة الحب، واجابة تشفي تساؤلاته عن وجودنا وبقائنا . وغالبا مايجري تأملاته في مظاهر الطبيعة التي يستوحيها قلقه والمه وشكه وتمرده واستسلامه . فهو مثلا يلجأ إلى البحر ليبثه شجونه ، ويشكو اليه حاله ، وكيف ان المقادير تعبث به ، والليالي تمزقه فيقول :

انما يفهم الشبيه شبيهـا	أيها البحر نحن لسنا سـواء
انت باق ونحن حرب الليالي	مزقتنا وصيرتنا هبـاء
انت عات ونحن كالزبد الذا	هب يعلو حينا ويمضي جفاء
وعجيب أليك يمت وجهـي	اذ مللت الحيـاة والاحيـاء
ابتغي عندك التأسي وما	تمسك ردا ولاتجيب نـداء (٢)

وهو يستوحي الغروب للتعبير عن انقضاء العمر وانتهاء رحلة الحياة وهو فيها مستسلم يؤمن بقضاء الله وقدره :

يـافؤادي ما ترى هذا الغروب	ماترى فيـه انهيـار العمـر
ماترى فيه غريقاً ذا شحوب	يتلاشى في خضم القـدر (٣)

---

(١) عبد العزيز الدسوقي : جماعة ابولو ص٤٤٢
(٢) الديوان : من قصيدة خواطر الغروب ص٤١
(٣) الديوان : من قصيدة الخريف ص٩٣

اما الخريف فيعني عنده ، غروب الحياة ويبدو شاعرنا من خلاله متعطشا للحب وكأنه يشعر بالغربة ، فيتخذ من هذا الفصل سببا للهروب من هذا الفراغ . ولكي ينجو من غربته يلوذ بحبه ، وهو نوع من الفرار إلى الطفولة وايامها . ومن هنا ارتبط عنده الحب بالزمن والحب عندما يرتبط بالزمن يكون ابديا لايموت ولاينتهي .

مر يومي فـارغـا منك ومـن ... امل اللقيا فما اتعس يـومي
انت يومي وغدي انت ومـا ... من زمان مر بي لم تك همـي
آه كم اغد و صغيرا ، حاجتي ... لك كالطفل إلى رحمـة ام
ولكـم أكبر بالحـب الى ان ... اغتدي مستشرفاً افاق نجـم (١)

(وهكذا كان الحب عند ناجي ملاذا من الغربة .. لان فيه معنى الفرار إلى ايام الطفولة ايضا والوقوف من المحبوب موقف الطفل من امه يرتمي في احضانها فيجد الامن والطمانينة) (٢) .

وفي تأملاته يستجلي ناجي بعض صور الحياة وموقف الانسان منها .

لكنه غالبا مايستسلم في تأملاته إلى القدر (فالحياة عباب والانسان يطفو فوق مائة لاحول له ولاقوة :

انما الدنيـا عباب ضمنـا ... وشطوط مـن حظوظ مزقتنا
ولقد اطفو عليها قلقـا ... غارقا في لحظة قد جمعتنا (٣)

وناجي في تأملاته فضولي يتساءل ويستفسر عن الحياة ومعناها والكون واسراره والليل والغازه ولكن فضوله لاينتهي الى شيء ومن هنا فقد صاحبته الحيرة في اغلب تأملاته ، وخاصة مايتعلق بكنه الحياة والكون والطبيعة ،

---

(١) الديوان : من قصيدة الخريف ص ٩٣
(٢) ماهر حسن فهمي : السنين والغربة ص ١٢٥
(٣) الديوان :من قصيدة الخريف ص ٩٥

سيان ما اجهل او اعلم ... من غامض الليل ولغز الحياة
سيستمر المسرح الاعظم ... رواية طالت واين الستار

فهو هنا جبري يؤمن بالقدر، اذ الحياة عنده رواية كتبت فصولها دون تدخل منه. ولعله في هذا قد تأثر بافكار ايليا أبي ماضي وعبد الرحمن شكري ولقد وصلت به وقفاته أمام الدنيا واسرارها إلى التشكك .

عبيت بالدنيا واسرارها ... وما احتيالي في صموت الرمال
انشد في رائع انوارها ... رشدا فما اغنم الا الضلال

ثم انه متشائم ايضاً :

انظر الى شتى معاني الجمال ... منبثة في الارض او في السماء
الاترى في كل هذا الجلال ... غير نذير طالع بالفناء ؟ (١)

وهكذا يبدو شاعرنا في تأملاته متشائماً متشككا جبرياً خائفاً . ويؤكد هذا قوله وهو يتساءل :

والام تدفعنا الحوادث في عباب يلتطم
دفعت بموكبنا المقادير الخفية والقسم (٢)

وقوله :

ياحبيبي كل شيء بقضاء ... مابايدينا خلقنا تعساء
ربما تجمعنا اقدارنا ... ذات يوم بعدما عز اللقاء

او قوله :

ولكم صاح بي اليأس انتزعها ... فيرد القدر الساخر دعها (٣)

ويحتل الحب في تأملات ناجي مكانا رفيعا . وبه يتجلى كثير من مواقفه ازاء الحياة . ففي الحب يجد الطمأنينة ويستسلم إلى الراحة :

---

(١) الديوان : من قصيدة الحياة ص١٨٥- ١٨٦
(٢) الديوان : من قصيدة ليالي الارق ص٢٩٥ .
(٣) الديوان : من قصيدة ملحمة الاطلال ص٣٤٦ .

هذه الدنيا هجير كلها — اين في الرمضاء ظل من ظلالك
ربما تزخر بالحسن وما — في الدمى مهما غلت سرجمالك(١)

وفي رأي ناجي ان الحب هو السر في تعلقه بالحياة :

يافوادي العمر سفر وانطوى — وتبقت صفحة قبل النوى
ماالذي يغريك بالدنيا سوى — ذلك الوجه وذياك الهوى (٢)

وهكذا يرتبط الحب بالحياة ارتباط الروح بالجسد . وهذا ماعبرت عنه تأملاته في الكون والحياة .

وفي تأملاته امام مظاهر الطبيعة لاتستطيع احياناً ان تجد صورتين احداهما للشاعر ونفسه ، والاخرى لمظهر الطبيعة ، انما انت امام صورتين في صورة واحدة :

صورة للبحر ام صورة نفس — عندما النفس من اليأس تثور
قد علا الموج وقد عز التأسي — لم يعد الاعباب وصخور (٣)

مسائل فنية :

من خلال استقراء قصائد ناجي نستطيع ان نميز شعره بثلاث مسائل فنية هي صدق العاطفة، ودقة التصوير،وروعة الموسيقى واولى هذه المسائل : عاطفة رقيقة (لاتحتمل العنف وشدة الضغط) (٤) كما يقول طه حسين . وهذه العاطفة ينفرد بها شاعرنا انفرادا عجيباً ، دعت محمد مندور إلى ان يحكم على شعره كله من خلالها فيقول انه (قصيدة غرام) ؛ كما يقول محمود حامد شوكت (ان حرارة العاطفة ميزة ظاهرة في شعر ناجي) (٥) .

---

(١) الديوان : من قصيدة الخريف ص٩٤
(٢) الديوان : من قصيدة الخريف ص٩٦
(٣) الديوان :من قصيدة عاصفة ص١٨٤ .
(٤) انظر حديث الاربعاء ١٥١/٣
(٥) مقومات الشعر العربي ص٢٥٥

ودعت ابراهيم المصري بأن يرى ناجي (بالعاطفة يعيش ومن العاطفة يستلهم وفي سبيل الاحساس بالعاطفة وتصويرها يضرب في مناكب القاهرة ليلا ويغشى انديتها وملاهيها ويفرح ويهلل ويضحك ويبكي) (١) .

ويبالغ ابراهيم المصري في اثر العاطفة عند ناجي . فيعزو اليها كل ما يشعر به من سعادة وتشاؤم وشعور بالالم . (والحقيقة ان شدة احساس ناجي بالعواطف الرقيقة هي التي تضاعف شعوره بالالم عندما يعترض طريقه مشهد مؤثر او فاجعة رهيبة أو مجرد سماع انسان يشكو أو آخر يستجدى أو ثالث يتظاهر بالسعادة وفي عينيه أثر من مجاهدة الدموع . وهذا هو السر في تشاؤم ناجي وفي ازمات التمرد والسخط التي تنتابه) (٢) .

أما أحمـد هيكل فيرى ان عاطفة ناجي (عاطفة صادقة اولا لانه قد عاش كل تجاربه التي عبر عنها . ثم هي عاطفة مشبوبة ثانياً لانه قد أحس تجاربه بكل كيانه واخيراً هي عاطفة انسانية سمحة) (٣) .

وتحكم نعمات أحمـد فؤاد على ناجي فتراه (رقيقاً فياض العاطفة) (٤) .
ويراه أحمـد المعتصم بالله (شاعر الوجدان الذاتي) (٥) .

وهذه العاطفة التي ينفرد بها ناجي هي التي دعت صديقه الشاعر صالح جودت الى ان يطلق عليه (شاعر الرقة العاطفية) (٦) .

واما عبدالعزيز الدسوقي فيكتب عن احدى قصائده فيراها (انفجارات عاطفية حارة تسبح في جو من الرومانسية الحزينة) (٧) .

---

(١) صوت الجبل ص٤٠
(٢) المصدر نفسه ص ٤١.
(٣) مقدمة الديوان ص ٣٢.
(٤) ناجي الشاعر ص ٤١.
(٥) انظر كتابه : ناجي شاعر الوجدان الذاتي.
(٦) انظر بحثه : بلابل من الشرق .
(٧) جماعة ابولو: ص ٣٨٧.

ولهذا الاجماع دلالته الكبيرة التي لاتدع أي شك يتسرب الى الحكم على عاطفته الرقيقة التي صدح بها كل شعره .

واذا كانت ميزة شاعر على غيره لاتتم الا من خلال صدق التجربة وان هذه التجربة لايمكن ان تقوم الا بما يدفع اليها من العواطف الانسانية ، فان شعر ناجي حمل في اغلبه هذه العواطف التي جعلت من صاحبها شاعراً لينا هينا رقيقا كما يرى ذلك طه حسين .

والحق ان غزارة هذا الصدق العاطفي يتجلى في غنائه المتواصل بالحب والذي جاء انفجارات عاطفية يبالغ الشاعر في تصويرها حتى انه ليحقق فيها اتجاهاً انسانيا مثاليا يجسد فيه معنى الحياة في صورته المثالية حين يقول :

ذلك الحب الذي علمني ان احب الناس والدنيا جميعاً
ذلك الحب الذي صور من مجدب القفر لعيني ربيعا
انه بصرني كيف الورى هدموا من قدسه الحصن المنيعا
وجلالي الكون في اعماقه اعينا تبكي دماء لا دموعا(١)

واذا عرفنا من حياة ناجي انه كان شخصا رقيقاً وديعا يحب الناس ويعطف على المنكوبين ويقدس الحب من اجل الحب ، تأكد لنا صدقه وتجلت لنا عاطفته في هذا الحب .

والحق ان ناجي لم يكن شاعرا رقيق العاطفة فحسب وانما كان يجسد هذه العاطفة بالتجربة الصادقة التي لم تكن تفرض على الشاعر ابدا وانما كانت تتبع ممارسة أدت اليه في كثير من الاحيان ان يقع صريع ذلك الحب . فاذا هو يبكي ويشكو وتتأزم نفسه وتشتد عاطفته كما هو الحال في قصيدة (رسائل محترقة) التي تمثل تجربة حب عاثر جعله يجهز في حالة من حالات تأزمه النفسي على رسائل حبيبته فيحرقها ويحرق معها قلبه :

---

(١) الديوان : من قصيدة ظلام ص ٦٩ .

ذوت الصبابة وانطوت | وفرغت من آلامها
لكنني ألقى المنايا | من بقايا جامها
عادت الي الذكريات | بحشدها وزحامها
في ليلة ليلاء | ارقني عصيب ظلامها
هدأت رسائل حبها | كالطفل في احلامها
فحلفت لارقدت ولا | ذاقت شهي منامها
اشعلت فيها النار | ترعى في عزيز حطامها
تغتال قصة حبنا | من بدئها لختامها
احرقتها ورميت قلبي | في صميم ضرامها
وبكى الرماد الآدمي | على رماد غرامها (١)

ان هذه القصيدة التي ساقها شاعرنا في جو قصصي وثاب، يغلفه رمز شغاف يوحي به الشاعر لتجسيد اعماق حالته النفسية المتردية وهو يحرق شيئا عزيزاً عليه، هذه القصيدة تمثل تجربه عاشها الشاعر بعمق الوجدان ودفعت اليها عاطفة صادقة وهذه العاطفة ليست تعبيراً اعتيادياً عن صدق المشاعر لتأكيد التجربة الشعرية العميقة فحسب وانما هي تعبير من نوع خاص يجسد حالة التأزم النفسي التي مرت بالشاعر في احدى حالات اليأس ودفعت به إلى التمرد على اعز مايمتلك والا فهل يمكن للمرء ان يتصور اقدام شاعر الحب على تحطيم هذا الحب والعبث به ؟ لاأتصور ذلك .

ويطيب لي ان اسجل – قصيدة : « قلب راقصة » تأكيداً لهذه العاطفة التي يراها بعض النقاد تمثل عاطفة انسانية – لاؤكد على صدق تجارب شاعرنا تلك التجارب التي انتزعها من الحياة ... حياته هو ، حين كان يجوب الشوارع ويرتاد الملاهي ، ويرى ما فيها من صور الحياة الانسانية التي شدت نفسه اليها شدا عنيفاً ، بحيث صارت عنده موضوعاً حياتياً تجسد في هذه القصيدة

(١) الديوان : من قصيدة رسائل محترقة ص ٢٨٢.

التي اسماها (قلب راقصة) والتي يحكي فيها تجربة حقيقية وقعت له في احدى الليالي ، وكان يشكو ضيقاً ويعاني سأماً حادا من الحياة ويضطره ذلك الحال إلى ان يدخل ملهى للرقص فيصف ما فيه ويصف رواده وحالتهم وتوثبهم ، ثم يغري نفسه بمحاكاتهم ويحدثها فيقول :

انظر إلى السيقان عارية ... وترى الخصور ضوامرا تغرى
وتجد عيون اللهو جارية ... فهناك الحياة وانت لاتدرى

— — —

ثم يحكي ما جرى له مع غادة في الملهى بعد انتظار لها حتى آخر الليل واعتذارها له ووعدها بلقياه ، حتى اذا حان موعد اللقاء في اليوم التالي وصدق ما وعدت به قال :

وهممت بعد اليأس ان أمضى ... فاذا بها تختال عن بعد
ميزتها بشبابها الغض ... وبقدها افديه من قد

— — —

ياللقلوب لملتقى اثنين ... لايعلمان لايما سبب
جمعتها الدنيا غريبين ... فتالفا في خلوة عجب

— — —

عجباً لقلب كان مطعمه ... طرباً فجاء الامر بالعكس
واشتد ما في الكون اجمعه ... بين القلوب اواصر البؤس

— — —

من أنت يامن روحها اقتربت ... مني وخاطب دمعها روحي
صبته في كأسي وما سكبت ... فيه سوى أنات مذبوح

— — —

عجباً لنا في لحظة صرنا ... متفاهمين بغير ما أمد
يامن لقيتك أمس هل كنا ... روحين ممتزجين في الابد

— — —

هاتي حديث السقم والوصب وصفي حقارة هذه الدنيا
اني رأيت أساك عن كثب ولمست كربك نابضاً حيا

° °°

لاتكتمي في الصدر اسرارا وتحدثي كيف الأسى شاء
أنا لاأرى اثماً ولا عارا لكن ارى امرأة وبأساء (١)

°°

وبعد ان يتحدث عن حالها وبصف أساها من مشاعرها ، ويأسى لما رآه من فيض عينها ، وقد اشفق عليها مما هي فيه ، ويصف مشاعر حزنه وكلها أسى ولوعه . ومنطلقه في كل هذا مبدأ انساني لايرى في تلك المرأة عنواناً للدنس وانما ينظر اليها على انها ضحية قدر شؤوم القاها في احضان (خوانين انذالا) .

والحق اننا يمكن ان نرجع هذه النظرة الانسانية الى (النزعة الرومانسية المتأثرة بالاتجاه الذي أشاعه فكتور هوجو في غادة الكاميليا والذي يرى ان المرأة مخلوق بائس ضعيف ، وانها اذا سقطت فنحن والمجتمع مسؤولون عن هذا السقوط) .(٢)

وفي هذه القصيدة التي لم يتسع المجال لاثباتها برمتها لطولها (نحس بروعة التجربة الانسانية التي خاضها ناجي في قلب تلك الراقصة كغيرها من الراقصات اللائي يعشن في اضواء صناعية وقلوبهن تخفق في ظلام ليل لايأملن في انقضائه ، وفي القصيدة نلمح الانسان الشاعر ، فهو لم ينظر الى الراقصة نظرة عبث ولهو ولكنه ينظر اليها كانسانة تقاسي اعنف الالم بينما هي

(١) الديوان : من قصيدة قلب راقصة ص ٢٦٧.
(٢) محمود حامد شوكت ورجاء محمد عبد : مقومات الشعر العربي الحديث المعاصر ص ٢٥٣.

تضحك وتبيع السرور والوهم . فناجي شاعر الوجدان الذاتي لايقصر مطلقاً في ان يحيا في تجارب الآخرين كاعمق ماتكون الحياة ، وحتى لتصبح تجربة الراقصة هذه هي احدى تجارب الشاعر الذاتية ، وحتى ليبدع في وصف مشاعر تلك الراقصة وكأنه أحس هذه المشاعر ذاتها وعاناها معاناة حقيقية) . (١)

والحق ان هذه القصيدة لاتؤكد الرقة العاطفية التي اتخذت لها مساراً انسانياً لدى شاعرنا فحسب ، وانما تؤكد ان الشاعر كان ينسج تجاربه من حياته وحياة غيره من الذين تجمعه واياهم قسوة الظروف وعثار الايام . وهذا مادعى الشاعر المرهف (احمد زكي ابو شادي) لان يميزها بالروح الانسانية الرفافة ، بينما قال عنها السحرتي (ان هذه القصيدة رائعة في عواطفها وانفعالاتها المتنوعة). (٢)

ولعل مما يغري الباحث ان يتمثل به صدق العاطفة وشبوبها قصيدة الاطلال والتي نقتطع منها جزءاً واحداً من اربع وثلاثين جزء يقول فيه :

ياغراماً كان مني في دمي قدراً كالموت او في طعمه
ماقضينا ساعة في عرسه وقضينا العمر في مأتمه
ماانتزاعي دمعة من عينه واغتصابي بسمة من فمه
ليت شعري اين مني مهربي أين يمضي هارب من دمه (٣)

او ان يتمثل الباحث جزءاً بسيطاً من قصيدة (العودة) التي اجمع الدارسون والنقاد على روعتها وخلودها ، والتي قال عنها محمد مندور ، (انها من روائع النغم في الشعر العربي الحديث) . (٤)

---

(١) أحمد المعتصم بالله : ناجي ص ٣٩.
(٢) مصطفى السحرتي : الشعر المعاصر على ضوء النقد الحديث : ص ٢٤ .
(٣) الديوان : قصيدة ملحمة الأطلال ، ص ٣٤١ - ٣٤٧.
(٤) الشعر المصري بعد شوقي ص ٦٠ .

وهي قصيدة صور فيها ناجي احاسيسه بعد ان عاد الى دار حبيبته فوجدها قد تغيرت فقال فيها :

هذه الكعبة كنا طائفيها والمصلين صباحاً ومساء
كم سجدنا وعبدنا الحسن فيها كيف بالله رجعنا غرباء

° ° °

دار احلامي وحبي لقيتنا في جمود مثلما تلقى الجديد
أنكرتنا وهي كانت إن رأتنا يضحك النور الينا من بعيد

° ° °

رفرف القلب لجنبي كالذبيح وانا اهتف ياقلب اتئد
فيجيب الدمع والماضي البعيد لم عدنا ليت انا لم نعد

° ° °

لم عدنا او لم نطو الغرام وفرغنا من حنين وألم
ورضينا بسكون وسلام وانتهينا لفراغ كالعدم (١)

وفي هذه القصيدة يستطيع الشاعر ان يؤكد لنا عمق ممارسته لتجاربه في الحيـاة ، وهي تجارب خاضها بنفسه وعاشها بوجدانه ونسج كلماتها من نبض قلبه ، لان ملهمتها كما يقول صالح جودت وغيره ، هي حبيبته الاولى . وكان قد عاد الى داره بعد غياب طويل فوجدها قد تغيرت حالها وتبدلت معالمها ، لكن قلبه لم يكن يتغير وعاطفته الرقيقة لم تجف . والحق ان شعر ناجي من اشد الشعر العربي الحديث تجسيداً لممارسة التجربة وصدقها . وهذا مايجعلنا نلقي الضوء على هذه الناحية من شعره لكي نحفظ لأدبنا الخالد صورته ونحتفظ له بصوت صاحبه .

تلك كانت الناحية الاولى التي قلنا ان ناجي انفرد بها دون غيره . فأما الناحية الثانية فهي الصورة ، وقد اجمع اغلب الدارسين ايضاً على روعتها

(١) الديوان : من قصيدة العودة ص ٣٩.

في شعر ناجي ، حتى قال عنها احمد هيكل انها (حية نابضة نامية يحسن غالباً مزج الوانها وتوجيه خطوطها وتركيب عناصرها ، وربما كانت الصورة عنده اهم واقيم وسائله التعبيرية ، فهو فيها فنان مبتكر أولا ورسام بارع ثانياً ، وبناء يعرف كيف يركب هذه الصور آخر الامر) . (١)

ويقول احمد المعتصم بالله عن صور ناجي : (وقد تتفاوت صور ناجي في الوسامة والوضوح والالوان والمظاهر ، الا ان صفة واحدة تغلب عليها جميعاً ، وهي انها صور حية نابضة) . (٢)

والتصوير عند ناجي يمثل تياراً جديداً ، لانه قد هجر به الاسلوب المباشر الذي وجدناه عند شوقي وجيله ، فهو اذن يعتمد على الايحاء . اذيختفي خلف ثوب شفاف من الرمزية والسبب فيما نرى عمق انفعاله بتجاربه ، بحيث لم تعد اللغة المباشرة تكفي لتصوير ذلك العمق ، واستخراجه من مكنون النفس ، اما الرمز فباستطاعته ان يوحي الى الشيء المطلوب الذي اشرنا اليه . اما السبب الآخر فهو اطلاعه على الادب الغربي وتأثره به . ومعروف ان ناجي (قد اتصل بالرمزيين عن قرب . وترجم ديوان بودلير (ازهار الشر) . (٣) كما انه قرأ لشعراء الديوان وشعراء المهجر وتأثر بهم . وهذه اسباب تقوم كلها دليلا على ان شاعرنا قد سلك الرمز متأثراً من ناحية ، واصيلا من خلال تجسيد تجاربه العميقة التي لاتقوى اللغة الاعتيادية على ابرازها من ناحية اخرى ومهما يكن من امر هذا التعبير فان الذي يهمنا . كيف كان ناجي يؤدي صوره ؟

لعل أول ما يلفت نظرنا في تصوير ناجي هو تشخيص المعاني تشخيصاً حسياً تشعر معه انك بازاء أنسان . وانظر اليه كيف يجسد الشوق بقوله :

---

(١) مقدمة الديوان ، ص ٣٤ .

(٢) ناجي شاعر الوجدان : ص ٦٥.

(٣) أحمد المعتصم بالله : ناجي ص٦٤.

ومـن الشوق رسول بيننا ونديم قـدم الكأس لنـا

فالشاعر هنا منح الشوق صفة الانسان الذي يمشي ويتحرك .

واذا تحدث عن حبيبته ذكر رسائلها فشبهها بالطفل لانها عزيزة لديه ويرعاها كما ترعى الام طفلها ، فيقول :

هدأت رسائـل حبهـا كالطفـل في احـلامهـا

فحلفـت لارقـدت ولا ذاقـت شهـي طعـامهـا

أشعلـت فيها النار تـر عـى في عزيـز حطـامهـا

والابيات كما مر — تختفي وراء ثوب شفاف من الرمز لم يحل لشاعرنا ان يقدم قصة حبه مع الحبيبة إلا عن طريق الايحاء بمشاعره العميقة.ولعل من اشد المعنويات التي خصها ناجي بالتجسيد ، كل ما عبر عن الهم والالم والحزن . وغالباً ما يجسده شيئاً قاسياً مخيفاً معتدياً .. فالحزن له دمع أبدي يسقـي . الزهـرة :

وتـرى في عمق روحي زهره قد سقاها الحزن دمعاً ابدياً

ولعل هذه الزهرة هي الحبيبة لانها قد ارتبطت بالحزن وبالدمع .

ومن تأثر ناجي بالرمزيين استخدام (الوصف المعتمد على العلاقة بين الحواس بخاصة ، فهو يصف كثيرا المرئي بما يوصف به المسموع ، وينعت المسموع بما ينعت به المشموم ، ويخلع على المشموم ما يخلع على الملموس ثم هو يصف المحسوسات بصفات المعنويات والمعنويات بصفات المحسوسات) . (1) وها هو يجعل للصمت جناحين فيضفي عليه الحركة فيقول :

رفرف الصمت ولكن اقبلت من اقاصي السهل اصداء بعيدة

وذلك في تصوير نفسه بالضيق وشعوره بالضياع .

وفي البيت التالي جعل للشعاع ماء وللظلال ضفافا :

وشعاع طوفت في مائـه وظلال رسبـت في ضفاتيه

(1) مقدمة الديوان : ص ٣٥.

وذلك في تعبيره عن الراحة والطمأنينة . وحين يبالغ في انينه وشكواه يجعل للظلام صدراً يضيق بتلك الحال :

كأن صدر الظلام ضـــاق   من كثرة البث كـــل حيـــن
ياويحه كيف قد اطاق   شكوى البرايا على السنين (١)

ولشاعرنا اوصاف غريبة كأوصاف الرمزيين تماماً ، فالزمن يطول عنده ويقتصر حسب الوضع النفسي لحالته . فاذا عبر عن تعلقه بالحياة جعل الثواني – على قصرها – رحبة تتسع له ولحبيبته :

انا ان ضاقت بي الـدنيـا   لثوان رحبـة قد وسعتنـــا

واذا تحدث عن الدنيا وسعتها ، جعلها عباب يطفو هو فوقه :

انما الدنيـا عباب ضمنـا   وشطوط من حظوظ فرقتنا
ولقد اطفوا عليه قلقـــا   غارقاً في لحظة قد جمعتنا(٢)

وهكذا يجعل الحظوظ شطوطاً ايضاً .

واذا عبر ناجي عن وضع نفساني مرهق جد المعاني التفاتا للنظر وتجسيد للحالة النفسية كقوله :

السراب الخئوون والصحراء   والحيارى المشردون انضاء

وكقوله :

يطلع مرهقاً شاحب النــو   ر عليه الكلال والاعيـــاء
وبنفسي دب المساء وحل الليل   من قبل ان يحين المساء (٣)

اما إذا تحدث عن (رحلة في الظلام) فان صوره غالباً ما تتلفع بالقتامة ، وحالته لابد ان تنبىء بالتشاؤم ، ومن هنا جاءت صورة بعيدة عن المباشرة . وانما هي تنبىء وتوحي ، بل انها لتحليل القارىء إلى ظلال العبارات والصور

---

(١) الديوان : من قصيدة الليالي ، ص ٢٩٠ .
(٢) الديوان : من قصيدة الخريف ، ص ٩٥ .
(٣) الديوان : من قصيدة ملحمة السراب ، ص ٥٦ .

بحيث تستطيع من خلال هذا كله ان تشيع جوا من الرهبة والخوف لتعبر عن قسوة التجربة التي يمر بها الشاعر ، ولا يستطيع لها رداً بل انه لايستطيع - بعد ان عجزت لغته الاعتيادية - كشف حاله المحطمة ونفسه المتعبة الثقيلة الا بهذا الايحاء الذي يحدث اثرا نفسياً غامضاً .

ونحن نعتذر عن ايراد الابيات فقد سبق ان تمثلناها في صفحات سابقة(١) ولكننا سنسجل هذه الصور الغريبة التي اوحت بالحالة النفسية التي مر بها شاعرنا في تجربته القاسية ومنها :

(عويل الرياح) و (العواء المخيف) (هدير الامواج يعصف كالرعب)

(الفضاء الجهوم قبر ساخر) ولا شك ان هذه الصور فيها من القسوة والجفاء ما يوحي إلى نفس أنهكتها عوادي الزمن وعدت عليها عواصف السنين .

والحق ان (شعر ناجي مفعم بتلك الاوصاف الجديدة القائمة على طبيعة العلاقة بين الحواس ... ونرى في شعره امثال (الطعنة المجنونة) و (الليل الضرير) و (السراب الخئون) و (اللانهاية الخرساء) و (الاماني البيض) و (الهوى المجروح) و (المغرب الباكي) و (الخصر الجائع) . (٢) وهذه الاوصاف كلها اوصاف رمزية توحي بالشيء ولا تسميه.وهذا الايحاء هو وحده القادر على كشف الاحاسيس العميقة ، ولكنه لايوحي إلى القارىء بكل هذه الاحاسيس ، وانما يترك له ان يتخيل ويتصور ويشارك الشاعر في هذا التصور ولعل ما في الصورة التالية من ايحاء يحملنا على ان نحكم على عمق تجارب الشاعر على انه كان يعيشها بحرارة العواطف ورقة المشاعر وعمق الوجدان .

والذي يلاحظ على التصوير بالرمز لدى شاعرنا أن اغلبه جاء تجسيدا الحالات التأزم النفسي والشعور بالضياع والتعبير عن التشاوم المفرط . من ذلك قصيدة. (رحلة في الظلام) التي اشرنا اليها واوضحنا ما فيها من رمز شفاف والابيات

(١) القصيدة بعنوان رحلة في الظلام : الديوان ص ٧٨.
(٢) مقدمة الديوان ص ٣٥ - ٣٦.

التالية يمكن ان توضح هذا الاتجاه ، وقد جاءت لتجسيد وضع الشاعر المتأزم:

نزل الظلام فلات حين مقامي ... لم يبق غير مدامعي وسلامي
هبط العقاب على الديار ولفني ... في جنحه وأظلني بقتام
والسيل قد غمر المدائن والقرى ... وطغى كما يطغى العباب الطامي
نفسي تحدثني بأني مغرق ... لاحول لي في لجه المترامي
فلأى أرض بعد انقل متعباً ... قدمي واحمل هيكلي وعظامي
ضاقت علي الارض وهي مفازة ... فوق امتداد الظن والاوهام
سكنت سكون القبر ثم تناوحت ... فيها الرياح كساهر بسقام
ثكلى اذا أنت أحس كأنها ... راحت تدوى في صميم عظامي(٣)

ونحن هنا بازاء تجربه قاسية تعكس شعور الرجل بالخوف والهلع ، واحساسه بالضياع والتيه والضيق والارهاق والالم ، ثم الاستسلام ، وجاء هذا الشعور من العمق بحيث لاتستطع معه اللغة الاعتيادية ، ان تحقق رغبتنا في مشاركتنا الوجدانية له .

ومن هنا لجأ الى هذا الرمز الشفاف ليلقي الينا ببعض مايحس تاركاً لنا ان نستشف من وراء تلك الأوصاف والالفاظ ، مايحقق لنا المشاركة بل لنحقق اللذة والمتعة بذلك الاستكشاف . وهذا هو هدف من اهداف التعبير بالرمز الرومانتيكي . واذا كان مثل هذا الاسلوب ــ وهو التصوير بالايحاء ــ يؤكد نزوع ناجي الى التجديد ، فانه في الواقع لم يقف عند حدود هذه المسألة ، ذلك ان الشاعر يمتلك قدرة عجيبة على تجسيد المعنويات وانطاق مالايحس . وقد التفت الى هذه الناحية اغلب دارسيه . ولعل ذلك يتضح في تجسيده للحنين بقوله :

ويح الحنين وما يجرعني ... من مره ويبيت يسقيني
ربيته طفلا بذلت له ... ماشاء من خفض ومن لين

(٣) مجلة ابولو : مارس ١٩٣٣ ص ٧٥٤.

فاليــوم لمـا اشتـد ساعده وربـا كنـوار البساتـين
لم يـرض غـير شبيبتي ودمي زاداً يعيـش به ويفنيني (١)

واذا كان ؟ طـه حسـين قد استغرب هذا الوصف حين رأى أن (هذا المعنى نفسه يفسدها افساداً ، فالحنان يعظم حتى يملأ القلب ويغمر النفس ويؤثر في حياة الانسان فاما ان يتجسم فيصبح شخصاً ، فهذا كلام قد يفهمه الشعراء ولكن فهمه عسير على النقاد) (٢) وانه ايضاً قد استغرب تسمية الشاعر لديوانه (ماوراء الغمام) فذلك مما اخذه الدارسون على موقفه هذا ، لان مافيه لايمثل الغرابة في شيء ، وانما يمثل تجديداً في الافكار واستيعاباً وفهماً للاساليب الغربية الحديثة ، وعلى رأسها الرمزية والرومانتيكية . وهؤلاء الدارسون وعلى رأسهم مندور السحرتي وابراهيم المصري ونعمات احمد فؤاد،لم يقنعهم ما ذهب اليه ؟طه حسين سواء موقفه من هذه الابيات ونقدها ، او من تعليقه على اسم ديوان (ماوراء الغمام) او من اعتراضه على هذه الصورة التي وصف فيها ناجي سأمه وضجره وضيقه من الحياة فقال :

أمسيـت اشكـو الضيق والأينا مستغـرقاً في الفكـر والسأم
فمضيت لأدري الى أينا ومشيـت حيث تجرني قدمي (٣)

فطه حسين يزعم (ان الشاعر المجيد لايستقيم له الاستغراق في الفكر والسأم معاً ،فالمفكر لايسأم والسئم لايفكر ، لان التفكير يشغل صاحبه حتى عن الضيق والتعب والسأم ولأن السأم يمكن صاحبه من التفكير ولايخلي بينه وبينه وعلى كل فقد امسى الشاعر ضيقاً متعباً مغرقاً في السأم والتفكير فخرج لايدري إلى اين ، ومضى حيث تجره قدمه ، فانظر إلى هذه الصورة التي لاتلائم شعرا ولا تلائم لغة . فالقدم لاتجر صاحبها وانما تحمله متثاقلة مكدودة ان لم يتح لها

(١) الديوان : من قصيدة حنين ص ٣٢٢ .
(٢) حديث الأربعاء : ١٦٥/٣ .
(٣) الديوان : من قصيدة قلب راقصة ص ٢٦٧ .

النشاط ، وانما يجر صاحب القدم قدمه اذا خرج فاترا مكدوداً لايقوى على المشي ولكن الشاعر اراد قافية تلائم السأم فجعل قدمه تجره ، على حين كان ينبغي ان يجرها هو . فهذا النقد الجاري على منطق الفقهاء ابعد ما يكون من الفهم الدقيق لحقائق النفس البشرية ... فالسأم كما يكون نتيجة لفراغ النفس من كل فكر او احساس ، قد يكون ايضاً من اطالة التفكير واجتراره ، بل قد يكون منصباً على السأم نفسه ؛ كما ان التعبير بالقدم التي تجر صاحبها تعبير رائع دقيق لانه يوحي بالحالة النفسية التي كانت مسيطرة على الشاعر اكبر الايحاء فهو لا يسير عن قصد واراده وهدف بل يتحرك في شبه آلية وعندئذ تجره قدمه لا العكس كما يريد طه حسين بمنطق الفقيه) .(١)

ولا شك اننا نقف مع مندور في رده والا لأنكرنا كل تجديد يفد الينا من الخارج ، ولو اننا استنكرنا هذا على رأي طه حسين لكان علينا ان نستنكر كل الشعر الذي جرى وراء الرمزيين وغيرهم ممن تأثر بهم شعراؤنا وادباؤنا

ومهما يكن من امر هذا النقد والرد عليه فان الذي جر اليه هو شعر ناجي وجدير بشعر هذا الشاعر ان يثير من حوله نقدا يتعرض لقضايا لم تكن على بال نقادنا من قبله وقبل أمثاله من جماعة الديوان .

وآخر المسائل الفنية التي نود تسجيل خواطرنا بشأنها هي الموسيقى واذا كانت الموسيقى هي احدى عناصر الصياغة الشعرية فان اول مايجب ان تتميز به هو (الانفعال) وبدون هذا الانفعال يهبط الشعر الى مستوى التقريرية والنثرية وعندئذ يخرج من دائرة الشعر الجيد .

وقد حكم الناقد مصطفى عبد اللطيف السحرتي على موسيقى ناجي بانها من النوع الذي (يمتاز باصوات ارتكازية فتجمع بين النغمات العالية والمنخفضة) . (٢)

---

(١) محمد مندور : الشعر المصري بعد شوقي ، ص ٦١.
(٢) الشعر المعاصر على ضوء النقد الحديث ص ١١٣ .

وهذه الموسيقى تتنوع نغماتها بين العلو والهبوط وهي دلالة العاطفة التي ترتفع او تنخفض بناء على نوع التجربة التي تعبر عنها . ونحن نستطيع في القصيدة الواحدة ان نجد مثالا لهذه الموسيقى كقول الشاعر من قصيدة الاطلال وقد بدت عليه حالة الانفعال :

اعطني حريتي اطلق يدي	انني اعطيت مااستبقيت شيء
آه من قيدك أدمى معصمي	لم أبقيه وما أبقى علي ... الخ

ثم يقول بعد هذا المقطع مباشرة :

وهب الطائر عن عشك طارا	جفت الغدران والثلج أغارا (١)
هذه الدنيا قلوب جمدت	خبت الشعلة والجمر توارى ... الخ

فالبيتان الاولان يمثلان هذا الانفعال الشديد في لحظة من لحظات احتجاج الشاعر وتمرده ويبدو على موسيقاهما الشدة والعنف والقسوة التي دلت عليها (الشدة) - بفتح الشين - في قافية الابيات . كما دل على ذلك الملائمة التي حققتها الالفاظ والعبارات في انغامها ونبراتها مع الحالة الشعورية الطاغية التي اشرنا اليها والتي ميزت الفاظها وعباراتها بالقوة والشدة والعنف من مثل (اعطني حريتي) و (اطلق يدي) وقد جاءت بصيغة الطلب ، اوما تدل عليه كلمات (القيد) و (ادمى) و (معصم) وغيرها وهي كلها ذات نغم عال مرتفع يختلف كل الاختلاف عن النغم الهادىء الرقيق المهموس الذي تعبر عنه تعبيرات وكلمات مثل (الطائر) و (العش) و (جفت الغدران) و (قلوب جمدت) و (خبت الشعلة) و (الجمر توارى) ، واذا عبرت قافية البيتين الاولين عن الشدة والقسوة - كما اشرنا - فان موسيقى البيتين الاخيرين المنتهيين بألف الاطلاق قد عبرت عن النغم الهادىء الحزين - كما اسلفنا - واروع مايمثله هذا النغم الارتكازي الواضح قصيدة العودة التي يقول في احد مقاطعها :

(١) الديوان : من قصيدة الأطلال ص ٣٤٤

هذه الكعبة كنـا طـائفيها والمصلين صبـاحـاً ومساء
كم سجـدنـا وعبدنا الحسن فيها كيـف بـالله رجعنا غرباء

ففي هذين البيتين - كما يتضح - موسيقى ناعمة هادئة حزينة ، تسيل أس وتقطر حزنا وألماً بما تشيعه كلماتها وتوحي به صورها وهي - كما نرى تختلف عن النغم الحاد الشديد العنيف الذي تمثله ابيات المقطع الآخر الذي يقول :

رفرف القلب بحبي كالذبيح وانا اهتف : ياقلب اتئـد
فيجيب الدمع والماضي الجريح لم عدنا ليت أنا لم نعـد

ولا شك ان موسيقى هذين البيتين تمتلك من القوة والشدة والارتفاع مالا تمتلكه موسيقى البيتين الاولين ويكفي ان يقارن الدارس بين الفاظهما وعباراتهما وما انتهت اليه قافية كل منهما ليستدل على الفرق الذي اشرنا اليه .

واذا كانت الموسيقى تتصل اتصالا وثيقاً بالافكار وتعبر عنها بما تمتلك من نغم وايقاع وانها ايضاً (تساير موضوع القصيدة او تتوائم مع التجربة الشعرية وان خيرها كما يقول سبنسر - ما تتمشى مع التجربة الشعرية وتتساوق مع المعاني ، وتتجاوب الوان نغماتها ونبراتها مع حالات النفس (١). فان هذه لابد ان تختلف من حالة إلى حالة طبقاً للحالة الشعورية ونوع التجربة وحالاتها المختلفة ، ففي حالة التعبير عن الحزن والاسى وبث الانين والشكوى يختلف التعبير الصوتي فيكون طويلا ممتدا ذا نغم حزين ونبرات رقيقة ، وتكون الكلمات لينة هينة هفهافة وذلك كله يكون تعبيرا عن الحالة النفسية المتعبة كقول ناجي في قصيدة يأسي على كأس :

اصبحت من يأسي لوان الردى يهتف بي ، صحت به هيـا
هيا فما في الارض لي مطمح ولا أرى لي بعدها شيـا
ماذا بقائي ههنا بعـدما نفضت منه اليوم كفيـا
اهرب من يأسي لكأسي التي أدفن فيها ألمي الحيـا

(١) مصطفى عبد اللطيف السحرتي : الشعر المعاصر على ضوء النقد الحديث ص ١١٥ .

يأأيها الهارب من جنتي   تعال او هات جناحيا

نبكي شبابينا ونبكي المنى   وترتمي بين ذراعيا (١)

وهذه الموسيقى – فيما نرى – أشبه بالموسيقى الجنائزية بما امتلكت من نغم شجي حزين والفاظ رقيقة هفهافة وبما عبرت به الفاظها عن يأس الشاعر من الحياة وهروبه من الواقع من مثل (يأسي) و (نفضت) و (أهرب) و (كأسي) و (المي) و (ادفن) و (الهارب من الجنة) و (نبكي شبابينا) و(نبكي المنى) وغيرها من العبارات والالفاظ التي احتشدت لتجسد أسى الشاعر ويأسه والمه وحالته المحطمة ، ويكفي ايضاً ان تعبر هذه الابيات عن التجربة الصادقة والعاطفة النبيلة التي تميز بها ناجي في شعره .

اما في حالة التعبير عن الفرح والبهجة والسرور فيكون التعبير الصوتي سريع الايقاع وتكون الكلمات قوية متدفقة توحي بالانشراح وتعبر عن الحالة النفسية السعيدة كقول ناجي من قصيدة سمراء المحفل :

فلكي ومحرابي وقد   س فؤادي المتبتل

لمن الجمال الفخم بر   فل في الغلائل والحلي

متألقاً في خاطري   متألقاً في المحفل

• •   • •

طر حيث شئت فان دنو   ت لناظري فتمهل

واها لهذى الطلعة الس   مراء عند المجتلي

بغلائل الاضواء وشـ   تها رقاق الانمل

وشت بشاشتها نضا   رة وجهك المتهلل

فكأن طفل الفجر نا   م على وسادة جدول (٢)

---

(١) الديوان ص ٣٤٩ .

(٢) الديوان ، قصيدة سمراء المحفل ص ٢٥٠.

وهذه الابيات تحمل وفرة من معاني النشوة والفرح وتستجيب لمطلب نفسي معين يختلف عن مطلب الابيات السابقة كما رأينا .

وهذه الظاهرة – ظاهرة الملائمة بين الموسيقى وبين الافكار والموضوعات –تحقق تماماً ما قصد اليه السحرتي في كلامه عن الموسيقى وهو يقول: (ان غاية ما يقصد اليه هو اختيار القالب الموسيقي الذي يتفق مع الفكرة والموقف فكل فكرة أو موقف يستلزم قالباً خاصاً ، ومضمون الموقف يتطلب ايقاعات خاصة متماثلة مع ما ينطوي عليه الموقف من حالات نفسية مختلفة – وانفعالات منوعة) . (١)

وموسيقى ناجي لاتتعامل مع الاذن وانما تتحدث مع النفس واقصد بهذا أنها موسيقى داخلية تتفاعل مع العواطف والمشاعر اكثر مما تقف عند حدود الصوت فرنينها بعيد واثارتها لاتقف عن حد الصدى وانما هي تنفذ الى اعماق الوجدان والعاطفة ولذلك كثرت في لغته الالفاظ المهموسة ذات التأثير الايحائي ومن ذلك قوله في قصيدة ظلام :

افرحي ما شئت ياروحي افرحي   انشدي ما نقلتـه الطير عني
واغنمي نفح الصبا وانتقلي   في الصبا المراح من غصن لغصن
وعلى ايكك ناغى كل مـن   مر بالايك ونادى كل خدن
لن يحبوك كحبي لن ترى   ضاحكاً مثلي ولا حزناً كحزني(٢)

واذا كانت مادة هذه الموسيقى هي الالفاظ الموحية المعبرة فانها عند ناجي لا تعرف المباشرة وانما ترسم وتوحي ويختفي وراءها عالم من الخواطر بعيد . ويكفي ان نشير الى بعض تعابيره الايحائية التي وردت في قصائده . فمن ذلك تعبيره عن الظلام بـ (العواء المخيف) و (هدير الامواج) (وعصف الرعب) و (الوحدة الخرساء) و (الفضاء الجهوم) . وقد عبر عن الخريف

---

(١) الشعر المعاصر على ضوء النقد الحديث ص ١٤٠.
(٢) الديوان ! ص ٧٠ .

ببعض الصور من مثل (جفاف الروض)و (الظلال القاتمة) و (الغيوم)و (موت الروض) .

وقد رصد محمود حامد شوكت مسألة التراكيب اللغوية في شعر ناجي وقال عما ور د منها في قصيدة (رسائل محترقة) (ويلاحظ في هذه القصيدة التراكيب اللغوية الجديدة ومذاقها الفني ودلالاتها النفسية والعاطفية مع اتساق في النغم وتالفه مواكباً تدفق العاطفة والحس الوجداني) . (١) وقد وردت القصيدة في مكان سابق . ومما يدل على ارتفاع "اللغة الشعرية عند ناجي وما تؤدي اليه من نغم متميز هذه الملاءمة بينها وبين الموضوعات وانواع التجارب والتي لاتحتاج من القاريء الى ان يقف طويلا ليكتشف هذه العلاقة وهي لاتبدو علاقة مصطنعة وانما صميمة واصيلة ونظرة سريعة الى الالفاظ التي انتهت بها قافية قصيدة (ذنبي) التي ورد ذكرها سابقاً تقنع القاريء بما نقول ، وهذه الالفاظ هي : السماء ، الصفاء، الضياء، السناء ،الرواء، الشقاء، الرجاء، النداء ، وغيرها والقصيدة تعبير عن الحب الروحي الذي يربط الشاعر بحبيبته .

وتبقى مسألة اخرى لابد من الاشارة اليها لانها تتعلق بالموسيقى بل تشكل عنصراً مهماً منها ، تلك هي الاوزان . فعلى الرغم من ان ناجي لم يجدد فيها الا قليلا — كما سنذكر — الا انه هجر وحدة الوزن التي حافظ عليها شعراء التيار المحافظ ، فقد نظم بعض قصائده في اكثر من وزن واحد . لكن الاهم من هذا ما قيل من ابتداعه وزنا جديداً نظم به قصيدة (عاصفة الروح) التي افتتحها بقوله :

ايـن شـط الـرجـاء يـا عـبـاب الـهـمـوم
لـيـلـتـي انـــواء ونـهـــاري غـيـــوم

(١) مقومات الشعر العربي ، ص ٢٥٤.

اعولي يا جراح اسمعي الديان
لا يهم الرياح زورق غضبان

وهذا نظم كما يقول عنه الدارسون . من نصف وزن البحر المتدارك (١) واما بالنسبة للقافية فقد تحرر منها ناجي على الرغم من محافظته عليها في بعض قصائده . ولم يسلك فيها طريقه معينة فأحياناً ترد مزدوجة واحياناً تأتي رباعية وتأتي في بعض الاحيان متغيرة كل مجموعة من الابيات لكنها في كل حالة كانت منسجمة — الى حد بعيد — مع طبيعة القصيدة وموضوعها وهذه الظاهرة لها دلالة وهي انها تعبر عن شخصيته القلقة المتنقلة التي لم تثبت على حال ، وهي مهما كان القصد منها فتعبير عن ناحية من نواحي التجديد التي شكلت في شعره اصالة متميزة .

مراجع البحث

١ . ابراهيم المصري ، صوت الجيل ، القاهرة ، ١٩٣٤ .
٢. ابراهيم ناجي ، ديوان ناجي ، القاهرة ، ب . ت .
٣. أحمد المعتصم بالله ، ناجي شاعر الوجدان الذاتي ، القاهرة ؛ ب .ت.
٤. طه حسين ، حديث الاربعاء ، ج٣ القاهرة ، ١٩٦٥.
٥. عبدالعزيز الدسوقي ، جماعة ابولو واثرها في الشعر الحديث ؛ القاهرة ١٩٦٠ .
٦. ماهر حسن فهمي ، الحنين والغربة في الشعر الحديث ، القاهرة ، ١٩٧٠ .
٧. محمد عبدالمنعم خفاجي : دراسات في الادب العربي الحديث ومدارسه . القاهرة ، ب . ت .

(١) نعمات أحمد فؤاد : ناجي الشاعر ص ١٠٣ واحمد المعتصم بالله ص ٦٧ واحمد هيكل : الديوان ص ٣٧.

٨. محمد عبدالمنعم خفاجي : دراسات في الادب المقارن ، القاهرة .ب.ت
٩. محمد غنيمي هلال ، الادب المقارن ، القاهرة ، ١٩٧٠ .
١٠. محمد غنيمي هلال : الرومانتيكية ، القاهرة ، ١٩٧٣ .
١١. محمد غنيمي هلال : الحياة العاطفية بين العذرية والصوفية ، القاهرة ، ط ٢ ، مكتبة الانجلو المصرية ، ١٩٦٠
١٢. محمد مندور : الادب ومذاهبه ، القاهرة ، ب . ت .
١٣. محمد مندور : الشعر المصري بعد شوقي ، القاهرة ، ١٩٥٧ .
١٤. مصطفى عبد اللطيف السحرتي : الشعر المعاصر على ضوء النقد الحديث ، القاهرة ، ١٩٤٨ .
١٥. محمود حامد شوكت ورجاء محمد عيد : مقومات الشعر العربي الحديث والمعاصر ، القاهرة ، ب . ت .
١٦. نعمات احمد فؤاد ، ناجي الشاعر ، القاهرة ، ١٩٥٤ .
١٧. مجلة آداب الرافدين بحث (مظاهر الرومانتيكية في شعر محمود درويش) الموصل ، العدد : ٢ ، ١٩٧١ .
١٨. مجلة الاديب ، مقال لمصطفى عبداللطيف السحرتي بعنوان (غزل ناجي) ، ج ٧ ، ١٩٥٦ .
١٩. مجلة ابولو ، عدد مارس ، ١٩٣٣ .
٢٠. مجلة الهلال ، عدد يونيو ، ٩٧٧، مقال بعنوان (خمس قصائد مجهولة لشاعر الاطلال ابراهيم ناجي ، لحسن توفيق) .

الدكتور حازم طه

أفعال ثلاثية أصلها مزيد



وناعم البال ، (١) أي في رخاء من العيش على سبيل المجاز والاصل في «هبال» ان تفيد هاؤه هنا السلب والازالة كما . تفيد همزة أفعل (٢) احيانا فيكون معناه فقد العقل الذي يفيده الاسم «بال» .

وقد اختزل هذا الفعل إلى « هبل » بدليل ورود اسم فاعل منه على صيغة فاعل ، وسنشير اليه فيما يأتي ، ثم كسرت باؤه فصار على زنة فعل فقيل « هبل» وما يزال المعنى الاصلي لهذا الفعل واضحاً في طائفة من استعمالاته، كما (في حديث ام حارثه بن سراقة : « ويحك أوهبلت » هو بفتح الهاء وكسر الباء وقد استعماره ههنا لفقد الميز والعقل لما اصابها من الثكل بولدها ، كأنه قال أفقدت عقلك بفقد ابنك) (٣) .

ويبدو ان هذا الفعل الجديد قد ارتبط في غالب الاستعمال بفقد الام عقلها او اضطراب خاطرها ونفسها اذا ما فقدت ولدها وثكلته، حتى انه اصبح وحده يدل على « السبب والنتيجة» معاً ، اي على فقد الام عقلها بفقدها ولدها .

ومن هذه المادة الجديدة المتطورة عن المزيد بالهاء كما اسلفنا ، اشتق اسم على وزن « أفعل » فيقال « الاهبل » بمعنى (فاقد التمييز) . (٤)

ولم يكن هذا الفعل يؤدي معنى السلب والازاله فحسب ، وانما كان يفيد كذلك وجود اصل معنى الفعل فيه وقد بقي ذلك في نحو . « هابل » اسم فاعل من هبل ، أي المحتال ولا يخفي ما يتميز به المحتال من العقل وحدة الخاطر. و « هبّال» صيغة مبالغة ، أي كثير الكسب ، قال ذو الرمة : (٥)

---

(١) المصدر نفسه : مادة (بول) ١٣/٧٨ .

(٢) أنظر شرح الشافية ١/٨٣ .

(٣) لسان العرب : مادة (هبل) ١٤/٢١١ .

(٤) تاج العروس : مادة (هبل) ٨/١٦٣ .

(٥) لسان العرب : ١٤/٢١١ .

وقد استقلت كل لغة من اللغات السامية بعد انفصالها عن اللغة الام — أي السامية الاولى — بأحد هذه الاحرف ، وبقيت فيها بقايا من الاحرف الاخرى. فاستقلت العربية بالهمزة ، وبقيت في لهجاتها بقايا من الاحرف الاخرى .

واول مانتناوله في هذا البحث هو المزيد بالهاء الذي من بقاياه « هراح » ماشيته : بمعنى (اراح) . و«هراد» بمعنى (أراد) . و« هقام» بمعنى (أقام) . و «هنار» النار : بمعنى (أنارها) و«هنار» الثوب : بمعنى (علمه) (١).

وقد علل اللغويون القدامى بان العرب قد تبدل من الهمزة هاء ، ومن الهاء همزة للقرب الذي بينهما من حيث انهما من اقصى الحلق . وخص الزبيدي هذا الابدال بالمعتل من الافعال ، اذ لم يقولوا في اعلم مثلا هعلم ؛ ولا في أكرم هكرم (٢) .

أولا : المزيد بالهـاء

أ. افعال اصولها جوفاء

١ . هرق :

يفيد « هرق» معنى «اراق» أي (صب الماء ونحوه) (٣) و « هرق » ثلاثي اختزل من « هراق » المزيد بالهاء ، حيث تقوم الهاء فيه مقام الهمزة في « اراق» و «اراق» هو المزيد بالهمزة من (راق الماء : انصب : والسراب : جرى وتضحضح فوق الارض) (٤) .

وقد فطن الازهري الى ان « الهاء» في «هراق» ليست بأصلية : انما هي بدل همزة «اراق» واستدل على ذلك بتحركها في (تهريق ، ومهراق) (٥).

---

(١) تاج العروس : مادة (هرق) ٩٥/٧ .

(٢) المصدر نفسه ٩٥/٧ .

(٣) أنظر لسان العرب مادة (روق ، وريق) ٤٢٣/١١، ٤٢٤، ٤٢٥ ... ٤٢٧ .
ذهب بن برى إلى ان الاصل (روق) بالواو لانه يقال بـ راق الماء روقاناً : انصب وحكى الكسائي : اراق الماء يريق : انصب ، أى ان اصله من (ريق) . المصدر نفسه ٤٤٧/١١؛

(٤) المصدر نفسه ٤٢٧/١١ .

(٥) تهذيب اللغة : مادة (هرق) ٣٩٦/٥ .

وذهب اللحياني الى انها (لغة يمانية ثم خشت في مصر) (١)
ومذهب اللحياني له وجه مقبول اذ ان بعض اللهجات اليمنية القديمة تستعمل الهاء للتعدية كما اشرنا ، ولعلها دخلت بعض اللهجات العربية الشمالية من اليمن .
ولم تفطن طائفة من المتكلمين بها الى ان «الهاء» فيها بدل من همزة التعدية فأضافوا الهمزة عليها وقالوا : «أهراق يهريق أهراقه» فاجتمع فيها حرفا تعدية «الهمزة العربية والهاء اليمنية» ولم يفطنوا الى ان «الهاء» كالهمزة يؤدي وظيفة التعدية .

واذا كان من العرب من اختزل «هراق» الى «هرق» — كما اشرنا فقد اصبحت في اعتبار المتكلمين من بعد ثلاثية ، لاثنائية مزيدة بالهاء من «راق» (وعلة ذلك هو كثرة استعماله حتى تنوسي في الهاء معنى الزيادة وصارت كأنها اصل من اصول الكلمة) (٢) . ثم اشتقوا منها اوزاناً اخرى مزيدة فقالوا : «هرّق» على وزن «فعّل» كما في مثل العرب يخاطب به الغضبان : هرق على جمرك او تبيّن . (٣) اي اصبب ماء على نار غضبك او تثبت .
وقالوا : اهرق الماء يهرقه اهراقاً على افعل يفعل افعالاً .

ويؤيد هذا ايضاً قول سيبويه (ابدلوا من الهمزة الهاء «يقصد» من اراق» ثم الزمت فصارت كأنها من نفس الحرف «يقصد الكلمة» ثم ادخلت الالف بعد على الهاء وتركت الهاء عوضاً عن حذفهم حركة العين ، لان اصل اهرق اريق) . (٤)

---

(١) لسان العرب ٤٢٢/١١ .
(٢) تاج العروس : مادة (هرق) ٩٥/٧ .
(٣) لسان العرب : مادة "هرق" ٢٤٤/١٢ .
(٤) لسان العرب : ٢٤٤/١٢ ، ٢٤٥ .

٢ . هبش

(هبش الشيء : جمعه) (١) (معنى متعد) . وأصلهمزيد بالهاء اي هباش٠ (الذي لم تذكره المعاجم) من «باش» الذي ورد ايضا بتصحيح العين«بوش» . وتفيد هذه المادة في صيغتها المجردة من الهاء معنى الكثرة والاختلاط (معنى لازم) . فباش القوم أو بوش : اختلطوا في ضجيج أو كثروا واختلطوا . وباش فلان : صحب البوش : وهم الغوغاء (٢) ، والجماعة الكثيرة .

ويبدو ان لهجة من اللهجات العربية القديمة التي كانت تستخدم هذه الصيغة المفترضة (هباش٠) قد اختزلتها الى«هبش»ثم تنوسي ان الهاء مزيدة فيها (أنظر هراق وهرق في المادة السابقة) وعدت ثلاثية فاشتقوا منها كما يشتق من الثلاثي :

أ. المصدر : « هبش »

ب. واسم مفعول : «مهبوش» . قال رؤبة :

« اعدو لهبش المغنم المهبوش »

ج. وصيغة فعال للمبالغة : «هباش» بمعنى مكتسب جامع .

وكذلك اشتقوا منه اوزانا مزيدة كالتي تشتق من الثلاثي ، فقالوا:

أ. هبش ، بمعنى (جمع) على وزن (فعل)

ب. تهبش ، بمعنى (تجمع) على وزن (تفعل)

ج. واهتبش بمعنى (اجتمع) على وزن (افتعل) (٣)

---

(١) لسان العرب ٢٥٥/٨، ٢٥٦، وتاج العروس :مادة (هبش) ٣٦٦/٤

٠٠ هذه العلامة تدل في علم اللغة الحديث على ان الصيغة مفترضة لم ترق نص .

(٢) تاج العروس : مادة (البوش) ٢٨٤/٤ .

(٣) لسان العرب ٢٥٦/٨

٣. هذ ب

(هذب الشيء يهذب هذبا : سال) (١)
هذا هو المعنى الاصلي الذي يفيده هذا الفعل .

وقد وردت له معان فرعية منها : نقّى وطهّر وصفّى (٢)
والفعل مزيد في الاصل بالهاء اي «هذّاب» من الفعل ذاب بمعنى «سال» ايضا.

وقد وردت له معان اخرى مجازية منها : (ذابت الشمس : اشتد حرها قال ذو الرمة :

اذا ذابت الشمس اتقى صقراتها بافنان مربوع الصريمة معبل

وذاب علينا بنو فلان : اى اغاروا ....) (٣)
وقد اختزل هذا الفعل المفترض «هذاب» إلى «هذب» فظنوا ان الهاء أصليه وعدوه ثلاثيا مجردا .

والذي نلاحظه ان «هذب» يفيد معنى لازما وهو «سال» كما يفيد فعل وافعل في بعض الافعال معنى واحدا . كالفعل «بدأ» «بدأ الله الخلق يبدأهم بدأ ، وابدأهم ابداء . وقال الله عز وجل : «قل سيروا في الارض فانظروا كيف بدأ الخلق» (٤) . وقال عز وجل: «اولم يروا كيف يبدىء الله الخلق» (٥) . فهذا من أبداء (٦) . والفعل «صاب» (صاب السهم واصاب : اذا وقع في الرمية) (٧) وغير ذلك من الافعال التي على «فعل وافعل» . وتفيد معنى واحدا .

---

(١) لسان العرب : مادة "هذب" ٢/٢٨١ .
(٢) المصدر نفسه ٢/٢٨٠
(٣) تاج العروس : مادة (هذب) ١/٥١٣ .
(٤) سورة العنكبوت آية/٢٠ .
(٥) سورة العنكبوت آية/١٩ .
(٦) كتاب فعلت وأفعلت للزجاج ص ٣٠ .
(٧) المصدر نفسه ص ٢٥ .

وكذلك يفيد هذب (معنى متعديا) وهو نقاه وأخلصه وصفاه وفهره وليست الصلة بين هذه المعاني والمعنى اللازم«سال»ببعيدة لان السيولة تستتبع في الغالب النقاء والصفاء على عكس الركود.وما من ريب ان الماء السائل انقى واصفى من الماء الراكد .

وبعد استعمالهم «هذب» على انه فعل ثلاثي اشتقوا منه كما يشتق من سائر الافعال الثلاثية . فقالوا :

أ. هذب : على وزن «فعل» نقاه واخلصه ، وكذلك «أسرع» ولايخفى معنى الاسراع الذي يفيده هذا الوزن نظر فيه الى ان«السيولة والسرعة» اللتين اشرنا اليهما سابقاً متلازمان غالبا ،فالماء السائل على عكس الراكد ومن خصائصه السرعة والتدفق والتتابع .

ومهذب:اسم مفعول منه ، أي المخلص النقي المطهر من العيوب .
والتهذيب : مصدره ...... والخ .

أهذب : على وزن «أفعل» بمعنى أسال
يقال : (أهذبت السحابة ماءها : اذا أسالته بسرعة : قال ذو الرمة :
ديار عفتها بعدنا كل ديمة دروز وأخرى تهذب الماء ساجر) (١)
ويفيد أهذب مثل هذب معنى أسرع ايضا ومنه . أهذب الانسان في مشيه ، والفرس في عدوه والطائر في طيرانه : أسرع (٢)

٤. هبل

هذا الفعل اصله «هبال» المزيد بالهاء من الاسم « بال » الذي يفيد معنى القلب والخاطر والنفس والحال ، يقال : فلان في بال رخي ،

---

(١) لسان العرب ٢/٢١١ .

(٢) المصدر نفسه ٢/٢٨٠ .

وناعم البال ، (١) أي في رخاء من العيش على سبيل المجاز والاصل في «هبال» ان تفيد هاؤه هنا السلب والازالة كما . تفيد همزة أفعل (٢) احيانا فيكون معناه فقد العقل الذي يفيده الاسم «بال» .

وقد اختزل هذا الفعل إلى « هبل » بدليل وردود اسم فاعل منه على صيغة فاعل ، وسنشير اليه فيما يأتي ، ثم كسرت باؤه فصار على زنة فعل فقيل « هبل» وما يزال المعنى الاصلي لهذا الفعل واضحاً في طائفة من استعمالاته. كما (في حديث ام حارثه بن سراقة :« ويحك أوهبلت » هو بفتح الهاء وكسر الباء وقد استعماره ههنا لفقد الميز والعقل لما اصابها من الثكل بولدها ، كأنه قال أفقدت عقلك بفقد ابنك) (٣) .

ويبدو ان هذا الفعل الجديد قد ارتبط في غالب الاستعمال بفقد الام عقلها او اضطراب خاطرها ونفسها اذا ما فقدت ولدها وثكلته ، حتى انه اصبح وحده يدل على « السبب والنتيجة» معاً ، اي على فقد الام عقلها بفقدها ولدها .

ومن هذه المادة الجديدة المتطورة عن المزيد بالهاء كما اسلفنا ، اشتق اسم على وزن « أفعل» فيقال « الاهبل » بمعنى (فاقد التمييز) . (٤)

ولم يكن هذا الفعل يؤدي معنى السلب والازاله فحسب ، وانما كان يفيد كذلك وجود اصل معنى الفعل فيه وقد بقي ذلك في نحو . « هابل » اسم فاعل من هبل ، أي المحتال ولا يخفي ما يتميز به المحتال من العقل وحدة الخاطر. و « هبّال» صيغة مبالغة ، أى كثير الكسب ، قال ذو الرمة : (٥)

---

(١) المصدر نفسه : مادة (بول) ٧٨/١٣ .

(٢) أنظر شرح الشافية ٨٣/١ .

(٣) لسان العرب : مادة (هبل) ٢١١/١٤ .

(٤) تاج العروس : مادة (هبل) ١٦٣/٨ .

(٥) لسان العرب : ٢١١/١٤ .

وقد استقلت كل لغة من اللغات السامية بعد انفصالها عن اللغة الام ــ أي السامية الاولى ــ بأحد هذه الاحرف ، وبقيت فيها بقايا من الاحرف الاخرى. فاستقلت العربية بالهمزة ، وبقيت في لهجاتها بقايا من الاحرف الاخرى .

واول مانتناوله في هذا البحث هو المزيد بالهاء الذي من بقاياه « هراح » ماشيته : بمعنى (اراح) . و«هراد» بمعنى (أراد) . و« هقام» بمعنى (أقام) . و «هنار» النار : بمعنى (أنارها) و«هنار» الثوب : بمعنى (علمه) (١).

وقد علل اللغويون القدامى بان العرب قد تبدل من الهمزة هاء ، ومن الهاء همزة للقرب الذي بينهما من حيث انهما من اقصى الحلق . وخص الزبيدي هذا الابدال بالمعتل من الافعال ، اذ لم يقولوا في اعلم مثلا هعلم ، ولا في أكرم هكرم (٢) .

أولا : المزيد بالهاء

أ. افعال اصولها جوفاء

١ . هرق :

يفيد « هرق» معنى «اراق» أي (صب الماء ونحوه) (٣) و « هرق » ثلاثي اختزل من « هراق » المزيد بالهاء ، حيث تقوم الهاء فيه مقام الهمزة في « اراق» و «اراق» هو المزيد بالهمزة من (راق الماء : انصب ، والسراب : جرى وتضحضح فوق الارض) (٤) .

وقد فطن الازهري الى ان « الهاء» في «هراق» ليست بأصلية ، انما هي بدل همزة «اراق» واستدل على ذلك بتحركها في (تهريق ، ومهراق) (٥).

(١) تاج العروس : مادة (هرق) ٩٥/٧ .
(٢) المصدر نفسه ٩٥/٧ .
(٣) أنظر لسان العرب مادة (روق ، وريق) ٤٢٣/١١، ٤٢٤، ٤٢٥ ... ٤٢٧ .
ذهب بن برى إلى ان الاصل (روق) بالواو لانه يقال : راق الماء روقاناً : انصب وحكى الكسائي : اراق الماء يريق : انصب ، أى ان اصله من (ريق) . المصدر نفسه ٤٤٧/١١
(٤) المصدر نفسه ٤٢٧/١١ .
(٥) تهذيب اللغة : مادة (هرق) ٣٩٦/٥ .

٣. وهجر في نومه اذا خلط في نومه ، واذا هذى . وذلك ان الهذيان هو قول غير الحق فهنا يظهر ايضاً معنى العدول والميل عن الحق .

وهذا المعنى الاخير يوضحه قوله عز وجل :(ان قومي اتخذوا هذا القرآن مهجوراً) (١) أى قالوا فيه غير الحق (٢)

ومن هذا الفعل الجديد « هجر » اشتقوا صيغة على وزن « أفعل » فقالوا : (أهجر به اهجارا : استهزاء به وقال فيه قولا قبيحاً) (٣)

والمعنى الذي تفيده هذه الصيغة « افعل به» في المثال الذي ذكرناه لا يخرج كثيرا عن نطاق المعنى الذي اوردناه في آخر معاني هجر ، والقرب بين المعنيين نلحظه في اختلاف القراء في قوله تعالى (مستكبرين به سامرا تهجرون.(٤) فتهجرون – بضم التاء – تقولون القبيح . وتهجرون – بفتح التاء – تهذون

وقرأ بن عباس : (٥) (تهجرون) من اهجرت . وهذا من الهجر ، وهو الفحش .

وقال الفراء : (وان قرىء تهجرون) بفتح التاء جعل من قولك هجر الرجل في منامه اذا هذى . أي أنكم تقولون فيه ما ليس فيه وما لايضره فهو كالهذيان) (٦) وروي عن أبي سعيد الخدري انه كان يقول لبنيه : اذا طفتم بالبيت فلا تلغوا ولا تهجروا يروى بالضم والفتح . قال أبو عبيد : معناه لاتهذوا . (٧)

---

(١) سورة الفرقان آية ٢٥ .
(٢) لسان العرب : مادة (هجر) ١١٣/٧ .
(٣) المصدر نفسه ١١٣/٧ .
(٤) سوزة : المؤمنون آية ٢٣ .
(٥) لم اجد قراءة ابن عباس هذه في كتب القراءات التي توفرت لي وانما جاء في كتاب المحتسب: وقرأ ابن مسعود وابن عباس وعكرمة (يهجرون) ، وروي عن ابن محيصن (يهجرون) المحتسب لا بن جني ٩٦/٢ .
(٦) لسان العرب ١١٣/٧ .
(٧) المصدر نفسه ٧ / ١١٣ .

ب. فعل أصله مضاعف

٦. هرم

تفيد مادة « رمّ» معنى عاماً وهو البلى والتقطع .

يقال :

١. رمّ العظم ، يرم رمة : أي بلي .
٢. ورمّ الحبل : تقطّع . (١)
٣. رممت الشيء أرمه رما : اذا اصلحته (٢) . ذكره الجوهري وعلى ذلك فهو من الاضداد (٣)

والظاهر انه اشتق مزيد منه قديماً بالهاء « هرّم » الا ان هذا المزيد عد من بعد ثلاثياً ،وعدت الهاء في اوله اصلية.ويدلنا التقارب بين هرم ورم في المعنى على مابينهما من نسبة قديمة .

فالفعل « هرم يهرم هرماً ومهرما » ، يفيد بلوغ اقصى الكبر . والعلاقة بين اقصى الكبر والبلى بينة واضحة بذاتها لاتحتاج الى دليل .

على ان هذه المادة الجديدة « هرم »قد اتخذت اصلا لافعال مزيدة أخرى فيقال :

١. أهرمه الدهر وهرّمه : أي جعله يبلغ اقصى الكبر كما في قول الشاعر:
اذا ليلة هرّمت يومها أتى بعد ذلك يوم فتي
٢. وهرّم اللحم : قطعه قطعاً صغاراً . (٤) وهذا المعنى يذكرنا بمعنى « رمّ الحبل » تقطع .

ثانياً : المزيد بالسين

سبق ان ذكرنا ان السين تستعمل في اللغات السامية استعمال الهمزة في

---

(١) لسان العرب : مادة (رمم) ١٤٣/١٥ .

(٢) المصدر نفسه ١٤٣/١٥ .

(٣) لم يذكر ابن الانباري (الاضداد ، الكويت ١٩٦٠ ص ٨٧) ان رم من الاضداد ، وانما ذكر"أرم" أي المزيد بالهمزة ، فيقال : أرم العظم ، اذا بلي ، و أرم العظم ، اذا صارفيهمخ .

(٤) لسان العرب : مادة (هرم) ٩٠/١٦ .

وزن أفعل في العربية . وقد بقيت لهذه السين آثار في العربية بعضها مايزال على هيئته الاولى ، أي ان زيادة السين بينة واضحة ، وبعضها الآخر قد اتحد بجذر ثنائي حتى انه عد ثلاثياً من بعد واشتقت منه اوزان مزيدة شأن سائر الافعال الثلاثية المجردة مع انه مزيد في الاصل كما أشرنا .

ومن الافعال المزيدة بالسين التي بقيت في العربية ، وزيادة السين فيها واضحة لاتلتبس . الفعل (سقلب) الذي يعني « صرع »(١) فهو نظير (أقلب) (٢) الشيء ، أي حوله ظهراً لبطن ، وكبه . فالهمزة هنا زائدة وهي نظير السين في سقلب ، لان أصل مادته (قلب) (٣).

على ان اقوى الدلائل على وجود المزيد بالسين قديماً في العربية هو وزن (استفعل) فهو المطاوع بالتاء من (سفعل) الذي ضاع من العربية وبقيت منه آثار أشرنا الى واحد منها آنفاً أقصد (سقلب) المأخوذ من مادة (قلب).

وها نحن أولاء نعرض لافعال مزيدة بالسين اصولها جوفاء ، او ناقصة، أو مضاعفة .

أ. فعل اصله اجوف

١. مادة (سرح)

سرح أصله «سراح» مزيد بالسين من راح الذي يفيد معنى السير مطلقاً. قال الازهري : (سمعت العرب تستعمل الرواح في السير كل وقت) (٤) . ويؤيد قول الازهري الحديث النبوي(من راح الى الجمعة في الساعة الاولى)(٥)، أي من مشى اليها وذهب الى الصلاة . غير ان من العرب من يجعل الرواح بعد الزوال فيقولون : راحت الابل تروح وتراح ، أي تأوى

---

(١) لسان العرب . مادة (سقلب) ٤٥٢/١ .
(٢) المصدر نفسه : مادة (قلب) ١٧٩/٢ .
(٣) رايت ص ٤٦ .
(٤) تهذيب اللغة : مادة (راح) ٢٢١/٥ وانظر لسان العرب مادة (روح) ٢٩١/٣ .
(٥) لسان العرب ٢٩٢/٣ .

بعد غروب الشمس الى مراحيها الذي بقيت فيه . وفي حديث عثمان رضي الله عنه (روّحتها بالعشيّ) (١) .

اما سرح المختزل من « سراح » فكان اول الامر يفيد معنى متعدياً فيقال : سرحت مافي صدري (٢) . أي أخرجته . ثم انقلب لازماً يفيد معنى الذهاب (بالغداة) فيقال سرحت أسرح سروحاً ، اي غدوت قال جرير :

واذا غدوت فصبحتك تحية   سبقت سروح الشاحجات الحجل (٣)

ويكاد سرح يختص بالماشية والانعام فيفيد خروجها بالغداة الى المرعى، ثم اشتق منه (السرح) : الملل الراعي . والمسرح . اي الموضع الذي تسرح اليه الماشية بالغداة للرعي .

فالمعنى الجامع اذن بين (راح وسرح) هو (الذهاب) الذي بقي في راح على اطلاقه عند قوم ، وخصّ بالسير في العشي عند آخرين . أما سرح فتخصص بالذهاب في الغداة .

ومن ثم قوبل غالبا بين الفعلين في الاستعمال . فيقال : سرحت الماشية بالغداة وراحت بالعشي .

وقد اشتقت أبنية مزيدة من سرح باعتبار انه صار ثلاثياً . نذكر منها على سبيل المثال سرّح على وزن « فعّل » ومنه : سرّحت فلاناً الى موضع كذا (أرسلته) .

ب. أفعال أصلها ناقص

٢. مادة سبق

---

(١) المصدر نفسه ٢٩٢/٣ .
(٢) المصدر نفسه ٣٠٨/٣ .
(٣) المصدر نفسه ٣٠٧/٣ .

تفيد مادة سبق معنى التقدم (١) . وفي الحديث : (أنا سابق العرب) (٢) أي متقدمهم الى الاسلام ، وتستعمل ايضاً استعمالا مجازياً ، فيقال : سبق على قومه (٣) ، أي علاهم كرماً .

فالفعل (سبق) اصله مزيد بالسين من الناقص (بقي) .

والصلة بين دلالتي سبق وبقي مازالت واضحة . ذلك ان بقي يفيد معنى الترك والتخليف اي ترك بعض الشيء كالطعام ونحوه .

وهذه الدلالة واضحة في الاوزان المزيدة من بقي فيقال : استبقيت من الشيء اي تركت بعضه ، والمبقيات (٤) من الخيل ، وهي التي يبقى جريها بعد انقطاع جري الخيل . قال الكلحبة اليربوعي :

فأدرك ابقاء العرادة ظلعها وقد جعلتني من حزيمة أصبعاً

ويستفاد من هذه الدلالة الاخيرة ان ابقى كان يفيد ما يفيدة (سبق) اي التقدم على الاخرين ، فالمزيد بالهمزة مثل المزيد بالسين قديماً . اذ ان ما يفيد سبق هو ان السابق خلف من معه وتقدم عليهم ، او بعبارة اخرى كأنه ابقى عليهم في مكانهم فتجاوزهم .

وقد كثر استعمال سبق مع الخيل حتى اننا لانجد ان العرب قد اطلقت على الخيل (السابقات) ، ويؤيد ذلك تفسير الزجاج قوله تعالى (فالسابقات سبقاً) (٥) فقال : (هي الخيل) (٦) ، وهذا ما يفيده لفظ المبقيات المشار اليه.

ومن سبق بني (استبق) فيقال : (استبق القوم : فخاطروا وتناظلوا) (٧) ومنه قوله تعالى (واستبقا الباب) (٨) معناه ابتدرا الباب يجتهد كل واحد

---

(١) معجم مفردات الفاظ القرآن : مادة سبق ص ٢٢٨ .
(٢) لسان العرب : مادة (سبق) ١٦/١٢ .
(٣) المصدر نفسه ١٨/١٢ .
(٤) لسان العرب : مادة (بقي) ٦٨/١٨ .
(٥) سورة النازعات : آية/٤ .
(٦) لسان العرب ١٦/١٢ .
(٧) المصدر نفسه مادة (سبق) ١٧/١٢ .
(٨) سورة يوسف آية/٢٥ .

منهما ان يسبق صاحبه . ومعنى المجاوزة والترك واضح في قوله تعالى (فاستبقوا الصراط) (١) اي جاوزوه وتركوه حتى ضلوا .

٣. مادة سبق

يفيد الفعل سلقى ما يفيده ألقى ، يقال : (سلقاه على ظهره ، أي القاه على ظهره) (٢) ، فهو اذن كألقى ؛ مزيد من لقي . ولكن سلقى قد اختزل ايضاً في العربية إلى (سلق) فأصبح ثلاثياً في عرف المتكلمين بالعربية واشتقت منه اوزان مزيدة كما يشتق من الافعال الثلاثية اصلا يقال (تسلق) ، كما في بات فلان يتسلق على فراشه ظهراً لبطن: اذا لم يطمئن عليه من همّ او وجع اقلقه.(٣)

ولا يصح الخلط – كما تفعل المعاجم – بين مادة (سلق) الاصلية التي تفيد معنى الصعود – وهي ثابتة في السريانية (٤)، فهم يطلقون(السلاق) (٥)على عيد من اعيادهم النصرانية ويقصدون به تسلق المسيح عليه السلام إلى السماء(٦) وبين سلق المشتق من (سلقى) الذي يفيد معنى الالقاء على الظهر وما اليه .

٤. مادة سطح

تدور معاني مادة سطح حول البسط والامتداد . فيقال سطح الله الارض سطحاً،اى بسطها (٧) . وسطح الرجل وغيره : اى اضجعه وصرعه فبسطه على الارض . ومن سطح ترد اوزان مزيدة منها : (انسطح) على وزن (انفعل)

---

(١) سورة ياسين آية/٣٦ .
(٢) لسان العرب ٢٩/١٢ .
(٣) المصدر نفسه ٢٩/١٢ .
(٤) المصدر نفسه ٢٩/١٢ .
(٥) الجواليقي في المعرب ص ١٢٩ : (السلاق) بالتشديد : عيد للنصارى اعجمي تعرفه العرب . وورد في الحاشية : ذكره البيروني في الآثار الباقية ص ٣٠٨ في اعيادهم وقال وبعد الفصح باربعين يوماً عيد " السلاق " ويتفق ابداً يوم الخميس ومنه تسلق المسيح مصعداً إلى السماء من طور زيتا .
(٦) لسان العرب ٢٩/١٢ .
(٧) المصدر نفسه مادة (سطح) ٣١٤/٣ ...

يفيد معنى امتد على قفاه ولم يتحرك (١) وانبسط . ومثله في المعنى (تسطح) على وزن (تفعل) .

والظاهر ان هذا الفعل مزيد بالسين في اصل وضعه من (طحا) الذي يفيد ايضاً معنى الاضطجاع والبسط . كما في قوله تعالى (والارض وما طحاها)(٢) اى بسطها . وطحاه يطحوه . بسطه . وكذلك طحاه يطحيه (٣) .

قال الفراء : (٤) طحاها ودحاها واحد . قال شمر معناه ومن دحاها فأبدل الطاء من الدال قال دحاها وسعها ، وطحوته مثل دحوته اى بسطه (٥). ويقال : ضربه ضربة طحا منها ، اى امتد . وقال :

« له عسكر طاحي الضقاف عرمرم » (٦)

وفي طحا لغتان : لغة تجعله معتل اللام بالواو فيقال : طحا يطحو ، ولغة اخرى تجعله من المعتل اللام بالياء فيقال : طحا يطحي .

وعلى اي اللغتين فأصل سطح كما قلنا هو المزيد القديم سطحى الذي صار في زمن ما الى سطح ، واحتفظ عبر العصور بما تفيده مادته الاصلية طحا من معان ؛

ج. افعال اصلها مضاعف :

١. مادة : سخف

تدل مادة سخف على الخفة والرقة ، فكل مارق قد سخف ، ولا يكاد

---

(١) المصدر نفسه ٣١٢/٣ .
(٢) سورة الشمس : آية/٦ .
(٣) معجم الفاظ القرآن الكريم مادة (ط ح أ) ١٣٠/٢ .
(٤) جاء في معاني القرآن ٢٦٦/٣ قال من ذلك : تلاها وطحاها ودحاها لما ابتدأت السورة بحروف الياء والكسر اتبعها ما هو من الواو . وجاء في تهذيب اللغة ١٨٣/٥ قال الفراء : طحاها ودحاها واحد . مادة (طحا) .
(٥) لسان العرب : مادة (طحا) ٣٢٧/١٩ .
(٦) المصدر نفسه ٣٢٨/١٩ .

يستعمل سخف الا في رقة العقل ونقصانه خاصة قال الشاعر :

وأمك حين تذكر أم صدق   ولكن ابنها طبع سخيف (١)

ولكن قد يقال : ثوب سخيف أي رقيق النسج ، وسحاب سخيف أي رقيق .

وسخفة الجوع : رقته وهزاله . وجاء في حديث اسلام ابي ذر (انه لبث اياماً فما وجد سخفة الجوع ، أي رقته وهزاله) (٢) .

وهذه المادة قوية الصلة بمادة (خف) التي تستعمل ضد الثقل ، وتستعمل للدلالة على ذلك فيما يتصل بالجسم وللعقل غالباً . هذا الى ان العرب تقول: خفّ المطر ، اذا نقص . وخفّ القوم خفوفاً أي قلوا (٣) .

ويبدو اذن ان خفّ هي أصل سخف بزيادة السين المناظرة للهمزة . فكان اول الامر سخف ثم عد ثلاثياً بمرور الزمن ، وعدت السين أصلية. وعليه اشتقوا من سخف المتطور عن سخفّ كما اشرنا ـ مزيداً بالهمزة وقالوا : أسخف على وزن أفعل ومنه أسخف الرجل : رق ماله وقل ، قال رؤبة :

« وان تشكيت من الاسخاف » (٤)

ويشتق منه على وزن (فاعل) ساخف فيقال : ساخفة (٥) أي حامقه ، ومعنى الخفة العقل واضح هنا ايضاً .

٢. مادة سطر :

تفيد مادة سطر معنيين اساسين . الاول الكتابة . كما في قوله تعالى (ن والقلم

---

(١) اساس البلاغة مادة (سخف) ٤٢٩/١ .

(٢) لسان العرب مادة (سخف) ٤٦/١١ .

(٣) لسان العرب ٤٢٧/١٠ .

(٤) لسان العرب مادة : (سخف) ٤٦/١١ .

(٥) المصدر نفسه ٤٦/١١ .

وما يسطرون) (١) . والثاني : القطع ، فيقال سطر فلان فلاناً بالسيف اذا قطعه به . (٢) ومنه قيل لسيف القصاب ساطور (٣) .

ويبدو ان هذه المادة تضم فعلين مختلفين بأصلهما الاول ثلاثي أصيل وهو سطر بمعنى كتب والثاني مزيد بالسين قديم أي سطر الذي أصبح بمرور الزمان ثلاثياً سطر : والاصل الذي زيدت عليه السين هو المضاعف طر الذي يفيد معاني مختلفة وثيقة الصلة بمعنى سطر الثاني ، فيقال : طرّت يداه ، أي سقطت ، وطرّ الابل ساقها سوقاً شديداً وطردها . (٤)

والصلة واضحة بين السقوط والسوق الشديد من ناحية والصرع من ناحية اخرى ، ويفيد طرّ ايضاً معنى القطع والقص الذي يفيدهما كذلك سطر جاء في الحديث : انه كان يطر شاربه أي يقصه . (٥)

وبعد

فاننا قد استعرضنا نماذج من الافعال الثلاثية التي ترد الى افعال ثنائية الاصل وقد صدرت بالهاء او السين ثم ادى بها التطور اللغوي الى ان تصبح ثلاثية يجري عليها مايجري على الفعل الثلاثي من ضروب الزيادة والاشتقاق . وليس من المستطاع استقصاء كل الافعال المزيدة في الاصل في هذا البحث . ولكن اجتزأنا عددا منها لنوضح به ما اثبتناه في صدر كلامنا وقد يتألف لنا — لو استقصينا ماشبه ذلك من افعال — كتاب قائم بنفسه .

---

(١) سورة القلم : آية/١ .
(٢) لسان العرب مادة (سطر) . ٢٨/٦ .
(٣) لسان العرب مادة (سطر) ٣٢٧/١٢ .
(٤) لسان العرب ١٧١/٦ .
(٥) المصدر نفسه ١٧١/٦ .

المصادر والمراجع

١ . اساس البلاغة : الزمخشري . دار مطابع الشعب / القاهرة ١٩٦٠.
٢ . الاضداد : ابن الانبارى . تحقيق محمد ابي الفضل ابراهيم . دار المطبوعات والنشر / الكويت ١٩٦٠ .
٣ . تاج العروس : محمد مرتضى الزبيدي . دار ليبيا للنشر والتوزيع بنغازي.
٤ . تهذيب اللغة : الازهري جـ٥ . تحقيق الدكتور عبدالله درويش . مراجعة علي النجار . الدار المصرية للتأليف والنشر .
٥ . شرح الشافية : رضي الدين الاستراباذي . تحقيق محمد نور الحسن، ومحمد الزفزاف ومحمد محيي الدين عبد الحميد . مطبعة حجازي القاهرة ١٣٥٨ هـ .
٦ . فعلت وأفعلت : الزجاج تحقيق محمد عبد المنعم خفاجي (نشر ضمن فصيح ثعلب وشروحه) المطبعة النموذجية القاهرة ١٩٤٩ .
٧ . القاموس المحيط : الفيروز أبادي . المطبعة الحسينية / القاهرة ١٣٣٠ هـ
٨ . الكتاب : سيبويه جـ٤ . تحقيق عبد السلام هارون . الهيئة المصرية للكتاب القاهرة ١٩٧٥ .
٩ . لسان العرب : ابن منظور . المطبعة الكبرى الميرية / القاهرة ١٣٠٠هـ.
١٠. اللغات السامية : تيودور نولدكه . ترجمة الدكتور رمضان عبد التواب مطبعة دار النهضة العربية ـ القاهرة .
١١. المحتسب : ابن جني . تحقيق علي النجدي ناصف والدكتور عبد الفتاح شلبي ـ القاهرة ١٩٦٩ .
١٢. معاني القرآن : الفراء جـ٣ تحقيق عبد الفتاح اسماعيل شلبي الهيئة المصرية العامة للكتاب ـ القاهرة ١٩٧٢ .
١٣. معجم الفاظ القرآن : مجمع اللغة العربية ـ الهيئة المصرية العامة للتأليف والنشر القاهرة ١٩٧٠ .

١٤ . معجم مفردات الفاظ القرآن : الراغب الاصفهاني . نديم مرعشلي. دار الكاتب العربي .
١٥ . المعرّب : ابو منصور الجواليقي . تحقيق : احمد محمد شاكر ـ طبعت بالاوفست . طهران ١٩٦٠ .
(١٦) موسكاتي :
S. Moscati, An Introduction to The comparative Grammar of the Semitic Languages, Wiesbaden 1964
(١٧) رايت :
W. Wright, A Grammar of the Arabic Language, Gambridge 1971



الدكتور عمر محمد





مقدمة

لكي ندرس نتاج الاديب علينا أن نفهمه كانسان أولاً ، لان العلاقة بين النص والتجربة الشعورية التي خلقته علاقة جدلية دائماً .

وقد عنيت الدراسات القليلة التي كتبت عن محمود سامي البارودي ، بالناحية الفنية في شعره وريادته لبعث الشعر العربي دون العناية بسبر اغوار نفسه لاستخلاص تجاربه الشعورية التي ولدت شعره .

وقد اختلف المؤرخون في وطنية محمود سامي البارودي ، فقد شارك في الثورة العرابية ونفي مع زعمائها الى سيلان . فمنهم من اتهمه بالطمع للوصول الى الحكم . ومنهم من دفع عنه هذه التهمة معللا انه آمل في الوصول الى الحكم في شبابه . ولكنه شارك في الثورة العرابية بدافع وطني .

ومن هنا بدأت دراستي هذه كاشفاً النقاب عن البارودي الانسان لانتقل منها الى دراسة فنية لادب البارودي (النزعة الفنية في شعر البارودي) والتي تمثل القسم الثاني من الدراسة . ونظراً لضيق المجال في مجلة آداب الرافدين أرجأت نشر القسم الثاني إلى فرصة اخرى .

ولا اعتبر هذه الدراسة نهائية بل هي محاولة جديدة لدراسة نفسية الاديب من خلال شعره ارجو ان اكون قد وفقت فيها ، واذا ما فاتني التوفيق فهي لاتخلو من فائدة يمكن ان يبني عليها الدارسون في المستقبل دراسة أعم واشمل .

البارودي والطموح :

ولد البارودي في السادس من تشرين الاول عام ١٨٣٨من اسرة جركسية(١) « تجري في عروقها دماء الامراء من دولة المماليك الجراكسة الذين حكموا مصر قرابة قرن ونصف القرن ، ١٣٨٢ – ١٥١٧». (٢) وكان البارودي شديد الاهتمام بنسبه حتى انه صرف مبلغاً كبيرا من المال وراجع نصوصاً كثيرة حتى خرج بنسبه من ناحية امه وسجلها (بحجة الوقف الشرعية المسطرة في محكمة مصر والمؤرخة ١٨ من ذى القعدة عام ١٠٩٧هـ وكما في حجة التغيير المؤرخة ١٨ من صفر عام ١١٩٥هـ إلى نوروز الاتابكي الملكي الاشرفي اخي برسباى قرا المحمدي » . (٣)

والغالب في هؤلاء المولدين ضياع نسبهم وغموض منشئهم لضعف الرابطة العائلية بينهم . لان الرجل منهم ينتسب إلى مالكه او رئيسه او يعرف بلقب يلقبونه به ومن هنا ضاعت اصولهم واصبح تحقيقها امرا صعباً . لذا استغرب بعض الباحثين ثبوت نسب البارودي كما سجله في حجة الوقف وانتسابه إلى نوروز الاتابكي فقال : « ونستغرب ثبوت هذه النسبة للاسباب التي قدمناها من ضياع اسم العائلة عندهم حتى نوروز هذا فانه لاينتسب إلى ابيه وانما يعرف بانتسابه إلى الملك الاشرف ومنها اسمه الملكي الاشرفي ، وقد كان في ذلك العصر جماعة يعرفون بهذا الاسم كل منهم ينتسب إلى صاحبه . (٤)

(١) الجراكسة : طبقة من المولدين الذين وفدوا إلى مصر بعد ان غزا التتار بلادهم ودمروها وساقوا اهلها جماعات الى اسواق الرقيق واستكثر سلاطين مصر وذوو النفوذ من شرائهم وكانوا بعد شرائهم ينتسبون اليهم فيحملون اسماءهم ويرثون عنهم بالولاء مناصبهم واموالهم وحتى نساءهم وكانت رابطة الولاء للسيد والوطن الجديد أقوى من رباط الاسرة والوطن الأم .الحديدى محمود سامي البارودي ص ٢٥ – ٢٦ .

(٢) الحديدي ص ١٥ .

(٣) مقدمة ديوان البارودي شرح الامام .

(٤) جرجي زيدان تراجم مشاهير الشرق في القرن التاسع عشر جـ ٢، ص ٢٩٤ .

اما امه فاطمة هانم البارودية فهي الوريثة الوحيدة لعلي أغا البارودي – بعد موت اخيها ابراهيم – الذي قتله محمد علي في مذبحة القلعة عام ١٨١١ . وكان والده حسن حسني من الضباط الذين شاركوا في الجيش المصري اثناء الحرب المصرية العثمانية والتي دارت فوق الاراضي السورية وسارت حتى شارفت اسوار الاستانة ثم اصبح من امراء المدفعية وصار مديرا لبربر ودنقلة في عهد محمد علي وتزوج وهو في السادسة والعشرين من عمره بفاطمة البارودية التي كانت تكبره بثمانية عشر عاماً وانتسب إلى اسرتها التي كانت تفوقه في الجاه والغنى – على عادة المماليك وتقاليدهم – « واصبح منذ زواجه يعرف بحسن البارودي بدلا من حسن حسني الجركسي الألفي فهو بارودي ولاءاً لانسباً » (١) وقد اضيف إلى اسمهم لفظ البارودي نسبة إلى (اتاي البارود) لانها كانت من (التزام احد اجداده ، في عصر الالتزامات) . (٢)

ولم يرتح الوالد لتعيينه مديرا لبربر ودنقلة في السودان ، فقد كانت منطقة موبوءة فأصيب بحمى واحس بقرب أجله . وتوفي بعد اربعين يوماً من تسلم منصبه الجديد (٣) وكان عمر ولده محمود سامي سبع سنوات فقط .

وكان ليتمه في هذه السن المبكرة الاثر الكبير في نفسيته فقد أحس بنقص كبير يكتنف نفسه فهو من اولئك الذين لم ينعموا بنعمة الابوة التي فقدها في بواكير عمره ونتيجة لهذا الشعور تفتحت في نفسه حساسية كبيرة وكبرياء عظيمة لتعوض الشعور الذي يحسه « وعرضه موت ابيه لتجربة مبكرة بالحياة والناس وما فيها من شعور تمتلىء به النفوس من ظلم وغدر ومكيدة وعدم وفاء . وهي تجربة ظلت آثارها السيئة تعيش في نفس الصبي حتى كبر ثم انفعل بها فرددها في شعره ولم تزدها الايام واحداثها الا تأكيدا ففقد الثقة بالاصدقاء وظل يبحث عن الخل الوفي مع العنقاء » . (٤)

(١) الحديدي ، ص ٢١ .
(٢) جرجي زيدان ، المصدر السابق ، ص ٣٩٤ .
(٣) الحديدي ، ص ٢٢ .
(٤) الحديدي ، محمود سامي البارودي شاعر النهضة ، ص ٥٠

وقد ظهرت احاسيسه على شكل فخر اكتنف شعره ، فخر بأبيه فخراً يكاد يصل حداً عظيماً وشعر شعوراً طاغياً بعظمة اصله ونسبه مع احساس داخلي بأن مقتل جديه لأمه وأبيه وموت ابيه كان مسببهم واحداً هو محمد علي كبير الاسرة الخديوية . وبدأ ينمو حقده الدفين على هذه الاسرة منذ صغره دون ان يستطيع الافصاح عنه في اول الامر ولكن ما ان تسنح الفرصة مع قيام حركة الضباط وتبلورها في عهد اسماعيل وتوفيق حتى يكشف عن مكنون نفسه ضد الاسرة الخديوية .

وسنناقش هذه الظاهرة فيما بعد وفي مكانها المناسب ، فهو يقول في رثاء والده :

لافارس اليوم يحمي السرح(١) بالوادي طاح الردى بشهاب الحرب والنادي
مات الذي ترهب الاقران صولته ويتقي بأسه الضرغامة العادي

من هو قرينه الذي يتقي صولته ؟ أليس هو الاسد الجائر المعتدي ؟ ترى من هو أليس محمد علي نفسه ؟ القاتل ، مدبر مذبحة القلعة . الخائن لمن وثقوا به وقبلوا دعوته فأخذهم على حين غرة ؟ فلماذا لايتقي صولة هذا الفارس الشجاع « حسن حسني » — كما يتصوره ابنه محمود سامي — ويرسله الى حيث لارجعة . الى منطقة تكثر فيها الاوبئة والامراض ليموت هناك ويتخلص من صولته ؟ ومحمد علي يخاف هذه الصولة فقد قتل اباه عبدالله الجركسي الألفي في مذبحة القلعة ايضاً . فله عليه ثأر لايمحى . هذا بالاضافة الى شجاعته ومقدرته . ألم يختر مع خمسمئة من اترابه ليدخلوا المدرسة الحربية التجهيزية بالقصر العيني اول انشائها عام ١٨٢٥ . (٢) وكثيرا ماحدثته امه عن شجاعة ابيه حسن حسني وابلائه في حرب الانضول وتقدمه مع الجيش المصري الى حصون الاستانة للاستيلاء عليها عندما قاد ابراهيم باشا جيش والده

(١) السرح : الانعام التي ترعى الكلاء .
(٢) الحديدي ، ص ٢٩ .

الفاتح . لذا لايجد الشاعر اثراً للخير بعد موت والده فقد هانت الدنيا واستشرت الضلالة وجف الخير والعطاء وماتت الحياة في الاحياء .

هانت لميتته الدنيا وزهدنا ... فسرط الأسى بعده في الماء والزاد
هل للمكارم من يحيي مناسكها؟ ... أم للضلالة بعد اليوم من هادي
جف الندى وانقضى عمر الجدا(١) ... وسرى حكم الردى بين ارواح واجساد
مضى وخلفني في سن سابعة ... لايرهب الخصم ابراقي وارعادي
اذا تلفت لم ألمح أخا ثقة ... يأوى الي ولا يسعى لانجادي

هذا الاحساس بالضعف وعدم القدرة هو الذي دفعه الى الشك بجميع الناس فهو لايجد بينهم من يثق به لأنه لم ير احداً منهم سعى لحمايته ابان ضعفه وحاجته للرعاية (٢) غير امه التي حبته بعاطفة عظيمة كثيراً ماكانت تدفع في نفسه القوة والشجاعة والاباء .

فالعين ليس لها من دمعها وزر(٣) ... والقلب ليس له من حزنه فادي
فان أكن عشت فردا بين آصرتي(٤) ... فهأنا اليوم فرد بين أندادي

وسرعان ما ظهر على شكل كبرياء متضخم بنفسه وبأبيه وبأصله.

فما مددت يدى الا لمنح يد ... ولا سعت قدمي الا لأسعاد
تبعت نهج أبي فضلا ومحمية (٥) ... حتى برعت وكان الفضل للبادي
أبي ومن كأبي في الحي تعلمه ... اوفي واكرم في وعد وايعاد(٦)
مهذب النفس ، غراء شمائله ... بعيد شأو العلا ، طلاع انجاد(٧)
قد كان لي وزر آوي اليه اذا ... غاض المعين وجف الزرع بالوادي

---

(١) الجدا : العطاء والفضل .
(٢) انظر ديوان البارودي ج١ : ١٣ ، ١٦ ، ٢٢ ، ٣٩ ، ٦٢ ، ٦٥ ، ١١٤ ، ٢٢١-٢٢٢-ج٢ : ١٤ ، ١٥ ، ٧٦ ، ٧٧ ، ٨٣ ، ١٩٠ ، ١٩١ ، ١٧٧ ج٣ ٨٤ ، ٢٣٠ - ٢٥٤ ، ٤٨٣ - ٤٨٥.
(٣) الوزر : الملجأ والمعتصم
(٤) آصرتي : الرحم والقرابة .
(٥) محمية : صيانة .
(٦) الوعد للخير والايعاد للشر .
(٧) طلاع انجاد : يركب صعابا الامور غالب شجاع .

هذا الاب الذي يتصف بكل هذه الخلال الحميدة كان ملجأ للشاعر – ابنه – حين تصعب الامور ويفتقد الحل الصحيح، ترى هل كانت هناك صعاب في طفولة البارودي ؟ لااعتقد ذلك فقد كان الابن الوحيد وبالتالي كان الابن المدلل الذي يقدم اليه كل ما يطلب ويشتهي . ولكنه التعويض ثانية عن الاحساس الذي احسه من جراء يتمه ان لا شعوره يرفض موت ابيه فيستولي على الشعور وينساب في وحي شعره فهو المتنفس الوحيد لاعادة التوازن الى نفسه فهو يجمع الماضي البعيد – الطفولة – الى الماضي الاقرب – الصبا والشباب – فيمزجهما لاشعوره معاً ليوحدهما في زمن نفسي لا في زمانيهما الحقيقيين ،فهو في صباه وشبابه مر بصعاب واحتاج إلى مساعدة ومشورة وكان يتمنى لو وجد الاب الذي يأخذ بيده فأخرج هذا التمني الى حيز الوهم المصدق فأنقلب الوهم حقيقة في لاشعوره وهو يستنجد اباه لمساعدته . ولا شك ان امه كانت هي العون الحقيقي له . ولكنه يأبى في (لاشعوره) ان يتلقى المشورة من امرأة ولو كانت هذه المرأة امه ؛ انه تضخم الرجل الكامل في نفسه الذي عوض النقص من عدم وجود هذا المثال الكامل الذي يحتاجه الاطفال للاقتداء به وتمثله . وغالباً ما يكون هذا المثال متمركزاً في الاب عند الابناء الاسوياء في داخل الاسر الطبيعية غير الشاذة ؛ فاذا به بعد ذلك يعكس نظرته الخاصة للحياة – والمتولدة عن الاحساس بالضعف والنقص من ناحية وارشادات الأم التي وجدت نفسها ابا في الوقت ذاته بعد موت زوجها –.على أبيه وربما كانت خلال ابيه كما اوحتها اليه امه فرسخت في نفسه وطغت . على سلوكه فهو يريد أن يكون اباه . اليست أمه في حاجة الى الحماية ؟ اليس هو الرجل الحامي الوحيد المتبقي في الاسرة .فقد زال هذا الأب من حياته في وقت كان بأمس الحاجة اليه ، فترة الصبا حيث يحتاج كل صبي الى المثال الذي يقتدي به ، وها هو المثال يذوى ، اذن لم لايحييه في نفسه يتصوره من تراكمات احاديث امه عن ابيه وجديه ؟ ومن هنا تقمص الولد الأب .

لا يستبد برأي قبل تبصره ولا يهمّ بأمر قبل اعداد
تراه ذاهبة في كل نائبة كالليث مرتقباً صيداً بمرصاد (١)

ان ترقب الصيد بالمرصاد سمة بارزة في سلوك الشاعر فهو يترقب الفرص دائماً للوصول الى مايريد فكلما حقق املا سعى لتحقيق امل اكبر عن طريق ترقبه لاحتيال الفرصة التي تحقق له مايريد . وهي سمة من سمات ذلك العصر الذي كان لايصل فيه الى المعالي الا الرجل المغامر الجسور الذي يحسن اقتناص الفرص والاستفادة منها .

وما أن تنزل به محنة او يشعر بضيق من الناس الذين حوله ، وهو لايثق بأحد من الناس كما يبدو في شعره . حتى يعود الى ذكر أبيه ، انه العون المتمثل في اللاشعور منذ الصغر .

فمن لي ـ وروعات المنى طيف حالم بذي خلة تزكو لديه الصنائع
اشاطره ودى وافضي لسمعه بسري وأمليه المنى وهو رابع (٢)
لعلي اذا صادفت في القول راحة نضحت غليلا ما روته المشارع
لعمر أبي وهو الذي لو ذكرته لما اختال فخار ولااحتال خادع
ولكنني في معشر لم يَهُم بهم كريم ولم يركب شبا السيف خالع (٣)
لواعب بالاسماء يبتدرونها (٤) سفاها وبالالقاب فهي بضائع (٥)

اختط الشاعر لنفسه اسلوباً في الحياة بعد أن اشتد عوده يعتمد فيه على اساسين اثنين ، الفردية ، والسعي للوصول الى تحقيق اهدافه التي بدت بسيطة في اول امرها ـ امرة السيف والقلم ـ وسرعان ما تضخمت فكانت علوا في المناصب حتى وصلت درجة الطموح الى عرش مصر .

---

(١) علي الجارم ومحمد شفيق معروف ، ديوان البارودي ، الجزء الاول ، ص ١٧٠ - ١٧٢ .
(٢) رابع : مقيم ومنتظر .
(٣) الخالع : الشاب القوي القادر على حمل السلاح .
(٤) يبتدرونها : يسارعون اليها
(٥) ديوان البارودي ج ٢ ص ١٨٤ - ١٨٥ .

فقد شب البارودي معتداً باصله ونسبه الجركسي في عصر ساد فيه ابناء جنسه من الجراكسة والاتراك .

انا من معشر كرام على الدهـ ـر افادوه عـزة وصـلاحـا
فرعوا بالقنا فنان المعالـي واعدوا لبـابـهـا مفتـاحـاً
عمروا الارض مدة ثم زالوا مثلما زالت القرونُ اجتياحاً(١)
واتت بعدهم عليّ ليـال لا ارى في سمائها مصباحاً
فسقاهم منزل الغيث سجلا(٢) يجعل النبت للعراء وشاحاً

ترى هل يريد ان ينتقم لهم ؟ وما السبيل الى ذلك غير أن يتمثل خطاهم ويسير في اثرهم .

هو ماقلت فاحذرنها صباحاً غارة تملأُ الفضاء رمـاحاً
تترك الماء لايسوغ لظمـآن وترد الدم الحـرام مباحـاً
لاترى بينها سوى عبقـري يألف الطعن بخـدة وارتياحا(٣)
لهج (٤) بالحروب لايألف الخفـ ـض ولا يصحب الفتاة الرداحا(٥)
مسعر للوغى أخو غدوات تجعل الارض مأتما وصياحا
لايرى عاتبا على شيم الدهـ(٦) ـر ولا عابثاً ولا مـزاحـا
يفعل الفعلة التي تبهر الناسـ وترنو لهـا العيـون طماحا (٧)

ترى هل هو كذلك ؟ لا اعتقد ذلك، فهو سيفنى في المرأة ويذوب جسداً لا روحاً كما سنرى في شعره . ولكنه المثال الذي رسمه في نفسه يعبر لا شعورياً عنه ، وهو سينهزم اذا ما جد الجد وتقرر المصير . وهو يفصح عن نفسه في

---

(١) الاجتياح : الزوال .
(٢) السجل : الدلو العظيمة .
(٣) الارتياح : النشاط والاسراع .
(٤) لهج : مولع .
(٥) الرداح : التامة الخلق ، الممتلئة .
(٦) شيم الدهر : طبائعه .
(٧) ديوان البارودي ج١، ص ١٠٨ - ١١٠ .

البيت الاخير انه يريد أن يبهر من حوله لمجرد البهر ونيل الاعجاب — تعويضاً عن الاحساس باليتم — لذا فهو يسعى الى ان ينظر الناس الى اعماله نظرة اعجاب واندهاش وطموح الى تقليدها .

ويمضي في الافتخار باجداده وأبيه :

نماني الى العلياء فرع تأثّلت(١) ... أرومته في المجد وافتر سعدد

وحسب الفتى مجدا اذاطالب العلا ... بما كان اوصاه ابوه وجدّه

اذا ولد المولود منا فدّره (٢) ... دم الصّيد والجرد العناجيج مهده(٣)

فان عاش فالبيد الدياميم (٤) داره ... وان مات فالطير الاضاميم(٥) لحده

أصدّ عن المرمى القريب ترفعا ... واطلب امرا يعجز الطير بعده

ولا بد من يوم تلاعب بالقنا ... اسود الوغى فيه وتمرح جرده

يمزق استار النواظر (٦) برقه ... ويقرع اصداف المسامع رعده

فاما حياة مثل مانشتهي العلا ... واما ردى يشفي من الداء وفده(٨)

فهويسعى الى الحياة التي يريدها، الحياة التي يثأر بها لاجداده الذين ازالهم حكم محمد علي . فهو مستمر في طلاب ذلك المجد الذي يبتغيه : « وكان كبير المطامع في طلب العلى وذلك نادر في الشعراء لرقة احاسيسهم ولطف مزاجهم وانصراف قرائحهم الى الخيال » (٩)

وبي ظمأ لم يبلغ الماء ريّه ... وفي النفس امر ليس يدركه الجهد

---

(١) تأثلت : تأصلت .

(٢) دره : لبنه وغذاؤه .

(٣) العناجيج : جياد الخيل والابل .

(٤) الدياميم : جمع ديمومة وهي للفلاة من الارض .

(٥) الاضاميم : الجماعات واحدها اضامة .

(٦) استار النواظر : الجفون

(٧) الوفد : الحضور .

(٨) ديوان البارودي ج١ ، ص ١١٨-١١٩، ١٣٤-١٣٥ .

(٩) جرجي زيدان ، بناة النهضة العربية ص ٤٦ .

أودّ وما ود امريء نافعا لـه   وان كان ذا عقل اذا لم يكن جد (١)
وما بي من قفر لدنيا وانمـا   طلاب العلا مجد وان كان لي مجد (٢)

فالمجد الذي يطلبه اذا ليس الثراء ولا الجاه ولا رفعة الشأن ولا المنصب فقد كان آمر لواء عندما نظم هذه القصيدة اثناء الحرب العثمانية الروسية ، اذا فهو يسعى لأكثر من ذلك . واحتمل ان الملك هو الذي يراوده ، فهو الوحيد ابعد من السعي وامل نواله جد بعيد مهما سعى الانسان واجتهد لذا لا يفيد التمني العقل والتدبير ان لم يساعده الحظ في نوال ذلك المجد الذي يريد نواله وان كان يملك مجد اجداده وسعيه ومركزه .

اطالب ايامي بما ليس عنـدها   ومن طلب المعدوم اعياه وجده
فما كل حي ينصر القول فعله   ولا كل خل يصدق النقص وعده
واصعب ما يلقى الفتى في زمانه   صحابة من يشفى من الداء فقده
وما انا بالمغلوب دون مرامه   ولكنه قد يخذل المرء جهـده
وما ابت بالحرمان الا لأنني   أود من الايام مـا لا تـوده
فان يك فارقت الرضا فلبعد ما   صحبت زمانا يغضب الحر عبده

اى زمان هذا الذي يغضب الحر عبده ؟ ذلك الزمان الذي يتحكم فيه القتلة — الخديو توفيق والاسرة الخديوية كما يراها الشاعر فهي التي قتلت جديه وأباه كما هو كامن في اللاشعور — ويسود الوضعاء فيه على الاشراف ، لماذا لم يقل البارودي ذلك من قبل ؟ وليس اسماعيل بافضل من توفيق وقد كان سعيد وعباس الاول اسوأ منهما بكثير . ألا يعرف الشاعر اذن وضاعة هذة الاسرة فلماذا مدح اسماعيل عند ذهابه الى الاستانة ليصبح شاعره بعد ذلك ولحق بمعيته وبمعية ولده توفيق ولي العهد آنذاك ؟ هل نتج ذلك عن قصر نظره ، فلماذا يفخر دائما بسداد رأيه وحكمته وتقليبه للامور

---

(١) الجد : الحظ .

(٢) ديوان البارودي ج ١ ، ص ١١٨ ، ١٣٤-١٣٥ .

قبل الاقدام عليها ؟ أم كان الشاعر نهازا يقتنص الفرص دائما وقد حانت فرصته الآن بعد ثورة الضباط الاحرار والشعب المصري من ورائهم ، فهو يريد اشعالها حربا لعل الحظ يبسم له – كما يقول – لتحقيق مراميه .

أبى الدهــر الا أن يسود وضيعه ويملك اعناق المطالب وغـده
تداعت(١) لدرك الثأر فينا ثعاله ونامت على طول الوتيرة (٢)اسده
واقتل داء رؤية العين ظالما يسيء ويتلى في المحافل حمده
علام يعيش المرء في الدهر خاملا ؟ أيفرح في الدنيا بيوم يعـده (٣)

فهو لايعد الايام التي تمضي بل يسعى حثيثا الى الامل الذي تضخم في نفسه فهو المسؤول الوحيد عن اعادة مجد اجداده . أليس هو رب السيف والقلم بين مصريين مستضعفين ، وبين حكام من الاتراك والجراكسة يلتوي لسانهم عندما يتلفظون كلمة عربية واحدة . أليس ذلك من حقه ؟ اليس من حقه ان يفخر بمكانة اجداده ويضعهم بكل عظمتهم ورفعتهم – كما يراهم هو – امام اسرة محمد علي المغتصبة الظالمة ؟ ولماذا اذا لايسعى إلى اعادة مجد اجداده ومكانتهم الرفيعة . أليس اهلا لان يكون هو الحاكم بدلا من ابناء اسرة محمد علي الذين لايملكون خصائص الزعامة بينما يملكها هو :

وفتية كأسود الغاب ليس لهم الا الرماح اذا احمر الوغي أجم (٤)
ان حاربوا معشرا في جحفل غلبوا او خاصموا فئة في محفل خصموا(٥)
مرفهون حسان في مجالسهـم وفي الحروب اذا لاقيتهم بهم (٦)
من كل أزهر كالدينار غرته يجلو الكريهة منه كوكب ضرم(٧)

---

(١) تداعت : تجمعت وتألبت بالعداوة .
(٢) الوتيرة : الثأر .
(٣) ديوان البارودي ، ج١ ، ص ١١٤-١١٦ .
(٤) أجم : عرين الاسد ، وبالضم : الحصن .
(٥) خصموا : غلبوا في الخصومة .
(٦) بهم : جمع بهمة وهو الشجاع الذي لا يهتدي من أن يؤتي .
(٧) كوكب ضرم : متوهج .

ماتوا كراما وابقوا للعلا اثرا   نالت به شرف الحرية الامم(١)

فهو يسعى إلى اعادة مجد اجداده اولئك الذين حملوا الوية النصر على الصليبيين ورموهم في البحر وحموا « بشجاعتهم المشرق العربي من زحف التتار والمغول المدمر » . (٢) وهزموهم في عين جالوت ورفعوا اعلام مصر المنتصرة خافقة فوق بلاد الشام وجزر البحر الابيض المتوسط . لذا فهو ينظر إلى اسرة محمد علي الحاكمة بأنها مغتصبة وكأنها قد سلبته حقه الشرعي ، ويبدو لي وكأنه قد قرأ كتاب الامير لمكافيللي — وقد لقي الكتاب شهرة كبيرة في اوساط المتعلمين في العالم منذ القرن السادس عشر — ومقولته في المغتصبين فسعى إلى تحقيق هدفه باستعادة حقه الشرعي « ان موقف المغتصب يبقى في البلاد حرجا مهماً كان عادلا في احكامه وقويا بجنده وعدده ، لان اهل الولاية المغتصبة يبقون على عدائه مادام في بلادهم كذلك لايتمكن المغتصب من اكتساب اخلاص جماعة الخائنين الذين مكنوه من بلادهم لانه لايستطيع ان يرضيهم أو يقنعهم ... ومهما تكن قدرته في المال والرجال فلا يمكن ان تستقيم له حال » . (٣)

فلماذا اصيب الشاعر بهذا الغرور ؟ هل هو تعبير عن مكونات نفسه . بسبب يتمه المبكر ؟ أم هناك عامل آخر ساعد على ذلك ؟ لابد من وجود عامل آخر حتماً ، ووراء هذا العامل تكمن امه ، فقد جلبت له المعلمين الى القصر ولم ترسله الى مدرسة المبتديان العامة . وكان التعليم في القصور مقصوراً على اولاد الاثرياء من المماليك والترك . ثم ارسلته الى المدرسة الحربية بعد ذلك وقد ضمت اولاد الجراكسة والاتراك ومماليك الوالي فقط «وهو التعليم الذي لايحترمو ن سواه ويرونه طريقهم الطبيعي الى المناصب الكبرى

---

(١) الديوان حـ ٣ .

(٢) الحديدي ، سامي البارودي شاعر النهضة ، ص ٧٢ .

(٥) ميكافيللي ، الامير ، ص٥٨

في الدولة » (١) اما دورها في تهيئته النفسية فقد كان اكبر من ذلك بكثير فقد كانت تحدثه عن مجد آبائه واجداده وتذكي في نفسه الاماني والطموح وتربط مجده بمجد اجداده « وقصت عليه مقتل جده علي اغا البارودي وقد غدر به محمد علي ... وتنفعل نفس الصبي بما حدثته امه عن جده علي في حربه الفرنسيين ويوم مقتله » (٢) وتحدثه عن أبيه وكيف دفعه محمد علي الى السودان ليبعده ويأمن صولته . ويتدفق كل ذلك شعرا مشتعلا في فمه وكأنه يريد ان يدرك هذا المجد باسرع مايستطيع من جد ومثابرة :

وسما جدي علي ... يطلب النجم فناله
فهو لي أرث كريم ... سوف يبقى في السلالة (٣)

ويمتد اعجابه بجده الى اعجابه بقومه وبنفسه . أليس هو واحدا منهم ؟ ولكن آثارهم وان ذهبوا تدل على هذا المجد. أليس هو اثرا من هذه الآثار؟ بل اليس الهدف الموعود لاعادة مجد الاجداد ؟

واني أمرؤ لولا العوائق أذعنت ... لسلطانه البدو المغيرة والحضر
من النفر الغر الذين سيوفهم ... لها في حواشي كل واجبة فجر
اذا استل منهم سيد غرب سيفه ... تفزعت الافلاك والتفت الدهر
لهم عمد مرفوعة ومعاقل ... والوية حمر وافنية خضر (٤)
اقاموا زماناً ثم بدد شملهم ... ملول من الايام شيمته(٥)الغدر
فلم يبق منهم غير آثار نعمة ... تضوع برياها (٦)الاحاديث والذكر

ومن جراء هذا الاحساس المتضخم بالذات الذي سال فخرا بنفسه

(١، ٢) أنظر الحديدي، محمود سامي البارودي، ص ٢٦، ٢٧
(٣) الديوان ج٣، ص ١٩٦-١٩٧ .
(٤) اخضرار الافنية: دلالة على الكرم .
(٥) الشيمة: الطبيعة .
(٦) الريا: الريح الطيبة .
(٧) ديوان البارودي ج٢، ص ٣٣-٣٥ .

وباجداده على لسانه امتلك قدرة كبيرة على السخرية ممن يريد ان ينتقصهم ويقلل من شأنهم فهو يصغرهم بقدر مايعظم نفسه وخاصة رجال السياسة الذين كانوا يقفون حجر عثرة في طريق طموحه ؛ او زملاؤه الذين شاركهم في ثورة عرابي وعايشهم في منفاهم في سيلان او أصدقاؤه الذين لم يساعدوه – كما توقع – في التخلص من منفاه .

وصاحب لاكان مـن صاحب	اخلاقه كالمعدة الفاسدة
اقبح ما في الناس من خصلة	احسن ما في نفسه الجامدة
لو انه صور من طبعه	كان لعمري عقرباً راصدة
يغلبه الضعف ولكنـه	يهدم في قعدته المائـدة
كانما اظفوره منجـل	وبين فكيه رحى راعدة
ويلمه اذ مخضت هل درت	ان الردى في بطنها القاعدة
تبا لها شنعاء جاءت به	من لقحة في(١)فقحة كاسدة(٢)

هل هناك هجاء اقذع من هذا الذي نزل به على رأس عدوه وجسده في صورة (كاريكاتيرية) للزراية والقبح والتشنيع

وقد كان للقصر الذي سكنه اثر في شاعريته فقد وقف طويلا امام اللوحات الرخامية التي نقشت عليها أبيات من شعر خاله ابراهيم وكانت قد زينت بها جدته الطابق العلوي من القصر بعد وفاة ابنها وهو في ريعان الشباب (٣) ذكرى له وابقاء لأثره في الدار التي خلت من وجوده « فيقرأها – محمود سامي ولا يمل قراءتها ويطلب من امه المزيد من اخبار خاله الشاعر فتحدثه عن الموهوب الذي ذهب في ريعان الشباب وعن حياته في القصر الذي قضى اكثرها وهو عاكف يقرأ دواوين الشعراء من العرب والاتراك وعن القصيد

---

(١) فقحة : حلقة الدبر .

(٢) الديوان جـ١، ص ٢١٤-٢١٥. انظر قطعة اخرى في جـ٢، ص ١٠٤ ومثلها كثير في الديوان

(٣) مات ابراهيم وهو في سن الخامسة والعشرين، الحديدي، ص ٢٨ .

الذي ينساب على لسانه ... ويشعر محمود سامي بقوة خفية تشده الى خاله ابراهيم البارودي وتربطه به ويحس بان بينهما شبهاً كبيراً فهو نفسه يحب قراءة الشعر ... وهو يحاول ان يقلد قصائد خاله ابراهيم » . (١)

انا في الشعر عـــريـــق   لم ارثـــه   عن كـلالـة(٢)
كان ابراهيم خالــــــي   فيــه مشهور المقالـة (٣)

وكانت الفرصة قد هيأت له الانصراف إلى القراءة بعد تخرجه في الكلية العسكرية فقد سرح عباس الاول ومن بعده يعيد الضباط ولم يعينا ضباطا جددا « ولكنه احسن دونهم بألم ممض اذ لم يشترك في حرب كما اشترك آباؤه... ودفعه هذا الالم الى طلب العوض عن المعارك الحقيقية بمعارك موصوفة مدونة في صفحات التاريخ فعكف على كتب الاقدمين يلتهمها التهاماً » . (٤)

وحقق عن طريق كتب الحماسة ودواوين الشعر القديمة التي وجدها في مكتبة خاله ابراهيم ماكان يسعى اليه . وجد الفروسية الموصوفة في حنايا قصائد الفرسان الذين أولع بشعرهم ، وقرض الشعر الذي اخذ يحاول فيه تقليد مايقرأ . وانصب اهتمامه بالدرجه الاولى على شعر الفخر والحماسة ووصف ميادين القتال واعمال البطولة يعوض فيها عن خلجاته وهو يفخر بذلك ايما فخر .

تكلمت كالماضين قبلي بما جرت   به عادة الانسان ان يتكلما
فلا يعتمدني بالاساءة غافـل   فلا بد لابن الأيل ان يترنما

وهو يفخر بنفسه من خلال فخره بالشعر وينسب نفسه كشاعر الى فطاحل الشعراء العرب .

---

(١) الحديدي، ص ٢٨-٢٩ .
(٢) الكلالة: النسب البعيد .
(٣) الديوان ج٣، ص ١٩٥-١٩٦ .
(٤) عمر الدسوقي، في الادب الحديث، ج١، ص ١٤٦ .

للشعر في الدهر حكم لايغيره   مابالحوادث من نقض وتغيير
يسمو بقوم ويهوى آخرون به   كالدهر يجرى بميسور ومعسور
صحائف لم تزل تتلى بألسنة   للدهر في كل ناد منه معمور
تزهي به كل سام في ارومته   ويتقي البأس منها كل مغمور
فكم بها رسخت اركان مملكة   وكم بها خمدت انفاس مغرور
والشعر ديوان اخلاق يلوح به   ما خطه الفكر من بحث وتنقير
أبقى زهير به ماشاده هــرم   من الفخار حديثا جد مأثور
لولا ابو الطيب المأثور منطقه   ماسار في الدهر يوما ذكر كافور(١)

وقد كان « منذ صباه ميالا الى الشعر له مطمح في الرئاسة كما كان المتنبي وكان من اكبر المساعدين على اشتداد الثورة العرابية » . (٢)

وقد كان للبيئة اثر كبير في اقتران الشعر بالفروسية، فهذا عنترة الشاعر الفارس تتلى سيرته في المقاهي الشعبية وربما صادفهم في طريق رواحه وايابه يقرأون سيرة عنترة والزير سالم والهلالي وسيف بن ذى يزن « وكلهم فرسان مغاوير يقدمون للغارة بانشاد الاشعار ويقرنون بين المناجزة بالحسام والمناجزة بالكلام ومن دأب الايقاع كافة انهم حماسيون يحبون انشاد الحماسيات وقد يغلون في حب الحماسة حتّى ينشد احدهم قصيدة الوصف والغزل كما ينشد قصيدة الفخر والمناجزة فاذا كان اليافع على حظ من الطبيعة الفنية فربما كانت المدرسة الحربية يؤمئذ من اسباب اتجاهه إلى النظم وعنايته بالقراءة الادبية » (٣) .

وربما كان في هذا الرأي مبرر آخر لنظم البارودي الشعر خاصة وانه كان منعزلا عن اترابه في الكلية العسكرية يميل الى الوحده والصمت والانفراد(٤) وهذا هو شأن من يثقل عليه الشعور باليتم وفقد السند والعون .

---

(١) ديوان البارودي، ج٢، ص ١١٧-١٢٠ .
(٢) جرجي زيدان، تاريخ آداب اللغة العربية، ج٤، ص ٥٨٨ .
(٣) عباس محمود العقاد، شعراء مصر وبيئاتهم في الجيل الماضي، ص ١٢٩ .
(٤) الحديدي، البارودي شاعر النهضة، ص ٥٨ .

البارودي والفلسفة التي رسمها لحياته :

لقد ضمن البارودي منذ صباه رؤيته الخاصة في قصيدة احتواها ديوانه وهي التي اتيت على ذكرها فيما سبق ومطلعها :

هو ما قلت فاحذرنها صباحاً غارة تملأ الفضاء رماحا

وقد افتخر فيها باصله وعراقته وبنفسه وبعبقريته وشجاعته ونجدته . وبأنه يسعى للوصول الى ما يصبو اليه والى القيام باعمال تبهر الناس : وهو قوي الشكيمة لايعتب على الدهر اذا ما اصابه مكروه . وهو جاد لايعرف الهزل ولا العبث ولا مصاحبة النساء . وما حديثه هذا الا حديث شاب غر لم يخبر الحياة بعد ولم يقلبها على جوانبها المختلفة . فاذا ما سد في وجهه سبيل العمل في الجيش ، ذلك السبيل الذي طالما سعى اليه لتحقيق الطموح الذي يبتغيه في تلك الفترة من حياته قرر شد الرحال الى الاستانة للعمل هناك عام ١٨٥٧ . والتحق بوزارة الخارجية التركية يعمل فيها كاتماً للسر ، وقد كان يجيد التركية طبعاً ، الى جانب اجادته اللغة الفارسية . وكان من البدهي ان يقوي صلته بهاتين اللغتين بقراءة اديبهما والنسج على منوالهما . (١) وان يندفع لقراءة الكتب والمخطوطات العربية القيمة ، التي تغص بها مكتبات الاستانة .وان ينفتح على جمال الطبيعة المتنوع هناك ، وان يسعى الى فهم مغاليق اللهو ،الذي كان مقفلا دونه وهو في القاهرة ، في احضان أمه،التي كانت تراه طفلها المدلل المحتاج الى العناية والرعاية . ومن عجب أن الشاعر لم يحن الى اهله ، أمه واخته واقربائه واترابه ، رغم بعده عنهم في الاستانة سبع سنوات . ولم ينظم قصيدة واحدة توحي بذلك ، وهو في اوج سني مراهقته ، منذ الثامنة عشرة وحتى الرابعة والعشرين ، وهي السن التي يحس فيها الانسان بوحشة من الف اذا بعدوا عنه ، وبالحنين الى الوطن اذا كان متعلقاً به . ترى لماذا لم نقرأ للبارودي شيئاً من ذلك ؟ الجواب واضح جداً، انه لم يحس بالغربة وهو في الاستانه لأنه بين قومه الاتراك ، وفي حاضرة الامبراطورية العثمانية التي ينتمي اليها

(١) الحديدي، البارودي شاعر النهضة، ص ١٥ .

بالمواطنة والولاء معا . ولكن ما امر اختلاف اللغة ؟ الم يحب اللغة العربية ، التي طالما عبر بواسطتها عن احاسيسه ورغائبه ؟ الجواب عن ذلك واضح وبين . اليست اللغة التركية هي الاخرى وسيلته لذلك ، بالاضافة الى انها لغة النشأة والتخاطب في البيت ؟ وربما سأل سائل وما الامر في عدم حنينه الى اهله ؟ الجواب واضح ايضاً . البارودي ليس رجلا عاطفياً فهو في الاستانة يسعى للوصول الى هدفه ، بعد أن اعياه الوصول في القاهرة ، وربما وجد بين أخواله الاتراك حنانا يغنيه عن حنان الام والاخت والاقارب ، بل لقد وجد شيئاً أثمن من ذلك كله ، الحرية ، ان يعيش لنفسه ساعياً وراء حاجاته اليس من حقه ذلك ؟ الم يكن في عنفوان شبابه ، وهو يعبر عن كل ذلك في ابيات تصور دواخله آنذاك :

تغرب اذااتربت (١)والتمس الغنى ... فما العزّ الا من وراء التعسف
فقد يعدم الانسان في عقر داره ... مناه ويلقى حظه في التطوف
فكل مكان يضمن الرزق للفتى ... اذا لم يكن فيه عديم التصرف(٢)

اذا فهو في بداية سعيه ، انه يريد ان يضع قدمه فقط . فاذا ما استند الى الارض وثبت قدمه فيها،وبدا يخطو خطواته الاولى ، اختلفت نظرته عندئذ ، فهو يريد ان يجمع كل اقاليم الحياة بين كفيه .

فخذ لنفسك من دنياك ما سمحت ... به اليك وكن منها على حذر
وسالم الدهر تسلم من غوائله ... فصاحب الشر لاينجو من الكدر
لايبلغ المرء ما يهواه من أرب(٣) ... الا بترك الذي يخشاه من ضرر
فانعم وطب والهو واطرب واسع واعل وسد ... واشرب وغن وتِه والعب وهم وطر(٤)

والبيت الاخير تتجسد فيه آمال الشاعر العريضة . فهو يسعى الى السيادة

---

(١) أتربت : افتقرت .
(٢) ديوان البارودي ، ج٢ ، ص ٢٥٧ .
(٣) الأرب : الحاجة .
(٤) ديوان البارودي ، ج٢ ، ص ٧٧ .

وعلو الكعب . كما يسعى الى اللهو والشراب والمتعة . انه يريد ان يتربع على عرش الحياة ، يمسك بصولجان السلطة باليمين ، ويقبض على متع الحياة بالشمال . فهو اسعد مايكون عندما يشرب كأس الحياة دهاقاً ، وصولجانه يرتفع الى سماك السماء .

وهو يعرف الطريق لتحقيق اهدافه ، فهل هناك غير المغامرة ؟ (١)

فاقذف بنفسك في اقصى مطالبها ان النجاح بسعي المرء مرتبط
قد يظفر الفأتك(٢)الالوى(٣)بحاجته وليس يدركها الهيابة(٤) الخلط(٥)
لاتغفلن اذا امنية عرضت فانما العيش في هذا الورى لقط(٦)

وقد الزم نفسه بما قال ، طالما يلوح له بريق الوصول . فهو يغامر ويرمي بنفسه في المعمعة ، طالما تأكد من الخروج بالغنيمة . وهو لايرضى بالغنيمة البخسه فطلابه بعيد دائما .

جردت نفسي لطلاب العلا والسيف لايرهب او ينتضى
ولي من القول نصير اذا دعوته في حاجة او قضا (٧)

وقد كان القول نصيرة فعلا في طلاب العلا . فقد اعد قصيدة وهو في الاستانة يستقبل بها الخديو اسماعيل ، الذي قدم الاستانة ليقدم الولاء للسلطان عبد العزيز عندما تسلم عرش مصر .

ابو المجد نجل الجود خال زمانه اخو الفخر اسماعيل خدن المكارم
تجمع فيه الحلم والبأس والندى فليس له في مجده من مزاحم
فلو مصر تدري ارسلت لك نيلها ليلقاك في جنح من الليل قاتم

---

(١) « ولم يبال بركوب البحار فرحل الى الاستانة يلتمس بها منصباً » جرجي زيدان ، بناة النهضة العربية، ص ٤٦ .
(٢) افاتك : الجريء .
(٣) الالوي : الجدل ، الشديد الخصومة .
(٤) الهيابة : المتردد .
(٥) الخلط : الاحمق .
(٦) ديوان البارودي، ج٢، ص ١٦٥-١٦٦ .
(٧) الديوان : ج٢، ص ١٥٩ .

وجاءت لك الاهرام تسعى تشوقاً		إلى دار قسطنطين سعي النسائم (١)

وهي القصيدة الوحيدة التي نظمها في الاستانة (٢) حسب علمنا .

« واختارت نظارة الخارجية التركية محمود سامي البارودي ليكون ضمن بعثة الشرف التي ترافق اسماعيل عزيز مصر اثناء اقامته بدار الخلافة...(٣) واعجب الخديوى ببراعته في الخط والانشاء التركي (٤) فقربه اليه مما جعل البارودي يلهج بالثناء عليه، فقدم نفسه اليه شاعرا مصريا من رعاياه، واهدى اليه قصيدة جعلته خير الملوك في دار الخلافة..وعينه معينا لاحمد خيري باشا على ادارة المكاتبات بين مصر والاستانة العلية » (٥) .

انها البداية التي باشرها البارودي صعدا لتحقيق آماله ، فهو يسير وفق خطة وضعها لنفسه ، واذاعها كحكمة يدعو الآخرين إلى العمل بها ، اذا ارادوا النجاح في الحياة .

بـادر الفرصة واحذر فوتها		فبلوغ العز في نيل الفرص

فهو يعود إلى ديدنه في اغتنام الفرص . لانه يرى ان بلوغ العزلا يمكن الوصول اليه الا عن طريق احتيال الفرص . وهي سنة كان يتبعها معاصروه من اجل الوصول إلى اهدافهم :

واغتنم عمرك ابان الصبا		فهو ان زاد مع الشيب نقص
فابتدر مسعاك واعلم ان من		بادر الصيد مع الفجر قنص
لن ينال المرء بالعجز المنى		انما الفوز لمن هم فنـــص(٦)
يكدح العاقل في مأمنــــه		فاذا ضاق به الأمر شخص(٧)
ان ذا الحاجة مالم يغترب		عن حماه مثل طير في قفص

---

(١) الديوان جـ٣، ص ٢٩٨-٣١٤ .

(٢) الحديدي، البارودي شاعر النهضة، ص ٨٠ .

(٣-٥) الحديدي، ص ٤٤ من مذاكرات الاسرة الخاصة والجوائب: العدد: ٥٧٢، في ١٩٠٤/١٢/١٥.

(٦) النص: الحركة والاستقصاء .

(٧) شخص: ارتحل .

قد يضر الشيء ترجو نفعه — رب ظمآن يصفو الماء غص
ميز الاشياء تعرف قدرها — ليست الغرة من جنس البرص(١)

لقد اشتد ساعد الفتى واصبح يدرك مواطن النفع ،فحث خطاه حثيثا لاغتنام الفرصة مع أول بوادرها ، خشية ان يقتنصها غيره .

ترى هل انتهت آمال البارودي في الوصول إلى مايصبو اليه أم بدأت؟ انها بدأت ولاشك فقد « عاد وفي اعطافه آمال كبار بعد ان هدته المقادير إلى اقصر الطرق لتحقيقها » . (٢) ونظم البارودي وهو في مصر قصيدة ثانية مدح بها الخديو اسماعيل اعترافا منه بمعروفه الذي غمره به فقد رده إلى اهله عزيزا مكرما وطمأن له مستقبله بعد ان كان يسعى لتحقيق مثل هذا الهدف دون جدوى (٣)

البارودي في خدمة الاسرة الخديوية :

في تموز ١٨٦٣ منح البارودي رتبة « البكباشي » العسكرية والحق بالآى الحرس الخديو وعين قائداً لكتيبتين من فرسانه (٤) وهكذا حقق البارودي امنية كانت تبدو حلماً بالنسبة له ، انه الآن يختال بالزي العسكري الذي كان كان يختال به ابوه ، انه الهدف الاول الذي حققه ، فتفانى في اظهار قدرته وبراعته في الامور العسكرية ، وراح يتصدر الصفوف وارسل مع خمسة عشر ضابطاً إلى فرنسا وانكلترا لتعلم فنون الحرب هناك . وقد افاد من مشاهداته في تعلم فنون القتال والتدرب على الاسلحة الحديثة . وعاد ليرقى إلى رتبة (قائمقام) عام ١٨٦٤ ، ثم إلى رتبه (أمير آلاى) ووكلت اليه قيادة الفيلق

(١) الديوان ج٢، ص ١٥٠-١٥٢ .
(٢) الحديدي، ص ٤٥ يقول ميكافيللي في كتابه (الامير)، ص ٩١-٩٢ «وهؤلاء يعتمدون في حياتهم الجديدة على ارادة من رفعوهم ويعقلون حظوظهم بحظوظهم وارادة الرجال وحظوظهم كثيرة التقلب ولاثبات لها» .
(٣) الحديدي، البارودي شاعر النهضة، ص ٨٥-٨٦ .
(٤) « فترقى في سنة واحدة إلى رتبة بيكباشي » جرجي زيدان، تراجم مشاهير الشوق، ص ٩٥" وكانت ظفرة كبيرة اذا ما قسناها بالتدرج الوظيفي في رتب الجيش آنذاك .

الرابع من الحرس الخديو عام ١٨٦٥ . لقد تقدم الشاعر تقدما سريعاً في اربع سنوات ووصل إلى مرتبة عالية ومركز مرموق ؛ وحياة رغدة سعيدة وحمد للمغامرة فضلها . وبقيت فكرة اغتنام الفرص الحكمة الوحيدة التي يعمل بها للوصول إلى مطامحه . ألم يرتق إلى رتبة عالية في الجيش في غضون فترة قصيرة لايمكن ان يصلها غيره الا بجهد سنين طويلة ؟ اذا فهو يمتلك قوة خارقة تفوق قوة البشر العاديين ، قوة تؤهله لأن يكون في مصاف عظماء الناس وملوكهم .. أليس ذلك من حقه مادام يملك اعنة الملك ، من حسب ونسب وشجاعة وفصاحة ومقدرة .

ولي شيمة تأبى الدنايا وعزمة ... تفل شباة(١) الخطب وهو عسير
معودة الا تكف عنانها ... عن الجد الا أن تتم امور
لها من وراء الغيب اذن سميعة ... وعين ترى مالايراه بصير

الاترى في هذا البيت الاخير غرواً لايجارية غرور ، فهو ينزل نفسه منزلة اعلى من منزلة البشر . انها منزلة الاصفياء والانبياء الاترى انا النداء يأتيه بالتبصر من وراء الغيب ، وانه يرى أبعد مما يراه المحنكون والمجربون وسديدو الرأي .

واني امرؤ صعب الشكيمة(٢) بالغ ... بنفسي شأوا ليس فيه نكير
وفيت بما ظن الكرام فراسة ... بأمري ، ومثلي بالوفاء جدير

أما الكرام الذين أحسنوا الظن به عن فراسة صائبة لاتميل ؛ فهو دائماً عند حسن ظنهم . انه لم يصرح باسم اسماعيل ، فهو الذي تغرس فيه النفع والمقدرة فهو كأي انسان حصيف ،صائب في فراسته .أما البارودي فهو أرقى من اسماعيل مقدرة ان الامور التي يتمها توحى اليه من وراء الغيب. لذا فهو يمتلك قدرات لايستطيع أن يصل اليها اسماعيل خديو مصر ،وليس هذا فقط.

إذا صلت كفّ الدهر من غلوائه(٣) ... وان قلت غصّت بالقلوب صدور

(١) الشباة: حد السيف .
(٢) الشكيمة: الطبع .
(٣) الغلواء: الشدة ومجاوزة الحد .

انه ليس متنبئاً فقط ، بل هو فارس خرافي ، انه هرقل أو اخيل أو ادوسيسوس. فإذا ماوثب في القتال وصال وجال ، حبس الأبطال انفاسهم خوفاً وذعرا . وليس هذا فحسب :

ملكت مقاليد الكلام ، وحكمة لها كوكب فخم الضياء منير
فلو كنت في عصر الكلام الذي انقضى لباء (١) بفضلي جرول(٢) وجرير
ولو كنت ادركت النواسي لم يقل أجارة بيتنا ابوك غيور
وما ضرني اني تأخرت عنهم وفضلي بين العالمين شهير
فيا ربما أخلى من السبق أول وبذّ(٣) الجياد السابقات أخير (٤)

فهل يصل انسان إلى ما وصله البارودي من غرور؟ انه لم يكتف بسماع المخفي وراء الغيب ولا بالصولة على الدهر ، بل هو الآن يتوهم بأنه قد سبق أبا نؤاس وجريرا والحطيئة . ثم ماذا ؟ هل هو يطلب المحال فيتوهم في نفسه المحال.

ألم يأن للأيام أن تبصر الهدى فتخفض مأفونا(٥) وترفع جهبذا (٦)
إذا لم يكن بالدهر خبل لما غدا يسير بنا في ظلمة الجور هكذا (٧)

إن الدهر مخبول ، لايعرف قيمة البشر والأشياء من حوله . انه يقرر هذه الحقيقة التي ستستولي عليه بعد فشله في تحقيق ثأره الطموح، مادام الدهر يخفض الجهد ويرفع المأفون ، مادام لم يحقق له بغيته في الملك ، ويبقي الاسرة الخديوية متمثلة في توفيق حاكمة لمصر .

وعلى الباحث ان يقف هنا ليتبين ماالسبب في هذا الغرور الذي يصل احياناً

---

(١) باء: اقر واعترف .
(٢) جرول: الحطيئة .
(٣) بذ: سبق .
(٤) الديوان: ج٢، ص ٢٢-٢٣ .
(٥) المأفون: الضعيف العقل والرأي .
(٦) الجهبذ: النقاد الخبير .
(٧) الديوان ج١، ص ٢٢٢ .

حدا كبيراً ، في الا بيات الشعرية السابقة . يعود ذلك ولا شك الى احساسه بالعظمة والمقدرة الفائقة في السيف والقلم . فقد نصبته امه رجلا للبيت ، وهو مازال طفلا ، ولقنته دروساً في العظمة والمجد . وقصت عليه بطولات الاسرة لتشحذ في نفسه دوافع الوصول الى المجد . كما كان لاحساسه باليتم ، الأثر الكبير في ايجاد التعويض عن هذا الحرمان من الابوة ، هذا بالاضافة الى تأثره بشعر الشعراء والفرسان الذين كانوا يبالغون في فخرهم بأنفسهم وانزالها منزلة كبيرة تتناسب وشجاعتهم وقدرتهم الفائقة في القتال . فتقمص البارودي في خياله الأدبي صورة الشعراء الفرسان القدماء . والخيال الشعري نابع من مخيلة الانسان ، لذا يلجأ (كارل يونج) في تحليلاته النفسية لمرضاه ، الى اهداف المستقبل التي تصطرع في نفوسهم لاالى تجارب الماضي. ويرى ان الوضع الآني للفرد بالاضافة الى اهدافه في الحياة هو المفتاح ، الذي يلج منه الى المرض النفسي ، الذي يعاني منه صاحبه .

ويؤكد يونج ان السبب المباشر في زيادة الحساسية ، هو صعوبة التكيف بين الا نسان والحياة . وسبب ذلك ، ان أداة التكيف اللازمة غير كافية لمجابهة الموقف ، والنتيجة لتسلط فكرة معينة على المصاب ، فلم يستطع ان يكيف فكره وشعوره واحاسيسه لمجابهة ذلك الموقف . فالبارودي لايستسيغ ان يكون تابعاً لفرد من افراد الا سرة الخديوية ، تلك الاسرة التي له عليها ثأر لايغسله غير الدم . ولكنه يدرك في الوقت نفسه ، ان الفرصة لاتواتيه الاّ اذا سار في ركاب هذه الاسرة . ومن هنا نشأ التناقض الكبير لديه ، بين اللاشعور الذي يفرض عليه ان يسير في ركاب اسماعيل ، لانه الممثل الرسمي للاسرة الخديوية ، القاتلة في نظره ، وبين ادراكه الذي يحتم عليه ان يسير في ركاب اسماعيل ، لان طريقه هو الوصول الى الهدف ، والمنصب والجاه ، ومن ثم المخاتلة لتحقيق الهدف . وسنرى انه سيلعب لعبة مزدوجة لتحقيق

اهدافه ، بين اسماعيل وتوفيق من ناحية ، وحركة الضباط الاحرار التي يترأسها عرابي والشعب المطالب بحقوقه من جهة أخرى . (١)

وهكذا مضى البارودي يصعد الدرجة تلو الدرجة ، لتحقيق مطامحه . فقد شبت في جزيرة كريد ثورة ضد الحكم العثماني ، ولم تستطع الدولة العثمانية اخمادها ، فاستعانت بالجيش المصري . وكان ضمن الحملة المصرية « آلاي من فرسان الحرس يقوده محمود سامي البارودي بوظيفة رئيس ياور حرب».(٢)

وابلى البارودي في الحرب بلاء حسناً ، كيف لا وهي فرصته العظيمة التي يحقق فيها هدفين معاً ؛ اشباع رغبته الخاصة في خوض الحروب متمثلا في نفسه والده واجداده من ناحية ، ومقتدياً بالشعراء الفرسان الذين طالما اعجب بهم ، وهو يقرأ شعرهم وسيرهم من ناحية أخرى . هذا بالاضافة الى تحقيق الممارسة الفعلية التي يعتقد في لاشعوره ، انه سيخوضها ، ان عاجلا أم آجلا للوصول الى بغيته . كما ان شجاعته وقدرته في ادارة المعركة يعدان وسامي شرف يقودانه خطوة اكبر عند اسماعيل . ومن ثم يقودانه لارتقاء درجات جديدة في سلم المناصب . « واجل مايذكر له في تلك الوقائع واقعة احتال بها على الثائرين حتى ادخل منهم نحو الثلاثين الفاً في مضيق بين جبلين وقطع عليهم الرجعة بقسم من عساكره ، وسلط القسم الآخر نيرانه على العدو من قلعة الجبل ، فألقوا السلاح وطلبوا الأمان وساقهم اسرى » . (٣) وتثبت هذه الحادثة قدرته وسعة حيلته في الحروب .

---

(١) « اذا اردت ان تريح نفسك من رجل فاعمد إلى احد طريقين الأولى ان تملقه وتحسن اليه والثاني ان تخمد انفاسه وتنتهي من امره ... وفي طبيعة البشر عادة تساعد على تقرير تلك القاعدة وهي انهم يحاولون دائما ان ينتقموا من اعدائهم لماينالهم من الاضرار التافهة ... فخير وسيلة لمن يريد ايصال الاذى الحقيقي بعدوه ان يصب عليه من جام غيظه قدراً يعجزه عن الانتقام » ميكا فيللي، ص ٦٣ .

(٢) الحديدي، ص ٤٧ ، عن مراثي الشعراء، ص ٩ .

(٣) الحديدي، ص ٤٨ عن الجوائب العدد: ٥٧٢ في ١٩٠٤/١٢/١٥ .

عاد البارودي مظفرا الى مصر « ومنحته الدولة العثمانية وساماً من الدرجة الرابعة اعترافاً بحسن بلائه » (١) وهكذا حقق البارودي الصورة المرسومة في خياله للفارس العربي القديم ، تلك الصورة التي طالما تشبثت بخياله ولم تفارقه ، وكانت شعراً يعبر عن حنايا نفسه :

من صاحب العجز لم يظفر بما طلبا ... فاركب من العزم طرفاً يسبق الشهبا
لايدرك المجد الا من اذا هتفت ... بـه الحمية هز الرمح وانتصبا
يستسهل الصعب انهاجت حفيظته ... ولا يشاور غير السيف ان غضبا
ينهـل صارمه حتفاً ومنطقه ... سحراً حلالا اذا ماصال او خطبا
ان حلّ ارضاً حمى بالسيف جانبها ... وان وعى نبأة من صارخ ركبا
فذاك ان يحيى تحيى الارض من رغد ... وان يمت ينقلب صدق المنى كذبا
فاحمل بنفسك تبلغ ما أردت بها ... فالليث لايرهب الاخطار ان وثبا(٢)

من يقرأ هذه الابيات يجد فيها روح الشعراء العرب الفرسان . فالشاعر يحذو حذوهم وهو ينفث مافي نفسه ، وكثيراً ماتقمص عنترة ، الذي اعجب بشخصه كل الاعجاب . اقرأ هذه الابيات ، تجدها نفساً من معلقة عنترة وهو يصف بلاءه في القتال :

ولما تداعى القوم واشتبك القنا ... ودارت كما تهوى على قطبها الحرب
وزين للناس الفرار من الردى ... وماجت صدور الخيل والتهب الضرب
ودارت بنا الارض الفضاء كأننا ... سقينا بكأس لايفيق لها شرب
صبرت لها حتى تجلت سماؤها ... واني صبور ان ألمّ بي الخطب(٣)

عاد البارودي من حرب كريد ، لاليرتقي في رتب الجيش ، بل ليكون ياوراً خاصا لإسماعيل ثم كبير الياورن لولده توفيق ولي العهد ثم سكرتيرا خاصا لاسماعيل عام ١٨٧٥

(١) شوقي ضيف البارودي رائد الشعر الحديث، ص ٥٨ .
(٢) الديوان ج ١، ص ٥٢-٥٣ .
(٣) الديوان ج ١، ص ٥٢-٥٣ .

قضى البارودي ثماني سنوات في قصور اسماعيل ، الذي اولع ببناء القصور وجلب لهذا الغرض افضل المعماريين الاوربيين ، والتقى بالحسان من النساء ، وقضى لياليه في حفلات البلاط التي كانت تقام في الحدائق الفناء التابعة للقصور الفخمة . وكانت لياليه تلك اشبه بالليالي الاسطورية التي جاءت الف ليلة وليلة على ذكرها ، « فألوف الجواري الحسناوات والوصيفات الجميلات والقلفاوات المثقفات والشاويشات المهذبات ثم فريق الراقصات والمغنيات والممثلات والعازفات على الآلات الموسيقية النحاسية والوترية يستوردهن من اوربا وتركيا وبلاد الجركس عملاء يسرجية ويدربونهن على العمل في هذه القصور وكانت زوجات الخديو الاربع يتنافسن في اقتناء الجواري وارشق الوصيفات حتى ينلن الحظوة لدى اسماعيل » (١)

في هذا الجو المترف بالاجساد والمغاني والمشارب تفتحت نفس البارودي، كما لم تتفتح من قبل على اطايب الحياة . فاسرف في امتصاص الحياة ، كما اسرف في الغزل ، ووصف الخمرة ، ومجالس الانس ، والفخر بنفسه واخلاقه وشجاعته وقدرته على اجتياح قلوب العذارى ، وقدرته في عبّ أكؤس الصهباء مترعة ، واذا به ينسى مثالية الصبا لينِدفع الى مادية الشباب ، فها هو يقول :

اذا المرء لم يطرب الى اللهو والصبا فمـا هو الا من عداد البهائم (٢)

وهو لايكتفي باثبات بشريته وارتفاعه عن مستوى البهائم ، مادام ينعم بلذاذات الحياة ، بل هو يفخر بأنه وصل في هذا المضمار سبيلا لم يصله احد من قبله :

عصيت نذير الحلم في طاعة الجهل واغضبت في مرضاة حب المها عقلي
ونازعت ارسان البطالة والصبا الى غاية لم يأتها احد قبـلي (٣)

(١) الحديدي، ص ٦٢-٦٣ .
(٢) الديوان ج٣، ص ٤٢١ .
(٣) الديوان، ج٣، ص ٧٤-٧٥ .

وهو يجهر بصبواته ، بل يفخر بصنيعه ، في مجالس الشراب وبين الغواني :

الا عاطنيها بنت كرم تزوجت ... على نغمات العود بابن سماء (١)

° ° •

اذا اتقدت في الكأس خلت وميضها ... على وترات(٢) الكف نضح(٣) دماء
فهات وخذوا شرب ودر واستق وارتجع ... الى الدّور من بدء على الندماء
ودعني من ذكر الوقار فانني ... على سرف من بغضة الحلماء
فما العيش الا ساعة سوف تنقضي ... وذا الدهر فينا مولع برماء (٤)
ولا تحسبن المرء يبقى مخلّداً ... فما النقص الا بعد كل نماء
أبي آدم باع الجنان بحبة ... وبعت انا الدنيا بجرعة ماء (٥)

ان الشاعر يقصد ببيعه الدنيا شراءها ، ولكنه يبيع آخرته ، لانه يتعامل مع الدين تعامل رجل دنيا ، فهو يقوم ببعض الواجبات الدينية ، ولكنه مالن ينتهي منها ، حتى يقبل على الحياة اقبال الشبق الذي لايعرف الارتواء :

فقد نسمت ريح الشمال فنبهت ... عيون القماري(٦) وهي في سنة الفجر
ونادى المنادي للصلاة بسحرة ... فأحيا الورى من بعد طيّ الى نشر
فبادر لميقات الصلاة ومل بنا ... الى القصف مابين الجزيرة والنهر
اذا ماقضينا واجب الدين حقه ... فليس علينا في الخلاعة من وزر (٧)

وماذا بعد اكثر مما قال ؟ انه ينقد في كيس الدين دريهمات ليغترف من كيس الحياة الآلاف . وعذره ان مالله لله وما للحياة للحياة . اذا فلم لايبيع

---

(١) ابن سماء: الماء .
(٢) وترات: جمع وترة وهي الجلدة بين الاصبعين .
(٣) نضح: رشح .
(٤) الرماء: الرمية المهلكة .
(٥) الديوان ج١، ص ٢٠-٢١ .
(٦) القماري: جمع قمرية وهي نوع من الحمام .
(٧) الديوان: ج١، ص ٤-٥ .

الجنة بجرعة ماء مزة تبعث النشوة في الاوصال ؟ وماذا بعد ان اعلمنا بموقفه من اللهو والخمر ؟ فما موقفه من الجسد ولذاذاته ؟ :

في نشوة الخمر سر من مراشفها ... وفي الاراكة (١) شكل من تهاديها
ياليلة بت اسقي من بنانتها ... ومن لواحظها خمراً ومن فيها
حتى اذا رف خيطالفجر وابتدرت ... حمائم الأيك تشدو في اغانيها
قامت تمايل سكرى في مآذرها ... والردع يبغتها طوراً ويثنيها
فعدت والعين غرقى في مدامعها ... والقلب في لوعة تنزو نوازيها(٢)

البارودي والسياسة :

تسوء الاحوال السياسية في مصر ، وتخوى الخزينة المصرية ، نتيجة لحياة التبذخ الكبير الذي احاط به الخديو اسماعيل نفسه به . وتضيق كل من إنكلترا وفرنسا الخناق على مصر ، بعد ان تكبلت مصر بديون ضخمة لهاتين الدولتين . في هذه الفترة بالذات يكون البارودي قد قارب الثلاثين من عمره، وبدأ يعلن عن توديعه لحياة الدعة واللهو :

نزعت عن الصبا وعصيت نفسي ... ودافعت الغـواية بالتـأسي
ومن يـك جاوز العشرين تترى ... وأردفهـا باربعـة وخـمـس
فقـد سفـرت لعينيـه الليالـي ... وبان لـه الهدى من بعد لبس

---

(١) الاراك: شجرة طويلة الساق كثيرة الاوراق والاغصان .

(٢) الحديدي : ص ٦٦-٦٧ ، هذه الابيات لم يسبق نشرها . انظر قصائده في الغزل والخمر الديوان ج ١، ص ٥١-٥٨، ٧٤-٧٥، ٩٢-٩٣، ١١٢-١١٧، ١٤٦، ١٥٥-١٥٩؛ ١٩٢-١٩٨، ٢٤٣ . ج ٢، ٩، ١٠-١٢، ٤٤-٤٦، ٥٤-٥٥، ٥٦-٥٧، ٩٢-٩٣، ٩٦، ١٠٥، ١٤٦-١٤٧، ١٨١، ١٩٧-٢٠٠، ٢١٠ . ج ٣ ٤٦-٥١، ١٥١-١٧٥، ٣٢٢-٣٢٥، ٤٣٦-٤٤٩، ٤٥٨-٤٦٠، ٤٦٧ ، ٥٠٦-٥٢٠، ٥٢٦-٥٢٨، ٥٧٨-٥٨٨
انظر كذلك/محمود حامد شوكت ورجاء محمد عيد، مقومات الشعر العربي الحديث والمعاصر، ص ٦٢-٨٣ .

فما أمسي كيومي حين اغدو ... على كبر وما يومي كأمسي (١)

ويقول في قصيدة اخرى :

متى انت عن احموقة الغي نازع ... وفي الشيب للنفس الابيّة وازع
الا ان في تسع وعشرين حجة ... لكل أخي لهو عن اللهو رادع
فحتام تصبيك الغواني بدلها ... وتهفو بليتيك(٢) الحمام السواجع
أمالك في الماضين قبلك زاجر ... يكفك عن هذا؟ بلى انت طامع
وهل يستفيق المرء من سكرة الصبا ... اذا لم تهذب جانبيه الوقائع ؟(٣)

وهو يكشف في هذه القصيدة عن طموحه ، ويسفر عن وجهه ، ويجد له العذر في مهادنة حاشية الخديو :

أعاشرهم رغما وودي وان لي ... بهم نعما ادعو به فيسارع

ويدعو الشعب الى ثورة تطيح بالحكام ، وهو عمل يحمد عليه الشاعر ويدل على رفضه لحكم العائلة الخديوية الفاسد ، ويسعى الى ايجاد البديل لهذا الفساد وهو يعلم ان الثورة لاتتم الا بمؤازرة الشعب واندفاعه التام لأجل تحقيقها :

فيا قوم هبوا انما العمر فرصة ... وفي الدهر طرق جمة ومنافع
أصبرا على مس الهوان وانتم ... عديد الحصى ؟ اني الى الله راجع
وكيف ترون الذل دار اقامة ... وذلك فضل الله في الارض واسع
أرى أرؤساً قد اينعت لحصادها ... فأين – ولا أين – السيوف القواطع
فكونوا حصيداً خامدين اوافزعوا ... الى الحرب حتى يدفع الضيم دافع (٤)

---

(١) الديوان، ج٢، ص ١٤٠-١٤٢ .

(٢) الليتان : صفحتا العنق .

(٣) الديوان: ج٢، ص ١٧٩-١٨٨ .

(٤) يقول ميكافيللي في كتابه الامير ص ٨٢-٨٣ «اذا كانت البلاد متعودة حكم أسرة مالكة فهلاك تلك الاسرة يسهل ... امتلاك البلاد لانها مفطورة على الطاعة ولانها تبحث عن امير لها بعد هلاك الاسرة المالكة فلا تجد ، ويصعب عليها ان تختار اميراً من الشعب لما يكون عادة بين الافراد من التنافس ... فيتمكن أي امير حاذق من الاستيلاء عليها» وهذا ما كان يحلم به البارودي من اثارة الشعب ضد اسماعيل وحكمه الفاسد .

ترى ألم يسمع الخديو اسماعيل بتحريضه الشعب ضده ؟ فلماذا ابقاه في معيته ؟ ولماذا لم يعاقبه ؟ وكان في امكانه ان يبطش به، أم ان الخديو اسماعيل كان مطمئنا كل الاطمئنان لأخلاص البارودي ، وتفانيه في خدمته ، والا لما وثق به كل الثقة واولاه مناصب مهمة في الدولة :

أهبت فعاد الصوت لم يقض حاجة ... اليّ ولبّاني الصدى وهو طائعُ

انه يدين الشعب المستكين الذي لم يستجب لندائه ، ولم يلق غير صدى ثورته . وهو اذ لم يحقق هدفه في ثورة الشعب ضد حكامه يرميهم بالصمم وعدم الاحساس ، ويسخر منهم ، ويشبه قلوبهم بالزجاج لضعفها :

فلم ادر ان الله صور قبلكم ... تماثيلَ لم يخلق لهن مسامع

فلا تدعوا هذي القلوب فانّها ... قواريرُ محنيٌّ عليها الاضالع

وهو بعد ان يمتدح قصيدته يشبه تأثيرها بتأثير القرآن الكريم ، وهو اقصى مايمكن ان يبلغه الغرور :

الا انها تلك التي لو تنزلت ... على جبل اهوت به وهو خاشع

وقوله هذا قريب من قوله تعالى : « لو انزلنا هذا القرآن على جبل لرأيته خاشعاً متصدعاً من خشية الله » . (١) والشاعر هنا مبالغ متطاول الى عظمة القرآن ، فكيف بالجبل ان يتصدع من تأثيرها ، في الوقت الذي لم تؤثر في قلوب الناس الزجاجية ؟ وكيف تسير بها الركبان ، في الوقت الذي لم يستمع اليها الناس ولم يستجيبوا لها ؟ « تماثيل لم يخلق لهن مسامع » .

تسير بها الركبان في كل منزل ... وتلتف من شوق اليها المجامع (٢)

ان ثورة البارودي بهذا الشكل العنيف تستحق التأمل والدراسة . فقد كان من الطبقة المرفهة التي تمتلك في يدها مقاليد الامر والنهي . وكان صهراً للاسرة الخديوية . فقد تزوج من ابنة (احمديكن) ابن اخت محمد علي ولم يكن من الطبقة المسحوقة التي عانت الامرين من نظامي الضرائب والسخرة .

(١) سورة الحشر الآية ٢١ .

(٢) الديوان: ج ٢، ص ١٧٩-١٨٨ .

وقد كان البارودى من بطانة الخديو اسماعيل فقد اتخذه سكرتيرا وحارساً وياورا . يتنقل بقلبه وجسده حيث يشاء بين الحسان . ولم يحس عرضه بأذى كما حدث للمستضعفين من الناس . وقفز في الرتب العسكرية قفزا سريعاً وتوصل إلى مناصب كبيرة كان شديد الطموح لنيلها . ولم يعان من هظم الحقوق في الرتب العسكرية كما عانى عرابي ورهطه . فقد كان من الضباط الجراكسة الذين حظوا بنعم الخديو والامتيازات التي منحهم اياها . ورفل بالنعيم والجاه والثراء .

فلماذا هذه الثورة العارمة ضد ولي نعمته اسماعيل ؟

لايشك احد بان البارودي كان يملك نفساً حساسة شاعرة ابية تستنكر الظلم والاستبداد . وقد كان اسماعيل حاكماً مستبداً . و من هنا جاءت ثورة البارودي ضد حكم اسماعيل وبطانته وقد ساعده على الثورة ثقافته العالية واطلاعه على ما كتبه فلاسفة الثورة الفرنسية وما عرضوه من اسس الديمقراطية ونظام الحكم السليم : كالحرية الفردية والعدل والمساواة والمجالس النيابية وما شاهده في انكلترا وفرنسا عند سفره اليهما من الرقي والتقدم بسبب انظمة الحكم السليمة والتفاف الشعب حول حكامه . كما تأثر بما قرأه في كتب التاريخ العربي عن نظام الشورى واثره في تقدم العرب وتطورهم منذ ظهور الاسلام . وكان اسماعيل قد حل البرلمان واعتمد في حكمه على الطبقية وكبت الحريات وارهاق الشعب بالضرائب واعمال السخرة . فأثار ذلك في نفس البارودي الابية الكره لاسماعيل ، وهذا الكره ليس وليد ساعته بل هو كره متأصل في اعماق البارودي تجاه الاسرة الخديوية برمتها نتيجة لمارسخ في نفسه منذ طفولته حينما كانت امه تروي مظالم هذه الاسرة وقتلها لجديه وابيه . فتجمعت سحب الكره في نفسه بعضها يثير البعض الآخر هذا بالاضافة إلى ان البارودي كان يجد نفسه افضل من اسماعيل وولي عهده توفيق واحق منهما بالحكم . اذا ماقارن نفسه بهما . فهو بالاضافة إلى أصلة

الكريم . وتسنم احداده مقاليد الحكم في مصر في عهد المماليك وشجاعتهم في الحروب الصليبية ، فهو رب السيف والقلم ، الشاعر الذي رددت الاندية شعره كما رددت مفاخره وبطولاته في حربي كريد والقرم .

وهو اوسع ثقافة وولي عهده واكبر ايماناً بالديمقراطية منها وبوسائل الحكم التي تكفل للامة التقدم والازدهار . على العكس من اسماعيل الذي قاد بلاده إلى هاوية الافلاس بطيشه وكبلها بقيود المصارف الاجنبية وسمح للانكليز والفرنسيين التدخل في شؤون مصر الداخلية .

الا يكفي كل ذلك لثورة رجل كالبارودي . الشديد الطموح فانبعثت صرخته مدوية تكشف عن غضبه العارم ودعوته الصادقة في الثورة على الظلم . ولكن كيف سمح اسماعيل بذيوع القصيدة ؟ لابد ان امرها قد بلغه .. وحساد البارودي كثر كما يفصح هو بل انه يؤكد ادانتهم :

فمنها لقوم اوشــح وقلائــد وفيها لقــوم آخــرين جوامع(١)

فهل خدع اسماعيل افهمه بأنها ليست ضده ؟ وكيف يستسلم اسماعيل لخداعه ، إلا اذا كان أحمق ؟ وهو ليس كذلك . وأما أن ثقته بالبارودي كانت كبيرة ، بحيث لم يعر هذه القصيدة التفاتا . ولا تأتي الثقة إلا عن طريق ادلة وبراهين في الأفعال والأقوال . أما من ناحية الفعل ،فالبارودي كما كان يبدو في الظاهر خادم أمين لاسماعيل وابنه توفيق ، عندما عمل معهما ، والا لما أبقاه في خدمته ورقاه في سلم المناصب. أما في مجال القول ، ترى هل نظم البارودي القصيدة في مدحهما ولم يصلنا هذا المديح ، لأن البارودي اتلف مثل هذه القصائد،بعد عودته من منفاه وتجميعه لقصائده التي ضمها ديوانه؟ تلك هي الحقيقة في الغالب .خاصة وان اسماعيل عندما ضمه الى حاشيته ، كان بسبب القصيدة التي مدحه بها في الاستانةوالتي لم يضمها الديوان ايضاً واغفالها(٢)

---

(١) الديوان، ج٢، ص ١٨٨ .

(٢) في الطبقة الثانية غير موجودة .

والا لما سكت اسماعيل عن تحريض الشاعر للشعب وتهديده لملكه .أم ترى أن هذه القصيدة لم تكن تضم الأبيات التي تدعو الى ثورة الشعب وادخلها فيها ، بعد أن اعد الديوان وجمعه بعد عودته من منفاه، بين عام ١٩٠٠ و ١٩٠٤ . وقد عرف عن البارودي أنه عدّل في بعض قصائده وغير فيها . وخاصة تلك التي نشرها المرصفي في كتابه (الوسيلة الأدبية) قبل ظهور الديوان (١) فعندما ظهر الديوان، ظهر الاختلاف كبيراً بين الأصل القديم المنشور وبين الصورة الجديدة للقصيدة التي ظهرت في الديوان .كما في قصيدته التي مطلعها .

أبى الشوق الا أن يحن ضمير وكل مشوق بالحنين جدير (٢)

وكان مطلعها :

تلاهيت الا ما يجنّ ضمير وداريت الا ما ينمّ زفير (٣)

ويؤكد الباحثون ظاهرة التعديل والتبديل عند البارودي. يقول شوقي ضيف: « وكان البارودي مع ذلك لايزال يراجع ماينظمه ويعود اليه بالصقل والتنقيح ويغير ويعدل فيه»(٤) وكتب لنا فصلا كاملا مستدلا بأمثلة وشواهد على ذلك(٥).

ويقول هيكل في مقدمة الديوان « فإذا خلا إلى نفسه ،بعد عودته من المنفى رتب مختاراته وعني بتنقيح ديوانه يريد اعدادها للطبع . . . واصول الديوان تشهد بهذا المجهود فانت ترى الأبيات التي حذفها من بعض القصائد والأبيات الأُخرى التي غيرها كلها أو بعضها ... » (٦) أم لأنه كان صهراً للأُسرة الخديوية، فهو قد تزوج«من ابنة أحمد يكن ابن اخت محمد علي»(٧) فلم يلتفت الى قوله مادام واحدا من الاسرة ولا يعقل انه يريد هدمها؟

(١) حسين المرصفي، الوسيلة الادبية، ص ٤٧٤-٥٠٣

(٢) الديوان، ج٢، ص ١٦-٢٣ .

(٣) الوسيلة الادبية، ص ٤٧٧-٤٧٩ .

(٤، ٥) شوقي ضيف، البارودي، ص ١٢٨-١٤٠ .

(٦) محمد حسين هيكل ، مقدمة الديوان، ص ذ - ض .

(٧) الحديدي ص٧٩ .

أو اكتفى اسماعيل بتأنيب صهر الاسرة ، وما موقف زوجته وعمه — والد زوجته — هل سكتا على موقفه ذاك ،أم انبآه ؟ أم توسطا له عند الخديو اسماعيل ،ووعداه ألايعود اليها ثانية ؟ كل هذه الأسئلة تثار حول هذا الموقف الغامض الذي كان يكتنف البارودي .فقد كان من الاولى به ألاّ يبقى في حكومة مشبوهة مثل تلك كما صورها.أو على الأقل،كان عليه ألا يبقى تابعا(باورا وسكرتيراً) لاسماعيل رئيس تلك الحكومة . ان بعض الدارسين للبارودي اكـدوا طموحه في قلب نظام الحكم للوصول اليه (١).

وتخبرنا الأحداث ان اسماعيل كان يثق بالبارودي فيتلك الفترة بالذات فيرسله مبعوثاً عنه إلى الاستانة ليقدم رسالته الى السلطان ، راجياً منه ان يقبل اعتذار مصر وبعفيها من المشاركة في اخماد ثورة الهرسك وبلاد الصرب عام ١٨٧٥ ، ثم يرسله ثانية ليقدم رسالة إلى السلطان ، تختص بالفتنة البلغارية وخروج الجبل الاسود على تركيا عام ١٨٧٦ (٢) ؛ ثم يرسله اسماعيل قائداً من قواد الحملة المصرية لمساعدة تركيا في الحرب الروسية التركية .

ويصف لنا البارودي الحرب والبلاد التي حل فيها ، والأدوات المستخدمة وقد امتلأ وصفه بالحركة والتجسيد، تماماً كوصف عنترة المتحرك المجسد لساحة المعركة ، أو كالصور التي كان يقدمها امرؤ القيس لحصانة وهي مليئة بالحيوية والنشاط ، أو كالصور الشعرية الجميلة التي كان يقدمها بشار للحرب رغم عماه . فلو أخذنا قصيدته التي مطاعها :

هنيئاً لريا ما تضـم الجوانح وان طوحت بي في هواها الطوائح (٣)

لو جدنا أن حنينه الى (ريا) حنيناً تقليدياً ، لم يكن إلا مدخلاً لوصف الحرب حيث يقول :

مدافعنا نصب العدا ومشاتـنـا قيام تليها الصافنات القوارح (٤)

---

(١) الحديدي، ص ٧٩، ٨١ .
(٢) الحديدي، ص ٨٤ عن كتاب مراثي الشعراء، ص ١١ .
(٣) الديوان ج١، ص ٨٩-٩٦ .
(٤) القوارح : من الخيل ما بلغ الخامسة من عمره .

ثلاثة أصناف تقيهن ساقةٌ (١) حيال العدا ان صاح بالشر صائح (٢)

وقد كان حنينه الى مصر قوياً في القصيدة التي مطلعها :

اراك الحمى شوقي اليك شديد وصبري ونومي في هواك شريد(٣)

وفيها رغبة عارمة لقضاء العيد بين أهله. وقد وصف بها طبيعة(سر نسوف)(٤) التي تحولت الى جحيم لايطاق :

بلاد بها ما بالجحيم وانما مكان اللظى ثلج بها وجليد

ومما زاده وحشة واحساسا بالغربة تزاحم جيوش الروم والبلغار الذين لم يفهم من رطانتهم شيئا :

يخورون حولي كالعجول وبعضهم يهجن لحن القول حين يجيد

وقد يسأل سائل : لما انسالت ذكريات القاهرة وايامها في هذه القصيدة ؟ ولماذا هذا التمني بالعودة إلى ارض مصر ؟ ولماذا لم نجد مثل ذلك الحنين عندما كان في استنبول مثلا ؟ علمنا فيما مضى من القول لماذا لم يأت على ذكر اهله وهو في استنبول فيما سبق .

وقد يسأل سائل : الم يحن إلى مصر وهو يقاتل في جزيرة كريد ؟ فهذا الحنين مثل ذلك الحنين . اقول ان حنينه إلى مصر وهو يقاتل في جزيرة كريد يختلف عن حنينه هذا . فهو في الاول يسرع في العودة ، مفاخرا بالنصر الذي احرزه فهو يتوقع ان يوضع فوق رأسه تاج من الغار بعد ان حقق نصرا اكيدا يفاخر به ويشمخ إلى السماء زهوا . وقد كوفيء فعلا بوسام عثماني من الدرجة الرابعة انعم به عليه السلطان عبد العزيز (٥) . اما في روسيا فقد كانت المسألة جد مختلفة .

---

(١) ساقة : مؤخرة الجيش .

(٢) الديوان : ص ٩٤ .

(٣) الديوان ج١ ، ص ١٤١-١٤٥ .

(٤) مدينة في أوكرانيا واقعة على نهر الدنيبر .

(٥) محمد صبري ، شعراء العصر ، ص ١٨ .

فهي حرب خاسرة بالنسبة للدولة العثمانية (الرجل المريض) (١). وبالتالي هي غير مشرفة بالنسبة للحملة المصرية التي كان البارودي احد قادتها . هذا بالاضافة إلى الاحداث الجسام التي كانت تتجمع في مصر ، والتي كان البارودي يسعى لادلاء دلوه فيها . فقد كان يحس بحاسته السادسة ان احداثاً جساماً ستتمخض عن ذلك وان امله الكبير لايتحقق الا عن طريق ثورة تطيح بالاسرة الخديوية . فعليه اذن ان يكون قريباً من هذه الاحداث قريباً من البلاط ليحقق الطموح الذي عاش له ، ويستلم الحكم ويتأثر لابيه وجديه ، ويعيد مجد الاسرة التليد .

يعود البارودي إلى مصر بعد انتهاء الحروب التي خسرتها الدولة العثمانية عام ١٨٧٨ ، ليجد « في مصر نصرا مؤزرا ، نصرا حققته الصحافة والادب في ايقاظ الرأي العام وتجميعه وتحريكه » (٢) . وكان سبب تلك الحركة سوء الحالة الاقتصادية . وعجز اسماعيل عن تسديد ديونه لانكلترا وفرنسا والافكار الاصلاحية التي اخذ ينشرها جمال الدين الافغاني وتلامذته من المصريين (٣) والوعي الديني الذي دعا اليه محمد عبده . ودارت في المجالس

(١) وقد «كوفيء برتبة أمير لواء وبالوسام المجيدي من الدرجة الثالثة ونيشان الشرف » محمد صبري، شعراء العصر، ص ١٩ .

(٢) الحديدي: ص ٨٩ .

(٣) يقول الحديدي في كتابه، البارودي شاعر النهضة: «وكأن الافغاني رأى بظهر الغيب ان للبارودي رسالة في وطنه ودوراً في سبيل تحرير امته ووجده على ثقة بنفسه في اداء الرسالة فقد تهيأ لها بنزعته وآماله واقتدر عليها بطموحه واستعداده » . ص ١٤١ .
وقد دخل الافغاني في الماسونية في اواخر ايام من عام ١٨٧٥ (علي الوردي، لمحات اجتماعية في تاريخ العراق الحديث ج٣، ص ١٧٦) ولكن الافغاني اختلف مع المحفل الماسوني التابع لانكلترا وانشأ محفلا ماسونيا تابعاً للشرق الفرنسي «ضم اليه عدداً كبيراً من اصحاب النفوذ في مصر بمساعدة رياض باشا رئيس الوزراء وهو الذي استقدمه إلى مصر وتولى رعايته فيها واجرى عليه راتباً شهرياً واعد له مسكناً في خان الخليلي ويقال انه كان في حارة اليهود ... وفكر الافغاني بموافقه محمد عبده في اغتيال الخديو اسماعيل اثناء مروره على كوبري قصر النيل لان جمال الدين كان متفقاً على برنامج الحكم مع ابنه توفيق الذي كان قد نجح في ضمه إلى محفله الماسوني وقد اشترك من بعد مع نوبار باشا في السعي لعزل اسماعيل» محمد حسين، الاسلام والحضارة الغربية، ص ٧٩، ٨١ .

احاديث صريحة حول سوء الحالة السياسية والاقتصادية في مصر ، والقيت الخطب ، ولكن احدا لم يتطرق صراحة إلى اسماعيل ، فقد كان الجميع يخشون بأسه وجبروته . ويشارك البارودي في المعركة ، ويذكي المشاعر ضد اسماعيل دون ان يشير إلى اسمه في قصيدته التي مطلعها :

دع الذل في الدنيا لمن خاف حتفه فالموت خير من حياة على اذى(١)

وهو يدعو الاحرار إلى إتباعه والسير ورائه :

لعمري لقد ناديت ، لو ان سامعاً ونوهت بالاحرار لو ان منقذا

ولكن إلى اين ؟ لم يحدد البارودي طبيعة المسيرة . ترى هل هي الثورة ؟ أم الاصلاح ؟ ويعود ثانية إلى لوم الآخرين لانهم كسالى خاملون :

وطوفت بالآفاق حتى كأنني احاول من هذي البسيطة منفذا

انه سعى إلى المجد من جراء تطوافه ، فقد حقق طموحات عدة من جراء سفره إلى استنبول واشتراكه في حربي كريد وروسيا . ولكنه مازال يطلب المجد .

—وقد كانت مدرسته « الافغاني» الثانية النظامية فكانت اكبر أثرا واعم نفعاً وهي التي كانت يلتقى عليه فيها زواره في بيته وعظماء الرجال عند زيارته لهم في بيوتهم وخاصة المفكرين والمثقفين عند تحلقهم حوله في قهوة البوسطة ... وفي هذه المدرسة تنقى دروسه امثال محمود سامي البارودي احمد امين ، زعماء الاصلاح ، في العصر الحديث ص٦٧ ، ويقول محمد محمد حسين في كتابه الاتجاهات الوطنية هامش (١) ص١٣٥ :

« ومن المعروف ان جمال الدين الافغاني هو مؤسس الماسونية في مصر وانه قد ضم اليها تلاميذه المقربين الذين لعبوا الدور الاول في تهييج الناس ... ومن المعروف ايضاً ان بعض زعماء الثورة مثل البارودي كان ماسونيا وان المستر بلنت —وهو ماسوني—كان على صلة بزعماء الثورة كما هو ثابت في مذكراته » . وربما خدع الافغاني وتلامذته بظاهر الماسونية الداعية إلى افكار انسانية تحريرية ولم يكونوا على علم بنواياها الخبيثة وشرها المميت .

وهناك رأي يؤكد ان الافغاني وبعض تلامذته تركوا المحفل الماسوني بعدان تأكد لديهم خطر الماسونية وسوء نواياها . انظر على سبيل المثال (الماسونية مؤامرة اخرى على الاسلام) لأحمد الشرباصي ، مجلة الهلال يونية ١٩٧٧ ص ٣٨ .

(١) الديوان : ج١، ص٢٢١ ـ ٢٢٢ .

ومع ذلك يحتمل عدم تحقيقه فيصبر على كراهية وتبرم ومضض :

اذا ما رأيت الشيء في غير اهله ولم استطع ردا طرقت على قذى

ولكنه لم يطق بعد احتمال كتمان طموحه الاكبر ، فهو يكلفه الشيء الكثير :

فحتى متى يادهر اكتم لوعة تكلف قلبي كلفة الريح بالشذا

ولكن لماذا لايبوح بمراده ؟ لماذا لايعلن عن طموحه ؛ ؟ فهل يخشى بطش اسماعيل ؟ انه يدرك ان ذلك محال ، لذا يعود إلى التوسل بالدهر تارة ولومه تارة اخرى :

ألم يأن للايام ان تبصر الهدى فتخفض مأفونا وترفع جهبذا؟

اذا لم يكن بالدهر خبل لما غدا يسير بنا في ظلمة الجور هكذا

ولكن ترى لماذا سار في ركاب المأفون هذا ؟ ولم رضي بنعمه؟ ولم اصبح جزءا من جهازه الاداري ثم عضوا في حكومته ؟ هل هو الطموح ؟ او الامل بالوصول ؟ ثم ما بال اسماعيل لم يحرك ساكناً ؛ بل على العكس أكرمه اكثر من ذي قبل . هل كان يخشى فتنته ؟ فالدلائل تدل على عكس ذلك تماماً ، فقد كان يثق به ثقة كبيرة ، اذ عينه بعد عودته من الحرب الروسية مديرا للشرقية ، وبعد اربعة اشهر اعاده إلى القاهرة لينصبه محافظاً لها . وكانت مسؤولية البارودي في اسناد نظام الحكم المتداعي كبيرة جدا ، فقد ثار الشعب لدخول وزيرين اجنبيين في الوزارة ، أنكليزي لوزارة المالية وفرنسي لوزاره الاشغال ، ولحل البرلمان المصري ،والقضاء على الروح الديمقراطية فيها . وثار الضباط المصريون لتسريحهم من الجيش ، وكانت كل من انكلترا وفرنسا تسعيان الى إقالة اسماعيل بعد ان اشترتا منه الاسهم المصرية لشركة قناة السويس . وفكرتا في الاحتلال العسكري للقناة ، حماية منها لما كانت تسميه (ممتلكاتها الخاصة). وبعد ان القى اسماعيل القبض على الضباط المتمردين جاء بهم امام البارودي محافظ القاهرة .

« وترك لقاء البارودي في نفوس زعماء الحركة الكثير من الثقة والاطمئنان اليه واتصل به علي الرومي سراً » (١) لقد اطمأن البارودي الآن فلا خوف عليه من اسماعيل ماداموا قد رأوا ان في ابقاء علاقته بهم سراً ادعى لنجاح الحركة » . (٢) وهو في هذه الاثناء يعود الى نفس موقفه السابق ، من اثارة الشعب ضد نظام الحكم . فيتحدث عن فساد الحكومة وعن تواني الشعب دون ان يذكر اسم اسماعيل . وقد ذكرها شارحاً الديوان « وقال يذم سيرة الحكام ويحض الناس على طلب العدل في الاحكام ، وذلك في عهد اسماعيل باشا خديو مصر ». (٣) على حين قال هيكل : انه قيلت في حكم توفيق وليس في حكم اسماعيل . (٤)

وهذا ما اراه صائباً فلا يعقل ان يغفر له اسماعيل مرة ثانية ، وهو يكيل الذم والتقدح برجال حكومته :

من كل وغد يكاد الدست يدفعه ... بغضاً ويلفظه الديوان من ملل
ذلت بهم مصر بعد العز واضطربت ... قواعد الملك حتى ظل في خلل
لم أدر ماحل بالابطال من خور ... بعد المراس وبالاسياف من فلل
لايدفعون يدا عنهم ولو بلغت ... مس العفافة من جبن ومن خزل
هيهات يلقى الفتى أمناً يلذ به ... مالم يخض نحوه بحرا من الوهل

وهو يهيب بهم ان يبادروا إلى الثورة ومبادرة الفرصة خوف فواتها :

فبادروا الامر قبل الفوت وانتزعوا ... شكالة الريث فالدنيا على عجل

ولكنه لاينسى مطالبتهم بالملك ان استتب لهم الامر :

(١، ٢) الحديدي، ص ١٠١ عن بلنت، التاريخ السري، ص ١٠١، ١٠٥ يقول عرابي في كتابه كشف الستار عن سر الاسرار ج ١، ص ٤٦ « وكذلك طلبنا مأمور الضبطية محمود سامي باشا البارودي واخبرنا بما اخبرنا به عبد القادر باشا حلمي فاجبناه بمثل ما اجبنا به من قبله وانصرفنا وقد آنست فيه تقففاً من الظلم والاستبداد وميلا الى العدل والدستور » .

(٣) الديوان: ج ٣، ص ٥ .

(٤) هيكل ، مقدمه الديوان، الطبعة الاولى، ص ٢٦

وقلدوا أمركم شهماً أخا ثقة   يكون لكم في الحادث الجلل(١)

وعندما حلت الازمة الوزارية في عهد اسماعيل طلب إلى ابنه وولي عهده توفيق بتشكيل الوزارة ، ووعد توفيق بالاصلاح وتقرب من زعماء الحزب الوطني الحر ونجده «ويتصل بجمال الدين وينضم الى محفله الماسوني ويحبذ آراءه الاصلاحية . » (٢)

وطلبت الدول الأجنبية -- انكلترا وفرنسا -- من السلطان العثماني عزل اسماعيل .فتولى توفيق الحكم عام ١٨٧٩« ورحب المصلحون جميعاً بارتقاء توفيق منصة العرش واعتبروه دليلاً على حسن الطالع » (٣) وعين البارودي وزيراً للمعارف والاوقاف(٤)«فأنشد مطولة يحيي فيها توفيقاً ويهنئه بجلوسه على الاريكة الخديوية » . (٥) وقال في قصيدته الطويلة هذه محيياً توفيق بالعرش ومهنئاً له بجلوسه على الاريكة الخديوية : (٦)

---

(١) الديوان : ج٣، ص ٥-٣٥، وهي قصيدة طويلة في ذم الحكام. يقول الحديدي، البارودي شاعر النهضة، ص ١٥٨-١٥٩ « ان انظار كثير من شباب حزب الاحرار من المحفل الماسوني وغيرها تطلعت الى البارودي ليكون هذا الزعيم ... فقد كان وقتذاك كما وصف نفسه ومكانته بقوله: واصبحت محمود الجلال كأنني   على كل نفس في الزمان أمير .وكان كما قال عنه صديقه الشيخ محمد عبده: كلمة امير في مصر كثيرة التداول ولكن مصداقها محمود سامي البارودي ... فيقدم نفسه الى مواطنيه ليعرفوا فيه الامير الحق والقائد المرجو » .

(٢) الحديدي، ص ٩٥ عن تاريخ الاستاذ الامام ، ج ١، ص ٤١ .

(٣) الحديدي، ص ٩٥ عن بلنت، التاريخ السرى، ص ٥ »

(٤) وناط بهم البحث عن الاوقاف المجهولة بواسطة كتب التاريخ والحجج الموجودة بالديوان وبذلك اهتدى إلى اماكن كثيرة بعضها مهجور وبعضها مع اناس وضعوا ايديهم عليه بلا مسوغ فاستولى عليها وضمها إلى الديوان ... وكان ذلك مبدأ الفكر في انشاء المكتبة المصرية (الكتبخانة الخديوية) وجمع الآثار بجامع الحاكم » محمد صبري، شعراء العصر، ص ٢٠-٢١

(٥) الحديدي، ص ٩٦ . عمر الدسوقي، في الادب الحديث، ص ١٤٩ . شوقي ضيف، البارودي ص ٧٠ .

(٦) رفعت هذه القصيدة من الديوان المطبوع عام ١٩٥٤ الجزء الاول وهي من قافية الدال وسبب ذلك الاوضاع السياسية في مصر آنذاك .

أبني الكنانة أبشروا بمحمد ... وثقـوا براع في المكارم أرغد
فهو الزعيم لكم بكل فضيلة ... تبقى مآثـرها وعيش أرغد
ملك نمته أرومة مـلوية ... ملكت بسؤددهـا عنان الفرقد
بداهاته قيد الصواب وعزمه ... شرك الفوارس في العجاج الاربد
فاذا تنمر فهو زيـد(١)فـي الوغى ... وإذا تكلم فهو قيس(٢)في الندى
فنهاره غيـث اللهيف وليله ... في طاعة الرحمـن ،ليل العبد
لهج بحب الصالحـات فكلما ... بلغ النهاية من صنيع يـبتدي
خلـق تميز عن سواه بفضله ... والفضل والاخلاق أرث المحتد
اقليد(٣) معضلة ومعقل عائـذ ... وسماء منتجـع وقبلة مهتـد
حسنت بـه الايام حتى اسفرت ... عن وجه معشوق الشمائل أغيد (٤)
وضعت موارد مصر حتى أصبحت ... بعد الكدورة شرعـة للـورد
فالعدل يرعاها برأفة والـد ... والبأس يحميهـا بصونة أصيد (٥)
بلغت بفضل محمد ما أملت ... من عيشة رغـد وحد أسعـد
هو ذلك الملك الذي أوصـافه ... في الشعر حلية راجز ومقصد
فبنوره في كل جنح يهتدي ... وبهديه في كل خطب نقتدي...
فاسعد ودم واغنم وجدوانعم وسد ... وأبدأ وعد وتهن واسلم وازدد
لازال عدلك في الانام مخلدا ... فالعدل في الايام خير مخلَّد(٦)

ماذا أبقى البارودي من صفات التكريم فلم يلصقها بالخديو توفيق ،وهو الذي يعرف توفيقاً على حقيقته ؟ فقد عمل تابعاً لأبيه وسكرتيراً ، ثم عمل ياوراً لتوفيق عندما كان ولياً للعهد .فإذا كانت هذه الصفات حقيقية فيه فلماذا قلب له البارودي ظهر المجن وراح يكيد له ،ويهاجمه في شعره هجوماً شديداً ؟ فمن

---

(١) زيد الخيل وهو من فرسان العرب

(٢) قيس بن خارجة بن سنان خطيب حرب داحس والغبراء .

(٣) اقليد: مفتا .

(٤) اغيد: ناعم البشرة .

(٥) أصيد: الأسد .

(٦) الديوان : جـ١ الطبعه الاولى ، ص ١٣٠-١٣٨ .

مدح وذم كذب مرتين .وإذا كان يعرف أن خلاله على الضد مما وصف فقد كذب على نفسه وعلى الشعب الذي كان يمثله الضباط الاحرار الذين اولوه ثقتهم .

ولماذا قدح في اسماعيل ولي نعمته ؟ ألانه أراد أن يحظى بمكانة أعلى عند توفيق ، أم أنه خشي أن يعده توفيق من رجال والده المخلوع فلا يثق به ، وهذه طبيعة الملوك ؟ انه يقدح في حكم اسماعيل في نفس القصيدة . فيقول :

اطلقت كل مقيد وحللت كل معقد وجمعت كل مبدد
ومتعت بالعدل منك رعية كانت فريسة كل باغ معتد

ثم ماذا ؟ نكل توفيق بالدستور وابعد الافغاني عن مصر(١) ،وحكم مصرحكماً مطلقاً فسقطت الوزارة ، وتشكلت وزارة جديدة برئاسة (مصطفى رياض) « العميل المثالي فقد كان يمعن في الاذعان لوكلاء الدول ويهوى الحكم المطلق هواية تسلطت على نفسه » . (٢) واصبح البارودي وزيراً للاوقاف مع علمه باستبداد رياض . هذا بالاضافة إلى نقضه للعهد مع شريف الذي ادخله في وزارته – قبل ذلك –وزيراً للمعارف والاوقاف . « فقد أخذ عليه بعض المؤرخين أنه خرج على الاتفاق الذي عقده شريف مع وزرائه بألا يشتركوا في وزارة جديدة إلا إذا وافق الخديو على البرنامج الدستوري الذي أعده شريف وان يكون هو رئيس الوزراء » (٣) .

وعادت حركة الضباط الاحرار إلى سابق عهدها ، وكان سببها : «الفروق الطبقية والعصبية للجنس التي أخذت تتحكم في مقدرات الضباط والجيش فقد كان الضباط الجراكسة والارقاء والاتراك يمنحون الترقيات ويوضع زمام سلطة الجيش في أيديهم على حين يلقى الضباط المصريون أسوأ أنواع المعاملة والزراية

(١) «ومن المؤلم حقا ان يتقرر نفي جمال الدين ويصدر مثل هذا البلاغ من حكومة يرأسها الخديو توفيق باشا ... ومن وزرائها محمود باشا سامي البارودي وزير الاوقاف وقتئذ وقد كان من اصدق مريديه وانصاره فتامل كيف يتنكر الانصار والاصدقاء لاستاذهم والى اي حد يضيع الوفاء بين الناس . ولاندري كيف اساغ البارودي نفى السيد جمال الدين واشترك في احتمال تبعته واذا لم يكن وافقا على هذا العمل المنكر فلم لم يستقل من الوزارة احتجاجا واستنكاراً» علي الوردي ص ٢٨٢

(٢،٣) الحديدى ،ص٩٨ انظر عبدالرحمن الرافعي الثورة العرابية والاحتلال الانكليزي ص٣٧-٣٨

والاهمال وامعن كبار الضباط الجراكسة في تعصبهم حتى كادوا يجعلون حرمان الضباط المصريين من الترقي أمراً مشروعاً ويقصرونها على بني جنسهم . وبدأت الثورة تجتاح قلوب الضباط المصريين جميعاً وكان أكثرهم قد انضم لحركة الضباط » . (١)

وقد وجد البارودي أن الفرصة سانحة له ، واعلن شعره في أوقات كثيرة عن طموحه الكبير :

أطالب أيامي بما ليس عندها ... ومن طلب المعدوم اعياه وجده
فما كل حي ينصر القول فعله ... ولا كل خلّ يصدق النقص وعده
واصعب مايلقى الفتى في زمانه ... صحابة من يشفى من الداء فقده
أبى الدهر الاّ أن يسود وضيعه ... ويملك أعناق المطالب وغده
ومن ذلّ خوف الموت كانت حياته ... أضر عليه من حمام يؤده
واقتل داء رؤيةً لعين طالما ... يسيء ويتلى في المحافل حمده
فما بي إلى العلياء فرع تأثلت ... ارومته في المجد وافتر سعده
وحسب الفتى مجداً إذا طالب العلا ... بما كان أوصاه أبوه وجده
أصدّ عن المرمى القريب ترفعاً ... واطلب أمراً يعجز الطير بعده
ولابد من يوم تلاعب بالقنا ... أسود الوغى فيه وتمرح جرده (٢)

لقد حانت الفرصة التي طالما أصر في شعره على اقتناصها . ولكن السؤال القائم ، لماذا مدح توفيقاً ؟ هل لأنه أعطاه وزارة يعدها الدرجة الأولى في سلم الصعود إلى مايصبو اليه؟ ولماذا حالف حركة الضباط إذاً وهو في الوزارة؟هل لانه يأمل الوصول إلى أمر يقصر الطير عنه ؟ انه الصواب حتماً . فقد أثرت المذكرة التي قدمها عرابي وصحبه في الخديو توفيق « واجتمع مجلس الوزراء في ٣١ يناير برئاسة الخديو ، وقرر توفيق ورياض وعثمان رفقي وزير الحربية

---

(١) الحديدي، ص ١٠٤ .

(٢) الديوان، ص ١١٤-١١٨ .

آنذاك قتل الحركة في مهدها باستئصال زعمائها ودبروا لثلاثتهم — زعماء الضباط الثوار—مؤامرة للقضاء عليهم بعد محاكمة صورية(١)ولكن السر وصل إلى الضباط في الحال من محمود سامي البارودي » (٢) وتمرد الضباط وجنودهم فذعر توفيق « واستسلم توفيق وانتدب البارودي لمفاوضة الزعماء .. فأقيل عثمان رفقي والغي قانون العسكرية واسندت وزارة الجهادية إلى محمود سامي البارودي» (٣)

وكان ذلك التعيين منسجماً مع اهداف الضباط فقد كانوا يجدون في البارودي نصيرا لهم (٤) ومن هنا توطدت صلات الثقة بين البارودي والضباط اذ برهن على أنه كان مؤيداً لهم داخل مجلس الوزراء ثم قام البارودي باعتباره وزيرا للحربيه بتعديل القوانين العسكرية لاصلاح حالة الجيش وزيادة مرتبات الضباط . (٦)

وأقام مأدبة فخمة بالمناسبة ارتجل فيها خطاباً كله ثناء على الخديو توفيق

(١، ٢) الحديدي، ص ١٠٥ عن البحر الزاخر، ج ١، ص٢٠٦-٢٠٧، محمد حسين هيكل، تراجم مصرية وغربية ص ٨٣، تاريخ مشاهير الشرق ج ٢، ص ٣٠١ .

(٣) الحديدي، ص ١٠٦ . يقول هيكل في كتابه تراجم مصرية وغربية، ص ٨٣ « ورأى نفسه .الخديو توفيق في مأزق لا يعرف سبيلا إلى النجاة منه سارع إلى اجابه طلب العصاة واقال عثمان رفقي من الحربية وعين مكانه صديق الضباط المتنفضين محمود سامي البارودي» ويقول عبد الرحمن الرافعي في كتابه الثورة العربية ، ص ٣٨ « على حين ان الاطماع في رآسة الوزاره هي التي اشارت عليه هذه الحماة » (ورجال المطامع يغتنمون هذه الفرص لنيل المناصب الكبرى وكثيراً ما كانت امثال هذه الحركات سبباً في انتقال الملك من دولة الى دولة اذا وافقت الاحوال وتوفرت الرجال وفي التاريخ امثلة كثيرة من هذا النوع اما المترجم فقد كان طامعاً في منصب الوزارة وما وراءه فكان ينقل إلى عرابي ورفاقه قرارات ذلك المجلس وابحاثه ما يتعلق بهم ليحذروه او يتهيأوا للقائه مما يطول شرحه وقد نجح في ما كان يؤمله فتولى نظارة الجهادية ثم رئاسة النظار فكان له النفوذ الاعظم في تلك الثورة اما عرابي فقد تصدر لها وتظاهر بها عن صدق نية وبساطة»، جرجي زيدان، تراجم مشاهير الشرق، ص ٣٩٧ .

(٤) احمد عرابي، كشف الستار، ص ١٦٥-١٦٦، ص ١٧٧ .

(٥) عبد الرحمن الرافعي، الثورة العرابية، ص١٠٧ ١١٨-١١٩ .

(٦) احمد عرابي، كشف الستار، ص ١٦٧-١٦٨ . يقول ميكافيللي ، ص ١١٤ : « أن واجب الامير ان يكسب ثقة الشعب وصداقته والافلا ملجأ له في وقت الشدة ولا سلامة حين المحنة ».

وتعظيم له جاء فيه « وقد رأينا في هذا الزمن القليل من عهد ما استلم خديوينا المعظم زمام الحكومة تغييرا مهماً اذ تبدل فيه العسر باليسر والظلم بالعدل والنقم بالنعم وتقدمت فيه البلاد إلى نجاحها تقدماً سريعاً وما ذلك الا من حسن مقاصد هذا الجناب وطهارة سجاياه وانه اصطفى لمساعدته على مقاصده الجليلة رجلا غيورا على الهمه ذكي النفس هو حضرة دولة رياض باشا فلم يأل جهدا في العمل ولم يقصر في تذليل المصاعب باتحاده مع حضرات رفاقه الكرام حتى وصلنا إلى هذه الغاية » . (١)

يقول علي الوردي : « شعر الافغاني في عهد توفيق باشا كأن الدولة المصرية كلها اصبحت طوع يده فقد كان توفيق باشا ما سونياً وكان علاوة على ذلك محباً للافغاني ومعجباً بافكاره واخذ الافغاني يوجه اعضاء محفله الماسوني نحو العمل الجدي لاصلاح الجهاز الحكومي وجعلهم عدة فئات واناط بكل فئة فيهم مراقبة الدوائر في وزارة من الوزارات ففئة للحقانية واخرى للمالية وثالثة للاشغال ورابعة للجهادية » . (٢)

وبدت الامور وكأنها قد استقرت وهدأت تماماً .

ولكن رئيس الوزراء رياض كان سريع الحركة فلم ينفذ شيئاً مما قرر فعله . عندما رأى ان الوزارة بدأت في الضعف والانهيار على حساب قوة الجيش « وكان سامي البارودي ... من اقوى المحركين لعرابي ومن معه » (٣) كما تحرك توفيق بسرعة واقال البارودي من منصبه وعين مكانه صهره داود باشا يكن . (٤)

وكانت فرصة البارودي سانحة تماماً : « استقل البارودي إلى ضيعة بقرقيرة .. وقلبه يفيض بالكراهية والحقد على رياض ذلك النمام الذي

(١) احمد عرابي، كشف الستار ص ١٦٥-١٦٦، ١٧٧
(٢) علي الوردي: لمحات اجتماعية، ص ٢٨٠ .
(٣) هيكل، تراجم، ص ٨٤ .
(٤) هيكل، ص ٨٤، احمد عرابي كشف الستار ، ص ٢٢٥ .

كشف صلته بزعماء الحركة وجرى بالوقيعة حتى اقاله فاصابه في مقتلين اصابة في امانيه الشخصية فتبدلت احلاماً ...». (١) ويصب البارودي جام غضبه على رياض . لقد كشفه امام توفيق فلم يبق امامه سوى الدعوة للثورة.

هذا الذي تكره الابصار طلعته فحظها منه ايذاء وايلام
في وجهه سمة للغدر بينة وبين جنبيه احقاد وادغام(٢)
وكيف يصلح امر الناس في بلد حكامه لبنات اللهو خدام (٣)

لقد كان يخمن نجاح دعوته فبدأ يدعو ، ويشيد بمنزلته وعظمته ومكارم خلقه ودعوته إلى العدل :

حلبت اشطر هذا الدهر تجربة وذقت مافيه من صاب ومن عسل(٤)
فما وجدت على الايام باقية اشهى إلى النفس من حرية العمل
لكننا غرض للشر في زمن اهل العقول به في طاعة الخمل
قامت به من رجال السوء طائفة ادهى على النفس من بوس على ثكل

° °

واصبحت دولة الفسطاط خاضعة بعد الاباء وكانت زهرة الدول

° ° °

بئس العشير وبئست مصر من بلد اضحت مناخاً لاهل الزور والخطل
أرض تأثل فيها الظلم وانقذفت صواعق الغدر بين السهل والجبل
واصبح الناس في عمياء مظلمة لم يخط فيها امرؤ الا على زلل

---

(١) الحديدي، ص ١٠٨ – ١٠٩ .
(٢) ادغام: الحقد الثابت في الصدر .
(٣) الحديدي، ص ١٠٩، هذه الابيات لم يسبق نشرها .
(٤) الديوان، جـ٣، ص ٥-٣٥ .

ويذكر الشعب المصري ببطولات أجدادهم وكأنه يستوحي بطولات أجداده هو ويستحثهم على الثورة : (١)

وتلك مصر التي أفنى الجلاد بها | لفيف اسلافكم في الاعصر الأول
قوم أقروا عماد الحق وامتلكوا | أزمة الخلق من حاف ومنتعل
ولاتلجو اذا ما الرأي لاح لكم | إن اللجاجة مدعاة الى الفشل

* * *

ولاتتركوا الجد أو يبدو اليقين لكم | فالجد مفتاح باب المطلب العضل

وتسارعت الامور وبدا للراصد وكانه قد نجح فعلاً في تحقيق هدف جديد من أهدافه فقد شكلت وزارة جديدة برئاسة محمد شريف (٢) واصبح البارودي فيها وزيراً للجهادية .وتذكر كتب التاريخ أن رئيس الوزراء شريف باشا رفض أن يجعل البارودي وزيراً للجهادية في وزارته لانه خان العهد ودخل وزارة رياض باشا السابقة ولكنه خضع لالحاح عرابي حتى أن شريفاً عرض على عرابي وزارة الجهادية ولكنه رفضها واصر على أن يكون البارودي وزيراً للجهادية فوافق شريف على مضض . (٣) وقوي مركز البارودي حتى أصبحت داره مقصداً لطلاب الحاجات وقويت العلاقة بينه وبين عرابي . وطلب البارودي إلى عرابي أن يصبح وكيلاً لوزارة الجهادية وعين في هذا المنصب في ٤ يناير١٨٨٢ .(٤)

---

(١) يقول ميكافيللي ص ٧١ : «لأن طبيعة التملك والسيادة راكزة في نفس كل أمير بل اراني أميل للثناء على كل راغب في مد نفوذه اذا كان يحسن التصرف ولكن من يحاول امتلاك البلاد وهو جاهل بطرق السياسة يتغافى فيما توحيه اليه شهوة التملك فهو جدير بان يلام على تهوره لوما عنيفا» .

(٢) «ولما تقلد شريف باشا رئاسة الوزارة دعاه لان يكون ناظراً للجهادية كما كان فابى واجاب بانه عقد النية على الايقلد خدمة من خدمات الحكومة ما دام لرجال العسكرية سلطان يعلو سلطان القانون والح عليه فلم يقبل حتى دعاه الخديو... فقبل ذلك ثانيا» . محمد صبري، شعراء العصر، ص ٢١ .

(٣) احمد عرابي، كشف الاسرار، ص ٢٣٨-٢٣٩ . الرافعي، الثورة العرابية ، ص ١٤٨ .

(٤) الرافعي ، المصدر السابق ص ١٧٥ - ١٧٦

وحدثت أحداث اجبرت رئيس الوزراء على الاستقالة ،فاسند الخديو توفيق إلى البارودي رئاسة الوزارة في عام ١٨٨٢ .ولكن هل حقق البارودي ماكان يطمح اليه ؟ (١) .

لقد شرع البارودي عند تعيينه رئيساً للوزارة بكسب ثقة الشعب باعلان الدستور واجراء الانتخابات النيابية في البلاد ،وهو عمل يدل على الاصلاح الذي كان يزمع البارودي تحقيقه . وجاء هذا العمل تأكيداً لما كان يردده في شعره ويدعو اليه (٢) فقد كثرت دعوته إلى خلق نظام نيابي في البلاد كسمة من سمات الديمقراطية التي كان ينشدها البارودي ويؤمن بضرورتها بالنسبة لنظام الحكم في البلاد :

سن المشورة ، وهي أكرم خطة   يجري عليها كل راع مرشد
هي عصمة الدين التي اوصى بها   رب العباد إلى النبي محمد
فمن استعان بها تأيد ملكه   ومن استهان بأمرها لم يرشد
أمران ماجتمعا لقائد أمة   الا جنى بهما ثمار السؤدد
جمع يكون الأمر فيما بينهم   شورى وجند للعدو بمرصد
هيهات يحيا الملك دون مشورة   ويعز ركن المجد مالم يعمد(٣)

والذي يوقف الباحث قليلاً عند هذا الأمر .ان البارودي لم يكن يثق بالناس كثيراً وكان يدعو الى الاحتراس منهم والحذر تجاههم :

---

(١) قال ميكافيللي ص ١٥٩ – ١٦٠ « وقد تعلمت الحكومات المنتظمة والامراء والعقلاء الا يلحقوا بالامة القنوط وان يرضوا الشعب ويقنعوه .. ومن هذه النظامات (مجلس البرلمان) لئلا يسخط عليه الاشراف لشدة اهتمامه بالعامة أو يسخط العامة لشدة اهتمامه بالاشراف فالواجب على الأمير أن يحترم اشرافه دون أن يحصل على بغض الامة » .

(٢) الديوان : جـ٢ ، ١٧٩، ١٨٨، ٢٢٥ – ٢٣٠ .جـ٣ ، ٥ – ٣٥، ٤٦٨ – ٤٨١، ٥٥٥ – ٥٥٩ ،٣٦٢ – ٥٦٥

(٣) ديوان البارودي، دار الكتب المصرية ، جـ١ ص ١٣١ – ١٣٨

بلوت الناس واستخبرت عنهم صروف الدهر آنا بعد آن
فما أبصرت غير أخي كذاب خلوب الود مصنوع الحنان
يصرح بالعداوة وهوناء ويحذق (١) في المحبة وهو دان
له في كل جارحة لسان يدور به على حكم الزمان
فلا تأمن على نجواك صدراً فرب خديعة تحت الأمان
فلا يغررك قول دون فعل فان الحسن قبح في الجبان
وخل الناس عنك فليس فيهم سليم القلب عند الامتحان
تشابهت الاسافل بالاعالي فما تدري الهجين من الهجان (٢)

فلماذا فعل ذلك ؟ لقد آمن البارودي بالنظام الديمقراطي الذي شاهده في انكلترا وفرنسا عند سفره اليهما ومضى في تحقيق المجلس النيابي رغم علمه بمعارضة الخديو للأمر بعد تسلمه رئاسة الوزارة تأييداً لدعوته التي رددها في شعره من جهة ودعماً لمركزه السياسي الذي كان يهتز من جراء المعارضة الشديدة له من قبل السياسيين المعارضين والمساندين للخديو توفيق ضد حركة الضباط الأحرار.

يقول الرافعي :« كان يطمع البارودي في رئاسة الوزارة وهكذا كان التطلع إلى المناصب الوزارية ولم يزل من أسباب ما حل بمصر من الكوارث . ويقيناً أن الثورة العرابية قد بدأت تسلك سبيلاً بعيداً عن الحكمة من يوم أن اتفق زعماؤها على اسقاط وزارة شريف باشا .فان شريف كان بلا نزاع أقدر من البارودي على حسن تدبير الامور في تلك الاوقات العصيبة ... أما البارودي فقد كانت نشأته أدبية وحربية فحسب ... أضف إلى ذلك أن النشأة الحربية إذا اجتمعت الى الشعر والادب تثير في النفس روح الخيال والتطلع إلى أقصى مراتب المجد والعلا.هنا جاءت آمال البارودي بعيدة الأفق لاتقف عند حد حتى بلغت التطلع إلى العرش كما اسلفنا ،وليست هذه الآمال مما لايرد بخواطر بعض الزعماء في أثناء الانقلابات وانما هي أقرب شيء يخطر ببالهم ويجيش بصدورهم

(١) يحذق : لايخلص الود

(٢) الحديدي ، البارودي شاعر النهضة ص١٧٣ .

التاريخ شاهد على ذلك ... ولاشك أن الخديو توفيق لم يكن بالصفات ولا بالمزايا التي تجعله مرضيا عنه وعن سياسته في الحكم وقد كان الكلام في تغييره واسناد الخديوية الى الامير حليم باشا مما تفيض به مجالس الناس في ذلك العهد فلا غرابة أن تساور البارودي فكرة احقيته في اعتلاء العرش ... بل أن مصلحة البلاد تتنافى والتفكير في هذه المطامع ومانجره اليه من الفتن والدسائس والتدخل الاجنبي ثم الاحتلال » (١)

ولكن طموح البارودي مازال بعيداً ،فهذا الخديو يتخطى الدستور المعلن ويقرر عدم اجتماع مجلس النواب ، والنواب يطالبون بالاجتماع والهياج الشعبي على أشده . (٢)

واشتد الخلاف بين الخديو ورئيس نظارته البارودي « وما يؤخذ على الزعماء انهم خلال تلك الازمة قد جاهروا في اجتماعاتهم برغبتهم في خلع الخديو ... ولو كان على رأس الوزارة رجل اكثر حكمة وابعد نظراً في الامور من البارودي لما استفحل الخلاف بينها وبين الخديو الى هذا الحد » .(٣)

ويبدو ان طموح البارودي في الوصول الى العرش كان السبب الاساس في ذلك الخلاف فبعد أن كشف اوراق توفيق واقذع في شتمه وعراه تماماً وهو يقارنه بعلو كعبه وسمو خلقه ، اعلنها حرباً شعواء ضده مثيراً الشعب والجيش فقد خشي ان تفلت الفرصة من يده وينصب الامير حليم باشا خديوياً على مصر، فقد اتفقت الآراء على انه اصلح فرد في الاسرة الخديوية لتسنم العرش ، لذا راح البارودي يغرى عرابي بأن يستولي على

(١) الرافعي، الثورة العرابية، ص ٢٣١-٢٣٢ .

(٢) يقول ميكا فيللي ص ١٥٢-١٥٣ : «فالامير مضطر للتطبع بطبع الحيوان فيقلد الاسد والثعلب ... لذا ينبغي على الامير أن يكون ثعلباً ليتّقي الحفائر والحبائل واسداً ليرهب الذئاب ...ثم ان الامير لا يفقد حيلة شرعية يركن اليها اذا لم يف بوعده... وان يكون ماهراً في فن التظاهر بغير شعوره ثم ان الناس من البساطة بمكان وهم اصحاب حاجات وصاحبها أرعن مطيع فلا يعدم الخادع فريسته .

(٣) الرافعي، الثورة العرابية، ص ٣٠٥

الحكم وفي هذا يقول عرابي: «ثم اقسم انه مستعد لان يضحي حياته ويجود باخر نقطة من دمه في تنفيذ رغبتي ويجرد حسامه وينادي باسمي خديوياً لمصر اذا رغبت في ذلك » . (١) ورغم ان هذا الموقف يدلل على تسام من قبل البارودي ويؤكد حبه لعرابي الا اننا نرى ان البارودي كان عالماً بان عرابياً عزوف عن الامارة والحكم ، وعندئذ يمكن ان يساعده في الوصول الى هدفه في الحكم والرئاسة «فقلت له مه يامحمود باشا فاني لااريد الا تحرير بلادي ولا أرى سبيلا لتوالنا الا بالمحافظة على الخديو كما صرحت بذلك مراراً وتكراراً ... ولا اريد انتقال الاريكة الخديوية الى عائلة اخرى لما في ذلك من الضرر مع علمي بانك تنتسب الى الملك الاشرف (سيرباي) » (٢) وعندما رأى البارودي عدم اقتناع عرابي برأيه ادار الحديث وافصح عن قصده « فقال انا لا اقول لك الا حقاً وانت احق بهذا الامر مني ومن غيري فشكرته على ثقته بي وتم الحديث ». (٣) ويقول البارودي « كنا نرمي منذ بداية حركتنا الى قلب مصر جمهورية مثل سويسرا ولكنا وجدنا العلماء لم يستعدوا لهذه الدعوة لانهم كانوا متأخرين عن زمانهم ومع ذلك فسنجتهد في جعل مصر جمهورية قبل ان نموت ». (٤) وهذه دعوة تتفق مع ما كان ينادي به البارودي دائماً لتحقيق الديمقراطية في البلاد وهي دعوة تدل على فهم البارودي لمساويء نظام الحكم الملكي وما يجر على الشعب من جور وظلم .
ولا ننكر نواياه الطيبة وفهمه الجيد لنظم الحكم في عصره الا انه كان يعلم في الوقت ذاته الا سبيل للوصول الى الحكم الا باقامة نظام جمهوري يحل محل النظام الملكي الوراثي .

ولكن دعوته الى اقامة النظام الجمهوري لم تنزل منزلة المقبول في نفس زعماء الثورة. قرب الاسطول البريطاني من شواطيء الاسكندرية ، وارسل البارودي الى محافظ الاسكندرية يعلمه بان هذا الاسطول قدم لغرض سلمي

(٣،١) احمد عرابي، كشف الستار ، ص ٢٧١-٢٧٢ .

(٤) محمد محمد حسين، الاتجاهات الوطنية، ص ١٤١-١٤٢

وكانه توهم« ان الاسطول الانجليزي قادم لينتصف للوزارة من الخديو ويؤيدها في خلافها معه » (١) .

ويؤكد الرافعي ان البارودي كان « يطمح ايضاً الى العرش كما نوه عرابي الى ذلك في مذكراته وهذا الطموح هو من العوامل التي جعلته في عهد وزارته يميل الى الاصطدام بالخديو، على حين كان من الميسور تقريب مسافة الخلف بينه وبين العرابيين » (٢).

وانقسم مجلس النواب ، وقرر الخديو توفيق نفي عرابي .وتوالت الامور باسرع مما كان يتصور البارودي ووجد الا سبيل للتوافق مع الخديو فنفث قلبه حقده عليه ذلك الحقد الدفين الذي ليس ابن ساعته بل ابن ترسبات غطست في لاشعوره ، مطالباً بالثأر من الاسرة الخديوية برمتها ، بقصيدة مطلعها :

سكــن الفواد ، وجفت الآماق ومضت على اعقابها الاشواق(٣)

وهو يصورلنا الحاكم وحاشيته مرة بالصقر المغير على اسراب من القطا، ومرة اسدا فتاكاً يروع الامنين . ومرة اخرى يشبهه بحية رقشاء تكون نهايتها مرة قاسية ، وكانه يرجو لتوفيق مثل نهاية الحية :

تالله اهدأ أو تقوم قيامـة	فيها الدماء على الدماء تــراق
قلبي على ثقـة ونفسي حـرة	تأبى الدنيّ وصارمي ذلاق
لاخير في عيش الجبان يحوطه	من جانبيه الذل والامـلاق
حتّى إذا ظن الظنون بنفسه	تيها بها وخلت له الأعمـاق
أنحى فاقصده الزمان بسهمه	ان الزمان لنابل ميفـاق (٤)

(١) الرافعي، الثورة العرابية، ٣٠٧ .
(٢) الرافعي، الثورة العرابية ، ص ٥٦٤
(٣) الديوان، ج٢، ص ٢٥٨-٢٧٢ .
(٤) ميفاق: يحسن الرمي بالنبال

ولا يكتفي بذلك بل يمطره بوابل من نقده ،فالفرصة مواتية وازالته عن طريقه أصبحت قاب قوسين .فلماذا لايلح بثلمه والفخر بنفسه ، ليعطي البديل لهذا العرش المتداعي .؟

عدادك في سلك البريـة خزية ودعواك حق الملك أدهى واعظم
لقد هانت الدنيا على الناس عندما رأوك بها في ملك يوسف تحكم
فان تلك اولئك المقادير حكمها فقد حازها من قبل عبد مزنم
وشتان عبد بالمحجة ناطق وحر اذا ناقشته القول أغتم .
فهذا أذل الملك وهو معزز وذاك أعز الملك وهو مهضم(١)

ويعجز الخديو توفيق عن تشكيل وزارة جديدة ، وتعم الفوضى في البلاد ويسافر فجأة إلى الاسكندرية ويتسلم عرابي زمام الامور ويعلم توفيق بالامر فيلجأ إلى الاسطول البريطاني ،الذي كان راسياً قريباً من المياه الاقليمية المصرية.

حاول البارودي أن يصلح الأوضاع بين عرابي والثورة من جهة ،والخديو وبطانته من جهة أخرى ،قبل سفر الخديو إلى الاسكندرية ، لأنه يئس من نجاح الثورة، فلم تكن قيادة الجند حكيمة ، في الوقت الذي كانت الفوضى تستشري ،وخشي البارودي أن يفقد مركزه كرئيس للوزراء .

ويؤكد هيكل ذلك قائلاً :« وكان البارودي يرجو أن يتلافى هذه الحركة وان يصل بحسن رأيه إلى اقامة العدل والاصلاح في مصر على أساس من مبادىء الثورة السلمية التي انتشرت دعايتها في البلاد ولكن الامور سارت على غير هواه واندفع الضباط يفكرون في خلع توفيق...رأى انكلترا وفرنسا تتدخلان وتبعثان بمذاكراتهما المشتركة إلى الحكومة المصرية فأحس الخطر ورأى ألاّ طاقة لمصر

(١) مهضم: كسير ذليل

بمواجهة الموقف. ولقد حاول أن يتخلص منه بالاعتزال في مزارعه ».(١).

وتتوالى الأحداث بسرعة .وقد وصف البارودي الحالة التي آلت اليها مصر آنذاك ،يقول في قصيدته التي مطلعها.

من خالف العزم خانته معاذره ومن أطاع هواه قلّ ناصره (٢)

ويبدو انه غير راض عن الاوضاع التي كانت سائدة في القاهرة ،حيث قال :

كنـا نـود انقلابـاً نستريحبه حتى اذا تم ساءتنـا مصايره

وهنا يتساءل المتسائل : لماذا ساءه مصير الانقلاب ؟ الجواب واضح على ذلك . فالثوار لم يتركوا له الحبل على الغارب ، لذا فالشاعر يبسطن القلق والخوف والجزع :

فالقلب مضطرب فيما يحاولـه والعقـل مختبـل مما يحاذره

ويؤكد ان الثوار لم ينتفعوا بمشورته التي طالما نفعت من سبقهم :

قد كان في السلف الماضين نافعه فصار في الخلف الباقين ضائره

وهو يؤنب نفسه ، لأنه حاذر الشر كثيرا فيما مضى ، وها هو يقترب منه على حين سعى إلى الخير فلم يحصل عليه،وهو يرى ان ماآلت اليه الاحداث، مشابهة كل المشابهة لما كانت عليه في الماضي ، فها هو الملك يتزعزع والأمن يضطرب ولم يحصل الشاعر على بغيته بعد:

مـا ابعد الخير في الدنيا لطالبه واقرب الشر من نفسي تحاذره
اكلما مر من دهر أوائله كرت بمثل أواليه أواخـره
تنكرت مصر بعد العرف واضطربت قواعد الملك حتى ريـع طائره

---

(١) هيكل، مقدمة الديوان، جـ ١، الطبعة الاولى ص٢٥—٢٧

(٢) الديوان: جـ ٢، ص ١٠٨-١١٧ .

واستحكم الهول حتى مابيبت فتى   في جوشن الليل الا وهو ساهره

ولكن الامل لم يمت في نفسه بعد رغم الحالة المتردية :

يانفس لاتجزعي فالخير منتظر   وصاحب الصبر لاتبلى مرائره

لعل بلجة نور يستضاء بهـا   بعد الظلام الذي عمت دياجره

وهذا الامل لايتم الا عن طريق ثورة عارمة لاتبقي ولاتذر :

اني أرى نفساً ضاقت بما حملت   وسوف يشهر حد السيف شاهره

شهران او بعض شهران هي احتدمت وفي الجديدين ماتغني فواقره(*)

فان اصبت فعن رأى ملكت به   علم الغيوب ورأى المرء ناظره

ولكن هل حقق له بعد نظره وحذره واغتنامه للفرص أهدافه ؟ توالت الأحداث ناعية تدخل الاسطول البريطاني لحماية العرش بناء على طلب الخديو توفيق .واعلنت الصحافة الأوربية عن التمرد الذي حصل في مصر. وكان على الدول ذات المصالح أن تقمع هذا التمرد ، الذي حدث في الجيش .

وضرب الاسطول البريطاني في ١١ حزيران عام ١٨٨٢ مدينة الاسكندرية ، وانتشرت قطع الاسطول على طول الساحل، واستولت على قناة السويس (١). وسقطت بور سعيد في ٢٠/٨/١٨٨٢ وأسقط في يد البارودي ،وطفت حسرات الندم على شفتيه :

لعمري لقد ايقظت من كان راقدا   وانذرت لكن لم تكن تنفع النّذر

نصحت فكذبتم فلما أتى الرّدى   عمدتم لتصديقي وقد انقضى الأمر

فلم يبق في أيديكم غير حسرة   ولم يبق عندي غير ما عافه الصدر

فجاء الذي كنتم تخافون شرّه   وزال الذي لم يبق من بعده شعرُ(٢)

(*) الفوقر : جمع فاقرة وهي الداهية .

(١) «وابتعد عن الحكومة ورجالها حتى شبت الحرب بين مصر وانكلترا ودعي من رجالها لمساعدتهم فاجاب كرهاً بعد ان نصحهم بالبعد عنها ويشير الىذلك بقوله:

نصحت قومي وقلت الحرب مفجعة   وربما تاح امر غير مضنون

محمد صبري، ص ٢١

(٢) الديوان، ج٢، ص ٨٤-٨٥

انه يضع اللوم على زعماء الثورة الذين نصحهم فلم يلتفتوا إلى نصحه، ولكن الأحداث أثبتت صواب قوله – وكأنه يريد أن يتنصل من المسؤولية ،ويضعها على عاتق زعماء الثورة – فأصابته حماقتهم بالغيظ والكمد. وسكت غناؤه واصابه خطؤهم بالحسرة ، بما كانوا يخشون عاقبته – نصحه – وهو فشل الثورة ؛وكأن الشاعر يشمت بهم ،ويتشفى بما أصابهم ،لأنهم لم يطيعوه .

وهنا نتساءل : لماذا كل هذا الخور من الشاعر الذي طالما تفاخر بشجاعته واستقامته وتضحيته . هل هو الخوف على مركزه وأملاكه وامواله أو هو الخوف على النفس إن هذه الأبيات تعبر بصدق عن مشاعره آنذاك.فقد قالها معبراً عما يحسه من خيبة دون تصنع أو حذلقة أو تماخر.وهو الذي يقول عن نفسه بأن شعره يعبر عن صدق أحاسيسه :

انظر لقولي تجد نفسي مصورة … في صفحتيه فقولي خط تمثالي (١)

ويؤكد ذلك هيكل في مقدمة الديوان«شعر البارودي»حياته فكل قصيدة في ديوانه صورة لحالة نفسية من حالات الشاعر ».(٢)

إذن فهو كان يصبو الى التخلص من توفيق وبطانته ليستتب له الأمر، وما معاونته لزعماء الثوار الا للوصول إلى هدفه،وليس لهدف آخر، فلما تورط الزعماء بالحرب أراد أن يتخلص ويعتزل في مزارعه : (فأحس بالخطر ورأى أن لاطاقة لمصر بمواجهة هذا الموقف ولقد حاول أن يتخلص منه بالاعتزال في مزارعه وذلك بأن نصح للعرابيين وصارحهم برأيه . لكن اندفاعه في حركة الضباط من بداءتها حال بينه وبين التخلص منهم . فلم يكن له بد من ان يسير معهم وان يربط حظه بحظهم » (٣) . ويؤكد ذلك قوله :

---

(١) الديوان ، ج٣، ص ١١٥

(٢،٣) مقدمة الديوان، ص هـ، ق .

نصحت قومي وقلت الحرب مفجعة	وربما تاح امر غير مضنون
فخالفوني وشبوها مكابـــرة	وكان اولى بقومي لو اطاعوني
تأتي الامور على ماليس في خلد	ويخطىء الظن في بعض الاحايين
حتى اذا لم يعد في الامر منزعة	واصبح الشر امرا غير مكنـون
أجبت اذا هتفوا باسمي ومن شيمي	صدق الولاء وتحقيق الاظانين(١)

ويؤكد هيكل ما رسمناه من موقف البارودي تجاه الثورة العرابية : «وكان البارودي يرجو ان يتلافى هذه الحركة ... لكن الامور سارت على غير هواه واندفع الضباط يفكرون في خلع توفيق وقد نازعته نفسه يومئذ إلى مكان المجد وتحركت فيها اسباب الاعتداد بمكان اجداده المماليك الذين حكموا مصر وقصيدته التي مطلعها :

قلدت جيد المعاني حلية الغزل وقلت في الجد ماأغنى عن الهزل

لاتبرئه من هذا التفكير » (٢) . ومثل هذا الرأي نجده في مكان آخر يقول فيه « فاننا لانستطيع ان نبرئه براءة كاملة من تطلعه إلى الملك في فترة خاصة من حياته هي فترة شبابه وفي يقيني ان البارودي ... كان يرى نفسه بما ملكت من شجاعة ورأى احق بالملك من هؤلاء الذين يجلسون على دسته . . . ومن ثم راوده طموح الشباب واحلامه وتمنى ملك مصر » (٣) . وهناك من يؤكد ذلك ايضاً : يقول عمر الدسوقي « وطالب الجيش بعزل توفيق ، ونازعته نفسه يومئذ الى المجد المؤمل وإلى مكان اجداده المماليك الذين حكموا مصر ... ولكن التيار كان شديدا ... وعلم ان لاقبل له بمواجهته فنصح لعرابي واخوانه

(١ ، ٢) مقدمة الديوان، ص ق، ص . عمر الدسوقي، في الادب الحديث، ص ١٥٠
يقول الرافعي معلقاً على هذه الابيات في كتابه الثورة العرابية ص ٥٦٥ «ولكن يلوح انه لم يقل الشعر الا اسفاً على ماتورط فيه فان كل الدلائل والملابسات تدل على انه كان يدعو إلى الاصطدام بالخديو وقد اصطدم به فعلا في حادثة الضباط الجراكسة» .

(٣) الحديدي، ص ١٥٨ .

وصارحهم برأيه وحاول الاعتزال في مزارعه ولكن هيهات وقد جرى مع الضباط شوطاً » . (١)

لم يكن البارودي يتوقع ما حدث ، فعندما نشبت الحرب حاول الاعتزال ، وعندما لم يفلح في ذلك انسحب الى الصفوف الثانوية ليلقي التبعة الاساسية على غيره :

« وهذا الموقف الذي وقفه البارودي هو الذي جعله لايبرز في الصف الاول من صفوف الثورة العرابية ولا يتولى زعامتها ولو انه كان مؤمنا بها ايمان عرابي واصحابه لكان من الطبيعي ان يتقدمهم وان يدعو بدعايتهم فهو قد اشترك في حرب اقريطش وروسيا وأبلى فيها بلاء يجعله اقدر ضباط الثورة جميعاً على قيادتها وهوقدكان لاريب اكثرهم ذكاء واعلاهم ثقافة واعرفهم بشؤون الحياة الدولية . اما وقد سايرهم اذعاناً لحكم الاحوال فقد رجع إلى الصف الثاني من صفوف الثورة » . (٢)

ويصور لنا وضعه النفسي في تلك الفترة عندما اصبح تحقيق طموحه الاكبر قريباً منه ولكنه فقده وفقد معه كل أحلامه وأمانيه ، في القصيدة التي مطلعها

تأوب طيف من سميرة زائر　　وما الطيف الا ماتريه الخواطر(٣)
ملكت عقاب الملك وهي كسيرة　　وغادرتها في وكرها وهي طائر

وهو يرثي خيبته بما تعودناه منه من فخر اعجاب بالنفس

فان كنت قد اصبحت فل رزية　　تقاسمها في الاهل باد وحاضر
فكم بطل فل الزمان شباته　　وكم سيد دارت عليه الدوائر
وأي حسام لم تصبه كلالة؟　　واي جواد لم تخنه الحوافر ؟

انظر إلى كلمة (فلّ) التي كررت مرتين في بيتين متتاليين ، والى كلمة (كلالة) وإلى كلمة (تخنه) لتدرك مدى احساسه بالخيبة والضعف ، رغم

(١) عمر الدسوقي في الادب الحديث ، ج١ ، ص ١٥٠
(٢) هيكل ، مقدمة الديوان .
(٣) الديوان ، ج٢ ، ص ٦٢-٧٣

تفاخره ، ولكنه سرعان ما يظهر تخاذله وضعفه ويدرك قصوره عن بلوغ طموعه فيلجأ الى قوة علياتعينه ، شأن كل المهزومين في الوقت الذي لم يلجأ لها عندما كان يحس بقوته بل كان يستعين دائماً بشجاعته وشمائله وحسن رأيه واقتناصه للفرص كما يظهر في شعره .

فسوف يبين الحق يوما لناظر ؟ وتنزو بعوراء الحقود السرائر
وما هي الا غمرة ثم تنجلي غيابتها ، والله من شاء ناصر

يقول الاسكندري : « فلما اضطرمت نيران الثورة ارغمه زعماؤها على اصطلاء نارها فخب فيها ووضع » .(١)

وقد اناط به عرابي موقع الصالحيه ، ولكن البارودي لم يحسن التوقيت للأنضمام الى معركة التل الكبير الفاصلة (٢) .

« ولما علم محمود باشا سامي البارودي حكمدار جيش الصالحيه ومن معه من الضباط بهزيمة التل الكبير تركوا مراكزهم وقاموا مع عساكرهم بقطارات السكة الحديدية الى المنصوره ومنها الى طنطا ثم الى اتياي البارود وهناك انحل النظام وخرجت العساكر عن الطاعة وتوجه كل منهم الى بلده » . (٣)

ويقول الرافعي : « لم يكن البارودي على كفاءة من الناحية السياسية وكذلك لم تبدو منه كفاءة من الناحية الحربية على الرغم من نشأته العسكرية وعلى ما يفيض به شعره من الفخر والحماسة . وكل ما عرف عنه انه ذهب الى الاسكندرية عصر يوم ١١ يوليه سنة ١٨٨٢ فوصل اليها ليلا عقب انتهاء الضرب . وقيل انه لما تلقى الانباء الاولى التي اذاعتها الحكومة في العاصمة عن الضرب وكان معظمها مكذوباً ذهب الى الاسكندرية ليهنىء عرابي

(١) احمد الاسكندري، الوسيط في الادب العربي وتاريخه، ص ٣٤٨
(٢) عبد الرحمن الرافعي، الزعيم احمد عرابي، ص ١٩٦
(٣) احمد عرابي ، مذكرات عرابي، ج ٢، ص ٣١ .

بالنصر فالفى الحالة على خلاف ما اذيع في العاصمة (١) ... ومضى اليوم التالي بالاسكندرية دون ان يعمل عملا ... ولما تم الانسحاب قفل البارودي راجعاً الى القاهرة ولم يشترك في وقائع كفر الدوار وكان جل عمله ان يرقب تطور الاحداث . ولما تحرجت الحال في الميدان الشرقي دعاه عرابي الى قيادة فرقة الصالحية وعهد اليه بالاشتراك في واقعة القصاصين الثانية التي كان يتوقف عليها الى حد ما تعطيل البريطانيين . ولكنه تخلف عن الاشتراك فيها ... اضف الى ذلك انه لم يشترك في واقعة التل الكبير بل عاد الى العاصمة بعد معركة القصاصين » . (٢)

وسلمت القاهرة في ١٨٨٢/٩/١٥ . والقي بزعماء الثورة في السجن ، وكان البارودي من بين المسجونين ،ولم يشفع له أصله الجركسي ولا كونه صهراً لأسرة محمدعلي فقد كان توفيق يخشى من طموحه على ملكه ويرى فيه عدواً لدوداً يجب التخلص منه .

يودع البارودي في السجن ويتملكه الجزع من الوحدة والظلام ،فهاهو يحشر في زنزانة ضيقة بدلاً من استوائه على العرش الذي كان يحلم به :

فقد حاطني في ظلمة الحبس بعد ما ترامت بافلاذ القلوب الحناجر(٣)

ويصف في إحدى قصائده التي نظمها وهو في السجن ماكان يعانيه فيه من وحشة وحزن :

شفني وجدي وابلاني السهر وتغشتني سمادير الكدر (٤)
بين حيطان وباب موصد كلما حركه السجان صر
يتمشى دونه حتى إذا لحقته نبأة مني استقر

(١) الرافعي، الثورة العرابية، ص ٥٦٥ عن شهادة حسن بك صادق مصر للمصريين ، جـ٩، ص ٨١٠ .
(٢) المصدر السابق، ٥٦٥-٥٦٦
(٣) الديوان، جـ٢، ص ٧٣
(٤) الديوان جـ ٢ ، ص ٨٦-٨٧ .

كلما درت لاقضي حاجة قالت الظلمة : مهلا : لاتدر
وتلاشى عزمه ، وهو يستنجد نفسه أن تصبر .

لقد خار البارودي وتأصل احساسه بالنقص في بؤرة الضعف التي عانى منها دائماً : ولم تسعفه عن طريق التعويض بالفخار والعظمة كما كانت تفعل دائماً :

فاصبري يانفس حتى تظفري ان حسن الصبر مفتاح الظفر
وكأنه يفتقد الصبر في نفسه إذاً ليستجر بقوة علية لعلها تعينه في بلواه :
هي أنفاس تقضي والفتى حيثما كان أسير للقدر

« وفكر البارودي وقد تسلط عليه اليأس ،في أن يجنب نفسه آلام الانتظار وامتهان الاعداء له بالانتحار فيقطع عرقاً من ذراعه ليموت بسهولة ولكن زملائه ذكروه بواجبه الديني نحو نفسه حتى لايخسر الآخرة بعد أن خسر الدنيا فثاب إلى رشده ورجع اليه صوابه واستغفر ربه من هذا التفكير » (١)

ولكن السلطات الانكليزية لم تسمح للخديو توفيق بإعدام زعماء الثورة، خشية أن يظهروا في نظر الرأي العام العالمي بمظهر الثوار . واكتفت بنفيهم عن مصر بعد أن عدتهم مجرد ضباط متمردين .وكان نصيب البارودي النفي إلى جزيرة سيلان . وقد جرد من جميع ألقابه ومناصبه وصودرت أمواله واملاكه .وقد انتاب البارودي الضعف وهو في السجن كما انتاب بعض زملائه وأصيب بخيبة أمل في الرفاق .وشعره في تلك الفترة العصيبة من حياته يشهد بذلك فلم يترك خلة ذميمة الا ولصقها بهم ، بل انه تنصل منهم ومن المسؤولية برمتها .

وبدأ من خلال شعره – وهذا ما كان – يريد ان يظهره للخديوي وبطانته وللمستعمرين الانكليز بانه انسان مخدوع اوقعته المقادير في ايدي الثوار (الاجلاف الاغبياء) .

(١) الحديدي، البارودي شاعر النهضة، ص ٢٥٢

لأي خليل في الزمان ارافق | واكثر من لاقيت خب(١) منافق (٢)
بلوت بني الدنيا فلم أرصادقاً | فأين لعمري – الاكرمون الاصادق؟

فهو ينزع عنهم كرامة الاصل والصدق ويرميهم بالخداع والمخاتلة . وهو ينكر على زمانه – وهنا يستند على القدر ايضاً ويحمله مسؤولية الفشل انه ضيعه بين اناس لا اخلاق لهم . جهال فساق صبيان في تمكيرهم وتصرفهم مخادعون اقذار . فكان ان انصبت المصائب على رأسه وارهقته بثقلها وشمولها :

اضعت زماني بين قوم لوأن لي | بهم غيرهم ما ارهقتني البوائق(٣)
فان أك ملقى الرحل فيهم فانني | لهم بالخلال الصالحات مفارق
فاعلمهم عند الخصومة جاهل | واتقاهم عند العفافة فاسق
طلاقة وجه تحتها الغيظ كاشر | ونغمة ود بينها الغدر ناعق
واخلاق صبيان اذا ما بلوتهم | علمت بأن الجهل في الناس نافق(٤)

ويؤكد بلسانه انه لم يشاركهم الثورة ولكنهم هم الذين دعوه اليها . ويتهمهم بالهروب من المعركة وتركه يقاتل وحيداً مخدوعاً ، فورطوه ونجوا :

دعوني إلى الجلى فقمت مبادرا | واني إلى امثال تلك لسابق
فلما استمر الجد ساقوا حمولهم | الى حيث لم يبلغه حاد وسائق
فلا رحم الله امرأ باع دينه | بدنيا سواه وهو للحق رامق (٥)

ويكشف الشاعر عن وجهة نظره في الثورة بصورة لاشعورية . فهي (شر مهلك) . هكذا يراها البارودي ، وقد حذرهم مغبة هذا (الشر) ولكنهم اغبياء لم يفهموا تحذيره فهم قاصرون عن الفهم وعن الصداقة الصادقة :

(١) الخب: الخداع .
(٢) الديوان جـ٢ ص ٢٩٥-٣٠١ .
(٣) البوائق : جمع بائقة وهي المصيبة الشديدة .
(٤) نافق: منتشر .
(٥) رامق: يطيل النظر في الشيء .

على انني حذرتهـم غب امرهم ... وانذرتهم لو كان يفقه مائق (١)
وقلت لهم: كفوا عن الشر تغنموا ... فللشر يوم — لامحالة — ماحق
فظنوا بقولي غير ما في يقينـه ... على انني في كل ماقلت صادق
فتبا لهم من معشر ليس فيهـم ... رشيد ولا منهم خليل مصادق

ويظهر بعد ذلك ندمه على اشتراكه معهم ويتمنى -كأي انسان اصيب بخيبة في امانيه — لو كان بعيدا عنهم كل البعد ، او لو انه راجع عقله ولم يشترك معهم ، او لو ان عائقاً وقف في طريقه وعاقه عن فعله . وكأني به يدعو ما تدعو اليه العجائز عندما يصبن بكارثة :

فياليتني راجعت حلمي ولم أكن ... زعيماً وعاقتني لذاك العوائق
ويالبتني اصبحت في رأس شاهق ... ولم ار ما آلت اليـه الوثائـق

ويعود للتعريض بالثوار ، فيصفهم بالجبن والخديعة والشر وينقض العهد وسوء الخلق (٢)

هم عرضوني للقنا ثم اعرضوا ... سراعا ولم يطرق من الشر طارق
وقد اقسموا ألا يزولوا فمابدا ... سنا الفجر الا والنساء طوالـق
مضوا غير معذورين لا النقع ساطع ... ولا البيض في ايدي الكماة دوالق
اذا ابصروا شخصاً يقولون جحفل ... وجبن الفتى سيف لعينيه بارق
اسود لدى الابيات بين نسائهم ... ولكنهم عند الهياج نقانق (٣)

---

(١) المائق : الاحمق الغبي .

(٢) يقول الرافعي في كتابه الثورة العرابية ص ٥٦٦ «ولم يقف في اثناء المحاكمة الموقف الذي يتفق وزعامة الثورة او شجاعة القائد الحربي ... اخذ يتنصل من التبعات ويزعم انه كان مكرهاً على ما فعل بتهديد ضباط الجيش وانه لم يوقع على . قرارات الجمعية العمومية ببقاء عرابي وزيراً للحربية الا تحت تأثير الاكراه .. قال في هذا الصدد امام المجلس العسكري : ان الخوف كان موجودا من الاصل. فان لنا عيالا واموالا وربما لو امتنعنا لمسهما الضر. فلما سئل ممن الخوف؟ اجاب : من العسكرية بالنظر لما حصل في الاسكندرية .فكان موقفه اثناء المحاكمة خذلانا للثورة والكرامة» .

(٣) نقانق: جمع نقنق وهو الظليم ، ويضرب به المثل في الجبن وسرعة الفرار .

ويعود في قصيدة اخرى الى تبيان موقفه من الثورة فيقول : بأنه لم يردها وحاول وقفها ، ولكنه لم يستطع ان يوقف الثوار (المفسدين) وينحي باللائمة عليهم ويصفم بالجبن والخسة ونقض العهد . ويدعي بأنه لو اراد الايقاع بهم لفعل . ويعود الى تعظيم نفسه ويصفها بالعراقة والاصالة :

فلاتحسبني جهلت الصواب	ولكن هممت فلم أقـدر
ثنت عزمتي ثورة المفسدين	وغلت يدى فترة العسكـر
وكنا جميعاً فلما وقعـت	صبرت وغادرني معشـرى
ولوأنني رمت اعناتهـم	لقلت مقـالـة مستبصـر
ولكنني حين جدا الخصام	رجعت الى كرم العنصر (١)

وبعد ان جرد من ثروته اتكل الى الله يدعوه لأخذ حقه . وهذا موقف متخاذل ضعيف غير مؤمن بما اقدم عليه ، وليس موقف ثائر مؤمن بثورته ويؤكد بأنه لم يفعل شيئاً غير تقديم شعره ، الذي يصفه بالسيف القاطع . وهنا يتبرأ الشاعر من اشتراكه في الثورة .

ياناصر الحق على الباطـل	خذ لي بحقي من يدي ماطلي (٢)
اخرجني عما حوته يـدي	من كسبي الحر بـلا ناطـل (٣)
من غير ما ذنب سوى منطق	ذى رونق كالصارم القاطـل(٤)(٥)

وهذا موقف متخاذل يناقض ماتعودناه من تفاخر الشاعر واعجابه بنفسه وعدم اهتمامه بالمال كما يدعي في ابيات كثيرة من قصائده. ولكن هذه حقيقته فهو يدعو في شعره الى المحافظة على المال لان بالمال وحده يحترم الانسان في المجتمع حيث يقول :

(١) الديوان ،ج٢، ص ٨٥-٨٦ .

(٢) الماطل: الظالم .

(٣) بلا ناطل : بلاشيء .

(٤) الديوان، ج٣، ص ١٩٨-١٩٩ .

(٥) القاطل : القاطع .

اذا افتقر المرء استهان بفضله ... ذوو قربه واستجهنته الاباعد
فان قال حقا كذبوه وان أبى ... مجارتهم في الغي قالوا معاند
فحجته مطلولة وهي حقه ... ومنطقه مستكره وهو قاصد
فحافظ على مانلت بالسعي من غنى ... فبالمال لا بالفضل تعنوا(١) المقاصد(٢)

وفي ١٨٨٢/١٢/٢٠ تنقل باخرة انكليزية زعماء الثورة إلى جزيرة سيلان ومعهم محمود سامي البارودي الذي ذهب وحيدا ولم يصطحب اسرته معه إلى المنفى ، وقد صور البارودي الحزن الشديد الذي اصابه وهو يودع اهله وقصوره ومركزه ، منفيا وحيداً في قصيدة طويلة يقول فيها :

ولم تمض الا خطرة ثم اقلعت ... بنا عن شطوط الحي اجنحة السفن
فكم مهجة من زفرة الوجد في لظى ... وكم مقلة من غزرة الدمع في دجن(٣)
وما كنت جربت النوى قبل هذه ... فلما دهتني كدت أقضي من الحزن(٤)

ووصلت السفينة كولومبو عاصمة سيلان في ١٨٨٣/١/٩ « واعدت لهم حكومة سيلان اربع دور لسكناهم نزل البارودي وتابعه كافور مع محمود فهمي واسرته في واحدة منها» . (٥) ولم يسكن مع صديقه عرابي ، فقد اراد البارودي ان يبتعد عن زعماء الثورة ، فالأمل لديه قوي بالعفو عنه ، حيث لم يصدق انه سيعامل مثل المصرين ، هو الجركسي ابن الجركسي وصهر اسرة محمدعلي.

البارودي والمنفى :

مكث البارودي وحيدا في كولومبو ، وانعزل عن الثوار الذين ظهر بينهم الانقسام على اشد مايكون(٦) وكان محمود فهمي صديقه الوحيد هناك . ويبدو للباحث انعزاله بهذا الشكل كان بسبب امله في الاعفاء عنه والعودة إلى القاهرة فقد اراد ان يبدو امام الانكليز وكأن لاعلاقة تربطه بعرابي ورهطه . وانصرف

(١) تعنو: تذل وتخضع .
(٢) الديوان، جـ١، ص ٢١٣ .
(٣) الدجن: المطر الكثير .
(٤) الحديدي: ص ١٥٣ .
(٥) الحديدي: ص ١٥٤ عن مذكرات عرابي، جـ٢، ص ١٦١ .
(٦) الرافعي، الثورة العرابية، ص ٥٥١- ٥٥٢ .

البارودي انصرافا كليا إلى الشعر يعبر عن حرقته وألمه وخيبته حتى يكاد لايصدق ما آل اليه امره ، فهو يقول في قصيدة مطلعها :

خليلي هل طال الدجى؟ أم تقيدت   كواكبه أم ضل عن نهجه الغد (١)
أبيت حزينا في سرنديب ساهرا   طوال الليالي والخليون هجد
احاول ما لا استطيع طلابه   كذا النفس تهوي غير ما تملك اليد
وما كنت اخشى ان اعيش بغربة   يعللني فيها خويدم أسود

ويتوسل بشكل أو بآخر معارفه واصدقاءه وذوي الشأن لاعادته إلى القاهرة فلم يلائم مناخ سيلان صحته . وبدت آثار الشيخوخة تدمغه باصابعها الثلجية فيرثي نفسه ويندب حظه فيقول في قصيدة طويلة مطلعها :

تزحل من وادي الاراكة بالوجد   فبات سقيما لايعيد ولا يبدي
سقيما تظل العائدات حوانيا   عليه باشفاق وان كان لايجدي
يخلن به مسا اصاب فؤاده   وليس به مس سوى حرق الوجد
به علة لم تصبها سلامة   من الله كادت نفس حاملها تردي
أبيت عليلا في سرنديب ساهرا   اعالج ما القاه من لوعتي وحدي
ادور بعيني لا أرى وجه صاحب   بريع لصوتي أو يرق لما أبدي
اقول لهو الجفن يكسو نجاده   دموعا كمرفض الجمان من العقد
لقد كنت لي عونا على الدهر مرة   فمالي أراك اليوم منثلم الحد؟ (٢)

وعندما لايستجيب احد لتوسلاته تثور في نفسه دماؤه التركية ، ويعوض خيبته بالفخر ، فيسرف اسرافا كبيرا ويعد ثورته ثورة عقيدة وايمان :

فان كان عصيانا قيامي فانني   اردت بعصياني اطاعة خالقي
وهل دعوة الشورى علي غضاضة   وفيها لمن يبغي الهدى كل فارق؟

* * *

وكيف يكون المرء حرا مهذبا   ويرضى بما يأتي به كل فاسق

---

(١) الديوان، جـ ١، ص ١٨٤-١٨٥ .

(٢) الديوان، جـ ١، ص ١٧٢ .

فان نافق الاقوام في الدين غدوة ... فاني بحمد الله غير منافق (١)

ولكنه أبدا يعود إلى ذكرياته ، ويحن إلى ايام شبابه ولهوه وقصوره واهله . وقد عدها بعض الباحثين حنينا إلى مصر . (٢) ولكنني كما أراها من خلال

شعره مجرد ذكريات لمراتعه وايام عزه ودعوة واسترحاما لتخليصه من منفاه ومما هو فيه من ذل . (٣) يقول في قصيدة مطلعها :

هل من طبيب لداء الحب اوراقي ... يشفي عليلا اخا حزن وايراق (٤)

قد كان ابقى الهوى من مهجتي رمقا ... حتى جرى البين فاستولى على الباقي

أكلف النفس صبرا وهي جازعة ... والصبر في الحب أعيا كل مشتاق

لافي سرنديب لي خل الوذ به ... ولاأنيس سوى همي واطراقي

وهذه النغمة مكررة تكاد لاتخلو منها اية قصيدة نظمها في سرنديب ، ثم يعود إلى ذكريات الروضة او المقياس او الاماكن الاخرى التي تذكره بمجده :

ياروضة النيل لامستك بائقة ... ولاعدتك سماء ذات أعذاق

اذا تذكرت اياما بهم سلفت ... تحدرت بغروب الدمع آماقي

وان مررت على المقياس فاهدله ... مني تحية نفس ذات اعلاق

هذا بالاضافة إلى الروح الشعرية القديمة التي تكمن في مثل هذه القصائد اذا ما بدلنا اسماء المناطق باسماء مناطق اخرى في الجزيرة العربية . وهو يذكر الماضي بحرقة — كما فعل شعراء الوقوف على الاطلال — عندما يذكر مجده الغابر وايامه السعيدة :

عصر تولى وابقي في الفؤاد هوى ... يكاد يشمل احشائي باحراق

(١) الديوان، جـ٢، ص ٣١٨-٣١٩ .
(٢) شوقي ضيف، البارودي ، ص ١٢٤ .
(٣) انظر الديوان ، جـ١، ص ٤٠، ٤١-٤٢، ٤٣، ٤٧، ٤٨، ٤٩، ٥٠، ٥١، ١٧٤ -١٧٩، ١٧٩-١٨١، ١٨٥-١٨٩ جـ٢، ص ١٠٥، ٢٨٣-٢٩٥، ٦٦-٧٣، ٢٤٠-٢٤٨ .
(٤) الديوان، جـ٢، ٢٨٣-٢٩٠ .

ويعود إلى ندب الحظ وصروف الليالي كما لم يفعل من قبل ايام مجده وعزه:

والمرء طوع الليالي في تصرفها ... لايملك الأمر من نجح واخفاق
اسلمت نفسي لمولى لايخيب له ... راج على الدهر والمولى هو الواقي
ياقلب صبرا جميلا انه قدر ... يجري على المرء من أسر واطلاق

اليس هذا منتهى اليأس والخور ، ويعود إلى الامل مستندا فيه لا إلى عزيمته بل إلى قوة خارجة عن عزيمته اتكل عليها في جميع قصائده التي نظمها في المنفى

لابد للضيق بعد اليأس من فرج ... وكل داجية يوما لاشراق

وتتوالى عليه الكوارث ، فتموت زوجته فيرثيها . ويموت بعض اولاده فيرثيهم ويموت بعض من اصدقائه فيرثيهم مثل عبدالله فكري وحسين المرصفي واحمد فارس الشدياق . فاذا كان الأول صديقه والثاني راويته فما موقفه من الثالث ؟ وقد كان من اعداء الثورة العرابية وعاملا اساسيا في في فشلها « ان السفارة الانكليزية بالاستانة دفعت لصاحبها — صاحب مجلة الجوائب وهو احمد فارس الشدياق — الف جنيه نظير اذاعة المنشور الذي اصدره الباب العالي يعلن فيه عصيان عرابي باشا سنة ١٨٨٢ وأن ذلك كان من اسباب اخفاق عرابي » . (١) فما دام الشدياق عدو الثورة فالمفروض ان يكون عدوه اللدود . فلماذا هذا البكاء والتوجع عليه في القصيدة التي بدأها بقوله :

متى يشتفي هذا الفؤاد المفجع ... وفي كل يوم راحل ليس يرجع
أبعد سمير الفضل احمد فارس ... تقر جنوب أو يلائم مضجع
وماكنت مجزاعاًولكن ذا الأسى ... اذا لم يساعده التصبر يجزع
فقدناه فقدان الشراب على الظمأ ... ففي كل قلب غلة ليس تنقع
واى فؤاد لم يبت لمصابه ... على لوعة أو مقلة ليس تدمع؟

(١) عمر الدسوقي، في الأدب الحديث، ج ١، ص ٦٧ .
(٢) الديوان، ج ٢، ص ٢٠٤-٢١٠ .

ولايكتفي بتعداد خلال الشدياق الحميدة ووده له بل يعده سديد الرأي حكيما في تصريفه للأمور . فهل كان حكيماً عندما دق مسمارا في نعش الثورة؟

ومثلك من زان الامور بعقله وأدرك منها مايضر وينفع

ويؤكد وده للشدياق في آخر القصيدة :

رعيت بها حق الوداد على النوى وللحق في حكم البصيرة مقطع

هل اراد البارودي ان يبدو امام الحكام في مصر بأنه ليس مع ، الثورة، وانه لم يكن معها في يوم لعلهم يرقون له ويعيدونه الى مصر ؟ أم أنه ليس مع الثورة اصلا ، وقد اتخذها سلماً ، فلما فشلت الثورة في تحقيق اهدافه أزاح عن نفسه ذلك السلم المتداعي وسعى لايجاد سلم جديد؟ لانعتقد بالاحتمال الثاني ونرجح الاحتمال الأول :

يقول اناس انني ثرت خالعاً وتلك هنات لم تكن من خلائقي(١)

اذاً ماهي خلائقه؟ ان يتودد الى اصحاب الامر والنهي في القاهرة ، ويستكره معاشرة اصدقائه في المنفى ، ويستقبح أهل كولومبو الذين أحسنوا معاملة المنفيين واستقبلوهم استقبالا مشرفا ؟ قال يجيب بعض السادة عن قصيدة ارسلها اليه من الهند يخطب بها مودته ، (٢) وقد بدأها بقوله :

قليل بآداب المودة من يفي فمن لي بخل اصطفيه واكتفي؟(٣)

ماقاله عن الاصدقاء ليس جديداً في شعره ، فهو دائم الحذر من الناس ومن الاصدقاء. ومثل هذا المعنى مبثوث في ديوانه . فهو كثير التعالي على الناس منذ صباه ويظهر ذلك في شعره بوضوح فهو يتوهم فيهم الغدر والخيانة واظهار الاخلاص وابطال العداوة . (٤) ويشتد احساسه

---

(١) الديوان، ج٢، ص ٣١٨ .

(٢،٣) الديوان، ج٢، ص ٢٣١-٢٣٩ .

(٤) الديوان، ج١، ١٣، ٢٢، ٣٩، ٦٢، ٢٢١-٢٢٢ : ج٢، ١٤-١٥، ٧٦-٧٧، ٨٣، ١٧٧ .

في شعره بأن جميع الناس ضده فهو لايأمن جانبهم أبداً . (١)

بلوت بني الدنيا فلم أر صاحباً يدوم على ودّ بغير تكلف

انه يفصح عن خبايا نفسه في لحظة انبعاث اللاشعور انبعاثاً قوياً ، ثم يعود لمهاجمة صحبه من الثوار المنفيين :

رضيت بمن لاتشتهي النفس قربه ومن لم يجد مندوحة(٢) يتكلف
ولو أنني صادفت خلا يسرني على عدواء الدار لم أتلهف

ولا تكفيه مهاجمة صحبه ، بل يهاجم سكان الجزيرة الذين احسنوا رفدهم وتكريمهم وهو واقع بلا شك تحت وطأة الغربة والمرض والحسرة ، فتجمع كل ذلك غضباً وتنديداً :

زعانف (٣) هداجون(٤) في عرصاتهم كخيط (٥) نعام بين جزداء صفصف
حفاة عراة غير اخلاق(٦) صدره (٧) تطير كنسيج العنكبوت المسدف (٨)
يمجون من افواههم رشح مضغة كنضح دم ينهل من انف مزعف (٩)
اذا رطنوا بعضاً سمعت لصوتهم عزيفاً (١٠) كجن في المفاوز هتف
فها انا منهم بين شمل مبدد ومن حسراتي بين شمل مؤلف

وبعد ان يفرغ مافي جعبته من شجن وتنديد بالمنفيين معه وبأهل الجزيرة ، يعود ليكيل المديح لهذا الذي يرجو الخلاص على يديه ، هو الذي لم يعودنا

(١) ج ١ : ١٦ ، ٦٥ ، ١١٤ ، ١٩٠-١٩١ . ج ٢ : ١٩٠ .
(٢) مندوحة : سعة وفسحة .
(٣) زعانف : ارذال .
(٤) هداجون : المشي في اضطراب وارتعاش .
(٥) الخيط : الجماعة .
(٦) اخلاق : ممزق .
(٧) صدرة : قميص قصير .
(٨) المسدف : الممزق .
(٩) مرعف : الرعاف خروج الدم من الانف .
(١٠) العزيف : جرس يسمع بالمفاوز في الليل ويعتقد العرب انه صوت الجن .

على مدح أحد غير الملوك :

فان اخلفت نفسٌ طوية ماوأت(١) فلي من عليّ صاحبٌ غيرمخلف...
هو البطل السباق في كل غاية يهاب رداها المرء قبل التعسف
اذا قال لم يترك بياناً لقائل وان سار لم يترك مجالا لمقتفي ...

وهو يبلغ كعادته في ابداع الصفات كاملة في نفسه عندما يفخر وها هو يودعها الممدوح :

وكيف وان أوتيت في النظم قدرة أضم شتات الكون في بعض أحرف ؟

ولم تجد توسلات البارودي شيئاً، فقد كان توفيق مصراً على ابقائه في المنفى، فهده الحزن واصابه مرض في عينيه كان يهدده بالعمى ، فاختلطت حسرته على (سوء فعلته)وعدم تبصره بالامور ، بدموعه الغريزة وحنينه الى ايام المجد والعز . وحاول ان يجد التبرير لما فعل لعله يقنع نفسه به بعد ان تملكه اليأس من عيشه في سرنديب كما في قصيدته التي مطلعها :

لكل دمع جرى مقلة سبب وكيف يملك دمع العين مكتئب ؟ (٢)
لو كان للمرء عقل يستضيء به في ظلمة الشك لم تعلق به النوب
ولو تبين مافي الغيب من حدث لكان يعلم مايأتي ويجتنب

وهل اكثر من هذا ندماً على اشتراكه في الثورة ؟ ، بحيث انه لو كان يعلم النتيجة لما أقدم ؟ فانبعث يتشوق الى الماضي الى ايام العز والمجد ، وتتقطع احشاؤه حزناً على فقدها :

فكيف اكتم اشواقي وبي كلف تكاد من مسّه الاحشاء تنشعب؟ ...
منازل كلما لاحت مخايلها في صفحة الفكر مني هاجني طرب...

° ° ° °

ويعود الى طلب النجدة ، واثارة حمية السراة لعلهم يساعدونه في محنته

---

(١) وأت: عزمت .
(٢) الديوان ، ج١، ص ٤٧-٥١ .

ويخلصونه من منفاه :

فيا سراة الحمى مابال نصرتكم عزت عليّ ؟ وأنتم سادة نجب
اضعتموني وكانت لي بكم ثقة متى خفرتم (١) ذمامالعهدياعرب؟

ويبدو من قولهم انهم قد وعدوا بانقاذه ولكنهم لم يفلحوا ، لذا فهو يذكرهم بعهدهم وبما آل اليه امره :

أليس في الحقانيلقىالنزيل بكم أمنا اذا خاف ان ينتابه العطب ؟

ويؤكد على عدم انسجامه مع زملائه المنفيين ، ليوحي الى نفوس السراة بأنه بريء من فعلهم ، أو انه على الاقل نادم على مااقترفت يداه :

أبيت في غربة لاالنفس راضية بها ولا الملتقىمنشيعتي كثب(٢)

وهنا يتبرأ تماماً من الزعماء المنفيين معه ، فهم ليسوا شيعته إما شيعته فهم هناك في مصر :

فلا رفيق تسر النفس طلعته ولا صديق يرى مابي فيكتئب
ومن عجائب مالاقيت منزمني اني منيت بخطب امره عجب
لم أقترف زلة تقضي عليّ بما اصبحت فيه ،فماذاالويلوالحرب...

فيدافع عن نفسه ثانية ، بأنه لم يسع للملك بل انه كلام الوشاة لعله بابعاده هذه التهمة عنه يحصل على العفو المنشود :

وما أبالي ونفسي غير خاطئة اذا تخرص اقوام وان كذبوا
هـاإنها فرية قد كان باء بها في ثوب يوسف منقبلي دم ّكذبُ

وسعى حاكم جزيرة سيلان الانكليزي في اعادته إلى مصر ،وسمحت السلطات الانكليزية بذلك ،ولكن توفيقاً بقي مصراً ،وبعد أن يئس من التخلص من منفاه دبت فيه شيخوخة مبكرة يقول في قصيدة يرثي بها صديقه حسين المرصفي وقد جاءه نبأ نعيه وهو في منفاه وانما يرثي نفسه :

---

(١) خفرتم : نقضتم .
٢) الكثب : القرب .

أين أيام لذتي وشبابي أتراها تعود بعد الذهاب؟(١)
ليت شعري متى أرى روضة المنيـ ـل ذات النخيل والأعناب...
قد أحاطت بشاطئيه قصور مشرقات يلحن مثل القباب...
ذاك مرعى أنسي وملعب لهوي وجنى صبوتي ومغنى صحابي
لست أنساه ماحييت وحاشا أن تراني لعهده غير صابي... (٢)

كيف لا أندب الشباب؟وقد أصبحت كهلا في محنتي واغتراب
أخلق الشيب جدتي وكساني خلعة منه رثة الجلباب
ولوى شعر حاجبي على عيني حتى أطل كالهداب
لا أرى الشيء يسنح الآ كخيال كأنني في ضباب
وإذا ما دعيت حرت كأني أسمع الصوت من وراء حجاب
كلما رمت نهضة أقعدتني ونية لا تقلها أعصابي
لم تدع صولة الحوادث مني غير أشلاء همة في ثياب

« ويدرك يعقوب سامي أن رئيسه السابق وزميله في الاغتراب وشريك النكبة يكاد يؤدي به الأسى ويوشك الحزن أن يقضي عليه فيحاول أن يأسو جراح صديقه ويخفف من نكباته والآمه فيزوجه بابنته (أمينة) أواخر عام ١٨٨٥ . وتتحمل الصغيرة مسؤوليتها بشجاعة » (٣). وكان عمرها تسع عشرة سنة فقط وعمره احدى وخمسين سنة . ورغم أن زوجته خففت الكثير من أحزانه عندما منحته الحب والولد الا أن صحة البارودي وعزيمته كانتا في تدهور مستمر، فيجدد السعي للسماح له بالعودة إلى القاهرة ولكنه يفشل ، ويثبت تقرير الأطباء ان وجوده في كولومبو يزيد في مرضه وربما يقضي عليه فينقله الحاكم البريطاني إلى مدينة (كندى) في الجنوب ، وهي ذات مناخ معتدل فينصرف إلى تعلم الانكليزية ونظم الشعر والقراءة .

(١) الديوان، ج ١، ص ٤٠-٤٣ .
(٢) صابي: مشوق .
(٣) الحديدي، ص ١٦٦ عن مذكرات الاسرة الخاصة .

وعندمااحس البارودي بان بارقة الامل في اعادته إلىأهله وانقاذه من اسر المنفى ضعيفة لكثرة الاتهامات الموجهة اليه والدعاوي المؤكدة بأنه ما اشترك في الثورة العرابية الا أملاً منه في الوصول الى الحكم، انبرى يدافع عن نفسه ويبعد التهم عنه ويستعين بما تبقى له من شجاعة وصبر وهو في منفاه في سرنديب :

أسلة سيف أم عقيقة (١) بارق ... اضاءت لنا وهنا سماوة بارق؟ (٢)

ويؤكد الضيم الذي اصابه في المنفى دون أن يضعف ذلك من عزيمته أو يقلل من جلده وكأنه يستعين بالصبر والسلوان على البلاء الذي اصيب به :

كفى بمقامي في سرنديب غربة ... نزعت بها عني ثياب العلائق
ومن رام نيل العز فليصطبر على ... لقاء المنايا واقتحام المضايق
فإن تكن الأيام رنقن مشربي ... وثلمن حدي(٣) بالخطوب الطوارق
فما غيرتني محنة عن خليقتي ... ولا حولتني خدعة عن طرائقي

ويعود إلى الفخار بنفسه وذكر سعيه الحثيث الى المجد والرفعة :

فما أنا ممن تقبل الضيم نفسه ... ويرضى بما يرضى به كل مائق
اذا المرء لم ينهض لما فيه مجده ... قضى وهو كل (٤) في خدور العواتق(٥)

ثم يسعى لنفي تهمة طلب العرش عنه ويؤكد أنه ما ثار الا طلبا في تدعيم التعاليم الاسلامية والعدل من خلال الحياة البرلمانيه التي كان كل حر يسعى لاقامتها:

يقول اناس انني ثرت خالعا ... وتلك هنات لم تكن من خلائقي
ولكنني ناديت بالعدل طالبا ... رضا الله واستنهضت أهل الحقائق

وقد جرت منه في الشطر الأخير فلتة لسان (اسقاط) فهو يشير إلى استنهاضه الرجال الذين يعرفون حقائق الامور :

---

(١) عقيقة: ما يبقى في السحاب من شعاع البرق .
(٢) الديوان، ج٢، ص ٣١٤-٣٢١ .
(٣) حدي: بأسي وقوتي .
(٤) كل: لاخير فيه .
(٥) العاتق: الجارية التي لم تتزوج وهي بين الادراك والتعنيس .

أمرت بمعروف وانكرت منكراً   وذلك حكم في رقاب الخلائق
فان كان عصيانا قيامي فانني   أردت بعصياني اطاعة خالقي
وهل دعوة الشورى عليّ غضاضة   وفيها لمن يبغي الهدى كل فارق؟
بلى أنها فرض من الله واجب   على كل حي من مسوق وسائق
وكيف يكون المرء حرا مهذبا   ويرضى بما يأتي به كل فاسق
فان نافق الأقوام في الدين غدوة   فاني بحمد الله غير منافق

ويضع اللوم فيما حدث على عاتق حاشية توفيق ورجال السياسة ويتحاشى ذكر توفيق بسوء وهو رأس البلاء:

رأوا أن يسوسوا الناس قهرا فاسرعوا   إلى نقض ما شادته أيدي الوثائق

ويظهر أن ما حدث كان بسبب هياج الشعب والجند مطالبين بما وعدهم به الخديو وهو يسعى إلى أن يبعد عن نفسه المسؤولية:

فلما استمر الظلم قامت عصابة   من الجند تسعى تحت ظل الخوافق
وشايعهم أهل البلاد فاقبلوا   اليهم سراعا بين آت ولاحق
يرومون من مولى البلاد نفاذ ما   تألاه (١) من وعد الى الناس صادق
فهذا هو الحق المبين فلا تسل   سواي فاني عالم بالحقائق

وهو يأمل بصفو الأيام وعودة الأوضاع إلى شكلها الطبيعي ليعود إلى الأهل والوطن وكأنه يستعطف الخديو من طرف خفي ويرجوه الصفح عنه. ويؤكد بأن رجاءه في الله لايخيب من تحقيق امنيته:

لعمري لقد طال النوى وتقطعت   وسائل كانت قبل شتى المواثق
فإن تكن الأيام ساءت صروفها   فإني بفضل الله أول واثق
فقد يستقيم الأمر بعد اعوجاجه   ويرجع للأوطان كل مفارق

(١) تألاه: اقسم عليه.

البارودي واليأس من الحياة :

ّة الى الازمات النفسية على البارودي ، ويحس بأن كل صراعه من اجل الوصول الى امانيه يذهب ادراج الرياح ، فيموت في داخله ويبدو كأنه حي ميت ، هذا الموت في الحياة بدا لبعض الباحثين زهداً . (١) انني لااجد في موت الحياة زهداً . ، فالزهد هو التبرؤ من كل مايزيد على ابقاء النفس على قيد الحياة ، هو الرضى بالحد الادنى مما يبقي الانسان على قيد الحياة . وهي فلسفة لها جذورها العميقة في تاريخنا العربي وفي تراثنا وفي أتراث الحضاري لدى الشعوب المسيحية والبوذية والبرهمية . يرفض الزاهد عادة نشب الحياة وهو في عزّ قوته – لافي حالة ضعفه – وفي شبابه – لافي شيخوخته – وفي عز قدرته وسطوته – لافي حالة انهيار مركزه – . ولا يذكر الزاهد ماضيه الا مشمئزاً لسيطرة شهوة الحياة عليه – فهو لايفخر بماضيه – ويرضى عن قناعة بما هو فيه ولا يذكر ماكان بل هو سعيد بما صار اليه . ولا يحلم بالماضي القشيب والحياة المنعمة . وهو سعيد بحالته فان الزهد لديه سعادة ؛ ولا يحيي الذكريات الماضية ليبحث عن السعادة في اجوائها . وزهده هو الفرح – وليس الحزن والبكاء – والزهد ينبع من نفسه ولا يأتيه نتيجة ظروف قاهرة خارجة عن ارادته . ويرى الزاهد في زهده الخلاص ولا يأمل بالخلاص عن طريق عودته الى حياته السابقة . ويرفض الزاهد ان يساعده الآخرون ولا يطلب مساعدة احد ، لاان يتوسل بالآخرين لانقاذه مما هو فيه .

بهذه السمات الاساسية الجذرية ، يجد الباحث الفرق بين الزهد وبين حالة اليأس التي عاشها البارودي في كندى والتي تقرب من حالة الموت الداخلي ، الموت في الحياة .

---

(١) شوقي ضيف ، البارودي ، ص ٩٣-٩٦ . الخديدي : محمود سامي البارودي ، ص ١٧٠-١٧٤ ماهر حسن فهمي ، الحنين والغربة في الشعر العربي الحديث ، ص ٤١-٤٣ .

يقول في قصيدة مطلعها :

الام يهفو بحلمك الطرب أبعد خمسين في الصبا أرب (١)
هيهات ولى الشباب واقتربت ساعة ورد ونابها القَرَبُ (٢)

اذاً لو لم يذهب الشباب ويقترب من الموت لما عزف من الحياة ودعا الى الآخرة :

فليس دون الحمام مبتعد وليس نحو الحياة مقترب
كل امرىء سائر لمنزلة ليس له من فنائها هرب

انه كلام يذكرنا بمقولات قديمة قالها الشعراء الاحناف والشعراء المسلمون ، الا ان زهد اولئك كان زهداً حقيقياً يغلب عليه الصدق والايمان شأن طائفة المتصوفة :

فتب الى الله قبل مندمة تكثرفيها الهموم والكرب

أتراه يتوب نادماً ، ليكسب الجنة كي لايعاني الكرب الذي عاناه في الحياة . ان الله غفور رحيم على العكس من الخديو الحقود الظالم . انه يخشى جحيم الآخرة فهو لاقبل له بجحيم الدنيا — الندم والكرب في منفاه — فكيف بجحيم الآخرة ؟

ويحدثنا عن حتمية الموت في قصيدة اخرى وعدم أهمية الحياة ، بحجج سطحية لاتدل على فهم لطبيعة الزهد بقدر ماتدلنا على اليأس من الحياة . يقول في مطلعها :

كل حي سيموت ليس في الدنيا ثبوت (٣)

ان حالته النفسية تطفو على شفتيه ، لقد غيرت الدنيا حاله فلا ثبوت للدنيا ، فاذا ماثبتت له فماذا سيفعل ؟ ان الدنيا تذكره بأن الموت سيصيبه لانه ظاهرة حتمية وهي دلالة يعرفها الجميع . ولكننا رغم ذلك نرى الطمع والتكالب على الحياة يسوقهم سوقاً :

(١) الديوان، ج ١، ص ٦٨-٧٢ .
(٢) القرب: سير الليل لورد الغد ويقصد بها أن ذهب معظم العمر .
(٣) الديوان، ج ١، ص ٧٩-٨٠ .

أيها السادر قل لي أين ذاك الجبروت ؟
من هو السادر الذي فقد جبروته والشاعر يحدثه ؟ هل هو نفسه يريد اقناعها؟ :

اين املاك لهم في كل أفق ملكوت (١)
انما الدنيا خيال باطل سوف يفوت
ليس للانسان فيها غير تقوى الله قوت

وهو في غالب الأحيان يطلب الموت ليخلصه من حياة لايريدها ، لأنها خذلته وخيبت ظنه . وهو طالما يوازن بينها وبين ماضيه السعيد . وهذا هو اليأس لا الزهد . فهو يبدأ قصيدة من هذا النوع بقوله :

لقد طال عهدي بالشباب وانه لأدعى لشوقي ان يطول به عهدي(٢)
فليت الذي حاز الشبيبة ردها وليت الذي أهدى لنا الشيب لم يهد
كأني وقد جاوزت ستين حجة مسحت بأبها عن ناظري سنة الفهد

فما الذي اضافه لما قاله زهير قبله بأكثر من الف عام .

فسحقا لدار لايدوم نعيمها وتبا لخل لايدوم على العهد

إذاً هو ينعي على الدار والخلان عدم الدوام ، وبالتالي ينعي على الحياة عدم استمرارها في المتع واللذة والشباب ، ، فما دامت قد تغيرت عليه وافقدته الأصدقاء والدار اذاً فهي الموت .

وكيف يلذّ المرء بالعيش بعدما رأى أن سم الموت في ذلك الشهد؟

اذاً فلا بديل للنعيم غير القنوط والاستسلام لارادة الله لعله يبدل نعيم الحياة الذي فقده بنعيم الآخرة

فدع ما مضى واصبر على حكمة القضا فليس ينال المرء ما فات بالجهد

أليس القنوط مجسدا في هذا البيت أنه نفثة يأس قوية ، بل نفثة انسان ميت فما دام عاجزاً عن القيام بأي عمل تجاه القدر ، فالبديل هو الله يعبده :

(١) ملكوت : الملك والعز .
(٢) الديوان ، ج ١ ، ص ٢٠١-٢٠٢ .

ولا تلتمس من غير مولاك هاديا	اذا الله لم يهد العباد فمن يهدي؟

ترى لماذا لم يعبد الله عندما كان في أوج شبابه وقوته وجاهه ؟

أما الحنين الى الماضي والى أيامه السعيدة فهو التعادلية لليأس من الحياة الذي نشأ نتيجة لفقدها والتحسر عليها ،كما نرى في القصيدة التالية :

أنسيم سرى بنفحة رند ؟	أم رسول أدّى تحية هند ؟(١)

أطربتني أنفاسه فكأني	ملت سكراً من جرعة من (برندي)(٢)

طال شوقي الى الديار ولكن	أين من مصر من أقام بكندى

كلما صورته نفسي لعيني	قدح الشوق في الفؤاد بزند (٣)

لي به صاحب علي عزيز	مثل ماعنده من الشوق عندي

لست اقوى على الزمان وان كنت	أفل العدا بقوة زندي

هذه الذكرى التي يسعى اليها هي بديل لواقعه الذي يصفه بقوله :

تكاوتني (٤)خطوب لو رميت بها	مناكب الارض لم تثبت على قدم

في بلدة مثل جوف العير لست ارى	فيها سوى أمم تحنو على صنم

لااستقر بها الا على قلق	ولا ألذ بها الا على ألم

اذا تلفت حولي لم اجد أثرا	الا خيالي ولم اسمع سوى كلمي(٥)

لذا حاول ان يملأ فراغ يومه « ويقال : انه عني بتعليم بعض مسلمي كندى القراءة والكتابة حتى يعرفوا لغة دينهم الحنيف وكان يؤم المسلمين هناك في بعض الجمع » . (٦)

---

(١) الديوان، ج ١، ص ١٨١-١٨٤ .

(٢) برندي: نوع من الخمور الفاخرة .

(٣) الزند: العود الذي تقدح من النار .

(٤) تكاوتني: اضنتني .

(٥) الحديدي: ص ١٣٣ .

(٦) شوقي ضيف، البارودي، ص ٩٤ .

وبعد موت الخديو توفيق مدح البارودي خليفته عباس الثاني ، آملا بالاعفاء عنه عام ١٨٩٦ ولكنه صم أذنيه عنه فيبلغ اليأس من نفس البارودي مبلغاً كبيرا :

ابعد ستين لي حاج فاطلبها	هيهات مالامرىء بعد الصبا حاج(١)
ان ابن آدم في الدنيا على خطر	لايستقيم لـه قصد ومنهاج
يهوى البقاء ومكروه الفناء بـه	ويستعز بأمن فيه ازعاج
لاأحفل الطير ان غنت وان نعبت	سيان عندي صفار وشحاج(٢)

ويصرخ وهو في اقصى درجات اليأس :

متى ينقضي عمر الحياة فتنقضي	مآرب كانت علة للمظالم (٣)

ويموت عدد من المنفيين في سيلان لعدم موافقة المناخ لصحتهم .وتبذل مساع جديدة للعفو عن البارودي خشية موته . فقد تدهورت صحته تماماً، وبذل محمد عبده مساعي عظيمة فيحقق هدفه . وقد وصلت السفينة ميناء السويس في ١٨٩٩/٩/١٢ ، وهي تقل على ظهرها البارودي وقضى البارودي اربع سنين في داره، ثم اعاد له عباس الثاني امواله المصادره واملاكه وانشغل البارودي بجمع ديوانه ومنتخباته الشعرية ليعدها للطبع ومات عام ١٩٠٤ . ولم ينس ان يفخر بنفسه وهو على فراش الموت يستعد لمقابلة ربه ، وكأنه لايريد ان يقابله ضعيفاً . وهذا مايبعد فكرة زهده . فالزاهد لايفخر بنفسه وهو على فراش الموت بل يسعى الى مقابلة ربه متواضعا سعيدا بهذا اللقاء :

انا مصدر الكلم النوادي	بين الحواضر والبوادي(٤)
انا فارس أنا شاعـــــر	في كـل ملحمـة ونادي
فاذا ركبت فـانـنـــي	زيـد الفوارس في الجـلاد

(١) الديوان، ج١، ص ٨٧-٨٨ .
(٢) شحاج : صفة لصوت الغراب .
(٣) الديوان، ج١، ص ٢٠٦ .
(٤) الديوان، ج٣، ص ٤٦٠ .

واذا نطقت فانني قس بن ساعدة الايادي
هذا وذلك ديدني في كل معضلة تآد (١)

وسكت البارودي الذي عاش حياة قلقة مضطربة له ومضى دائما يحاول الوصول الى مايريد وينشد قصائد الفخر المتضخمة دائما بوجود الذات لتعطية المقدرة على التوازن ومصارعة الحياة التي اعطته الكثير فسعى الى اكثر مما اعطت بدافع الطموح



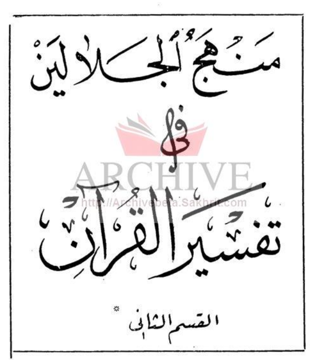
(١) تآد: الداهية .

المصادر

١ . أحمد الاسكندري ، الوسيط في الأدب العربي وتأريخه . مطبعة المعارف، القاهرة ، بلا .
٢ . أحمد أمين ،زعماء الاصلاح في العصر الحديث،مكتبة النهضة المصرية، القاهرة ١٩٦٥ .
٣ . أحمد عرابي ،كشف الستار عن سر الأسرار ،مطبعة مصر،القاهرة،بلا.
٤ . أحمد عرابي ،مذكرات عرابي ،دار الهلال ، القاهرة ،بلا.
٥ . جرجي زيدان تأريخ آداب اللغة العربية ،دار مكتبة الحياة ،بيروت ،بلا.
٦ . جرجي زيدان، تراجم مشاهير الشرق في القرن التاسع عشر ،دار مكتبة الحياة ، بيروت ،بلا.
٧ . جرجي زيدان بناة النهضة العربية ،دار الهلال ،القاهرة بلا.
٨ . حسين المرصفي ، الوسيلة الأدبية للعلوم العربية ،مطبعة المدارس الملكية، القاهرة ،١٢٩٢ هـ .
٩ . حنا الفاخوري ،تأريخ الأدب العربي ،المطبعة البولسية ،بيروت ، ١٩٥٤.
١٠. زكي مبارك ، الموازنة بين الشعراء ،دار الكاتب العربي القاهرة ،١٩٦٨.
١١. شوقي ضيف ،البارودي رائد الشعر الحديث،دار المعارف ،القاهرة،١٩٦٤.
١٢. شوقي ضيف ، الأدب العربي المعاصر في مصر ،دار المعارف، القاهرة،بلا.
١٣. عباس محمود العقاد ،شعراء مصر وبيئاتهم في القرن الماضي ،مكتبة النهضة المصرية القاهرة ، ١٩٦٥ .
١٤. عبد الرحمن الرافعي ، الثورة العرابية والاحتلال الانكليزي ، الدار القومية ، القاهرة ، ١٩٦٦ .
١٥. عبد الرحمن الرافعي ، الزعيم أحمد عرابي ، دار الهلال، القاهرة بلا .
١٦. علي محمد الحديدي ، محمود سامي البارودي ، دار الكاتب العربي ، القاهرة ١٩٦٧

١٧. علي محمد الحديدي ، محمود سامي البارودي شاعر النهضة ، مكتبة الانجلو المصرية القاهرة ، ١٩٦٩ .
١٨. علي الوردي، لمحات اجتماعية من تأريخ العراق الحديث، مطبعة الارشاد، بغداد ١٩٧٢ .
١٩. عمر الدسوقي في الأدب العربي الحديث ، دار الفكر العربي ، القاهرة ، ١٩٥٤ .
٢٠. عمر الدسوقي، محمود سامي البارودي ، دار المعارف ، القاهرة ، ١٩٧٠.
٢١. ماهر حسن فهمي الحنين، والغربة في الشعر العربي الحديث ، معهد البحوث والدراسات العربية القاهرة ، ١٩٧٠ .
٢٢. لجنة من ادباء الأقطار العربية ، الغزل ، دار المعارف القاهرة ، بلا.
٢٣. محمد حسين هيكل تراجم مصرية وغربية ، مطبعة مصر القاهرة ، بلا .
٢٤. محمد صبري، شعراء العصر مطبعة الدرب الاحمر ، القاهرة ١٩١٠ .
٢٥. محمد محمد حسين الاتجاهات الوطنية في الادب المعاصر، مكتبة الآداب، القاهرة، بلا.
٢٦. محمد محمد حسين، الاسلام والحضارة الغربية، دار الارشاد، بيروت ١٩٦٩
٢٧. محمد محمد عبد الفتاح اشهر مشاهير ادباء الشرق القاهرة ، بلا .
٢٨. محمود حامد شوكت ، مقومات الشعر العربي الحديث والمعاصر دار الفكر العربي ، القاهرة ١٩٧٦ .
٢٩. محمود سامي البارودي، الديوان الطبعة الاولى دار الكتب المصرية القاهرة ١٩٤٠ .
٣٠. محمود سامي البارودي، الديوان الطبعة الثانية، دار المعارف القاهرة ١٩٥٤، ١٩٧٢ .
٣١. ميكافيللي الامير ، ت : محمد لطفي جمعة ، القاهرة بلا .
٣٢. القرآن الكريم .
٣٣. مجلة الهلال دار الهلال ، القاهرة يونية ١٩٧٧ .

الدكتور كاصد ياسر حسين



* نشر القسم الأول من البحث في العدد الخامس من هذه المجلة لسنة ١٩٧٤



المنهج النحوي والصرفي

للجلالين في تفسيرهما منهج نحوي واضح متميز ، وذلك :

١. انهما قد يعربان من الآى الفاظا أو تراكيب أو جملا . فيذكران الوجه الاعرابي الذي تدل عليه وتحتمله ، وغالبا مايكون الوجه فرداً لايحتمل الاعراب سواه ، كقول السيوطي في وقوفه عند قوله تعالى : «واذا قيل لهم آمنوا بما أنزل الله قالوا نؤمن بما انزل علينا ويكفرون بما وراءه وهو الحق مصدقاً لما معهم » (١) : « ويكفرون» : الواو للحال ...« وهو الحق» حال : « مصدقا »حال ثانية مؤكدة »(٢) فهو يبين نوع الواو في الآية الكريمة ثم نوع الحال الثانية فيها ، فيشير إلى انها مؤكدة تمييزاً لها من الحال المبينة او المؤسسة (٣) .

فاذا احتمل الاعراب وجهين متساويين في القوة ذكرهما دون الاشارة إلى ضعف أحدهما أو ترجيح أحدهما على الآخر . فالسيوطي يرى أن « هاروت» في قوله تعالى : « وما انزل على الملكين ببابل هاروت وماروت»(٤) : « بدل ، أو عطف بيان على الملكين» (٥) فهذه التسوية في الاعراب بين البدلية وعطف البيان ، ترجع إلى ان الاتباع لايمنع — بعد القول بالبدلية — من جعل هاروت عطف بيان لأنه ليس مضمرا ولا تابعا لمضمر ، وليس مخالفا لمتبوعه في التعريف أو جهله أو تابعا لجملة

---

(١) البقرة : ٩١

(٢) تفسير الجلالين ص ١٤

(٣) ينظر تقسيم الحال الى مؤكدة . ومبينة او مؤسسة ، في : مغني اللبيب عن كتب الاعاريب لابن هشام ٢/٤٦٥ .

(٤) البقرة : ١٠٢ .

(٥) تفسير الجلالين ص ١٥ .

او فعلا او تابعاً لفعل وما إلى ذلك من الشروط التي يجب توفرها في عطف البيان . (١)

فان كان هناك وجهان من الاعراب أحدهما راجح — عندهما — والآخر مرجوح ، ذكر الراجح أولا وأورد المرجوح بصيغة التضعيف « قيل» بعد ذلك . فمن ذلك مابينه المحلي في تفسير قوله تعالى: «ولو أنهم صبروا حتى تخرج اليهم لكان خيرا لهم والله غفور رحيم » (٢) إذ قال : «ولو أنهم»:أنهم في محل رفع بالابتداء.وقيل: فاعل لفعل محذوف مقدر أي : ثبت. فذكر أولا رأيه في محل المصدر المؤول من ان ومعموليها من الاعراب مبينا انه الرفع على الابتداء . ثم ذكر بعد ذلك ماقيل فيه من وجه إعرابي آخر ، وهو كونه فاعلا لفعل محذوف تقديره : « ثبت » . فكأنه قيل ولو ثبت أنهم صبروا لكان خيرا لهم .

٢. والأحكام النحوية عندهما تابعة للمعنى وليس المعنى تابعا لها ، وهذا هو المنهج السليم الذي ينبغي الالتزام به في إعراب القرآن الكريم وعليه المفسرون الكبار والنحاة الحذاق من مثل الطوسي والزمخشري وأبي حيان الاندلسي وابن هشام صاحب المغني .

فاللام في «ليحملوا» من قوله تعالى : « واذا قيل لهم ماذا انزل ربكم قالوا اساطير الأولين .ليحملوا أوزارهم كاملة يوم القيامة ..»(٣) لام العاقبة فيما يقرره السيوطي (٤) وليست لام التعليل . لأنهم لم يقصدوا بما فعلوه أن يتحملوا أوزارهم يوم الحساب . و (من) في قوله تعالى فاصبر كما صبر اولو العزم من الرسل» .(٥) للبيان وليست للتبعيض « لأن

---

(١) تنظر هذه الشروط التي يتميز بها عطف البيان من البدل في مغني اللبيب ٢/٥٥٤ وما بعدها.

(٢) الحجرات : ٥.(٣) النحل : ٢٤-٢٥. (٤) تفسير الجلالين ص ٢٢٢. (٥) الاحقاف : ٣٥ .

الرسل كلهم ذوو عزم» (١) فيما يرى (٢) وهو وجه في تأويل الآية(٣) وان كان قد ذكر بعد ذلك أن هناك من يجعلها للتبعيض على أساس أن ليسوا جميعاً ذوي عزم ، بل منهم من هم ذوو عزم ومنهم من ليسوا الرسل كذلك . و (من) في قوله تعالى : « وننزل من القرآن ماهو شفاء ورحمة للمؤمنين » (٤) للبيان أيضا عنده (٥) وليست للتبعيض . وواضح أنه يراعي المعنى في توجيه هذه الاداة لأن القرآن كله شفاء ورحمة وليس بعضه كذلك .

٣. وعني الجلالان بالعوامل والمعمولات فاشار الى العوامل اللفظية والمعنوية في غير موضع من تفسيرهما . فالمحلي يبين العامل اللفظي في ظرف الزمان « يوم » الوارد في قوله تعالى : « فتول عنهم يوم يدع الداع الى شيء نكر . خشعا أبصارهم يخرجون من الأجداث كأنهم جراد منتشر » . (٦) فيقول : « وناصب يوم يخرجون » . (٧) والسيوطي يشير الى العامل انصب الحال في قوله تعالى :«وهذا صراط ربك مستقيما فيبين أنه معنوي اذ يقول : «مستقيماً » (٨) : لاعوج فيه . ونصبه على الحال المؤكدة للجملة . والعامل فيها معنى الاشارة » . (٩) .

٤. وتفسير الجلالين يفيض بالمصطلحات النحوية التي كانت سائدة في عصورهما وفي العصور التي سبقتهما كمصطلح « البناء للمفعول » في مقابل مصطلحنا الحديث « البناء للمجهول » ومصطلح « البناء للفاعل» مقابل المصطلح

(١) أشهر الاقوال والمعتمد منها ، ان ذوي العزم من الرسل خمسة : نوح وابراهيم وموسى وعيسى ومحمد عليهم السلام .وسموا بذلك لأنهم أتو بشرائع ناسخة لشرائع من تقدمهم من الانبياء . انظر : الطوسي : التبيان ٢٨٧/٩ والطبرسي : مجمع البيان ٢٥/٢٦ والصاوي في حاشيته على الجلالين ٨٤/٤ .

(٢) تفسير الجلالين ص ٤٢٦ . (٣) الطوسي : التبيان ٢٨٧/٩ . (٤) الاسراء : ٨٢ .

(٥) تفسير الجلالين ص ٢٤٠ .

(٦) القمر : ٦-٧ . (٧) تفسير الجلالين ص ٤٤٧ . (٨) الانعام : ١٢٦.

(٩) تفسير الجلالين ص ١١٨.

المعروف « البناء للمعلوم» . (١) وكقول المحلي في إعراب « فضلا » من قوله تعالى : « فضلا من الله ونعمه » (٢) : « مصدر منصوب بفعله المقدر»(٣) يريد: انه مفعول مطلق نصب لنيابته عن فعله المحذوف «أفضل».

والتفسير لايخلو من التعبيرات النحوية الدقيقة التي يقع جزء منها في دائرة؟ «علل النحو » أو « فلسفته » بتعبيرنا اليوم كقول السيوطي : « ونفي مقاربة الفعل أشد من نفيه » (٤) وذلك حين فسر قوله تعالى : « فما لهؤلاء القوم لايكادون يفقهون حديثا » . (٥) ومراده : ان في نفي فعل المقاربة « يكادون » دلالة أكبر على عدم فقه الكافرين مما لو نفينا الفعل « يفقهون » نفسه مباشرة .

ولقد كانت هذه المقدرة النحوية التي عرفناها للسيوطي في تفسير الجلالين إرهاصا لدراساته الشهيرة في النحو وأصوله ورجاله من بعد فيما يبدو . على نحو مانرى في « همع الهوامع » و « الاشباه والنظائر» و « الاقتراح» و « بغية الوعاة» وغيرها .

٥. وعني تفسير الجلالين عناية واضحة بحروف المعاني وبخاصة حروف الجر . فنص على معانيها المختلفة من تبعيض وبيان والصاق ومعية وملك وغيرها. كما عني بالحروف التي قيل بزيادتها في التنزيل مثل«ما» و «من» و «الكاف»(٦) فلم ير بأساً من القول بزيادتها،مع ان من المفسرين من توقف أحياناً عن القول بهذه الزيادة ،وحملها محملا ينأى بها عن ذلك ما وجد اليه سبيلا. ومن هؤلاء محمد بن جرير الطبري(ت ٣١٠هـ) ، الذي بين في وقوفه عند آية البقرة : (٧) « أو كالذي مرّ على قرية وهي خاوية على عروشها ..» ،

(١) ينظر تفسير الآية ١١ من سورة يونس ص ١٧٠ والآية ٢٢ من سورة الرحمن ص ٤٥٠.
(٢) الحجرات : ٨ .
(٣) تفسير الجلالين ص ٤٣٥ . (٤) تفسير الجلالين ص ٧٥/
(٥) النساء : ٧٨ .
(٦) ينظر القول بزيادة « ما» في البقرة : ٨٨، ص٣ من تفسير الجلالين، وزيادة «من» في الأنعام : ٣٨ ، ص ١٠٨،و «الكاف» في البقرة : ٢٥٩، ص ٣٧. (٧) آية ٢٥٩ .

أن الكاف ليست زائدة ، بل هي أصيلة في التعبير ، إذ عطف « أوكالذي » على قوله « الى الذي حاجّ إبراهيم » المتقدم في قوله قبل ذلك : « ألم تر الى الذي حاجّ إبراهيم في ربه » . (١) وعلل ذلك بأن العبارتين وان اختلف لفظاهما ، الا أن إحداهما جاز أن تعطف على الأخرى « لتشابه معنيهما ، لأن قوله : ألم تر الى الذي حاج إبراهيم في ربه ، بمعنى هل رأيت يامحمد كالذي حاج إبراهيم في ربه ، ثم عطف عليه بقوله : أو كالذي مرّ على قرية ، لأن من شأن العرب العطف بالكلام على معنى نظير له قد تقدمه ، وان خالف لفظه » . (٢) وبهذا الاعراب أخذ غير واحد من المفسرين والنحويين ، كـأبي جعفر محمد بن الحسن الطوسي (٣) (ت٤٦٠هـ) ، وأبي البركات كمال الدين بن الأنباري (٤) (ت٥٧٧هـ) ، على حين جعل السيوطي هذه الكاف زائدة عندما عرض لتفسير الآية ، (٥) وهو وجه ذكره ابن الأنباري أيضاً مع الوجه الذي أسلفناه ، (٦) ولكنه ليس بالوجه الراجح مادام في الامكان حمل الكاف على الأصالة .

٦. والمذهب النحوي الذي تبناه الجلالان في تفسيرهما هو المذهب البصري، ويعود ذلك الى شيوعه في زمانهما .ومن دلائله ماأورده السيوطي في تفسير قوله عزّ وجل : « وان امرأة خافت من بعلها نشوزاً أو إعراضاً »، (٧) فقال : « وان امرأة : مرفوع بفعل يفسره خافت » . (٨) وهذا هو مذهب البصريين في إعراب الاسم المرفوع بعد « إن » و « إذا» و « لو » الشرطيات ، إذ هم يرون أنه مرفوع بفعل محذوف يفسره المذكور بعد ذلك الاسم المرفوع . في حين يرى الكوفيون ان الاسم فاعل للفعل المذكور،أو على حد تعبير ابي البركات الأنباري (٩) :

---

(١) الشورى : ١١ (٢) الطبري : جامع البيان عن تأويل آى القرآن ١٩/٣ . (٣) التبيان في تفسير القرآن ٣٢٠/٢. (٤) البيان في غريب اعراب القرآن ١٧٠/١ . (٥) تفسير الجلالين ص ٣٧ . (٦) البيان في اعراب غريب القرآن ١٧٠/١ . (٧) النساء : ١٢٨

(٨) تفسير الجلالين ص٨١ . (٩) الانصاف في مسائل الخلاف ٣٢٣/٢. وذهب الاخفش ـ من البصريين ـ الى انها مبتدأ ، انظر : معاني الحروف للرماني ص ٧٤.

« يرتفع بما عاد اليه من الفعل من غير تقدير فعل». فليس هناك من تقدير في الكلام ولا حذف فيه على رأيهم .

ومن دلائل اخذهما بمذهب البصريين في النحو ، جعل المحلي لأن ومعموليها في قوله تعالى : « ولو انهم صبروا حتى تخرج إليهم » ، في محل رفع بالابتداء(١)، اذ هو رأي البصريين ومنهم سيبويه ، على حين أعربها الكوفيون فاعلا (٢)، ووافقهم المبرد والزجاج من البصريين . (٣) وقد ذكر المحلي رأي الكوفيين بصيغة التضعيف « قيل » فقال بعد إيراد رأي البصريين الذي بيناه آنفاً : « وقيل : فاعل لفعل محذوف مقدر ، أي : ثبت » (٤) ، وهذا يعني — مع اختياره لرأي البصريين — ان رأي الكوفيين مرجوح عنده .

٧. ولابد من الاشارة الى ان المباحث الصرفية تحتل مكاناً بيناً في تفسير الجلالين ، وتتناول ظواهر وموضوعات صرفية متنوعة ، كظاهرة الاعلال والابدال واوزان الأفعال ومعانيها والادغام وما الى ذلك .

فمن مثل الاعلال ماورد في تفسير قوله تعالى : « واذا لقوا الذين آمنوا قالوا آمنا » (٥) اذ نجد السيوطي يقول : « واذا لقوا : أصله لقيوا ، حذفت الضمة للاستثقال ، ثم الياء لالتقائها ساكنة مع الواو » . (٦)

ومن مثل البحث في أوزان الأفعال تفريقه معنوياً بين « نزل » و « أنزل » في وقوفه عند قوله تعالى : « نزّل عليك الكتاب بالحق مصدقاً لما بين يديه وأنزل التوراة والانجيل » . (٧) إذ قال : « وعبّر فيهما — يريد بالتوراة والانجيل — بأنزل ، وفي القرآن بنزّل المقتضي للتكرير ، لأنهما أنزلا دفعة

(١) تفسير الجلالين ص ٤٣٥ عند تفسير الآية ٥ من الحجرات. وانظر الرأي البصري للسيوطي في حذف جواب (لما) في ص ١٣

(٢) ابن هشام : مغني اللبيب ٢٦٩/١— ٢٧٠ . ولم يعرض الفراء لاعراب الآية في معاني القرآن ٧٠/٣ عند تفسير سورة الحجرات . (٣) مغني اللبيب ٢٧٠/١ .(٤) تفسير الجلالين ص ٤٣٥ . (٥) البقرة : ١٤ . (٦) تفسير الجلالين ص ٤. (٧) آل عمران : ٣.

واحدة بخلافه » . (١) يريد : أن القرآن لم ينزل دفعة واحدة كهذين الكتابين ، بل انزل منجماً على مدى عشرين سنة أو ثلاث وعشرين أو خمس وعشرين ، بحسب الخلاف في ذلك ، (٢) ولهذا عبر عنه بالفعل « نزل » الذي يفيد التكثير والتكرير .

ولم يكتف الجلالان بذكر الظواهر الصرفية الواردة في الآيات الكريمة بل شفعا ذلك بتبيين عللها أحياناً أو بعبارة حديثة فلسفتها . فمن ذلك علة جمع المثنى عند إضافته إلى ضمير المثنى ، كالذي ورد في قوله عزّ وجل : « إن تتوبا إلى الله فقد صغت قلوبكما » (٣)،فقد علل المحلي جمع القلوب بدلاً من تثنيتها بتوخي المتكلم التخفيف عند اجتماع اللفظين اللذين يبدوان كالكلمة الواحدة، أو على حد تعبيره « لاستثقال الجمع بين تثنيتين فيما هو كالكلمة الواحدة »(٤).

ومما أسلفناه يتبين أن تفسير الجلالين – على إيجازه – قد عني بالنحو والصرف عناية طيبة، قلما يعني بها تفسير موجز مثله . وهذا يعود إلى أن كلاً من الجلالين : المحلي وتلميذه السيوطي نحوي .

المنهج البلاغي :

تأخذ البلاغة دورها في تفسير الجلالين ،وتحتل مكاناً بّيناً فيه ،وقد تناولت علوم البلاغة الثلاثة المعروفة المعاني والبيان والبديع . ونود أن نشير إلى أظهر المباحث المتعلقة بهذه العلوم في التفسير دون أن نعمد إلى استقصائها ،لأن ذلك ليس غرضنا في هذا البحث . إذ أننا ندرس البلاغة في التفسير في إطار دراستنا لمنهج مؤلفيه الجليلين ،في تحريره .ولنبدأ بما يبدأ به في الدراسات البلاغية عادة وهو علم المعاني: فنذكر من هذا العلم :

---

(١) تفسير الجلالين ص ٤٢ .

(٢) الزركشي : البرهان في علوم القرآن ٢٢٨/١ والسيوطي : الاتقان في علوم القرآن ٣٩/١ – ٤٠ .

(٣) التحريم : ٤ . (٤) تفسير الجلالين ص ٤٧٦ .

الاشارة :

للاشارة في تعبير القرآن معان يلحظها الجلالان . من تلك المعاني «التعظيم » ، كما في قوله عز وجل « ذلك الكتاب لاريب فيه هدى للمتقين » (١) وقد التفت اليه السيوطي فقال « ... وجملة النفي خبر مبتدؤه ذلك .والاشارة للتعظيم »(٢) .

ومنها « التأكيد » عند التكرير ، وقد لحظه السيوطي في اسم الاشارة «ذلك» المكررة في آية البقرة:«ضربت عليهم الذلة والمسكنة وباءوا بغضب من الله ذلك بأنهم كانوا يكفرون بآيات الله ويقتلون النبيين بغير حق ذلك بما عصوا وكانوا يعتدون » (٣) فقال : « ذلك بما عصوا وكانوا يعتدون ».

«يتجاوزون الحد في المعاصي وكرر للتأكيد » (٤) فالضمير في «كرر» يعود على اسم الاشارة في الآية الكريمة غير أن إيجاز عبارة التفسير كاد أن يجعل الأمر يغم‍ّ، لولا أن قارئه لايحتمل لغير تكرار اسم الاشارة غرضاً في هذه الآية . إذ لم يكن تكرار «كانوا » موضع تأمل بلاغي ،ومثل هذا كثير في تفسير الجلالين الا أنه لايخفى على القارىء الواعي ، المدرك لاسرار العربية واساليبها البلاغية وأغراض تلك الأساليب .

التقديم والتأخير :

وللتقديم في كتاب الله مقاصد ، التفت اليها الجلالان فمنها :

أ. مايراه المحلي من أن التقديم والتأخير قد يكون لاحداث التناسق الموسيقي بين الآي ، كتقديم المفعول به على فعله في قوله عز وجل: «قال الذين حق عليهم القول ربنا هؤلاء الذين اغوينا أغويناهم كما غوينا تبرأنا اليك ما كانوا إيانا يعبدون» (٥). فضمير النصب المنفصل « ايانا »قدم على الفعل «يعبدون » في الآية الكريمة لغرض التناسق بين الفواصل في رؤوس الآي ،فيما يذهب اليه الشيخ ولذلك

---

(١) البقرة : ٢ . (٢) تفسير الجلالين ص ١ .
(٣) البقرة : ٦١ .
(٤) تفسير الجلالين ص ١٠ .
(٥) القصص : ٦٣ .

ولذلك قال بعبارته الموجزة : « وقدم المفعول للفاصلة » . (١) وسنناقش رأيه هذا في موضعه من البحث .

ب . ومنه تقديم الأهم على مادونه في الأهمية، كتقديم الابل على غيرها من عناصر الطبيعة في الآيات الكريمة : «افلا ينظرون إلى الابل كيف خلقت وإلى السماء كيف رفعت والى الأرض كيف سطحت » (٢) لما لها من أهمية في حياة البدوي ،والأهم مقدم عرفا ،كما هو معلوم.ولذلك قال المحلي في خاتمة تفسيره لهذه الآيات ملتفتا الى هذه الحقيقة:«وصدرت – يقصد الآيات – بالابل لأنهم اشد ملابسة لها من غيرها » (٣) .

الاستفهام

وعني الجلالان باسلوب الاستفهام في القرآن والتفتا إلى كثير من معانيه الاضافية التي خرج اليها عن مقتضى الظاهر . فمن ذلك :

أ. **الاستفهام** التقريري : الذي يلحظه السيوطي مثلاً في قوله تعالى : « هل عسيتم إن كتب عليكم القتال ألا تقاتلوا » ؟ (٤) ويتبينه المحلي في هذه العبارة التي كررت إحدى وثلاثين مرة في سورة الرحمن « فبأي آلاء ربكما تكذبان »؟ يقول:« ذكرت إحدى وثلاثين مرة ،والاستفهام فيها للتقرير»، ثم يستدل على هذا المعنى بحديث جابر بن عبدالله الأنصاري عن النبي (ص) فيقول « لما روى الحاكم عن جابر ،قال : قرأ علينا رسول الله (ص) سورة الرحمن حتى ختمها ،ثم قال:مالي أراكم سكوتا ؟ للجن كانوا أحسن منكم ردا ،ما قرئت عليهم هذه الآية من مرة: «فبأي آلاء ربكما تكذبان » إلا قالوا: ولا بشيء من نعمك ربنا نكذب فلك الحمد ». (٥) وبذلك استعان المحلي بالسنّة في توضيح وتوجيه بعض وجوه البلاغة القرآنية وهو منهج مثمر ومفيد إذ كانت السنة النبوية شارحة للقرآن ،مبينة له ،مفصلة لمجمله .. فما أحراها أن تكشف عن وجوه البلاغة فيه وتبينها .

---

(١) تفسير الجلالين ص ٣٢٩ .
(٢) الغاشية : ١٧–٢٠ .
(٣) تفسير الجلالين ص ٥٠٩ .
(٤) البقرة : ٢٤٦ .
(٥) تفسير الجلالين ص ٤٥٠ .

ويبدو أن الشيخ المحلي فهم من معنى التقرير هنا : التقرير بالنفي ، وهو الضرب المقابل للتقرير بالايجاب (١) أوقل : الاثبات . وقاعدته التي وضعها أبو جعفر الطوسي: «أن جوابه يجب أن يكون بالنفي فصار ذكره يغني عن ذكر جوابه »(٢). والجواب الذي ورد في الحديث عن لسان الجن كان بالنفي لقولهم: « ولابشيء من نعمك ربنا نكذب » فاقتضى أن يكون التقرير الذي خرج اليه الاستفهام تقريراً بالنفي لا بالايجاب .

ب. ومنه الاستفهام الانكاري ، الذي يلحظه السيوطي في قوله عزّ وجل منكراً على الجاهلين عقيدتهم الاسطورية في تحريم بعض الأنعام « قل آلذكرين حرم أم الأنثيين أمّا اشتملت عليه أرحام الأنثيين»(٣) . وهذا الضرب عده البلاغيون من إنكار الفعل إذ لم يكن المراد معرفة عين المحرّم بل المراد إنكار التحريم من أصله(٤) ولم يبين السيوطي ذلك إيجازاً فيما يبدو. ونرى المحلي يلمح الاستفهام الانكاري في قوله تعالى: «أفمن حق عليه العذاب أفانت تنقذ من في النار» (٥) ولا يحتمل للتعبير غير هذا الاسلوب. إلا أنه يحتمل للاداة «ما» في قوله تعالى: «فما تغن النذر » (٦) غير الدلالة على الاستفهام الانكاري ، إذ يرى أنها قد تفيد النفي (٧) . فيكون الكلام على هذا خبراً عن حال اولئك المكذبين، كما يجوز أن يكون إنكارا . ويبدو أن الاستفهام للتوبيخ – إذا جعلنا(ما)استفهامية – إذ هذا المعنى أظهر من معنى الانكار فيه ، كما يقول أحدنا لآخر فما تنفعك النصيحة ؟ وما يفيدك التوجيه ؟ ،فهو هنا يوبّخه ويقرعه،لا أن ينكر عليه . وعد بعض المتأخرين (٨) التوبيخ ضربا من الانكار وفرعا منه . وفيه نظر

---

(١) ينظر التقرير بالايجاب في تفسير التبيان للطوسي ٤٠٢/٨ ، والتقدير بالنفي في المصدر نفسه ٣٣/٣ (٢) الطوسي : التبيان في تفسير القرآن ٣٣/٣
(٣) الأنعام : ١٤٣ وانظر يونس : ٢ « أكان للناس عجباً ان اوحينا الى رجل منهم » .
(٤) السكاكي : مفتاح العلوم ص ١٥١ . والقزويني : الايضاح ١٤١/١ .
(٥) الزمر : ١٩ . (٦) القمر : ٥ . (٧) تفسير الجلالين ص ٤٤٧
(٨) كالقزويني ، انظر : التلخيص ص ١٦٦ والايضاح ١٣٨/١ .

فأن التوبيخ معنى غير الانكار ، ولعل اشتماله على الانكار أولى من العكس. ولهذا كان الجلالان يفرقان بين الانكار والتوبيخ .

ج. ومنه الاستفهام التوبيخي الذي التفت اليه السيوطي في قوله تعالى : «فأما الذين أسودت وجوههم أكفرتم بعد ايمانكم » كما التفت اليه المحلي في قوله تعالى : «قتل الانسان ماأكفره » (١) فقال : « استفهام توبيخ أي : ماحمله على الكفر »(٢). وكان الفراء (ت ٢٠٧هـ) يرى أنّ هذا الاستفهام الذي في الآية يحتمل التعجب أيضاً إلا أنه يقرر أن الوجه الآخر هو المعمول عليه في التفسير ، ويقدر الكلام في الآية : «ماالذي اكفره »؟(٣)

د . وهناك الاستفهام التشويقي او التعجيبي ، وهو الممهد لما بعده من قول والمشوق له . كالذي اشار اليه السيوطي في وقوفه عند قوله تعالى : « الم تر الى الذين خرجوا من ديارهم . وهم ألوف حذر الموت» (٤) فقال : « ألم استفهام تشويق إلى استماع مابعده» . (٥)

هـ. ومنه الاستفهام التفخيمي الذي لمحه المحلي في قوله عز وجل : « عم يتساءلون . عن النبأ العظيم . الذي هم فيه مختلفون» . (٦) فقال : « عم» : عن اي شيء « يتساءلون » : يسأل بعض قريش بعضا « عن النبأ العظيم » بيان لذلك الشيء والاستفهام لتفهيمه ، وهو ماجاء به النبي صلى الله عليه وسلم من القرآن المشتمل على البعث وغيره» . (٧) ولعل من هذا الوادي مايمكن أن نسميه « الاستفهام التعظيمي » الذي تبينه المحلي أيضا في قوله تعالى : « والسماء والطارق . وما ادراك ماالطارق . النجم الثاقب » (٨) فقال . « وفيه تعظيم لشأن الطارق : المفسر بما بعده ، وهو النجم اي : الثريا» (٩) .

---

(١) عبس : ١٧ . (٢) تفسير الجلالين ص ٥٠١ .
(٣) الفراء : معاني القرآن ٢٧٨/٣ .
(٤) البقرة : ٢٤٣ . (٥) تفسير الجلالين ص ٣٤(٦) النبأ : ١ـ٣ . (٧) تفسير الجلالين ص ٤٩٨؛ (٨) الطارق : ١ـ٣. (٩) تفسير الجلالين ص ٥٠٧ .

ومنه الاستفهام المراد به الأمر، وقد لمحه المحلي في قوله تعالى: «ولقد يسرنا القرآن للذكر فهل من مدكر» (١) فقال: « فهل من مدكر» : متعظ به وحافظ له والاستفهام بمعنى الأمر اي: احفظوه واتعظوا به. وليس يحفظ من كتب الله عن ظهر قلب غيره » . (٢)

التغليب :

وهو من وجوه البلاغة العربية وقد نبه عليه من قدامى المفسرين جارالله محمود بن عمر الزمخشري . (٣)

وله صور في القرآن التفت اليها الجلالان فمنها :

أ. تغليب الأكثر على الأقل ، كالذي رآه السيوطي في تغليب الأبوين ــ الأب والجد ــ على العم في قوله تعالى على لسان أبناء يعقوب : « قالوا نعبد إلهك واله آبائك ابراهيم واسماعيل واسحق » اذ قال : « عد اسماعيل من الآباء تغليب » (٤) وأضاف إلى ذلك سببا آخر هو التجوز في التعبير بانزال العم منزلة الأب . وذاك من سنن العرب وطرائقهم في الكلام (٥) فقال : « ولأن العم بمنزلة الأب» . (٦)

وعد المحلي ورود « ما » الموصولة بدلا من « من » في قوله عز وجل:

---

(١) القمر : ١٧.

(٢) تفسير الجلالين ص ٤٤٨ (٣) انظر مبحثه في : البلاغة تطور وتاريخ لشوقي ضيف ص ٢٥٢ ، عند كلامه على ما اضافه الزمخشري في المعاني .

(٤) البقرة : ١٣٣ (٥) تفسير الجلالين ص ١٩ .

(٦) الثعالبي : فقه اللغة ، فصل « في اقامة العم مقام الأب والخالة مكان الأم » ٥٥٨ . وقد جعل الآية الكريمة موضوع البحث من اقامة العم مقام الأب وجعل قوله تعالى في سورة يوسف : « ورفع أبويه على العرش » آية : ١٠٠ ، من اقامة الخالة مقام الأم ، لما روى من أن أم يوسف كانت قد توفيت ، وهذه خالته .

« يسبح لله مافي السموات وما في الارض » (١) من هذا الضرب من التغليب، فقال : « وأتى بما دون من تغليبا للأكثر » (٢) .

ب . ومنه تغليب العاقل على غيره ، كالذي لمحه المحلي في قوله تعالى : «فاطر السموات والأرض جعل لكم من أنفسكم أزواجاً ومن الأنعام أ زواجاً يذرؤكم فيه ليس كمثله شيء وهو السميع البصير » ، (٣) فقال : « يذرؤكم » بالمعجمة : يخلقكم . « فيه » : في الجعل المذكور ، أي : يكثركم بسببه بالتوالد . والضمير للأناسي والأنعام بالتغليب » . (٤) يريد ان الأناسي غلبت على الأنعام في الآية الكريمة ، ولذلك عبر عن الجنسين بضمير العقلاء في « يذرؤكم » .

ج . ومنه تغليب الذكور على الاناث ، وقد التفت اليه المحلي أيضاً إذ فسر قوله تعالى : « إنّ المصدقين والمصدقات واقرضوا الله قرضاً حسناً يضاعف لهم ولهم اجر كريم » ، (٥) فقال : « وأقرضوا الله قرضاً حسناً» ، راجع الى الذكور والاناث بالتغليب » . (٦) يريد : أن الضمير المتصل في « أقرضوا » يعود على الذكور والاناث المتقدم الحديث عنهم في الآية الكريمة ، وهم المؤدون للصدقات . وقد جاء بصيغة ضمير الذكور تغليباً لهم على الاناث .

التكرار :

وأسلوب التكرار من الدلائل البلاغية القرآنية ، وهو جاء على إلف العرب في التعبير ، إذ كان من عادتهم الاطناب ، كما كان من عادتهم الايجاز ، بحسب مقتضى الحال . وهو وثيق الصلة بهدف القرآن في الحث على الايمان والعمل الصالح والنأي عما ينافيهما .

قال الكرماني (٧) (ت أول القرن السادس للهجرة) ، وهو يتكلم على

(١) التغابن : ١ (٢) تفسير الجلالين ص ٤٧٢ . (٣) الشورى : ١١

(٤) تفسير الجلالين ص ٤٠٦ . (٥) الحديد : ١٨ . (٦) تفسير الجلالين ص ٤٥٧

(٧) أسرار التكرار في القرآن ص ٢٠٠ .

التكرار في سورة المرسلات : « لأن بسط الكلام في الترغيب والترهيب أدعى الى ادراك البغية من الايجاز » . وكأنه يشير بهذا القول الى تأثيره النفسي ، لأن الشيء اذا تكرر على السمع كان أكثر تأثيراً في النفس وعلوقاً بها ، اذ هو يوحي بالتقدير والاقناع والجزم .

وقد انتهت الدراسات النفسية الى ان مثل هذا الاسلوب هو أقوى أساليب الاستدلال النفسي ، وادعاها الى اليقين ، واكثرها ايحاء بالحسم والجد (١) « فاذا تكرر الشيء رسخ في الاذهان رسوخاً ينتهي بقبوله حقيقة ناصعة »(٢) ولذلك عني الجلالان بهذا الاسلوب القرآني كما عني به من سبقهما من المفسرين ... والبلاغيين . فالمحلي يلحظ معنى التأكيد الذي يحدثه التكرار في قوله تعالى « كلا سيعلمون . ثم كلا سيعلمون » (٣) ويذهب الى انه قد جيء بـ « ثم » لتهويل الوعيد ، او على حد تعبيره « ايذاناً بأن الوعيد الثاني أشد من الاول » . (٤) وكان الكرماني يحكي مع القول بأن التكرار مسوق في الآية لغرض التأكيد أقوالا أخرى أحدها أن العبارة الأولى للكفار والثانية للمؤمنين ، وثانيها أن الأولى عند النزع والثانية في القيامة ، وثالثها : أن الأولى ردع عن الاختلاف والثانية عن الكفر . (٥) واحتمل بعض المعاصرين (٦) أن تكون الأولى : لما ينال الكفار من هزيمة على أيدي المؤمنين والثانية لما ينالهم من عذاب الآخرة .

وهذه الاقوال لا تخلو من ضعف لأنها تمزق السياق وتجعله موزعاً بين

(١) عائشة عبد الرحمن : التفسير البياني للقرآن الكريم ٧٤/١ .

(٢) لوبون : غوستاف : روح الاجتماع ، ص ١٣٩ . وانظر : بدوي - الدكتور احمد : من بلاغة القرآن ، ص ١٤٣ .

(٣) النبأ : ص ٤-٥ .

(٤) تفسير الجلالين ، ص ٤٩٨ .

(٥) الكرماني : أسرار التكرار في القرآن ، ص ٢٠١ .

(٦) تنظر تعليقة عبد القادر أحمد عطا محقق كتاب الكرماني « أسرار التكرار في القرآن » في هامش ص ٢٠١ .

شيئين ، مع أنه يقتضي أن الكلام في كلتا العبارتين مسوق لغرض واحد ، هو الوعيد بعذاب الآخرة بعد أن انكرها المشركون. ويدل على ذلك ما ورد قبلهما ، وهو قوله تعالى « عم يتساءلون» . عن النبأ العظيم . الذي هم فيه مختلفون» (١) كما يدل عليه ما ورد بعدهما في السياق وهو قوله « ان يوم الفصل كان ميقاتاً. يوم ينفخ في الصور فتأتون أفواجاً » ...(٢) الى آخر الآيات التي تصور الهول في يوم القيامة (٣) كما تصور النعيم فيه بعد ذلك (٤) على وجه المقابلة.فضلا على أن ما ذكروه لا دليل عليه وخاصة من داخل القرآن ، مع أن الدليل على خلافه واضح كما أسلفناه. وبالمثل نجد السيوطي يلمح معنى التأكيد في تكرير قوله تعالى : « ويحذركم الله نفسه » مرتين في سورة آل عمران ، (٥) في سياق واحد . فيقول بعبارة موجزة جرياً على منهجه في هذا التفسير : « كرر للتأكيد » . (٦) وقال الكرماني في بيانه لسر هذا التكرار : «كرر مرتين . لأنه وعيد عطف على (٧) وعيد آخر في الآية الأولى » . (٨)

علم البيان :

بين الجلالان في تفسيرهما كثيراً من صور البيان القرآني الا أنه ذلك اتسم بالايجار تمشياً مع منهجهما في هذا التفسير . وكان من مباحثه .

التشبيه :

للتشبيه في كتاب الله صور وأساليب متعددة تحقق أهدافا دينية متنوعة ، يلتفت اليها الجلالان وهما يفسران الآية ، فمنه :

---

(١) النبأ : ١-٣ .
(٢) النبأ : ١٧-١٨ .
(٣) النبأ : ١٩-٣٠ .
(٤) النبأ : ٣١-٣٦ .
(٥) في الآيتين : ٢٨ و ٣٠ .
(٦) تفسير الجلالين، ص ٤٥ .
(٧) في الاصل: عليه، والصحيح ما اثبتناه لدلالة الكلام على ذلك .
(٨) الكرماني: أسرار التكرار في القرآن، ص ٤٢ .

أ. تشبيه شيء بشيء آخر تشبيها اعتيادياً ،كالذي بينه السيوطي في وقوفه عند آية البقرة : « مثلهم كمثل الذي استوقد نارا فلما اضاءت ما حوله ذهب الله بنورهم وتركهم في ظلمات لايبصرون . صم بكم عمي فهم لايرجعون . أو كصيب من السماء فيه ظلمات ورعد وبرق يجعلون أصابعهم في آذانهم من الصواعق حذر الموت والله محيط بالكافرين » (١) فقال « ... وفيه ذكر الكفر المشبه بالظلمات، والوعيد عليه المشبه بالرعد والحجج البينة المشبهة بالبرق . يسدون آذانهم لئلا يسمعوه فيميلوا الى الايمان وترك دينهم . وهو عندهم موت » .(٢) وهذا الاجتزاء في بيان التشبيه المركب في الآية الكريمة له في كشاف الزمخشري بيان وتفصيل وتنظير بكلام العرب . (٣)

ب. ومنه التشبيه المعكوس بقصد المبالغة في الكلام او كما يسميه البلاغيون التشبيه المقلوب . (٤) وقد التفت اليه السيوطي ايضاً في قوله تعالى : «الذين يأكلون الربا لا يقومون إلا كما يقوم الذي يتخبطه الشيطان من المس ذلك بأنهم قالوا إنما البيع مثل الربا ..» ، (٥) فقال : « قالوا انما البيع مثل الربا» في الجواز ، وهذا عكس التشبيه مبالغة . (٦) يريد : أن الاصل في التشبيه هنا أن يقال: إنما الربا مثل البيع، ولكنه عكس لغرض بلاغي هو المبالغة في تبيين حرص المرابين على الربا ، وتفانيهم في المدافعة عنه ، حتى جعلوا البيع كأنه الربا عينه . فوضع المشبه به مكان المشبه لهذا القصد .

ج. ومنه تشبيه الغريب بالأغرب ، وقد التفت اليه السيوطي في وقوفه عند قوله عز وجل : «إن مثل عيسى عند الله كمثل آدم خلقه من تراب ثم قال له

---

(١) البقرة: ١٧-١٨ .

(٢) تفسير الجلالين، ص ٥ .

(٣) الزمخشري: الكشاف ١/١٦٠-١٦٤ .

(٤) السكاكي: مفتاح العلوم، ص ١٦٣ ، والقزويني: التلخيص، ص ٢٦٦

(٥) البقرة: ٢٧٥ .

(٦) تفسير الجلالين، ص ٤٠ .

كن فيكون» (١) فقال: «إن مثل عيسى» الغريب«عند الله كمثل آدم»: كشأنه في خلقه من غير أب. وهو تشبيه الغريب بالاغرب ليكون أقطع للخصم وأوقع في النفس». (٢)

ونلاحظ هنا أن السيوطي بين القصد من هذا الضرب من التشبيه، فربطه بأصول الجدل ونوه بأثره النفسي في قطع المجادل وظهور حجة المحتج. اذ لاشك في أن خلق عيسى من غير أب – على غرابته – ليس بأغرب من خلق آدم من تراب، مع أن الذين ينكرون خلق عيسى بهذه الصورة، لاينكرون خلق آدم من تراب، فكانت قوة الغرابة في المشبه به، قوة للدليل في معرض الاحتجاج والاقناع.

ويشير الجلالان في مواضع من تفسيرهما الى الأهداف التي يتوخاها القرآن من تشبيهاته، وهي أهداف تتصل بالعقيدة الدينية، وتتخذ وجهات متعددة كل وجهة تحقق هدفاً معيناً. فالسيوطي يلحظ الهدف من التشبيه في الآية التي تصور من ابتعد عن آيات الله بعد إذ رآها، واتبع هواه ولم يتبع الهدى، ويضع أيدينا على ذلك التشبيه الدقيق والتصوير المعبر عن حالة فكرية معينة فيقول في تفسيره لقوله تعالى: «واتل عليهم نبأ الذي آتيناه آياتنا فانسلخ منها فأتبعه الشيطان فكان من الغاوين. ولو شئنا لرفعناه بها ولكنه أخلد الى الأرض واتبع هواه فمثله كمثل الكلب إن تحمل عليه يلهث وان تتركه يلهث ذلك مثل القوم الذين كذبوا بآياتنا فاقصص القصص لعلهم يتفكرون» (٣): «و القصد التشبيه في الوضع – أي الضعة – والخسة، بقرينة الفاء المشعرة بترتيب ما بعدها» (٤).

---

(١) آل عمران: ٥٩ .

(٢) تفسير الجلالين، ص ٤٨ .

(٣) الاعراف: ١٧٥-١٧٦ .

(٤) تفسير الجلالين، ص ١٤٣ .

ونرى المحلي يضع ايدينا على الهدف العام من تشبيهات القرآن الجارية مجرى الأمثال في ضوء آية النور : (١) « مثل نوره كمشكاة فيها مصباح المصباح في زجاجة الزجاجة كأنها كوكب دري يوقد من شجرة مباركة زيتونة لا شرقية ولا غربية .... » فيقول في تفسيره لخاتمتها : « ويضرب الله الأمثال للناس » : « تقريباً لأفهامهم ليعتبروا فيؤمنوا » . (٢) وفكرة التقريب هذه قائمة على أن القرآن يقرب المعنويات عن طريق المحسّات ، فالآية ضربت مثلا لنور الله في قلب المؤمن،فصورته بصورة المُحَس وأخرجته الى حيز المنظور مع أنه شيء معنوي كما هو واضح .

الحقيقة والمجاز :

عرض الجلالان للحقيقة والمجاز في القرآن ونبها عليهما في مواضع من تفسيرهما . ونراهما ينصان على أن في الكلام مجازاً حين لا يحتمل في رأيهما الحقيقة . فان احتملها بينا ذلك . وهما يسلكان الاستعارة في باب المجاز، دون أن يشيرا الى أنها استعارة ويبينا نوع تلك الاستعارة أو يعينا نوع المجاز الذي تمخضت عنه . وأيضاً فانهما لا يبينان نوع المجاز أعقلي هو أم مرسل ، بل يشيران الى أنه مجاز فحسب وقد يكتفيان بالوصف دون بيان الاصطلاح فلا ينصان على أنه مجاز . وهذا يرجع الى أنهما ينشدان الايجاز في بيان وجوه البلاغة تمشياً مع منهجهما الذي التزما به .

أ . فالسيوطي يلمح مثلا المجاز العقلي أو كما سماه عبدالقاهر « الحكمي » (٣) الذي علاقته الاسناد الى المكان في وقوفه عند قوله تعالى : « وبشر الذين آمنوا وعملوا الصالحات أن لهم جنات تجري من تحتها الأنهار » (٤) ولكنه لايبين

---

(١) سورة النور : ٢٥ .

(٢) تفسير الجلالين، ص ٢٩٦ .

(٣) دلائل الاعجاز ، ص ٢٨٦ وما بعدها ،وقد مثل بقوله تعالى: « فما ربحت تجارتهم »

(٤) البقرة: ٢٥

نوعه وعلاقته بل يكتفي بالقول : (إن إسناد الجري الى النهر مجاز ، لأن الجري في الحقيقة للماء الذي يجري فيه ، لان الماء ينهره أي : يحفره » . (١) وهذا الذي ذكره السيوطي هو المشهور بين البلاغيين والمفسرين . فقد كان الزمخشري (ت ٥٣٨ هـ) ، يذهب الى أن « اسناد الجري الى الأنهار من الاسناد المجازي » وينظر له بقول العرب : « بنو فلان تطؤهم الطريق » . (٢) ومراده : أن الماشين هم الذين يطأونها في الحقيقة إلا أن ذلك جرى على سبيل الاسناد الى المكان إسنادا مجازياً . وكان الطوسي يذهب الى عكس ذلك ، فيرى أن التعبير في الآية حقيقة عرفية ويقول : « انه بعرف الاستعمال سقط عنه اسم مجاز » .(٣) والحقيقة العرفية تعني : « أن يشتهر المجاز بحيث يكون استعمال الحقيقة منكراً » . (٤) وبالمثل يلمح المحلي المجاز في قوله عز وجل : «فكيف تتقون يوماً يجعل الولدان شيبا » (٥) ولكنه لايصرح بأنه عقلي وأن علاقته الاسناد الى الزمان — من حيث إنه أسند الاشابة الى اليوم وهي في الحقيقة ليست له —بل هو يكتفي بأن يقول : « ويقال في اليوم العديد يوم يشيب نواصي الاطفال وهو مجاز » . (٦) الا أنه مع ذلك يحتمل أن يراد بالتعبير الحقيقة فيقول : « ويجوز أن يراد به في الآية الحقيقة » . (٧) وهو في هذا الاحتمال يلحظ شدة الهول في يوم القيامة على ما يقرره القرآن في آيات وسور كثيرة منه وما يقرره في سياق هذه الآية أيضاً إذ يقول بعد ذلك : السماء منفطر به » . ويجعل المحلي ذلك مسوغاً لارادة الحقيقة في الآية .

ب. ويلمح المحلي المجاز المرسل الذي علاقته الجزئية مثلا في بعض المواضع ، أو بعبارة أخرى يلمح المجاز الذي يذكر فيه الجزء ويراد به الكل . ففي وقوفه

---

(١) تفسير الجلالين، ص ٦

(٢) الزمخشري: الكشاف ٢٠٠/١ .

(٣) الطوسي: التبيان ٢٣٢/٣-٢٣٣ .

(٤) العلوي: الطراز ٥٢/١ .

(٥) المزمل: ١٧ .

(٦) تفسير الجلالين، ص ٤٩٠ .

(٧) تفسير الجلالين، ص ٤٩٠ .

عند قوله عز وجل : (١) « وجوه يومئذ خاشعة » ... «وجوه يومئذ ناعمة » . يرى أنه عبر بالوجوه عن الذوات في الموضعين . (٢) فيشعرنا أنه التفت الى هذا الضرب من المجاز المرسل وان لم يصرح بذلك . واكثر منه إيجازا عبارة السيوطي في بيان المجاز المرسل الذي علاقته تسمية الشيء باسم ما سيؤول اليه ، في قوله تعالى: « إني أراني أعصر خمرا ». (٣) إذ نراه يقول: « أي عنباً » (٤). فاكتفى بالتفسير عن بيان المجاز المرسل وعلاقته في الآية . ومثل هذا كثير في تفسيرهما .

جـ . ويلحظ السيوطي التعبير الاستعاري في قوله تعالى : « حتى إذا جاءتهم الساعة بغتة قالوا ياحسرتنا على مافرطنا فيها »(٥) فيسميه مجازا ، إذ يقول : «قالوا ياحسرتنا»: هي شدة الألم .ونداؤها مجاز . أي: هذا اوانك فاحضري»(٦). فواضح أنه فهم من مناداة الحسرة في الآية ضربا من التشخيص الاستعاري بتشبيه الحسرة بالعاقل المدرك لمفهوم النداء .ولكنه لم يصرح بأنه استعارة.

إن هذا الاسلوب في بيان وجوه البلاغة القرآنية قد يهدينا إلى أن نقرر — مع القول بمراعاة الايجاز — بأن الجلالين قد نهجا في ذلك المنهج الفني الذي سار عليه عبد القاهر ومن عاصره أو قارب عصره من أفذاذ المفسرين المهتمين ببلاغة القرآن كالطوسي والزمخشري، دون الخوض في تلك الاصطلاحات والتفريعات التي انتهى اليها المتأخرون أصحاب مدرسة الكلام والمنطق والفلسفة. من مثل السكاكي والقزويني ومن تابعهما . وهي وجهة سليمة في التعامل مع البلاغة القرآنية . وكان هذين المفسرين الجليلين لم يشاءا أن يشغلا قارىء تفسيرهما بهذه الاصطلاحات والتفريعات الكثيرة المتشعبة التي نجدها في كتب هؤلاء

---

(١) الغاشية: ٢ ، ٨ .
(٢) تفسير الجلالين، ص ٥٠٩ .
(٣) يوسف: ٣٦ .
(٤) تفسير الجلالين، ص ١٩٦ .
(٥) الانعام: ٣١
(٦) تفسير الجلالين، ص ١٠٨ .

المتأخرين من البلاغيين، بل رأيا أن بيان وجوه البلاغة باقتصاد فيه منفعة للتفسير وقارئه لاتعد لها منفعة . وان بيان تلك الوجوه على وجه الاجمال ، أو من خلال بيان معاني الآي ، يحقق هدفاً من أهداف تحريرهما لهذا التفسير الوجيز القيم . ويتضح هذا المنهج السليم أيضاً في بيانهما لأنواع البديع ، إذ لانجدهما يتصيدان كل ماتصيده المتأخرون من فنون هذا العلم بل نجدهما يقتصدان في إيرادها أيما اقتصاد .وكأنهما وجدا أن الميزة الكبرى لبلاغة القرآن تتجلى أول ماتتجلى فيما يتعلق بعلمي المعاني والبيان .وهذا المنهج واضح أيضاً في تفسيري الطوسي والزمخشري على الرغم من اختلاط مصطلحات علوم البلاغة في عصرهما وعدم تميزها التميز الذي ألفيناه فيما بعد .

علم البديع :

من أظهر موضوعات علم البديع ، التي عني بها الجلالان :

الالتفات :

للالتفات اساليب ثلاثة (١) يلحظها الجلالان عند تفسير الآي :

أ. فمنها الالتفات من الغيبة الى الخطاب ، كما في قوله تعالى : « واذ أخذنا ميثاق بني اسرائيل لا تعبدون إلا الله وبالوالدين إحسانا وذي القربي واليتامى والمساكين وقولوا للناس حسناً وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة ثم توليتم إلا قليلا منكم وأنتم معرضون » ، (٢) فقد لمحه السيوطي في قراءة من قرأ « يعبدون » بالياء (٣) ، بدلا من قراءته بالتاء ، فقال في خاتمة تفسيره للآية الكريمة : « ثم توليتم : أعرضتم عن الوفاء به،فيه التفات عن الغيبة،والمراد آباؤهم».(٤)

(١) ابن الزملكاني: التبيان في علم البيان، ص ١٧٣ والقزويني: التلخيص، ص ٩٥ .

(٢) البقرة: ٨٣ .

(٣) هي قراءة ابن كثير وحمزة والكسائي من السبعة: انظر ابن مجاهد: كتاب السبعة، ص ١٦٢.

(٤) تفسير الجلالين، ص ١٢ . وانظر لمح المحلي لهذا النوع من الالتفات في الآية ٢٧ من سورة فاطر .

ب. ومنها الالتفات من الخطاب الى الغيبة ، كما في قوله تعالى : «لولا إذ سمعتموه ظن المؤمنون والمؤمنات بأنفسهم خيراً وقالوا هذا إفك مبين » . (١) وفيه يقول المحلي : « ... وقالوا هذا إفك مبين : كذب بين . فيه التفات عن الخطاب : أي ظننتم أيها العصبة » . (٢) ومراده : أن الآية ابتدأت بخطاب الخائضين في حديث الافك ، وذلك قوله تعالى : « لولا إذ سمعتموه » ، وانتهت بالاخبار عنهم بقوله تعالى : « ظن المؤمنون والمؤمنات بأنفسهم خيراً وقالوا » . ولهذا أوله بقوله : « ظننتم وقلتم » .

الاستطراد :

يراد بالاستطراد في علم البلاغة : « الانتقال من معنى الى آخر متصل به ، لم يقصد بذكر الاول التوصل الى ذكر الثاني » . (٣) وقد عده بدر الدين بن مالك (ت ٦٨٦ هـ) ، من فنون المحسنات المتعلقة بالفصاحة المختلفة المختصة بافهام المعنى وتبيينه . (٤) وتابعه في هذا القزويني . (٥) فكان الاستطراد عنده « من الفنون التي زادها على السكاكي في المعنوية » . (٦) وأشار السيوطي الى الاستطراد ، لامحاً فيه الناحية الجمالية ، وذلك حين فسر قوله عز وجل : « لن يستنكف المسيح أن يكون عبداً لله ولا الملائكة المقربون ومن يستنكف عن عبادته فسيحشرهم اليه جميعاً » ، (٧) فقال : « أن يكون عبداً لله ولا الملائكة المقربون: عند الله ، لايستنكفون أن يكونوا عبيداًلله.

---

(١) النور : ١٢ .

(٢) تفسير الجلالين، ص ٢٩٣

(٣) القزويني: الايضاح ٣٤٩/٢

(٤) احمد مطلوب: مصطلحات بلاغية، ص ٨٩ .

(٥) الايضاح ٣٤٩/٢-٣٥٠

(٦) أحمد مطلوب: مصطلحات بلاغية، ص ٩١ .

(٧) النساء: ١٧٢ .

وهذا من أحسن الاستطراد ، ذكر للرد على زعم أنها آلهة أو بنات الله ». (١) والغاية من كلامه : أن الآية مسوقة لبيان عبودية المسيح لله ، ورد على من زعم من اهل الكتاب ان الآلهة ثلاثة : « الله وعيسى و أمه ،» (٢) وهو الزعم الذي بينته الآية التي قبلها . فجاء قوله تعالى بعد ذلك : « ولا الملائكة المقربون » في سياق نفي ألوهية المسيح ، استطراداً حسناً ، اذ كان رداً على الجاهليين الذين يزعمون – بتصور اسطوري واضح – أن الملائكة بنات الله . وهو زعم أنكره القرآن في غير موضع منه (٣) .

الفاصلة :

الفاصلة في القرآن كالقافية في الشعر والقرينة في السجع ، (٤) إلا أن بينها وبينهما بوناً ، من حيث إن الفاصلة لاتخضع للضرورة ، في حين قد تخضع القافية لها . (٥) لأن كلام الخالق القادر العليم لاتتناوله الضرورات ، بخلاف كلام المخلوق ، على ماقرره الشيخ محمد عبده في دروسه . (٦) كما أن السجع يعتمد الصنعة ، وقلما يخلو من التكلف . ولهذه العلة أنكر الأشاعرة – وعلى رأسهم شيخهم أبو الحسن – وبعض المعتزلة والامامية ، أن يكون في القرآن سجع . وميزوا الفواصل من الأسجاع ، وعدوا الفواصل تابعة للمعاني ، والمعاني تابعة للأسجاع ، على نحو مانرى فيما كتبه الرماني (٧) والباقلاني (٨)

---

(١) تفسير الجلالين ، ص ٨٦ .
(٢) تفسير الجلالين : المكان نفسه .
(٣) الانبياء : ٢٦ والنجم : ٢٢ .
(٤) الزركشي : البرهان في علوم القرآن ٥٣/١ ، والسيوطي : الاتقان في علوم القرآن ٩٦/٢ .
(٥) السيوطي : الاتقان ٩٧/٢ .
(٦) تفسير المنار ١٢/٢ .
(٧) النكت في اعجاز القرآن ، ص ٩٧ .
(٨) اعجاز القرآن ص ٨٦ .

والطوسي (١) . وان كان الطوسي يخصص ذلك بسجع الكهان ، على حين يعممه الرماني ، فينقد عليه ابن سنان الخفاجي (٢) هذا التعميم . ثم ينتهي الأمر بالمتأخرين ، الى اعتبار الفواصل من الأسجاع ، على ماهو ظاهر لدى السكاكي (٣) والقزويني . (٤)

اما الجلالان ، فقد اتجها في التسمية الوجهة السليمة ، فكانا يسميان رؤوس الآي فواصل ، ولا يسميانها اسجاعاً . إلا انهما قد يخطئان التعليل في استعمالها واحوالها عند التطبيق ، على ماسنرى ، . ونراهما يذهبان الى مايذهب اليه المفسرون والبلاغيون ، من أن القرآن قد يراعي عند اختيار الفاصلة ، التناسق الموسيقي بينها وبين اخواتها في سياق الآيات ، او في السورة كلها . فيعدل عن فاصلة الى أخرى ليحقق هذا الانسجام الذي يقصد الى إحداثه في رؤوس الآي . فالمحلي يلحظ مثلا في وقوفه عند قوله تعالى في سورة القمر : « تنزع الناس كأنهم اعجاز نخل منقعر » . (٥) أن الفاصلة هنا منتهية بالراء ، وفي سورة الحاقة : (٦) « كأنهم اعجاز نخل خاوية » منتهية بالتاء . ويعلل هذا التباين في اسلوب الآيتين ، بمراعاة الفواصل في الموضعين . (٧) اذ كانت سورة القمر تنتهي فواصلها بالراء ، وسورة الحاقة بالتاء .

ولسنا ممن ينكر عناية القرآن بالانسجام الموسيقي بين الفواصل ، وعدوله — في مواضع — عن لفظة الى أخرى ، أو صيغة ، تحقيقاً لهذا الانسجام ، إذ أن ذلك ظاهر في مواضع منه ، إلا أننا ننكر أن يكون ذلك علة لما يمكن

---

(١) التبيان ١٠/١٠٩ .
(٢) سر الفصاحة، ص ١٦٤-١٦٥ .
(٣) المفتاح، ص ٢٠٣ وفيه يذكر أن الاسجاع في النثر كالقوافي في الشعر .
(٤) التلخيص، ص ٣٩٩، والايضاح ٢/٣٩٣ .
(٥) القمر : ٢٠ .
(٦) آية : (٧)
(٧) تفسير الجلالين، ص ٤٤٨ .

ان يعلل تعليلا معنوياً ، كما في تقديم لفظة على أُخرى في بعض الآي ، إذ هو غالباً ما يخضع لاعتبارات علم المعاني ، كما سنوضحه . والكلام هنا يسلم الى مآخذ لنا على تفسير الجلالين ، نختم بها هذه الدراسة .

مآخذ على تفسير الجلالين :

لم يخل تفسير الجلالين ـ شأن أي تفسير للقرآن الكريم ـ من الآراء المرجوحة والاقوال البعيدة . إذ كان الامامان الجلالان ، السيوطي والمحلي ، يختاران وجها أو قولا من وجوه واقوال كثيرة واردة في بيان معاني الآي ، او الفاظها وتراكيبها مما له وشيجة باللغة او النحو او غيرهما . فمع أنهما ـ غالباً ـ يختاران الأشهر (١) أو ماعليه الجمهور من وجوه التأويل ، (٢) فيكون اختيارهما لذلك قوياً،إلا انهما يختاران مالايرتضى منتلك الوجوه والاقوال . ونود الاشارة هنا الى أمثلة منهذه المآخذ ، دون توخي استقصائها وها نحن نورد طرفاً منها .

١. فقد حمل اعتقاد الجلالين برعاية الفاصلة في القرآن من أجل التناسق الموسيقي بين الآي على القول بأن التقديم والتأخيربين المفعول به وفعله في قوله تعالى : « قال الذين حق عليهم القول ربنا هؤلاء الذين أغوينا أغويناهم كما غوينا تبرأنا اليك ماكانوا إيانا يعبدون » ، (٣) كان لغرض تناسق الفواصل في رؤوس الآي . أو بعبارة أُخرى : إن تقديم الضمير المنفصل « إيانا » على الفعل « يعبدون » ، كان رعاية للفاصلة على حد تعبير الشيخ . (٤) وهو مالانقره

---

(١) انظر تأويل المحلي للسائق والشهيد بالملك في الآية ٢١ من سورة ق، ص ٤٣٨ من الجلالين؛ وقارنه بنص الصاوي في حاشيته على الجلالين ١١٩/٤، على أن ذلك أشهر الاقوال .

(٢) انظر تأويل المحلي للقرين بالملك الموكل، في الآية ٢٣ من سورة ق، ص ٤٣٨، وقارنه بنص النسفي في تفسيره ١٧٨/٤، على أن ذلك قول الجمهور .

(٣) القصص: ٦٣ .

(٤) تفسير الجلالين، ص ٣٢٩ .

وانظر ما ذهب اليه السيوطي في تفسير الآية ١٤٣ من البقرة: « إن الله بالناس لرؤف الرحيم »، من أن تقديم الرأفة على الرحمة كان من أجل « الفاصلة »، مع اعترافه بأنه الأولى أبلغ من الثانية؛ ص ٢٠ . وواضح أن الأبلغ قدم في الآية لا رعاية للفاصلة، بل لابلغيته، كما قدم في « الرحمن الرحيم » في جميع القرآن .

أو نرتضيه ، اذ لم يكن التقديم والتأخير لهذا الزخرف الشكلي ، بل كان هدفه الاساس تحقيق المعنى الذي قصد اليه القرآن ؛ وهو بيان تبرؤ الشياطين أو رؤساء الضلالة ومحترفي الاغواء ممن ضللوا ، وجحودهم ان يكون أولئك المضللون اتخذوهم آلهة من دون الله ، لأنهم إنما ألهوا أهواءهم وعبدوا شهواتهم وما لايصح عبادته من دون الله . فلاحجة لهم عليهم ، ولا مناص لهم من استحقاق عذاب الله. فتقديم المفعول اذاً مسوق في الآية لبيان نكران أولئك الرؤساء أن يكونوا هم الآلهة التي عبدها المضللون التابعون ؛ وليس مسوقاً لمجرد إحداث التناسق الموسيقي بين الآي بتشاكل الفواصل ، وان كان هذا قد تحقق أيضاً مع ظاهرة التقديم ، فأضفى على الآية ، فوق قوة المعنى جرساً موسيقياً موائماً لما تقدمها وتلاها من الاي اذ كانت فواصلها تنتهي كهذه الفاصلة – بالنون . ولعل من هذا الوادي ماذهب اليه المحلي أيضاً في تفسير قوله عز وجل : « ونفس وما سواها . فألهمها فجورها وتقواها » ، (١) اذ رأى ان تأخير التقوى كان « رعاية لرؤوس الآي » ؛(٢) مع ان التأخير يمكن أن يعلل بمنأى عن هذا الملحظ الشكلي ، إذ لو استقرينا الآيات التي ذكرت فيها النفس ، وجدنا بعضها يشير الى أن النفس بطبيعتها أميل الى عمل السوء ، منها الى عمل الخير ، وذلك ماورد على لسان امرأة عزيز مصر اذ تقول : « وما أبرىء نفسي إنّ النفس لأمارة بالسوء إلا مارحم ربي» . (٣) فهذا هو الاصل في النفس الانسانية ، أنها تأمر صاحبها بالسوء والفحشاء إلا مارحم الله منهم . وقال الآلوسي : « وقدم الفجور على التقوى لأن إلهامه بهذا المعنى من مبادىء تجنبه وهو تخلية ، والتخلية مقدمة على التحلية » ، ثم ذكر بصيغة التضعيف « قيل » ، القول برعاية الفاصلة . (٤)

(١) الشمس: ٧-٨ .
(٢) تفسير الجلالين، ص ٣٢٩ .
(٣) يوسف: ٥٣ .
(٤) الآلوسي: روح المعاني ٣٨١/٩ .

٢. ومن المآخذ على تفسير الجلالين ذلك القصص الغريب الذي لايقره العقل ولا العلم ، كالذي أورده المحلي في وقوفه عند قوله تعالى : « لقد كان لسبأ في مسكنهم جنتان عن يمين وشمال كلوا من رزق ربكم واشكروا له بلدة طيبة ورب غفور » ، (١) اذ قال : « بلدة طيبة : ليس فيها سباخ ولا بعوضة ولا ذبابة ولا برغوث ولا حية ، ويمر الغريب فيها ، وفي ثيابه قمل فيموت لطيب هوائها » ! (٢) .

فهذا القول أوالتفسير لايخلو من غرابة وبعد ، لأنا إذا افترضنا وجود بلدة بهذه الصفة — وهي فيما يبدو عزيزة الوجود — فليس من المعقول ولا من الثابت عن طريق العلم أن يميت هواؤها العذب مافي ثياب الناس من قمل، مهما كانت عذوبته ونقاوته . على أن هذه المقالة نقلت عن راو فيه ضعف ، هو عبدالرحمن بن سلمان الحجري : قال عنه البخاري : « فيه نظر » ، (٣) وقال عنه النسائي : « ليس بالقوي » . (٤) وقد ساق الطبري القصة بسنده عن ابن وهب عن عبدالرحمن بتفصيل ، وفيها زيادة لم يوردها المحلي ، تحمل مبالغة اكبر . وفيها يقول نقلا عن عبدالرحمن : « وان كان الانسان ليدخل الجنتين فيمسك القفة على رأسه فيخرج حين يخرج ، وقد امتلأت القفة من أنواع الفاكهة ، ولم يتناول منها شيئاً بيده » ! (٥) وهذا — كما هو

(١) سبأ: ١٥ .

(٢) تفسير الجلالين، ص ٣٦٠ .

وانظر ما أورده في تفسير الآيتين ٤، ٥ من سورة الفيل، إذ قال في أصحاب الفيل: « أهلكهم الله تعالى كل واحد بحجره المكتوب عليه اسمه »، ص ٥١٩ . وإهلاكهم بالحجارة ثابت بنص القرآن، إلا أن الغرابة فيما ذكره من أن كل واحد منهم كأن اسمه مكتوباً على حجره الذي أهلك به، إذ لم يتضح لنا ثبوته بدليل . وقد خلا تفسير الطبري — على عنايته الفائق بالرواية — من هذا الخبر؛ انظر : جامع البيان عن تأويل آية القرآن ١٩١/٣٠-١٩٧ .

(٣) كتاب الضعفاء الصغير ، ص ٧١ ..

(٤) كتاب الضعفاء والمتروكين، ص ٦٧ .

(٥) الطبري: جامع البيان عن تأويل آي القران ٥٣/٢٢

واضح – أشبه بخيال القصاص منه بأقوال المفسرين ، وقد أورده الطبري في تفسيره جرياً على منهجه الذي التزم به في التفسير كله ، وهو ايراد الروايات المختلفة ، وترك الحكم عليها للقارىء بعد ذكر أسانيدها وبيان مضامينها المنقولة عن الرواة . فكان من المناسب للمحلي – ومنهجه غير منهج الطبري وعصره غير عصره – ان يبتعد عن هذه الرواية المخالفة للمعقول ؛ الضعيفة السند . والمحلي عالم فقيه لايعسر عليه ان يتبين ضعفها بعد الرجوع الى كتب الجرح والتعديل .

٣. وفي تفسير الجلالين مالايلائم الحقائق العلمية المقطوع بها اليوم عن الطبيعة وعناصرها .فقد انكر المحلي كروية الارض التي لامراء في ثبوتها في العصر الحديث ، والقول بها في علم الفلك القديم . واستند في ذلك الانكار الى ظاهر قوله تعالى في سورة الغاشية : (١) « أفلم ينظروا الى الابل كيف خلقت . والى السماء كيف رفعت . والى الجبال كيف نصبت . والى الأرض كيف سطحت » ، فظن ان ذكر السطح ينافي القول بالتكور . قال : وقوله : «سطحت » ظاهر في ان الأرض سطح ، وعليه علماء الشرع ، لاكرة كما قال أهل الهيئة ،وان لم ينقض ركناً من أركان الشرع » (٢). وكأنه احتاط بقوله « وان لم ينقض ركناً ... » عن أن يسد الطريق أمام علماء الفلك المسلمين إذا ما توصلوا بالدليل القاطع إلى أن الأرض كرة ..

ولرأي المحلي هذا اثارة في أقوال بعض قدامى المفسرين ،فقد كان أبو علي الجُبّائي المعتزلي (ت ٣٠٣هـ) ،ينكر كروية الأرض أيضاً ،ويقول : إن الماء لايستقر الا فيما له جنبان يتساويان ،فلو كانت ناحية من البحر – كما يقتضيه التكور في تصوره – معتلية على الاخرى ،لصار الماء من الناحية المرتفعة إلى المنخفضة . (٣) الأمر الذي جعل أبا جعفر الطوسي يرد عليه فيقول :« هذا

---

(١) ١٧-٢٠ .

(٢) تفسير الجلالين، ص ٥٠٩ .

(٣) الطوسي: التبيان ١/١٠٢-١٠٣ .

لايدل على ماقاله ،لأن قول من قال : الأرض كروية ،معناه أن لجميعها شكل الكرة »(١) وهو رأى على جانب كبير من الحداثة كما ترى .

٤. ولايخلو تفسير الجلالين من قول لم يثبت علمياً ،ولا يمكن القطع به ، على نحو ما نرى في قول المحلي عن القلم في تفسير قوله تعالى : « اقرأ وربك الأكرم . الذي علم بالقلم »(٢) وهو أن « أول من خط به إدريس عليه السلام » (٣) . ومعنى هذا أن بدء الكتابة المعروفة كان في عصر النبي إدريس ، وكلامه يدل على القطع ، وهو مالايمكن الأخذ به ،إذ أن تاريخ الكتابة بالقلم ،يكاد يكون من المسائل الغيبية ،فكيف يقطع ببدئه؟

٥. قد يخصص الجلالان – بناء على أسباب النزول– اللفظ العام الذي يدل عليه ظاهر القرآن ،مع أن التفسير يقتضي حمله على عمومه ،بناء على قاعدة جمهور المفسرين والاصوليين .من أن العبرة بعموم اللفظ لابخصوص السبب(٤) وهو الأصح كما صرح السيوطي في الاتقان ، (٥) وطبقه عملياً في تأويل بعض آي القرآن (٦).

فالمحلي يخصص مثلاً في تفسيره لآيتي العلق : « أرأيت الذي ينهى . عبداً إذا صلى » ، الناهي بأبي جهل ،والعبد بالنبي محمد (ص) (٧) . وذلك وارد في سبب النزول (٨) ،إلا أنه بحسب أصول التفسير ينبغي حمله على عمومه ،

(١) نفسه ١٠٣/١ .
(٢) العلق: ٣-٤ .
(٣) تفسير الجلالين، ص ٥١٥ .
(٤) الطوسي: التبيان ٩٣/٣، ٢٣٤ والزركشي: البرهان ٣٢/١ والسيوطي: الاتقان ٢٩/١، والصاوي: حاشية الصاوي على الجلالين ٣٣٤/٤، وشحاتة: القرآن والتفسير، ص ٦٨ .
(٥) ٢٩/١ .
(٦) انظر تفسيره للآية ٥٨ من سورة النساء، ص ٧٢، وراجع الحديث عن ذلك في القسم الأول من هذا البحث، ص ١٣٣-١٣٤ .
(٧) تفسير الجلالين، ص ٥١٥ عند تفسير الآيتين: ٩ و ١٠ من سورة العلق .
(٨) انظر الطبري: جامع البيان ١٦٣/٣٠ والبيضاوي: اسرار التنزيل ٤١٣/٤ وابن كثير: تفسير القرآن العظيم ٥٢٨/٤ والسيوطي: لباب النقول في اسباب النزول، ص ٢٣٩ .

بحيث يتناول كل من نهى عن الصلاة عبداً من عباد الله ،ويدخل في ذلك أبو جهل في نهيه لرسول الله (ص). فهذا هو الأولى في تأويل الآيتين .وبه صرح غير واحد من قدامى المفسرين ومُحَدِّثيهم .قال فخر الدين الرازي (ت٦٠٦هـ) « ولايمتنع أن يكون نزولها في أبي جهل ، ثم يعم في الكل ».(١) وقال البيضاوي (ت٦٨٥هـ) ، في تعليقه على ماذكره الحسن البصري، من أن أمية بن خلف : « حكم الآية عام ، فإن كان ما حكي عن أمية واقعاً فحكمها شامل له »(٢) . وعلى هذا الأساس من شمول المعنى وعمومه ، فسر مصطفى المراغي – وهو من مدرسة محمد عبده ومن روادها الأوائل (٣).– الآيتين الكريمتين فقال : «أي :أخبرني عن حال هذا الأحمق ،فإن أمره لعجب ،فقد بلغ به الكبر والتمرد والعناد أن ينهى عبداً من عبيد الله عن صلاته ،ويعتقد أنه يجب عليه طاعته ، وهو ليس بخالق ولا رازق له ..» (٤) . فهذا التفسير كما ترى لايقف عند سبب النزول ،بل يتعداه إلى كل من ينطبق عليه مفهوم الآيتين ويتناوله . وهو أمر يتناسب وخلود النص القرآني وعدم تحدده بزمن معين. وهو المنهج الذي التزمت به مدرسة محمد عبده ،إذ كانت تلحظ عموم القرآن وشموله في تفسيرها للآي ، على ما صرح به صاحب المنار .(٥).

وإذا كان « الخطاب – بأرأيت – لكل من صلح للخطاب » كما يقول أبو السعود العمادي (٦) المفسر (ت ٩٨٢هـ) ،فإن من المناسب أن يقال : إن المراد من الآيتين أشمل من أن يخصص بشخص معين.

وكأن الصاوي أراد ان يعتذر للمحلي حين تأول كلامه فقال : « قوله : نزل في أبي جهل » أي : والعبرة بعموم اللفظ لابخصوص السبب ، فكل من

---

(١) الرازي: التفسير الكبير ٢٠/٣١ .
(٢) البيضاوي: اسرار التنزيل : ٤ / ٤١٤ .
(٣) الذهبي : التفسير والمفسرون ٣ / ٢٥٦ .
(٤) تفسير المراغي : ٣٠ / ٢٠٣
(٥) رشيد رضا: تفسير المنار ١٧٩/١-١٨٠ .
(٦) ارشاد العقل السليم إلى مزايا القرآن الكريم ٢٧٤/٥ .

اعتقد أنه غني عن ربه طرفة عين فقد تحقق بالطغيان والكفر ، لأن كل مخلوق مفتقر لخالقه في حركاته وسكناته » (١) .

٦. وجعل تفسير الجلالين الضمير في « تعزروه وتوقروه » من قوله تعالى : « لتؤمنوا بالله ورسوله وتعزروه وتوقروه وتسبحوه بكرة وأصيلا» (٢) مرددا بين أن يكون لله أو لرسوله . مع أن في رده إلى الرسول تمزيقاً للسياق،الذي يشعر بأن ضمائر الغائب في الآية ترجع كلها إلى الله وحده وليس شيء منها راجع إلى الرسول بحال ، حتى قال الزمخشري : « والضمائر لله عز وجل ، والمراد بتعزيز الله : تعزيز دينه ورسوله صلى الله عليه وسلم ومن فرق بين الضمائر فقد أبعد » . (٣) وهو ماقاله النسفي ايضا (٤) .

٧. وقال الجلالان بزيادة عدد من الحروف والاسماء في القرآن ، وهذا يبدو بجلاء لمن تتبع مواردها في تفسيرهما . ولاخلاف في زيادة هذه الحروف زيادة اعرابية من مثل « ما » في قوله تعالى : « فبما رحمة من الله لنت لهم » (٥) اذ لم يكن القدماء يذهبون إلى أنها زائدة في النظم أو المعنى، لأن هذه الزيادة قد تقع في الشعر للضرورة التي تقتضيها موسيقى أوزانه . وليس الامر كذلك في القرآن ، لمباينته الشعر في موسيقاه . وقد ذهب السيوطي إلى ان مثل زائدة في قوله تعالى : « فان آمنوا بمثل ماآمنتم به فقد اهتدوا» (٦) . مع أن هذا الوجه لايخلو من ضعف لأنه « اذا أمكن حمل كلام الله على فائدة ، فلا يجوز حمله على

---

(١) حاشية الصاوي على الجلالين ٣٣٤/٤ .

(٢) الفتح : ١٠ .

(٣) الزمخشري: الكشاف ١٣٦/٣ .

(٤) النسفي: تفسير النسفي ١٥٨/٤ .

(٥) آل عمران: ١٥٩ .

(٦) البقرة: ١٣٧ . وانظر اعتباره « من » زائدة في قوله تعالى: « وما أغني عنكم من الله من شيء » يوسف: ٦٧، مع أنها يمكن أن تحمل على التبعيض، فيكون المعنى : لاأغني عنكم من الله ولوشيئاً يسيراً . واذا لم يكن قادراً على القليل، فهوغير قادر على الكثير بطريق الأولويه .

الزيادة . وزيادة الاسم أضعف من زيادة الحرف » . (١) والقول بالاقحام في القرآن نرفضه ، لأن الاقحام من علل الشعر ، والقرآن لاتعرض لهعلة.

ولهذا رأى الطوسي ان الأجود « أن يكون المعنى : بمثل هذا ، ولاتكون — مثل — زائدة ، كانه قال : فان آمنوا على مثل إيمانكم ، كما تقول كتبت على ماكتبت ، وبمثل ماكتبت ، كأنك تجعل المثال آلة يتوصل بها إلى العمل » (٢) أو بعبارة أخرى ان المثلية هنا يراد بها العينية ، كأنه قيل : فان آمنوا بعين ما آمنتم به فقد اهتدوا . وهذا كما ترى في غاية الوضوح والقرب . وذهب الزمخشري إلى ان ذلك تبكيت لهم،وتأوله على معنى « فان حصلوا دينا آخر مثل دينكم مساويا له في الصحة والسداد فقد اهتدوا »،ونظر له للرجل الذي تشير عليه : هذا هو الرأي الصواب ، فان كان عندك رأي له : « قولك أصوب منه فاعمل به، وقد علمت ان لاأصوب من رأيك ولكنك تريد تبكيت صاحبك ، وتوقيفه على أن مارأيت لارأي وراءه » (٣) وهو محض بلاغي دقيق.

وكنا قد اشرنا عند الكلام على منهج الجلالين النحوي إلى مثال من رأيهما بزيادة الحروف،وضربنا الكاف مثلا لذلك وبينا امكان حملها على الأصالة دون الزيادة،مادام لذلك وجه سائغ في اللغة . فلا نري ضرورة لاعادته هنا .

ورحم الله السيوطي إذ قال في خاتمة تفسيره لسورة الاسراء ، وهو آخر مافسره من القرآن ، واتم به مابدأ به شيخه المحلي : « فرحم الله امرأ نظر بعين الانصاف اليــه ووقف فيه على خطأ فأطلعني عليه » . ثم انشد هذين البيتين من نظمه :

---

(١) الطوسي: التبيان ٤٨٤/١ .
(٢) الطوسي: التبيان ٤٨٣/١ .
(٣) الزمخشري: الكشاف ٢٤١/١ .

حمدت الله ربي اذ هـداني   لما أبديت من عجزي وضعفي
فمن لي بالخطا(١) فأرد عنه(٢)   ومن لي بالقبول ولو بحرف(٣)

فكان السيوطي بهذا الكلام منصفا لنفسه ولقارئي تفسيره كل الانصاف إذ لم يدع ان كل ماأورده في تفسيره صحيح وراجح ، بل فتح المجال للناس في أن يقولوا كلمتهم فيه ، ويبدوا وجهات نظرهم تجاهـــه . واذا كان السيوطي لم يدرك هذه الكلمات التي رأيناها، فلا نشك في أن قارىء الجلالين سيستفيد منها مثلا لما يؤخذ على هذا التفسير القيم المفيد ، الذي نال على ايجازه – عناية المعاصرين خاصة ، لما وجدوا فيه من فوائد لاتنكر.



(١) أصلها بالهمز، وخففها لضرورة الوزن .
(٢) يريد: أرجع عنه، وأصلحه .
(٣) تفسير الجلالين، ص ٢٤٣ .

المصادر

١ . أحمد بدوي – الدكتور – : من بلاغة القرآن ، ط٣ مكتبة نهضة مصر (لم تذكر سنة الطبع) .

٢ . أحمد مطلوب – الدكتور: مصطلحات بلاغية ، ط١ ، مطبعة العاني – بغداد ١٩٧٢ .

٣ . الآلوسي : شهاب الدين محمود – روح المعاني في تفسير القرآن والسبع المثاني ، ط١ ، مطبعة بولاق ١٣٠١ هـ .

٤ . ابن الأنباري : كمال الدين عبد الرحمن بن محمد (أ) الانصاف في مسائل الخلاف بين النحويين البصريين والكوفيين ، بتحقيق محيي الدين عبد الحميد ط٣ مطبعة السعادة – مصر ١٩٥٥ .

(ب) البيان في غريب اعراب القرآن . بتحقيق الدكتور طه عبد الحميد ومراجعة مصطفى السقا – دار الكتاب العربي للطباعة والنشر – القاهرة ١٩٦٩م .

٥ . الباقلاني : أبو بكر محمد بن الطيب – إعجاز القرآن ، بتحقيق السيد أحمد صقر ، دار المعارف – مصر ١٩٦٣ .

٦ . البخاري : أبو عبد الله محمد بن إسماعيل – كتاب الضعفاء الصغير ، بتحقيق محمود إبراهيم زايد – (مع كتاب الضعفاء والمتروكين للنسائي) دار الوعي – حلب ١٩٧٥ .

٧ . البيضاوي : ناصر الدين عبد الله بن عمر – أنوار التنزيل واسرار التأويل مطبعة مصطفى محمد – القاهرة (لم تذكر سنة الطبع) .

٨ . الثعالبي : أبو منصور عبد الملك بن محمد – فقه اللغة وسر العربية ، مطبعة الاستقامة – القاهرة ١٩٥٩ .

٩ . الجرجاني : أبو بكر عبد القاهر بن عبد الرحمن – دلائل الأعجاز علق عليه محمد عبد المنعم خفاجي ، مطبعة الفجالة الجديدة – القاهرة ١٩٦٩

١٠. الجلالان : السيوطي والمحلي ،تفسير الجلالين ، المطبعة اليوسفية — مصر ١٩٦٧.
١١. الرازي : أبو عبدالله فخر الدين محمد بن عمر— التفسير الكبير ، المطبعة البهية — مصر (لم تذكر سنة الطبع).
١٢. الرماني : أبو الحسن علي بن عيسى .
(أ) كتاب معاني الحروف ، بتحقيق الدكتور عبد الفتاح شلبي ، مطبعة دار العالم العربي— القاهرة ١٩٧٣.
(ب) النكت في إعجاز القرآن (ضمن ثلاث رسائل في اعجاز القرآن) بتحقيق محمد خلف الله ومحمد زغلول سلام ، ط٢ مطبعة دار المعارف — مصر ١٩٦٨ .
١٣. الزركشي : بدر الدين محمد بن عبدالله — البرهان في علوم القرآن بتحقيق أبي الفضل إبراهيم ، ط ١ دار احياء الكتب العربية — القاهرة ١٩٥٧.
١٤. الزمخشري : جارالله محمود بن عمر الكشاف عن حقائق التنزيل،مطبعة البابي الحلبي — مصر ١٩٤٨ .
١٥. ابن الزملكاني : كمال الدين عبد الواحد بن عبد الكريم — التبيان في علم البيان ، بتحقيق الدكتور أحمد مطلوب والدكتورة خديجة الحديثي ط ١،مطبعة العاني — بغداد ، ١٩٦٤.
١٦. أبو السعود : محمد بن محمد العمادي — إرشاد العقل السليم إلى مزايا القرآن الكريم، مطبعة محمد علي صبيح—القاهرة (لم تذكر سنة الطبع) .
١٧. السكاكي : أبو يعقوب يوسف ابن أبي بكر — مفتاح العلوم ، ط ١ مطبعة البابي الحلبي — مصر ١٩٣٧.
١٨. ابن سنان : محمد بن عبدالله الخفاجي — سر الفصاحة بتحقيق علي فودة . ط ٢ ، م . الرحمانية — مصر ١٩٣٢ .

١٩. السيوطي : جلال الدين عبد الرحمن بن ابي بكر (أ) الاتقان في علوم القرآن مطبعة البابي الحلبي ، ط ٣ مصر ١٩٥١.
(ب) لباب النقول في أسباب النزول ، ط ٢ مطبعة البابي الحلبي — مصر ١٩٥٤ .
٢٠. شحاتة : الدكتور عبدالله محمود — القرآن والتفسير ، مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب — القاهرة ١٩٧٤.
٢١. الصاوي أحمد بن محمد — حاشية الصاوي على تفسير الجلالين مطبعة الاستقامة — القاهرة ١٩٥٦ .
٢٢. الطبرسي أبو علي الفضل بن الحسن — مجمع البيان في تفسير القرآن؛ دار مكتبة الحياة — بيروت ١٩٦١ .
٢٣. الطبري أبوجعفرمحمدبنجرير — جامع البيان عن تأويل آي القران، ط ٢ دار المعرفة — بيروت ١٩٧٢ بالأوفست عن طبعة بولاق .
٢٤. الطوسي: أبو جعفر محمد بن الحسن — التبيان في تفسير القرآن، بتحقيق وتعليق أحمد شوقي الأمين وأحمد حبيب ، المطبعة العلمية — النجف ١٩٥٧.
٢٥. عائشة عبد الرحمن — الدكتورة — : التفسير البياني للقرآن الكريم ، ط٢ دار المعارف — مصر ١٩٦٦.
٢٦. العلوي : يحيى بن حمزة — الطراز المتضمن لأسرار البلاغة وعلوم حقائق الاعجاز ، مطبعة المقتطف —مصر ١٩١٤ .
٢٧. الفراء يحيى بن زياد — معاني القرآن ، بتحقيق محمد علي النجار وزميليه ط١ مطبعة دار الكتب — مصر ١٩٥٥
٢٨. القزويني : محمد بن عبد الرحمن
(أ) الايضاح في علوم البلاغة ، مطبعة السنة المحمدية .— القاهرة (لم تذكر سنة الطبع) ،أعادت طبعه بالأوفست مكتبة المثنى ببغداد .
(ب) التلخيص في علوم البلاغة ، ضبطه وشرحه عبد الرحمن البرقوقي ، المكتبة التجارية الكبرى — مصر (لم تذكر سنة الطبع).

٢٩. ابن كثير : عماد الدين إسماعيل—تفسير القرآن العظيم ،مطبعة البابي الحلبي— مصر (لم تذكر سنة الطبع).

٣٠. الكرماني : محمود بن حمزة — أسرار التكرار في القرآن ، بتحقيق عبد القادر أحمد عطا، ط١دار الطباعة المحمدية القاهرة١٩٧٤ .

٣١. لوبون : غوستاف—روح الاجتماع ، ترجمة أحمد فتحي زغلول— القاهرة ١٩٠٩ .

٣٢. ابن مجاهد:أبو بكر أحمد بن موسى كتاب السبعة في القراءات ، بتحقيق الدكتور شوقي ضيف. ط١ دار المعارف.—مصر١٩٧٢.

٣٣. المراغي : أحمد مصطفى — تفسير المراغي . ط٣ مطبعة البابي الحلبي — مصر ١٩٦٢ .

٣٤. النسائي : أبو عبد الرحمن أحمد بن شعيب — كتاب الضعفاء والمتروكين بتحقيق محمود إبراهيم زايد(مع كتاب الضعفاء الصغير للبخاري) دار الوعي — حلب ١٩٧٥ .

٣٥. النسفي : أبو البركات عبد الله بن أحمد — تفسير النسفي ، مطبعة البابي الحلبي — مصر (لم تذكر سنة الطبع).

(٣٦). ابن هشام : جمال الدين عبد لله، بن يوسف—مغني اللبيب عن كتب الأعاريب ، بتحقيق محيي الدين عبد الحميد — القاهرة (لم تذكر المطبعة ولا سنة الطبع) .

الدكتور موسى بناي



وموقف

جماعة من المستشرقين ومناصريهم منها



العامية الحاضرة ، مجموعة من اللهجات ظهرت إلى جانب الفصحى في العصور المتأخرة من حياة لغتنا العربية ، وقد ألفها الناسُ في الأقطار العربية ، واستعملوها لغة للتفاهم ، وللمعاملات اليومية بينهم ، واصبح لامناصَ لكل شخص من أن يتكلم بها شاءَ أم أبىَ ، والذي لايتكلمها تجبره ضرورة المحيط ، لأن يجاري أصحابها ، لأن أكثر الناس لايعرفُ غيرها ، وهي مهما اختلفت الفاظها بينَ أفراد القطر الواحد ، أو بين أقطار الوطن العربي فإنها تتفقُ جميعها في سكون آخر كلماتها ، وعدم صلاحيتها لأن تكون لغة للكتابة ، ولكنها صالحة للتفاهم بين أفراد كل مجتمع اجتمعت فيه سمات معينة .

وإذا كانت غير صالحة للكتابة ،فهي غير صالحة لأن تستعمل في احياء تراثنا الأدبي ،والعلمي الذي ورثناه عن أسلافنا .

وقبل البحث عن أسباب انتشار العامية ، لابدَّ لنا من تحديد المفهوم الذي ينطبق على العامية التي نناقشها ،واخراج المفاهيم التي جاءت مماثلة لها بالتسمية ، ومخالفة لها في المعنىَ ، كي يكون البحث موجهاً لدراستها دونَ غيرها ، كما لابدَّ لنا من تحديد الفترة الزمنية التي بدأت فيها بالانتشار ، وتمكنت خلالها من السنة المتكلمين بها، وبعد ذلك نتعرض لموقف الذين دعوا اليها باسم التيسير .

لحن العوام والعامية

من المعروف أن ظهور اللحن (١) على السنة العامة كان هو الدافع لبدء الدراسات النحوية واللغوية في زمن أبي الأسود الدؤلي ومن جاءَ بعده إلى أن اكتمل تقعيد القواعد النحوية ، وجمع اللغة في معجمات المعاني والألفاظ ، ومع وجود هذه الدراسات تطالعنا مصنفات العلماء لمعالجة (لحن العوام) ،

(١) كلمة (لحن) لها عدة معان هي: ترجيح الصوت والتطريب، والفطنة، ومعنى القول وفحواه، والرمز إلى الشيء، الخطأ، والمعنى الاخير هو الذي نناقشه .

انظر القاموس المحيط ٢٦٨/٤، وقد ذكر هذه المعاني الباحثين المحدثين الدكتور عبد العزيز مطر في كتابه (لحن العامة)، ص ١٩-٢٨، الدكتور رمضان عبد التواب في كتابه (لحن العامة والتطور اللغوي) انظر ص ٩-٣٣ .

واول كتاب وصل الينا – فيما اعلم – كتاب للكسائي (ت ١٨٩ هـ) ، وهو (كتاب ماتلحنُ فيه العوام) ، جاءَ في مقدمته : « هذا كتاب ماتلحن فيه العوام مما وضعه الكسائي للرشيد هارون، ولابدّ لأهل الفصاحة من معرفته » (١) ، وقد اعتمدَ في توجيهه على القرآن الكريم ، قال : « وَيُقَالُ عليه ثيابٌ جُدُدٌ بضم الدال ، والجدَدُ بفتح الدال هي الجبال ، قال جلّ ثناؤهُ (٢) : (ومن الجبَالِ جددٌ بيضٌ) (٣).

وتابع الكسائي كثيرٌ من العلماء في وضع مصنفات في لحن العوام ، منهم الفراء (ت ٢٠٧هـ) ، وأبو عبيدة معمر بن المثنى (ت ٢٠٩هـ) ، والمازني (ت ٢٤٨ هـ) وأبو حاتم السجستاني (ت ٢٥٥هـ) ، وثعلب (ت٢٩١هـ) ، واحمد بن حاتم الباهلي صاحب الاصمعي (ت ٣٢١هـ) والزبيدي (ت ٣٧٩هـ) ، وغيره من العلماء الذين عنوا بهذا الموضوع (٤).

وقد عني جماعة من العلماء بلحن الخواص – وهم العلماء والبلغاء– منهم الجاحظ (ت ٢٥٥ هـ) حيث وضع في كتابه (البيان والتبيين) باباً بعنوان (ومن اللحانين البلغاء) (٥) ، ومنهم ابن جني (ت ٣٩٢هـ) وضع باباً في الخصائص سماه سقطات العلماء (٦)، وقد أطلق الحريري (ت٥١٦ هـ) على العلماء اسم الخواص في كتابه (درة الغواص في أوهام الخواص).

اذا دققنا النظر في المصنفات السابقة وجدنا البحث فيها يدور حول اصلاح فاء الكلمة وعينها ، مما يدلل لنا ان المجتمع في تلك الفترة استفاد من الدراسات النحوية في ضبط لام الكلمة ، فتكون معالجة هذه المصفات معالجة لغوية

---

(١) ما تلحن فيه العوام، ص ٢٠ .

(٢) سورة فاطر الآية: ٢٧ .

(٣) ما تلحن فيه العوام، ص ٣٦ .

(٤) انظر لحن العامة لعبد العزيز مطر ، ص ٥٧–٧٠ ، لحن العامة و التطور اللغوي لرمضان عبد التواب، ص ١٠١–٢٧٤ .

(٥) البيان و التبيين ٢٢٤/٢ .

(٦) الخصائص ٢٨٢/٣–٣٠٩ .

وكثرتها توحي لنا بصعوبة ضبط اللغة لاعتمادها على السماع ، اما النحو فطريقة تعلمه طريقة قياسية فالذي يفهم القاعدة النحوية ويحفظها يتمكن ان يقيس عليها كل ماينطبق على تلك القاعدة لذلك قال الكسائي : (١)

انما النحو قياس يتبـــــع وبـه في كـل امرٍ يُنتفَعْ

الذي يبدو لنـا ان اللحن في اختلاف حركة الفاء والعين كان ظاهرا على السنة غير المتخصصين في اللغة ، وهو قليل على السنة الخاصة وهم الذين تخصصوا في الدراسات اللغوية والنحوية من العلماء وقد جاء قول الفارسي مطابقاً لما ذكرنا ، في تسامحه في الخطأ السماعي لاختلافه على السنة العرب ، وعدم تسامحه في الخطأ القياس قال : «لان اخطيء في خمسين مسألة مما بابه الرواية احب الي من ان اخطيء في مسألة واحدة قياسية » (٢) لذلك نرى الكسائي اعتمد على القرآن في اصلاح ماتلحن به العامة ، لان القرآن نزل بافصح لغات العرب واوسعها ، فلما اعتمد على سماعه لم يحط بلغات العرب ، لان ذلك يحتاج إلى استقراء عام لذا نراه في كتابه حصر ما ذكره في حالة واحدة والذي جاء بعده اجازها في حالات اخرى ، قال :«ذروة الجبل اعلاه بكسر الذال» (٣) وجاء في القاموس المحيط : « ذروة الشيء بالضم والكسر اعلاه » (٤) قال الكسائي : «وتقول هو السبع بفتح السين وضم الباء،وكذلك الضبع» (٥) وجاء في القاموس المحيط : « السبع بضم الباء وفتحها وسكونها المفترس من الحيوان والضبع بضم الباء وسكونها مؤنثه» (٦) من المحتمل ان يكون الكسائي قـــد اطلع على احدى اللغات . ولم يطلع على الاخرى ، ويحتمل ان يكون هذا الاختلاف ناتجاً من سماع الناس كلمتين يتفقان في اللفظ ويتضادان في المعنى

---

(١) انباه الرواة ٢/٢٦٧ .

(٢) معجم الادباء لياقوت ٧/٢٥٤ .

(٣) ماتلحن فيه العوام، ص ٢٨ .

(٤) القاموس المحيط ٤/٣٣٢ .

(٥) ماتلحن فيه العوام ، ص ٣٠ .

(٦) القاموس المحيط ٣/٣٧، ٥٦ .

بحسب الجمل ، فوضعت العامة احداهما بمعنى ليس مغايرا للاخرى ، فجاء اللحن من ذلك ، وقد تنبه العلماء لهذه الظاهرة ، ووضعوا لمعالجتها رسائل الاضداد في اللغة (١) ، بينوا فيها ان الكلمتين المتفقتين في الحروف والحركات اذا وقعتا في جملتين مختلفتين ، تدلان على معنيين متضادين .

وكثير من الكلمات العربية تتفق حروفها ، وتختلف معانيها باختلاف حركة الفاء والعين ، وقد جاء لحن العامة في هذا النوع من الكلمات ، لعدم امكانهم الالمام بجميع لهجات العرب المختلفة .

وقد ذكر السيوطي هذا النوع من اللحن نقلا عن المتقدمين ، قال : ومما جاء ساكناً والعامة تحركه ، ومما جاء متحركاً والعامة تسكنه ، ومما جاء مفتوحاً والعامة تكسره ومما جاء مكسورا والعامة تفتحه ، ومما جاء مفتوحاً والعامة تضمه (٢) ، وقد كان قطرب (ت٢٠٦هـ) اول من وضع المثلثات في اللغة لمعالجته ، وتابعه في هذه الطريقة البطليوسي ، والخطيب التبريزي ، وسديد الدين المهلبي ، وابو عبدالله القزاز (٣) ولو درس الناس هذه المثلثات لقل اللحن .

واهتمام العلماء باللحن اللغوي يدل على شيوعه ، وعدم اهتمامهم باللحن النحوي يدل على قلته ، لاعتماده على قواعد قياسية يسهل على القارىء فهمها وحفظها ، لذلك جاءت مصنفات العلماء في اللحن اللغوي ولم يصنفوا في اللحن النحوي ، وانما ناقشوه مناقشة جانبية مع اللحن اللغوي ، مثال ذلك ما ذكره الجاحظ في (باب اللحن) (٤) ، فقد كان الباب اكثره في اللحن اللغوي ، ولم يرد اللحن النحوي الا على السنة قلة من الاشخاص ، منهم خالد بن عبدالله القسري والحجاج بن يوسف الثقفي .

---

(١) انظر ثلاثة كتب في الاضداد، ص ٥، ٧١، ٢٢١ .
(٢) المزهر في اللغة ١/٣١١-٣٢١ .
(٣) البلغة في شذور اللغة، ص ١٦٩ .
(٤) البيان والتبيين ٢/٢١٠-٢١٩ .

وفي ضوء ما تقدم نرى ان الناس يقسمون إلى قسمين: خواص وهم العلماء، وعوام، وهم غير العلماء، وهؤلاء يختلفون عن العوام الذين يتكلمون العامية في الوقت الحاضر، لان اولئك يتكلمون الفصحى ويلحنون في فاء الكلمة وعينها نتيجة للاسباب التي ذكرناها، وهؤلاء يتكلمون لغة تختلف جميعها عن اللغة العربية، وهي غير صالحة للكتابة.

اسباب انتشار العامية

بعد ان اتضح لنا أن لغة العامة التي اشار اليها أصحاب المصنفات، هي امتداد لظاهرة اللحن التي انتشرت بسبب توسع المحيط العربي بعد ظهور الاسلام، وأن لغة العامة المذكورة سمتها البارزة عدم ضبط حركة فاء الكلمة وعينها ولامها. وقد وضع العلماء لهذه الظاهرة قواعد وضوابط، فمن أتقنها سلم لسانه من اللحن، ومن لم يتقنها لحن.

أما العامية الحاضرة فتتسم بسكون آخر كلماتها، وعدم صلاحيتها للكتابة، فتكون هذه العامية من أردأ مراحل اللحن في اللغة العربية، لذلك نحاول أن نتعرف على سبب انتشارها، والعوامل التي ساعدت على نموها واتساعها.

إن الاسباب التي ساعدت على انتشار العامية الحالية هي: استيلاء اقوام غرباء على الاقطار العربية والاسلامية، وبسبب عدم الاهتمام بالتعليم وطرقه المستجدة، ومحاربة الاعاجم للغة العربية بوسائل مختلفة، وهناك اسباب اخرى، مثل مجاورة شعوب مختلفة باللغة للناطقين باللغة العربية، واشتباك هذه الشعوب المجاورة بحروب طويلة، وكذلك العلاقات التجارية والثقافية بين هذه الشعوب. وسوف نناقش الاسباب الثلاثة الاولى نظراً لاهميتها، وتأثيرها على اللغة. وبعد ذلك نناقش موقف بعض المستشرقين ومناصريهم من العامية.

١ ــ سقوط بغداد واستيلاء اقوام غرباء على الاقطار العربية والاسلامية

اللغة كائن حي تتغير بتغير اهلها، وتقوى وتضعف تبعاً لقوتهم وضعفهم، وقد كان الصراع شديدا بين اللغة العربية واللغات الوافدة الى المحيط العر ، فبعد ضعف العرب الذي كان متمثلا بضعف الخلافة العباسية الذي نشأ بعد تتسلل العناصر الاعجمية الى مركز السلطة واستيلائهم على الحكم ، وتوجيه امور البلاد ، ومما هون الخطب أن الاعاجم من البويهيين والسلاجقة كانوا مسلمين ، ويتكلمون اللغة العربية ، وقد شاركهم العرب في ادارة البلاد ، فكان تأثيرهم على اللغة قليلا ، وبعد سقوط بغداد لم يبق من اللغة الا الرسم كما قال ابن خلدون «فلما ملك التتر والمغول بالمشرق، ولم يكونوا على دين الاسلام ، ذهب ذلك المرجح ــ اي القرآن والسنة ــ وفسدت اللغة العربية على الاطلاق ولم يبق لها الا الرسم » (١) .

وإذا قلنا سقوط بغداد أحد الاسباب لظهور العامية لايعني أنه كان حداً فاصلاً مابعده عما قبله، لان تغير الحالة السياسية لايصاحبها تغير في لغة الافراد، وذلك ان اللحن لايتمكن من اللسان الا بعد مرور جيل على تغير تلك الحالة ،وهذا الجيل الجديد يتأثر بالحالة السياسية من حيث طبيعة الحكم ولغة الحاكم وابتعادها عن لغة المحكومين وعقيدته ان كان صاحب عقيدة واختلافها عن عقيدة أهل البلاد . كما أن سقوط بغداد لايعني سقوط بقية الاقطار العربية، وبقية الاقطار العربية لم تسقط بل ظلت محتفظة بحكمها الاسلامي وبعلمائها .

ومما تقدم يمكن أن نعتبر سقوط بغداد بداية في تغير الحالة السياسية من أيد عربية واسلامية من أهل البلاد إلى أيد أجنبية بعيدة عن البلد، بعاداتها ، وتقاليدها ، وديانتها ، ولسانها ، وطريقتها بالحكم ، وهذا التغير بهذه الانماط المختلفة اضافة إلى الفاجعة المؤلمة التي حلت بالبلاد من قتل وسلب وهتك للاعراض واسترقاق واغتصاب الاموال والممتلكات واحراق دور العلم والمكتبات وقتل رجال الدولة والعلماء ، جعل الناس يخافون السلطة الغازية ويتقربون اليها خوفاً من شرها ،

(١) مقدمة ابن خلدون، ص ٣٧٩ .

لما شاهدوه من هول الفاجعة ،وليأسهم ممن يدافع عنهم ويطرد الغزاة الغاصبين.

والذي سلم من القتل أُسر واسترق ،ومن الذين اسروا المؤرخ العراقي عبد الرزاق بن تاج الدين أحمد المعروف بابن الفوطي الشيباني ، قال في ترجمة قطب‌الدين عبد القادر بن حمزة الأهري الحكيم الصوفي : « رأيته سنة سبع وخمسين وستمائة وكنت أسيراً ، فدعا لي وانفذني إلى كليبر ، إلى صاحبه شمس‌الدين حبش الفخار فأقمت تحت كنفهم مديدة »(١) ، وهذا الشاب‌لولا تدخل الاهبري لبقي في الأسر والاسترقاق مدة طويلة ، وبعد هروبه أخذ يتخفى إلى أن وصل إلى مراغة ، ولما رأى نصير‌الدين الطوسي فيه امارات الذكاء اسند اليه عملية خزن الكتب في خزانة كتب الرصد (٢) ، وبعد مدة أصبح ابن الفوطي مشرفاً على دار كتب المدرسة المستنصرية ببغداد (٣) ، نتيجة لاتصاله برجال الدوله وتودده اليهم .

قال عنه الدكتور مصطفى جواد : « إنه لم يدرس اللغة العربية دراسة حقة دلّ على ذلك اسلوبه القصير النفس ،المكرر السجع الخالي من كل اناقة، الضيق الدائرة ، ودلّ على ذلك ارتكابه أحياناً الغلط النحوي ـ اعني اللحن والخطأ الكتابي ـ كما هو ظاهر للعالم القارئ لما تبقى من أجزاء كتابه (تلخيص معجم الالقاب) ،ثم أن اقباله على تعلم اللغة الفارسية بالتحقيق ، واللغة المغولية على الراجح أوهن قدرته على اللغة العربية فظهرت العجمة في تركيب كلامه أحياناً » (٤) .

ابن الفوطي درس اللغة في زمن الدولة العباسية ، قبل أن يقع في الأسر،وإلا كيف يكون مشرفاً على دار الكتب في المستنصرية ، ومؤرخاً إذا كان لم يدرسها؟ لكن وجوده في بلد أهله عرب ،وحكامه قبائل همجية وأعجمية ،قد أحكموا قبضتهم على البلاد وسيطروا على وظائفها وجميع مصادر الرزق بها،كل ذلك جعله يتقرب اليهم وقد كانت مصالح ابن الفوطي مرتبطة بهم مدة ستين سنة

(١) تلخيص مجمع الاداب في معجم الالقاب لابن الفوطي المقدمة من القسم الاول ١٤/٤ .
(٢) مقدمة تلخيص مجمع الاداب ١٧/٤ .
(٣) مقدمة تلخيص مجمع الاداب ٢٨/٤ .
(٤) مقدمة تلخيص مجمع الآداب ٤٣/٤ .

ابتداء من وقوعه في الأسر واستخفائه منهم ، واشتغاله خازناً في المرصد وتقربه إلى السلطة الحاكمة بعد ذلك إلى أن أصبح مشرفاً في دار الكتب بالمستنصرية ،ثم فصل وذهب إلى السلطان الجايتو بن ارغون (١) في ايران ،كي يرجعه إلى عمله كل ذلك أفسد لغته واسلوبه الكتابي .

هذا شخص عاصر الخلافة العباسية ،ودرس في مدارسها أول شبابه ،ومع ذلك فقد أثرت العجمة في لسانه وأسلوبه الكتابي وهو عالم ، فماحال العوام الذين حكمتهم الدولة المغولية والفارسية والتركية في الفترة المظلمة التي منع فيها العالم العربي من اللحوق بركب الحضارة والتقدم العلمي ،وأصبح متأخراً عن الدول المتقدمة في هذا المضمار .

إن احتضان السلطة الحاكمة للغة التركية ،أو المغولية أو الفارسية جعل اللغة العربية يقتصر نشاطها على حلقات الذكر في المساجد ،وقراءة القرآن ، وإقامة الصلاة ، قال بروكلمان :« وفي عهد غازان وخلفائه – ثم في عهد أنسبائهم حتى حدود الصين – انتهت الفارسية إلى أن تكون إلى جانب اللغة التركية لغة الديوان الرسمية ولغة الاتصال الدولي ،وكانت الطواعية والمرونة تعوزان اللغة المغولية »(٢) هذه حالة العراق والاقاليم الاسلامية الشرقية ، أما بقية الاقطار العربية فكان يحكمها المماليك واللغة الشائعة فيها هي العربية ،وفي سنة ١٥١٦م وقع معظم الاقطار العربية تحت الحكم العثماني « ونتيجة لذلك فقد اضطربت اللغة العربية اضطراباً شديداً . وغلبت عليها العجمة ، وانحدرت أساليبها إلى مستويات ضعيفة . يغلب عليها السجع والزخرفة » (٣) ومع شمول البلوى لجميع الاقطار العربية الا أنه لم يتعرض قطرٌ عربي للمآسي مثل ماتعرض لها العراق ، حتى كاد يفقد لغته القومية فبعد الكارثة المؤلمة التي ارتكبها المغول عاث تيمورلنك بالعراق ، وخرب بغداد

(١) انظر ترجمة (عفيف الدين محمد) في مجمع الآداب ٥٢٨/٤

(٢) تاريخ الشعوب الاسلامية، ص ٣٩٣ .

(٣) اللغة العربية بين حماتها وخصومها ص ٤٣ .

واوسع فيها القتل والنهب والسلب ، وعاد إلى البصرة (١) وبعد ذلك هاجمها السلطان سليم الأول وأرسل أحد قواده واحتل مدينة بغداد سنة ٩١٦،(٢) واصبحت الحرب سجالاً بين الفرس والعثمانيين ، وصارت كل فئة تتغلب على العراق تخرب ما أصلحته الأخرى .

وبعد هذا الصراع الدامي الذي أزهق النفوس وهدم الدور وخرب الممتلكات استقر الحكم للدولة العثمانية ، وخلال سيطرتهم أصبح العراق مسرحاً لحروب طاحنة بين القبائل العربية والسلطة الحاكمة (٣)،فقدْ فقدَ هذا القطر الصابر معظم أبنائه نتيجة للحروب الخارجية والداخلية ، وانتشار الاوبئة الفتاكة ، كما انغلقت موارد الرزق على الباقين ،وانشغل الناس عن الثقافة وطلب العلم بطلب الرزق دفع خطر الموت . وعم الجهل وشاعت الخرافات والعادات البالية، ويد الاصلاح لاتمتد لاصلاح ماخربته الحرب ، وافسدته مطامع جنود الاتراك .

أما علاقة السلطة فكانت مبنية مع الاقطار الخاضعة لها على رعاية من يتكلم اللغة التركية ويترك لغته القومية (٤) ،وعن هذا الطريق عمت اللغة التركية جميع الاقطار العربية ، لانها لغة الدولة الرسمية ، وينبغي لمن يطلب وظيفةأن يكون عارفاً بالتركية كما يشترط في أعضاء مجلس المبعوثان أن يكون كل واحد منهم له معرفة واسعة باللغة التركية ، ولما كان أعضاء المجلس ينتخبون من الاقاليم جرت العادة بأنه إذا لم يوجد عضو يتكلم اللغة التركية بطلاقة تعين الدولة مكانة شخصاً تركياً غريباً عن ذلك الاقليم .

ولم يقتصر تدخل السلطة على فرض اللغة التركية في الاقاليم التي تحكمها فحسب بل تدخلت في تجميد اللغة العربية عند أئمة المساجد ، فقد جعلت متولي مشيخة الاسلام في الاستانة يصدر فتوى يقول فيها« خبز الآباء للأبناء» (٥)

(١) انظر شذرات الذهب ٣٣٧/٦، يقظة العالم الاسلامي ص ١٨٩ .
(٢) يقظة العالم الاسلامي، ص ١٩١ .
(٣) تاريخ بغداد لابن السويدي ، ص ٢٧ ، ٣٠ ، ٥٣ ، ٧٠ .
(٤) تاريخ العرب بقلم فيليب حتي، ٨٤٣/٣ .
(٥) حاضر اللغة العربية في الشام ص١٦.

وبمقتضى ذلك اصبح أئمة المساجد يتولون مناصبهم بالوراثة دون النظر إلى ثقافة الامام العلمية ، ونتيجة لذلك اصبحت خطب الجمعة وخطب الوعظ والارشاد تكرارا لخطب القيت قبل عشرات السنين ، هذه طريقة المشايخ .

أما بيانات الدولة إلى الذين يتكلمون اللغة العربية فكانت اقل مستوى في لغة الرجل الجاهل ، وتكتفي بذكر نصين من هذه البيانات للدلالة على ماوصلت اليه اللغة العربية على لسان مثقفي السلطة الحاكمة .

ورد في رسالة بتوقيع محمد سعيد حاكم مصر (اعلان إلى (مديرون) الاقاليم قبلي وبحري ونظار محطات السكة الحديدية ومامور وابورات بحر النيل رافعه موسيوكابينتري جرى انتخابه بمعرفة مامور الانتيقية لضرورة الاطلاع على الكتب والاثار الموجودين بالديورة القبطية الكائنة على شاطيء النيل والديورة التي بالصحراء ، والمامور المؤمى اليه التمس بواسطة ديوان الخارجية صدور اعلان من لدنا ، باعطاء ما يلزم من الجمال ، وما يلزم للمشالات. والانفار الكفاية لاجل مساعدته على هذه المامورية المتوجه لها ».(١) هذا في مصر اما في العراق فقد اصدر خليل باشا قائد الفيلق السادس بياناً يتعلق بثورة الشريف حسين بن علي ، قال فيه :« ان امير مكة حسين ، لحرصه المعروف وللدراهم التي اخذها من الانكليز ، وان تعرض بخط القطار الحجازى مع جدة والطائف ، وتجرأ للعصيان على الحكومة بمقدار من القبائل المتشردة منطلية عليه تحركات الانكليز الا انه اندفع وانطرد من كل محل وقد تسمر خط القطار مرة ثانية، وتأسست المواصلة بشمال المدينة ، والانكليز في هذا الاثناء اصلوا جده نارا حامية ، بلا نتيجة ، وحسين خاين الدين والدولة

وقد انهدمت دوره وانحرقت بالمدافع ، وجرى توقيف منسوبية في مكة والطائف ، وعزل مطرودا من المقام المبارك ، وتعين بمحله حضرة الشريف علي حيدر باشا ، وقد اعزم إلى المدينة بالقبائل المهمة إلى جوار جده ، فقد انقلبت على حسين الجاحد لمساعيه المشتركة مع الانكليز . والقبائل التي في

(١) اللغة العربية بين حماتها وخصومها ص ٤٣ .

الاطراف الاخر مدازمون على التغرق بالبراري . والقبائل عند وقوفهم على هذه الاهانة والان قد بوشر بتعقيب الشرذمة القليلة الباقية عند حسين بقوة جنودنا التركية المسوقة هناك ومحق امحائهم بمدة يسيرة من الزمن » . (١) من ملاحظة النصين السابقين يظهر لنا بجلاء ما بلغته اللغة العربية من الانحطاط والتأخر في الاقطار العربية من ضحالة الاسلوب وتنافر العبارات وسيطرة اللغة العامية على كلا النصين المذكورين ، فالنص الاول يبين نتيجة الانتخاب ونص كهذا النص يجب ان يصاغ باسلوب سهل العبارة ومترابط الجمل عذب الالفاظ يجعل القارىء يقبل عليه كي يعرف نتيجة الانتخاب التي لها مساس بمصلحته ومصلحة بلده .

والنص الثاني يعلم ابناء البلاد بوجود ثورة تستهدف الاطاحة بسلطة الدولة فلا بد ان يكون فيه ما يدل على اثارة الحماس ودفع الهمم لايقاف الخطر الذي يهدد كيان الدولة ومستقبلها ، لكن الذي جاء في البيان كلام اشبه ما يكون بكلام الدهماء التي ابتعدت عن معرفة لغتها .

فاذا كانت هذه لغة بيانات الدولة الرسمية التي تنشر بوسائل الاعلام المتعارفة عندها ، فلا بد ان تكون لغة التفاهم بين الافراد في الاقاليم لغة ابتعدت كثيرا عن اللغة الفصحى او انها انفصلت عنها انفصالا كاملا ، فاختصت اللغة الفصحى بقراءة القرآن في المساجد . وبرزت اللغة العامية في شتى المجالات العامة واطلق عليها لغة الشعب وبرز ما يسمى بالشعر الشعبي من أزجال ومواويل ، فكانت هذه الظاهرة مجالا خصباً لان تنشط به دعايات المستشرقين والبعثات التبشيرية في القضاء على ما تبقى من اللغة الفصحى ، بحجة تيسير اللغة العربية باحلال العامية محلها في القراءة والكتابة ، وبذلك يكون المجال مفتوحاً لاثارة الدعوات الانفصالية بحسب تعدد لهجات اللغة العامية في الاقطار العربية .

---

(١) تطور الفكر الحديث في العراق الدكتور يوسف عز الدين ، ص ١٧ .

٢ – انتشار الجهل والامية بسبب فقدان طرق التعليم المستجدة باللغة العربية

بعد سقوط بغداد وتوالي الكوارث على البلاد العربية تناقصت دور العلم وقل الابداع ، واصبحت الدراسة مقتصرة على دراسة القرآن الكريم وبعض المقدمات النحوية في المساجد بغير عناية وتشجيع من السلطة الحاكمة، لانها اما ان تكون سلطة اجنبية لادينية او سلطة دينية مشغولة بالمنازعات ، ولا تريد ان تشجع اللغة العربية : وقد بلغ من حقد بعض الولاة العثمانيين على التراث العربي ان جعل المدرسة المستنصرية خانا ، واوقفها على مدرسته الخاصة ، وعرفت بعد ذلك بخان الموصليين ، وفي اواخر العهد العثماني جعلت مخزناً للملابس الجنود . وقد رثاها الرصافي بقصيدة ، منها قوله (١) :

وضعيني الالى عرفوا بمجدي وبي كم قد غدا لهم انتفاع

ورثاها الزهاوي بقصيدة جاء فيها : (٢)

وقفت على المستنصرية باكياً ربوعاً بها للعلم امست خواليا

بقي الجهل والامية ناشراً جناحيهما على معظم البلاد العربية ، وخاصة العراق والشام وفلسطين ، اما مصرفكان وضعها افضل من الاقطار المذكورة ، وذلك يرجع الى اهتمام محمد علي باشا واحفاده بالتعليم ، وعلى الاخص التعليم العسكري ، مما جعل مصر تطمع في الاستيلاء على الدولة العثمانية ، فقد اكتسحت الجيوش المصرية بقيادة ابراهيم باشا معظم الولايات العثمانية ، وباتت تهدد الانضول ، ومنها القضاء على الدولة العثمانية ، لولا ان الدول الغربية هبت لحمايتها خوفاً(٣)من أن تصبح الامبراطورية بيد قوية يصعب عليهم اقتسامها في المستقبل ، وما كان ذلك ليتم للسلطة المصرية لولا اعتناؤها بالثقافة العسكرية والتدريب الحديث ومجاراة الدول الكبرى في التقدم العلمي .

(١) تاريخ التعليم في العراق في العهد العثماني تأليف عبد الرزاق الهلالي، ص ٦٩ .
(٢) ديوان الزهاوي ١/١٣٧ .
(٣) حاضر اللغة العربية في الشام، ص ١٣ .

وعندما احست الدولة العثمانية بتأخرها في المجال العلمي والعسكري اهتمت بالتعليم العالي ، فانشأت المدرسة الحربية ومدرسة الطب والحقوق والزراعة والهندسة اقتداء بالمصريين والاوربيين .

هذه المدارس انشئت في مركز السلطنة ، اما بقية الولايات العثمانية فكانت محرومة من التعليم ، في الوقت الذي كانت البلاد الاوربية في طريقها الى تطبيق التعليم الالزامي وقد طبقته فعلا في اواخر القرن الثامن عشر ، وفي القرن التاسع عشر بدأت بتطبيق النظريات التربوية الحديثة (١) ، وقد تدخلت الدول الاوربية في شؤون الدولة العثمانية واجبرتها على اعطاء لبنان ومتصرفية القدس حكماً ذاتياً ، وبعد استجابة الدولة لهذه المطالب . أسرعت الدول الغربية فارسلت بعثات تبشيرية الى هذه الاماكن وغيرها ، وفتحت لها المدارس التي كانت غير خاضعة في شؤونها لسلطة الدولة (٢) وقد تحولت هذه المدارس بعد ذلك عن اهدافها التعليمية الى الدعوة للعامية وكتابة العربية بالحروف اللاتينية .

وقد كان فتح المدارس الرسمية في مقر السلطنة سنة ١٨٦٩م ، خاصاً بالعاصمة ولم تفتح في الولايات التابعة للسلطنة الا بعد مدة طويلة ، فكان خلال هذه الفترة والتي قبلها تجري الدراسة في الولايات على الطريقة القديمة ، طريقة المدارس الدينية التي تشرف عليها الاوقاف ، والعراق من جملة الولايات ، وقد كان مقسماً الى ثلاث ولايات بغداد والموصل والبصرة ، ومجموع المدارس الدينية فيه (١٣٣) مدرسة ، منها خمس مدارس في ولاية البصرة . والبقية في بغداد والموصل (٣) من هذا التقسيم نلاحظ مدى التأخر الثقافي في العراق ، ولا سيما المنطقة الجنوبية ، فيها مدارس تشرف عليها الاوقاف ، ماذا تعلم هذه المدارس الخمس من ثلث العراق الجنوبي ؟

---

(١) تاريخ التعليم في العراق في العهد العثماني، ص ١٤١ .

(٢) حاضر اللغة العربية في الشام، ص ٢٧ تاريخ التعليم في العراق، ص ١٤٩ .

(٣) تاريخ التعليم في العراق، ص ٨٩ .

من الواضح ان نسبة المتعلمين ضئيلة جدا قد تكون بنسبة واحد الى مائة ، ولهذا كادت تنعدم القراءة والكتابة فيها ، وان اختفاء اللغة الفصحى محقق فيها واحلال اللغة العامية محلها ، واختفاء لغة الشعر وظهور الشعر الشعبي على السنة اهل الولاية ولولا مدينة النجف والحلة لاختفت لغة الشعر والنثر في النصف الجنوبي من العراق ، لان اهل هاتين المدينتين اهتموا بفتح المدارس الدينية والادبية (١) لذا كان اشهر الشعراء والخطباء في النصف الجنوبي من العراق من هاتين المدينتين .

ولم تفتح المدارس الحكومية في الشام والعراق الا في زمن مدحت باشا بعد سنة ١٨٧٨ ، وكان التعليم بها باللغة التركية ، لان الذين يدرسون فيها من الاتراك ، وفي سنة ١٨٩٩م فتحت مدرسة للبنات وفي سنة ١٩٠٥م وصل عدد المدارس الرسمية في ولاية بغداد (٢٠) مدرسة ابتدائية ، ودار للمعلمين الابتدائية واحدة (٢) لقد بلغت المدارس الحكومية في ولايات العراق الثلاث سنة ١٩٠٥ م الاعدادية والرشيدية والابتدائية والعسكرية والصنائع ما يأتي : في بغداد وتوابعها (٦٤) مدرسة وفي الموصل (٤٦) مدرسة وفي البصرة (٣٤) مدرسة ، ومجموع الطلاب في هذه المدارس (٤٢١٠) طلاب ، (٣) واللغة الرسمية في هذه المدارس اللغة التركية وكذلك الوضع في سوريا وفلسطين ، لذا كانت مطالبة الجمعيات العربية بعد الانقلاب العثماني تتركز في جعل التعليم باللغة العربية لاجل المحافظة عليها .

اما الدراسات العليا فلم تفتح في الاقاليم الا في وقت متأخر ، فكان ينبغي على الطلبة بعد التخرج ان يسافروا لمقر السلطنة ليحصلوا على تعليمهم العالي ولم تفتح المدارس العليا في الشام والعراق الا بعد مجيء البعثة الاصلاحية برئاسة ناظم باشا في سنة ١٩٠٨م ، وقررت البعثة ضرورة وجود (مكتب

(١) انظر تاريخ التعليم في العراق ، ص ١٠٢-١٠٣ .

(٢) المصدر نفسه ، ص ١٥٢-١٦٨ .

(٣) المصدر نفسه ، ص ٢٤٧ .

الحقوق العثماني في العراق ومدرسة للطب في الشام ومدرسة الحقوق في لبنان واعتبر هذا المكتب اول مكتب عالٍ في العراق ، ولما تولى جمال بك العراق في زمن الاتحاديين عزم على غلقه بحجة ضعف التدريس فيه ونتيجة للجهود التي بذلت صدر الامر من مقر السلطنة بعدم التعرض له (١) .

جميع المدارس المذكورة في الشام والعراق كانت الدراسة فيها باللغة التركية ، ومن ذلك يتضح لنا بجلاء ان هذه المدارس لاتقدم خدمة للغة العربية ، وانما الفائدة الوحيدة فيها تغير انماط الدراسة ، من دراسة الحلقات القديمة الى مدارس جديدة ينتظم فيها الطلاب لدراسة العلوم الجديدة باللغة التركية والفارسية والانكليزية .

ونظرا لتفاهة التدريس في المدارس الحكومية ، وتفاهة المشرفين علية كان يطلق على دائرة المعارف التي تدبر شؤون التعليم دائرة الجهلة –كما يأتي ولما جاءت الهيئة الاصلاحية برئاسة باشا قدمت شكوى ضد موظفي الدائرة فعزلوا وقد وصفهم المرحوم الشاعر احمد بك الشاوي بقوله (٢) :

الجهل اجمعه ببغداد ثرة المعارف نستدير
اعضاؤها ورئيسها في الجهل ليس لهم نظير
وافى النذير بعزلهم ياحبذا ذلك النذير

ولما جاء المدير الجديد ، وهو بطبيعة الحال لايختلف عن سلفه استقبله المرحوم الرصافي بقوله (٣) .

معارف بغداد قد جاءها مدير من الطيش في مسرح
حمار ولكنه ناطق وطفل ولكنه ملتح
فيا ايها العلم فيها ارتحل ويا ايها الجهل فيها اسلح

---

(١) المصدر نفسه، ص ٢١٥-٢١٧، انظر حاضر اللغة العربية في الشام، ص ٢١ .

(٢) انظر تاريخ التعليم في العراق، ص ٢٢٨-٢٣٠ .

(٣) ديوان الرصافي، ص ٥١٩ .

اضافة الى عدم الاعتناء بالمدارس والاشراف العلمي عليها قلة المبالغ المخصصة لنفقات التدريس ، ففي سنة ١٩٠٩ م لم تتمكن دائرة المعارف من دفع رواتب المعلمين لمدة خمسة اشهر متتابعة (١) ، ومن جهة اخرى ان اكثر هيئة التدريس من الاتراك وهم بعيدون كل البعد عن البيئة العربية ثم لايخفى ما في اللسان التركي من العجمة التي تساعد على انتشار اللغة العامية بين الطلاب ، كما ان اللغة الرسمية لجميع هذه المدارس هي اللغة التركية . واذا اراد الناس أن يفتحوا مدارس لابنائهم يكون التعليم فيها باللغة العربية ، فان السلطة الحاكمة تضع العراقيل في طريقهم ، ومثال ذلك ماحدث للمرحوم الاستاذ سليمان فيضي المحامي ، فقد قدم طلباً للسلطة يطلب فيه منحه اجازة لفتح مدرسة اعدادية البصره سماها(تذكار الحرية)تكون لغة التدريس فيها باللغة العربية ، كما تدرس فيها اللغة التركية ، والانكليزية ، والفرنسية . فوافق الوالي على فتحها بشرطين : احدهما ان تسمى (يادكارحريت) ، والثاني عدم استعمال اللغة العربية رسمياً ، وبعد مفاوضات طويلة وافق الوالي على فتحها سنة ١٩٠٨م ، وبعد مجيء جمعية الاتحاد والترقي للحكم ، اشترطت ان تسمى (مدرسة الاتحاد والترقي) ، وان يكون التدريس فيها باللغة التركية وعندما غير اسمها والتدريس فيها امتنع الطلاب من الدوام فيها . فاغلقت وجعلت ناديا لجمعية الاتحاد والترقي (٢) .

وعلى ذلك لايمكن ان تقاس الفائدة بكثرة المدارس وكثرة المدرسين وانما تقاس بما تقدمه هذه المدارس من خدمة ثقافية ومنها النطق السليم

---

(١) انظر تاريخ التعليم في العراق، ص ٢٢٩-٢٣٠ .

(٢) انظر تاريخ التعليم في العراق، ص ١٨٦ ، اصول تدريس اللغة العربية للدكتور احمد عبد الرحيم، ص ٢٢ .

٣ـ محاربة الاعاجم للغة العربية بوسائل مختلفة.

لقد اختلفت وسائل الاعاجم في محاربة لغتنا باختلاف اجناسهم ، فقد نادى قسم منهم بازالتها واحلال لغته محلها ، وسلك آخرون طريق التشكيك بها اولا تمهيدا لازالتها فيقولون مثلا إن اللغة العربية صعبة على اهلها ، وانها ميتة ، وغير قادرة على نقل العلوم الحديثة ، وان اللغة اللاتينية قادرة على نقل المعارف المختلفة ، والدليل على ذلك تقدم اهلها في ميدان العلم والمعرفة ، وقد روجوا هذه الفكرة بواسطة الصحف والمجلات والمصنفات على السنة المأجورين كل هذه الوسائل إن لم تتمكن من ازالة اللغة العربية واحلال اللغة الاخرى محلها فانها تضعفها ، واذا ضعفت تسود العامية بين اهلها ، هذا ما حصل للغة العربية في الفترة الاخيرة من الحكم التركي ، وخلال فترة الاستعمار الغربي .

ومناقشتنا لهذا الموضوع تتركز في الفترة التي اعقبت سقوط السلطان عبد الحميد من الحكم التركي ، وفترة الاستعمار الغربي ، حيث تعاونت الامم الاعجمية على اضعاف اللغة العربية بوسائلها المختلفة .

في الحقيقة ان الدولة العثمانية قبل سنة ١٩٠٨ ما كانت تحارب القوميات الاخرى في الاقاليم التابعة لها وانما كان تقصيرها هو في عدم ادخال ما يستجد من العلوم الحديثة التي تساعد على ثقافة الشعوب وتقدمها ، فكان التأخر عاماً في جميع الاقاليم ويشمل مقر السلطنة ، ومع هذا التقصير المتعمد، فقد كانت الاقاليم الاسلامية الكبيرة ومنها الاقطار العربية تريد الخير لهذه الرابطة الاسلامية الكبيرة، لانهم يعتبرونها امتدادا للخلافة الاسلامية .

لكن الوضع تغير بعد اعلان الدستور وخلع السلطان عبد الحميد، وتسلم (جمعية الاتحاد والترقي)الحكم، لان اعضاء هذه الجمعية يتكونون من جماعة عنصرية حاقدة على القوميات ، وخاصة العرب ، وسبب ذلك هو ان من اعضائها جماعة من اليهود عرفت بـ(الدونمة) او الذين تحولوا عن اليهودية الى الاسلام ظاهرا مع اخفاء حقدهم (١) الدفين .

---

(١) رئيس اعضاء (الدونمة) شخص يهودي يدعى (قره صو) كان نائباً لسالونيك وقد قدم هذا الشخص خمسة وخمسين مليوناً من الجنيهات لعبد الحميد مقابل اعطاء فلسطين لليهود ورفضها السلطان، انظر يقظة الفكر العربي في مواجهة الاستعمار، ص ١٣٩ .

لذلك نادت (جمعية الاتحاد والترقي) بمطالب متطرفة مثل المناداة بالطورانية ، وتتريك القوميات الأخرى غير التركية ، والقضاء على لغاتها وجميع مقوماتها التي كانت تتمتع بها قبلهم ، وبدأوا بتنفيذ مخططاتهم الرهيبة بالبطش وتغيير كل ماهو عربي ، فرفعوا أسماء الخلفاء الراشدين ووضعوا مكانها أسماء جنكيز خان وهولاكو وتيمورلنك وغيرهم من السفاحين ،وقد ساوى بعضهم بين جنكيز خان ورسول الله صلى الله عليه وسلم بقوله : « جدنا نحن جنكيز خان العاقل جدنا نحن معادل لجد الحسين » (١) ،وغير جماعة منهم أسماءهم ، فمن كان منهم اسمه محمداً أو سليماً أو حسيناً أو سعيداً غيره إلى تيموروجنكيز وهولاكو وآغور ، وتركوا الدعاء بالقرآن إلى الدعاء بمملكة توران واجدادهم ، مثال ذلك قولهم : « وأنت يامملكة توران الحسناء الغراء أهدينا إلى الصراط المستقيم صراط جدنا آغور الكبير »(٢) كما أنهم استعملوا في خطاباتهم كلمات لاتليق بكرامة العربي ،فضلت عدم ذكرها في هذا البحث (٣) .

مقابل هذه الدعوة العنصرية الظالمة التي شنت على العرب وعلى لغتهم في عقر دارهم ، اندفع العرب بكل قوتهم لدفع الخطر المحدق بهم وبلغتهم ، فأسسوا جمعيات ذات أهداف سياسية وقومية مثل جمعية المنتدى الادبي التي تأسست سنة ١٩٠٩ ،والجمعية العربية للفتاة التي تأسست سنة ١٩١١ ، وجمعية العهدالتي تأسست سنة ١٩١٣ . (٤)

إن أول جمعية انشئت قبل تاريخ هذه الجمعيات – أي في زمن السلطان عبدالحميد – هي جمعية بيروت السرية ،وقد أصدرت منشوراتها السرية سنة ١٨٨٠ ،وأهم ماجاء فيها المطالبة بجعل اللغة العربية لغة رسمية في الاقطار

(١) حاضر اللغة العربية في الشام، ص ٣ .

(٢) تطور الفكر الحديث في العراق ، ص ٤٢ .

(٣) العرب والترك في العهد العثماني، ص ٦٧ .

(٤) يقظة العرب لجورج انطونيوس، ص ٥٤ ، حاضر اللغة العربية، ص ٤٦ ، ٤٧ .

العربية ، ورفع الرقابة والقيود الأخرى التي تحد من حرية التعبير ونشر التعليم (١) الا ان الجمعيات في الفترة الأخيرة أكثر جدية في العمل والمطالبة حيث أنها انتقلت من المطالبة السرية الى المجابهة العلنية التي كان من نتائجها مؤتمر باريس الذي عقد بين ممثلي جمعية الاتحاد والترقي سنة ١٩١٣، والجمعيات العربية بنفس التاريخ ؛ وكان أهم بنوده اعتبار اللغة العربية لغة رسمية في الولايات العربية ، واعتبار اللغة العربية لغة رسمية في جميع المدارس الابتدائية على أن تدرس اللغة التركية معها ، وانشاء مدارس ثانوية جديدة يكون التعليم فيها باللغة العربية ، على أن تبقى المدارس الثانوية القائمة عند الاتفاق على حالتها السابقة تدرس اللغة التركية — هذه الفقرة تؤكد لنا أن التعليم جميعه باللغة التركية قبل الاتفاق — إلى جانب مطالب ادارية تتعلق بحكام الولايات وغير ذلك (٢) .

وهذه المطالب المذكورة جميعها لم تنفذ ، وعندما نشبت الحرب العالمية الاولى أتخذت اجراءات أشد ضد العرب ، ونصبت المشانق لمن يطالب بحقه ، والحكام الاتراك بهذه الاساليب ، وإن لم يتمكنوا من إزالة اللغة العربية واحلال لغتهم محلها لكنهم تمكنوا من اضعافها ، ومن ايقاف التعليم بها مما ساعد على انتشار العامية .

وعندما تخلص العرب من الحكم التركي لم تسلم لغتهم من المحاربة فقد وقعت الاقطار التابعة لهم في قبضة الاستعمار البريطاني والفرنسي ، اضافة إلى الاقطار العربية الأخرى ، واصبحت البلاد العربية من المحيط الاطلسي إلى الخليج العربي تحت سيطرة الاستعمار الغربي ، وسعى جاهداً في محاربة اللغة العربية واضعافها ، وتمكين لغته من الاتساع على حسابها ، وبدأ بابعاد لغتنا عن

---

(١) انظر يقظة العرب لجورج انطونيوس، ص ٥٤

(٢) انظر يقظة العرب لجورج انطونيوس، ص ١٩٣، العرب والترك، ص ١٣٤، حاضر اللغة العربية في الشام، ص ٤٦، ٤٧

الشركات والمصارف ودوائر السكك الحديد والبرق والبريد والمحاكم والدوائر الحكومية الأخرى والمدارس على اختلاف أنواعها ،وأصبح الذي يحاول الحصول على وظيفة في الأقطار العربية لابدّ له من أن يتقن اللغة الانكليزية أو الفرنسية ، ولايخفى مافعله الاستعمار الفرنسي في القطر الجزائري، وفرنسة شعبه وادعاؤه بأنه جزء من فرنسا ، « وقد نجحت فرنسا إلى حد ماني تنشئة جيل عربي مشوه اللغة لايعرف الا الفرنسية » (١) ولكن الوطنيين الجزائريين تمكنوا من كسر الطوق المضروب عليهم،وأعادوا الثقة إلى شعبهم ، وأخيراً تم على أيديهم الخلاص من الاستعمار الفرنسي ، وقاموا بحملة تعريب لازالة ماخلفه الاستعمار .

أما في المغرب فقد قارن المستشرق الفرنسي (كولان) بين العربية الفصحى والعامية ،وتوصل إلى « الاستغناء عن الدارجة والفصحى معاً ، إذ لم يكن مستطاعاً تغلب احداهما على الأخرى وتعميم الفرنسية في المغرب وجعلها وسيلة للتفاهم والثقافة وحدها ، ثم قال : وكان معقولاً أن يتاح هذا الحل لو أن العصور الوسطى قضت على الثقافة العربية ،ولكنها لم تفعل » (٢) ،فهو يتمنى أن تقضي الفترة المظلمة التي مرّ بها العرب على لغتهم وثقافتهم كي تتمكن اللغة الفرنسية أن تحل محلها .

وفي مصر لاتنظر المحاكم المختلطة في أية قضية إلا باللغة الفرنسية أو الانكليزية فمنذ تأسيس هذه المحاكم سنة ١٨٧٦م لم ينطق الحكم فيها باللغة العربية ، ولم يترافع أحد من المحامين إلا باللغة الاجنبية ،مع أن عددهم يزيد على مائة وثمانين محامياً ،وحينما قدم المستشار عبد السلام ذهني سنة ١٩٣٤م أحكاماً باللغة العربية امتنع رئيس الدائرة الثالثة السويسري (هوربيه) عن النطق بها (٣) إذا كانت المرافعة بالحكم باللغة الاجنبية لاعرف كيف يتم الاستماع الى اقوال الشهود واقرار المتهم وغير ذلك .

---

(١) اصول تدريس اللغة العربية، ص ٢٤ .

(٢) اللغة العربية بين حماتها وخصومها، ص ١١٩

(٣) انظر نفس المصدر، ص ١٠٨-١١٩ .

ما سياسة التعليم في مصر التي كانت مهمتها تعليم أبناء الشعب فقد وجهت إلى الاعتناء باللغات الأجنبية وترك اللغة العربية .

لقد كان هدف (اللوردكرومر) اضعاف اللغة العربية ، واحياء اللغات الاجنبية لذلك عين القس الاسكتلندي (دوجلاوس دنلوب) مستشاراً لوزارة المعارف ، ليوجه سياسة التعليم فيها ، وكانت اقتراحات هذا المستشار منع التعليم باللغة العربية ، والغاء حصص القرآن الكريم (١) هذه مقترحات (دنلوب) التي جعلت سلامة موسى يترحم عليه بعد موته ويرى مقاومة هذه الاقتراحات افتراء عليه كما جاء في قوله : « ونكذب فرية (دنلوب) التي اقترحها على لغتنا حين قال : ان لغتنا لاتصلح لتدريس العلوم العصرية ، ما أهناك يادنلوب وانت في قبرك تضحك منا! لاننا حاربناك كي تجعل التدريس للعلوم باللغة العربية ...... أجل ما اتعسنا وما أهناك يادنلوب » (٢) هذا الترحم على روح دنلوب لانه اقترح منع التعليم باللغة العربية ، واوجبه باللغات الاعجمية ، وجعل التعاسة لمن حارب خطط الاستعمار اللئيمة .

وخطط الاستعمار الفرنسي والانكليزي التي طبقها في المغرب العربي ومصر طبقها في الاقطار العربية الأخرى ، في لبنان وسوريا وفلسطين والعراق ، والهدف الرئيس للاستعمار هو اضعاف اللغة العربية الفصحى واحلال العامية محلها ، ولما كانت العامية تتكون من عدة لهجات بحسب الاقطار العربية فتكون طريقاً للتجزئة ، وهي بطبيعة الحال غير صالحة تمام الصلاحية للكتابة فتنقطع الصلة بين من يتكلم بها وبين تراثه الذي كتب باللغة الفصحى ، ويكون تركها بسهولة واتخاذ اللغات الوافدة بدلها .

من ذلك يتضح لنا ان احكام الاتراك في الفترة الاخيرة ارادوا ازالة العربية واحلال التركية محلها ، وطريقة الاستعمار الغربي محاربة اللغة بوسائل مختلفة والقضاء عليها بالتدريج .

---

(١) انظر يقظة الفكر العربي في مواجهة الاستعمار، ص ٢٩٢ .
(٢) البلاغة العصرية واللغة العربية، ص ١٧٠ .

موقف جماعة من المستشرقين ومناصريهم من اللغة العامية

يرى بعض المستشرقين ان اللغة العربية الفصحى لغة صعبة جامدة وجمودها وصعوبتها هما السبب في تأخر العرب عن اللحوق بركب الدول المتقدمة ، وتيسيرا للناطقين بها عليهم ان يتركوها ويتكلموا باللغة الجديدة ، لغة التفاهم (اللغة العامية) (١) واذا قاموا بهذه الخطوة يحصلون على التقدم الحضاري والعلمي ويلحقون الدول التي سبقتهم بهذا المضمار .

ويرى بعضهم ان اللغة العامية اذا كتبت بالحروف اللاتينية كانت اسهل على الناطقين بها وايسر لهم في كتابتهم وقرائتهم ، وقد تابعهم جماعة من العرب في هذه الدعوة وحجتهم في ذلك نفس الحجة التي تذرع بها المستشرقون .

في الحقيقة ان الدعوة إلى العامية خطة من خطط الاستعمار اللئيمة الغرض منها محاربة الوحدة العربية ، لانهم واثقون كل الثقة ان العرب اذا تحرروا واتحدوا يستعيدون مجدهم الزاهر ويفوقونهم بالعلم والمعرفة والقوة والمنعة فأخذوا يرسمون الخطط المحكمة التي يتمكنون بواسطتها من ابقاء هذه الأمة مجزأة الاوصال واقصر الطرق لهذه التجزئة تشجيع اللغات العامية في الاقطار العربية ، هذه اللغات الشاذة التي اوجدتها الظروف العصيبة التي مرت بها هذه الامة ، فلم تكد البلاد العربية تنفض عنها غبار الفترة المظلمة حتى وقعت فريسة الدول الغربية فقد احتلت فرنسا الجزائر سنة ١٨٣٠ وتونس ١٨٨١ والمغرب سنة ١٩١٢ واحتل الانكليز مصر سنة ١٨٨٢ ، واحتل الايطاليون ليبيا سنة ١٩١١ ، واقتسمت فرنسا وبريطانيا بعد الحرب العالمية الاولى بقية البلاد العربية .

وما كادت اللغة العربية تخرج من صراعها مع اللغة التركية حتى تعرضت

(١) مما تجدر الاشارة اليه أن الشيخ ابراهيم النعمة قدم بحثاً عنوانه (الاسلام وقصة العامية) طبع سنة ١٩٧٦، تناول فيه اللغة الفصحى والعامية من جهة علاقته – ما بالشريعة الاسلامية .

لحملة ظالمة ، لترويج اللغة العامية وصلاحيتها لان تكون مكان الفصحى .

بدأت هذه الحملة في اول امرها بتدريس اللغة العربية العامية في عواصم الدول الغربية والشرقية ، في ايطاليا سنة ١٧٢٧ ، ١٨٨٨ وفي النمسا سنة ١٧٥٤ وفي فرنسا سنة ١٧٥٩ ، وفي روسيا سنة ١٩٠٩ . وبعد ذلك بدأت حركة التأليف في لهجات الاقطار العربية العامية (١) وقد ذكرت الدكتوره نفوسه مجموعة من مؤلفات الاجانب في لهجة بغداد العامية ، وبيروت و مراكش ودمشق بالفرنسية والمانيا والانكليزية (٢) .

بعد ان روج الاستعمار لدعوته خارج الاقطار العربية في الدراسة والتأليف بدأ المستشرقون نشاطهم داخل الاقطار العربية ، واول من دعا إلى العامية بأسم التيسير المستشرق الالماني (ولهلم سبيتا) الذي كان مديرا لدار الكتب المصرية في كتابه «قواعد اللغة العامية في مصر» بين فيه صعوبة الفصحى ،وادعى انه سهلها وبسطها باستعمال العامية لغة للادب وانه وضع لها قواعد ، لان الالتزام باللغة الكلاسيكية القديمة لايساعد على تنمية الادب (٣) وقد تابعه في ذلك الدكتور كارل فولرس الالماني وكان مديرا لدار الكتب المصرية وسلدن ولمور ، وباول ، وكانا قاضيين بالمحاكم الاهلية ، ووليم ولكوكس ، وكان مهندساً للري في القاهرة (٤) .

وهؤلاء المستشرقون يدعون لاستعمال اللغة العامية وترك اللغة الفصحى لانها صعبة كما يدعون ، قال سلدن ولمور « وانجح الوسائل للقيام بحركة في سبيل تدعيم اللغة القومية –العامية –هي أن تتخذ الصحف الخطوة الاولى في هذا السبيل ، ولكنها ستكون في حاجة إلى عون قوي من اصحاب النفوذ

(١) انظر مجلة العرب (مطبعة الجمهوريه بغداد ١٩٧١) ٣٢٨/١ .

(٢) تاريخ الدعوة إلى العامية واثرها في مصر ، هامش ص٩، ص ١١.

(٣) انظر أباطيل و اسمار لمحمود شاكر ١٦٣/١ ، تاريخ الدعوة إلى العامية، ص ٣٢

(٤) انظر حصوننا مهددة من الداخل، ص ٢٣١ ، تاريخ الدعوة إلى العامية، ص ٧ .

فاذا نجحت هذه الحركة فان وقتاً قصيرا في التعليم الاجباري ، وليكن سنتين كافيا لنشر القراءة والكتابة في البلاد (١) .

واللغة العربية كانت قوية جدا مشحونة بالالفاظ الشعرية . كما انها كانت مشتملة على الفاظ كثيرة ضعيفة ،وعلى مر الزمان غلبت القوية الضعيفة،وكونت لغة قوية حية ، ولكنكم ايها المصريون اصبحتم تقولون انها لغة دارجة لاينبغي اتباعها وجنحتم في مؤلفاتكم إلى اللغة الضعيفة الخفية التي ماتت منذ زمن بسبب مزاحمة القوية لها . واقول لكم اذا جنحتم إلى هذه اللغة الدارجة القوية الشهيرة فيما بينكم وتركتم هذه اللغة الضعيفة تنجحون كثيرا(٢) ففي النص السابق يصف اللغة الفصحى بانها ضعيفة ميتة ، وتركها واستعمال اللغة العامية فيه تيسير مع ان اللغة العامية تختلف بحسب محافظات القطر الواحد . وتختلف حسب اختلاف الاقطار العربية .

وقد استعمل الاغراء بالمال لانجاح مشروعة اللغوي بقوله :« من قدم لنا هذه الخطبة باللغة الدارجة المصرية وكانت موفقة جدا يكافأ بأعطائه اربعة جنيهات افرنكية،وان كثر المتقدمون فيعطى هذا المبلغ لمن يحوز الاولية»(٣) وباستعمال هذه الطرق الخبيثة شككوا كثيرا من العرب بلغتهم .

وقد تابع المستشرقون في هذه الحملة جماعة من العرب بدعوى تيسير . اللغة العربية قال عبد العزيز فهمي في دعوته إلى العامية :« لم يدر بخلد اى سلطة في اي بلد عربي من تلك البلاد المنفصلة سياسياً ان يجعل من لهجة اهله لغة قائمة بذاتها نحوها وصرفها ، وتكون هي المستعملة في الكلام الملفوظ والكتابة معاً تيسيرا على الناس كما فعل الفرنسيون والايطاليون والاسبان (٤) ودعوته بهذه اللهجة اخطر من دعوة المستشرقين .

---

(١) تاريخ الدعوة إلى العامية، ص ٢٨، وانظر اللغة العربية بين حماتها وخصومها، ص ٦١

(٢) تاريخ الدعوة إلى العامية نقلا عن مجلة الازهر ، ص ٣٦ .

(٣) تاريخ الدعوة إلى العامية، ص ١٠٧، أباطيل واسمار ١٦٥/١

(٤) الحروف اللاتينية لكتابة الحروف العربية، ص ١٣٩ .

وقد نادى الخوري مارون غصن بأستعمال العامية بدل الفصحى بقوله : « إن اللغة العامية يسهل عليها اقتباس الكلمات أيا كان مصدرها ولو اجنبياً، أما الفصحى فلا وجه لها الى الاغتناء . وقال : إن آلافاً من ابناء لبنان يتضورون جوعاً الى آداب راقية قريبة المنال ، عذبة اللفظ مكتوبة بلغتهم ، وجميع هذه الشروط لاتجتمع الا في اللغة العامية » (١) ، وقال سلامة موسى : « إن هذه اللغة العامية تعبر الان عن عرضنا وتقوم بالمعاني التي تختلج في أذهاننا ، أما الفصحى فهي الهيروغلوفية التي يترجم كتابنا وطلبتنا اليها خواطرهم (٢) » وذهب عثمان جلال الى أن من الخير لنا أن نخلع أثواب العربية الفصحى عن أدبنا ، وتتخذ العامية اداة للتعبير عن مشاعرنا فننشيء بها أشعارنا ، ونعطيها الفرصة لتترسخ وتتوطد على نحو ما رسخت وتوطدت لغات الاوربيين العامية ، وقد نقل قصص (موليير) واساطير (لافونتيين) الى العامية (٣) . وقد الف أنيس فريحة كتاباً في التيسير ضمنه هجوماً على اللغة الفصحى ونحوها ، ودعوة الى اللغة العامية وكتابتها بالحروف (٤) اللاتينية من ملاحظتنا للنصوص السابقة يتضح لنا أن دعوة المستشرقين الملحة أثرت في نفوس جماعة من الكتاب ، فاندفعوا يرددون اقوالهم في الدعوة الى العامية بحجة تيسير اللغة العربية .

إن هؤلاء الذين تابعوا اصوات المستشرقين المشبوهة في احلال العامية محل الفصحى ماهم الا مجموعة حاقدة ، غرضها تقطيع أوصال الامة العربية وتحويلها الى كيانات صغيرة ، كل كيان من هذه الكيانات له لغته الخاصة به ، واذا انعدمت الفصحى — لاسمح الله — تحل محلها العامية ، فتنقطع صلة العرب بتراثهم . وهذا مايهدف اليه المستعمر في السيطرة على هذه الاقطار

---

(١) اللغة العربية بين حماتها وخصومها، ص ٨٩ .

(٢) نفس المصدر ، ص ٩٩-١٠١، نقلا عن مجلة الازهر)

(٣) انظر الادب العربي المعاصر، ص ٤٥ .

(٤) انظر نحو عربية ميسرة، ص ٢٧، ١٨٤، ١٨٩ وبعدها .

بعد تقسيمها ، لذلك نجد هذه المجموعة لمجرد أن بدأ المستشرقون في نشر آرائهم بالصحف والمجلات في الدعوة الى العامية والكتابة بالحروف اللاتينية تسارع الى تلبية دعوتهم ، وتنادي بدعوة تيسير الفصحى بالعامية واستعمال الحروف اللاتينية ، وتظهر هذه الفكرة بالصحف والمجلات والمصنفات ومن اهمها :

١. تيسير القراءة والكتابة في العربية باستعمال الحروف اللاتينية .
٢. اصلاح حروف داير مبعوثان لايحة.(١) باللغة التركية كلاهما للدكتور داؤد الجلبي .
٣. التحفة العامية في قصة افيانوس ، (بالعامية والحرف العربي) لشكري الخوري.
٤. في متلو هلكتاب .
٥. دروس ومطالعة ، كلاهما للخوري مارون غصن .
٦. قواعد اللهجة اللبنانية السورية ، (بالفرنسية ، وقد كتبت النصوص العربية بالحروف اللاتينية) للأب رافئيل نخلة .
٧. يارا (شعر بالعامية والحروف اللاتينية) بقلم سعيد عقل .
٨. البلاغة العصرية واللغة العربية ، بقلم سلامة موسى .

ونورد بعض ماكتبه سلامة موسى في مجلة الهلال تحت عنوان (اللغة الفصحى واللغة العامية)، قال : «إن الهم الكبير الذي شغل بال السرولكوكس بل يقلقه هو اللغة التي نكتبها ولانتكلمها ، فهو يرغب في أن نهجرها ونعود إلى لغتنا العامية ، فنؤلف فيها وندون بها آدابنا وعلومنا»(٢) وهو بهذا المقال يؤيد بحرارة دعوة السرولكوكس إلى العامية المصرية غير آبه بما يقصده من ورائها .ثم يقول ولغتنا العربية من حيث العلوم ميتة ،ولذلك نحن لانعيش المعيشة العلمية ،ولا

(١) انظر معجم المؤلفين العراقيين ١/٤٣٤ .
(٢) اللغة العربية بين حماتها وخصومها، ص ٩٩، نقلا عن مجلة الهلال .

يتحرك مجتمعنا التحرك العلمي الذي تقتضيه معارف البيولوجيا والكيمياء والسيكلوجيا وكذلك يعد أدبنا ميتاً لانه ليس أدب الشعب، عامة الشعب وملايينه إذ هو يكتب بلغة لاتفهمها هذه الملايين (١) ويكبر الذين سبقوه بهذه الدعوة بقوله : قلما نجد الشجاعة للدعوة إلى الاصلاح الجريء إلا في رجال نابهين لايبالون الجهلة والحمقى ،مثل قاسم أمين وأحمد أمين حين يدعو كلاهما إلى الغاء الاعراب ، أو مثل عبدالعزيز فهمي حين يدعو إلى الخط اللاتيني ، والواقع أن اقتراح الخط اللاتيني هو وثبة إلى المستقبل لو اننا عملنا به لاستطعنا أن ننقل مصر إلى مقام تركيا التي أغلق عليها هذا الخط أبواب ماضيها ،وفتح لها أبواب مستقبلها (٢) ملاحظة بسيطة لهذه الآراء توضح لنا مدى التعلق الكلي بآراء المستشرقين ، فتارة يرى أن ولكوكس يحمل هموم الشعب العربي الذي أثقلته اللغة الفصحى ، وان هذا المستشرق المخلص للعرب يسر لهم اللغة الميتة ووضعهم على أبواب النعيم الموعود وهو اللغة العامية ،لغة الشعب – كما يصفها سلامة موسى – كي يكتب الشعب أدبه بها ويتطلع بواسطتها إلى نور الحضارة الذي حجبته الفصحى .

بعدها يشيد بشجاعة من يدعو إلى العامية ،ومن يدعو إلى كتابة العربية بالحروف اللاتينية ويصف الذين يكتبون باللغة الفصحى ويدافعون عنها بالجهلة والحمقى .

إن أصحاب هذه الفكرة افتتنوا بكل ماهو أجنبي ، فقد بهرتهم دعوة الاجانب للعامية واعتبروها اخلاصاً منهم واعجبتهم مصنفاتهم واعتبروها كتباً مقدسة لاتنطق إلا بالحق ،إلى أن وصلت بهم الحال إلى تقليد الاجانب بكل حركاتهم وسكناتهم ،واصبحت أهمية الكتاب عندهم تقرن بكلمة غربي ، ومصنفات المستشرقين والمبشرين عندهم هي الاصلاح والتقدم والتطور ومصنفات غيرهم هي آراء الجهلة والحمقى .

(١) البلاغة العصرية واللغة العربية لسلامة موسى، ص ٩٤
(٢) البلاغة العصرية واللغة العربية، ص ١٤٣ .

ازاء هذه الضجة المفتعلة ضد لغتنا الفصحى نستعرض آراء المستشرقين المعتدلين لنرد بها على ادعاءات المشككين ونثبت عكس ماذهبوا اليه .

يقول العلامة براون أستاذ اللغة الفارسية بجامعة (كيمبرج): ان اللغة العربية صالحة تمام الصلاحية ، لان تكون لغة علم ، ذلك لغزارة اصولها اللغوية وكثرة عدد صيغها الاشتقاقية التي يؤدي كل منها معنى اضافياً بجانب المعنى الاصلي (١) وقال المستشرق الفرنسي ليتمان ماسينيون – بعد أن هاجم اللغة العربية سابقاً(٢) «وبعد حين فهمت أن اختراع الاعراب ليس كما يزعم أكثر المستشرقين اختراعا باطلا ، وانما هو توحد وتصحيح وربط بين الأسماء والأفعال المضارعة والجمل التي لها محل من الاعراب ،ولهذه اللغة العربية فضل عظيم لايمكن ابقاؤه إلا بالاستمساك بالكتابة العربية (٣) وقد نشر المستشرق الفلندي يوحنا اهتنين كرسكو مقالاً عنوانه (نفي أوهام الاوربيين في صعوبة تعلم العربية). نذكر منه فقرة « ان الأوربي يقدر أن يتعلم العربية بعناء أخف من العناء الذي يجشمه اياه تقلب هوى كتابة الكلمات الانكليزية وضبط النبرة الروسية » (٤) ويقول وليم ورل المستشرق الامريكي مدير مدرسة المباحث الشرقية الامريكية في القدس «ان اللغة العربية لم تتقهقر فيما مضى أمام أية لغة أخرى من اللغات التي احتكت بها ، وينتظر أن تحافظ على كيانها في المستقبل كما حافظت عليه في الماضي . وللغة العربية لين ومرونة يمكنها من التكيف وفقاً لمقتضيات هذا العصر (٥) .

سأل سلامة موسى المستشرق جويدي فقال :« ألا ترى أن الأساليب الكتابية

---

(١) مجلة مجمع اللغة العربية (مطبعة التحرير القاهرة ١٩٦٠) من مقال للاستاذ حامد عبد القادر ، بعنوان (دفاع عن الابجدية العربية) ٧٦/١٢ .

(٢) هجومه على اللغة العربية في دعوته إلى كتابة العربية بالحروف اللاتينية ، وقد كتبت بحثاً في هذا الموضوع ، وسينشر بعد هذا البحث .

(٣) مجلة مجمع اللغة العربية ٥٧/١٠ .

(٤) حاضر اللغة في الشام، ص ١٨١-١٨٢ .

(٥) اللغة العربية بين حماتها وخصومها، ص ٢٧

القديمة غير ملائمة للنهضة وانه يجب أن نتبع الأساليب الاوربية في كتابتنا لتحسن أذواقنا .

فاجاب جويدي : رأيي أن اللغة العربية آية للتعبير عن الأفكار ،وأنا لاأرغب أن ينسى الكتاب الحاليون العلاقة بالماضي ، لان في الماضي العربي مجداً كبيراً وهذه اللغة العربية قد لعبت دوراً خطيراً في التاريخ العربي (١) من هذا السؤال والجواب يتضح لنا الفرق بين العربي الحاقد الذي يريد أن يترك لغته لمجرد سماعه اوهام المستشرقين التي كتبوها بدوافع استعمارية وبين المستشرق المحايد الذي يقول الحق بغير تحيز .

ولو قارنا بين آراء المستشرقين الذين كتبوا بدوافع استعمارية وبين الذين كتبوا بانصاف لفاق عدد المحايدين (٢) عدد المدفوعين بدوافع استعمارية. وكان الواجب على الذين ينادون بترك الفصحى واستعمال العامية بدلها او بترك الحروف العربية واستعمال الحروف اللاتينية ، ان يوازنوا بين الاراء المحايدة والاراء التي كان دافعها محاربة الوحدة العربية باستعمال اللغات العربية المحلية مع اقتناعهم بعدم صلاحيتها للقراءة والكتابة ، ولو وازنوا بغير تحيز (٣) لاتضح لهم بجلاء صلاحية اللغة العربية لان تكون مستوعبة للحضارة العالمية في الوقت الحاضر مثل صلاحيتها في رفع مشعل الحضارة في العالم سابقاً .

اما شبهة صعوبة تعلمها التي اثارها بعض المستشرقين ، وتبعه جماعة من العرب فقد اجاب عنها المستشرقان اهتنين كرسكو وماسينيون كما ذكرنا سابقاً ، فان المجال لرفع شعار تيسير الفصحى بالعامية ومن المعروف ان أية لغة في العالم يعتمد نجاح تعلمها على السماع من اهلها ، وابرز دليل على

---

(١) المصدر نفسه، ص ٣٧ .

(٢) انظر المصدر نفسه، ص ٢٦/٤٠

(٣) كتب العلامة طه الراوي مقالا بعنوان (اللغة العامية) وصف به دعاة العامية بالمتر فرنجين الذين يزيفون الآراء، انظر نظرات في اللغة والنحو، ص ٨١-٨٦ .

ذلك الفرق الشاسع بين الذي يتعلم اللغة الانكليزية في بلاده وبين الذي يتعلمها سماعاً من اهلها في بريطانيا ، ومما يؤكد لنا عدم صعوبة تعلم اللغة العربية عندنا اذا قيست بغيرها من لغات العالم ، في المقارنة بين عدد ساعات تدريس اللغة العربية عندنا وعدد ساعات تدريس اللغة الروسية في الاتحاد السوفيتي ، فان عدد الساعات المخصصة للغة الروسية تزيد على عدد الساعات المخصصة لتدريس اللغة العربية عندنا بـ (٥٢٠) ساعة دراسية عدا الدروس اللاصفية المستعملة هناك (١) ، وبذلك تتضح سهولة اللغة العربية بالقياس بينها وبين غيرها من اللغات .

ولما كانت اللغة العربية مثل غيرها من اللغات الاخرى تعتمد على السماع فلا بد ان يستعمل في تعليمها طريقة التلقي السليم ، ففي المرحلة الابتدائية يعتمد في تدريس الاطفال على النصوص السهلة المبسطة بواسطة معلمين سليمي اللغة ، ولا يكتفي بهذا بل يهيء لهم المحيط الذي يخلصهم من اللغة العامية ، كما تقوم بهذه المهمة وسائل الاعلام المختلفة من اذاعة وتلفزيون وصحف الى جانب ماتقوم به حكومة الثورة من حملة واسعة لمكافحة الامية ، ولا بد ان تتبع هذه الجهود جهوداً اخرى ، لأجل القضاء على اللغة العامية ، فلا بد من استعمال طرق مماثلة للطرق التي استعملها الالمان في القضاء على لغتهم العامية المحلية ، حين حرموا دخولها في المدارس والمحاكم ، ومصالح البريد وادارات الحكومة الاخرى، والنوادي والصحافة والاذاعة وغيرها(٢).

---

(١) اصول تدريس اللغة العربية والتربية الدينية، ص ٨٢ .

(٢) حاضر اللغة العربية في الشام، ص ٢١٦ .

المصادر والمراجع

١ – اباطيل وأسمار لمحمود محمد شاكر ، الطبعة الثانية مطبعة المدني القاهرة ١٩٧٢ .

٢ – الادب العربي المعاصر شوقي ضيف الطبعة الرابعة دار المعارف مصر ١٩٧١ .

٣ – اصول تدريس اللغة العربية والتربية الدينية احمد حسن الرحيم مطبعة الآداب النجف ١٩٦٤ .

٤ – إنباه الرواة على انباه النحاة للقفطي تحقيق محمد ابو الفضل ابراهيم مطبعة دار الكتب المصرية القاهرة .

٥ – البلاغة العصرية واللغة العربية ، سلامة موسى ، مطبعة التقدم القاهرة

٦ – البلغة في شذور اللغة (مجموع مقالات لغوية لأئمة كتبة العرب) نشرها اوغست هفنر ، الطبعة الثانية ، المطبعة الكاثوليكية بيروت ١٩١٤ .

٧ – البيان والتبين للجاحظ ، تحقيق عبد السلام هارون ، الطبعة الثالثة ١٩٦٨ .

٨ – تاريخ بغداد لابن السويدي او حديقة الزوراء في سيرة الوزراء . تحقيق صفاء خلوصي طبعة بغداد ١٩٦٢ .

٩ – تاريخ التعليم في العراق في العهد العثماني ، عبد الرزاق الهلالي ، شركة الطبع والنشر الاصلية بغداد ١٩٥٩ .

١٠ – تاريخ الدعوة إلى العامية وآثارها في مصر ، نفوسة زكريا مطبعة دار النشر والثقافة في الاسكندرية مصر ١٩٦٤ .

١١ – تاريخ الشعوب الاسلامية بروكلمان ، نقله إلى العربية نبيه امين فارس ومنير البعلبكي ، الطبعة الخامسة ١٩٦٨ .

١٢ – تاريخ العرب بقلم فيليب حتي، مطابع دار الكشاف بيروت١٩٥١ .
١٣ – تطور الفكر الحديث في العراق ، يوسف عز الدين ، مطبعة سعد بغداد
١٤ – تلخيص مجمع الاداب في معجم الالقاب ، لابن الفوطي ، تحقيق مصطفى جواد ، المطبعة الهاشمية دمشق ١٩٦٢ .
١٥ – ثلاثة كتب في الاضداد ، للاصمعي والسجستاني ، وابن السكيت والصاغاني نشرها اوغست هفنر ، المطبعة الكاثولوكية بيروت ١٩١٢.
١٦ – حاضر اللغة العربية في الشام ، لسعيد الافغاني ، مطبعة لجنة البيان . والترجمة القاهرة ، ١٩٦٢ .
١٧ – الحروف اللاتينية لكتابة العربية ، عبد العزيز فهمي ، مطبعة مصر ١٩٤٤ .
١٨ – حصوننا مهددة من داخلها ، محمد محمد حسين ، دار الارشاد للطباعة بيروت ، الطبعة الثانية ١٩٧١ .
١٩ – الخصائص لابن جني ، تحقيق محمد علي النجار ، دار الهدى للطباعة والنشر بيروت ، طبعة ثانية بالاوفست .
٢٠ – درة الغواص في اوهام الخواص ، للحريري ، طبع لايبزك مصور بالاوفست .
٢١ – ديوان الزهاوي ، طبعه دار العودة بيروت ١٩٧٢
٢٢ – ديوان الرصافي تصحيح مصطفى السقا ، الطبعة الثالثة مصر .
٢٣ – شذرات الذهب لابن العماد الحنبلي ، نشر مكتبة القدسي القاهرة ١٣٥٠ .
٢٤ – العرب والترك في العهد الدستوري العثماني ، توفيق علي برو ، مطبعة دار الهناء ، ١٩٦٠ .
٢٥ – القاموس المحيط ، الفيروز آبادي ، مطبعة الحلبي ، الطبعة الثانية

٢٦ – لحن العوام لابي بكر الزبيدي ، تحقيق رمضان عبد التواب ، المطبعة الكمالية القاهرة ١٩٦٤ .

٢٧ – لحن العامة والتطور اللغوي ، رمضان عبد التواب ، مطابع البلاغ ، القاهرة ١٩٦٧ .

٢٨ – لحن العامة في ضوء الدراسات اللغوية الحديثة ، عبد العزيز مطر دار الكتاب العربي للطباعة والنشر القاهرة ١٩٦٧ .

٢٩ – لغة العرب ، الجزء الاول ، مجلة شهرية لصاحبها ماري الكرملي ، اعيد نشرها باشراف جماعة من الاساتذه ، مطبعة الجمهورية بغداد .

٣٠ – اللغة العربية بين حماتها وخصومها ، انور الجندي ، مطبعة الرسالة القاهرة .

٣١ – ماتلحن فيه العوام للكسائي ، ضمن مجموعة حققها عبد العزيز الميمني الراجوتي ، المطبعة السلفية القاهرة .

٣٢ – مجلة مجمع اللغة العربية في القاهرة ، مطبعة التحرير ١٩٥٨ .

٣٣ – مجلة مجمع اللغة العربية في القاهرة مطبعة التحرير ١٩٦٠ .

٣٤ – معجم المؤلفين العراقيين في القرن التاسع عشر والعشرين ، كوركيس عواد ، مطبعة الارشاد بغداد ١٩٦٩ .

٣٥ – المزهر في علوم اللغة للسيوطي ، تحقيق جماعة ، مطبعة عيسى البابي الحلبي القاهرة .

٣٦ – مقدمة ابن خلدون ، الطبعة الرابعة ، دار احياء التراث بيروت .

٣٧ – نحو عربية ميسرة لأنيس فريحة ، مطابع الوطن بيروت .

٣٨ – نظرات في اللغة والنحو ، طه الراوي ، المطبعة التجارية بيروت ١٩٦٢

٣٩ ـ يقظة العالم الاسلامي ، تأليف ف .و . قرنر ، ترجمة بهيج شعبان ، مطابع الوفاء ، بيروت .
٤٠ ـ يقظة العرب لجورج انطونيوس ، ترجمة ناصر الدين الاسد واحسان عباس ، دار العلم للملايين بيروت ١٩٦٢ .
٤١ ـ يقظة الفكر العربي في مواجهة الاستعمار ، لانور الجندي ، مطبعة الرسالة القاهرة ١٩٧١ .



ناظم رشيد





ملك صلاح الدين الايوبي مصر سنة سبع وستين وخمسمائة ، وسيطر بعدها على منطقة مهمة وحيوية ، هي بلاد الشام والحجاز واليمن وجزءً من بلاد آسيا الصغرى وبقيت بعد موته بيد ابنائه وأقاربه إلى سنة ثمان وأربعين وستمائة . وكان عصر بني أيوب عصر احياء للفكر والثقافة الاسلامية والعربية ، كما كان عصر احياء سياسي يتمثل باخراج الصليبيين من بيت المقدس ، وطردهم من مصر والسواحل الشامية بعد احتلال الافرنج لها اكثر من مئة عام .

لقد انصبت الدراسات في الحقبة الايوبية على الجوانب الحربية ، وتناول الباحثون ايضاً شعراء هذه الحقبة وادبائها وعلمائها دون الالتفات إلى الاسرة الايوبية نفسها ، وما كان فيها من ادباء وعلماء ، وما قامت به من اعمال كبيرة في مجال العلم والادب .وسيتناول بحثي هذا ما قامت به هذه الاسرة من جهود في مجال التأليف ، وتأسيس المكتبات ،واثر الشعر في نفوسها، ومجالسها الادبية ، ومراسلتها ، واهم شعرائها وكتابها .

التأليف والتصنيف

شاركت الاسرة الايوبية في اغناء المكتبة العربية ، ويمكن ان نقسم ذلك إلى قسمين :

الاول : دفعهم العلماء والادباء إلى التأليف وتشجيعهم في ذلك .

الثاني : مباشرتهم بتأليف الكتب بأنفسهم .

فما من امير او ملك محب للعلم والادب الا واجتمع العلماء والادباء حوله، وألفوا له الكتب فيما يجب من فروع العلم والادب . وكانت حقبة بني ايوب في بلاد الشام ومصر من أخصب الحقب في التأليف والتصنيف ، وكان ملوكها يتفاخرون بتقريب العلماء والادباء وتأليف الكتب بأسمائهم .

وكانت لكتب الجهاد سوق رائجة عندهم ، واول من اقبل على هذا العمل هو ابن شداد قاضي صلاح الدين ، فألف له كتاباً جمع فيه كل آداب الحرب . وكل آية قرآنية وردت فيه . وكل حديث شريف روي في فضله،وكان صلاح الدين

كثيرا مايطالعه ، حتى أخذه منه ولده الملك الافضل (١) ومن هذه الكتب كتاب «الجهاد» الفه محمود بن محمد بن صفي وأهداه إلى الملك الاشرف موسى، فأثابه على ذلك خمسمائة دينار (٢)والف أبو العوالي مرتفع بن جزيل «سبل الرشاد في فضل الجهاد للملك الصالح نجم الدين أيوب وفرغ منه في ربيع الاول سنة ٦٤٧ هـ . (٣)

وكان الملك الأشرف موسى بن الملك العادل أبي بكر (ت ٦٣٥هـ) محباًللكتب باذلاً بسخاء على مؤلفيها ،جمع له ضياءالدين بن الأثير جملة من نظمه ونثره ورسائل أبيه في كتاب .(٤) وألف له أبن العديم كتاب ضوء الصباح في الحث على السماح (٥) وصنف محمود بن صفي كتاب «المقصد» في النحو (٦).

ولعل أبرز من أهتم بالتأليف من بني أيوب البطل القائد صلاح‌الدين ،وكان يجيز المؤلفين بسخاء ،ولم يكن يعطي الجائزة اعتباطاً ،وانما كان ينظر فيها ،فاذا لم يتوسم بها نفعاً نبذها . ألف له شيث بن ابراهيم بن محمد المعروف بابن الحاج القناوي النحوي اللغوي كتاب «ذهن الواعي في اصلاح الرعية والراعي »(٧). وألف له أبو الفضائل عبدالرحمن بن عبدالله بن نصر كتاب « المنهج المسلوك في سياسة الملوك» ورتبه على عشرين باباً.قال في مقدمته :«كان المولى الملك الناصر صلاح‌الدين ... ممن يرى الأدب وفضله ،ويؤثر العلم وأهله ، جمعت له هذا الكتاب ،وهو يحتوي على طرائف من الحكمة و... من الأدب وأصول من السياسة ،وتدبير الرعية ،ومعرفة المملكة ،وقواعد التدبير ،وقسمة الفيء

(١)النوادر السلطانية ١٧، الروضتين ٢: ٢٢١ .

(٢) بغية الوعاة ٢: ٢٨٠ .

(٣) كشف الظنون ٩٧٨ .

(٤) وفيات الاعيان ٢: ١٦٢ .

(٥) فوات الوفيات ٣: ١٢٦، معجم الادباء ١: ٤٠ .

(٦) بغية الوعاة ٢: ٢٨٠ .

(٧) نكت الهميان ١٦٩، معجم الادباء ٤: ٢٦٤ .

والغنيمة ... ومايلزم الجيش من حقوق الجهاد ، ونبهت فيه على الشيم الكريمة ، والخلال الذميمة...وأشرت فيه الى الافضل المشورة ، والحث عليها و كيفية مصابرة الاعداء ، وسياسة الجيش وأودعته من الأمثال مايسبق إلى الذهن شواهد صحتها ، ومعالم أدلتها ، مع نوادر من الأخبار ، وشواهد من الأشعار ، وضمنته أبواباً تتضمن حكايات لائقة ، ومواعظ شائقة ، وحكماً بالغة وسلكت في ذلك كله طريق الاختصار ، ومذهب الايجاز ، لئلا تمجه وترفضه الاسماع ».(١) وألف أسعد ابن مماتي كتاباً في سيرته . (٢) وقدّم له أبو الحسن علي بن الحسن المعروف بشميم الحلي كتاباً في التجنيس سمّاه « أنيس الجليس في التجنيس» . (٣) وكان صلاح الدين شغوفاً بديوان أسامة بن منقذ قال العماد الأصفهاني : « شاهدت عضد الدولة أبا الفوارس مرهفاً ، وهو جليس صلاح الدين وأنيسه وقد كتب ديوان أبيه لصلاح الدين ، وهو لشغفه به يفضله على جميع الدواوين » . (٤) وحظي موفق الدين بن المطران عند صلاح الدين مكانة رفيعة ومنزلة عالية ، وصنف له كتاباً في الطب سماه « المقالة الناصرية في حفظ الأمور الصحية » . (٥)

وكان لأبناء صلاح الدين اهتمام بتأليف الكتب فهذا كمال الدين ابن العديم العلامة المؤرخ يؤلف كتاب « الدراري في ذكر الذراري » للملك الظاهر غازي . (٦) وصنف راجي بن عطاء المصري للملك العزيز عثمان كتاب « الشعراء العصرية بالديار المصرية » . (٧) وطلب الملك الكامل من ابن دحية أن يؤلف له كتاباً يجمع به شيئاً من شعر أهل المغرب ، فألف له كتاب « المطرب من أشعار أهل المغرب » . (٨) وألف فخر الدين محمد بن عمر

(١) نقلا عن الحياة الادبية في عصر الحروب الصليبية ٣١٧ .
(٢) معجم الادباء ٢ : ٢٥٠ .
(٣) معجم الادباء ٥ : ١٣١ .
(٤) الروضتين ١ : ٦٧٨ .
(٥) عيون الانباء ٣ : ٢٩٧ .
(٦) فوات الوفيات ٣ : ١٢٦ ، معجم الادباء ٦ : ٤٠ .
(٧) الغصون اليانعة ٦٦ .
(٨) راجع مقدمة المطرب، ص (ى)، واشارة المؤلف نفسه في تصديره، ص ١ .

الرازي كتاب « تأسيس التقديس» وهو في علم الكلام للملك العادل أبي بكر محمد وسيره اليه من بلاد خراسان . (١) وكتب رشيد الدين علي بن خليفة اربع مقالات في الحساب سماها «الموجز المفيد في علم الحساب»(٢) للملك الامجد مجد الدين الايوبي صاحب بعلبك . وصنف سيف الدين الآمدي كتاب «كشف التمويهات في شرح التنبيهات» (٣) للملك المنصور محمد بن تقي الدين عمر صاحب حماه .

ومن اهم الاعمال الأدبية التي تمت في عصر بني أيوب نقل الشاهنامة – أي سفر الملوك – التي كتبها الفردوسي الشاعر الفارسي باللغة الفارسية سنة ٤٠٠هـ ، ونقل هذا الكتاب الضخم الى العربية الفتح بن علي البنداري الاصفهاني (٤) سنة ٦٢٢ في لغة نثرية جميلة للملك المعظم عيسى بن العادل أبي بكر بن أيوب صاحب دمشق . وقد صرح بذلك في مقدمة الكتاب ، فقال :

« عيسى بن الملك العادل أبي بكر بن ايوب . . . فأمر مملوكه الفتح بن علي ابن محمد بن الفتح البغدادي الاصفهاني أن يترجمه ، فيحل حكاياته المنظومة وينزع عن معاطفها أطمار اللغات العجمية ، ويفيض عليها فضفاض وشائع الالفاظ العربية ويكسوها وفق اللسان الذي هو أشرف الالسن المنزلة به أفضل الكتب » (٥) فكان هذا العمل من أجل الاعمال وأخلدها وصنف أيضاً رشيد الدين الصوري كتاب الادوية للملك المعظم عيسى وقد استقصى فيه ذكر الادوية المفردة وذكر فيه أيضاً أدوية اطلع على معرفتها ومنافعها لم يذكرها المتقدمون . (٦)

---

(١) كشف الظنون ٣٣٣ .

(٢) عيون الانباء ٣ : ٤٢٣ .

(٣) عيون الانباء ٣ : ٢٨٧ .

(٤) وهذه الترجمة هي التي صححها وعلق عليها ونشرها الدكتور عبد الوهاب عزام .

(٥) انظر مقدمة المحقق ٩٩، ومقدمة المترجم ١-٤ .

(٦) عيون الانباء ٣: ٣٥٩ .

وهذا عثمان بن عمرو بن أبي بكر العلامة المعروف بابن الحاجب عندما يحل في مدينة الكرك سنة ٦٣٨هـ يطلب منه ملكها داؤد بن عيسى الايوبي (ت٦٥٦هـ) أن ينظم له كافيته في النحو بعد أن درسها عليه كي يسهل حفظها فاستجاب له ونظمها ، وسمى هذا النظم « الوافية » وقال في مقدمتها :

داؤد نجل الملك المعظم   اودعه الرحمن شكر النعم
من أصبح العلم به قد اشتهر   وكل ذي فضل بقدره قدر
أشار أن أنظمها بأمر   فلم يسع لي دفعه بعذر

وهي في ثمانين وتسعمائة بيت ، ثم والى شرحها له . (١) وكان الامام العلامة جمال الدين الحصيري موجودا في الكرك في تلك الفترة ، فطلب منه الملك داؤد بن عيسى ، وهو أحد تلامذته أن يؤلف له كتاباً في الفتاوي فاستجاب له ونفذ طلبه، وألف كتاباً سماه «خير المطلوب في علم المرغوب». (٢)

وصنف عز الدين أبو البركات أحمد بن ابراهيم الحنبلي كتاب « شفاء القلوب في مناقب بني أيوب » (٣) للملك الاشرف أحمد بن سليمان ، وهو من ملوك بني أيوب المتأخرين الذين بقوا يحكمون حصن « كيفاً» في شمال سوريا وتوفي سنة ٨٣٧ هـ . وهذا الكتاب له قيمته التاريخية والادبية ، ويحوي أغلب ما قيل في تلك الحقبة من قصائد وخطب ورسائل وتقليدات وتهان وتعاز .

ولم يكن بنو أيوب مشجعين للتأليف والتصنيف فحسب ، بل شاركوا بأنفسهم في هذا الميدان ، وصنفوا في كل لون من الوان المعرفة، منهم الملك المظفر محمد بن عمر صاحب حماة الف كتاب«مضمار الحقائق وسر الخلائق»(٤)

يقول ابن شاكر الكتبي : وهو كبير نفيس يدل على فضله ولم يسبق إلى مثله . (٥) وله كتاب طبقات الشعراء . (٦)

(١) ابن الحاجب النحوي لطارق عبد عون ٩٠-٩١، ومقدمة الايضاح في شرح المفصل ٣٠ .
(٢) الجواهر المضيئة في طبقات الحنفية ٢ : ١٥٥ .
(٣) حققته على نسخة فريدة من المتحف البريطاني رقم ٧٣١١ وسينشر قريباً .
(٤) طبع جزء منه بتحقيق الدكتور حسن حبشي (القاهرة ١٩٦٨) .
(٥) فوات الوفيات ٤ : ١٢ .
(٦) منه نسخة بمكتبة ليدن رقم ٦٣٩ .

وألف عالم بني الملك المعظم عيسى بن أبي بكر كتاب الرد على أبي بكر الخطيب البغدادي »(١) وهو كتاب ثمين فيه مسائل فقهية ونحوية ولغوية ، وله «شرح الجامع الكبير» في الفقه الحنفي. وألف تقي الدين عمر بن الملك الامجد مجد الدين الأيوبي كتاب «الاشارات والتنبيهات» . (٢) وصنف تاج الدين ابن ايوب كتاباً في التاريخ رتبه حسب السنين . (٣) واشتهر الملك المؤيد اسماعيل ابن علي بتصنيف الكتب فألف كتاباً في التاريخ سماه «المختصر في أخبار البشر» ، وكتاباً في وصف الأقاليم والمدن سماه «تقويم البلدان» .

المكتبات :

إلى جانب اهتمام بني ايوب بالتأليف والتصنيف ، كانت لهم رغبة كبيرة وولع عظيم بتشييد المكتبات الكبيرة وتعيين المشرفين على تنسيقها وتنظيمها ، وشراء الكتب لها مهما بلغت اثمانها وبعدت أوطانها ، و أكبر مكتبة أسست في عهدهم هي مكتبة الملك المعظم عيسى بن ابي بكر صاحب دمشق ، وكانت تحتوي على كتب نادرة وثمينة ، بعضها بخط مؤلفيها ، وقد شاهدها ياقوت الحموي ، واطلع على نفائسها ، منها صحاح الجوهري ، فيقول : « ووقفت على نسخة للصحاح بخط الجوهري بدمشق عند الملك المعظم بن العادل بن أيوب صاحب دمشق وقد كتبها سنة ٤٣٣ » (٤) . ويقول في موضع آخر عند ترجمته لمحمد بن أحمد العميدي المتوفى سنة ٤٣٣هـ : « وله تصانيف في الادب منها تنقيح البلاغة في عشر مجلدات رأيته بدمشق في خزانة الملك المعظم – خلد الله دولته – وعليه خطه وقد قرىء عليه في شعبان سنة ٤٣١هـ »(٥)

وقال ابن واصل : « ولقد وقفت على نسخة من كتاب سيبويه وعليها خط الملك المعظم في عدة مواضع ، أظنها ستة ، يقول في بعضها : أتممت

(١) طبع بمطبعة السعادة في مصر سنة ١٩٣٢ .
(٢) عيون الانباء ٣ : ٢٨٣ .
(٣) طبع الجزء المتعلق بسيرة صلاح الدين في ذيل النوادر السلطانية ، مطبعة الآداب ١٣١٧ .
(٤) معجم الادباء ٢ : ٢٧٠ .
(٥) معجم الادباء ٦: ٣٢٨ .

هذا الكتاب مطالعة ومراجعة وأنا منازل مدينة أرسوف، وفي بعضها يقول: أتممت مطالعة ومراجعة وأنا بنابلس » . (١) ثم انتقلت هذه المكتبة بعد وفاته سنة ٦٢٤ هـ إلى ولده الفقيه العالم الشاعر داؤد بن عيسى ، ثم إلى حفيده الحسن بن داؤد ، فوهب معظمها إلى اصحابه واخوانه . (٢)

ومن المكتبات الكبيرة في بلاد الشام ، مكتبة حماة التي انشأها الملك المنصور محمد بن عمر ، وكان فيها من الكتب مالامزيد عليه (٣) وبقيت هذه المكتبة عامرة تنمو وتزداد إلى زمن الملك المؤيد اسماعيل بن علي المشهور بأبي الفداء، « قيل انها مااجتمعت لغيره من سائر الفنون ، فانه اجتهد في جمعها من سائر البلاد شرقاً وغرباً » (٤) .

واشتهرت مكتبة الشاعر الكبير الملك الأمجد مجد الدين الأيوبي صاحب بعلبك ، ومكتبة الملك الظاهر غازي بن صلاح الدين صاحب حلب ، فانه كان مولعاً بشراء الكتب النادرة الثمينة ، يقول ياقوت الحموي : « وكنت سنة ٦٠٧ هـ قد توجهت إلى الشام ، وفي صحبتي كتب من كتب العلم أتجر فيها ، ومن جملتها كتاب « صور الأقاليم » للبلخي ، نسخة رائعة مليحة الخط والتصوير ... ثم انني بعت النسخة من الملك (٥) الظاهر غازي بن صلاح الدين يوسف بن أيوب صاحب حلب » . (٦)

إن الاهتمام بالمكتبات دليل على الاهتمام بالعلم والاهتمام بالعلم دليل على رقي الأمة وتقدمها . ولم تكن غاية أبناء أيوب من اقتناء الكتب المباهاة بل الافادة منها وتصنيف الكتب كما رأينا عند بعضهم .

(١) مفرج الكروب ٤ : ٢١٠ . ارسوف: مدينة على ساحل الشام بين قيسارية ويافا (معجم البلدان ٢ : ١٥٢) .

(٢) ذيل مرآة الزمان ٢ : ٤٧٢ .

(٣) فوات الوفيات ٤ : ١٢ .

(٤) ثمرات الاوراق ١٢٥ .

(٥) العبارة غير واضحة، اذ لا يصح ان تبتاع النسخة من الملك الظاهر غازي والبائع ياقوت، ولعلها "للملك"، أو أن هناك سقطاً في العبارة .

(٦) معجم الادباء ٦ : ١٤٦ .

اثر الشعر في نفوس بني ايوب :

أثرت الحروب الصليبية في الشعر العربي بمصر والشام تأثيراً كبيراً ولاعجب في ذلك فان هذه الحروب ألهبت العواطف ، واوقدت في الصدور نار الحقد على أعدائهم الصليبيين .وكان الشعراء يعبرون عن هذه العواطف أصدق تعبير، ويرسلون قصائدهم لملوك بني ايوب ممزوجة بالبكاء على مااصاب المسلمين من بطش الافرنج ، ويحرضونهم على تعقيبهم ، وتخليص البلاد من شرورهم وتطهيرها من أدناسهم . ولنضع امام القارىء بعض الامثلة ليرى مدى تأثير الشعر في نفوس هذه الاسرة .

« حكي ان السلطان صلاح الدين لماكثرت فتوحاته في السواحل واوجع فيهم بسهامه وسطوته ، وكان لايتجاسر على فتح بيت المقدس ، لكثرة مافيه من الأبطال والعدة، لكونه كرسي النصرانية، وكان في بيت المقدس شاب مأسور من أهل دمشق ، كتب هذه الأبيات وأرسل بها إلى الملك صلاح الدين على لسان القدس فقال :

يأيها الملك الـــــذي لمعالم الصلبـــــان نكـــس
جـاءت اليك ظـــلامـة تسعـــى من البيت المقدس
كـــلُّ المساجدِ طُهِّرَتْ وأنا – على شرفي – مُنجَّسْ

فكانت هذه الأبيات هي الداعية له إلى فتح بيت المقدس ». (١)

لقد بالغ صاحب هذه الرواية في تأثير هذه الأبيات على صلاح الدين، وجعلها الداعية لفتح بيت المقدس . إن صلاح الدين كان همه الأول تخليص هذا البيت من أيدي الفرنج ، وتحرير رقاب الناس من العبودية والأسر،ولعله قد تألم حين وصلته هذه الأبيات،وكانت من الحوافز على تحرير بيت المقدس.

ولما انضمت القدس إلى ملك صلاح الدين زاد الأمل فيه رسوخاً ، ودعاه الشعراء إلى استعادة الوطن السليب ، واجتثاث أصل الافرنج من جميع البلاد التي احتلوها ، اذ يقول له العماد الاصفهاني :

(١) الأنس الجليل بتاريخ القدس والخليل ١ : ٣١٨ .

من بعد فتحك بيتَ القدس ليس سوى   صور فانْ فتحتْ فاقصدْ طرابلسا
واخل ساحلَ هذا الشام أجمعه   من العُداة ومن في دينه وكسا
ولا تدعْ منهُم نفساً ولا نفساً   فانهم يأخذون النَّفس والنفسا(١)

لقد حقق صلاح الدين آمال المسلمين واستجاب لتلك الصيحات المدوية التي أطلقها الشعراء ولكن بعد موته — وهذا ما يؤسف له — استرد الافرنج بعض المعاقل والحصون، فعلا صوت الشعراء من جديد بالحض على القتال والنزال من جديد لاسترداد ماسلب من أيديهم ومثال ذلك قول ابن النبيه يخاطب الملك الأشرف موسى صاحب دمشق .

يا حارسَ الدين لمّا نامَ حارسُهُ   وناظماً شملهُ مِنْ بعدِ تبديدِ
جهِّزْ جيوشكَ إنَّ الثغرَ قد عبثتْ   به الفرنجُ فاضحى غيرَ منضودِ
باللرجال ناديكمْ لنازلة   تستنزلُ الماءَ من صُمِّ الجلاميدِ
أينَ الحميّةُ هبُّوا من منامكمُ   إمّا لعاجلِ دُنيا أو لمعبودِ(٢)

والمتتبع لدواوين شعراء هذه الحقبة يجدها زاخرة بقصائد في الحماسة ، والتحريض على القتال ، والتهنئة بالنصر ، والحمد على حسن البلاء ، وكان لشعراء بني أيوب شرف المشاركة في هذه الحروب ، ولهم فيها قصائد تطفح بروح الحماسة . (٣)

المجالس :

أحب بنو أيوب رجال العلم والأدب وقربوهم ، وعقدوا لهم المجالس واستأنسوا باحاديثهم ومناقشاتهم . «وكانت مجالس صلاح الدين منزهة

---

(١) صلاح الدين الايوبي بين شعراء عصره وكتابه ٨٥ .

(٢) ديوان ابن النبيه ٣٧٣ .

(٣) انظر الحوادث الجامعة ١٠٧، السلوك ١ : ١٩٧ .

عن الهزء والهزل ، ومحافله حافلة بأهل العلم والفضل ... وكان من جالسه لا يعلم أنه جالس سلطاناً لتواضعه » .(١)

وكانوا يستضيفون القادمين اليهم من العلماء والأدباء ويكرمونهم ويجلونهم ، وربما يبيتون عندهم وكانت أرزاقهم –كما يقول أبو شامة المقدس – في دولة صلاح الدين الأيوبي « تتجاوز مئتي الف دينار ، وربما كانت ثلاثمئة الف دينار » . (٢) وكان في خدمة الملك المنصور محمد بن عمر صاحب حماة « ماديناهز مئتي متعمم من الفقهاء والأدباء والنحاة والمشتغلين بالحكمة والمنجمين والكتاب » . (٣) وكان الملك الكامل محمد بن العادل أبي بكر « يبيت عنده في كل ليلة جمعة جماعة من الفضلاء ، ويشاركهم في مباحثهم ، ويسألهم عن المواضع المشكلة من كل فن ، وهو معهم كواحد منهم » .(٤)

ان هذه المحافل لهي منتديات أدبية وعلمية تدار فيها الأحاديث حسب المقام الذي يتطلبه ذلك المجلس ، وكثيراً ما كان الملك يتصدر المجلس ويطلب القول في أمر معين يروق له السماع فيه ، او مشكلة يريد لها حلا ، من ذلك ما قاله صاحب بدائع البدائه ، وهو معاصر لهم من أن الملك الكامل أنشد قول الشاعر :

ترّحلَ مَنْ حياتي في يديهِ فيا أسفي ويا شوقي اليه ؟

واستجاز الجماعة ، فقلت :

ومن هذا يكون عليه مثلي وهذي الريحُ أخشاها عليه

وقال الأمير الأجل صلاح الدين أدام الله توفيقه :

---

(١) النجوم الزاهرة ٦ : ٨ .

(٢) الروضتين ٢ : ١٣٨ .

(٣) فوات الوفيات ٤ : ١٢ .

(٤) وفيات الاعيان ٥ : ٨١ .

الا يا ليتهُ ان كان يأتي حياتي ثم موتي في يديهِ (١)

من ذلك قال أبو بشر المظفر الاعمى : دخلت على الملك الكامل فقال لي : أجز هذا النصف :

قد بلغَ الشوقُ منتهاهُ

فقلتُ: وما درى العاشقوق ما هو

فقالَ: وانّما غرهم دُخولي

فقلتُ: فيه فهاموا وتاهوا

فقال : ولي حبيبٌ يرى هواني

فقلتُ: وما تغيرتُ عن هواه

فقال : رياضةُ النفس في احتمالي

فقلتُ: وروضةُ الحسن في حلاه

فقال : أسمرُ لدْنُ القوام ألمى

فقلتُ: يعشقهُ كلُّ من يراه

فقال : ريقتها كلُّها مدام

فقلتُ: ختامها المسكُ من لُماه

فقال : ليلتُه كلها رقاد

فقلتُ: وليلتي كلُّها انتباه (٢)

ومما استحسنه الملك العزيز عثمان بن صلاح الدين (ت ٥٩٥هـ) فامر شعراءه بالقول فيه قصة الجارية التي صورت في خدها بالمسك حية ، فنظم الشعراء قصائدهم ، واخذوا يتبارون بالمعاني المستحسنة التي جأوا بها . من

(١) بدائع البدائه ١٥٤ .

(٢) الغيث المسجم ٢ : ٢٢٨ .

هؤلاء الشعراء : الوزير نجم الدين بن المجاور ، واسعد بن مماتي ، وأبن سناء الملك ، وابن الساعاتي ، وشهاب الدين ابن اخت الوزير ، والقاضي أبو العباس أحمد بن القطرسي ، وابن النبيه ، وأبو العباس أحمد ابن بنت الفقيه ابن عوف والرضي بن أبي حفصة الأحدب ،وعلي بن ظافر وغيرهم.(١)

وقد يتطلب المقام نظم القصائد في الرثاء ، كما فعل صاحب حماة الملك المنصور محمد (ت ٦١٧هـ) حين توفيت زوجته ملكة خاتون، فقد طلب أن ينظم الشعراء مراثيهم على وزن قصيدة أبي العلاء المعري ورويها التي مطلعها :

ياساهرَ البرقِ أيقظْ راقدَ السَّمُرِ لعلَّ بالجزْعِ أعواناً على السّهرِ

فنظم الشعراء قصائدهم على هذا الوزن والروي ، واجود قصيدة نظمت هي قصيدة حسام الدين خُشترين بن تليل ، منها هذان البيتان :

فقل لمن راح يرجو طيفَ من ْظعنوا لما غدا الطرفُ موقوفاً على السهرِ
ناشدتكَ الله لاتنسى الودادَ فقد بانتْ سعادُ وهذا آخر الخبرِ (٢)

وللملك الامجد مجد الدين الأيوبي (ت ٦٢٨ هـ) قصيدة رائعة مطلعها :

يا راقدَ الطرفِ ،طرفي بيدالسهرِ داءٌ بليتُ به من رائدِ النظرِ
نمْ وادعاً ودعِ المشتاقَ تقلقُهُ مما تخطتك انواعٌ من الفكرِ(٣)

وقد يتحول المجلس الى مناقشة في مسألة نحوية اوفقهية ، واليك انموذجاً على ذلك ، قال ابن واصل : « لما قدم الملك المعظم (٤)— رحمه الله — القدس الشريف سنة ثلاث وعشرين وستمئة ، جلس خارج الصخرة الشريفة . واستدعى جماعة الفقهاء ، واستدعى والدي — رحمه الله — وباحثهم في

(١) بدائع البدائـه ٢٧٨ وما يليها، الغصون اليانعة ١٤، ٢٣، ١٢٩ .

(٢) مفرج الكروب ٤ : ٦٦ .

(٣) ديوان الملك الامجد ٢٤٣ .

(٤) عالم بني أيوب الملك المعظم عيسى بن أبي بكر صاحب دمشق، المتوفى سنة ٦٢٤هـ

مسائل لغوية وفقهية . ومما سأل عنه أنه كيف ورد في القراءات الست أعني ما عدا قراءة أبي عمرو بن العلاء « انّ هذان لساحران » (١) وهذه القراءة هي المطابقة لخط المصحف الامام (٢) ومن شأن (انّ) انْ ينتصب ما بعدها . فقال بعضهم : (انّ) هنا بمعنى (نعم) كما في قول الشاعر :

ويقلنَ شيبٌ قد علا ... كَ ، وقد كبرتَ ، فقلتُ : انه (٣)

فأجاب هذا القائل بعضهم : انّ هذا القول يعكر عليه ورود اللام في الخبر ، فانه لايقال : «نعم زيدٌ لقائم» . فقال السلطان — رحمه الله — لا يعكر عليه ، بل جاز ان تأتي هذه اللام رعاية للفظ (انّ) فانه يقتضي جواز وقوع اللام في الخبر ، ورعاية اللفظ واعتباره قد جاء كثيراً . يقولون : يا زيدُ الظريفُ ، فيراعون اللفظ ، ويحملون عليه ، وان كان زيد منصوباً في التقدير . فاستحسن الجماعة هذا الجواب من السلطان ، واطنبوا في الثناء عليه » . (٤)

وهكذا كانوا يشغلون أنفسهم — خاصة في أوقات فراغهم — في مسائل أدبية أو فقهية أو نحوية ، وكثيراً ما كانت هذه المجالس عاملاً منشطاً للمتابعة والدراسة لئلا يفشل أحدهم حين يوجه اليه سؤال ، أو يطلب منه حل مسألة ، أو نظم قصيدة .

---

(١) سورة طه الآية ٦٣ .

(٢) قرأ ابو عمرو (ان هذين لساحران) على الجهة الظاهرة المكشوفة . اما من قرا برفع (هذان) فعلى لغة بني الحارث بن كعب ، وهم يأتون المثنى بالالف على كل حال ، فيقولون : مررت برجلان ، وقبض منه درهمان . وقيل (ان) بمعنى نعم ، كما تقول : نعم لهذان ساحران ، وقي تأخر اللام مع لفظ (ان) بعض القوة على نعم . فأما من خفف (ان) فهي قراءة حسنة لانه اصلح الاعراب ، واللام هي الفارقة بين ان النافية والمخففة من الثقيلة (انظر في هذه الآية السبعة في القراءات لابن مجاهد ، ص ٤١٩ ، و الحجة في القراءات السبع لابن خالويه ، ص٢١٧ ، والبيان في غريب القرآن لابن الانباري ٢ : ١٤٤) .

(٣) البيت لعبيد الله بن قيس الرقيات .

(٤) مفرج الكروب ٤ : ٢١٣ .

للشعر — كما ذكرنا — أثر كبير في نفوس بني أيوب ، فإنهم كانوا يتراسلون به ، وكان أغلب تهانيهم وتعازيهم واستعطافاتهم شعراً . قال العماد الأصفهاني في حديثه عن صلاح الدين عندما استقر بمصر « وكثرت كتب صلاح الدين إلى أصدقائه مبشرة بطيب أنبائه» فمنها كتاب ضمنه هذا البيت :

ماكنتُ بالمنظورِ اقنعُ منكم   ولقد رضيتَ اليومَ بالمسموعِ

قال : ووصل أيضاً منه كتاب ضمنه هذا البيت :

وانثرُ درَّ الدمعِ من قبل أبيضاً   وقد حالَ مذ بنتمْ فأصبحَ ياقوتا(١)

وقال ابن الأثير حين قدم شمس الدوله توران شاه بن أيوب الذي ملك اليمن إلى الشام :

« وحنَّ إلى الوطن والأتراب ، ففارق اليمن ، وسار إلى الشام ، وارسل من الطريق إلى أخيه صلاح الدين يعلمه بوصوله ، وكتب اليه في كتاب شعراً من اقول ابن المنجم المصري :

وإلى صلاحِ الدينِ أشكو أنني   مِن بُعدِهِ مُضنى الجوانحِ مولعُ
جزَعاً لبعد الدار منه ، ولم أكن   لولا هواه ، لبعدِ دارٍ أجزعُ
فلأركبنَّ اليه متْنَ عزائمي   وَيَخبُّ بي ركبُ الغرامِ ويوسعُ
ولأقطعنَّ من النهار هواجرا   قلب النهار بحرّها يتقطع
ولأسرينَّ الليلَ لا يسري به   طيفُ الخيالِ ولا البروقُ اللّمعُ
واقدمنَّ اليه قلبي مُخبراً   أني بجسمي من قريبٍ أتبع
حتى أشاهدَ منه أسعد طلعةٍ   من أفقها صبحُ السعادة يطلعُ (٢)

فكتب اليه السلطان صلاح الدين كتاباً ضمنه قصيدة لعماد الدين الكاتب ، منها :

(١) الروضتين ١ : ١٧٩ .

(٢) الكامل ١١ : ٤٣٢ ، وانظر مفرج الكروب ٢ : ٤٨ .

وبغير قُربكَ كلما أرجوه من دَرْك المنى مُتعذّرٌ متمنّعُ
النصرُ إنْ أقبلتَ نحوي مقبلٌ واليمنُ إنْ أسرعتَ نحوي مسرعُ(١)

ومن ملوك بني أيوب المشهورين بالتراسل شعراً الملك الأمجد مجد الدين الأيوبي صاحب بعلبك، خاصة مع أستاذه أبي اليُمن زيد بن الحسن الكندي المقرىء النحوي الأديب (ت ٦١٣هـ) الذي كان يكن لتلميذه المحبة والمودة، ويرسل اليه بين الحين والآخر من دمشق رسائل مضمّنة أشعاراً من نظمه كتب اليه مرة هذه الأبيات :

لاتضجرنكمُ كتبي وإنْ كثرتْ فإنّ شوقي أضعاف الذي فيها
والله لو ملكت كفّي مسالمة من الليالي التي حظّي يحاكيها
لما تصرّمَ لي في غير داركمُ عمرٌ ولا متّ الا في نواحيها

فأجابه الملك الأمجد :

انا لتتحفنا بالأُنس كتبكمُ وان بعدتم فإنَّ الشوقَ يدنيها
وكيف نضجرُ منها وهي مُذهبةٌ من وحشة البين لوعات نعانيها
فإن وصفتم لنا فيها اشتياقكمُ فعندنا منكمُ أضعاف ما فيها
سلوا نسيمَ الصبا يهدي تحيتنا اليكم فهو يدري كيف يهديها (٢)

وهذا الملك الأفضل نور الدين علي بن السلطان صلاح الدين (ت٦٢٢هـ) كانت بيده الشام، وكان يتولى شؤونها منذ عهد أبيه، فاعتدى عليه أخوه العزيز عثمان وعمه أبو بكر فحاصراه واخرجاه من الشام قسراً وأعطياه صرخد(٣) فكتب الى الخليفة الناصر لدين الله العباسي يشكو من عمه وأخيه:

(١) مفرج الكروب ٢: ٤٩ .

(٢) فوات الوفيات ١: ٢٢٦ .

(٣) صرخد: بلد ملاصق لبلاد حوران من اعمال دمشق، وهي قلعة حصينة (معجم البلدان ٥: ٣٤٩) .

مولايَ إنَّ أبا بكرٍ وصاحبهُ عثمانَ قد غَصَبا بالسيفِ حقَّ علي
فانظرْ إلى حَظِّ هذا الاسم كيف لقي من الأَواخر ما لاقى من الأَولِ

فأجابه الامام الناصر :

وافى كتابُكَ ياابنَ يوسفَ مُعلناً بالودِّ يُخبرُ أنَّ أصلكَ طاهرُ
غصبوا علياً حقّهُ إذ لم يكن بعدَ النبيِّ له بيثْربَ ناصرُ
فاصبرْ فإنَّ غداً عليه حسابهم وابشرْ . فناصرُكَ الإمامُ الناصرُ (١)

ولم ينصره الامام الناصر ، فاضطر أنْ يستعطف أخاه ، فنظم قصيدة طويلة وعرضها على عماد الدين الكاتب ، فقال له : « لله درّك ، ما أبدع هذا المعنى ، والطف هذه الطريقة ، وأكرم هذه السجية ! فكاتب أخاك بما فيه استعطاف واستلطاف ، فما يجري منه بعد هذا خلاف » (٢).

ولا أُريد أنْ أكثر من الأَمثلة الشعرية التي كانت تجري على ألسنتهم في مراسلاتهم فكتب حقبة بني أيوب مليئة بهذه المراسلات . وكذلك دواوينهم خاصة ديوان الملك الأَمجد مجد الدين الأيوبي ، وديوان الملك الناصر داوُد بن عيسى

الشعراء والكتاب :

شجع بنو أيوب الشعر ، وأثابوا الشعراء ، وكان لمؤسس دولتهم صلاح الدين الأيوبي ولع كبير بالأدب ، وكان يعقد المجالس للاستماع إلى مايقوله الشعراء كهذا المجلس الذي عقده بعد أن فتح بيت المقدس ، واستمع فيه إلى ماقاله الشعراء في هذا الفتح المبين .(٣) وقد جعله صاحب الخريدة على رأس شعراء بني أيوب(٤)

(١) مختصر ابي الفداء ٣ : ٩٢ ، ثمرات الاوراق ٢٣ ، انوار الربيع ٥ : ١٦٤ .
(٢) مفرج الكروب ٣ : ٣٧ ، وانظر القصيدة التي ارسلها الملك الافضل إلى أخيه .
(٣) الروضتين ٢ : ٩٦ .
(٤) الخريدة ، بداية قسم الشعراء الشام ، شعراء بني أيوب ٣ : ٧٨ . ولم يصل الينا من شعره الا أبيات ومقطوعات ترد خلال رسائله كما رأيت حديثاً عن المراسلات ، وربما انه ضمنها رسائله وهي لغيره (انظر مفرج الكروب ١ : ١٧٢).

ذكر بأنه « ناقد كبير ، ونافذ بصير يعجبه المعنى المعرى ، واللفظ السهل الأبي وهو يحفظ من محاسن العرب ومزاين الأدب ، وأعاجيب السير ، وأساليب العبر ، وقصائد القدماء ، وشوارد الحكماء مايستشهد فيه لكل حادث وحديث ، بماهو لائق ، ولايجري في مجلسه ومأنسه إلا ماهو من الحكم والكلم الفائق الرائق ، يحب الشعر الجيد ، ويحبو بشعار جوده ، ويكرم الفضل وينادي نداه إلى ناديه أهليه من تهائمه ونجوده ». (١) وكان يحفظ القرآن الكريم ، وجزءً كبيراً من الحديث الشريف ، وحماسة أبي تمام ، ودواوين الشعر المشهورة .(٢) قالوا : لما مات أخوه توران شاه ، ووصل الخبر اليه ، حزن عليه حزناً شديداً ، وجعل يكثر من انشاد أبيات المراثي .(٣) وكأنه يعبر بهذا الشعر المحفوظ عن أحزانه .

وكان له ذوق أدبي رفيع ينقد به مايعرض عليه من الشعر : كتب نشو الدولة أحمد بن نفاده أبياتاً يدعو بها العماد إلى دمشق ، وقد دخل أوان المشمش المعهود وهو موسم دمشق المشهود ، أولها :

دعا الناسَ للذات مشمشُ جلّقٍ فقد أسرعوا من كلّ غربٍ ومشرقِ

قال العماد : فعرضت أبياته على السلطان ، قال : فما قلت في جوابه ؟ فأنشدته :

هلموا نسابقْ نحوَ مشمشِ جلّقِ وثَمّ كما نهوى على الأكل نلتقي
بدتْ بينَ أوراقِ الغصونِ كأنها كراتُ نضارٍ في لُجينٍ مطرّقِ(٤)

قال : فلما أنشدت السلطان هذا البيت ، قال : تشبيه الورق باللجين غير موافق ، فإن الورق أخضر ، فقلت : كرات نضار بالزمرّد محدق (٥) . فغير الشاعر المشبه به ليطابق المشبه .

(١) الخريدة ٣ : ٧٨ .
(٢) انظر الروضتين ٢ : ١٨ ، ٦٤ ، ٢١٠ ، ٢١٩ .
(٣) الروضتين ٢ : ١٨.
(٤) طرق الحديد : مدده ودققه .
(٥) الروضتين ٢ : ٢١٠ .

اقتدى أبناء الأُسرة الأَيوبية بصلاح الدين ، فتأثروا بالشعر ،وأدخلوه ضمن ثقافتهم التّي لاغنى عنها لهم ، بل مضى كثير منهم يقرض الشعر ،حتّى صار لهم دواوين أبقى على بعضها الزمن .

كان تاج الملوك بوري بن أيوب (ت ٥٧٩هـ) وهو أصغر اخوة صلاح الدين أحد أرباب السيف والقلم ، ولو قدر له أَنْ يمتد به العمر لبذ اخوته وأبناء عمومته ، فقد كان بطلاً شجاعاً وشاعراً جيداً ، ولكنه لقي حتفه في إحدى المعارك مع الافرنج ولم يتّم الثالث والعشرين،وترك لقراء العربية ديواناً(١) ينم ماقاله من شعر تغلب عليه العاطفة الجامحة ، ولا غرو فقد نظم شعره وهو في ميعة الصبا وريعان الشباب . (٢) قام ابن خلكان : « له ديوان شعر فيه الغث والسمين ، لكنه إلى مثله جيد » (٣) وَمَنْ مِن الشعراء مَن ليس في شعره غث؟ ومَنْ منهم ليس في شعره الا السمين ؟! وقد أورد له العماد الكاتب في خريدته مجموعة من القصائد (٤) وكذلك النويري في نهاية الأرب . (٥)
فمن شعره :

بليتُ بمن لايعرفُ العطفَ قلبه ... ولايسمعُ الشكوى لمن كان شاكيا
من الترك مَياسُ القوام كأنه ... يُجَرِّد لي لحظاً من السيف ماضيا
يُعاندني فيه الزمانُ تَعَمداً ... فلا القلبُ مسروراً ولا العيشُ صافيا
فلولا شقائي ما بليتُ بخائن ... عهودي ، ولا صافيتُ من لاصافيا

(١) منه نسخة في الفاتيكان رقم ١١٤٢ .
(٢) انظر المقال المنشور بمجلة "الثقافة"المصرية بعنوان "شاعر من البيت الايوبي يموت في سن الشباب "للدكتور جمال الدين الشيال . العدد ١٣٠، حزيران ١٩٤١ .
(٣) وفيات الاعيان ١ : ٢٩ .
(٤) الخريدة ٣ : ١٣٤-١٣٩ .
(٥) نهاية الارب ١ : ١١٤، ٢ : ٥١، ٢٢٩؛ ٢٣١-٢٣٣، ٢٣٨، ٢٤٧، ٢٥٩؛ ٤ : ١٣٧-١٣٨، ٥ : ١٨٤ .

فيا ربَّ إنْ لم تقض لي فيه بالمُنى فكن ياالهي بالمنيّةِ قاضيا
وإني لأستشفي من الموتِ بالردى (وحسبكَ داءً انْ ترى الموتَ شافيا)

ويبدو أنه قال هذه الأبيات قبيل موته ، فإن صاحب شفاء القلوب يعقب عليها بقوله : « وكان فألا عليه »(١)

وكان الملك توران شاه ، وهو اكبر اخوة صلاح الدين أديباً شاعراً وكذلك الملك الأفضل علي بن السلطان صلاح الدين . قال ابن حجة الحموي : « كان الملك الافضل نور الدين علي بن صلاح الدين يوسف من كبار أهل الادب ، وكان حسن السيرة متديناً ، قل أن عاقب على ذنب ، وله المناقب الجميلة ، وكان اكبر اخوته ، ومع كمال صفاته وآدابه التي سارت بها الركبان ، ما صفا له الدهر ، ولا هنيء بالملك بعد أبيه السلطان صلاح الدين » . (٢) وقال صاحب شفاء القلوب : « وكان فاضلا شاعراً حسن الخط قليل الحظ ، وفي ذلك يقول :

يـامن يسـود شعره بخضابه لـعساه مـن أهـل الشبيبة يحصل
هـا فاختضب بسواد حظي مرة ولـك الامان بـأنه لاينصل (٣)

وكان أخوه الملك الظاهر غازي بن السلطان صلاح الدين أديباً شاعراً « حكي أن مهذب الدين أبا المحاسن ماجد بن محمد القيسراني كتب اليه أبياتاً أولها :

أما وضجيج قهقهة القـناني واصوات المثالـث والمثاني
لـقد أضحى الشآم يتيه عجباً بـمـلك ما له في الارض ثان

فلما وقف الملك الظاهر عليها كتب في جوابها :

طـلبنا الدر من بحر المعاني وعـذب اللـفظ من عضب اللسان

(١) شفاء القلوب: ١٣ب .
(٢) ثمرات الاوراق ٢٣ .
(٣) شفاء القلوب ٧١آ .

وهل تجنى ثمار الفضل الا ... فروع أصلها حلو المجاني
ولا عجب ان استسقيت غيثاً ... أو استسقيت منطلق اللسان
وأنت السابق الغايات فضلا ... اذا ما قصرت خيل الرهان
فأهلا ، ثم أهلا ، ثم أهلاً ... بما أرسلت من سحر البيان(١)

وكان ابو الفداء اسماعيل بن طغتكين ابن اخي صلاح الدين شاعراً. قال ابو شامة المقدسي : « ملك اليمن بعد أبيه ، وتعاظم الى ان ولى نفسه الخلافة ، وادعى أنه من بني أمية ، وعزم على اعادة الخلافة من بني هاشم ال بني أمية وله في ذلك اشعار كثيرة وتلقب بالامام الهادي بنور الله ، المعز لدين الله أمير المؤمنين ... ومن شعره : —

واني انا الهادي الخليفة والذي ... أدوس رقاب الغلب بالضمر الجرد
ولا بد من بغداد أطوي ربوعها ... وأنشرها نشراً السماسر للبرد
وأنصبُ أعلامي على شرفاتها ... وأحيي بها ما كان أسسه جدي
ويُخطبُ لي فيها على كل منبر ... وأظهرُ دينَ الله في الغور والنجد(٢)

واشتهر من بني أيوب بالأدب الملك المعظم عيسى بن أبي بكر صاحب دمشق ، الذي كانت أيامه —كما قال البنداري— مواسم تجلب اليها بضائع العلوم من كل مرمى سحيق ، وتضرب اليها أكباد المطيّ من كل فج عميق.(٣) وقال سبط ابن الجوزي في حوادث سنة ٦٢٤ هـ: « وفيها توفي الملك المعظم، العالم الفقيه المجاهد في سبيل الله الغازي النحوي اللغوي .ولد بالقاهرة سنة ست وسبعين وخمسمائة، ونشأ بالشام ،وقرأ القرآن ،وتفقه على مذهب أبي

(١) مفرج الكروب ٣ : ٢٤٥ .
(٢) الروضتين ١ : ٥٣٨ .
(٣) مقدمة الشاهنامه ٢ .

حنيفة جمال الدين الحَصيري(1) وحفظ المسعودي، واعتنى « بالجامع الكبير » (2) وَقرأ الأدب والنحو على تاج الدين الكندي (3) فأخذ عنه « كتاب سيبويه » وشرحه الكبير للسيرافي ، والحجة في القراءات » لابي علي الفارسي « والحماسة وقرأ عليه « الايضاح » لأبي علي حفظاً ، ثم ذكر مسموعاته في الحديث وغيره.. وله ديوان شعر » .(4) ومن شعره وقد مرض :

زارتْ مُمحصّةُ الذنوب وودَّعتْ ... تباً لهـا من زائـر ومودّعِ
باتَتْ مُعانقتي كأني حبّها ... ومقيلها ومبيتهـا في أضلعي
قالتْ، وقد عزمتْ على ترحالها: ... ماذا تريدُ ،فقلتُ :انْ لاترجعي(5)

أما نثره فيمتاز بالسهولة والبعد عن المحسنات اللفظية ، ويتجلى ذلك في كتابه « الرد على أبي بكر الخطيب» الذي ردَّ فيه على الامام الحافظ ابي بكر أحمد بن ثابت البغدادي في كتابه « تأريخ بغداد » وفيه مطاعن على أبي حنيفة رواها عن جماعة المحدثين ، وذكر في هذا الكتاب مباحث جليلة دقيقة في الفقه والنحو .

وخلف الملك المعظم ابنه داؤد (ت656هـ) شاعراً كاتباً (6) له مكانته بين شعراء عصره ويمتاز شعره بالجزالة ومحاكاة الاقدمين . وقد بالغ نصرالله بن بصاقة (7) في الثناء على شعره حين سمع قصيدة له مطلعها :

ياليلة قطعت عمر ظلامها ... بمدامة صفراء ذات تأجج

(1) جمال الدين محمود بن احمد بن عبد السيد البخاري الحصيري، شيخ الحنفية في عصره، توفي سنة 631 هـ .

(2) هو الجامع الكبير في الفروع للامام المجتهد أبي عبد الله محمد بن الحسن الشيباني الحنفي صاحب أبي حنيفة، توفي سنة 189هـ .

(3) هو زيد بن الحسن بن زيد، الامام تاج الدين ابو اليمن الكندي النحوي، توفي سنة 613 هـ .

(4) النجوم الزاهرة 6 : 267 .

(5) شذرات الذهب 5 : 115 .

(6) ديوان رسائله وشعره في مكتبة أيا صوفيا رقم 4823 ، والمتحف البريطاني رقم 557

(7) نصر الله بن هبة الله بن محمد بن بصاقة، كاتب شاعر، توفي بدمشق سنة 650 هـ..

فقال: « اما الابيات الجيمية الجمة المعاني المحكمة المباني، المعوذة بالسبع المثاني فانها حسنة النظام، بعيدة المرام، متقدمة على شعر الجاهلية ومن عاصرها في الاسلام، قد اخذت بمجامع القلوب في الابداع، واستولت على المحاسن فهي نزهة الابصار والاسماع فاذا اعتبرت الفاظها كانت درا منظوماً، واذا اختبرت معانيها كانت رحيقاً مختوماً، جلت بعلوها عن المعاني المطروقة، والمعاني المسروقة، ودلت برفعتها على انها من نظم الملوك لا السوقة، فلو وجدها ابن المعتز لألقى زورقه الفضة في نهرها وأرمى حمولته العنبر في بحرها، والحق تشبيهاته بأسرها ... ولو سمعها امرؤ القيس لعلم ان فكرته قاصرة، وكرته خاسرة، وأيقن ان وحوشه غير مكسورة وان عتباته غير كاسرة، فاين الجزع (١) الذي لم يثقب من الدر الذي قد تنظم واين ذلك الحشف البالي من هذا الشرف العالي ... » (٢)

وفي شعر الناصر داؤد أسى ولوعة على ما اصاب الاسلام من خلل، وما ناله من ضعف، ارسل مره إلى عز الدين بن عبد السلام مقطوعة يتمن فيها لو لم يخلق، ولم يتطاول به العمر حتى يرى ما نزل بالاسلام من ذل وهوا، على يد الافرنج، اذ يقول: (٣)

ألا ليت أمي أيّم طول دهرها	ولم يقضها ربي لمولى ولا بعل!
ويا ليتها لما قضاها لسيد	لبيب أريب طيب الفرع والاصل
قضاها من اللاتي خلقن عواقرا	فما بشرت يوماً بأنثى ولا فحل
ويا ليتها لما غدت بي حاملا	أصيبت بما اجتنت عليه من الحمل

(١) الجزع ضرب من الخرز، قال امرؤ القيس:

كأن عيون الوحش حول خبائنا وأرحلنا الجزع الذى لم يثقب

(٢) انسان العيون ٢٥٨.

(٣) ديوانه، نسخة أيا صوفيا ١٠٤ آ.

ويا ليتني لما ولدت واصبحت   تشدّ إلي الشدقميات بالرحل (١)
لحقت باسلافي فكنتُ ضجيعهم   ولم ار في الاسلام ما فيه من خبْلِ

وللملك الناصر داؤد رسائل بليغة . كتب بعضها إلى الخليفة المستعصم بالله ، وبعضها الاخر إلى أقاربه وأصدقائه . سلك فيها طريقة أصحاب مدرسة البديع ، الذين يعتمدون ، في كتاباتهم على الوان البديع ، وبخاصة الجناس كما يعتمدون على التنظير والاقتباس من آي الذكر الحكيم . من ذلك ما كتبه إلى أحد أصدقائه يعزيه بوفاة اخيه :

« الذين اذا أصابتهم مصيبة قالوا انا لله وانا اليه راجعون ، اولئك عليهم صلواتٌ من ربهم ورحمة واولئك هم المهتدون » (٢)

كتب الله اسم المولى في جريدة المهتدين الذين هم بهذه الاخلاق يتخلقون وصيره من القوم الذين هم لهذه الايات يتدبرون ، وأنزل عليه عند نزول الحوادث صبرا وعظم له في الدارين أجرا ، وأبقاه بعد معمري أهله دهرا وجعل من يتقدمه منهم عنه فداءً وله ذخرا » . (٣)

وكأن الشعر قد أصبح وراثة في أسرة الملك المعظم عيسى ، فآن حفيده الامجد حسن بن داؤد (ت٦٧٠هـ) كان شاعراً مجيداً . قال اليونيني : « كان الملك الامجد من الفضلاء ، عنده مشاركة جيدة في كثير من العلوم وله معرفة بالادب ... وله اليد الطولى في الترسل مع حسن الخط » (٤) ومن شعره هذه الابيات التي يعاتب فيها العذال الذين لم يذوقوا طعم الحب ، وما فيه من مرارة ؛ وليس لهم من هم الا التقول على الآخرين . وتأويل الكلام على غير حقيقته ، لذلك قرر ان يكتم سره ، ولا يبوح به لأحد :

(١) الشدقيات : شدقم فحل كان للنعمان بن المنذر ينسب اليه الشدقيات من الابل .

(٢) سورة البقرة ، الآية ١٥٦ .

(٣) ديوانه ، نسخة أيا صوفيا ٣٨ آ .

(٤) ذيل مرآة الزمان ٢ : ٤٧٤ .

مَنْ حاكمٌ بيني وبين عذولي ... الشجو شجوي والغليل غليلي
عجباً لقوم لم تكن اكبادهم ... لجوى ولا أجسامهم لنحولِ
دقت معاني الحب عن أفهامهم ... فتأولوها أقبح التأويلِ
في اي جارحة أصونُ معذبي ... سلمت من التنكيد والتنكيلِ
انْ قلت في عيني فثمَّ مدامعي ... او قلت في قلبي فثمَّ غليلي
لكن رأيتُ مسامعي مثوى له ... وحجبتها عن عذل كل عذول (١)

واشتهر ملوك « حماة » بالأدب . قال ابن حجة الحموي : « ان جميع ملوك حماة المحروسة من بني ايوب كان لهم المام بالادب واهله » . (٢) .

ويرجع الفضل في ذلك إلى جدهم الاكبر تقي الدين الدين عمر (ت ٥٨٧هـ) الذي ترك ديواناً كبيرا من الشعر ، انتقى منه تاج الدين الكندي مئتي بيت وصدرها بمقدمة ، نقلها العماد الاصفهاني كاملة في خريدته أغلبها في الغزل والنسيب ، ويتردد فيها ذكر محبوبته « نظيرة» من ذلك قوله :

دع مهجة المشتاقِ معْ أهوائها ... يالائمي ما أنتَ من نصحائها
مِنْ مخبرٌ عني نظيرةَ أنني ... أزجيتُ عيس الشوق نحو لقائها
أفنيت نفسي حسرةً وتلدداً ... فيمن تزايد بي اليمُ جفائها (٣)

وخلف ولده الملك المنصور محمداً (ت٦١٧هـ) عالماً أديباً مؤرخاً . قال ابن شاكر الكتبي : « سمع الحديث بالاسكندرية من السلفي وكان شجاعاً يحب العلم ... ومن شعره :

ادعني باسمها فاني مجيب ... وادراني مما تحب قريب
حكم الحب أن أذل لديها ... نخوة الملك ، والغرام عجيب

(١) المصدر السابق ٢ : ٢٧٤ .
(٢) ثمرات الاوراق ١٢٢ .
(٣) الخريدة ٣ : ٨١ .
(٤) فوات الوفيات ٤ : ١٢ .

ومن حفدته المتأخرين المؤرخ الكبير ابو الفداء الملك المؤيد اسماعيل بن علي صاحب حماة (ت٧٣٢هـ)، فانه كان « عالماً بفنون عدة لاسيما الأدب، فله فيه يد طولى ، نظم الحاوي في الفقه ، وصنف تاريخه المشهور ، ونظم الشعر والموشحات » . ومن شعره :

اقرأ على طيب المحيا	ة سلام صب مات حزناً
واعلم بذاك أحبة	بخل الزمان بهم وضنا
لو كان يشرى قربهم	بالمال و الارواح جدنا
متجرع كأس الفرا	ق يبيت للاشجان رهنا
صب قضى وجداً ولم	يقض له ما قد تمنى(١)

واليك من نثره هذا الجزء اليسير من مقدمة تاريخه : « الحمد لله الذي حكم على الاعمار بالآجال ، وتفرد بالعظمة والبقاء والجلال وعلا عن أن يكون له نظير أو مثال ، وتنزه عن أن يحيط به وهم أو يمثله خيال ، وصلى الله على سيدنا محمد المبعوث لتبيين الحرام من الحلال والمخصوص من بين كافة الخلق بالفضل والكمال ، والمحبو بأوضح برهان وافصح مقال ، وعلى آله خير آل ، وعلى صحابته ذوي التأييد والافضال ، صلاة تدوم على مر الايام والليال ... » . (٢)

وكانت للملك المؤيد ابنة شاعرة ، وذكر لها صاحب كتاب شفاء القلوب موشحة طويلة دون ذكر اسمها ، اولها :

بديع الحسن في ترك وروم تفرد
رشا للاسد بالدل الرخيم تصيد
غزال فاتر الاجفان المى

(١) البدر الطالع ١ : ١٥٢ .
(٢) المختصر في اخبار البشر، ص ٢ .

بروضة وجنتيه النار والما
من القمرين في الاشراف أسمى
يفوق بحسنه علوى وأسمى (١)

وهذه اسرة ثالثة من بني أيوب امتازت بقرض الشعر ، هي اسرة عزالدين فروخ شاه بن أخي صلاح الدين ، وهو احد أبطال الحروب الصليبية (ت٥٧٨هـ) قال العماد الاصفهاني : « هو معاذ الرجاء ، وملاذ الفضلاء يجل عن نظم الشعر قدره ، ويزيد على فخر الادب فخره ، لكنه لكثرة مخالطة أهل الفضل قد خلص من الشوب خلوص النضار غب الذوب ، فما يفوه الا بغريبة ، ولا يحبو الا برغيبة ، ولا ينطق إلا ببديعة ، ولا يفهق الا بصنيعة ، ينظم البيت والبيتين ، ويرتجل القطعة والقطعتين ، لتتم له الفضائل كلها » . (٢) ومن شعره هذه الابيات التي يصف فيها ذلك الرشأ الذي اصابه بسهامه وأرشفه بمدامه :

أنا في اسر السقام من هوى هذا الغلام
رشأ ترشق عيناه فؤادي بسهام
كلما أرشفني فاه على حر الأوام
ذقت منه الشهد في الثلج المصفى في المدام (٣)

أما ولده الملك الامجد مجدالدين بهرام شاه (ت٦٢٨هـ) فهو أشعر شعراء بني أيوب واغزلهم ، ترك لنا ديواناً ضخماً (٤) اقتصر فيه على الغزل والحماسة ما عدا قصيدة واحدة في رثاء امه . وقد سلك في شعره سبيل الاقدمين

---

(١) شفاء القلوب ١٢٦ آ .
(٢) الخريدة ٣ : ١١٣ .
(٣) الروضتين ٢ : ٣٣ .
(٤) نسخ ديوانه في مكتبة أوقاف الموصل ٢٩/٨، مكتبة أوقاف بغداد ٤٩٨، المكتبة الظاهرية ٧١٧٥، المكتبة الوطنية بباريس ٣١٤٢، مانشستر ٤٥٧، نور عثمانية ٣٧٩٧، حققته مع دراسة ونلت به درجة الماجستير من جامعة بغداد.

وانتهج نهجهم في استهلال قصائده بالوقوف على الاطلال والبكاء عليها ، وذكر الدمن ، ووصف آثار الاحبة . والانتقال إلى ذكر أهلها الظاعنين عنها. وما خلفوه في نفسه والدعاء لها بالسقيا . واستعادة ذكريات آيام وصاله ونواله والانتقال إلى وصف الناقة وما تعانيه في قطعها البيد والقفار ، وهو في طريقه إلى ديار الاحبة والافتخار بشجاعته وبسالته وشدة تحمله واقتحامه الاهوال والمخاطر ، وكثيرا ما يختتمها بما يمني به نفسه من عودة أحبته اليه . واليك هذه الابيات من احدى قصائده :

يؤرقني حنينٌ وادكـارُ وقد خلتِ المرابعُ والديـارُ
تناءَى الظاعنونَ ولي فؤادٌ يسيرُ مع الهوادجِ حيثُ ساروا
وليلٌ بعدَ بينهم طويـلٌ فأينَ مضتْ ليالِيَّ القصارُ؟
ومذْ حكمَ السهادُ على جفوني تساوى الليلُ عندي والنهار
فمنْ ذا يستعيرُ لنا عيوناً تنامُ ، ومنْ رأى عيناً تعار ؟
فكيف أرومُ بعدهمُ اصطباراً وقد عدِمَ التصبرُ والقرارُ (١)

وكان الملك العادل أبوبكر صاحب مصر والشام (ت٦١٥هـ) مهتماً بالعلم والأدب وخلف أولاداً – كما يقول ابن واصل – في كل واحد منهم من النجابة والكفاية والشهامة والفضيلة مالامزيد عليه ، فهم كما قال الشاعر :

من تلقَ منهم تقلْ لا قيت سيدهم مِثلُ النجومِ التي يسري بهاالساري(٢)

واشتهر من أولاده الملك الكامل محمد (ت٦٣٥هـ) فقد كان عالماً شاعراً (٣) وكذلك أخوه الملك المظفر غازي (ت٦٤٥هـ) كان شاعراً (٤) أما أخوهم الثالث الملك الأشرف موسى (ت ٦٣٥هـ) فقد بزهم في نظم الشعر ، فمن لطيف شعره

---

(١) الديوان ٣٣٦ .
(٢) مفرج الكروب ٣ : ٢٧٢ . والبيت لعبيد بن العرندس .
(٣) انظر السلوك ١ : ٢٦٠ ، والحوادث الجامعة ١٠٧ .
(٤) انظر مرآة الزمان ٨ : ٧٦٩ وشفاء القلوب ٨٩ آ .

وحسن تعليله ماقاله في مملوك جميل وقعت عليه شمعة فاصابت شاربه :

وذي هيف زارني ليلةً فأمسى به الهمّ في معزلِ
فمالتْ لتقبيلهِ شمعةٌ ولم تخشَ من ذلكَ المحفلِ
فقلتُ لصحبي ، وقد حكمتْ صوارمُ لحظيهِ في مقتلي
أتدرون شمعتنا لِمْ هوتْ لتقبيلِ هذا الرشأ الاكحلِ
درت أنَّ ريقتهُ شهدةٌ فمالتْ إلى الفمِ الأوّلِ (١)

وكان الملك الناصر يوسف بن محمد بن غازي صاحب حلب والشام (ت٦٥٩هـ) أديباً . قال عنه ابن شاكر الكتبي : « وكان يحاضر الأدباء والفضلاء ،وعلى ذهنه كثير من الشعر والأدب وله نوادر ونظم ،ومن شعره :

البدر يجنحُ للغروبِ ومهجتي لفراقِ مشبهه أسىً تتقطّعُ
والشرب قد خاط النعاس جفونهم والصبحُ من جلبابهِ يتطلّعُ (٢)

ومن متأخري بني أيوب الذين بقوا يحكمون في حصن «كيفا» في شمال سوريا أسرة اشتهرت بقرض الشعر منهم الملك العادل سليمان بن غازي (ت٨٢٧هـ) له ديوان شعر كبير (٣) منه هذه الأبيات في الموعظة :

زمان جموح القلب يا صاح قدغدا وهذا مشيبي في عذاري قد بدا
فخلِ الغواني والتصابي بمعزلِ وخذْ واجتهدْ في الخير تسعدْ بهِ غدا
وقمْ في جميع الليل لله قانتاً فصيح لسان الشيب للسير قد حدا
وبادر لباقي العمرِ واحذر نوائباً فهذا زمانٌ قد تصدى لك الردى (٤)

ثم جاء من بعده ابنه الملك الاشرف أحمد بن سليمان (ت٨٣٦هـ) ملكاً على حصن«كيفا» . قال عنه ابن تغري بردي :« وكان فاضلاً أديباً بارعاً ،وله

---

(١) معاهد التنصيص ٣ : ٧٨ .
(٢) فوات الوفيات ٤ : ٣٦٢ .
(٣) النجوم الزاهرة ١٥ : ١٢٣ .
(٤) شفاء القلوب ١٢٩ب .

ديوان شعر (١) وقفت على كثير من شعره ، وكتبت نبذة كبيرة في ترجمته في المنهل الصافي ». (٢) ومن شعره :

بدا حي وقد خضب اليدين فاتلف مهجتي بالحاجبين
وبين النوم والجفن اختلاف كما بين الذي أهوى وبيني
ترفق ياحبيب القلب واعطف لتنعم بالرضا عيني بعيني (٣)

وخلف بعده على حصن « كيفا » ولده الملك الكامل خليل ، واستمر في المملكة حتى وثب عليه ابنه فقتله صبراً في شهر ربيع الأول سنة ٨٥٦هـ ، وكان أديباً شاعراً ، نقل صاحب كتاب زبدة كشف الممالك من ديوانه خمس قصائد كلها في التشكي من الدهر وحوادثه ، والتألم من الأصدقاء الذين لم ير منهم الوفاء ، منها هذان البيتان :

إياكَ إياكَ الصديقَ فإنهُ بعد الصداقة بالعداوة أعرف
فأنا الذي قد ساءهُ أصحابهُ اللهُ يحفظ كلَّ من لايعرف (٤)

إنَّ الكثرة من ملوك بني أيوب كانوا مثقفين ، وكانت لهم مشاركة في التأليف والتصنيف ، وفي نظم الشعر ، فهم ليسوا رجال حرب وجهاد فحسب بل رجال علم وأدب .

---

(١) نسخة منه في المكتبة الظاهرية بدمشق رقم ٤٧٣٠ شعر .
(٢) النجوم الزاهرة ١٥ : ١٨٢ ، وأنظر المنهل الصافي ١ : ٢٨٨ .
(٣) الضوء اللامع ١ : ٣٠٨ .
(٤) زبدة كشف الممالك ١٥١ .

ـ المصادر والمراجع ـ

١. ـ انسان العيون في مشاهير سادس القرون : ابن أبي عذيبة ،ت٨٥٦هـ . مخطوطة المتحف العراقي رقم ٢٩٥ تاريخ .

٢. ـ الانس الجليل بتاريخ القدس والخليل : مجير الدين الحنبلي ،ت٩٢٨هـ المط . الحيدرية ـ النجف ١٩٨٦ .

٣. ـ أنوار الربيع في أنواع البديع : ابن معصوم ،ت ١١٢٠هـ . تح: شاكر هادي شكر . مط . النعمان ـ النجف ١٩٦٨ .

٤. ـ الايضاح في شرح المفصل : ابن الحاجب ،ت ٦٤٧هـ ، تح : د. موسى العليلي ـ مكتوبة على آلة الرونيو .

٥. ـ بدائع البدائة : علي بن ظافر الازدي ، ت٦٢٣هـ . تح :محمد أبو الفضل ابراهيم . المط .الفنية ـ القاهرة ١٩٧٠ .

٦. ـ البدر الطالع بمحاسن من بعد القرن السابع : محمد بن علي الشوكاني، ت ١٢٥٠ هـ . مط . السعادة ـ مصر ١٣٤٨ هـ .

٧. بغية الوعاة :جلال الدين السيوطي ، ت٩١١هـ .تح : محمد أبو الفضل ابراهيم . مط . مصطفى الحلبي ـ القاهرة ١٩٦٤ .

٨. ثمرات الاوراق : ابن حجة الحموي ،ت ٨٣٧هـ تح : محمد ابو الفضل ابراهيم . مط . السنة المحمدية ـ القاهرة ١٩٧١ .

٩. الجواهر المضيئة في طبقات الحنفية :عبد القادر بن ابي الوفاء محمد، ت ٧٧٥ هـ . مط . مجلس دائرة المعارف العثمانية ـ الهند ١٣٣٢ هـ .

١٠. الحوادث الجامعة والتجارب النافعة في المائة السابعة : عبد الرزاق الفوطي . ت ٧٣٢هـ. تح :د مصطفى جواد . مط . الفرات ـ بغداد ١٣٥١ هـ .

١١. الحياة الأدبية في عصر الحروب الصليبية : د. أحمد أحمد بدوي . مط. النهضة — مصر ١٩٥٢ .

١٢. خريدة القصر وجريدة العصر : عماد الدين الأصفهاني ،ت ٥٩٧هـ. ج٣ ، بداية قسم شعراء الشام . تح: د. شكري فيصل . المط . الهاشمية — دمشق ١٩٦٨ .

١٣. ديوان الملك الامجد : تح : ناظم رشيد مكتوبة على آلة الرونيو ١٩٧٣ .

١٤. ديوان ابن النبيه : تح : عمر محمد الاسعد .ط. دار الفكر ١٩٦٩.

١٥. ذيل الروضتين : أبو شامة المقدسي ، ت ٦٦٥هـ . مط . مكتبة نشر الثقافة الاسلامية — القاهرة ١٩٤٧ .

١٦. ذيل مرآة الزمان : قطب الدين اليونيني ، ت٧٢٦هـ. مط . مجلس دائرة المعارف العثمانية — الهند ١٩٥٤ .

١٧. زبدة الحلب من تاريخ حلب : ابن العديم ، ت ٦٦٠هـ . تح : سامي الدهان . المط . الكاثوليكية — بيروت ١٩٦٨ .

١٨. زبدة كشف الممالك وبيان الطرق والمسالك : غرس الدين خليل بن شاهين . المط . الجمهورية — باريس ١٨٩٣ .

١٩. السلوك لمعرفة دول الملوك : المقريزي ، ت٨٤٥هـ. مط دار الكتب المصرية — القاهرة ١٩٣٤ .

٢٠. الشاهنامة : الفردوسي ، ترجمة الفتح بن علي البنداري ، ت٦٤٢هـ . تح : د. عبد الوهاب عزام . طبعة بالافست — طهران ١٩٧٠

٢١. شفاء القلوب في مناقب بني أيوب : احمد بن ابراهيم الحنبلي . ت٨٧٦هـ. مخطوطة المتحف البريطاني رقم ٧٣١١ .

٢٢. صلاح الدين الايوبي بين شعراء عصره وكتابه : د. أحمد أحمد بدوي . مط . دار القلم — القاهرة ١٩٦٠ .

٢٣. الضوء اللامع لاهل القرن التاسع : السخاوي ، ت٩٠٢هـ . مط ـ السعادة القاهرة ١٣٥٥ هـ .

٢٤. عيون الانباء في طبقات الاطباء : ابن أبي أصيبعة ، ت ٦٦٨ هـ. مط الاقبال ـ بيروت ١٩٥٦ .

٢٥. الغصون اليانعة في محاسن المائة السابعة : علي بن موسى الاندلسي، ت ٦٨٥هـ . تح: ابراهيم الابياري ـ مط دار المعارف ـ مصر ١٩٦٧ .

٢٦. الغيث المسجم : صلاح الدين الصفدي .ت ٧٦٤هـ. المط الازهرية مصر ١٣٠٥هـ.

٢٧. فوات الوفيات : ابن شاكر الكتبي ، ت٧٦٤هـ. تح: د. احسان عباس . مط . دار صادر ـ بيروت ١٩٧٣ .

٢٨. كشف الظنون : حاجي خليفة . ت١٠٦٨هـ. ط٢. المط الاسلامية ـ طهران ١٩٦٧ .

٢٩. الكامل في التاريخ : ابن الاثير ، ت٦٣٠هـ. مط دار صادر ـ بيروت ١٩٦٥ .

٣٠. المختصر في أخبار البشر : عماد الدين اسماعيل أبو الفداء ، ت٧٣٢هـ . المط . الحسينية ـ القاهرة ١٣٢٥ هـ .

٣١. مرآة الزمان في تاريخ الاعيان : سبط ابن الجوزي ، ت٦٥٤هـ .جـ٨ مط . مجلس دائرة المعارف العثمانية ـ الهند ١٩٥١ .

٣٢. المطرب من أشعار أهل المغرب : أبو الخطاب ابن دحية ، ت٦٣٣هـ . تح: ابراهيم الابياري وحامد عبد المجيد واحمد احمد بدوي . المطا الاميرية ـ القاهرة ١٩٥٤ .

٣٣. معاهد التنصيص : عبد الرحيم العباسي ، ت٩٦٣هـ . تح : محمد محيي الدين عبد الحميد . مط السعادة ـ مصر ١٩٤٧ .

٣٤. معجم الادباء : ياقوت الحموي ت٦٢٦هـ. تح: مرجليوث . المط الهندية ـ مصر ١٩٢٣ .

٣٥. مفرج الكروب في أخبار بني ايوب : ابن واصل ، ت٦٩٧. ج١، ٢، ٣ تح: د. جمال الدين الشيال . ج٤. تح: د. حسنين محمد ربيع . مط دار الكتب ـ القاهرة ١٩٧٢.

٣٦. النجوم الزاهرة : ابن تغري بردي ، ت٨٧٤هـ. مط دار الكتب المصرية ـ القاهرة ١٩٣٦ .

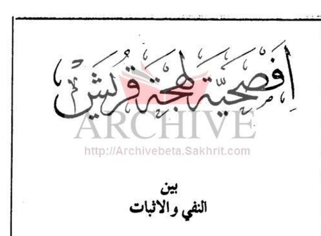
٣٧. نكت الهيمان : صلاح الدين الصفدي ، ت٧٦٤هـ. المط الجمالية ـ مصر ١٩١١ .

٣٨. نهاية الارب في فنون الادب : النويري ، ت٧٣٣هـ. مط دار الكتب المصرية ـ القاهرة ١٩٣١ .

٣٩. النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية : بهاء الدين ابن شداد ، ت ٦٣٢هـ. تح: د. جمال الدين الشيال . مط الدار المصرية للتأليف والترجمة والنشر ـ القاهرة ١٩٦٤ .

٤٠. وفيات الاعيان : ابن خلكان ، ت٦٨٤. تح: د. احسان عباس . مط دار صادر ـ بيروت ١٩٧٢ .

عبد الجبار علوان





يجدر بنا ان نقدم للبحث بمقدمة موجزة نبين فيها معنى الفصاحة في اللغة، لكي نكون على بينة من الامر حين نبحث ما امتازت به لهجة قريش من افصحية. «الفصاحة في اللغة : البيان» (١) ، والفصيح : « المنطلق اللسان في القول الذي يعرف جيد الكلام من رديئه» (٢) . قال احمد بن فارس «الفاء والصاد والحاء اصل يدل على خلوص في شيء ، ونقاء من الشوب ، من ذلك : اللسان الفصيح : الطليق» (٣) . وقال تعالى على لسان موسى (ع) : «واخي هرون هو افصح مني لساناً »(٤) أي اكثر مني طلاقة وابانة عما يريد قوله. وبالمقارنة بين اخوات اللغة العربية من الفصيلة السامية نجد تشابهاً في معنى الفصاحة، ففي الاشورية (P.L.S.U) ومعناها : صاف خالص ، او بين لامع ، وفي الارامية (Pas.s. h.) ومعناها بين واضح لامع (٥) . ومن هنا فان الفصاحة هي: الابانة في القول والاعراب عما في النفس بعبارة بليغة واضحة ، ولسان طلق مبين (٦) .

امتازت لهجة قريش والحجاز بأنها كانت مأنوسة الالفاظ ، عذبة الجرس غزيرة المادة ، رقيقة الاسلوب. فقد « ارتفعت في الفصاحة عن عنعنة تميم ، وكشكشة ربيعة ، وكسكسة هوازن » (٧) لانها « خلت من مستبشع

---

(١) لسان العرب ٢٧٧/٣ .

(٢) لسان العرب ٢٧٨/٣ .

(٣) معجم مقاييس اللغة ٥٠٦/٤-٥٠٧ .

(٤) القصص آية ٣٤ .

(٥) The Encyclopaedia of Islam 2.Vol.1, P.567 Col.2

(٦) انظر مختار الصحاح، ص ٥٠٤ .

(٧) قاله ابو العباس ثعلب في مجالسه ٨٠/١-٨١ . والعنعنة صفة في لهجة قيس و تميم أنهم كانوا يجعلون الهمزة المبدوء بها عيناً فيقولون في أنك: عنك وفي أسلم: عسلم وفي اذن: عذن، والكشكشة صفة في لهجة ربيعة ومضر، يجعلون بعد كاف الخطاب في المؤنث شيناً، فيقولون: رأيتكش، وبكش، وعليكش، والكسكسة: صفة في لهجة بني بكر بن وائل . يجعلون بعد الكاف أو مكانها في المذكر سيناً،فيقولون: اكرمتكس وبكس أي اكرمتك وبك ، (الكامل ٣٧١/١ والمزهر ١٣٣/١) .

اللغات ومستقبح الالفاظ» (١) ولهذا عدها الاقدمون أفصح لهجات العرب، قال ابن خلدون: «كانت لغة قريش افصح اللغات العربية واصرحها لبعدهم عن بلاد العجم من جميع جهاتهم، ثم من اكتنفهم من ثقيف وهذيل وخزاعة وبني كنانة وغطفان وبني أسد وتميم» (٢).

ويبدو ان افصحية لهجة قريش شيء متفق عليه بين علماء العربية، يؤيد هذا قول احمد بن فارس: «اجمع علماؤنا بكلام العرب، والرواة لاشعارهم، والعلماء بلغاتهم وأيامهم ومحالهم أن قريشاً افصح العرب ألسنة واصفاهم لغة» (٣) كما كان فصحاء العرب يعرفون بعد قريش في الفصاحة، فقد ذكر الجاحظ أن رجلا (٤) رد على سؤال وجهه معاوية بن ابي سفيان لجلسائه عن افصح الناس، بأنهم قريش وذلك لأنهم كما قال: «قوم ارتفعوا عن لخلخانية الفرات، وتيامنوا عن كشكشة تميم، وتياسروا عن كسكسة بكر» (٥) فتركوا هذه اللهجات وامثالها من اللهجات غير الفصيحة او المستبشعة الرديئة.

كانت فصاحة قريش مقياساً تقاس به فصاحة القبائل العربية الاخرى والدليل على هذا قول ابي العباس المبرد: «كل عربي لم تتغير لغته فصيح على مذهب قومه، وانما يقال: بنو فلان افصح من بني فلان، اي اشبه لغة بلغة القرآن ولغة قريش» (٦) كما كانت لهجة قريش ترجح على غيرها عند تعارض اللغات، فسيبويه يستشهد بها في مواضع عديدة من كتابه. قال في الكتاب: «قولك مررت به وحده، ومررت بهم وحدهم، ومررت برجل وحده،

---

(١) قاله الفراء: انظر الاقتراح، ص ٨١.

(٢) مقدمة ابن خلدون، ص ٥٥٥.

(٣) الصاحبي في فقه اللغة، ص ٢٣.

(٤) في (الكامل للمبرد ١/٢٧٠): أن هذا الرجل من قبيلة جرم، وجرم بشهادة الاصمعي من فصحاء الناس.

(٥) البيان والتبيين ٣/١٣٧. واللخلخانية كانت تعرض في ألسنة اعراب الشحر وعمان فيقولون: مشا الله كان. اي ماشاء الله كان. المزهر ١/١٣٤.

(٦) الفاضل، ص ١١٣.

ومثل ذلك في لغة اهل الحجاز : (١) مررت بهم ثلاثتهم واربعتهم وكذلك الى العشرة »(٢) ويفضلها على غيرها من اللهجات كلهجة بني تميم فيقول : «ومن كلامهم ان يشبهوا الشيء بالشيء وان لم يكن مثله في جميع الاشياء... فأما ما كان آخره راءا فان اهل الحجاز وبني تميم فيه متفقون ، ويختار بنو تميم فيه لغة أهل الحجاز كما اتفقوا في يرى ، والحجازية هي اللغة الاولى القدمى»(٣) أو يقول : « ودعاهم سكون الاخر في المثلين ان بين اهل الحجاز في الجزم فقالوا : اردد ولاتردد ، وهي اللغة العربية القديمة الجيدة » (٤)

اما ابو زكريا الفراء فيقول : « الزوج يقع على المرأة والرجل ، هذا قول اهل الحجاز ، قال الله عز وجل (أمسك عليك زوجك) (٥) واهل نجد يقولون : زوجة ، وهو اكثر من زوج ، والاول افصح عند العلماء » (٦) وقد أنكر الاصمعي على ذي الرمة استعماله (زوجة) في بيت من شعره :

أذو زوجة في المصر ام ذو خصومة ؟ أراك لها بالبصرة اليوم ثاوياً

وكان لايعتبر ذا الرمة حجة ، لاستعماله كلمات لايراها الاصمعي فصيحة(٧). وعلى هذا النهج في تفضيل لهجة قريش « او الحجازية » سار العلماء عبر القرون . يقول ابن هشام (٨) : «اعمال ما عمل ليس ، وهي لغة الحجازيين ، وهي اللغة القوية وبها جاء التنزيل . قال الله تعالى : « ماهذا بشراً » (٩) و(ماهن امهاتهم) (١٠)

(١) المقصود بلغة الحجاز هو : لغة قريش سكان مكة وما يجاورها من حواضر الحجاز وهي تمثل اللهجة الغربية

(٢) الكتاب ١/١٨٧ .

(٣) الكتاب ٢/٤٠-٤١

(٤) الكتاب ٢/٤٢٤ .

(٥) سورة الاحزاب من الآية ٣٧

(٦) المذكر والمؤنث ، ص ٣٦

(٧) الخصائص ٣/٢٩٥ .

(٨) شرح قطر الندى ١٤٣ وقارنه بكتاب سيبويه ١/٣٨ ، ومجالس ثعلب ٢/٥٩٦

(٩) سورة يوسف من الآية ٣١ .

(١٠) سورة المجادلة من الآية ٢ .

على الرغم مما ذكرناه آنفاً من اعتداد أئمة النحو واللغة الاقدمين بفصاحة لهجة قريش او الحجاز ، واعتبارهم اياها افصح لهجة عربية ، وترجيحهم لها على اللهجات الاخرى واستشهادهم بها ، تشكك قسم من المستشرقين في ذلك ، ذاهبين مذاهب شتّى في هذا التشكيك وسنعرض آراءهم ونتناولها بالنقد ليظهر زيفها وبطلانها .

قال المستشرق الالماني (نولدكه) : « اما الروايات التي تقول بأن لهجة قريش أحسن اللهجات العربية كلها ، فان بعضها مختَرع ، وفي بعضها مجاملة للحكام الذين ينحدرون من قبيلة قريش » (١) فهو يشكك في الروايات القديمة التي تقدم ذكرها اول البحث ويزعم ان بعضها مختَرع ، كما يشكك فيما ذكره الجاحظ عن الرجل الجرمي في تفضيل لهجة قريش الذي أجاب رداً على سؤال معاوية عن افصح اللهجات بانها لهجة قريش .

والحق ان كلام (نولدكه) مجرد ظن لاسند له يدعمه من رواية تاريخية او ادلة مادية ، ونحن نقول : ان تلك الروايات صادقة ،مروية عمن عرف بالصدق ، ولا يوجد ما ينقضها ، وما يدرينا بأن قول الرجل الجرمي كان زلفى لمعاوية ؟ والعربي — ولا سيما في ذلك الزمن — جبل على قول الصدق والصراحة ، ولو كان في ذلك قطع رقبته ، والتاريخ العربي حافل بمئات الامثلة والشواهد على مجابهة الافراد الحكام والخلفاء معارضين سياستهم وآراءهم علناً ، مما اودى بحياتهم .

أما ريجيس بلاشير فيقول : « إن مبدأ وجود لغة فصحى ،مضافاً اليها شعور ديني قد أوصل النحاة المسلمين إلى المحاكمة القياسية الآتية :

« إن القرآن يمثل العمود اللغوي، وبما أن القرآن قد اوحي إلى محمد سليل قبيلة قريش المكية ،فالقرآن إذن أنزل بلغة قريش ،ولذا كان العمود اللغوي الذي يجب أن يحتذى هو في لهجة القبيلة المذكورة » (٢) ثم يعزز بلاشير رأيه

---

(١) اللغات السامية، ص ٧٨ .

(٢) تاريخ الأدب العربي، ص ٨٤ .

فيقول : « وفي الحق فانه غير معقول ان تظل لغة مدينة تجارية كمكة ، والتي هي إلى جانب هذا مركز الحج السنوي في معزل عن التأثيرات الخارجية » (١)

ونحن نؤيد أن الاختلاط لايبقي اللغة في معزل عن التأثيرات الخارجية ولانقول إن لهجة قريش « سلمت من تأثيرات اللهجات الأخرى ، فمن المقرر في قوانين اللغات أن اللغة المنتصرة لاتخرج سليمة من صراعها بل إن طول احتكاكها باللغات الأخرى وشدة كفاحها معها يترك في اللغة الغالبة آثاراً كثيرة من اللغات المغلوبة في نواحي الاصوات والقواعد والأساليب والمفردات ويبدو هذا التأثر بأوضح صورة في النواحي التي تعوز اللغة الغالبة ، فاللغةالغالبة تعمد في العادة إلى خصمها المقهور فتمتص منه ماتحتاج اليه وتستل منه مايعوزها قبل أن تجهز عليه ... وان كان التأثر بين اللغات يحدث بطريقة تلقائية لاعن قصد أو تدبر » (٢)

ومن هنا فان الاختلاط أفاد لهجة قريش بمساعدة العوامل الأخرى التي سنأتي على ذكرها ، فان الخصائص التي تميزت بها لهجة قريش وجعلت منها اللغة الفصحى « لاتميز لغة قريش لذاتها ، بل لتمثلها خير مافي اللهجاتالعربية الصحيحة بالتوليد والاشتقاق وخير مافي اللغات الاجنبية بالنقل والتعريب. ذلك بأن العرب حين استصفوا لهجة قريش وجعلوها لغتهم الادبية المشتركة أثروا فيها مثلما تأثروا بها ، فصدق على لهجة قريش مايصدق على كل اللغات من قوانين التأثر والتأثير ، وهي قوانين لا تكاد تتخلف اذا درسنا اللغة على انها ظاهرة انسانية » (٣) كما فات بلا شيد « ان سلامة اللغة من دخول الدخيل فيها امر غير الفصاحة ، وان سلامة اللغة كانت في بني سعد خيراً مما هي في قريش لأنهم اهل وبر ، وابعد عن التجارة وعن الاختلاط بالناس ، وعلى العكس من ذلك قريش فهم اهل مدر ، وكثير منهم كان يرحل إلى الشام ومصر وغيرهما ويتاجر مع اهلها ، ويسمع لغتهم

(١) المصدر نفسه، ص ٨٥ .

(٢) فقه اللغة، ص ١١١ .

(٣) دراسات في فقه اللغة، ص ١٠٩ .

فهم من ناحية سلامة اللغة ينطبق عليهم ماانطبق على غيرهم ممن خالط الامم الاخرى ، ولكنهم من ناحية الفصاحة فصحاء ، وأعني بالفصاحة قوة التعبير عما في نفوسهم ، وقد اشتهروا بذلك ايضا في الاسلام . يضاف إلى هذه الفصاحة ماحكي عنهم من رقة السنتهم ،وحسن اختيارهم للالفاظ »(١) قال قتادة بن دعامة السدوسي « المتوفى سنة ١١٧ هـ » : « كانت قريش تجتبي — اي تختار — افضل لغات العرب حتى صار افضل لغاتها لغتها ، فنزل القرآن الكريم بها » (٢)

اما عن لغة القرآن وبأية لهجة كان نزوله فستعرض اليه بعد ان نذكر كلام المستشرق الايطالي (كارلونلينو) إذ قال : « إن كانت قريش افصح العرب فلماذا نقلت اللغة عن غيرها ، فبدل ان يستشهد النحاة واللغويون بقريش اقتبسوا العلم من اشعار الجاهلية او عربان البادية ؟ لماذا لم يسأل المفسرون اهل مكة عن تفسير غريب القرآن لو كان التنزيل بلغة قريش ؟ وانما استفادوا من قديم الشعر غير القرشي كمايتضح من كتب اللغة» (٣) ثم يختم بحثه بالقول :

« فلا شك للمتروي في هذه المسألة ترويا منصفا خاليا عن الاغراض ان الناس ماذهبوا إلى القول بفضل لغة قريش على غيرها من لغات العرب الا حباً واكراما لقبيلة النبي وانهم انفسهم لم يعملوا به في مباحثهم اللغوية » (٤) ان جوابنا على (نلينو) يجرنا إلى الحديث عن اللهجة التي نزل بها القرآن .

فقد ذكر الأقدمون : أن القرأن نزل بلغة قريش مستندين الى « ان عثمان (رض) قال لما رفعوا اليه اختلافهم في « التابوه » و « التابوت » إثبتوه بالتاء فانه

---

(١) ضحى الاسلام ٢٤٧/٢ .

(٢) المواهب الفتحية ٥٤/١ .

(٣) مجلة الهلال الجزء الأول السنة ٢٦ . اكتوبر ١٩١٧ . بحث : كيف نشأت العربية ، ص ٤٤

(٤) المصدر نفسه ، ص ٤٥ .

لغة قريش ، وانما انزل القرآن بلغة هذا الحي من قريش . ولو كان عنده أثر من قراءة النبي (ص) « التابوه » لقال اثبتوه كذلك إذ هو قراءة النبي عليه السلام » (١) ومن ذلك قول عثمان لرهط القرشيين الثلاثة : اذا اختلفتم انتم وزيد بن ثابت في شيء من القرآن فاكتبوه بلسان قريش فانما انزل بلسانهم » (٢) وقال عمر (رض) : لايملين في مصاحفنا الاغلمان (قريش) و (ثقيف) (٣) وعندما سمع رجلا يقرأ (عتى حين) لم يرض عن قراءته « فقال : من اقرأك ؟ قال : ابن مسعود . فكتب اليه : إن الله انزل هذا القرآن فجعله عربياً وانزله بلغة قريش فأقرئ الناس بلغة قريش ولاتقرئهم بلغة هذيل (٤) » « وعن ابن عباس (رض) في قوله عز وجل : « بلسان عربي مبين» قال: « بلسان قريش، ولو كان غير عربي مافهموه » (٥) هذه الروايات تؤكد نزول القرآن بلهجة قريش ، ومع ثقتنا بها وهي حجة لنا فلا نقول : إن القرآن كله نزل بلهجة قريش، استناداً الى الدراسات الحديثة بل من باب التغليب، لان القرآن فيه من خصائص اللهجات الاخرى كتحقيق الهمزة مثلا وهو من خصائص لهجة تميم واكثر البدو ، على حين ان اهل الحجاز وهذيل يسهلون الهمزة ولا يحققونها (٦) ، ولذا نؤيد قول الباقلاني ان « معنى قول عثمان انه انزل بلسان هذا الحي من قريش اي معظمه واكثره نزل بلغتها ولم تقم حجة قاطعة على ان القرآن بأسره نزل بلغة قريش ، بل ثبت ان فيه همزاً ، وقريش لاتهمز وثبت ان فيه حروفاً وكلمات بغير لغة قريش » (٧) فتحقيق الهمزة من صفات اللغة النموذجية الأدبية ، التي « اتخذت معظم صفاتها من البيئة الحجازية ، وقد تضمنت أيضاً بعض الصفات

(١) نكت الانتصار لنقل القرآن، ص ٣٨٥ .
(٢) الفهرست ، ص ٤٣، النشر في القراءات العشر ٧/١، فضائل القرآن، ص ٣١ .
(٣) الصاحبي في فقه اللغة، ص ٢٨، فضائل القرآن، ص ٦٧ .
(٤) الكشاف ٢٥٥/٢ .
(٥) اللغات في القرآن، ص ١٩ . وقارنه بكتاب فضائل القرآن، ص ١٩ أيضاً .
(٦) انظر لسان العرب ١٤/١ .
(٧) نكت الانتصار لنقل القرآن، ص ٣٨٥ .

القليلة التي تنتمي لبيئة اخرى ، ومن بينها تحقيق الهمز الذي عرفت بهتميم واكثر البدو » (١) ، « فاللغة الفصحى اخذت من لهجة تميم كما اخذت من لهجة قريش ، الا ان مااخذته من لهجة قريش كان اكثر » (٢) .

اما عن تطور هذه العربية القرآنية فمن الصعب أن نتتبع هذه اللغة في الفترات الاولى من تاريخها فهي « قديمة بخصائصها وان لسان النقوش التي دونت في القرنين الثالث والرابع الميلاديين هو نفسه اللسان العربي الشمالي الذي كان لقريش وسكان نجد والحجاز بكل مانعرف من صفاته وخصائصه» (٣).

إن اقوال المستشرقين — ومنهم نلينو — مبنية على الحدس والتخمين في اصل العربية الفصحى ولغة القرآن ، اذ ليس هناك من دليل مادي يؤيد مزاعمهم ، وهاهو ذا (فانيتنو) يذهب إلى « أن اللغة العربية الفصحى المبني جانب منها على لغة شعرية قديمة كانت في بلاد العرب الوسطى والجانب الآخر منها مبني على لهجة قديمة هي لغة الحجاز » (٤) و « رابين ». يتطرق إلى الموضوع ذاته ويؤكد عدم وجود الدليل المادي ، وان المعلومات عنها لاتكاد تذكر، ومع ذلك يرجح ان تكون اللهجات الغربية اقرب إلى العربيةالقديمة وان للهجة الحجاز أثراً في القرآن ،يقول (رابين): « وعلى الجملة يبدو أن اللهجات الغربية(اي الحجازية) كانت اقرب إلى حد ما إلى العربية القديمة ، على انه يحتمل ان الخلف الحقيقي للعربية القديمة هي لهجات قضاعة ، التي يجري الكلام بها في نفس المنطقة التي شغلتها الاولى (العربية القديمة) بيد ان معلوماتنا عنها لاتكاد تذكر ،ومن ناحية اخرى ليس لدينا مواد منقوشة من هذه المناطق حيث كانت اللهجات الشرقية او الغربية مستخدمه ، كما تستطيع ان ترى ان لغة القرآن تنزل مابين اللغة الخاصة بالشعر ولهجة الحجاز

(١) في اللهجات العربية، ص ٧٨ .

(٢) الوجيز في فقه اللغة، ص ١٠٣ . وقارن بكتاب اللغات في القرآن/مقدمة المحقق ص ٥ .

(٣) الوجيز في فقه اللغة، ص ١٣٢ .

(٤)مجلة المجمع العلمي العربي المجلد ١٥ الجزء ٣ و ١٩٣٧/٤م، تأملات عامة في اللهجات العربية، ص ١٤٠-١٤١ .

ويميز اسلوب الشاعر المكي عمر بن ابي ربيعة مزيج من هذه العناصر مختلف اختلافاً قليلا » (١) و (رابين) يتردد في اصدار الاحكام النهائية القاطعة فيقول « فاما ان امتلاكهم — اي اهل الحجاز — لناصية العربية لم يكن كاملا ، وإما ان محمداً قد اصطنع لهجة مكة غير انه كان متأثراً بالعربية الفصحى التي استعملها الكهان — ولم يصطنع لغة الشعراء الذين ذمهم — واما أنه كان قبل محمد نوع من العربية الفصحى خاص بمكة ربما استعمل في الكتابة « مثل الحسابات التجارية والرسائل » وفي التحدث إلى الجمهور (الخطابة) ولعل الفروق بينها وبين لغة الشعر ترجع جزئيا إلى متطلبات التعبير النثري » (٢).

وهناك من المستشرقين الآخرين من يرى رأينا في أفصحية لهجة قريش امثال (كراي) (٣) و (دوم) (٤) اللذين يقبلون دون تردد تطابق العربية الفصحى مع لهجة مكة .

اما كيف تم للهجة قريش ان تتبؤا المكانة المرموقة بين لهجات العرب وان تكون أفصحها ، فهذا هو ماستعرض اليه مبينين العوامل التي ساعدت على ذلك :

من الصعب ان نتتبع العربية الفصحى في الفترات الاولى من تاريخها ، ذلك ان النصوص التي اكتشفت والتي تنسب إلى هذه الفترة قليلة وقصيرة ، فهي لاتكفي لدراسة اللغة والوقوف على خصائصها ومراحل تطورها « وأقدم مانستطيع تصوره في شأن شبه الجزيرة العربية هو ان نتخيلها وقد انتظمتها لهجات محلية كثيرة ، انعزل بعضها عن بعض واستقل كل منها بصفات

(١) The Encyclopaedia of Islam 2.Vol .1,P.566 Co 1.

(٢) المصدر نفسه .

(٣) L.H Gray, Intro duction to Semitic Compartive Lingnistics,1934,P5.

(٤) E Dhorme,Langues et' ecritures Semitigues ,1930 P.53

خاصة . ثم كانت تلك الظروف التي هيأت لبيئة معينة في شبه الجزيرة فرصة ظهور لهجتها ثم ازدهارها والتغلب على اللهجات الاخرى »(١) وهذا شيء حتمي تقرره قوانين اللغات « فانه متى انتشرت اللغة في مساحة واسعة من الارض وتكلم بها طوائف مختلفة من الناس استحال عليهم الاحتفاظ بوحدتها الاولى امداً طويلا ، فلا تلبث ان تتشعب إلى عدة لهجات ولم تفلت اللغة العربية — وما كان يمكن ان تفلت — من هذا القانون العام فقد انقسمت منذ اقدم عصورها إلى لهجات كثيرة يختلف بعضها عن بعض في كثير من مظاهر الصوت والدلالة والقواعد والمفردات ، واختصت كل قبيلة وكل جماعة متحدة في ظروفها الطبيعية والاجتماعية بلهجة من هذه اللهجات ».(٢) ثم ساعدت عوامل مختلفة على اتصال هذه اللهجات واحتكاكها ، ومن هذه العوامل انتقال العرب من مكان إلى مكان آخر في طلب المياه والكلأ وحدوث الحروب الاهلية التي سميت بـ(ايام العرب) او قيامهم بالتجارة وأسفارهم المختلفة من اجلها ، إلى غير ذلك من العوامل التي ادت إلى الصراع اللغوي الذي آل امره إلى انتصار لهجة قريش حيث صارت هي اللغة العربية الفصحى لغة القرآن ، ولغة العلم في حضارة العرب والاسلام إلى يومنا هذا .
وهناك عاملان مهمان جعلا لهجة قريش تتغلب على اللهجات الاخرى وتمتاز بالحسن والفصاحة وعذوبة الالفاظ وهما :

١ — مركز مكة الديني والتجاري .

٢ — الاسواق والمواسم .

العامل الاول : مركز مكة الديني منذ القديم وفيها (الكعبة) التي يحج اليها العرب كل سنة من مختلف القبائل في الجاهلية كما في الاسلام أدى الى أن تكون ملتقى مختلف القبائل العربية ، واتاح لأهل مكة فرصة اقتباس ما خف على السنتهم واستحسنوه من لهجات تلك القبائل . قال الفراء : — كانت العرب

(١) محاضرات عن مستقبل اللغة العربية المشتركة، ص ٧.
(٢) فقه اللغة، ص ١٠٤ .

تحضر الموسم في كل عام وتحج البيت في الجاهلية ، وقريش يسمعون لغات جميع العرب فما استحسنوه من لغاتهم تكلموا به، فصاروا افصح العرب وخلت لهجتهم من مستبشع اللغات ومستقبح الالفاظ » . (١) كما أن موقعها الجغرافي الذي جعلها «ملتقى القوافل التجارية الضاربة بين بلاد العرب الجنوبية وسورية» (٢) هيأ لها أن تكون « مركزاً تجارياً نشطاً وسع افق نظر أهلها واعانهم على الاطلاع على البلاد المجاورة واحوالها » (٣) ، فصاروا تجاراً ماهرين ، وانصرف الى التجارة اكثر سكان مكة ، حتى قيل « أن تسعة اعشار الرزق في التجارة » (٤). وقد ورد ذكر رحلتي قريش التجارية رحلة الشتاء الى اليمن ورحلة الصيف الى الشام في القرآن الكريم . (٥) فكانت قريش تختار من تلك القبائل القادمة للحج او التي تصادفها في طريقها للتجارة او تتعامل معها افصح الكلمات واعذبها وتهمل من لغتها الكلمات الجافة الخشنة ، فصارت لهجتها افصح لهجة ثم نزل القرآن الكريم بها فسادت لهجتها بقية اللهجات . وقد كشف أحمد بن فارس النقاب عن ذلك فقال : « إن الله جل ثناؤه اختارهم (قريشاً) من جميع العرب واصطفاهم واختار منهم نبي الرحمة محمداً (ص) فجعل قريشاً قطان حرمه وجيران بيته الحرام وولاته ، فكانت وفود العرب من حجاجها وغيرهم يفدون الى مكة للحج ، ويتحاكمون الحرام الى قريش في امورهم ، وكانت قريش تعلمهم مناسكهم وتحكم بينهم . ولم تزل العرب تعرف لقريش فضلها عليهم وتسميها « اهل الله » لانهم الصريح من ولد (اسماعيل) (ع) ...

وكانت قريش مع فصاحتها وحسن لغاتها ورقة السنتها ، اذا اتتهم الوفود

---

(١) الاقتراح ، ص ٨١ ، المزهر ١/١٣٣ .

(٢) تاريخ الشعوب الاسلامية ١/٣٤ .

(٣) محاضرات في تاريخ العرب ، ص ٩٣ .

(٤) المصدر نفسه ، ص ٩٨ .

(٥) انظر سورة رقم ١٠٦ (قريش من القرآن الكريم) .

من العرب تخيروا من كلامهم واشعارهم احسن لغاتهم واصفى لغاتهم فاجتمع ما تخيروا من تلك اللغات الى نحائزهم وسلائقهم التي طبعوا عليها ، فصاروا بذلك افصح العرب » (١)

العامل الثاني : — كانت للعرب في الجاهلية أسواق ومواسم يقيمونها على اشهر السنة وأشهرها سوق «عكاظ» (٢) التي كان موقعها بأعلى نجد قريبا من عرفات ، وكانت من اعظم اسواق العرب « تنزلها قريش وهوازن وطوائف من افناء العرب ، غطفان وأسلم ، والاحابيش (وهم بنو الحارث بن عبد مناة بن كنانة) وعضل ، والديش ، والحيا ، والمصطلق » (٣) وكانت تختلف عن بقية اسواق العرب بأنها سوق عامة يحضرها جميع العرب بخلاف الأسواق الاخرى التي كانت اسواقا محلية . وفي عكاظ — اضافة الى البيع والشراء ومبادلتهم السلع — «كان الخطباء يلقون خطبهم والشعراء يتناشدون الاشعار ويتحاجون ومن له اسيراً سعى في فدائه ، ومن له حكومة ارتفع الى الذي يقوم بأمر الحكومة ، ثم يقفلون بعرفة ويقضون مناسك الحج ويرجعون الى اوطانهم ». (٤) ولا يخفى ما كان لمثل هذا المهرجان الادبي الكبير الذي يقام سنوياً قرب مكة ، حيث تلقى فيه الخطب وتنشد الاشعار ، ولقريش فيه المكانة المرموقة ، من اثر في تهذيب لهجة قريش ، فليس من المعقول الا يؤثر مثل هذا المحفل الادبي الكبير في لهجتها وهي تستعرض من كل سنة بأذان مصغية لهجات العرب وتميز بين هذه وتلك فتقتبس افصح الكلمات واعذبها حرساً واوقعها في النفوس ، وبذلك اصبحت لهجة قريش اللغة الادبية العالية التي نظم فيها شعراء الجاهلية وقصائدهم ، ثم نزل معظم القرآن الكريم بها .

(١) الصاحبي في فقه اللغة، ص ٢٣ .
(٢) انظر ذكر هذه الاسواق في المحبر، ص ٢٦٣-٢٦٨ .
(٣) المحبر، ص ٢٦٧ .
(٤) نهاية الارب في معرفة انساب العرب، ص ٤٣٥ .

مراجع البحث

١ ــ الاقتراح في علم اصول النحو . جلال الدين السيوطي . مطبعة المجتبائي. دلهي ، ١٣١٤هـ .

٢ ــ البيان والتبيين . عمرو بن بحر الجاحظ . نشر المكتبة التجارية ، القاهرة ١٩٣٢م .

٣ ــ تأملات عامة في اللهجات العربية . بحث : ج . فانيتنو . مجلة المجمع العلمي العربي . المجلد الخامس عشر . الجزءان الثالث والرابع . آذار ونيسان ١٩٣٧م .

٤ ــ تاريخ الشعوب الاسلامية . كارل بروكلمان . دار العلم للملايين . بيروت ١٩٦٠م .

٥ ــ تاريخ الأدب العربي . الدكتور ريجيس بلاشير . تعريب ابراهيم الكيلاني . دمشق ١٩٥٦م .

٦ ــ الخصائص . عثمان بن جني . دار الكتب العربية . القاهرة ١٩٥٢م .

٧ ــ دراسات في فقه اللغة . الدكتور صبحي الصالح . الطبعة الخامسة . دار العلم للملايين . بيروت ١٩٧٣م .

٨ ــ شرح قطر الندى وبل الصدى . جمال الدين بن هشام . نشر المكتبة التجارية . القاهرة ١٩٣٦م .

٩ ــ الصاحبي في فقه اللغة . أحمد بن فارس. مطبعة المؤيد . القاهرة١٩١٠م .

١٠ ــ ضحى الاسلام . أحمد امين . مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر . القاهرة ١٩٥٢ .

١١ ــ الفاضل . أبو العباس محمد بن يزيد المبرد . مطبعة دار الكتب المصرية . القاهرة ١٩٥٦م .

١٠ ــ فضائل القرآن . اسماعيل بن كثير القرشي . تصحيح : محمد رشيد رضا . مطبعة المنار ١٣٤٧ هـ .

١٣ ــ فقه اللغة . الدكتور علي عبد الواحد وافي . الطبعة السادسة مطبعة الرسالة . القاهرة ١٩٦٨م .

١٤ ــ في اللهجات العربية . الدكتور ابراهيم انيس . المطبعة الفنية الحديثة . القاهرة ١٩٦٥م .

١٥ ــ الكامل في اللغة والادب . ابو العباس محمد بن يزيد المبرد . مطبعة الاستقامة . القاهرة . بدون تاريخ .

١٦ ــ كتاب سيبويه . ابو بشر عمرو بن عثمان (سيبويه) . المطبعة الاميرية ، بولاق ١٣١٦ هـ .

١٧ ــ الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل . محمود بن عمر الزمخشري . مطبعة المكتبة التجارية الكبرى . مصر ١٣٤٤هـ .

١٨ ــ كيف نشأت العربية . كارلو . نلينو . مجلة الهلال . الجزء الاول ، السنة السادسة والعشرون . اكتوبر سنة ١٩١٧ م .

١٩ ــ لسان العرب ، ابن منظور . الجزء الثالث ، طبعة مصورة عن طبعه مطبعة بولاق .

٢٠ ــ اللغات السامية . تيودور نولدكه . ترجمة الدكتور رمضان عبدالتواب . القاهرة ١٩٦٣م .

٢١ ــ اللغات في القرآن . اسماعيل بن عمرو المقريء المصري . تصحيح : صلاح الدين المنجد . مطبعة الرسالة . القاهرة ١٩٤٦م .

٢٢ ــ مجالس ثعلب . ابو العباس احمد بن يحي ثعلب . دار المعارف بمصر القاهرة ١٩٥٦م .

٢٣ ــ محاضرات في تاريخ العرب الدكتور صالح أحمد العلي . مطبعة الارشاد . بغداد ١٩٦٤م .

٢٤ ــ محاضرات عن مستقبل اللغة العربية المشتركة . الدكتور ابراهيم انيس . مطبعة الرسالة ١٩٦٠م .

٢٥ ـ المحبر . محمد بن حبيب البغدادي . دائرة المعارف العثمانية . حيدر آباد ١٩٣٢ م .

٢٦ ـ مختار الصحاح . محمد بن ابي بكر الرازي . الطبعة الاولى . دار الكتاب العربي ـ بيروت ١٩٦٧م .

٢٧ ـ المذكر والمؤنث . يحيى بن زياد الفراء . المطبعة العلمية . حلب ١٣٤٥هـ .

٢٨ ـ المزهر في علوم اللغة وانواعها . جلال الدين السيوطي . مطبعة محمد علي صبيح واولاده بمصر . بدون تاريخ .

٢٩ ـ معجم مقاييس اللغة . أحمد بن فارس . تحقيق عبد السلام محمد هارون الجزء الرابع الطبعة الرابعة سنة ١٣٩١هـ ـ ١٩٧١م .

٣٠ ـ مقدمة ابن خلدون . عبد الرحمن بن خلدون . مطبعة مصطفى محمد . القاهرة بدون تاريخ .

٣١ ـ المواهب الفتحية . الشيخ حمزة فتح الله . المطبعة الاميرية . بولاق ١٣١٢هـ .

٣٢ ـ نهاية الأرب ، ابو العباس احمد بن علي القلقشندي . مطبعة النجاح . بغداد ١٩٥٨م .

٣٣ ـ النشر في القراءات العشر . ابو الخير محمد بن الجزري . تصحيح علي محمد الضباع . المكتبة التجارية مصر . بدون تاريخ .

٣٤ ـ نكت الانتصار لنقل القرآن . ابو بكر الباقلاني . دراسة وتحقيق الدكتور محمد زغلول سلام . نشر : منشأة المعارف بالاسكندرية ١٩٧١م .

٣٥ ـ الوجيز في فقه اللغة . محمد الانطاكي . المطبعة الحديثة . حلب ١٩٦٩م .

ـ المراجع الاجنبية ـ

1. E. Dhorm, Langues et ecritures Semitiques ٨930 .

2. L.H Gray, Introdnction to Semitic Comparative Linguistics ٨934 .

3. The Encyclopaedia of Islam 2 Vol. 1 Leiden 1960 .

عبدالرزاق قاسم

منهج الدّهلوى
بين المصالح والحكمة الشرعية
في كتاب
«حجّة الله البالغة»



يلاحظ الدارس في كتاب (حجة الله البالغة) لمؤلفه الدهلوي (١) الأُسس المنهجية التي سلكها في مباحثه الاصولية أو الروحية والنفسية باسلوب يعتمد على ايضاح بواعث الأحكام الشرعية المستنبطة من أدلة الكتاب أو السنة . وقد عزز حسن منهجه في بيان هذه الحكمة من الأحكام بما استوحاه من القرآن الكريم اوالسنة المطهرة وهما يؤكد أنها من أجل تحقيق الاقناع وتوضيح دواعي التشريع .

واتسم منهجه بملامح تشير إلى أهمية هذا الكتاب في ابراز الجوانب التي تضمنها في قسميه :الأول :« القواعد الكلية التي تنتظم بها المصالح المرعية في الشرائع ... والثاني: في شرح اسرار الأحاديث النبوية .... » (٢) .

وعند قراءتي للكتاب سعيت إلى أن أتعرف على منهجه في بيان الحكمة في الأحكام ،تلك التي وصفها بالمصالح المرعية وكانت الملامح في منهجه تتلخص بالآتي :

أولاً : تلاحظ الحدة والوضوح في بيان الحكمة أو المصلحة المرعية عنده في الاحكام بشكل مستفيض ومنطقي .

ثانياً : لم يستثن أحكام العبادات في منهجه عند بيان الحكمة بل التمس فيها أيضاً معاني عقلية تساير واقع الحياة ، بتفصيل يناجي الأرواح ويهدف إلى الاقناع .

ثالثاً : صنف الحكمة إلى أنواع من حيث صدورها أو من جانب وضوحها أو خفائها .

رابعاً : عني بمناقشة الآراء لاستخلاص الحكمة ،واثبات المصلحة الموافقة لمطالب الحياة السعيدة .

---

(١) (دهلي) : عاصمة ملوك الهند المسلمين الاولين من عام ٦٠٢هـ. وقد جعلها جورج الخامس مقر حكومة الهند منذ ١٩١١م. وتسمى دلهي ايضاً . (دائرة المعارف – احمد الشنتناوي وابراهيم زكي –وعبد الحميد يونس حـ٧ ص٢٦٠ و ٣٤٣

(٢) حجة الله البالغة حـ١ ص٢١ – ٢٣

خامساً : أفاض القول في بحث الصور الروحية التي يعايشها الانسان ابتغاء تحقيق الاقناع النفسي والاطمئنان إلى معاني الايمان بالبعث بعد الموت (١) .

سادساً : اتخذ من وسيلة البحث الروحي عاملاً دافعاً يحث النفس الانسانية على السلوك الحسن والاخلاص في العمل ،وعلق الجزاء أو الثواب على الأعمال بأن وصفهما بأنهما يكونان حسب نظام لايتحول عن أسبابهما (٢).

سابعاً : ردّ بعض الفقهاء الذين رجحوا القياس على الحديث الصحيح (٣)

تعرف بمؤلف الكتاب :

هو أحمد بن عبد الرحيم بن وجيه الدين الملقب (ولي الله) ولد سنة ١٧٠٤م وتوفي سنة ١٧٦٣م ويتصل نسبه بالامام موسى الكاظم (٤). وقد تلقى عن والده وعن علماء الحرمين فنضجت معارفه واصبح علماً ومرجعاً في علوم التفسير والحديث والاصول .وهو يمثل مدرسة فكرية نهضت بالدعوة إلى الاصلاح لتنقذ مايمكن انقاذه من أحوال الأمة المسلمة في الهند من تسلط النفوذ الانكليزي وهذا الكتاب واحد من أربعة وخمسين كتاباً عايشته عوامل مهمة كانت سبباً سبباً في ظهوره ، تتقدمها الثورة على الاهواء وعلى الاحتلال الانكليزي للهند والملوك الضعفاء ، ويعتبر الدهلوي رأس العلماء بما قام به من مجهود عظيم في تنبيه المسلمين والحكام إلى الخطر المقبل عليهم . . . وقد عارض قرار الانكليز بفصل الملك عن القوة التنفيذية وقولهم « الخلق لله والملك للملك والحكم للشركة » وكان يقول:« إنه لايتصور وجود ملك مسلم بدون نفوذ

---

(١) المصدر نفسه ص٧٥

(٢) المصدر نفسه ص٦٧ — ٦٨

(٣) المصدر نفسه ص١٧ — ١٨

(٤) مقدمة المحقق السيد سابق على حجة الله البالغة ص ل

إلا إذا تصورنا الشمس بدون ضياء ،وان معنى الامام أن يرعى مأموريه ويقيم العدل بينهم » (١) .

مفهوم الحكمة والمصلحة والعلة في اللغة والاصول وغيرهما :

وبالنظر للعلاقة المتواجدة بين هذه المصطلحات في وصف الحكمة بالمصلحة المرعية وارتباط علة الاحكام بهما فقد رأيت من المفيد التقدم بالايضاح والموازنة في مفهومها عنده ولدى سواه من علماء الشريعة الاسلامية ، إذ أنها مصطلحات لها دلالتها في هذا العلم .

فالحكمة في اللغة : معرفة أفضل الأشياء بأفضل العلوم.أو انها العلم والتفقه، أو العدل او الكلام الذي يقل لفظه ويجل معناه (٢). ووردت بلفظها في عشرين آية من القرآن الكريم، وجاءت دلالتها بمعنى العلم والصواب .كما في قوله تعالى: (ربنا وابعث فيهم رسولا منهم يتلو عليهم آياتك ويعلمهم الكتاب والحكمة ويزكيهم انك انت العزيز الحكيم) سورة البقرة (١٢٩) قال ابن جرير الطبري في معناها :«الحكمة السنة أو العلم أو الصواب»(٣)،أو المعرفة والفهم سجية (٤) فيقول الرازي :« واعلم أن الحكمة هي الاصابة في القول والعمل...» (٥) . ويعرفها الطبرسي بقوله :« والحكمة: قيل السنة والمعرفة بالدين والفقه في التأويل والعلم بالاحكام .. وقيل : شيء يجعله الله في القلب ينوره الله به كما ينور البصر فيدرك المبصر ...» (٦).

---

(١) تاريخ الاسلام في الهند : عبد المنعم النمر ص٤١٣ – ٤١٦

(٢) لسان العرب : ابن منظور حـ١٥ ص٣٠

(٣) جامع البيان في تفسير القرآن : ابن جرير الطبري حـ١ص٤٣٦

(٤) الجامع لاحكام القرآن : القرطبي حـ٢ص١٣١

(٥) التفسير الكبير للامام الرازي حـ٤ ص٧٤

(٦) مجمع البيان : الطبرسي حـ١ ص٢١١

وجاءت في الحديث النبوي : « الحكمة تزيد الشريف شرفاً .. » (١) وهي بمعنى العلم والعمل النافع (٢).

وفي مفهوم الفلاسفة بمعنى « فضيلة النفس العاقلة المدركة للصواب من الخطأ.. » (٣) وجاء معناها لدى علماء الاصول : ماقصد اليه الشارع من جلب نفع أو دفع ضرر ،وانه الباعث على تشريع الحكم ،وهو الغاية المقصودة من تشريعه.(٤)

أما المصلحة : فهي في اللغة : المنفعة ودفع الضرر، وما امر الله تعالى به من خير ومعروف .وهي ضد الفساد (٥) وفي اصطلاح الاصوليين :« هي التي لم يشرع الشارع حكماً لتحقيقها ولم يدل دليل شرعي على اعتبارها أو إلغائها»(٦) وبفصل الطوفي فيها فيقول :« هي كون الشيء على هيئة كاملة بحسب مايراد ذلك الشيء له ، كالقلم يكون على هيئته الصالحة للكتابة به،والسيف على هيئته الصالحة للضرب به. واما حدها بحسب الشرع : فهي السبب المؤدي إلى مقصود الشارع عبادة أو عادة » (٧).

ويطلق على هذه المصلحة لدى الاصوليين (المصالح المرسلة) (٨) .

(١) السراج المنير على الجامع الصغير : علي العزيزي ج٢ص٢٣٩

(٢) المصدر نفسه ج١ص٥

(٣) فلسفة الاخلاق في الاسلام : محمد يوسف موسى ص١٥٣-١٥٤

(٤) الاصول العامة للفقه المقارن : محمد تقي الحكيم ص٣١٠ - وعلم اصول الفقه : عبد الوهاب خلاف ص٦٦

(٥) لسان العرب : ابن منظور ج٣ص٣٤٨

(٦) علم اصول الفقه : عبد الوهاب خلاف ص٨٩

(٧) الطوفي : نجم الدين ابو الربيع سليمان بن عبد القوي ينسب إلى طوفي من اعمال صرصر وهي قرية من سواد بغداد توفي سنة ٧١٦ه (عن المصلحة في التشريع الاسلامي : مصطفى زيد ص٦٧ - ٦٨)

(٨) يراد بالارسال ان يوكل امر تقدير المصلحة إلى العقول البشرية دون التقيد باعتبار الشارع او عدم اعتباره لها (انظر : اصول التشريع الاسلامي : علي حسب الله ص١٤٢)

بهذا الوصف الذي يعطيه الاطلاق من قيود الادلة التي تعتبرها أو تلغيها فقد اقتضى أن تخضع لقيود ثلاثة: كونها حقيقية وليست وهمية ، ومصلحة عامة وليست خاصة، وان لا تعارض التشريع فيما جاء به تنصيصاً أو اجماعاً(١).
وبهذه الأوصاف تكون المصلحة مرجعاً للحكم ودليلاً عليه حسبما اقتضته الحاجه الزمنية أو البيئية ، تحقيقاً لمنافع الناس أو دفع الضرر عنهم ،مثل : « اتخاذ السجون أو ضرب النقود أو ابقاء الأرض المزروعة التي فتحها الصحابة في أيدي أهليها ووضع الخراج عليها » (٢) أو تسجيل عقود النكاح حفاظاً على حقوق الزوجين المالية واثباتاً للانساب مخافة الاختلاط ، أو تسجيل العمارات ضماناً لحقوق الناس واموالهم وامثال ذلك .

أما العلة في اللغة : فهي المرض ، أو كل مايصدر عنه أمر آخر بالاستقلال ، أو بوساطة انضمام غيره اليه فهو علة لذلك الأمر . والعلة من كل شيء سببه (٣) وهي في اصطلاح الاصوليين : « وصف اضاف الشارع الحكم اليه ،وأناط به، ونصبه علامة عليه ». (٤)

وصف العلة مرتكز مهم في بناء الأحكام عليه وبخاصة في **العمل بالاصل.** الرابع من اصول الشريعة (وهو القياس) (٥) ، بشرط ان تكون ظاهرة منضبطة

(١ – ٢) علم اصول الفقه : عبد الوهاب خلاف ص٨٩ – ٩٢

(٣) لسان العرب : ابن منظور حـ١٣ص٤٩٨ ، والمعجم الوسيط حـ٢ص٦٣٠

(٤) علم اصول الفقه : عبد الوهاب خلاف ص٧٣ ، واصول التشريع الاسلامي : علي حسب الله ص١٢١

(٥) (القياس) مشاركة مسكوت عنه المنصوص على حكمه الشرعي في علة هذا الحكم والحاقه به . ومثاله : قتل الموصى له للموصي توجد فيه علة استعجال الشيء قبل اوانه ، فتقاس على قتل الوارث مورثه ، ويمنع القاتل (الموصى له) من استحقاق الموصى به ؛ حيث ان القضية المقيس عليها جاء حكمها في النص من قوله صلى الله عليه وسلم « لا يرث القاتل » للعلة المذكورة آنفاً .
(انظر علم اصول الفقه : عبد الوهاب خلاف ص٥٤ واصول التشريع الاسلامي : =

ومناسبة لحكمة الحكم (١).

وهذه العلة في الأحكام الشرعية لها صلة ذهنية بالمصالح الضرورية كالحفاظ على الأرواح والأموال التي تتوقف عليها الحياة، أو المصالح في الحاجات التي تدفع عن الناس الحرج والضيق ، كتيسير العمل بالاجارة والمضاربة أو قصر الصلاة والفطر في رمضان للمسافر ،أو أن تكون هذه المصالح من محاسن العادات ومما تقتضيه المروءات كستر العورة واستحسان لبس الجديد واستقبال الضيف والتودد إلى الناس . ولوجود التقارب بين علل الأحكام وحكمتها فقد رأى علماء الاصول إناطة الحكم الشرعي بعلته دون حكمته في معرض العمل بالقياس لأن الاولى ظاهرة منضبطة والثانية قد تكون عرضة للتطور واختلاف الامزجة والأذواق (٢).

مفهوم المصلحة عند الدهلوي :

وبعد هذا العرض الموجز للمصطلحات الثلاثة أعرض المقصود الذي أراده الدهلوي في كتابه لقاعدة المصلحة التي أطلق عليها وصف (المرعية)، وهو بمعنى الوصف المقصود للشارع ، وهذا النوع الذي اراده منها هو الأخص دون الأعم ،والذي اراد به الحكمة الباعثة على تشريع الحكم ، ووصفها بالمعنى المناسب بين الأعمال والجزاء عليها فقال :« وقد يُظَنّ أن الأحكام الشرعية غير متضمنة لشيء من المصالح وانه ليس بين الأعما وبين ما جعل الله جزاء

= علي حسب الله ص١٠٨) ، ومثلها الاجارة او الرهن وقت النداء لصلاة الجمعة فهو مشمولة بالنهي قياساً على البيع وقت النداء لعلة المشاركة في الشغل عن الصلاة. وهو عند الغزالي: حمل معلوم على معلوم في اثبات حكم لهما او نفيه عنهما بامر جامع بينهما من اثبات حكم او صفة او نفيهما (المستصفى : ابو حامد الغزالي ج٢ ص٥٤)

(١) علم اصول الفقه : عبد الوهاب خلاف ص٧١ – ٧٢

(٢) الموافقات في اصول الشريعة : ابو اسحق الشاطبي (ت٧٩٠) ج٢ص١٦ ، ومحاضرات في اصول الفقه على مذاهب اهل السنة والامامية : بدر المتولي عبد الباسط ج٢ص١٢٣ – ١٢٩

لها مناسبة .... فانه « لم يمسه من العلم إلا كما يمس الابرة من الماء حين تغمس في البحر ......» (١)

وقراره هذا شامل للاحكام جميعها سواء في العبادات او المعاملات او الجنايات او الاحوال الشخصية وما إليها . لذلك وجدناه يرسم منهجه في ايضاحها ويعتبرها محوراً ثابتاً وركيزة أساسية من الدين . فهو يقول عنها: «هذا وإن أدق الفنون الحديثية بأسرها عندي وأعمقها محتداً وارفعها مناراً واولى العلوم الشرعية عن آخرها فيما أرى واعلاها منزلة وأعظمها مقداراً هو علم أسرار الدين الباحث عن حكم الاحكام وأسرار خصائص الاعمال .... فهو والله أحق العلوم بأن يصرف فيه من أطاقة نفائس الاوقات ويتخذه عدةً لمعاده بعد ما فرض عليه من الطاعات، إذ به يصير الانسان على بصيرة فيما جاء به الشرع ، وتكون نسبته بتلك الأخبار كنسبة صاحب العروض بدواوين الاشعار ، او صاحب المنطق ببراهين الحكماء او صاحب النحو بكلام العرب العرباء او صاحب اصول الفقه بتفاريع الفقهاء ......» .(٢)

فتبدو من هذا النص نظرة الدهلوي في اتخاذ حكمة الشريعة وأسرارها لتبصير المسلمين بحقيقة الشريعة ومقاصدها وغاياتها، وهذه النظرة تلقي ضوءاً على مجمل منهجه وكأنها مفتاح ذلك المنهج والباعث عليه، لذلك فانه لا يدع مجالاً للاعتقاد بأن الاحكام الشرعية غير متضمنة لشيء من المصالح، وهي الموصوفة عنده بالمناسبة . وعلى هذا رأى رأيه بعض الاصوليين المتأخرين إذ يقول : « والمصلحة من الحكمة التي ادعى الاصوليون عدم التعليل بها في الشريعة» .(٣)

وعليه فالمصحلة التي جعلها محور أبواب كتابه أراد بها المعنى المحقق للحكمة عموماً ، بل رأى فيها معنى الشمول والاستغراق اللذين تتضمنهما كلمة الحكمة،

(١)-حجة الله البالغة ﺣ١ص٩ – ١١ (ه) الضمير في كلمة (فانه) يقصد به الشخص الظان المتصور عدم وجود المناسبة بين الاعمال والجزاء عليها .

(٢) حجةالله البالغة ﺣ١ص٤ .

(٣) اصول الفقه الاسلامي : زكي الدين شعبان ص١٣٧ .

فهي الأعم بمقصودها المحتوي على كل أنواع المصالح بما فيها تحقيق كل مقاصد الشارع في المنافع ودفع الأضرار .

أما المصالح المرسلة التي اعتمدها الاصوليون دليلاً من الأدلة الشرعية المساعدة(١) فهي غير هذه المصلحة المرعية عنده التي ترادف في مصطلحه الحكمةالشرعية في الأحكام .

وحسب هذا التقرير فقد دلل على حسن منهجه بأن النبي صلى الله عليه وسلم قد عني بهذا المنهج في سنته من ابراز جانب الحكمة ، وسماها أسراراً مرة وأسباباً مرة أخرى ، وهي التي يتقرر الحكم لأجلها فقال : « ثم إن النبي صلى الله عليه وسلم بين أسرار تعيين الأوقات في بعض المواضع كما قال : في أربع قبل الظهر : « إنها ساعة تفتح فيها أبواب السماء فأحب أن يصعد لي فيها عمل صالح ».... وبين أسباب بعض الأحكام فقال في المستيقظ من النوم — الذي يحثه على غسل يديه . « فإنه لايدري أين باتت يده» .. وبين أن الحكمة في الأحكام دفع مفسدة ، كالنهي عن الغيلة (٢) ، فقال : « إنما هو مخافة ضرر الولد » (٣) والقرآن سابق في مثل هذا المنهج في بيان الحكمة ترغيباً وتعليماً.

ثم إن الدهلوي يسترسل محفزاً أهل العلم والنظر في استجلاء معاني الحكمة من الاحكام فيقول : « كيف ولاتتبين اسراره الا لمن تمكن في العلوم الشرعية بأسرها واستبد — صار ماهراً فيها وخبيراً — في الفنون الالهية عن آخرها ، ولا يصفو مشربه الا لمن شرح الله صدره لعلم لدني وملأ قلبه بسر وهبي وكان مع ذلك وقاد الطبيعة سيال القريحة حاذقاً في التقرير والتحرير ....» .(٤)

---

(١) (الادلة الشرعية المساعدة): هي الاستحسان ، المصالح المرسلة ، العرف ، الاستصحاب ، شرع من قبلنا ، مذهب الصحابي(محاضرات في اصول الفقه بدر المتولي ح٢ص١٤٨)

(٢) الغيلة : ان ترضع المرأة ولدها على حبل . واسم ذلك اللبن الغيل واذا شربه الولد ضوى واعتل عنه (لسان العرب : ابن منظور ح١٤ ص٢٤)

(٣) حجة الله البالغة ح١ص١١

(٤) المصدر نفسه ص٥

فمن هذا النص تتضح صفات المتمكن من فهم اسرار الحكمة وتجليتها والكشف عنها في نظره .

وبعد هذا التوجيه لمعنى الكلمتين (المصلحة والحكمة) واهميتهما عنده ذكر أنواع الحكمة من حيث وجودها في الاحكام ، ابتداء من الشارع أو جواباً على تساؤل ، ومن حيث وضوحها في الاحكام أو خفاؤها فيها ، ومن ضمنها العبادات التي لم ير فيها الاصوليون خضوعاً لقاعدة المصالح المرسلة ، لان المصلحة عنده هي الحكمة ، فصار يستنتج من الاحكام حكمتها ولو أنه اطلق عليها اسم المصلحة .

الحكمة من حيث صدورها :

قد تكون الحكمة صادرة من المشرع تعليماً وتوجيهاً ، وقد تكون جواباً من المشرع عن مراجعة الصحابة في المسائل المشتبهة ، لتكشف شبهتهم وترد أمرهم الى الاصل المطلوب في الحكم ، فمثال الاولى قوله تعالى : (أقم الصلاة لذكري) سورة طه (١٤) وقد أوضحها بقوله « ان الصلاة شرعت لذكر الله ومناجاته ، ولتكون معدة لرؤية الله تعالى ومشاهدته في الآخرة كما قال رسول اللهصلى الله عليه وسلم: «سترون ربكم كما ترون هذا القمر لاتضامون(١) في رؤيته ، فان استطعتم الا تغلبوا على صلاة قبل طلوع الشمس وصلاة قبل غروبها فافعلوا . » (٢)

وذكر الرازي وجوها من هذه الحكمة فقال : «لتذكرني فيها لاشتمال الصلاة على الاذكار .... » (٣) وبين الدهلوي الحكمة في الاقتصاص من القاتل في ضوء قوله تعالى : (ولكم في القصاص حياة يااولي الالباب) سورة البقرة (١٧٩)

---

(١) ذكر ابن منظور الحديث وقال في معنى تضامون : تزدحمون وقت النظر اليه فيراه بعضكم دون بعض (لسان العرب : ابن منظور حـ١٥ ص٢٥٠)

(٢) حجة الله البالغة حـ١ص٩

(٣) التفسير الكبير الفخر الرازي حـ٢٢ص١٩

لحكمة القصاص زجر القاتل عن القتل (١) وتحقيق الحياة المحترمة الآمنة بين الناس .

ومثال الحكمة الواردة جواباً عن سؤال ماجاء في قوله صلى الله عليه وسلم « في بضع احدكم صدقة ، قالوا يارسول الله : أيأتي احدنا شهوته ويكون له فيها أجر ؟ قال : أرايتم لو وضعها في حرام لكان عليه فيه وزر ؟ فكذلك اذا وضعها في حلال كان له أجر » . (٢) فقد ذكر الحديث الحكمة في هذا الحكم رعاية منه لمعاني المودة وتوجها الى العفة والطهر .

ومن ذلك قوله صلى الله عليه وسلم :« اذا التقى المسلمان بسيفيهما فالقاتل والمقتول في النار ، قالوا : هذا القاتل فما بال المقتول : انه كان حريصاً على قتل صاحبه ». فقد جاءت الحكمة فيه للتحذير والتنفير من اقتتال المسلمين وبيان حرمته ، وان العاقبة وخيمة لكل من تحدثه أحقاده او خصومته على مقاتلة أخيه المسلم . (٣)

اما الحكمة من حيث الوضوح والخفاء: فانها في الاولى لم تذكر الا لأهميتها وتأكيدها ، ويمثل لها بكثير من النصوص كقوله تعالى:«لن ينال الله لحومها ولادماؤها ولكن يناله التقوى منكم » سورة الحج (٣٧) . وتقوى الله هي الوقوف عند امره يفسرها قوله صلى الله عليه وسلم : « رأس الحكمة مخافة الله » . (٤) اي : « اصلها الخوف منه لانها تمنع النفس عن المنهيات والشبهات ولا يحمل على العمل بالحكمة لاالخوف منه،واوثقها، العمل بالطاعة بحيث يكون خوفه اكثر من رجائه . قال الغزالي : وقد جمع الله للخائفين الهدى والرحمة والعلم والرضوان وناهيك بذلك فقال تعالى « هدى ورحمة للذين

---

(١) حجة الله البالغة ﺣ١ص١٠

(٢ - ٣) المصدر نفسه ص١٢

(٤) حديث حسن لغيره رواه البيهقي ، شرح الجامع الصغير : علي العزيزي ﺣ٢ ص٣٠٣.

هم لربهم يرهبون » سورة الاعراف (٧) . وقال : « انما يخشى الله من عباده العلماء » سورة فاطر (١٨) (١) .

وقد تكون الحكمة خافية ولكنه يرى فيها انها حين لم تذكر فان الغموض فيها يكون على فريق من الناس من غير أهل العلم به ، ويسمى الاحكام المشار اليها بالحدود التي قررها صاحب الشريعة فيقول : « وكذلك سائر الحدود التي حدها الشارع واوجبت (السنة) ايضاً انه لايحل ان يتوقف في امتثال احكام الشرع اذا صحت بها الرواية على معرفة المصالح لعدم استقلال عقول كثير من الناس في معرفة كثير من المصالح،ولكون النبي صلى الله عليه وسلم او ثق عندنا من عقولنا » . (٢)

ثم انه يسترسل في هذا التقرير ويصف ادراك الحكمة والمصلحة في مثل هذه الحدود بأنها تشف عن حكمتها لمن عرف هذا العلم وتمكن فيه فيقول : « ولذلك لم يزل هذا العلم مضنوناً به على غير أهله ، ويشترط له مايشترط في تفسير كتاب الله ويحرم الخوض به بالرأي الخالص غير المستند الى السنن والاثار » (٣) .

وهذه مسألة هامة عنده فيما يتعلق بشروط ادراك الحكمة ، وهو فيها يتفق مع علماء التفسير في تقرير هذه الشروط من وجوب الاستعداد العلمي في اللغة العربية والسنة النبوية . ومنهم ابن تيمية اذ يقول : « فأما من تكلم بما يعلم من ذلك (التفسير) لغة وشرعاً فلا حرج عليه .....» (٤) .

كما ويلاحظ في منهجه انه اكد وجود الحكمة حتى في الاحكام التي لم ينص عليها ، فانه لم يتوقف فيها ، بل التمس لها الحكمة والمصلحة وجعلها في مرتبة ثانية من الخفاء بعد مسائل علم التوحيد والصفات مع أنه اعمق مدركاً

---

(١) شرح الجامع الصغير : علي العزيزي ج٢ ص٣٠٣
(٢) حجة الله البالغة ج١ص١٣
(٣) حجة الله البالغة ج١ص١٣
(٤) مقدمة في اصول التفسير : ابن تيمية ص ٥٥

وابعد احاطة وقد يسره الله لمن شاء ... (١) ،واستشهد بما نقل عن فقهاء الصحابة عمر وعلي وزيد بن ثابت وابن عباس وعائشة وغيرهم من أنهم بحثوا عما يحتاجون اليه من البراهين والحجج لإحقاق الحق ودحض اهل الفتنة وابراز وجوه مشرقة من فضائل التشريع ؛ « وما اختلاف ائمة المسلمين وفقهائهم في علل الاحكام مما أدى بهم الى البحث عن العلل والاسباب من جهة افضائها الى المصالح المعتبرة في الشرع واستمساكهم بالمعقول من المباحث الدينية الا وجهاً من وجوه الانتهاض لمؤازرة الدين وسعياً جميلا في جمع شمل المسلمين ومعدوداً من أعظم القربات .... » (٢) .

ولعل مما يكشف هذا الخفاء عن الحكمة ان أتوسل اليها ببعض الامثلة الموضحة لهذا الاستنتاج الذي سلكه الاصوليون ومنهم الدهلوي ، فهو يذكر في باب الابداع والخلق والتدبير ان ارادة الله شاءت « الا تنفك الخواص – أي صفات المخلوقات التي ابدعها – عما جعلت خواص لها ، وان تكون مشخصات الافراد خصوصاً في تلك الخواص ، وتعيناً لبعض محتملاتها ، فكذلك مميزات الانواع خصوصاً في خواص أجناسها ، وان تكون معاني هذه الاسامي المترتبة في العموم والخصوص كالجسم والنامي والحيوان والانسان... وقد بين النبي صلى الله عليه وسلم خواص كثير من الاشياء واضاف الاثار اليها كقوله : «الشُّبرمُ (٣) حار جار » (٤) .

---

(١) حجة الله البالغة جـ١ص١٤

(٢) المصدر نفسه ص١٦

(٣) (الشبرم حار جار) الشبرم : بضم الشين والراء حب يشبه الحمص يطبخ ويشرب ماؤه للتداوي (لسان العرب : ابن منظور جـ١٥ ص٢١٠ وذكر الحديث أيضاً . وحار جار من الحرارة وواتبعت كلمة (جار) (حار) للاتباع اللفظي مثل قول القائل حسن . (هامش حجة الله البالغة : السيد سابق جـ١ص٢٥

(٤) حجة الله البالغة جـ١ص٢٥).

ومثال الحكمة الخافية في بعض نصوص الاحكام الشرعية – كما يبدو لي – ماجاء في الحديث المشهور من قوله صلى الله عليه وسلم : « اذا ولغ الكلب في اناء احدكم فليغسله سبعاً احداهن أواولاهن او اخراهن بالتراب » . (١) فعلة غسل الاناء ولوغ الكلب فيه ، وحكمته خافية في نظر كثير من الناس ، ولكن هذه الحكمة قد تظهر حينا بعد حين واتضحت في هذا الحديث بفضل تقدم العلم الطبي في هذا العصر . اذا أكدت المصادر الطبية المعاصرة المعتمدة على التحليلات المختبرية ان في لعاب الكلب طفيليات تنتقل إلى الآنية عند ولوغه فيها ، وتسبب هذه الجراثيم المتنوعة عشرات الامراض منها حمى كيو ومرض الربو والاكياس المائية (هيداتيد) والتوكسوبلازما وغيرها . (٢) ويقول الشيخ محمود شلتوت :

« وان المقصود من التراب في الحديث في استعماله مادة مع الماء من شأنها تقوية الماء في ازالة ذلك الأثر ، وانما ذكر التراب في الحديث لأنه الميسور لعامة الناس ، ولأنه كان هو المعروف في ذلك الوقت مادة قوية في التطهير واقتلاع ماعساه يتركه لعاب الكلب في الاناء من جراثيم » . (٣)

دعوة الدهلوي الى تدوين الحكمة :

يرى الدهلوي أن في ايضاح الحكمة ونشرها من أحكامها فوائد عدة، فهو يدعو إلى تصنيفها وتدوينها لتحقيق هذه الاغراض التي دعا اليها ومنها:
أولا : ايضاح وجوه الاعجاز في معجزات الرسول صلى الله عليه وسلم واعتبر أعلى مراتب الاعجاز القرآن الكريم الذي حين خفي على الناس إعجازه أوضحه العلماء الاولون ليدركه الناس ويؤمنوا بأنه أكمل مصادر الشرائع

---

(١) نيل الاوطار للشوكاني ح١ ص٣٧ – ٣٨ ورواه عن الائمة مسلم وابي داود وابن ماجه والنسائي واحمد .

(٢) نشرة وزارة الصحة في الجمهورية العراقية – مديرية الطب الوقائي العامة المصول واللقاح – ومعهد باستور – ابو غريب – بغداد سنة ١٩٧٦ ص٢ – ٣ .

(٣) الفتاوى : محمود شلتوت ص٨٧

المتضمنة لمصالح البشرية كلها . ولعل هذا مما دعاه إلى ترجمة القرآن الكريم إلى الفارسية لتبيان إعجازه واحكامه إلى امته الهندية التي كانت لغتها الفارسية في عصره . (١)

ثانيا : انه يرى في تدوينها تحقيق فائدة الاطمئنان في ايمان الناس ، كما قال تعالى على لسان ابراهيم عليه السلام (بلى ولكن ليطمئن قلبي) سورة البقرة (٢٦٠) .

ثالثاً : إن طالب الاحسان اذا اجتهد في الطاعات ـ وهو يعرف حكمتها ـ نفعه قليلها ولم يخبط خبط عشواء .

رابعاً : انه يستنتج من اختلاف الفقهاء في علل الاحكام المناسبة ضرورة ابراز جانب الحكمة المحققة للمصلحة التي تجمع الجميع ولو اختلفوا في تفريعاتهم الفقهية.

خامساً : إن ظهور المبتدعين المشككين في كثير من المسائل الشرعية والزعم بانها مخالفة للعقل يدعو إلى تدوين هذه المصالح من الحكمة وتأسيس القواعد لها.

سادساً : الرد على بعض الفقهاء الذين غلبوا القياس على الحديث الصحيح كحديث المصراة (٢) الذي رواه الامام مسلم : ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « من اشترى شاة مصراة فهو بالخيار ثلاثة ايام ، فان ردها رد معها صاعا من طعام لاسمراء » (٣) .

قال الشوكاني : خالف الحديث القياس عند الفقهاء حيث جعل الخيار في الرد ثلاثاً مع ان خيار العيب ـ اي في المبيعات ـ لايقدر بالثلاث .... واجيب بان حكم المصراة انفرد بأصله عن مماثلة ، فلا يستغرب ان

(١) تاريخ الاسلام في الهند : عبد المنعم النمر ص٤١٤

(٢) المصراة : من الابل والغنم والبقر التي حبس لبنها في ضرعها اتباع فيغرر به المشتري وفيها حديث الامام مسلم (شرح صحيح الامام مسلم للنووي حـ٥ص٦)

(٣) شرح صحيح الامام مسلم حـ٥ص٦ : النووي : وقال : الطعام التمر ، والسمراء : الحنطة . اى لا يتعين عليه دفع الحنطة بل يتعين طعام غالب اهل البلد .

ينفرد بوصف يخالف غيره ، وذلك لأن هذه المدة هي التي يتبين بها لبن الغرر بخلاف خيار الرؤية والعيب والمجلس فلا يحتاج إلى مدة » (١)

وصف القسم الاول من كتابه :

نظم الدهلوي القسم الاول من كتابه إلى سبعه مباحث تناول فيها مواضيع متعددة عن خلق الانسان والقوى التي تمتزج في نفسه من حيث دوافع الخير والشر وسر التكليف له ومستقبله في اليوم الآخر وما اليها .

وفي هذه الابواب المستفيضة تتابعت نظراته البصيرة في بيان الحكمة او المصالح المرعية التي ارادها الشارع لعباده لتحقيق سعادتهم الدنيوية والأخروية . والمتأمل في المبحث الاول — مثلا — يرى حديثه عن اسباب التكليف والمجازاة للانسان ، وقد توسع في أبوابه بشكل منطقي مستدلا بنصوص من القرآن أوالسنة ، كما جاء في الباب الاول الذي اسلتزم ترتيب النتائج إلى مقدماتها فيقول : « اعلم ان لله تعالى بالنسبة لايجاد العالم ثلاث صفات مترتبة :

الاولى: الابداع:(٢)وهو ايجاد شيء لامن شيء فيخرج الشيء من كتم العدم بغير مادة ، واستشهد لهذا بقول الرسول صلى الله عليه وسلم: «كان الله ولم يكن شيء قبله ».

الثانية: الخلق وهو ايجاد الشيء من شيء كما خلق آدم من التراب«إن مثل عيسى عند الله كمثل آدم خلقه من تراب » آل عمران (٥٩) ووصف هذه الاشياء بأنها ذات اجناس وانواع ولكل منهما خواص ، وانها لاتنفك عما جعلت لها من الخصوصية ، فكما انه تعالى خلق الانسان من تراب خلق الجان من النار « وخلق الجان من مارج من نار » الرحمن (١٥).

---

(١) نيل الاوطار : الشوكاني جـ٥ص٢١٤ — ٢١٨

(٢) الابداع : وصفه شارح العقيدة الطحاوية بالخلق فقال : خلق : اي اوجد وأنشأ وابدع واستشهد بقوله تعالى « وقد خلقتك من قبل ولم تك شيئاً » مريم (٩)
(شرح العقيدة الطحاوية : احمد الطحاوى ص٨١ —٨٥)

الثالثة:التدبير : وهو تصريف شؤون المخلوقات ، وفيه اشارة إلى موقع الحكمة التي تساير موافقة حوادثها للنظام الذي ترتضيه حكمته التي تفضي إلى المصلحة التي اقتضاها جوده كما أنزل من السحاب مطراً واخرج به نبات الارض ليأكل منه الناس والانعام » (١) . وقد نبه الدهلوي إلى حكمة اخرى قد تكون في ظاهرها لاتواكب نظام الخصوصيات لأجناسها وأنواعها وسمى هذه الحكمة بحسب آثارها بما يتحقق بها من المصالح بعد أن جعل لكل سبب اثراً ولكل مقدمة نتيجة ولكل موجود خصوصية فقال : «والشيء اذا اعتبر بسببه المقتضي لوجوده كان حسنا لامحالة، كالقطع حسن من حيث انه يقتضيه جوهر الحديد ثم يستدرك لهذه الخاصة إن كانت ذات اثر يلحق ضررا – فيرى فيها ظاهرة جديدة –. وان كانت حكمة الله تبدو وفي تدبير هذه الخصوصية بتحويلها من طبيعتها إلى ما يخالفها لتتحقق المصلحة بها باعتبار الآثار غير المحمودة او عدم حدوث شيء آثاره مطلوبة واذا تهيأت الاسباب بفضل خصوصية الشيء حسب نظامه المناسب في خلقه – اقتضت رحمة الله بعباده ولطفه بهم وعموم قدرته على الكل وشمول علمه بالكل ان يتصرف في تلك القوى والامور الحاملة لها بالقبض والبسط والاحالة والالهام حتى تفضي تلك الجملة إلى الامر المطلوب » (٢) . وقد صور هذه الحكم الالهية – التي وصفها بالسمات الاربعة السابقة بأمثلة فقال : « اما القبض فمثاله ماورد في الحديث ان الدجال يريد ان يقتل العبد المؤمن فلا يقدره الله تعالى عليه مع صحة داعية القتل وسلامة

---

(١) حجة الله البالغة ح١ص٢٤ – ٢٥

(٢) المصدر نفسه ص٢٦

ادواته (١) . واما البسط فمثالة ان الله أقدر بعض المخلصين (٢) من عباده في الجهاد على مالايتصوره العقل من مثل تلك الابدان ولا من أضعافها . واما الاحالة فمثالها جعل النار هواء طيباً (٣) لابراهيم عليه السلام واما الالهام فمثاله قصة خرق السفينة واقامة الجدار وقتل الغلام (٤) ،وانزال الكتب والشرائع على الأنبياء عليهم السلام .. » (٥)

وقد لاحظت أن الكتاب يسترسل في سرد وبيان أنواع الحكمة الشرعية في مواضيع تناولت حياة الانسان عموماً منذ نشأته وتعامله مع الناس في شتى سلوكه وتصرفاته باسلوب منطقي واستنتاجات عقلية، كما لاحظت أن مؤلفه الدهلوي يستعين كثيراً بالمسائل الكلامية الاعتقادية تحليلاً وتدليلاً على وجهة نظره في تجليه الحكمة وايضاحها كما بيّن ذلك في الأمثلة السابقة.

ومن نماذج بحوثه في العلاقات الانسانية المتعاطفة ماصوره من الحكمة في الروابط الاجتماعية والأحوال الشخصية مابين الزوج وزوجته واولاده وحسن الصحبة ،فذكر منها عشرات المصالح والحكم، ومنها ماجاء في باب تدبير المنزل فقال :« واوجبت مزاحمات الرجال على النساء وغيرتهم عليهن الا يصلح

(١) ذكر الامام مسلم في صحيحه حديثا طويلا فيه الاشارة التي قالها الدهلوي (شرح صحيح مسلم : النووي جـ٨ص١٩٩ – ٢٠٠).

(٢) جاء في سيرة ابن هشام في وصف غزوة خيبر ان الرسول صلى الله عليه وسلم اعطى الراية لعلي رضي الله عنه ، وحين اتجه إلى احد حصونها خرج اليه اهله فقاتلهم ، فضربه رجل من اليهود فسقط ترسه من يده فتناول علي عليه السلام – بابا كان عند الحصن فترس به عن نفسه فلم يزل في يده وهو يقاتل حتى فتح الله عليه ثم القاه من يده حين فرغ ،و يقول راوية الخبر – رافع – فلقد رأيتني في نفر سبعة معي أنا ثامنهم نجهد على ان نقلب ذلك الباب فما نقلبه . (عن سيرة ابن هشام في هامش الروض الآنف : عبد الرحمن السهيلي (ت٥٨١) جـ٢ص٢٣٩).

(٣) (هواء طيبة) هكذا وردت في الاصل والاصح هواء طيباً)

(٤) اشارت الآيات الكريمة من سورة الكهف من ٧٦-٨٢ للاحداث الثلاثة المذكورة .

(٥) حجة الله البالغة جـ١، ص ٢٥-٢٦ .

أمرهم إلا بتصحيح اختصاص الرجل بزوجته على رؤوس الأشهاد ، واوجبت رغبة الرجل في المرأة وكرامتها على وليها وذبّة عنها أن يكون مهر وخطبة وتصد من الولي ،وكان لو فتحت (١) رغبة الأولياء في المحارم لأفضى ذلك إلى ضرر عظيم عليها من عضلها٥عمن ترغب فيه ، وألا يكون لها من يطالب عنها بحقوق الزوجية مع شدة احتياجها إلى ذلك ...» (٢).

وقد أشار ابن قدامة إلى بعض هذه الحكم والمصالح في تفسيره لآيات المحرمات(٣) ولكنه لم يفصل فيها الا بما اشارت اليه النصوص من الأحكام التفريعية الفقهية إذ يقول: « ولا يكره للولي الرجوع عن الاجابة إذا رأى المصلحة لها في ذلك لأن الحق لها وهو نائب عنها في النظر لها، فلا يكره له الرجوع الذي رأى المصلحة فيه .... » (٤)

والمتأمل في الحكم التي سردها الدهلوي عن العلاقات الشخصية تتضح له نظراته في إبراز الجانب الاجتماعي في صورته المتماسكة الرصينة التي توفر السعادة للانسان وتحفظ القيم الكريمة .

(١) (وفتح) هكذا وردت في الاصل والاصح لوفتحت)

(٥) (العضل) هو المنع من الزواج . ومنه قوله تعالى « ولا تعضلوهن ان ينكحن ازواجهن» سورة البقرة (٢٣٢) وذكر الامام محمد عبده بعض هذه الحكم في تفسيره لآية المحرمات فقال: « بين لنا سبحانه انواع المحرمات في النكاح ثابتة تنافي ما في النكاح من الحكمة في صلة البشر بعضهم ببعض او لعلة عارضة كذلك (تفسير المنار ج ٤، ص ٢٦٦) .

(٢) حجة الله البالغة ج ١، ص ٨٧

(٣) المحرمات من النساء على الرجال جاء ذكرهن بقولة تعالى:(حرمت عليكم امهاتكم وبناتكم واخواتكم وعماتكم وخالاتكم وبنات الاخ وبنات الاخت، وامهاتكم اللاتي ارضعنكم واخواتكم من الرضاعة وامهات نسائكم وربائبكم اللاتي في حجوركم من نسائكم اللاتي دخلتم بهن، فان لم تكونوا دخلتم بهن فلا جناح عليكم، وحلائل أبنائكم الذين من أصلابكم، وان تجمعوا بين الاختين إلا ما قد سلف إن الله كان غفورا رحيما) سورة النساء (٢٣) .

(٤) المغني: ابن قدامة ج ٧، ص ٦٩

اما المعاملات والروابط الانسانية العامة فانه يتحدث عن جانب منها ويظهر مواطن الحكمة من احكامها فيقول في باب فن المعاملات عارضاً لبعض الظواهر الاقتصادية والمالية :

« الحكمة الباحثة عن كيفية إقامة المبادلات والمعاونات والاكساب ... الاصل في ذلك انه لما ازدحمت الحاجات وطلب الاتقان فيها ، وان تكون على وجه تقر به الاعين وتلذ به الانفس ، تعذر اقامتها من كل واحد ، وكان بعضهم قد وجد طعاماً فاضلا عن حاجته ولم يجد ماء ، وبعضهم وجد ماء فاضلا ولم يجد طعاماً ، فرغب كل واحد فيما عند الاخر ، فلم يجدوا سبيلا الا المبادلة ، فوقعت تلك المبادلة بموقع من حاجتهم فاصطلحوا بالضرورة على أن يقبل كل واحد على اقامة حاجة واحدة واتقانها والسعي في جميع ادواتها وجعلها ذريعة الى سائر الحوائج بواسطة المبادلات ، وصارت تلك سنة مسلمة عندهم ، ولما كان كثير من الناس يرغب في شيء وعن شيء فلا يجد من يعامله في تلك الحالة ؛ اضطروا الى تقدمة وتهيئة ، واندفعوا الى الاصطلاح على جواهر معدنية تبقى زماناً طويلا لان تكون المعاملة بها أمراً مسلماً عندهم ، وكان الاليق من بينها الذهب والفضة لصغر حجمهما وتماثل افرادهما وعظم نفعهما في بدن الانسان ، ولتأتي التجمل بهما ، فكانا نقدين بالطبع ، وكان غيرهما نقداً بالاصطلاح . » (١)

وقد عني الفقهاء المتقدمون ايضاً بهذا المنهج في تعليل الاحكام واشاروا الى مثل هذه الحكم العقلية في بيان المصالح التي تضمنتها الاحكام الاسلامية وان كان ذلك بتوسط او ايجاز —ومنهم ابن قدامة الذي يقول عن الموضوع نفسه :« واجمع المسلمون على جواز البيع في الجملة ، والحكمة تقتضيه ؛ لأ ن حاجة الانسان تتعلق بما في يد صاحبه ، وصاحبه لايبذله بغير عوض . ففي شرع البيع وتجويزه شرع طريق الى وصول كل واحد منهما الى غرضه

(١) حجة الله البالغة ج ١ ، ص ٩٠

ودفع حاجته ».(١) فيلاحظ من الموازنة بين النصين التقارب والتأثر لدى الدهلوي بالاقدمين من العلماء في كثير من الحكم الشرعية والتي وصفها بأنها معتبرة عند الشارع ورأى حسبما اقتضاه عصره ان يفيض القول فيها ويفصل في تأصيلها اكثر من سواه وبخاصة ان كتابه مصنف فيها .

وتلاحظ في موضوع سياسة المدنية والحديث عن التجارة والزراعة واهل الصناعة نظرات من الحكمة عنده في انعاش الحياة الاقتصادية والحضارية او غيرهما فيقول :

« ومنه حمل التجار على الميرة بتأنيسهم وتأليفهم وتوصية اهل البلد ان يحسنوا المعاملةمع الغرباء، فان ذلك ينتج باب كثرة ورودهم، وحمل الزراع على الا يتركوا ارضاً مهملة والصناع أن يحسنوا الصناعات ويتقنوها، واهل البلد على اكتساب الفضائل كالخط والحساب والتاريخ والطب والوجوه الصحيحة من تقدمة المعرفة ومنه معرفة أخبار البلد ليتميز الداعر (المفسد) من الناصح ؛ وليعلم المحتاج فيعان وصاحب صنعه مرغوبة فيستعان به » . (٢)

فتظهر من هذا النص ملامح صريحة او ضمنية من الحكمة والتي يرتكز عليها بناء الحياة في المدينة ، وهو ماينا ظر مفهوم الدولة في انظمتها العامة في الشكل المستقر السليم .

ويؤكد مثل هذه النظرات الصائبة عنده مانقله الامام مالك عن عمر بن الخطاب — رضي الله عنه — حين يقول : « لاحكرة في سوقنا . لايعمد رجال بايديهم فضول من ذهب إلى رزق من رزق الله نزل بساحتنا فيحتكرونه علينا ، ولكن ايما جالب جلب على عمود كبده في الشتاء والصيف فذلك ضيف عمر ، فليبع كيف شاء وليمسك كيف شاء الله » . (٣)

---

(١) المغني: ابن قدامة ج٣، ص٥٠١

(٢) حجة الله البالغة ج١، ص ٦٤ .

(٣) تنوير الحوالك شرح موطأ الامام مالك: السيوطي ج٢، ص ٦٩

هكذا عالج عمر حالة التجارة بمنع الاحتكار والعناية بالموردين إلى المدينة وتشجيعهم بتقديرهم ورفع مكانتهم وتقييمهم في نظر الدولة ؛ لأنهم يقدمون اليها الارزاق من المزروعات او الصناعات فقال فيهم انهم ضيوف عمر ومنحهم حق الانتفاع بجهودهم حينما توفرت حاجات الناس ولم تتزاحم الرعية على موارد العيش فكذلك كان الدهلوي في هذه النظرة إذ يستوحي مثل قول عمر ، فيسعى في وضع التخطيط الاقتصادي والاجتماعي والصناعي وتحقيقه ، فهو يرى في ترغيب التجار والمزارعين والصناع خدمة للمجتمع وفتحاً لأبواب الرفاه والاستقرار وهذه هي الحكمة او المصلحة المرعية عند الشارع في كل ميادين الحياة الاجتماعية .

ولم يقف الدهلوي عند بيان الحكمة او المصلحة المرعية من الاحكام التعبدية موقفاً يلتزم فيه جانب النقد فحسب ، بل انه رأى كما قدمنا ان حكمتها تبدو لكثير ممن اوتوا المعرفة وحسن البصيرة ، لذلك وجدناه يحلل ويفكر في اظهار الحكمة وايضاحها .

ومن ذلك ماذكره في باب أسرار الحج وقال : « اعلم ، حقيقة الحج اجتماع جماعة عظيمة من الصالحين في زمان يذكر حال المنعم عليهم من الانبياء والصديقين والشهداء والصالحين ، ومكان فيه آيات بينات قد قصده جماعات من أئمة الدين معظمين لشعائر الله متضرعين راغبين وراجين من الله الخير وتكفير الخطايا ، فان الهمم اذا اجتمعت بهذه الكيفية لايتخلف عنها نزول الرحمة والمغفرة ، وهو قوله صلى الله عليه وسلم :
« مارؤى الشيطان يوماً هو فيه أصغر ولاأدحر ولاأحقر ولاأغيظ منه في يوم عرفة » (١) .

فمن هذا الفهم لفريضة الحج ينطلق في استنتاج الحكمة التي يرى فيها الباعث على تشريعها . فهو يفسر هذه الظواهر من المناسك والشعائر التعبدية في مهبط

---

(١) حجة الله البالغة جـ١، ص ١٥٧ .

الوحي وسيلة للتذكر وتربية للأنفس وتعطفاً لهم لادراك عظمة مشرع هذه الفريضة والتحسس بمواقع التنزيل التي انطلق منها شعاع الاسلام ، وانهم بصفاء السرائر واجتماع الناطقين بوحدة الانتساب انيه تعلو الهمم وتتحقق مصالح الأمة التي بها يثابون من خالقهم بالرحمة والرضوان بعد أن استشعروا كل معالم نهضتهم واستجمعوا طاقاتهم لكل خير وصلاح .

وإن الجوانب التعبدية ـ على مايفترض فيها من الامتثال والطاعة في تنفيذها حسبما جاء بها الشرع ـ قد حاول علماء الشريعة بيان حكمتها أيضاً كما فعل الدهلوي إلا أنه كان أكثر من غيره استغراقاً وايضاحاً وخصص لها مع سائر الأحكام كتابه هذا، الذي حاول فيه أن يظهر هذه الجوانب في ايضاح الحكمة والدعوة لها، والقول فيمن لايرى في تدوينها فائدة أو لمن يدعي أن العمل بالشرع لايتوقف على معرفة المصالح « هذه ظنون فاسدة »(١)، لذلك حرص على تشخيص الحكمة في أحكامها ودعا إلى تدوينها ورعايتها .

ولعل من أشهر من عني بهذا الاتجاه الحكيم الامام الغزالي. بيد أنه لم يمرع في بيان الحكمة حسبما فرّع فيها الدهلوي نظراً لتفاوت العصرين واختلاف المسلمين في عهدهما بما كان عليه غالبية المسلمين من فهم وعرفان للاسلام واحكامه وحكمته في عهد الغزالي ، وانحسار الثقافة أو المعرفة به في عصر الدهلوي وبخاصة في الهند، فرأينا الغزالي معنياً ببيان الحكمة والمصالح النقلية أكثر من الحكم المنطقية في الأحكام التعبدية، ولم ير حاجة إلى ماعرضه الدهلوي من تفصيل فيها . فيقول في حكمة الحج تحت عنوان اسرار الحج في الآية الكريمة (ليشهدوا منافع لهم) سورة الحج (٢٨) مكتفيا بوضوح النصوص وذاكراً بعض حكم الوقوف بعرفة : « وكأن اجتماع الهمم والاستظهار بمجاورة الابدال والاوتاد المجتمعين من أقطار البلاد هو سر الحج وغاية مقصودة، فلا طريق إلى استرداد رحمة الله سبحانه مثل اجتماع الهمم وتعاون القلوب في وقت

(١) حجة الله البالغة جـ١، ص ١٤ .

واحد على صعيد واحد» (١) .

أما الدهلوي فإنه يزيد من تلك الأسرار ويستخلص منها المصالح فيقول: «وكما أن الدولة تحتاج إلى عرضة (اختبار)بعد كل مدة لبتميز الناصح من الغاش والمنقاد من المتمرد،وليرتفع الصيت وتعلو الكلمة ويتعارف أهلها فيما بينهم ، فكذلك الملة تحتاج إلى حج لتمييز الموفق من المنافق ، وليظهر دخول الناس في دين الله افواجا ، وليرى بعضهم بعضا ، فيستفيد كل واحد ماليس عنده . اذ الرغائب انما تكتسب بالمصاحبة والترائي » (٢) .

اما القرطبي فانه قال في تفسيره الآية : « اي ليحضروا منافع لهم ، اي مايرضي الله تعالى من امر الدنيا والآخرة ...» (٣) . ومثله يقول الشوكاني(٤) اما العلماء المعاصرون فانهم قد توسعوا في مدلول لفظ المنافع فوصفها صاحب ظلال القرآن بقوله : « والمنافع التي يشهدها الحجيج كثير ، فالحج موسم ومؤتمر ، الحج موسم تجارة وموسم عبادة ، والحج مؤتمر اجتماع وتعارف ومؤتمر تنسيق وتعاون ..... » (٥)

ولو استعرضنا الكتاب في الخمسة والتسعين بابا من القسم الاول فيه لاطلعنا على بضع مئات من الحكم والمصالح الشرعية المرعية التي لاحظها المشرع في احكامه لسعادة الفرد والمجتمع ، وقد انتهج فيها الدهلوي منهجاً جيداً في رسم الخطوط الواضحة خدمة للشريعة وأتباعها ، فاعطى سمات مشرقة لصورة التشريع الاسلامي الذي اعتمدت احكامه على اسبابها الموجبة وحكمها السامية من مصالح الحياة وانتظام الكون بخصوصياته وسننه .

و هكذا كانت الحكمة الشرعية مسلكاً بصيراً في توجيه الاحكام لتكون باعثه عليها دائماً مع الالتزام بموافقتها لنصوص الشريعة .

---

(١) احياء علوم الدين: الامام الغزالي ج١، ص ٢٧٨ .

(٢) حجة الله البالغة ج١، ص ١٥٨-١٥٩ .

(٣) الجامع لأحكام القرآن: ابو عبد الله القرطبي ج١٢، ص ٤١

(٤) فتح القدير: الشوكاني ج٣، ص ٤٣٤

(٥) في ظلال القرآن: سيد قطب ج١٧، ص ٨٧

مصادر البحث ومراجعه

١ – احياء علوم الدين: أبو حامد محمد الغزالي – مطبعة الاستقامة بالقاهرة.
٢ – اصول التشريع الاسلامي : على حسب الله – الطبعة الثالثة – دار المعارف بمصر (١٣٨٣ – ١٩٦٤).
٣ – الاصول العامة للفقه المقارن : محمد تقي الحكيم.
٤ – اصول الفقه الاسلامي : زكي الدين شعبان – مطبعة دار التأليف – الطبعة الثالثة – ١٩٦٤.
٥ – تأريخ الاسلام في الهند : عبد المنعم النمر – الطبعة الاولى – ١٣٧٨ – ١٩٥٩ دار المعهد الجديد .
٦ – التفسير الكبير للامام الفخر الرازي – الطبعة الاولى – المطبعة العصرية ١٣٥٢ – ١٩٣٠.
٧ – تفسير المنار : الشيخ محمد عبده ، تأليف رشيد رضا – الطبعة الثانية – دار المنار بمصر ١٩٦٧.
٨ – تنوير الحوالك شرح موطأ الامام مالك : السيوطي . المطبعة التجارية بمصر .
٩ – الجامع لأحكام القرآن : محمد ابن أحمد الأنصاري القرطبي – مطبعة دار الكتب – ١٣٨٣ – ١٩٦٣.
١٠ – جامع البيان في تفسير القرآن : ابن جرير الطبري .
١١ – حجة الله البالغة : أحمد بن عبد الرحيم الدهلوي – تحقيق السيد سابق – مطبعة دار الكتب الحديثة بالقاهرة .
١٢ – دائرة المعارف : أحمد الشنتناوي وابراهيم زكي وعبد الحميد يونس – مطبعة وزارة المعارف . ج ٧ .
١٣ – الروض الأنف على سيرة ابن هشام : عبد الرحمن السهيلي. مطبعة الجمالية بمصر ١٩١٤.

١٤ – السراج المنير على الجامع الصغير : علي العزيزي –الطبعة الثالثة ١٣٧٧–١٩٥٧.
١٥ – شرح صحيح الامام مسلم: النووي.مطبعة محمد علي صبيح واودلاه .
١٦ – شرح العقيدة الطحاوية : منشورات المكتب الاسلامي بدمشق –الطبعة الثالثة .
١٧ – علم اصول الفقه :عبد الوهاب خلاف –الطبعة الثالثة –مطبعة النصر– ١٣٦٦–١٩٤٧ .
١٨ – الفتاوي : محمود شلتوت – دار القلم بالقاهرة .
١٩ – فتح القدير: الشوكاني –الطبعة الاولى– مطبعة مصطفى البابي الحلبي واولاده بمصر ١٣٥٠ ه
٢٠ – فلسفة الأخلاق في الاسلام: محمد يوسف موسى– الطبعة الثانية– مطبعة الرسالة – ١٣٦٤ – ١٩٤٥ .
٢١ – في ظلال القرآن: سيد قطب –الطبعة الاولى –دار احياء الكتب العربية عيسى البابي الحلبي
٢٢ – لسان العرب : ابن منظور –مصورة عن طبعة بولاق– الدار المصرية للتأليف والنشر .
٢٣ – مجمع البيان في تفسير القرآن : أبو علي الفضل بن الحسن الطبرسي– مطبعة طهران ٤ ١٩٧٣ ه
٢٤ – محاضرات في اصول الفقه : بدر المتولي –الطبعة الاولى– طباعة الشركة الاسلامية بغداد – ١٩٥٥.
٢٥ – المستصفى : أبو حامد الغزالي – الطبعة الاولى –المطبعة التجارية الكبرى بمصر – ١٣٥٦ – ١٣٧٣ .
٢٦ – المصلحة في التشريع الاسلامي : مصطفى زيد– دار الفكر العربي– الطبعة الثانية – ١٣٨٤ – ١٩٦٤.

٢٧ – المغني : ابن قدامة –مطبعة العاصمة بالقاهرة بتصحيح محمد خليل هراس.
٢٨ – مقدمة في اصول التفسير : ابن تيمية –المطبعة السلفية ومكتبتها .
٢٩ – الموافقات : الشاطبي – المكتبة التجارية بمصر– بشرح عبد الله دراز
٣٠ – نشرة وزارة الصحة: مديرية الطب الوقائي العامة– بغداد– ١٩٧٦.
٣١ – نيل الأوطار : الشوكاني–الطبعة الاولى بالمطبعة العثمانية المصرية ١٣٥٧هـ.



جليل رشيد فالح

الجملة الخبرية

ودلالاتها البلاغية

عند الكلاميين



توطئة :

كانت الدراسات البلاغية من لدن الجاحظ الى عبدالقاهر قائمة على اساس يعتمد الذوق والتحليل الادبي للكشف عن خصائص النص فنياً وجمالياً ، وكانت صلة البلاغة بالنص مباشرة ، توضح معالمه وتشير الى مواطن الجمال والقبح فيه دون ان يكون للمقاييس المنطقية والكلامية تأثير في ذلك .

فالبلاغي ناقد مشخص ، وليس باحثاً فلسفياً او كلامياً ، ولعل من الغريب ان نشير الى أن المعتزلة الذين كان لهم القدح المعلى في تطوير الدراسات البلاغية قد اعتمدوا المنهج الادبي الفني في نقاشهم وحجاجهم .

فكانت آراؤهم في البلاغة واساليب الكلام غاية في الدقة الفنية ، ولعل بشر بن المعتمر (... — ٢١٠هـ) في صحيفته قد ارسى قواعد النقد البلاغي على نحو لاتجد فيه اي ملمح من ملامح اتجاهه الفكري والفلسفي . (١)

كما ان الجاحظ نفسه وهو على رأس فرقة من فرق الاعتزال ، كان اديباً قبل أن يكون مفكراً له منهجه في الفلسفة والكلام .

وعبدالقاهر الجرجاني كان اشعرياً . ولكنه في تصديه لمباحث البلاغة قد باعد بين منهجه في هذا المضمار وبين نزعته الفكرية .

كل اولئك كانوا يصدرون في مباحثهم البلاغية عن نظرة واقعية سديدة لطبيعة الدرس البلاغي واهدافه . ومن هنا جانبوا التقنين والتقعيد الصارم الذي يضيق على الاديب المبدع مجال الابداع في فنه ، ويشده الى قواعد ورسوم صارمة محدودة المجالات بالمفاهيم الفكرية والفلسفية،مرتبطة بالتفكير المنطقي الذي يرى الاشياء محدودة بحدود، وهذه الرؤية تنافي رؤية الاديب البليغ حين يستوعب ابعاد تجربته ، فينطلق انطلاقه لاحدود لها في آفاق الوجود يستجلي فيها صوره ، ويرسم في نصه ملامح رؤاه الخاصة .

---

(١) صحيفة بشر بن المعتمر في البيان والتبيين - للجاحظ ١٣٥/١)

وحين يعود الباحث الى مناهج الكلاميين في الدرس البلاغي يجد نفسه امام قواعد وقوانين فيها من الصرامة ما تضيق بها آفاق الاديب المبدع ، مما يجعله يشيح بوجهه عنها . (١)

ومن هنا ينبغي التنبه الى أن مقتضيات الضرورة الحضارية المعاصرة تدعونا الى اعادة النظر في هذه المناهج التي تحول دون الابداع ودون التذوق ودون التأمل ومن مباحث البلاغيين من اصحاب المدرسة الكلامية الجملة الخبرية والانشائية وما تفرع منها من قضايا قائمة على تصور معين لايستقيم امام مقاييس النقد التي تتعامل مع النص من زاوية فنية ادبية مع تعاملها مع الجوانب الاخرى من فكرية ووجدانية .

ولقد كان هدف هذا البحث دراسة الجملة الخبرية ودلالاتها عند اصحاب المناهج الكلامية من البلاغيين ، لانهم اعتمدوا من اسس البحث البلاغي ما يلائم نظراتهم ومقاييسهم ، وسلكوا سبيل التعسف حين باعدوا بين البلاغة وبين المنهج النقدي والادبي الذي ينبغي ان يكون على اوثق صلة بالبلاغة . وطبيعة البحث اقتضت ان ابدأ بالتعرض للجملة الانشائية عند هؤلاء البلاغيين لانها قسيمة الجملة الخبرية ، ولم اجد مناصاً من الوقوف عند هذا الجانب استكمالا لمتطلبات البحث ، ثم افضي الى الحديث عن اغراض الجملة الخبرية واضربها ، والبحث يمثل عامة وجهة نظر قد تسهم مع وجهات النظر الاخرى في اعادة النظر في مناهج دراساتنا البلاغية التي اصبحت مبعثاً للتذمر والملل عند الدارسين والباحثين فضلا عن عجزها في الاسهام في خلق بلاغة عصرية تستوعب النهضة الادبية والنقدية والاسلوبية الشاملة الابعاد .

---

(١) للوقوف على مميزات المدرسة الكلامية ينظر : فن القول لأمين الخولي ٨٦ ، ومناهج تجديد في النحو والبلاغه والتفسير والادب لامين الخولي ١٥٩ ، ودروس في البلاغة العربية وتطورها للدكتور جميل سعيد ٧٦ ، والبلاغة عند السكاكي للدكتور احمد مطلوب ١٠٣ .

الخبر والانشاء :

قسم البلاغيون الكلام إلى قسمين : خبر وانشاء ، فجعلوا ماكان لنسبته خارج تطابقه او لاتطابقه ، والا فهو انشاء . (١)

ثم جعلوا لكلا النوعين دلالة محددة ، وهي احتمال الخبر التصديق والتكذيب لذاته ، وعدم احتمال الانشاء لذلك ، ثم فصلوا القول في تحديد مدلول الصدق والكذب فيما يتصل بالجملة الخبرية على صورة اخرجت الموضوع عن اطاره البلاغي إلى مماحكات عقلية محدودة الآفاق بالنسبة لدلالات الجمل عامة ، حتى اوغل بعضهم في تقسيم الخبر إلى صادق وكاذب وغير صادق وكاذب يقول صاحب الايضاح :« وانكر الجاحظ انحصار الخبر في القسمين ، وزعم انه ثلاثة اقسام : صادق وكاذب ، وغير صادق ولاكاذب ، لان الحكم اما مطابق للواقع مع اعتقاد الخبر اوعدمه واما غير مطابق مع الاعتقاد او عدمه » (٢)

واختلاف هذه الآراء لم يؤثر في جوهر المدلول الذي تم به تحديد مفهوم الخبر والانشاء . وهو احتمال الاول للتصديق والتكذيب كائنا ماكان اعتقاد المخبر او السامع ، وعدم احتمال الثاني للتصديق والتكذيب .

ولئن كان مقياس التصديق والتكذيب من السمات الاساسية عند البلاغيين الكلاميين للتدليل على خبرية الجملة ،فان هذا المقياس ليس مطرداً في كل كل جملة خبرية ، كما انه لايمثل الهدف المباشر لالقاء الخبر ، فاذا سمعت إلى الشاعر يقول :

وانی لقوال لذي البث مرحباً … واهلا اذا ماجاء من‌غير مرصد
واني لحلو تعتريني مرارة … واني لتراك لما لم أعود

فانه لايسعك ان تصف كلامه بالصدق او الكذب ، لأنه ليس بصدد نقل مضمون على سبيل الاخبار المحض ، لكي نقف منه موقف المترصد

(٣) التلخيص ٣٨ .
(٢) الايضاح ١٤-١٥ .

لصدقه أو كذبه ، ولا سيما في قوله : « واني لحلو تعتريني مرارة » إذ كيف يسوغ لك أن تجابهه بقولك :انك صادق أو انك كاذب .

إن من دأب البلغاء أن يتجاوزوا في صوغ نصوصهم حدود الواقع الضيق إلى آفاق خيالية رحيبة تنعدم فيها المقاييس الصارمة.

فإذا سمعنا إلى شاعر آخر يقول :

ولم أر كالمعروف أما مذاقه فحلو ، واما وجهه فجميل

فهل يسعنا أن نصمه بالكذب قائلين له :وهل ذقت طعم المعروف ؟ وهل تسنى لك أن ترى وجهه ؟

إن النقد لايتعامل مع الشاعر بالحساب الرياضي المحكوم بمقاييس جافية. ولقد أشار الباحثون قديماً إلى أن الحديث في هذه القضية مما أفاض به المناطقة واسهبوا في شرحها :

يقول ابن وهب صاحب البرهان :« وقددللنا على جمل مما يعرف به الصدق في ذلك من الكذب ،ولم نستقصها لئلا يطول الكتاب بها، وهي في كتب المنطقيين مشروحة ،فمن اراد علمها فليطلبها هنالك إن شاء الله » (١).

واشار عبد القاهر الجرجاني إلى ضآلة الاختلاف بين الخبر والانشاء،وذلك في قوله :

« واعلم ان معك دستوراً لك فيه – إن تأملت– غنى عن كل ماسواه ، وهو أنه لايجوز أن يكون لنظم الكلام وترتيب أجزائه في الاستفهام معنى، لايكون له ذلك المعنى في الخبر وذلك ان الاستفهام استخبار ، والاستخبار هو طلب من المخاطب أن يخبرك.فإن كان كذلك كان محالاً أن يفترق الحال بين تقديم الاسم وتأخيره في الاستفهام فيكون المعنى إذا قلت: قام ! غيره إذا قلت:

---

(١) البرهان في وجوه البيان ١١٣ .

اقام زيد ؟ ثم لايكون هذا الافتراق في الخبر ، ويكون قولك : (زيد قام) و (قام زيد) سواء (١) ونلاحظ عند التفتازاني -- وهو من شراح التلخيص ما يشير الى رفضه لفكرة تقسيم الكلام الى خبر وانشاء ، ويعلل ذلك بقوله: « لأن البحث في علم المعاني انما هو عن احوال اللفظ الموصوف بكونه مسنداً اليه او مسنداً » (٢) وهو يقصد بهذه الاحوال ما يلجأ اليه المنشيء من تقديم او تأخير ، او حذف وذكر ، او ايجاز واطناب ومساواة ، او تقييد او اطلاق ، ولكل تلك احوال تعتري الجملة بوصفها مسنداً ومسنداً اليه .

والسبكي ايضاً -- وهو من شراح التلخيص -- يقول بهذا الصدد : « وانما قدم الخبر لأنه اكثر بحثاً ، ولأن كثيراً من الانشاء فرع من الخبر ، كالجملة التي يدخل عليها ليت ولعل والاستفهام » (٣)

ولعبد الواحد الزملكاني اشارات الى تداخل الخبر والانشاء ودلالة احدهما على الآخر ، حيث يقول : « ومما جاء في صورة الخبر وهو أمر في المعنى قوله تعالى : (تزرعون سبع سنين دأباً) (٤) . المعنى : ازرعوا سبع سنين متواليات بدليل : (فذروه في سنبله) . . . . .

ومما جاء نهياً وهو في صورة الخبر قوله تعالى : (لاتظلمون ولاتظلمون) . (٥) او قد ظلموا وظلموا ، وكذا قوله تعالى : (وما تنفقون الا ابتغاء وجه الله) (٦) أي « لاتنفقوا الا ابتغاء وجه الله » (٧)

(١) دلائل الاعجاز ١٠٢ .
(٢) مختصر التفتازاني ١٩٢/١ .
(٣) عروس الافراح -- من شروح التلخيص ١٧٢/١ .
(٤) يوسف ٤٧ .
(٥) البقرة ٢٧٩ .
(٦) البقرة ٢٧٢ .
(٧) البرهان الكاشف عن اعجاز القرآن ٣٠٣ .

اغراض الخبر : تصور البلاغيون ان المتحدث يلقي بخبره الى السامع لافادته الحكم الذي تضمنه الخبر ، وسموا ذلك فائدة الخبر ، واما لا علامة انه — اي المتحدث — عالم بالخبر ، وسموا ذلك بلازم الفائدة . (١)

ويكادون يجمعون على هذا التقسيم الثنائي لاغراض الخبر ، مع أنهم يذهبون فيما بعد إلى ان الخبر قد يخرج إلى اغراض اخرى غير فائدته ولزوم فائدته .

يقول التفتازاني : « والا فالجملة الخبرية كثيراً ماتورد لأغراض اخر غير افادة الحكم ولازمه ، مثل التحسر والتحزن في قوله تعالى حكايه عن امرأة عمران (رب اني وضعتها انثى) (٢) وما اشبه ذلك »

ولم يحمل البلاغيون انفسهم عناء الافاضه في بيان تلك الاغراض والاستشهاد لها ، وكأنهم عولوا في ادراكها وتحسس وجوهها على ذوق القاريء ونباهته من خلال اشاراتهم : وما اشبه ذلك .(٣)

الا أنهم ذكروا الاغراض المجازية ووجوهها مع الاستشهاد لها في الموضوعات الانشائية كالاستفهام والأمر والنهي وذكر القزويني الاغراض التي يخرج اليها الاستفهام وهي :الاستبطاء والتعجب والتنبيه على الضلال والوعيد والتقرير والانكار والتهكم والتحقير والتهويل والاستبعاد والتوبيخ والتعجيب .

كما ذكر الاغراض التي يخرج اليها الأمر وهي : الاباحة والتهديد والتعجيز والتسخير والاهانة والتسوية والتمني والدعاء والاحتقار . (٤)

واستفاد المحدثون مما اشار اليه البلاغيون القدامى من وجود وجوه اخرى للخبر حين ذكروا بأفاضة في كتبهم تلك الوجوه المستفادة من الخبر كما استفادوا مما نص عليه البلاغيون من بيان وجوه الانشاء المجازي .

---

(١) الايضاح ١٧ .
(٢) آل عمران ٣٦ .
(٣) مختصر التفتازاني ١٩٣/١ .
(٤) الايضاح ١٣٧-١٤٧ .

ومما ذكره أحمد الهاشمي في «جواهر البلاغة» من الاغراض المجازية للخبر: الاسترحام والاستعطاف، وتحريك الهمة، واظهار الضعف، واظهار التحسر، واظهار الفرح بمقبل والشماتة بمدبر، والتوبيخ، والتحذير، والفخر، والمدح .(١٧)

وأورد كذلك الدكتور درويش الجندي من تلك الاغراض . الاسترحام والاستعطاف، واظهار الضعف، وتحريك الهمة، واظهار التحسر، والفخر، والمدح، والتوبيخ، والتحذير .(١٨)

المخاطب ومقتضى الحال:

ان حصر البلاغيين الخبر في ذينك الغرضين يضيق الخناق على المتحدث فيضطره إلى ان يضع في حسبانه المخاطب ليتوجه إلى ارضائه، وجعلوا المخاطب وحده الهدف الذي يقصد، ولذلك الزموا المتحدث ان تأتي عباراته في صيغ تراعى بها مقتضيات احوال المخاطبين، منطلقين في ذلك من التصور الخاص لمدلول التعريف الذي وضعوه للبلاغة حين قالوا: «واما بلاغة الكلام فهي مطابقته لمقتضى الحال مع فصاحته» .(١٩)

وللتعريف الذي وضعوه لعلم المعاني، كما في قول السكاكي:

«علم المعاني هو تتبع خواص تراكيب الكلام في الافادة، وما يتصل بها من الاستحسان وغيره ليحترز بالوقوف عليها من الخطأ في تطبيق الكلام على ما يقتضي الحال ذكره» .(٢٠)

وكما عرفه القزويني بقوله:

«وهو علم يعرف به احوال اللفظ العربي التي بها يطابق مقتضى الحال» . (٢١)

---

(١٧) جواهر البلاغة ٥٥

(١٨) علم المعاني ٣١-٣٢ .

(١٩) الايضاح ٩

(٢٠) مفتاح العلوم ٨٦ ، الايضاح ١٢ .

(٢١) الايضاح ١٢ .

ومن خلال تقسيمهم لأغراض الخبر واضربه - كما سنرى - نحس باهتمامهم بالمخاطب اهتماماً كبيراً يجعله محور الكلام وهدفه . وهم - وان لم يصرحوا بذلك - فان عدم توضيحهم لمقتضى الحال امر يدعونا الى ذلك الاحساس ، مع ان للقزويني اشارة خاطفة الى ذلك نتذرع بها لتقرير ماذهبنا اليه : يقول القزويني : « واذا كان غرض المخبر بخبره افادة المخاطب احد الأمرين. فينبغي ان يقتصر من التركيب على قدر الحاجة » (٢٢)

ولمقتضى الحال دلالات اوسع مما تصوره البلاغيون ، وحال المخاطب جزء من هذه الدلالات او واحدة منها ، وليس كلها . ان المتفق عليه عند النقاد ان العمل الادبي هو نتاج الاديب الذي يمتلك من القدرات والخصائص الفذة مالا يملكه غيره ، فهو ينطلق في صوغ نتاجه من رؤيته الخاصة استجابة لدواعي تجربته الشعورية، واذا كان للمخاطب نصيب من عمله الادبي ، فان هذا النصيب ضئيل غاية الضآلة ، ثم ان المخاطب في العمل الادبي لايكون فرداً بعينه او مجموعة محدودة ، بل قد يكون موقفاً او جمهوراً او رموزاً لشخوص واقعية او خيالية، او هو الاديب ذاته على سبيل التجريد. يقول الدكتور علي عزت :

« ذلك ان كل اديب يتناول الاغراض التي يكتب فيها من رؤية معينة. مستعيناً في التعبير عنها بوسائل اسلوبية مميزة ، وغالباً مايمكن ايجاد علاقة ثابتة بين بعض هذه الوسائل وبين غرض معين من هذه الاغراض . بمعنى انه قد يستخدم ملامح لفظية ونحوية وصوتية معينة في التعبير عن موضوع من الموضوعات » (٢٣)

ومقتض الحال ركيزة من ركائز التعبير البلاغي،وهو لايحدد بقيود ضيقة،وانما له مدلول اوسع مما رسمه البلاغيون كما اسلفت ، فهو يعني كل الظروف والملابسات التي تلم بالنص الأدبي سواء كان ذلك متصلا بالمتحدث او المخاطب او البيئة او المناسبة .

(٢٢) الايضاح ١٨ .

(٢٣) اللغة والدلالة في الشعر ٩

وشراح التلخيص لم يزيدوا في حديثهم عن مقتضى الحال على ما اورده القزويني صاحب التلخيص والايضاح . الا ان الدسوقي (٢٤) في حاشيته على مختصر السعد التفتازاني يلمح الى سعة ماتدل عليه مراعاة مقتضى الحال دون اختصاصها بالمخاطبين .

يقول : « قوله مطابقته لمقتضى الحال اي في الجملة ، اي مطابقته لأي مقتضى من المقتضيات التي يقتضيها الحال ، لا المطابقة التامة ، وهي مطابقته لسائر المقتضيات ، اذ لايشترط ذلك ...) (٢٥) .

ويقول عبد الكريم الخطيب : « ان مقتضى الحال ليس مقتضى حال واحدة ؛ ولكنه في الواقع مقتضى احوال كثيرة ، فأي امر تلقاه بحواسك او مشاعرك وتريد ان تصوره كلاماً ، يقتضيك — لكي تجيء به على وجهه كاملا — ان تلحظ فيما لحظت منه جميع مقتضيات احواله وظروفه ... والمتحدث تشتمل عليه احوال نفسية وعقلية ووجدانية ، وهي عوالم لا حدود لها » (٢٦)

ويقول أحمد حسن الزيات فيما يتصل بطبيعة مقتضيات الاحوال : « ليست الاحوال المعروضة أو المفروضة الا انفعالات العواطف في النفس ، أو اتجاهات الخواطر في الذهن .وليست مقتضياتها الا الصور البلاغية المناسبة التي يهتدي اليها البليغ بطبعه أو فنه ، فيؤثر بها في هذه العواطف أو تلك الخواطر التأثير الذي يريد » (٢٧).

ولعل من مقتضيات الضرورة أن نشير إلى أن مراعاة مقتضى الحال قضية فنية جمالية أكثر مما هي قضية معنوية هدفها ايصال المعاني إلى الأذهان ، أو

---

(٢٤) الدسوقي (٠٠٠-١٢٣٠ هـ) هو محمد بن احمد بن عرفة الدسوقي المالكي من علماء العربية، من اهل دسوق بمصر، له حاشية على مختصر السعد التفتازاني والاعلام ٢٤١/٦ .

(٢٥) حاشية الدسوقي - في شروح التلخيص ١٢٢/١ .

(٢٦) اعجاز القرآن - الكتاب الثاني ٢٩١-٢٩٢ .

(٢٧) دفاع عن البلاغة ٢٣ .

مخاطبة السامع على نحو معين ، ذلك أن هذه المراعاة يراد بها – كما يقول السكاكي – «تأدية المعنى حداً له اختصاص بتوفية خواص التراكيب حقها» (٢٨)

لذلك فان للتراكيب خواص هي مدار التعبير وهدفه وليس الهدف اداء المعاني وافهام المقاصد ،والا فقد تساوى الأديب وغير الأديب في مضمار الفن الكلامي،ومن هنا فان براعة الأديب المنشيء تقاس بمقدار قدرته على استيعاب هذه الوجوه الخاصة أو اللمحات الدقيقة المتوارية وراء الالفاظ والتراكيب ومن هنا أيضاً كان للجاحظ ومن جرى في مضماره كأبي هلال العسكري(٢٩) فضل عناية باللفظ واكبار للاسلوب والصياغة أكثر من المعاني ،فهي في عرفهم : «مطروحة في الطريق يعرفها العجمي والعربي والقروي والبدوي ، وإنما الشأن في اقامة الوزن ،وتخير اللفظ ،وسهولة المخرج ،وصحة الطبع ،وكثرة الماء . وجودة السبك » (٣٠)

والبلاغيون انما عبروا عن مستلزمات اللفظ والمعنى في العمل الأدبي بأساليب مختلفة ،ويكاد اجماعهم ينعقد على التلازم بين اللفظ والمعنى .

يقول العتابي : « الالفاظ أجساد ، والمعاني ارواح وانما نراها بعيون القلوب. فاذا قدمت منها مؤخراً ،أو اخرت منها مقدماً افسدت الصورة وغيرت المعنى » (٣١)

ويقول ابن رشيق في العمدة :

« اللفظ جسم وروحه المعنى ، وارتباطه به كارتباط الروح بالجسم ، يضعف بضعفه ويقوى بقوته » (٣٢)

وعبدالقاهر الجرجاني – وان بدا لنا من انصار المعنى – نجدة لايعني بالمعنى

---

(٢٨) مفتاح العلوم ٢٢٠ ، الايضاح ١٢
(٢٩) انظر كتاب الصناعتين ٥٨ .
(٣٠) الحيوان ١٣١/١-١٣٢
(٣١) كتاب الصناعتين ١٦١ .
(٣٢) العمدة ١٢٤/١ .

الفكرة المتحدث عنها ، بل يعني به دلالات التراكيب الخاصة ، أي الخصوصيات التي تستفاد من التراكيب وفق مقتضى الاحوال وهذا الاتجاه لايبعد كثيرا عما دعا اليه الجاحظ ومن سار على نهجه .

ولعل قصد الجرجاني يتضح اكثر بل يقرب من منهج الجاحظ ، وذلك في قوله : « ومعلوم أن سبيل الكلام سبيل التصوير والصياغة ، وان سبيل المعنى الذي يعبر عنه سبيل الشيء الذي يقع التصوير فيه ، كالفضة والذهب يصاغ منهما خاتم أو سوار » (٣٣) .

ويوضح الدكتور درويش الجندي هذه القضية وعلاقتها بما عرف بنظرية النظم عند عبدالقاهر الجرجاني :

«ان المعنى الذي جعله عبدالقاهر محوراً للنظم هو المعنى الصوري ، أو المعنى المصور ، فالمعنى الذي هو الكلام عنده والذي تنسب اليه مزية النظم ليس هو المعنى الغفل الخام ، وانما هو المعنى الذي تشكل في النفس بشكل خاص ، ونظم فيه نظماً خاصاً ، هو صورة المعنى لا المعنى مجرداً من الصورة ، ومن شأن المعاني ان تختلف عليها الصور ، ويحدث فيها خواص ومزايا من بعد ان لا تكون » (٣٤) .

كل ذلك يقفنا على طبيعة ولادة العمل الادبي بعد ان يتكيف في اعماق الأديب على صورة متكاملة تنبىء عن ذات الاديب ، وفي نمط من التعبير والصياغة يعكس قدرة الاديب الفنية واجادته في التعبير ، وتلك صفات يتميز بها اديب عن آخر ، وهي مناط التفاوت عند الأدباء .

أضرب الخبر بحسب المخاطب :

وحين يصل بنا البحث الى دراسة الجملة الخبرية وأضربها بحسب المخاطب يحسن بنا ان نشير الى ان البلاغيين اصحاب المناهج الكلامية لم يستوعبوا ابعاد طبيعة العمل الأدبي من حيث هو فن ، وهذا مايظهر في مباحثهم عن

(٣٣) دلائل الاعجاز ١٧٥، الايضاح ١٠ .
(٣٤) نظرية عبد القاهر في النظم ٧٤ .

الجملة الخبرية وتقسيماتها المنطقية بحسب احوال المخاطبين ومقتضيات تلك الأحوال . والخلط الذي وقفوا فيه .

قسم البلاغيون اولئك الجملة الخبرية بحسب المخاطب الى ثلاثة انماط . الزموا الاديب المنشيء ان تأتي صيغ عباراته على مقتضاها ، وافترضوا كذلك ان الاديب يتجه الى المخاطب فيجعله هدفاً يسعى الى ارضائه او افهامه او اقناعه .

ان هذا التقسيم الذي افترضوه قائم على تصور المخاطب احد ثلاثة : خالي الذهن من الحكم ، ومتردد في قبوله ، ومنكر له ، وأهملوا تصور الشخص العالم بالخبر في حين انهم لم يغفلوه في تقسيم الخبر حسب الغرض الذي يلقى من اجله ، يقول القزويني :

« واذا كان غرض المخبر بخبره افادة المخاطب احد الامرين فينبغي ان يقتصر من التركيب على قدر الحاجة ، فان كان المخاطب خالي الذهن من الحكم بأحد طرفي الخبر على الاخر ، والتردد فيه استغنى عن مؤكدات الحكم ، كقولك : جاء زيد ، وعمرو ذاهب ، فيتمكن في ذهنه لمصادفته اياه خالياً . وان كان متصور الطرفين متردداً في اسناد احدهما الى الاخر طالباً له حسن تقويته بمؤكد ، كقولك : لزيد عارف ، او ان زيداً عارف ، وان كان حاكماً بخلافه وجب توكيده بحسب الانكار ، فتقول : اني صادق لمن ينكر صدقك،ولا يبالغ في انكاره،واني لصادق لمن يبالغ في انكاره » (٣٥) وبعد ان يورد القزويني مثالا قرآنياً – سنورده فيما بعد – يدعم به ما ذهب اليه هو وبلاغيو هذه المدرسة ، ويذكر ايضاً جواب ابي العباس المبرد للكندي الفيلسوف عن قوله : اني اجد في كلام العرب حشوا (٣٦) ينتهي الى القول :

---

(٣٥) الايضاح ١٨ .

(٣٦) الايضاح ١٨-١٩ – للاطلاع على الآية وجواب المبرد للكندي .

« ويسمى النوع الأول من الخبر ابتدائياً ،والثاني طلبياً ، والثالث انكارياً ، واخراج الكلام على هذه الوجوه اخراجاً على مقتضى الظاهر » (٣٧) هذه الاحوال روعي بها المخاطب مراعاة توخت الدقة في التطبيق ، وفي ذلك الزام للمتكلم ان يعرف ابتداء ما عليه المخاطب من احوال : أهو خالي الذهن من الحكم ليسوق اليه الخبر خالياً من ادوات التوكيد ، ام هو متردد في قبوله ليؤكده له ، او انه منكر لما يلقيه اليه ليستعين بادوات التوكيد التي تتولى ازالة عنادة ، ورده عن الانكار الى التصديق ؟

ثم ماذا يكون موقف المتكلم ازاء العالم بالخبر كيف يصوغ له كلامه ؟ هذا ما ضرب عنه البلاغيون صفحاً . احسب ان المنشيء لايعنيه ان يعرف هذه الاحوال كلما ازمع ان ينشيء نصاً ، ذلك انه ليس في كل الاحوال ينبغي ان يكون هنالك مخاطب بعينه لتصاغ له العبارة على مقتضى ما هو عليه .

كما اننا لانستطيع ان نعد المنكر والمتردد في كل احوالهما عالمين بالخبر، فلربما يتلقى السامع الخبر لأول مرة فيتردد في قبوله او ينكره .

وهنا لايسع البلاغي الا ان يعد العالم بالخبر كخالي الذهن ليس له موقف محدد ، وفي ذلك جمع النقيضين على صعيد واحد .

ويمكن ان يراعي المتحدث هذه الاحوال الثلاث اذا كان متجهاً فعلا إلى واحد بعينه او مجموعة بعينها يحدثهم بحديث خاص معلومة مستلزماته وظروفه ودوافعه واهدافه ، فلا بأس —والحالة هذه — ان تأتي صيغه مستوفية لكل تلك الملابسات والاحوال قدر ما يسعه الامر ، الا انه — مع ذلك — في حل من الالتزام الدقيق الذي يفرضه البلاغيون فرضاً لايخلو من صرامة في مراعاة مقتضيات الاحوال . فليس هناك تطابق بالمعنى الهندسي بين مقتضيات الاحوال وبين التركيب المعبر عنها .

فالآيات التي استشهد بها القزويني و في الايضاح (٣٨) ، وهي قوله تعالى :

(٣٧) الايضاح ١٩ .
(٣٨) الايضاح ١٨ .

« واضرب لهم مثلا اصحاب القرية اذ جاءها المرسلون ، اذ ارسلنا اليهم اثنين فكذبوهما ، فعززنا بثالث فقالوا : انا اليكم مرسلون ، قالوا : ماانتم الا بشر مثلنا ، وما انزل الرحمن من شيء ان انتم الا تكذبون ، قالوا ربنا يعلم انا اليكم لمرسلون » (٣٩)

انما تحدثت عن مخاطبين معروفة احوالهم في التردد والانكار ، قال القزويني في بيان صيغ الخبر المختلفة المسوقة في معرض التردد والانكار :

« حيث قال في المرة الاولى : انا اليكم مرسلون ، وفي الثانية : انا اليكم لمرسلون » (٤٠)

والمتأمل في هذه الآية يجد نفسه امام ظاهرتين :

احداهما : ان المخاطبين معلومة احوالهم ، فجاءت الاجزاء التي اشار اليها القزويني موافقة لتلك الاحوال ، ومتسقة مع الاجواء النفسية التي عرضتها الآية .

والثانية : ان الآية لم تسق العبارة في صياغتين مختلفتين للتدليل على وجود موقفين مختلفين ، فبمقتضى مقاييس البلاغيين يفترض ان يكون الموقف الاول دالا على التردد لان قوله تعالى : (انا اليكم مرسلون) يتضمن اداة واحدة للتوكيد ، مع ان الموقف موقف رفض وانكار وتكذيب بدليل قوله تعالى : فكذبوهما ، فعززنا بثالث .

اما مجيء اللام في خبر ان في المقطع الاخير من الآية فان له دلالة الاهتمام بمعالجة الموقف دون الدلالة على تغيير شيء في الموقف نفسه فالانكار قائم في الحالتين ، والتكذيب مستمر كذلك .

ويمكننا ان نستدل على مرونة الصيغ في مواجهة المواقف ان البلاغيين رأوا ان المتكلم يورد الخبر في مواجهة المتردد مؤكدا باداة واحدة استحساناً

---

(٣٩) سورة يس ١٣-١٦ .

(٤٠) الايضاح ١٨ .

لا الزاماً (٤١) ويلاحظ في ذلك وقوعهم في تناقض لم يحسبوا له حساباً ومعنى ذلك ان التوكيد استجابة داخلية لدواعي الموقف وربما كان المتكلم غير عابىء بتردد المتردد او انكار المنكر ، وانما يلقي كلامه بقدر اهميته في نفسه وتحسسه لدواعيه .

الجملة الخبرية ومراعاة ماوراء الظاهر :

وهنا وقفت البلاغة لتعطي صورة اخرى من صور التعبير البلاغي التي يتجلى فيها الابداع ، وتكون مناط البراعة الفنية ، وقد سمى البلاغيون هذه الصور التعبيرية بمراعاة غير الظاهر ، او مراعاة ما وراء الظاهر ، او الخروج على خلاف مقتضى الظاهر .

يقول القزويني : « وكثيراً مايخرج على خلافه فينزل غير السائل منزلة السائل اذا قدم اليه مايلوح بحكم الخبر ، فيستشرف له استشراف المتردد الطالب ، وسلوك هذه الطريقة شعبة من البلاغة فيها دقة وغموض » (٤٢) وكذلك ينزل غير المنكر منزلة المنكر اذا ظهر عليه شيء من امارات الانكار ... وكذلك ينزل المنكر منزلة غير المنكر اذا كان معه ما إن تأمله ارتدع عن الانكار (٤٣) اليس في هذا دليل واضح على ان هناك حالات في المخاطبين لاتتضح بل هي تفترض فيهم ، فيأتي تصرف المتكلم وفق هذا التصور والافتراض

ولقد سبق لعبد القاهر ان فصل القول في هذا الجانب مبيناً ان اهمية الموضوع لذاته هي التي تستدعي ادوات تؤكده وتوثقه ، ففي حديثه عن (إن) وما تضفيه من حسن على العبارة اذا جاءت في الموضع المناسب يقول: « ولذلك تراها تزداد حسناً اذا كان الخبر بأمر يبعد مثله في الظن وبشيء قد جرت عادة الناس بخلافه كقول ابي نواس :

---

(٤١) انظر الايضاح ١٨

(٤٢) الايضاح ١٩

(٤٣) الايضاح ٢٠

عليك باليأس من الناس ان غنى نفسك في اليأس
فقد ترى حسن موقعها وكيف قبول الناس لها . وليس ذلك الا لأن الغالب على الناس انهم لا يحملون انفسهم على اليأس ولا يدعون الرجاء والطمع ، ولا يعترف كل احد ولا يسلم ان الغنى في اليأس » . (٤٤) .

ويتضح مذهب عبد القاهر بهذا الصدد في موضع آخر حيث يقول : « ومن لطيف مواقعها ان يدعي على المخاطب ظن لم يظنه ، ولكن يراد التهكم به ، وان يقال ان حالك والذي صنعت يقتضي ان تكون ظننت ذلك ، ومثال ذلك قول الأول :

جاء شقيق عارضاً رمحه ان بني عمك فيهم رماح » (٤٥)

وبهذا يظهر لنا جلياً ان تصور المنشيء لملابسات يفترضها فيما يعرض له من حديث هو الذي يملي صياغة عبارته على النمط الذي يتم به التساوق بين تصوره وبين اسلوبه المعبر عن ذلك التصور .

فحال المخاطب ليس هو الانكار ، وانما لابست الموضوع امور تقتضي اعتباره منكراً ، ولم يكن الرد عليه بادوات التوكيد فحسب ، فان ادوات التوكيد بعض مقتضيات هذه الحال ، وانما تفهم السخرية والتهكم — وهما هدف المتكلم — من خروج الخبر (ان بني عمك فيهم رماح) من معناه الحقيقي الى المعنى المجازي ، وهذا الخروج هو الذي افاد التهكم الذي كان من نتائج تصور المخاطب منكراً ، فلو ان الخبر سيق من غير ادوات التوكيد لكان معنى التهكم قائماً ومستفاداً من النص فالعبارة سيقت لمن لايجهل المضمون .

والقزويني نفسه جاء بالبيت نفسه في فصل مراعاة غير الظاهر مثلا لتنزيل غير المنكر منزلة المنكر اذا ظهر شيء من امارات الانكار .

---

(٤٤) دلائل الاعجاز ٢٢١

(٤٥) المصدر نفسه ٢٢١

ويعلق السبكي - من شراح التلخيص - على ما ذهب اليه القزويني بشأن هذا البيت (جاء شقيق ...) فيقول :

« وفيما قال المصنف نظر ، لان هذا الخبر ليس فيه الا مؤكد واحد ، فمن اين لنا انه انكاري ، جاز ان يكون طلبياً ويكون من القسم السابق ، ويكون فيه هذا التأكيد الواحد استحسانياً لا واجباً » (٤٦)

ومع ان السبكي في تعليقه يسير في مضمار القزويني من اقرار ذلك التقسيم الثلاثي لاضرب الخبر الا انه يوضح لنا بأن الاختلاف في فهم دلالات الجمل امر وارد في ضوء الاختلاف في تصور الموقف من جانب المنشىء .

ويقودنا تعليق السبكي إلى جانب آخر يلفت الانظار وهو ان ايراد ادوات التوكيد في مواطن التردد والشك امر استحساني لا وجوبي ، وان كنا نقر بأن ايرادها ينبغي ان يكون وجوبياً اذا تحقق انكار المخاطب ، وكانت هذه الادوات موحية بان وراء الموضوع امرا ذا بال ينبغي التنبه اليه ، على ان التوكيد وحده لا يحقق هذا التنبه ، كما اسلفت الاشارة اليه في تعليق على قول الشاعر : (جاء شقيق عارضاً رمحه ....) ولعل هذا الامر يتضح اكثر فيما ذهب اليه البلاغيون في باب مراعاة غير الظاهر حين ينزل المنكر منزلة غير المنكر فليس تنزيله هذه المنزلة لوضوح الموقف بل لان المنشىء غير عابىء به او غير متصور لانكار منكر البتة .

كما ان القزويني نفسه صرح بان ليس هناك وجه الزام بتوكيد الحكم للمتردد بل هو مستحسن ان يفعله ، وذلك في قوله :

« وان كان متصوراً لطرفين متردداً في اسناد احدهما إلى الآخر طالباً له حسن تقويته بمؤكد » (٤٧)

---

(٤٦) عروس الافراح ٢١٣/١

(٤٧) الايضاح ١٨

ثم تأمل القزويني وهو يعلل كيف ينزل المخاطب بقوله تعالى : ثم انكم بعد ذلك لميتون ، ثم انكم يوم القيامة تبعثون ، « منزلة من يبالغ في انكار الموت لتماديهم في الغفلة والاعراض عن العمل لما بعده ، ولهذا قيل (ميتون) دون (تموتون) .... واكد اثبات البعث تأكيدا واحدا ــ وان كان مما ينكر لانه لما كانت ادلته ظاهرة كان جديرا بالاينكر ، بل اما ان يعترف به او يتردد فيه ، فنزل المخاطبون منزلة المترددين تنبيهاً لهم على ظهور ادلته . وحثاً على النظر فيها ، ولهذا جاء (تبعثون) على الاصل » (٤٨) .

تجد في تعليله نظرا . ذلك انه لم يكن دقيقاً فيما ذهب اليه من ان ادلة البعث أظهر من ادلة الموت فكيف جاءت آية الموت بتأكيدين ، وآية البعث بتأكيد واحد؟ فمن ينكر الموت ويغفل عن التهيؤ له فهو للبعث اشد انكارا، بل الغافل عن الموت لايمر بباله ادنى تفكير بالبعث والحساب . فمجيء(ميتون)على صورة الاسم لقرب وقوعه،وتعرض المرء له في اية ساعة اضافة الى دلالة اعمق في مجيئه على الاسمية وهي ان الغافلين هم اشبه بالاموات ، فجاءت اللفظة معبرة عن حالهم على صورة تنساب بقوة الى اعماق النفوس .

اما (تبعثون) فان اللفظة جاءت على صورة الفعل لان البعث أمر يعقب الموت ، وهو آت على التراخي .

ولنعد الى بلاغي آخر من بلاغيي الاتجاه الكلامي وهو الدسوقي حين يعلق على قوله : اذا قدم اليه مايلوح له بحكم الخبر « قوله اذا قدم اليه ظرف ليجعل ، فيقتضى ان جعل غير السائل بمنزلة السائل مقيد بالتقديم المذكور، مع انه قد ينزله منزلته لاغراض أخر كالاهتمام بشأن الخبر لكونه مستبعداً والتنبيه على غفلة السامع ». (٤٩)

---

(٤٨) الايضاح ٢١

(٤٩) حاشية الدسوقي ٢١٠/١

والدسوقي لم يهمل شأن السامع او المخاطب ، شأنه في ذلك شأن المدرسة التي ينهج نهجها ويصدر عن آرائها ، ولكنه لم يجعل جهد المنشىء موجهاً اليه بالذات ، بل جعل للخبر ذاته – وهو أمر يتصل بالمنشىء نفسه – اهمية يحسب لها حساب اكثر من الاهتمام بالمخاطب او السامع .

ويمضي الدسوقي في الكشف عن ملابسات التقسيم الثلاثي في عدم الاحاطة بجميع اصناف المخاطبين وعدم الدقة في معرفة شخوصهم حتى يرد الكلام على مقتضى احوالهم الواقعية او المتخيلة : « ... ان اخراج الكلام على خلاف مقتضى الظاهر قد يلتبس باخراجه على مقتضى الظاهر ، فلا تظهر الفائدة ، وذلك كجعل السائل كالخالي ، لان ترك التأكيد للسائل جائز ولا يخل بالبلاغة ، فلا يعلم به تنزيله منزلة الخالي .... وكذا بعض صور اخراج الكلام على مقتضى الظاهر قد يلتبس ببعض ، كما في التأكيد مع السائل ، فانه يلتبس بالتأكيد مع المنكر ، اذ الوجوب والاستحسان لايفهمان من اللفظ ، وكذا بعض صور اخراجه على خلافه يلتبس ببعض ، كما في جعل الخالي بمنزلة السائل ، فانه يلتبس بجعله كالمنكر ، فان كان هناك قرينة عمل بها ، والأصح الحمل على كل » (٥٠)

نقد التقسيم الثلاثي :

والتقسيم الثلاثي للجملة قائم على اساس ان مهمة الجملة الخبرية هي الاخبار والاعلام ، ومن هنا روعيت احوال المخاطبين الذين يلقى اليهم الخبر .

فالاخبار والاعلام من ادنى مهمات الجملة الخبرية ، ولو اقتصرت مهمتها على هذا الجانب لما شغل به الدرس البلاغي الذي يتوخى في التعبير البليغ ان يرتاد آفاقاً ابعد ، دون الوقوف عند الاذهان يملؤها بالمعلومات ، وهي آفاق نفسية وفنية وذوقية يراد لها ان تتأثر وتتجاوب مع ما تحتمل العبارة من مدلولات غير مدلولاتها الوضعية . وتلاحظ في الجملة جوانب اخرى

(٥٠) المصدر نفسه ٢١٠

هي التي تحدد المستوى الفني لها سمواً او انحطاطاً ، والبليغ ينبغي ان يحيط بهذه الجوانب لتكون اداته في رفد عباراته السمة الفنية المطلوبة ، والى ذلك اشار القزويني بقوله : « فان مقامات الكلام متفاوتة ، فمقام التنكير يباين مقام التعريف ، ومقام الاطلاق يباين مقام التقييد ، ومقام التقديم يباين مقام التأخير ، ومقام الذكر يباين مقام الحذف ، ومقام القصر يباين مقام خلافه ، ومقام الفصل يباين مقام الوصل ، ومقام الايجاز يباين مقام الاطناب والمساواة ، وكذا خطاب الذكي يباين خطاب الغبي » (٥١) .

وفي نص للتفتازاني ذكرته آنفاً ما يعبر عن المهمة البلاغية للجملة الخبرية اذ يقول :

« والا فالجملة الخبرية كثيراً ما تورد لاغراض أخر غير افادة الحكم او لازمه مثل التحسر والتحزن في قوله تعالى حكاية عن امرأة عمران : (رب اني وضعتها انثى) وما اشبه ذلك » (٥٢) .

فليس بوسعنا ان نتساءل لم دخلت اداة التوكيد على الآية ، وما حال المخاطب بها أهو خالي الذهن ام متردد ام منكر .

ان ظاهر القاعدة التي ترجع اليها الظاهرة انها لخطاب المتردد . واذا عرف ان المخاطب هو الله تعالى انتفى القول بان المخاطب متردد في قبول الحكم ، فليس ذلك يجوز على الله تعالى .

ولعل التفتازاني اقرب صلة بأبي هلال العسكري الذي رأى ان نتاج الاديب لايهدف إلى افهام المعاني فحسب ، فلو كان هذا هو الهدف لتساوت اقدار الجمل ، ولما رأيت لأديب ميزة على اديب .

يقول ابو هلال :

« ومن الدليل على ان مدار البلاغة على تحسين اللفظ ان : الخطب الرائعة

(٥١) الايضاح ٩

(٥٢) مختصر التفتزاني ١/١٩٣ .

والاشعار الرائقة ما عملت لافهام المعاني فقط ، لان الرديء من الالفاظ يقوم مقام الجيدة منها في الافهام ، وانما يدل حسن الكلام واحكام صنعته ورونق الفاظه وجودة مطالعه وحسن مقاطعه وبديع مباديه وغريب مبانيه على فضل قائله وفهم منشئه » (٥٣)

ان فن التعبير – وان كان متجهاً إلى الاخرين بوصفه وسيلة إلى غاية انما يحمل سمات صاحبه وخلجاته النفسية ومواقفه الفكرية فنتاجه جزء من وجدانه او عقله ، وهو إلى جانب ذلك يختار الصيغة المناسبة التي بها يعبر عن نوازع الوجدان او ومضات الفكر .

فهو يرى نفسه في مرآة فنه اول الامر . ولا يرى الآخرين الا من خلال نفسه ، ويريد ان يكسبهم إلى جانبه ، ويمكن ان تكون ذاته هي الهدف اولا وآخراً . فيتناسى عالم الآخرين او ينساه .

« ان الفنون مستودع قيمنا المسجلة ، فهي تنبع من لحظات في حياة افراد غير عاديين ، وتخلد هذه اللحظات لحظات تبلغ فيها سيطرتهم على التجربة ذروتها ، وتبدو فيها امكانيات الوجود المتباينة بوضوح تام ، ويوفق فيها على نحو بديع بين ضروب النشاط المختلفة التي قد تنشأ في النفس » (٥٤) .

ان من عيوب المدرسة الكلامية في البلاغة هذا التقيين الصارم المتشعب للقواعد مما يجعل مترسمي هذه القواعد يقعون في ضيق وحرج ، عليهم ان يتحروا المخاطب فيتعرفوا إلى احواله ، ويستبطنوا دخيلته ليصوغوا النص على هواه .

ليس المخاطب هو المقصود بهيئة مخصوصة هو الطرف الثاني اطراداً بل قد يكون المخاطب هو المقصود . فعندئذ تراعى احواله وفق مقتضيات

---

(٥٣) كتاب الصناعتين ٥٨

(٥٤) مبادىء النقد الادبي ٧٢ .

ما ذهب اليه البلاغيون ، وان لم يكن كذلك فانه يرتسم في الذهن متصوراً له حال او احوال معينة ، فتصاغ التراكيب وفق هذا التصور ، اما اذا لم يكن ذا مقام في هذه العملية فان اهمية الموضوع وملابساته واتجاهه إلى مسارب النفس كل ذلك يحدد الصيغ غير متعسف المنشىء فيها او مدقق في جزئياتها وفق منظور هندسي .

«ان عملية الابداع الفني ليست في الواقع عملية مفاجئة بالنسبة للشاعر بل انه يكون مستعداً لها نفسياً وذهنياً بطريقة شعورية او لا شعورية . وان المادة التي يجري بها الالهام هي نتاج قراءاته القديمة وتأملاته والصور التي يتضمنها انتاجه لابد ان تكون مختزنة في ذاكرته » (٥٥)

ان توكيد الجمل ضرب من الخلجات الشعورية العنيفة او انعكاس لموقف اصرار او رغبة في ان يكون للمعنى صدى عميق في النفوس .

واذ ما قال الشاعر :

والله اني لاخو همة تسموا إلى المجد ولا تفتر

فانه لم يرسم في ذهنه مخططاً لذلك المنكر الذي يتصدى له بانكاره حتى يتذرع بالوسائل التي تدفع انكاره ، وانما توالت التوكيدات تعبيراً عن هذه الهمة العالية التي تسمو به .

ثم ان المعاني الأخر غير الاخبار والاعلام هي الاخرى تحدد صيغة النص توكيداً او عدم توكيد ، فبمقدار حرص الاديب على ان يتوجه إلى نفوس الآخرين ليؤثر في جنباتها تتحدد طبيعة التعبير .

وحسبنا لتوضيح القضية شاهدان من الشعر القديم نتحسس من خلالهما عدم اتساق قواعد البلاغيين وتقسيماتهم مع مضامين الشعر واسلوبه .

واذا ما قرأنا لحاتم الطائي بيتين يكاد يكون موضوعهما واحدا احدهما مؤكد باكثر من اداة ، والثاني خلو من ادوات التوكيد ، وهما قوله :

---

(٥٥) مقالات في النقد الادبي ٤٢

واني لعف الفقر مشترك الغنى ... وودك شكل لايوافقه شكلي
ولي نيقة في المجد والبذل لم تكن ... تأنقها فيما مضى احد قبلي (٥٦)

لابد لنا ان نتساءل عن الفرق بين دلالة البيت الأول ودلالة البيت الثاني، ولم اكد الاول دون الآخر، مع عدم التفاوت بين مدلوليهما، فلو اخذ الشاعر نفسه بشيء مما تصوره البلاغيون لكان أمره في البيتين سواء، ولو حمل البلاغيون انفسهم عناء مدارسة النصوص لرجعوا عن كثير قواعدهم التي لاتتسق مع مدلولات النصوص الفنية .

وحين يقف النابغة الذبياني موقفاً يتجلى فيه انكار المنكر واضحاً لالبس فيه، انه موقف الاعتذار، والمعتذر اليه لايلين،لابد ان نتساءل ايضاً لم لم يلجأ الى اساليب التوكيد يلتمس بها اثبات براءة مما رمي ،وذلك في قوله :
اتاك امرؤ مستعلن لك بغضة ... له من عدو مثل ذلك شافع
والذي اذهب اليه ان الغرض الحجازي هو الذي يكشف عن طبيعة المضمون ويحدد — مع مستلزمات التعبير الاخرى — طبيعة الصياغة .

وينبغي ان نقرر مع ارسطو انه « على الشاعر ايضاً ان يسعى ليتمثل في نفسه قدر المستطاع مواقف اشخاصه وحركاتهم ، فأقدر الشعراء اولئك الذين يشاركون اشخاصهم مشاعرهم ، لما بينهم وبين الناس من مشابه . والحق ان اقدر الناس تعبيراً عن الشفاء من كان الشفاء في نفسه ، واقدرهم تعبيراً عن الغضب من استطاع ان يملأ بالغضب قلبه » (٥٨)

خاتمة ومقترح :

بعد هذه الافاضة في تحديد مدلولات الجملة الخبرية نوجز القول في غاية هذا البحث : وهي الغاء التقسيم الثلاثي للجملة الخبرية ، لأن شرائط

(٥٦) ديوان حاتم الطائي ٧٥ .
(٥٧) ديوان النابغة الذبياني ٥٠ .
(٥٨) فن الشعر ٤٨ .

هذا التقسيم لا تطرد للمنشيء الأديب على نسق واحد لايتغير . وينبغي ان يسبق ذلك الغاء تقسيم الكلام الى خبر وانشاء ، لان البلاغيين انفسهم عرضوا لانماط اسلوبية اخرى لاتدخل ضمن التقسيم كالفصل والوصل ، والايجاز والاطناب والمساواة .

ثم ينظر الى الموضوع من حيث اهميته مع دراسة الحال المنشيء ، ثم مراعاة احوال المخاطبين بقدر مايتعلق الأمر بهم ، وصياغة الجمل والتراكيب على صورة تحقق متطلبات تلك الملابسات في آن واحد ، وعندئذ يمنح الاديب الصورة فاعليه تخلدها وتحفظ حيوتها ونصاعتها ، وتكشف عن الموهبة التي يتحلى بها المنشيء .

ولعلي انصف الدراسات البلاغية اذا دعوت الى الرجوع الى المؤلفات التي تمثل المدرسة الادبية في البلاغة كأسرار البلاغة ودلائل الاعجاز للامام عبد القاهر الجرجاني والمثل السائر لابن الاثير وكتاب الصناعتين لابي هلال العسكري وكتب اعجاز القرآن ، مع الأخذ بمعطيات النقد الحديث والدراسات النفسية والجمالية .

وبذلك نعيد للجملة العربية موقعها الصحيح المتساوق مع طبيعتها الفنية والجمالية، وبذلك ايضاً يحس الدرس البلاغي ان حياة جديدة بدأت تسري الى رحابة .

مصادر البحث ومراجعه

١ - اعجاز القرآن - عبد الكريم الخطيب - الكتاب الثاني مطبعة دار الفكر العربي . ط١، ١٩٦٤ .

٢ - الايضاح في علوم البلاغة - جلال الدين محمد بن عبد الرحمن القزويني ، تحقيق وتعليق لجنة من كلية اللغة العربية بالازهر . مطبعة السنة المحمدية .

٣ - البرهان في وجوه البيان - ابو الحسين اسحق بن ابراهيم بن سليمان ابن وهب الكاتب . تحقيق د.ا احمد مطلوب - ود خديجة الحديثي ط١ - ١٩٦٧ .

٤ - البرهان الكاشف عن اعجاز القرآن ، كمال الدين عبد الواحد ابن عبد الكريم الزملكاني ، تحقيق د. خديجة الحديثي ، و د. احمد مطلوب - مطبوعات رئاسة ديوان الاوقاف مطبعة العاني - بغداد ١٩٧٤.

٥ - التلخيص في علوم البلاغة - جلال الدين محمد بن عبد الرحمن القزويني شرح عبد الرحمن البرقوقي ط١ - ١٩٠٤.

٦ - جواهر البلاغة في المعاني والبيان والبديع - السيد احمد الهاشمي ط١٢، مطبعة السعادة بمصر ١٩٦٠.

٧ - حاشية الدسوقي - في شروح التلخيص ، ج١ مطبعة عيسى البابي الحلبي وشركاه بمصر .

٨ - الحيوان : ابو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ - تحقيق وشرح عبد السلام محمد هرون ج٣ دار الكتاب العربي - بيروت ط٣ ، ١٩٦٩.

٩ - دفاع عن البلاغة - احمد حسن الزيات - القاهرة ١٩٤٥.

١٠ - دلائل الاعجاز - عبد القاهر الجرجاني - صححه وشرحه احمد مصطفى المراغي ط٢ ، نشر المكتبة المحمودية التجارية بمصر .

١١ — ديوان حاتم الطائي — دار بيروت ١٩٧٤
١٢ — ديوان النابغة الذبياني — صنعه ابن السكيت — تحقيق د. شكري فيصل — دار الفكر ١٩٦٨.
١٣ — عروس الافراح من شروح التلخيص — بهاء الدين السبكي ج١ مطبعة عيسى البابي الحلبي وشركاه بمصر.
١٤ — علم المعاني . د. درويش الجندي — مطبعة نهضة مصر — القاهرة
١٥ — العمدة — ابن رشيق القيرواني — تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد ج١ — ط٤ .
١٦ — فن الشعر — ارسطو طاليس — ترجمة د. عبد الرحمن بدوي القاهرة ١٩٥٣.
١٧ — كتاب الصناعتين : الكتابة والشعر — ابو هلال العسكري — تحقيق علي محمد البجاوي ومحمد ابو الفضل ابراهيم ط١ — دار احياء الكتب العربية ١٩٥٠ .
١٨ — اللغة والدلالة في الشعر — د. علي عزت — المكتبة الثقافية ٣٣٠ ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٧٦ .
١٩ — مبادىء النقد الادبي — إ.أ — ريتشاردز — ترجمة وتقديم د. مصطفى بدوي — وزارة الثقافة والارشاد القومي المصري ١٩٦١.
٢٠ — مختصر السعد التفتازاني على التلخيص — من شروح التلخيص — ج١ مطبعة عيسى البابي الحلبي وشركاه بمصر .
٢١ — مفتاح العلوم — ابو يعقوب السكاكي — ط١ المطبعة الادبية بمصر .
٢٢ — مقالات في النقد الادبي — د. محمد مصطفى هدارة — دار القلم ١٩٦٥ .

البحوث الاقتصادية والجغرافية


ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

مهدي علي د . زكريا عبد الحميد

تطور الحركة التعاونية الزراعية في العراق في الفترة ١٩٣٧-١٩٧٦ مع الاشارة الى محافظة نينوى

القي هذا البحث في الندوة العلمية لتنظيم وادارة الجمعيات التعاونية التي انعقدت في الفترة من ٧ ــ ١٢ آيار لسنة ١٩٧٧ في الموصل-العراق



مقدمة

تهدف هذه الدراسة إلى القاء الضوء على تطور الحركة التعاونية الزراعية في القطر العراقي في الفترة مابين ١٩٣٧ ــ ١٩٧٦ . فلقد عانت الطبقة الفلاحية الكثير من الظلم والاستغلال في ظل النظام الاقطاعي الملكي قبل ثورة ١٤ تموزعام ١٩٥٨ التي غيرت من مجرى الحياة السياسية والاقتصادية والاجتماعية في العراق . ثم كانت ثورة ١٧ ــ ٣٠ تموز التقدمية التي بدأت تخطو بالعراق بخطى واسعة وملموسة نحو تحقيق التنمية الاقتصادية والرفاهية الاجتماعية .وكان نصيب الطبقات الكادحة ومنها الطبقة الفلاحية في هذا المضمار واضحاً وملموساً ، حيث أن اسعاد هذه الطبقات هو هدف هذه الثورة ومن أجلهم قامت . وان الاهتمام المتزايد والدعم الكبير من قبل القيادة السياسية لثورة ١٧ تموز لتنشيط وتطوير ودعم الحركة التعاونية في القطر العراقي لعلامة مضيئة من علامات الانجازات الهامة في سجل هذه الثورة وهي تسير بخطى ثابتة في درب الاشتراكية المتميز بالعدالة والمساواة والقضاء على الاقطاع والتخلف .

وتبدأ دراستنا باستعراض تحليلي لتطور الحركة التعاونية في العراق خلال الفترة المذكورة وذلك بالاستعانة بأحدث ما أمكننا التوصل اليه من احصاءات وبيانات تتعلق بهذا المجال ،مع تشخيص أهم المعوقات التي لاتزال قائمة حتى الان .

وبعد ذلك قدمنا عرضاً موجزاً للحجم النسبي للحركة التعاونية الزراعية في محافظة نينوى مع محاولة تحديد الاهمية النسبية لأنشطة التعاونيات الزراعية في هذه المحافظة بالنسبة للقطر .

وأخيراً أوجزنا بعض النتائج والتوصيات التي أمكننا تحديدها من خلال الدراسة .

ونود أن نذكر أن الجانب التاريخي لهذه الدراسة قام باعداده الاستاذ مهدي علي عبدالحسين ، أما الجانب الاحصائي التحليلي فقد قام باعداده الدكتور زكريا عبدالحميد باشا .

اولا : تطور الحركة التعاونيةالزراعية في العراق في الفترة ١٩٣٧–١٩٧٦:

لقد بدأ التنظيم التعاوني بمعناه العام في العراق عام ١٩٤٤ م عند اصدار القانون رقم ٢٧ الخاص بالتعاون وتنظيمه . وقد سبق ذلك عده محاولات لتأسيس بعض الجمعيات التعاونية وخاصة الاستهلاكية منها في عام ١٩٣٧ عندما تأسست أول جمعية تعاونية في مزرعة الزعفرانية من الموظفين الزراعيين بموجب قانون الجمعيات رقم ٢٢ لعام ١٩٢٢ . وقد حلت هذه الجمعية عام ١٩٤٤ لأسباب سياسية .

وفي عام ١٩٣٨ شكلت ثاني جمعية وهي الشركة التعاونية المحدودة التي قام بتأسيسها أحد أساتذة دار المعلمين العالية مع بعض الطلبة : وكان الغرض الاساسي لهذه الجمعية هو انشاء معمل لاستخراج المواد الكيمياوية من النباتات المتوفرة محلياً ، ومعمل للالبان ، ومعمل آخر للتعليب. غير ان هذه الجمعية لم يحالفها النجاح بسبب قيام الحرب العالمية الثانية التي أدت الى عدم وصول المكائن والالات الخاصة بتلك المعامل .

وفي عام ١٩٤٢ أسست ثالث جمعية وهي الجمعية الاستهلاكية لموظفي ومستخدمي الدولة ، وقد فشلت هذه الجمعية لأنها لم تستطع تلبية احتياجات أعضائها بسبب ظروف الحرب وضعف روح مباديء التعاون بين أعضائها بالاضافة الى عدم وجود تشريع قانوني خاص للتعاون بدعمها ويمد يد المساعدة الضرورية لتشجيعها وتطويرها .

ويعتبر عام ١٩٤٤ كما أشرنا أعلاه البداية الحقيقية للتنظيم التعاوني في العراق حيث تم اصدار القانون الاول الخاص بالتعاون الذي أخذت أحكامه من القانونين الهندي والمصري رقم ٥٨ لعام ١٩٤٤ . وبموجب هذا القانون أسست أول دائرة خاصة لمعالجة قضايا الجمعيات التعاونية على اختلاف أنواعها وبالرغم من صدور هذا القانون فان الحركة التعاونية لم يكتب لها النجاح والتقدم ، وظلت تسير بخطى وئيدة نتيجة للمشاكل والمعوقات الادارية والتنظيمية والمالية والاجتماعية .

وفي عام ١٩٤٦ تأسست اول جمعية زراعية في العراق في منطقة الدورة ببغداد . وكان الغرض منها هو الحصول على الاراضي الزراعية لاعضائها وتجهيز المضخات المائية وشق الترع والقنوات وشراء الاسمدة والبذور ومحاولة حقول تربية الماشية والدواجن .

ونتيجة لفشل الجمعيات التعاونية وعدم تحقيق اهدافها ، استعانت الحكومة العراقية بمجموعة من الخبراء ، ففي عام ١٩٤٧ استعانت بالخبير البريطاني سوريج — وفي عام ١٩٥١ بخبير بريطاني آخر هو — جيزمن ، وفي عام ١٩٥٢ بالخبير — هيل — من منظمة الغذاء الدولية ، وقد قدم هؤلاء الخبراء بعض التقارير والمقترحات والتوصيات لتطوير الحركة التعاونية في العراق وخاصة الريف . غير ان الحكومة العراقية آنذاك لم تأخذ بأي من هذه المقترحات والتوصيات . ويرجع ذلك إلى الاعتقاد بأن انتشار الحركة التعاونية وتطورها قد يؤدي إلى انبثاق الوعي السياسي والثقافي والاجتماعي بين ابناء الشعب بصورة عامة والاواسط الفلاحية بصورة خاصة مما قد يترتب عليه القضاء على النظام الاقطاعي الملكي الذي كان مسيطراً على الحكم في العراق والذي كان يعتبر الركيزة الاساسية للسيطرة الاستعمارية في تلك الفترة .

لقد واجهت الحركة التعاونية خلال تلك الفترة الكثير من العقبات والمشاكل منها عدم اهتمام الدولة بهذه الحركة بصورة جدية والجهل الذي كان يسود أبناء الشعب اضافة إلى قلة رؤوس الاموال المستثدرة في هذا المجال والظروف السياسية غير المواتية لذلك ونظام ملكية الاراضي الزراعية الذي كان سائدا وضعف الجهاز الاداري الذي كان مشرفاً على الحركة التعاونية .

وانبثقت ثورة ١٤ تموز عام ١٩٥٨ التي تعتبر نقطة تحول جبارة في مجرى الحياة السياسية والاقتصادية والاجتماعية في العراق . ومع انبثاق هذه الثورة بدأت حياة جديدة تدب في شرايين الحركة التعاونية وخاصة في مجال بناء الجمعيات التعاونية الزراعية حيث اوليت هذه الحركة اهتماماً جدياً

من اجل تطويرها وترسيخها ، فقد شرع قانوناً جديدا عام ١٩٥٩ في مجال التعاونيات لمد يد المساعدة لها وتطويرها ، كما ان قانون الاصلاح الزراعي لعام ١٩٥٨ مثل الدعم والدافع الاولى للحركة التعاونية الزراعية في الريف العراقي حيث الزم هذا القانون الفلاح المنتفع منه الانتماء الى الجمعيات التعاونية .

ولقد لعبت مديرية التعاون والانتاج الزراعي العامة دوراً فعالا ونشطاً في توجيه وارشاد التعاونيات الزراعية وتزويدها بالمكائن الزراعية والقروض النقدية . الا أن هذه المساعدات لم تكن بالحجم الكافي ، هذا بالاضافة الى الكثير من العوامل العديدة المعوقة ، منها :ـ

١ ـ انعدام الاستقرار السياسي في العراق خلال تطبيق قانون الاصلاح الزراعي .
٢ ـ مقاومة الاقطاع والاستعمار وعملائه للحركة التعاونية .
٣ ـ عدم استيعاب فكرة ومفهوم الحركة التعاونية من قبل الجماهير الفلاحية لنقص الوعي السياسي والثقافي لهذه الطبقة بصورة خاصة .
٤ ـ التناقضات الطبقية الكثيرة التي كانت منتشرة بين مختلف الطبقات الفلاحية من جهة وموظفي أجهزة الدولة من جهة أخرى .

وعند بزوغ نور ثورة ١٧ ـ ٣٠ تموز الوطنية التقدمية عام ١٩٦٨ ؛ قدمت الثورة وقيادتها السياسية الدعم المعنوي والمادي الفعال للحركة التعاونية واعتمدت أسلوباً جديداً في التعاونيات الزراعية الذي يتمثل في العمل على نشر المزارع التعاونية الجماعية والمشتركة .

لقد نص الدستور المؤقت لعام ١٩٧٠ بصورة واضحة وجلية على تشجيع الدولة للحركة التعاونية في مجالات الانتاج والتوزيع والاستهلاك ، كما شرع قانوناً جديداً للتعاون رقم ٢٠٢ لعام ١٩٧٠ الذي خضع بموجبه جميع أشكال التعاون ـ عدا التعاونيات الزراعية الخاصة ـ للاصلاح الز اعي الذي نظمه قانو ن الاصلاح الزراعي الجديد رقم ١١٧ لعام ١٩٧٠ .

لقد شهدت الحركة التعاونية بصوره عامه تطوراً هائلا بعد ثورة ١٧ تموز وضمت جماهير واسعة من الفلاحين كما ان القيادة السياسية قد دعمت هذه الحركة بكل الامكانيات والمساعدات المالية والفنية والادارية ، كما أن قانون الاصلاح الزراعي رقم ١١٧ لعام ١٩٧٠ قد منح مركزاً ممتازاً وبنى قاعدة كونكريتية صلبة مكنت الحركة التعاونية من أن تنمو وتترعرع في ظل الثورة، وفيما يلي استعراض لبعض مجالات نمو التعاونيات الزراعية في الفترة الاخيرة : -

١ - عددالتعاونيات الزراعية خلال السنوات ١٩٧١ - ١٩٧٧ :

بالنظر الى جدول (١) وشكل (١) التاليين يتضح لنا معدلات النمو الكبيرة لعدد الجمعيات التعاونية الزراعية ومنطقة عملها.حيث نجد ان عدد هذه الجمعيات قد ارتفع من ٨٣١ جمعية عام ١٩٧١ الى ١٦٥٢ جمعيه عام ١٩٧٥ اي ان النسبه المئويه للزياده بلغت ٩٨و٨ خلال تلك الفترة.

كما أن منطقة عمل هذه الجمعيات قد زادت من ٦٧٦٦ الف مشارة عام ١٩٧١الى ١٨٠٩٣ الف مشارة عام ١٩٧٥ ، أي أن النسبة المئوية للزيادة بلغت ١٦٧٫٤ خلال تلك الفترة. وآخر الاحصاءات تشير الى أن عدد التعاونيات الزراعية والمتخصصة بلغ ١٨١٠ جمعية في بداية عام ١٩٧٧ ، وبلغ عدد المزارع الجماعية ٧٩ مزرعة بعد ان كانت ست مزارع فقط في عام ١٩٧١، كما ان المزارع التعاونية المشتركة ارتفع عددها من ١٧١ مزرعة عام ١٩٧٥ الى ٢٠٦ مزرعة في بداية عـام ١٩٧٧ .

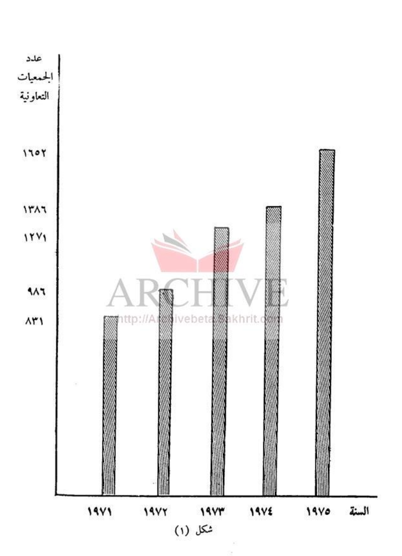
جدول رقم (١)

تطور التعاونيات الزراعية خلال السنوات ١٩٧١ ـ ١٩٧٥

السنة	التعاونيات الزراعية عددها	النسبة المئوية للنمو مقارنة بالنسبة السابقة	عدد الأعضاء	رأس المال المدفوع (الف دينار)	رأس المال الاحتياطي (الف دينار)	منطقة عمل التعاونيات الزراعية مساحتها (الف مشارة)	النسبة المئوية للنمو مقارنة بالنسبة السابقة
١٩٧١	٨٣١	٠٠	١٢٩٥٨٨	٤٦٧	١٥٥	٦٧٦٦	٠٠
١٩٧٢	٩٨٦	١٨,٧	١٦٠١٤٨	٦٠٣	٢٦٠	٩٩٢٩	٤٦,٧
١٩٧٣	١٢٧١	٢٨,٩	٢٠١٣٩٠	٤٩٠	٣٣١	١٣٤٦٣	٣٥,٦
١٩٧٤	١٣٨٦	٩,٠	٢١٧٧٢٣	٥٩٠	٤٢١	١٣٦٤١	١,٣
١٩٧٥	١١٥٢	١٩,٢	٢٣٩٦٤٤	٧٠٠	٤٩٥	١٨٠٩٣	٢٤,٦

المصدر :

أعد هذا الجدول بالاستعانة بجدول (١٥) ص ٢٧٠ بكتاب الجيب الاحصائي لعام ١٩٧٥ ـ الجهاز المركزي للاحصاء ـ وزارة التخطيط ـ الجمهورية العراقية.


عدد
الجمعيات
التعاونية
١٦٥٢
١٣٨٦
١٢٧١
٩٨٦
٨٣١
١٩٧١
١٩٧٢
١٩٧٣
١٩٧٤
١٩٧٥
السنة
شكل (١)

٢ ــ المكننة الزراعية :

اتجه اسلوب الانتاج في التعاونيات الزراعية الى الازدياد المستمر في الكثافة الاليـة ، ويتضح هذا بجلاء من جدول رقم (٢) التالي الذي يعكس مدى الاهتمام بهذا الاتجاه وذلك من خلال قروض المصرف الزراعي الى الجمعيات التعاونية الزراعية والتي خصص الجزء الاكبر منها لتزويد هذه الجمعيات بالمكائن والالات الزراعية . فمن هذا الجدول نرى ان الحجم النقدي للقروض التي خصصت لهذا الغرض قفز من ٤٨٢١٠ دينار عام ١٩٦٦ الى ٣٠٧٦٣٣٧ دينار عام ١٩٧٥ ، أي أنها بلغت عام ١٩٧٥ حوالي ٦٤ مرة ماكانت عليه عام ١٩٦٦ .

كما أن الطفرة الكبيرة في الحجم الكلي للقروض الزراعية التعاونية بصورة عامة انما تعكس الاهتمام الكبير والجاد لحكومة الثورة لدعم الحركة التعاونية الزراعية في القطر العراقي ، فبالمقارنة بعام ١٩٦٦ نجد ان حجم هذه القروض بلغ حوالي ٢١ مرة عام ١٩٧٠ ، وحوالي ٦١ مرة عام ١٩٧٥ .

وقد استغلت هذه القروض بنسب متفاوتة على الانشطة والاحتياجات المختلفة للجمعيات التعاونية من تطويرها وخدمتها وتوفير كل متطلباتها سواء كان ذلك في مجال الانتاج او التسويق او الخدمات ، وهذا ما يمكن الاستدلال عليه بوضوح من جدول (٢) . التالـي :

جدول رقم (٢)

مبالغ القروض المسحوبة من المصرف الزراعي إلى الجمعيات التعاونية الزراعية (بالدينار)

السنة التعاونية	المجموع الكلي	استصلاح الأراضي والبساتين	أغراض اخرى	خدمات زراعية	الثروة الحيوانية	التسويق التعاوني	المكائن والآلات الزراعية	التجهيز الزراعي
١٩٦٥ – ٦٦	٩٦٦٨٨	—	—	—	—	٦١٢٥	٤٨٢١٠	٤٢٣٥٣
١٩٦٦ – ٦٧	١٢٥١١٩	—	٥٠٠	—	٧٠٠٢	١٠٨٢٢	١٦٣٢٥	٨٥٩٧٠
١٩٦٧ – ٦٨	٢٦٢٧٧٥	—	٧٥٠	—	٢٠٠٠	٦٠٩٧٥	٤٣٠٠	١٩٤٧٥٠
١٩٦٨ – ٦٩	٤١٢٦٦٥	—	١١١٥	٢١٦٢٢	٨٥٢٧٢	١١٥٧٣٠	١٨١٢٥	١٧٠٨٠١
١٩٦٩ – ٧٠	٢٠٢٦٥٢٢	—	٣٣٥٢٦	١٢٥٧٣١	٢٢٢٤٥٩	٣٥٤٤٦٢	١٥١٣٨٩	١١٣٨٩٥٥

١٩٧٠ – ٧١	١٧٩٧٨٢٧	—	١٨٦٣٩	١٣٦٣٠٣	٥٢٤٣٧	٣٤٤٣٦١	٢٧٨١٠٠	٩٦٧٩٨٧
١٩٧١ – ٧٢	٢١٩٨٨٥٢	—	٤٦١٥١	١٥٣٤٣٩	٢٩٩٦٥٦	٣٤٩٤٦٤	٥١٧٤٢٥	٨٣٢٧١٧
١٩٧٢ – ٧٣	٢٧٨٤٤٢٢	—	١١٣٢٥٧	١٢٩٣٤٩	٤٩٢٤١٩	٣١٦٤٧٨	٦١٧٠٦٦	١٠٥٥٨٥٣
١٩٧٣ – ٧٤	٢٩٠٥٣٥٦	١٦٠٤٢٤	١٠٤٨٠	٨٥٨٤٣	٧٤٧٦٩٦	١١٨٧٧٤	٦٧٠٥٢١	١١٤١٦١٨
١٩٧٤ – ٧٤	٥٩٢٠٢٨٠	١٥٧٩٢٧	٩٨٥٠	٣٢٠٢٦	٩٢١٧٤٩	١٣٥٩٦٦	٣٠٧٦٣٣٧	١٥٨٦٤٢٥

المصدر : المجموعة الاحصائية السنوية ١٩٧٥ –الجهاز المركزي للاحصاء– وزارة التخطيط– الجمهورية العراقية .

٣ ـ مشـاريع الثـروة الحيـوانيـة :

ازداد الاهتمام في العراق في الفترة الاخيرة بتنمية وتطوير الثروة الحيوانية من حيث الكم والنوع بحيث يكتفي العراق ذاتياً خلال السنوات القليلة القادمة بما يحتاجه الاستهلاك المحلي من هذا النوع من الانتاج ثم الدخول في مجال التصدير الى الاقطار العربية الشقيقة والدول الصديقة . وقد استثمرت مبالغ كبيرة في هذا المجال ، كما خصصت الاستثمارات اللازمة لتحقيق الهدف المنشـود أعلاه خلا ل الخطة الخمسية الحالية (١٩٧٦ ـ ١٩٨٠) وجدو ل (٣) التالي يوضح عد مشاريع الثروة الحيوانية في مناطق عمل التعاونيات لغاية ٣١ /١٢/ ١٩٧٥ .



جدول رقم (٣)

مشاريع الثروة الحيوانية في مناطق عمل التعاونيات الزراعية في العراق لغاية ١٩٧٥/١٢/٣١ (مع تحديد النصيب النسبي لمحافظة نينوى في هذا المجال)

	دودة القز	مناحل	دواجن	أغنام	أبقار حليب	عجول
العراق	٢٢	١٠	٢٦١	٢٥٢	١٨	٨٨
محافظة نينوى	٤	—	١٠٠	٥٢	—	٨
نينوى إلى العراق كنسبة مئوية	١٨	—	٣٨,٣	٢٠,٦	—	٩

المصدر :

أعد هذا الجدول بالاستعانة بجدول (٤٢,٣) بالمجموعة الاحصائية السنوية لعام ١٩٧٥–الجهاز المركزي للاحصاء، وزارة التخطيط – الجمهورية العراقية .

وبالرغم من هذا الدعم الهائل من قبل حكومة الثورة للحركة التعاونية الزراعية ، الا أنه يوجد بعض المعوقات التي تكتنف طريق النمو النوعي لهذه الحركة ، ومن أهم هذه المعوقات ما يلي : —

١ — لايزال الاسلوب الفردي في الزراعة معتمداً في بعض الجمعيات التعاونية الزراعية.

٢ — عدم الاستيعاب الكامل للمبادىء التعاونية واهدافها من قبل بعض من يعملون في هذا المجال .

٣ — النقص الشديد في المهارات التنظيمية والادارية لدى قسم من النظار والمشرفين المعينون في هذه الجمعيات .

٤ — عدم تطبيق الاساليب الحديثة والمتطورة في مجالات تسويق وخزن وتصنيف وتخطيط أسعار المحاصيل الزراعية .

٥ — بعض الجمعيات التعاونية الزراعية ليست بالمستوى المطلوب في الهيكل التركيبي لمجالسها الادارية بسبب سيطرة أغنياء الفلاحين عليها واستغلال ذلك لمصالحهم الشخصية .

ثانياً : عرض موجز للحجم النسبي للحركة التعاونية الزراعية في محافظة نينوى :

نشأت اول جمعية تعاونية زراعية في محافظة نينوى عام ١٩٦٣ في منطقة ربيعة وكانت هذه الجمعية هي اللبنة الايجابية الاولى للحركة التعاونية الزراعية في هذه المحافظة . الا أن هذه التجربة لم تؤت ثمارها المرجوة و لم تحقق الاهداف التي أنشأت من أجلها بالاضافة الى فشلها في تقديم الخدمات الاساسية للفلاحين.

وظل الحال كذلك الى أن قامت ثورة ١٧ تموز التقدمية عام ١٩٦٨ حيث بدأ الاهتمام الكبير بالحركة التعاونية في جميع محافظات القطر ضمنها محافظة نينوى. وبنهاية عام ١٩٧٥ نجد أن عدد التعاونيات الزراعية في محافظة نينوى بلغ ٢٠٣ تعاونية من مجموع ١٩٥٢ تعاونية موزعة في محافظات القطر، كما أصبح بها ١٨ تعاونية مشتركة من مجموع ١٧١ تعاونية .

وبالنظر إلى جدول (٣) السابق نجد ان محافظة نينوى كانت مجال اهتمام ملحوظ في بعض أنشطة ومشاريع الثروة الحيوانية في مناطق عمل التعاونيات الزراعية حيث بلغت نسبة مشاريع الدواجن بها ٣٨,٣٪ من مشاريع القطر بنهاية عام ١٩٧٥ وهي أعلى نسبة بين المشاريع الاخرى ، يليها في ذلك نسبة مشاريع الاغنام وهي ٢٠,٦٪ من مشاريع القطر ، ومشاريع دودة القز التي بلغت ١٨٪ ، ثم أخيرا مشاريع العجول والتي بلغت نسبتها ٩٪ من مشاريع القطر .
كما ان الجدول رقم «٤» التالي يوضح الحجم النسبي لمكائن التعاونيات الزراعية في محافظة نينوى مقارنة بتعاونيات القطر . ويلاحظ من هذا الجدول الاهمية النسبية المختلفة لبعض المكائن في تعاونيات هذه المحافظة ، فنجد ان أعلى نسبة وهي ٨٤,٦٪ خاصة بالحاصدات ، ومرجع ذلك إلى كون هذه المحافظه المصدر الاكبر لانتاج الحنطة في العراق حيث انها تتمتع بميزة نسبية في انتاج هذا النوع من المحاصيل الزراعية . ويلي ذلك نسبة سيارات الحمل والتي تبلغ ٢٩٪ . وأقل نسبة وهي ٦و٠٪ تخص المضخات المملكة ، وهذه النسبة الضئيلة انما تعكس الاعتماد التام للزراعة في محافظة نينوى على الري المطري ، وهذا بدوره يؤدي إلى تذبذب حجم المحاصيل الزراعية من سنة إلى أخرى بحسب معدلات سقوط الامطار وكيفية توزيعها على مدار شهور الموسم الزراعي. ويظهر ذلك جليا من جدول (٥) الذي يوضح الحجم الكلي للانتاج ومعدل المشارة لكل من الحنطة والشعير خلال الفترة ١٩٦٩ — ١٩٧٥ . وهذان المحصولان مصدرهما الرئيسي هو منطقة الجزيرة بمحافظة نينوى . وفي السنوات الاخيرة بدأ مشروع سد الموصل يأخذ طريقه إلى حيز التنفيذ مما سيؤدي إلى اعتماد أسلوب الري المنتظم في منطقة الجزيرة عند تنفيذ هذا المشروع وبالتالي سيزداد الحجم الكلي للانتاج ، ومعدل غلة المشارة من هذين المحصولين بالاضافة إلى أنه ستوجد حالة من التأكد بالنسبة لحجم الانتاج من المحاصيل المختلفة بما فيها محصول الحنطة الذي يعتبر من أهم المحاصيل الزراعية ليس فقط على المستوى القطري والقومي بل وايضا على المستوى العالمي .

جدول رقم (٤)

عدد مكائن التعاونيات الزراعية في العراق لغاية ٣١/١٢/١٩٧٥ (مع تحديد النصيب النسبي لمحافظة نينوى في هذا المجال)

	سيارات الحمل	الآلات الزراعية	الماطورات الصغيرة	المضخات المشتراة	الساحبات	الحاصدات	المضخات المملكة	التعاونيات
العراق	١٥١	١١٤٥	٣٤٢٨	١٠١	٨١١	١٤٩	٨٠٣	٣٠٠
محافظة نينوى	٤٤	٢١٣	٧٠٥	٣	١٦٦	١٢٦	٥	٣
نينوى إلى العراق كنسبة مئوية	٢٩	١٨,٦	٢٠,٦	٢,٩٧	٢٠,٥	٨٤,٦	٠,٦	١,٠٠

المصدر :
أعد هذا الجدول بالاستعانة بجدول (٤١/٣) ص ١٠٥ بالمجموعة الاحصائية السنوية لعام ١٩٧٥ الجهاز المركزي للاحصاء– وزارة التخطيط – الجمهورية العراقية .

جدول رقم (٥)

الحجم الكلي للانتاج ومعدل غلة المشارة لمحصولي الحنطة والشعير الفترة ١٩٦٩ ـ ١٩٧٥

السنة	الحنطة		الشعير	
	الانتاج بالطن	الغلة كغم / مشارة	الانتاج (بالطن)	الغلة كغم / مشارة
١٩٦٩ ـ ١٩٧٠	١٢٣٥٦٩٠	١٧٥,٧	٦٨٢٢٠٣	٢٥٣,٥
١٩٧٠ ـ ١٩٧١	٨٢٢٣٠٠	٢١٦,٨	٤٣٢٤٠٠	٢٧٢,٩
١٩٧١ ـ ١٩٧٢	٢٦٢٥٣٠٠	٣٤٢,٨	٩٧٩٦٠٠	٣٣٧,٥
١٩٧٢ ـ ١٩٧٣	٩٥٧٠٠٠	٢٠٧,٠	٤٦١٨٠٠	٢٤٨,٨
١٩٧٣ ـ ١٩٧٤	١٣٣٨٩٠٠	٢٠٤,٩	٥٣٢٨٠٠	٢٥٦,٦
١٩٧٤ ـ ١٩٧٥	٨٤٥٤٠٠	١٥٠,١	٤٣٧٠٠٠	١٩٢,٦

المصدر :

المجموعة الاحصائية السنوية لعام ١٩٧٥ ـ الجهاز المركزي للاحصاء ـ وزارة التخطيط ـ الجمهورية العراقية ص٦٧

ومما يجدر ذكره أن وسائل النقل المستخدمة في عمليات التسويق التعاوني في محافظة نينـوى أقل مما يجب أن تكون عليه ، مما يضطر بعض الفلاحين إلى الاعتماد على القطاع الخاص الذي يتقاضى أجورا عالية للنقل كما أن بعض المكائن والالآت الزراعية في تعاونيات هذه المحافظة غير كافية مما يدفع الفلاحين إلى اللجوء إلى الملاكين وأغنياء الفلاحين لتأجير آلاتهم لتنفيذ بعض الانشطة الزراعية كالحراثة بتكلفة ترتفع كثيرا عن التكلفة التي تتقاضاها التعاونيات الزراعية .

اهم النتائج المستخلصة من هذه الدراسة :

١ – لم تشهد الحركة التعاونية الزراعية في القطر العراقي اهتماماً جادا بتنميتها وتطويرها الا بعد قيام ثورة ١٧ – ٣٠ تموز عام ١٩٦٨ . وهذا ماتعكسه جميع الاحصاءات سواء مايتعلق منها بالنمو العددي لهذه التعاونيات أو بالنمو الكمي لأنشطتها ومشاريعها ومكائنها ، وأحجام القروض الممنوحة لها من المصارف الزراعية .

٢ – مع ان الحركة التعاونية عامة خطت خطوات كبيرة ، ونمت بمعدلات عالية بعد عام ١٩٧٠ ومن ضمنها الحركة التعاونية الزراعية الا أنه لابد من زيادة الاهتمام ببعض الجوانب الهامة حتى يمكن القضاء على السلبيات الحالية في هذا المجال ،ومن أهم هذه الجوانب مايلي : –

أ– ضرورة اتباع أسلوب التخطيط في جميع مجالات الانشطة التعاونية الزراعية كالانتاج وتقدير الاستهلاك والتسويق وذلك في اطار وذلك في اطار التخطيط الشامل ككل المجالات الاقتصادية في القطر كما ورد في التقرير السياسي للمؤتمر القطري الثامن لحزب البعث العربي الاشتراكي .

ب– ضرورة الاهتمام بتنمية وتطوير البحوث العلمية التطبيقية في مجالات التعاون عامة والزراعية خاصة .

جـ - ضرورة زيادة الاتجاه نحو اعتماد صيغ الادارة الديمقراطية في اطار المسؤولية والواجبات لجميع الاعضاء على حد سواء .

د - ضرورة التعجيل بتشجيع وتحفيز صيغ الوحدات الانتاجية الزراعية الجماعية والمشتركة واحلالها محل الاسلوب الفردي .

هـ - ضرورة الاشراك الفعلي للجهاز التعاوني في توجيه وتدريب الفلاحين ومحو الامية في الريف ونشر الثقافة التعاونية التقدمية بين الطبقات الفلاحية وذلك بالتعاون مع الاجهزة الاعلامية والتعليمية للدولة مع تخصيص برامج اذاعية وتلفزيونية ثابتة لخدمة هذا الغرض .

و - ضرورة تصفية ما تبقى من الفكر الاقطاعي والبرجوازي الظاهر منه والمتستر وذلك لاكمال بناء القاعدة الاساسية للتحولات الاشتراكية في الريف .

٣ - تتمتع التعاونيات الزراعية في محافظة نينوى باهتمام متميز في بعض الانشطة الزراعية والحيوانية وخاصة فيما يتعلق بانتاج الحنطة والشعير ومشاريع الدواجن وتربية الاغنام . الا أن حجم الانتاج من المحاصيل الزراعية الرئيسة يتسم بدرجة كبيرة من عدم الاستقرار والثبات نتيجة للاعتماد على الري المطري . ومن المؤمل أن تتخذ خطوات ايجابية وسريعة لتنفيذ مشروع سد الموصل خلال السنوات القليلة المقبلة حتى يكتفي العراق ذاتيا في مجال انتاج المحاصيل الزراعية وعلى رأسها الحنطة بل وحتى يمكن ان يساهم إلى حد كبير في توفير هذه السلعة الهامة للعديد من الاقطار العربية والصديقة .

« المراجع »

١ — د. عبد الواحد كرم — الوجيز في قانون التعاون — دار الطبع والنشر الاهلية — بغداد — ١٩٧٢ .

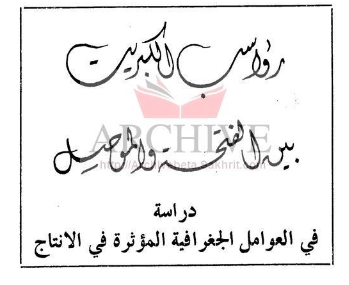
٢ — د. عبد الوهاب مطر الهراوي — اقتصاديات الاصلاح الزراعي والتعاون بغداد ١٩٦٧ .

٣ — مؤتمر استخدام الأساليب العلمية في تطوير الزراعة وتحقيق الاشتراكية في الريف العراقي — نيسان ١٩٧٥ .

٤ — تطور الحركة التعاونية في العراق (ورقة عمل) .
المؤسسة العامة للثقافة العمالية — بغداد ١٩٧٧ .



سعدي علي غالب

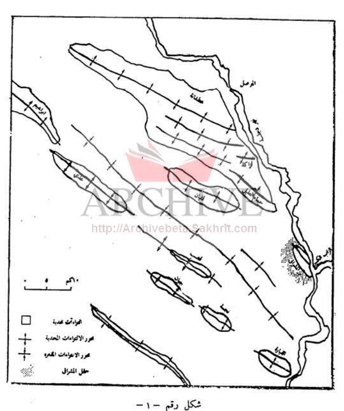




توجد رواسب الكبريت في عدة مناطق من العراق واهمها في الوقت الحاضر المنطقة الواقعة ما بين الفتحة والموصل وعلى جانبي نهر دجلة ، أي المنطقة التي تكون تضاريسها محدبة Anticline والتواءات مقعرة Syncline وتمتد من الشمال الغربي الى الجنوب الشرقي ، ويتواجد الكبريت في الصخور الرسوبية العائدة الى تكوينات الميوسين الاسفل«فارس الاسفل» وهي تمتد وتشمل مساحات واسعة من المنطقة ، كما يلاحظ ان هذا الاقليم قد تعرض الى عوامل تعرية فعالة وشديدة ساعدت في خلق كثير من المنافذ التي عملت على تجمع رواسب الكبريت في الاجزاء الوسطى والعليا حيث وقعت التعرية(١) ،كما أن طبيعة الصخور الكلسية والجبسية هي الاخرى مهدت وساعدت في تحقيق هذه الثغرات عن طريق تجاوب تلك الصخور لعامل الاذابة كونت كهوفاً Caverns لتجري فيها المياه الجوفية وبالتالي سهل وصول تلك المياه الى تلك الاعماق والتي كان لها أثر في ترسيب الكبريت، وغالباً ما تكون تلك الصخور الجبسية حاوية على النفط والغاز او القير اي أن هناك علاقة مابين تواجد الكبريت وحقول النفط ، اذ يمكن الحصول على الكبريت من الغاز الطبيعي وهذا ما هو موجود فعلا في وحدة استخلاص الكبريت في كركوك على سبيل المثال لا الحصر ، كما يلاحظ ان جميع الالتواءات المحدبة الحاوية على الكبريت تقطع نهر دجلة عدا التواء قليان الذي وجد فيما بعد أن هناك اثارا تدل على أنه كان يقطع نهراً قديماً يرجع الى الزمن الرابع . (٢) انظر شكل رقم . (١)

(١) عبد السلام حموشي، الكبريت والكبريت الطبيعي في العراق شركة المعادن الوطنية العراقية ؛ مطبعة العاني، بغداد ١٩٧١، ص ٨٢ .

(٢) محمد وجدان اسماعيل، الكبريت، النفط والعالم، مجلة شركة النفط الوطنية العراقية، عدد آذار سنة ١٩٧٣، ص ٣٨ .



شكل رقم - ١ -
التراكيب الجيولوجية مابين الموصل وحقل المشراق

وقد اكملت جميع مراحل الدراسة للتراكيب الجيولوجية التي دلت على وجود الكبريت ، وقد تم اختيار موقعين هامين بسبب توفر رواسب الكبريت بكميات مشجعة للاستثمار التجاري وهما :

١ - تركيب منطقة الفتحة .

لقد اكملت الدراسات الجيولوجية والطبوغرافية لمساحة تقدر بـ٨٠ كيلو متر مربع اذ انهت جميع الدراسات فيها من نماذج وتنقيب في شهر شباط سنة ١٩٧٠ . (٣)

٢ - تركيب منطقة لزاكه .

تم الحفر في هذا التركيب واخذت عينات ساعدت - بعد دراستها على تحديد طبقات الكبريت افقيا وعمودياً ، ويلاحظ انه تم معرفة درجة نقاوته (٤) وهذه الدراسة لم تكن كافية اذ تبعتها دراسة الظروف والمشاكل المائية التي تتطلبها العمليات الانتاجية الاساسية .

اما رواسب كبريت المشراق فانها تتباين من منطقة الى اخرى كما ونوعاً وعمقاً ، ولكن الاستغلال الفعلي لهذه الرواسب هو على عمق ٢٠٠ متر ، (٥) ، ومن المناطق الاخرى التي يتواجد فيها الكبريت هي قليان وقصب وجوان ونجمه والقيارة ومنطقة الفتحة . انظر شكل رقم (٢)

العوامل المؤثرة في انتاج الكبريت :

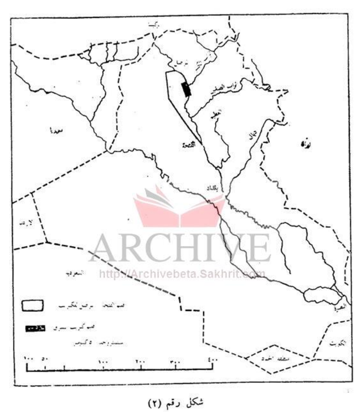
١ - العامل السياسي :

لقد قامت بعض الدراسات الاولية حول المعادن بشكل عام في اوائل

(٣) الجمهورية العراقية ، وزارة النفط والمعادن ، النفط والمعادن في العراق ، الكتاب السنوي ١٩٧٠ ، ص ٣٤ .

(٤) نفس المصدر ، ص ٣٤ .

(٥) الدكتور مؤيد حامد خيوكه ، الثروات المعدنية في العراق وامكانات استغلالها ، جامعة بغداد ، مجلة كلية العلوم ، العدد ١٢-١٣ لسنة ١٩٧٢/١٩٧٣ مطبعة الحكومة ، بغداد ، ص ٢١ .



شكل رقم (٢)

موقع منطقة الكبريت مابين الفتحه والموصل موضحاً رواسب كبريت المشراق

الخمسينات كما جاء في منهج الانماء الصناعي في العراق لاستثمار الكبريت وبقية المعادن ، ولكن تلك الدراسات – التي عرفت بالمراحل الاربعة لمنهاج آرثر دي لتل – لم تر النور آنذاك . (٦) واعقب ان تقدمت بعض الشركات الاحتكارية الامريكية بطلب الى الحكومة العراقية عام١٩٥٤ لاجل السماح لها بالتنقيبعن الكبريت في العراق ، ومن الشركات التي تقدمت لاجل الحصول على الموافقة لاستثماره شركة تكساس غولف سلفر ، الا أن المعارضة الوطنية أستطاعت في وقتها ان تحبط المشروع . (٧)

وظلت الاوضاع الى أن تفجرت ثورة ١٧ – ٣٠ تموز القومية التقدمية سنة ١٩٦٨ ، فاصدرت القانون رقم ١٨ لسنة ١٩٦٩ الذي بموجبه تكونت شركة المعادن الوطنية العراقية (٨). هذا وقد واجهت الثورة – منذ المرحلة الاولى مهمة خوض معركتين هما : معركة الاستثمار الوطني للنفط ، ومعركة الاستثمار الوطني للكبريت ، وكما هو معروف ان العراق بلد غني بالخامات الكبريتية ، وقد جددت الشركات الامريكية محاولاتها لاجل الحصول على امتيازات لها وكادت تنجح لولا يقضة الجماهير التي استطاعت ان تحبط محاولاتها ، واستطاعت الثورة ان تثبت قدرة الشعب على استغلال هذه الثروة استغلالا وطنياً وكانت هذه المعركة من اول المعارك مع الاحتكارات الاستعمارية ، كما أن الثورة وجهت صفعة قوية للاحتكارات ، اكدت

---

(٦) توماس بالوك، سياسة الاعمار في العراق، تعريب الدكتور محمد حسن سلمان، مطبعة العاني، بغداد ١٩٥٨، ص ١٨٩-١٩٠ .

(٧) جهاد جلال، الكبريت الخام العراقي، وزارة الاقتصاد، مجلة الاقتصاد العراقية، ص ٣١ .

(٨) عبد السلام حموشي، الكبريت والكبريت الطبيعي في العراق، ص ٨٨ .

فيها حرية الارادة الوطنية وحزمها ووضعت بها اللبنات الاولى للصناعات المعدنية الوطنية . (٩)

ومن الاعمال الرئيسية التي انيطت بشركة المعادن الوطنية العراقية هي مسح العراق جيولوجيا بحثاً عن رواسب الخامات المعدنية مستعينة بالخبرات الاجنبية للمسح الجيولوجي،لذا يمكن اعتبار القانون ـ قانون تأسيس الشركة ـ المذكور اعلاه نقطة تحول كبير في بدء استثمار المواد الاقتصادية استثماراً وطنياً بطريق التعاون مع الشركات العالمية . ونتيجة لذلك فقد عادت فكرة انشاء صناعة استخراج وتصفية الكبريت الى مركز الصدارة من اهتمام المسؤولين وعقدت لهذا الغرض اتفاقية مع المؤسسة البولونية شركة ستروزاب لمساعدة العراق بحفر الآبار ونصب المراجل والمكائن الضرورية لتنقية الكبريت .

٢ ـ الموقع الجغرافي والعوامل المؤثرة فيه :

تنتشر ترسبات كبريت المشراق على مساحات واسعة يمكن تحديدها شمالا من مدينة الموصل حتى نقطة التقاء نهر الزاب الصغير مع دجلة جنوب الشرقاط جنوباً والوديان التي تنحدر من المرتفعات المتاخمة لضفاف دجلة والتي تشمل مرتفعات عطشان مكحول غرباً اما الحدود الشرقية فيمكن اعتبار ضفاف دجلة مابين الزابين ـ الزاب الكبير والصغير ـ حتى الشرقاط حدوداً شرقية كما في شكل(رقم ٢)،ان هذه المنطقة الواقعة على ضفاف دجلة والممتدة جنوباً حتى منطقة الفتحة قرب مدينة بيجي على دجلة تعد من أهم المناطق الغنية برواسب الكبريت وبكميات تجارية .

---

(٩) التقرير السياسي الصادر عن المؤتمر القطري الثامن لحزب البعث العربي الاشتراكي القطر العراقي، كانون الثاني ١٩٧٤، ثورة ١٧ تموز التجربة والآفاق، بغداد، ص ٥٧-٥٨ .

واما مشروع استثمار كبريت المشراق ، فانه يقع على ضفاف نهر دجلة اليمنى الى الجنوب من مدينة الموصل بمسافة تقرب ٤٢ كيلو متر الى الجنوب من منطقة المخلط وهي نقطة التقاء الزاب الكبير مع دجلة حيث يقطعه طريق بغداد – الموصل القديم ، كما يقع ضمن الوحدة الادارية لقضاء الشرقاط .

وتمتاز أرض المشروع بتلال مرتفعة متجهة بشكل عام شمال غربي جنوب شرقي اما الجهات الشرقية منه فهي منخفضة بشكل واضح اذ يصل هذا الانخفاض الى ٧٠ متر فوق مستوى سطح البحر مشرفة على نهر دجلة(١٠) ويلاحظ ان معدل ارتفاع الاقليم بشكل عام يتراوح مابين ١٨٧ متر فوق مستوى سطح البحر عند نهر دجلة و ٢٩٢ متر فوق مستوى سطح البحر عند حافة التلال التي تحده غرباً(١١)

أ – توفر المادة الخام :

يقدر احتياط خامات الكبريت في اقليم المشراق بحدود ٤٠ مليون طن اما الاحتياط العام في العراق فان الكميات المقدرة تصل إلى ٤٠٠ مليون طن (١٢) وعليه فان الكمية الموجودة فعلاً في المشراق تكفي لاستغلال مستمر ولفترة تزيد عن ٤٠ سنة اذا كان معدل الانتاج السنوي مليون طن مثلا، ومن المفيد ان نذكر ان هناك امكانات هائلة في العثور على مصادر اخرى غنية بخامات ورواسب الكبريت في مناطق اخرى كما في زاخو مثلا . .

ب – توفير المياه :

تعتبر المياه من العوامل الهامة التي تحتاجها المراحل الصناعية لاستخراج الكبريت بطريقة فراش المعدلة والتي تعرف بطريقة الماء الساخن ، ولهذا

(١٠) R.E. Featherstone, A.M. AL-Sammarrie Geohydrology of Mishraq, Sulephur, Number 120, September, October 1975, The British Sulphur corpuration Limted, P . 44.

(١١) OP . Cit . P . 44 .

(١٢) الجمهورية العراقية، وزارة النفط، النفط والمعادن في العراق ١٩٧٠، الكتاب السنوي، ص١١٩ .

نجد ان وحدات المشروع المختلفة قريبة من ضفاف دجلة ، ولهذا فاننا نرى ان المحطة الاولى واقعة على ضفاف دجلة ، حيث تؤخذ المياه من النهر لتضخه الى بقية الوحدات الاخرى ، والمياه بعدها تتحول الى قوة بخارية لاستعماله في عمليات استخراج رواسب الكبريت .

وتتكون محطة المياه هذه من ستة مضخات ، تسحب المياه من دجلة ، طاقة كل منها ٤٠٠ متر مكعب في الساعة الواحدة ، وعلى الاغلب فان المضخات هذه تعمل خمس منها بشكل مستمر اما المضخة السادسة فانها تكون أداة احتياطية عندالحاجة ،وعلى هذايمكن ان نتوقع ان كمية المياه التي نحصل عليها من جراء عمل خمسة مضخات ٢٠٠٠ متر مكعب في الساعة اي مايقدر ٤٨٠٠٠ متر مكعب في اليوم الواحد ٢٤ ساعة هذا اذا علمنا ان معدل الانتاج اليومي هو ١٤٧٠ طنا الانتاج السنوي ٥٣١ الف طن لسنة ١٩٧٣ (١٣) وبهذا يمكن القول ان كمية المياه اللازمة لانتاج كبريت خلال ساعة واحدة يساوي ٢٠٠٠ متر مكعب من المياه يقابله ٦١ طنا من الكبريت اي لاجل انتاج طن واحد من الكبريت فاننا نحتاج الى كمية من المياه تقدر بـ ٣٢،٧٨ متر مكعب .

من هنا بات توفر المياه امرا هاما ان لم يكن حاجة اساسية في انتاج الكبريت بطريقة الماء الساخن المعمول بها في المشروع .

جـ - توفير مصادر الوقود :

من الامور المسلم بها ان ادارة المشاريع الصناعية تحتاج إلى مصادر الوقود وبكميات كبيرة لادامة عمليات الانتاج المستمر دون انقطاع من هنا بات هذا العامل هاما في تحديد الموقع الملائم لقيام الصناعة ، وموقع المشروع الحالي جعله ان يكون قريبا من مناطق تزويده بالوقود اللازم والذي يصله من حديثة بشكل رئيسي وكذلك من

(١٣) The United Nations , Statistical year Book , PP 195-196.

كركوك ، وبناء على ذلك فان الطاقة التي يحتاجها هذا المشروع الصناعي متوفرة وبشكل كاف مما يساعد على استمرارية الانتاج دون انقطاع .

د ـ توفير الايدي العاملة :

تعتبر الايدي العاملة من العوامل الهامة في نجاح وتطوير اي مشروع صناعي ، فالعمال يهاجرون نحو المراكز الصناعية بسبب الحصول على اجور عالية ، وبهذا ترتفع نسبة الايدي العاملة في الاقليم الصناعي بالمقارنة مع مجموع الايدي العاملة في المحافظة ، اذ يبلغ عدد الايدي العاملة من ماهرة وغير ماهرة في المشروع في سنة ١٩٧٣ حوالي ١١٢١ . (١٤)

كما ان قرب المشروع من مدينة الموصل والتي لاتبعد عنه بـ ٤٢ كيلو متر ساعد على تجهيز المشروع بما يحتاجه من ايدي عاملة وموظفين كما وفرت وحدات سكنية للعمال والموظفين بالاضافة إلى ذلك هناك وحدات ترفيهية كنوادي العمال مثلا ، وعليه يمكن القول ان المشروع اثر تأثيراً ايجابياً في تمركز عدد من العمال والسكن بجوار المنطقة الصناعية وهو بهذه الحالة ساهم في تغيير شكل المنطقة بالمقارنة مع الفترة التي سبقت المشروع وبعدها .

هـ ـ طرق النقل :

لاجل نجاح اى مشروع صناعي نجاحا كاملا عليه ان يوفر طرق النقل الكافية والصالحة للعمل خلال كافة فصول السنة ، ويعد النقل من العوامل الهامة والمتحكمة في نجاحه اذ يساعد في تحقيق احسن المردودات الاقتصادية العالية ، لذلك نجد ان منطقة المشراق نفسها ارتبطت بعدة نماذج من المواصلات ، فهناك خط حديدي يخرج من منطقة المشروع متجها إلى بغداد وينتهي عند المنطقة الجنوبية من

(١٤) معلومات من دائرة "ادارة الانتاج في المشروع"، تقرير مطبوع بآلة الرونيو ١٩٧٣، ص ١ .

العراق عند ميناء أم قصر على الخليج العربي وهو اهم ميناء تجاري عراقي رئيسي ، كما تحقق المواصلات الحديدية في هذا المجال اهدافا كثيرة اذ انها تستطيع ان تنقل اكبر الكميات المنتجة وبأوقات زمنية معينة .

وقد جهز المشروع بأعداد خاصة حديدية ناقلة للكبريت ، وبهذا اصبحت عملية تصديره إلى وسط العراق متمثلا في بغداد عملية سهلة وكذلك إلى خارج القطر عن طريق ميناء ام قصر .

ففي سنة ١٩٧٢ تم نقل ١٥ الف طن من الكبريت بواسطة السكك الحديدية في حين يتم نقل اى كمية اخرى بواسطة السيارات وذلك يعود إلى ان هذه السنة (اي سنة ١٩٧٢) هي السنة الاولى لانتاج المشروع في حين نجد ان الكمية المنقولة من الكبريت خلال سنة ١٩٧٣ كانت ١٥٢ الف طن اي عشرة اضعاف عما كانت عليه في السنة التي سبقتها ، بينما ماتم نقله بواسطة السيارات كان ١٤ الف طن . (١٥) وفي نهاية سنة ١٩٧٣ تم نقل كميات كبيرة بواسطة السكك الحديدية مايقدر بـ ٦٧٪ من مجموع الانتاج و ٣٣٪ بواسطة السيارات .

وكذلك يرتبط المشروع بطريق معبد صالح للحركة في كافة الفصول وهناك طريق يخرج من مركز مدينة الموصل منتهياً في وحده العمل في المشراق وهو يقوم بنقل الايدي العاملة على اختلاف اختصاصاتها ، وبالاضافة إلى ذلك فهناك طريق آخر يخرج من المشراق متجهاً إلى طريق بغداد الموصل بعدها إلى مدينة الرمادي ومنها يتفرع إلى طريقين احدهما إلى الاردن والآخر يستمر إلى سوريا ولبنان وقد تم تصدير كميات من الكبريت عن طريق البحر المتوسط بلغت ١٤ الف طن خلال سنة ١٩٧٣ . (١٧)

---

(١٥) نفس المصدر ، ص ١ .

(١٦) شركة النفط الوطنية العراقية، مجلة النفط والعالم، حزيران ١٩٧٤، ص ٣٥ .

(١٧) معلومات من "ادارة الانتاج في المشروع" ص ١ .

اما النقل النهري ، فمن الممكن الاستفادة من نهر دجلة بعد تعميق مجراه وجعله ملائماً للملاحة في نقل الانتاج إلى مناطق وسط وجنوب العراق للمدن الواقعة على ضفاف النهر وحتى إلى الخليج العربي مرورا بشط العرب ، وبسبب عدم صلاحية نهر دجلة للنقل المائي حالياً لوجود عوامل كثيرة منها عدم عمق مجرى النهر وقلة المياه فيه خاصة في الصيف بسبب كثرة المياه التي تؤخذ منه بواسطة المشاريع الزراعية والجداول وكذلك الرياح السائدة على العراق عامة هي رياح شمالية غربية مع شكل الانحدار لمجرى النهر وعليه فستكون هناك قوتين في اتجاه واحد ، هما انحدار مجرى النهر واتجاه الرياح ؛ وعليه فان صعود المجنبات النهرية من الجنوب إلى الشمال بالاضافة إلى ضحالة النهر وقلة عمقه بسبب كثرة الارسابات الهائلة في موسم الفيضان ، وبسبب هذه العوامل المارة الذكر فان النهر في مثل هذه الظروف لايمكن الاستفادة منه في الوقت الحاضر على اقل تقدير .

٣ – طريقة الانتاج «فراش» المعدلة :

ان الطريقة المتبعة في استخراج الكبريت العراقي هي طريقة فراش المعدلة (١٨) والتي تعرف بطريقة الماء الساخن ، وتكون عملية الانتاج مستمرة مادام هناك انتاج في الحقل ، وينقل الكبريت السائل الساخن من الآبار عن طريق انابيب مغطاة بطبقة من الصوف الصخري لاجل المحافظة على حرارته ، تتصل بالخزانات الخاصة لتجميع الكبريت وتعرضه إلى الهواء لاجل اعطائه فرصة لتصلبه ، وبعدها يكون جاهزا للتسويق .

وهناك طريقة اخرى لاستخراج الكبريت وهي الحفر المفتوحة ويؤخذ بهذه الطريقة في حالة وجود رواسب الكبريت قريبة من سطح الارض عندها تكون اقتصادية ومربحة ، اما رواسب الكبريت في المشراق

(١٨) عبد السلام حموشي، الكبريت والكبريت الطبيعي في العراق، ص ٨٨ .

المستغلة تجاريا تكون على عمق مابين ١٤٠ متر – ١٨٥ متر(١٩). ولهذا فان طريقة الحفر المفتوحة باتت غير اقتصادية حاليا ، ونتيجة ذلك اصبحت طريقة فراش المعدلة هي الطريقة المعمول بها والملائمة لاستخراج الكبريت في تلك الحقول الواقعة في المشراق .

٤ – السوق :

لقد بلغ انتاج العراق من الكبريت الحر لسنة ١٩٧٢ وهي سنة بدء الانتاج ١١٠ الف طن(٢٠) بينما ارتفع الانتاج في سنة ١٩٧٣ فبلغ ٥٣١ الف طن اي ١٤٧٠ طن في اليوم وبذلك يحتل العراق نسبة تزيد بقليل عن ٤١٪ من مجموع الانتاج الآسيوي و٣,٦٪ من مجموع انتاج العالم لسنة ١٩٧٣ (٢١) انظر شكل رقم (٣) .



(شكل رقم –٣–)

أهم الدول المنتجة «أنتاجها ما يقارب مليون طن تقريباً» من الكبريت الحر لسنة ١٩٧٢ .

(١٩) خارطة المشراق الكنتورية في المشروع، مقياس ١/٥٠٠٠ متر .

(٢٠) معلومات من دائرة الانتاج في المشروع، ص ١ .

(٢١) The United Nations, Statistical Year Book 1973. PP 195–196

وعليه يمكن القول أن اليابان والهند تعتبران من الأسواق المهمة في الوقت الحاضر لاستيراد الكبريت العراقي –إذ تستعملانه في الصناعات الكيمياوية، إذ تم بيع كمية كبيرة قدرت بـ ١٥٠ الف طن إلى الهند أي ٢٣٪ من مجموع انتاج العراق ،كما استطاع العراق أن يجهز دولاً أخرى آسيوية وافريقية وأوربية معاً منها بنغلاديش والصين الشعبية وكوريا الديمقراطية واليونان وزامبيا ودولا عربية كالأردن وسوريا ولبنان ومصر. (٢٢)

إن أسعار الكبريت في الأسواق العالمية تتباين من سنة إلى أخرى ولعل ذلك يرجع إلى عدة عوامل اقتصادية وسياسية ، فقد بلغ سعر الطن الواحد سنة ١٩٦٣ حوالي ٢٢ – ٢٥دولارا بينما ارتفع هذا السعر في سنة ١٩٦٩ إلى ٤٥ – ٥٥ دولاراً وانخفض مرة أخرى في سنة ١٩٧٠ إذ وصل إلى ١٧ دولارا (٢٣) بينما اتجه إلى الارتفاع مرة أخرى في سنة ١٩٧٣ وبلغ المعدل ٢٥ دولارا (٢٤) ولكن الأسعار تشير حالياً لسنة ١٩٧٤ أن سعر الطن الواحد من الكبريت تتجه نحو الارتفاع وتتراوح ما بين ٧٠ – ٥٥ دولارا ،(٢٥)

من هذا يبدو أن أسعار الطن الواحد من الكبريت تتجه نحو الارتفاع ،إذ تواجه الدول الصناعية في العالم عامة وفي أوربا خاصة تواجه طلباً متزايداً لحاجتها الماسة من الكبريت لدخوله في صناعات الأسمدة لأجل زيادة انتاج الوحدة الزراعية ، كما أن زيادة الطلب المستمر على الكبريت أو حامض الكبريتيك سوف يؤدي إلى ارتفاع أسعاره مستقبلا على أقل تقدير ، فقد بلغ انتاج معمل المشراق لحامض الكبريتيك ٥٠ طن يومياً أي ١٥٠٠ طن في الشهر و ١٨ الف طن في السنة تقريباً ،هذا وقد بدأ الانتاج في آواخر سنة ١٩٧٤ .كما اضيفت وحدة لطحن الكبريت لانتاج مسحوق الكبريت لاستعماله في مكافحة الآفات الزراعية بدلاً من استيراده من الخارج (٢٦).

---

(٢٢) شركة النفط الوطنية العراقية، مجلة النفط والعالم، عدد حزيران سنة ١٩٧٤، ص ٣٦ .

(٢٣) Sulpher Magazine, Number September 1973.P.23

(٢٤) Sulpher Magazine, Number 112 September 1974.p.2o

(٢٥) شركة النفط الوطنية العراقية، مجلة النفط والعالم، تموز سنة ١٩٧٤، ص ١٦)

(٢٦) نفس المصدر السابق، ص ١٦ .

إن التوسع المرسوم لمشروع الكبريت العراقي سيساعد في تحقيق انتاج مليون طن في كل سنة بالاضافة إلى نقاوة الكبريت العالية والتي تبلغ مابين ٩٩,٦٪ـ ٩٩,٩٪(٢٧)مما يساهم بشكل مباشر في زيادة الطلب عليه، وبناء على ذلك فإن الكبريت بموجب ذلك سيوفر للعراق ـ على أقل تقدير ـ عمله صعبة تقدر بـ ١٢,٥ مليون دينار كحد أدنى للطن الواحد ان لم يكن أكثر من ذلك مستقبلا (٢٨) هذا في حالة انتاج مليون طن سنوياً، بالاضافة إلى ذلك فان كلفة الانتاج تتناقص سنة بعد أخرى بسبب تحسين الكفاءة التشغيلية (٢٩) وزيادة السيطرة والتحكم في تصنيع السوائل في المشروع والتغلب على كافة المشاكل التي اعترضت العمل خلال السنوات الاولى من بدء الانتاج .

وتزداد أهمية الكبريت نظراً لدخوله في عمليات استثمار الفوسفات العراقية لصناعة الأسمدة النباتية في منطقة عكاشات الواقعة في اقليم الهضبة الصحراوية الغربية جنوب الفرات قرب الحدود العراقية السورية، إذ يعتبر الكبريت من العوامل الأساسية التي تكمل صناعة الأسمدة الفوسفاتية ، وعلى هذا الأساس فانه سيساهم بموجب ذلك في زيادة الدخل القومي للعراق بالاضافة إلى استخراج حامض الكبريتيك، كما أن الموقع الجغرافي للعراق يساهم في مضاعفة أهمية العراق في تجارة الكبريت الدولية ، إذ يتميز بقربه من الأسواق الاستهلاكية الرئيسية كدول جنوب شرق آسيا وشرق أفريقيا، مضافاً إلى نقاوته العالية، لان تكاليف ايصاله من العراق إلى تلك الأسواق تكون منافسة بشكل كبير للكبريت المستورد من الدول المجهزة السابقة ، ولا ننسى أن استقرار الوضع الاقتصادي والسياسي الذي ينعم به العراق ودعمه المستمر للدول النامية والمستهلكة للكبريت جعلها أن تتجه في عقد اتفاقات اقتصادية بين العراق وتلك الدول.

(٢٧) جهاد جلال، الكبريت الخام العراقي، مجلة الاقتصاد العراقية الشهرية ، العدد ٣٩، السنة الرابعة، شهر آذار سنة ١٩٧٤، ص ١٦ .

(٢٨) لم نتمكن من الحصول على معلومات تخص كلفة الانتاج للطن الواحد في المشراق لتعذر السلطات الرسمية .

(٢٩) طريقة الحصول على الاسعار لسنة ١٩٧٢ هي ١٦ دولاراً للطن الواحد، وأعلى سعر للكبريت بلغه في سنة ١٩٦٨ اذ وصل إلى ٤١ دولاراً، وعليه يمكن ان يكون معدل الاسعار هو ٢٨ دولاراً للطن الواحد أي ما يقارب ٩,٥ دينار للطن الواحد تقريباً .

اما نسبة ما تساهم به عائدات الكبريت في الميزان التجاري حسب الاحصائيات لسنة ١٩٧٣ ، فهي مشجعة ، اذ تشير تلك الاحصاءات ان قيمة الصادرات العراقية – عدا النفط – قد بلغت ٣٢,٧٩٥ مليون دينار بينما كانت الواردات ٢٧١,٣١٧ مليون دينار ،(٣٠)اي أن هناك عجزا تجارياً ملموساً بلغ ٢٣٧,٥٢٢ مليون دينار ولكن نسبة ما سيساهم به من انتاج للكبريت ما قيمته ٫ ١٢,٥ مليون دينار في حالة انتاج مليون طن سنوياً على أقل تقدير سيقلل كثيراً هذا الفرق او العجز الواضح في الميزان التجاري والذي سيتضاءل تدريجياً بمرور التوسع في تطوير صناعة الكبريت ونموها كما ذكرنا قبل قليل .

النتائج والتوصيات :

ان استثمار الكبريت وطنياً سيساعد في خلق طبقة من الايدي الصناعية التي لها الامكانية في المشاركة في المجالات الصناعية المتممة للصناعات الكبريتية ، كما أن ارتفاع اسعاره سيجعل الكبريت ان يحتل المرتبة الثانية في صادرات القطر بعد النفط مباشرة متمثلة في الموارد المالية التي يحصل عليها العراق .

ويبدو واضحاً ان هناك علاقة قوية ما بين انجاز مشروع الاسمدة الفوسفاتية في عكاشات في محافظة الانبار مع توسع كبريت المشراق ، اذ يزوده بكميات كافية من الكبريت الذي يدخل في مثل هذه الصناعات الهامة للاسمدة النباتية ولهذا فان نجاح مشروع عكاشات يبدو حقيقة مرتبطة بنجاح مشروع كبريت المشراق .

ولاجل حماية الدول المصدرة للكبريت يمكن أن تكون هناك منظمة للدول المنتجة «كبريت» والتي تنتمي الى العالم الثالث في سبيل التحكم باسعاره ضد الدول الاستعمارية الاحتكارية المنتجة له كالولايات المتحدة مثلا .

كما ان التوسع في الصناعات الكبريتية في العراق سيساهم الى درجة كبيرة

(٣٠) الجمهورية العراقية، وزارة التخطيط، الجهاز المركزي للاحصاء، المجموعة الاحصائية لسنة ١٩٧٣ ، ٢٠١ .

في تكوين وترسيخ اسس نهضة صناعية علمية كما جاء في خطة التنمية القومية ١٩٧٠/١٩٧٥ والتي اعلنتها الدولة ، لان هذه الصناعات المحلية ستعتمد على انتاج الكبريت كما انها ستساهم في دعم الاقتصاد الوطني ومضاعفته مستقبلا.

هذه توصيات واقتراحات نأمل أن تتحقق لكي نحصل على ايرادات مالية جديدة يمكن اضافتها الى الدخل القومي في القطر ، كما أن مضاعفة الدخل القومي العراقي سيزيد من قدرة العراق لمساعدة الدول العربية والحركات التحررية في مد العون والمساعدات المالية للدول العربية في تحقيق مشاريعها الانمائية الاقتصادية .



المراجـع

١ — اسماعيل ، محمد وجدان.
الكبريت ، مجلة النفط والعالم ، تصدرها شركة النفط الوطنية العراقية ، عدد آذار سنة ١٩٧٣ .

٢ — بالوف ، توماس .
سياسة الاعمار في العراق ، تعريب الدكتور محمد حسن سلمان مطبعة العاني ، بغداد ١٩٥٨

٣ — التقرير السياسي الصادر عن المؤتمر القطري الثامن لحزب البعث العربي الاشتراكي القطر العراقي كانون الثاني ١٩٧٤ . ثورة ١٧ تموز التجربة والآفاق . بغداد ١٩٧٤ .

٤ — جلال ، جهاد .
الكبريت الخام العراقي ، مجلة الاقتصاد العراقية الشهرية ، العدد ٣٩، السنة الرابعة ، شهر آذار ١٩٧٤ .

٥ — الجمهورية العراقية ، وزارة التخطيط ، الجهاز المركزي للاحصاء ، المجموعة الاحصائية السنوية ١٩٧٣ . بغداد .

٦ — الجمهورية العراقية ، وزارة النفط ، شركة النفط والمعادن . مجلة النفط والعالم ، عدد حزيران سنة ١٩٧٤ .

٧ — الجمهورية العراقية ، وزارة النفط ، شركة النفط والمعادن في العراق ١٩٧٠ . الكتاب السنوي للوزارة .

٨ — حموشي ، عبدالسلام .
الكبريت والكبريت الطبيعي ،في العراق ، شركة المعادن الوطنية العراقية ، مطبعة العاني ، بغداد ١٩٧١ .

٩ — خارطة المشراق الكنتورية ، مقياس الرسم ١ / ٥٠٠٠ متر .

١٠ – خلف ، جاسم محمد .
جغرافية العراق الطبيعية والاقتصادية والبشرية ، الطبعة الثالثة ، القاهرة ، ١٩٦٥ .
١١ – خيوكه ، مؤيد حامد .
الثروات المعدنية في العراق وامكانات استغلالها ، جامعة بغداد ، مجلة كلية العلوم ، العدد ١٢ – ١٣ لسنة ١٩٧٢/ ١٩٧٣ ، مطبعة الحكومة بغداد .

(12) R,E, Featherstone, A,M, Al-Sammarrie,
Geohydrology of Mishraq,Sulpher Magazine, Number 120, September-October, 1975, The British Sulpher Limited.
(13) Sulpher Magazine, No, 166, September-October, London, 1973.
(14) Sulpher Magazine, Number 112, September-October, London, 1974.
(15) The United Nations, Statistical Year Book, 1973.


البحوث الأثرية



عبد المالك يونس عبد الرحمن

العناصر الفنية في تيجان الأنصاب في الحضر



موقع مدينة الحضر

تقع الحضر جنوب غرب مدينة الموصل على بعد ١١٠ كم. ويوصل اليها بطريق يتفرع من يمين الشارع الرئيس الذاهب إلى بغداد. وأرض الحضر خصبة غنية بالمياه الناتجه عن البثوق العذبة التي تكثر في هذه المنطقة، ومن مياه الأمطار المتجمعه في المنخفضات.

لايعرف بالضبط متى شيدت الحضر ، ومن المعتقد أنها وجدت منذ العهد الآشوري — في أواخر القرن الثامن ق.م .كموضع ينزل فيه الرعاة (١) . وقد ساعدت عوامل عديدة على نموها وازدهارها ، فهي ذات موقع تجاري يسيطر على الطرق الرئيسة لنقل البضائع الواردة من الصين والهند إلى آسيا الصغرى واوربا ،ثم ازدادت أهميتها التجارية بعد فتح الاسكندر المقدوني (٣٣١ — ٣٢١)ق.م لبلاد المشرق وما نتج عنه من زيادة الطرق والمسالك التي كانت تتشعب من بابل .وكانت للحضر أهمية عسكرية عندما اتخذت موقعاً للدفاع عن الفرثيين في المدائن ضد أعدائهم الرومان كما حدث في عهد الملك الفرثي (افراط الثالث) ٦٩ — ٥٧ق.م. وابنه (ورود الثاني) ٥٧— ٣٦ ق.م. وقد أتاح موقع الحضر لسكانها فرصاً للاتصال بأقوام أخرى، فكان أن أطلق الباحثون على الحضر والمدن المشابهة لها من حيث أهمية الموقع اسم « مدن القوافل » . (٢)

وافتراض وجود الحضر في أواخر القرن الثامن ق.م. معناه معاصرتها لحوادث كثيرة في وادي الرافدين إلى أن كان سقوطها في عام (٢٤٠)م على يد الملك الفارسي الساساني (سابور الأول). ومن تلك الحوادث تمكن القبائل العربية من عبور نهر الفرات بعد سقوط نينوى عام ٦١٢ق.م. وتغلغلها بشكل هجرة واسعة امتدت شمالاً إلى نصيبين وديار بكر ،لذلك عرفت الأقاليم الشمالية الواقعة ما بين النهرين بعد سقوط نينوى بنحو قرنين من الزمن باسم عربايا نسبة الى العرب (٣) وقد ازدهرت مدينه الحضر في اواخر الدور الفرثي (٤) الذي اعقب

---

(1) Luckenbill, D., ANCIENT RECODS OF ASSYRIA AND BABYLONIA, New York, Greenwood Press, 1968, Vol. 1, P. 295, No. 823.
Scheil, RT, XVI, 176 ff., and republished by:
Unger, Die stele des Bel-Harran-beli—USSUR.
Also: Bonomi, PALACES OF NINEVEH.

(٢) فؤاد سفر ومحمد علي مصطفى، الحضر مدينة الشمس، بغداد ١٩٧٤ (= مدينة الشمس)، ص ١١.

(٣) المرجع نفسه، ص ١٢-١٧ .

(4) Jackson, A.V. Williams, in ENCYCLOPEDIA OF RELIGION AN ETHIC, Edinburgh, 1908-1966, (=ERE), Vol, 1, (1908), P. 763-a.

الدور السلوقي – ثم بلغت أوج مجدها خلال القرون الثلاثة الاولى للميلاد وباستطاعتنا ملاحظة تأثيرات حضارية مختلفة على هذه المدينة ، ويمكننا إرجاع العديد من المظاهر الثقافية للحضر إلى اصولها في حضارة وادي الرافدين ، مثل : بناء الايوان (٥) والبناء المربع الذي كان مألوفاً في العراق القديم (٦) ووجود أسماء اعلام مركبة من أسماء آلهة عرفت في العراق القديم (٧) ،كما عبدت بعض آلهة وادي الرافدين باسمائها نفسها في هذه المدينة مثل (شمس) (Shamas) (ونركال) (Nergal) و (بل) (Bel) و (نبو) (NaBo) و(شحيرو) (Shahero) و(شلما) (Shalma) (٨) كما يلاحظ أن الكثير من العناصر الفنية الزخرفية في الحضر يعود أصلها إلى حضارة وادي الرافدين مثل : المثلث والدائرة والدوائر المتداخلة والمتقاطعة والضفيرة والصليب والصليب المعقوف (٩) والأفعى والنسر والحيوانات المركبة والوردة والسعفة (١٠) وأشجار الكروم وعناقيد العنب (١١) ،هذا إضافة إلى ملامح التشابه بين المعتقدات الدينية التي شاعت في هذه المدينة وما كان معروفاً في العراق القديم (١٢) .

(٥) عادل نجم عبو «الصيانة وأساليب التسقيف في بوابة ادد الآشورية» سومر ، ١٩٧٥/٣١ ، ص ٦١ (بتصرف).

(٦) طه باقر ، "معابد العراق القديم" ، سومر ، ١٩٤٧/٣ ، ص ١٢–٣٧ .

(٧) مدينة الشمس ، الكتابات : ١٣ ، ١١٥ ، ١٤٥ ، ١٥٠ ، ٢٠٣ ، ٢١٢ .

(٨) المرجع نفسه ، الكتابات : ٢ ، ١٠ ، ٢٣ ، ٢٥ ، ٧٣ ، ١٨٦ ، ٢١٢ .

(9) Vinigi L. Grottanelli, "Ornamentation", in ENCYCLOPEDIA OF WORLD ART, Mc GRAW-HILL Book Company, Inc., New York, Toronto, London, Vols. 1-14, 1959,(=EWA), Vol, 10, 1965, Col,834-835. Pl. 434, Fig, 841, 843.
Goff, Beatrice Laura, SYMBOLS PREHISTORIC MESOPOTAMIA, Newhaven and London, Yale University Press, 1963 (SPM), P. 33, 49, 68, 77—Passim,

(10) SPM, The Cross: P. 5, 37, 77, —Passim. The Eagle: P. 6, 63, 66, 69, 72. The Rosette: P. 9, 52—Passim. The Palm: P. 6, 32, 70, 178.
Frankfort, H., CYLINDER SEALS, London, 1939, Rep. 1965(=CySe), Passim.

(11) Frankfort, H., THE ART AND ARCHITECTURE OF THE ANCIENT ORIENT, Penguin Books, 1958 (=AAAO), Pl. 114.

(١٢) مدينة الشمس ، ص ٤١ .

الأنصاب*

عثر على معظم الأنصاب – المذكورة في هذه الدراسة – في المعبد الكبير في الساحة الخارجية المحيطة بخلوة الشمس** مقابل الضلع الشمالي والغربي والجنوبي(١٣) بينما وجد الباقي في معابد الحضر الاخرى(١٤) .

والنصب بشكل عام عمود مربع له تاج مربع أيضاً فوقه أربعة نماذج لقرون موزعة على الزوايا، وبين الزوايا غالباً ما يوجد تجويف محفور في كتلة التاج (ش ١٠) أو كأس منحوت من هذه الكتلة (ش ١٤، ١٨) وقد تترك هذه الفسحة فارغة (ش ١٩) . وفي أسفل جوانب التاج توجد أطناف متتالية تصل بين بدن النصب – اى العمود – والتاج . وقد نقش الفنان بعض العناصر الزخرفية على جوانب التاج ، أما بدن النصب – العمود المربع – فنقش عليه بعض الكتابات أو صور أفراد وبعض انواع الحيوانات . وكانت هذه الزخارف في معظم الأنصاب تنقش على ثلاثة جوانب من النصب في حين يترك الجانب الرابع ليسند إلى الجدار . اما قاعدة النصب – ان وجدت – فهي على العموم بسيطه التكوين .

* معنى "النصب: كل ما عبد من دون الله تعالى، والجمع أنصاب . قال الزجاج وجائز ان يكون واحداً، وجمعه أنصاب" . ويذكر ابن سيدة: الأنصاب حجارة كانت حول الكعبة، تنصب فيهل عليها، ويذبح لغير الله تعالى ... والأنصاب: الأوثان" . كذلك يذكر : القتيبي النصب صنم أو حجر ، كانت الجاهلية تنصبه، تذبح عنده فيحمر للدم" . (ابن منظور، لسان العرب، بيروت ١٩٥٥، جـ١، ص ٧٥٩-٧٦٠) .

** يراجع المخطط رقم (٢) المنشور في المرجع المرموز له بـ (مدينة الشمس) ، ص ٣٢٨، البناء رمز (ح/ H).

(١٣) تراجع الاشكال التاليه رقم: ٥، ٩، ١٤، ١٥، ٢٠، ٢٢، ٢٣، ٢٦، ٢٩ .

(١٤) عثر في معابد الأله (نركول) عل الاشكال التاليه: (٨، ١٨) في المعبد الاول، ش ٦ في المعبد الثاني، ش ٧، ٢٤ في المعبد العاشر، ش ٢٨ في المعبد الحادي عشر . اما الشكل ١٠ و١٧ فعثر عليهما في المعبد الثامن المخصص للآلهه السبعه . الشكل ١١، ١٢، ١٧، في المعبد الرابع المخصص لزوج الأله بعلشمين، والشكل ٢٥ في المعبد الثالث الخاص بالاله (بعل شمين) ، والشكل ١٣، عثر عليه خلف معبد (شحيرو)، والشكل ١٦ في المعبد الخامس الخاص بالألهه (آشربل) .

تعرف الأنصاب باسم (دكاك النار) أو (نصب النار) وهي تسمية دارجة ولكنها غير صحيحة، «لأن هذه الأنصاب التي وجدت في الحضر لم تكن لها علاقة بعبادة النار بل قدمت لها القرابين فعبدت احيانا كما تعبد الأصنام» . (١٥) وقد سميت هذه الأنصاب في اللغة الآرامية باسم (مكنا) (MKN) ولا يعرف تعليل اكيد لهذا الأسم(١٦) لعدم معرفة الأصل الآرامي في هذه التسمية .

ولعل استخدام هذه الكلمة (مكنا) في اللهجه العاميه الموصليه بمعنى: وسيلة للأحتماء، ••• يلقي بعض الضوء على الغاية من استخدام تلك الأنصاب .

تاريخ الانصاب في العراق القديم.

كان ظهور الأنصاب في العراق القديم منذ زمن بعيد ، في دور العُبَيْد الشمالي ،حيث عثر على طبعة ختم منبسط (ش ١) في موقع (تبه كورا) في الطبقة الثانية عشرة، ويلاحظ فيها صورة نصب مقرّن، وفي الموقع نفسه عثر على طبعة ختم منبسط أخرى يرجع زمنها إلى عهد (تبه كورا) (١٧) يلاحظ فيها صورة واضحة للنصب (ش ٢) وتشترك طبعتا الختمين بظهور صورة القرون في أركان النصب وشكلاً هرمياً صغيراً بينهما ، وإلى جانب النصب شكل مثلث كبير يعلوه قرص من المرجح أنهما رمز للجبل والشمس. إن هذا النوع من الأنصاب كاد أن يختفي بعد دور (تبه كورا) وحتى عصر فجر السلالات الأول – أواسط دور نينوى $\underline{V}$ (١٨) عندما عثر على بعض النماذج

(١٥) فؤاد سفر ، "كتابات الحضر" سومر، ١٨/١٩٦١، ص ٥٩ .

(16) Teixidor, Javier, "The Altars Found at Hatra", Sumer, 21/1965, P. 86.

••• يقال في اللهجة العامية الموصلية: "اضطر فلان ان يسكن في دار قديمة ، ك مكنا" بمعنى ان هذا الشخص اضطر أن يسكن في تلك الدار رغم عدم صلاحيتها، باعتبارها حامية له من الظروف الطبيعيه فقط

(١٧) يعتبر دور تبه كورا في شمال العراق مقابلا لدور الوركاء في الجنوب الذي يحدد له منتصف الألف الرابع ق.م. (٣٥٠٠ ق.م.) SPM,P.125.

(١٨) يقدر لدور نينوى $\underline{V}$ – الذي اعقب دور تبه كورا في شمال العراق – الفتره الزمنيه المحصورة بين عهد (جمدة نصر) وحتى اواسط دور فجر السلالات الثاني، (٣١٠٠–٢٧٠٠ ق.م) تقريباً .

التي اعتبرت أنصاب مقرنة ،كما عثر على نموذج مشابه من عصر فجر السلالات الثالث (١٩) ثم من عهد الملك الآشوري (توكلتي ننورتا الأول) ١٢٤٤ — ١٢٠٨ ق.م. (٢٠) وبالاضافة إلى هذا النوع يمكن ملاحظة وجود صنم ثان ظهرت صورته في عهد تبه كورا في موقع تبه كورا، ويمتاز هذا النوع بأنه يتكون من عدة قطع مستطيلة موضوعة فوق بعضها مع عدم وجود القرون (٢١) وقد صار هذا النوع من الأنصاب أكثر انتشاراً في مختلف الأدوار في وادي الرافدين .

وفي الحضر عثر على الأنصاب ذات القرون ، وهي على نوعين :
النوع الأول أنصاب كبيرة الحجم يقارب ارتفاعها (١٥٠) سم عرفت باسم (مكنا) —وسبق الحديث عنه — والنوع الثاني أنصاب صغيرة الحجم يبلغ ارتفاعها (١٥) سم ويُفضّل أن « تسمى أنصاب البخور أو الأنصاب الصغيرة » (٢٢) .

سبب دراسة الأنصاب :

من أجل معرفة التقدم الحضاري في مدينة الحضر ، يعتمد على دراسة احد مظاهر ديانة هذه المدينة ، ذلك أن معرفة المعتقدات الدينية تساعد — الى جانب الدراسات الاخرى — على فهم وجوه الاختلاف لاي حضارة .
و دراسة الانصاب التي كشف عنها في مدينة الحضر خلال مواسم التنقيب المتعاقبه مهمة للأسباب التالية

أ— ان تحليل الكتابات التي دونها مقدموها عليها يمدنا ببعض المعلومات عن الحياة الاجتماعية والمعتقدات الدينية الشائعة في المدينة .
ب— نقشت الأنصاب بعناصر فنية وصور للأحياء تساعدنا دراستها على معرفة ما كان منها مقدساً.

(19) SPM, P. 34f., N. 85.
(20) AAAO, PL. 73b.
(21) SPM, P. 34-3', Fig. 512.
(22) Teixidor, Javier, "The Altars Found at Hatra", Sumer, 21/1965, P. 88.

وتتركز هذه الدراسة حول ماظهر من عناصر فنية في تيجان الأنصاب فقط ، اما الجزء الآخر من النصب – اي العمود او بدن النصب – فقد أجلت دراسته لأنه يقتضي دراسات فرعية أخرى تتناول دراسة مفصلة لرايات الحضر وطرز الملابس وفن الريازة مما لايدخل ضمن عنوان هذا البحث.

ودراسة الانصاب لايمكن أن تتم بمعزل عن عبادة الاله الشمس في الحضر لعدة اسباب : منها ان تلك الانصاب قدمت الى (شمش) ودعيت بـ (مكنا دي شمش) اي : ال (مكنا) الخاصة بالأله شمش.

كما ان اهل الحضر أقاموا معظم هذه الانصاب في المعبد الكبير الخاص بـ شمش – الأله الرئيس في مدينة الحضر . كما اعتبر سكان الحضر مدينتهم ملكاً لأله الشمس فأطلقوا عليها «حطرا دي شمش» اي الحضر مدينة الأله شمش ، وهذه العبارة وردت مكتوبة على قطع النقد التي عثر عليها في الحضر.

ومن الأسباب الاخرى ، ان عبادة الأله شمش – وغيره من الآلهه قد تركت مؤثراتها في عبادة الحضر وبقية العبادات التي قامت في وادي الرافدين في الازمة اللاحقة (٢٣) ، كما ان من مميزات عبادة الأله شمش في حضارة وادي الرافدين اتسامها بعدم التبديل السريع في معتقداتها إضافة الى التشابه الواضح في المضمون و حتى في الشكل بين القطع الفنية التي صور فيها الأله منذ العهد الاكدي وحتى عهد الحضر (٢٤) كما سيوضح ذلك .

فعندما أراد الفنان أن يعبر عن المعتقدات الدينية الخاصة بالأله شمش استخدم النحت البارز في نقش الصور والرموز كما في العهد الاكدي (٢٥) والعهد البابلي القديم ،ويعتبر مشهد إله الشمس في أعلى مسلة الملك حمورابي ،أبرز مثل على ذلك حيث يرى الاله شمش جالساً على عرشه واضعاً قدميه على كرات مصفوفة فوق

(٢٣) جورج حبيب، "معبودات الحضر"، سومر ١٩٧٣/٢٩، ص ١٦٦ (بتصرف)

(٢٤) عبد المالك يونس عبد الرحمن، عبادة الأله شمش في حضارة وادي الرافدين، بغداد، ١٩٧٥، رسالة ماجستير غير منشورة، ص ٢٠٣-٢٠٦

(25) CySe, PL. 18:g ,j.

بعضها رمزاً للجبال .(٢٦) والفكرة نفسها عبر عنها الفنان في مدينة (ماري) (تل الحريري)٭في تمثال الاله شمش(ش٣٠) عندما نحت النصف الاعلى من التمثال على هيئة صورة نصفية لرجل قصد به الاله شمش ، وجعل النصف الأسفل — وهو امتداد لرداء الاله — على شكل كتل حجرية متراصة قصد بها الجبل الذي يطلع عليه الأله . ويلاحظ أن هناك استمراراً لهذا المعتقد والاسلوب الفني في التعبير عن هذا الأله في حضارة وادي الرافدين خلال الثمانيةعشر قرناً التالية ، فالملك (نبوابلادن) — من ملوك سلالة بابل الثامنة وكان معاصراً للملك الاشوري أشورناصربال الثاني ٨٥٩ ٨٣٣ق.م. قدم للأله شمش لوحاً (٢٧) يشاهد فيه الأله في حالة تشبه تماماً الحالة التي صور بها الأله شمش في أعلى مسلة الملك حمورابي ، كما أن اللوح الحجري الذي عثر عليه في الحضر (ش٤) صور فيه (مرن) (شمش) في الكهولة من العمر تحيط برأسه هالة ضوئية ويرتدي ملابساً مزركشة وهو يطلع فوق الجبال التي نحتت على شكل كرات ، ويلاحظ هنا التشابه الواضح بين هذا اللوح الحجري والتمثال الحجري الذي عثر عليه في مدينة ماري — الآنف الذكر — رغم الفاصل الزمني الموجود بين القطعتين والذي يقدر بألف وسبعمائة عام .

العناصر الفنية في تيجان الانصاب

يمكن اجمال العناصر الفنية التي استخدمها الفنان في تزيين تيجان الأنصاب في الحضر بثلاثة عناصر هي :

١ — القرص أو الدائرة : ظهر هذا الرمز على فخاريات دور سامراء والادوار

(26) AAAO, PL.

٭ مدينة ماري وتعرف الآن (تل الحريري) ؛تقع قرب الحدود العراقية السورية على نهر الفرات ، عثر فيها على آثار ادوات متعددة من حضارة وادي الرافدين .

(27) CySe, PL. 18: a, PL. 19: a.
AAAO, PsL. 65, 121.

الحضارية المتعاقبة (٢٨) ،وكان شكل الدائرة في فن العراق القديم رمزاً شمسياً(٢٩) مثلما هي الحالة لدى الاقوام السامية في جنوب الجزيرة العربية (٣٠) والصابئة في الوقت الحاضر الذين يشبهون وجه الشمس (شامش) بعجلة من نور (٣١)

٢ – الوردة : وهي عنصر فني قديم الظهور في حضارة وادي الرافدين وصار له مدلولاً شمسياً في عهد الوركاء والعهود التالية (٣٢) حيث ظهرت الوردة *كحلية على قرون النصب الواقف أمامه الملك (توكلتي نينورتا الأول)(١٢٤٤–١٢٠٨) ق.م.(٣٣) واستمر هذا الرمز الفني في العراق القديم فوجد في تيجان الانصاب المكتشفة في مدينة الحضر، وقد عوض الفنان في بعض الاحيان بالوردة عن صورة القرص – العنصر الفني السابق .(٣٤)

٣ – المثلث: عنصر فني ظهر في فترة مبكرة من حضارة وادي الرافدين .

---

(28) SPM, Figs. 33-41, 58: 1, 10, 19, 21, 26-33, 59, 64, 67-70. 83: 8, 90. 124: 33, 34. 123, 132, 161, 181, 190, 191, 224, 239, 378, 391, 409, 410 411, 414, 483, 591, 624, 649, CySe, Pl. 24: h.
SPM, f 483. CySe, PL. 30: C, L. 31: b. PL. 33: b.

(29) Cyse, Pl. 25: e· D. of UR3. PL. 24: e, k. 1st. D. of Bab.
Also PL. 27: a, b, f, g, i, k,. Pl. 28: b, h, k, m, PL. 30: f.
Buren, E. Douglas Van, SYMBOLS OF THE GODS IN MESOPOTAMIAN ART, Roma, 1949, (=SGMA), P.44.

(٣٠) جواد علي، المفصل في تأريخ العرب قبل الاسلام ،بيروت ، ١٩٧٠ (=المفصل) ،ج٦، ص ١٧٦ .

(٣١) الليدي دراوور ، الصابئة المندائيون ،بغداد ، ١٩٦٩، ترجمة نعيم بدوي وغضبان الرومي ص ١٣٨ .

(٣٢) عبد المالك يونس عبد الرحمن ،عبادة الاله شمش في حضارة وادي الرافدين ،بغداد١٩٧٥، رسالة ماجستير غير منشورة ،ص ١٨١.

** يلاحظ في هذا النصب التشابه الواضح مع أنصاب الحضر في الاسلوب الفني والمعتقد /الديني رغم الفارق الزمني الذي يقدر بأكثر من الف عام.

(33) AAAO, PL. 73-b.

(٣٤) تلاحظ الأشكال رقم ١٥ ،٢٤، ٢٥، ٢٦، ٢٧، ٢٨

فمنذ عصر (حسونه) كانت ظواهر الأواني الفخارية تزين بالمثلثات واستمر استخدام هذا الشكل الهندسي كوسيلة زخرفية في كل الأدوار الحضارية المتعاقبة دون إستثناء . وفي الحضر استخدم المثلث كعنصر زخرفي نقش في تيجان الأنصاب، ويميز من ذلك المثلث اربعة انواع هي :

أ – مثلثات تشغل زوايا التاج الأربعة .

ب – مثلث يرمز إلى الخصوبة وعضوالتناسل الأنثوي .

ج – مثلث كبير يشغل الجانب المواجه للناظر الى تاج النصب .

د – مثلثات صغيرة تكونت من تقاطع ساقي المثلث الكبير مع الخطين المنحنيين المواجهين للزاويتين الواقعتين عند قاعدة التاج .

وفيما يلي شرح لكل منها .

أ – أطلق الباحثون على المثلثات التي تشغل زوايا التاج الاربعة وعلى غيرها من المثلثات التي توجد في اعلى الأنصاب اسم «القرون Horns » بغض النظر عن الفترة الزمنية التي تنسب اليها تلك الأنصاب . واعتبر البعض تلك القرون «صورة رمزية(٣٥) لجلد الضحية الذي لا زالت القرون عالقة به وهو ملقى على دكة القرابين» . وفي رأي آخر « أن هذه القرون ذات مدلول مجازي يقصد به الأشارة إلى زوايا الكون الأربعة» .(٣٦) واستمر تقديس قرون الأنصاب – المثلثات – في مختلف ادوار حضارة وادي الرافدين وحتى وقت متأخر، وقد أشير الى تلك القدسية في الكتاب المقدس،(٣٧) كما تتضح اهميتها الدينية في الحضر

---

(35) ERE, Vol. 10, P, 580-a.

(36) ERE, Vol. 1, P. 354-a,

(٣٧) خروج ، ٢٧ : ١ – ٤ ، ٣٧ : ٢٥ – ٢٨، ٣٨ : ١ – ٣ . رؤيا ،

من كثرة نقشها او نحتها في تيجان الأنصاب التي عثر عليها في تلك المدينة .

وتعتبر أشكال المثلثات — التي قممها نحو الاعلى — في فن العراق القديم رمزاً للجبال كما في مسلة الملك نرام سين الاكدي(٣٨) والعديد من الألواح الجدارية الآشورية .

اما تحوير الجبال الى انصاف كرات ، فهو الآخر موضوع مألوف في فنون وادي الرافدين ، وبالامكان إستقصائه منذ عهد (جمدة نصر) في طبعة ختم اسطواني (٣٩) ، كما ظهر ذلك التحوير في عهد فجر الكتابة — ٣٥٠٠ ق.م — حيث رسمت الجبال بشكل كرات« ° °° » ثم طور الرسم الى الشكل التالي « D DD » وعندما استخدم القلم المثلث الرأس كتبت هذه العلامة بشكل مثلثات « Δ ΔΔ » (٤٠) . وأستمر تمثيل الجبال بشكل أنصاف كرات في العهود التالية كما يظهر في الصورة المنقوشة في اعلى مسلة حمورابي (٤١) ، ولوح الملك (نبو إبلادن) (٤٢) حيث يضع الأله شمش قدميه على كرات حجرية مصفوفة فوق بعضها . والفكرة نفسها موجودة في تمثال الأله شمش من مدينة (ماري) تل الحريري شكل ٣٠ ، ولوح الأله (مرن) (شمش) شكل (٤) من مدينة الحضر .

ومن الاشكال الاخرى التي حورت اليها قرون الأنصاب في الحضر : شكل ورقة (الأكانثس) (٤٣) أو شكل الأوراد المكممة (٤٤) البراعم

(38) AAAO, PL. 44.
(39) SPM, Fig. 351.
(40) Labat, Rene, MANUEL D'EPIGRAPHITE AKKADIENNE, Paris, 1959 (=MEA), No. 366, P. 167.
(41) AAAO, PL, 65
(42) Ibid. PL. 121

(٤٣) الأشكال : ١٢ ، ١٣ ، ١٦، ١٩ .
(٤٤) الأشكال : ١٤ ، ١٧، ١٨، ٢٠ ، ٢٣، ٢٨، ٢٩ ب،

أما في الشكل (٩، ١٠) فرغم ان المظهر العام لقرون الأنصاب يبدو مثلثاً إلا أن الفنان جعل اعلى المثلث ذو إستدارة خفيفة في حين اكسب جوانب المثلث المواجهة للناظر تموجاً خفيفاً ، فظهر للمشاهد وكان الزخرفة تمثل شكل أوراق مكممة أو براعم ، وقد كان هذا الموضوع مألوفاً في فنون حضارة وادي الرافدين (٤٥) أو أنه أقتبس من الفن الأغريقي الحلية المعروفة باسم Ogee والتي مقطعها الطولي بشكل حرف (S) ش (١٠) .

وفي بعض التيجان أبقى الفنان قرون النصب ، ولكنه جعلها ممتدة ضلعي كل مثلث من المثلثات التي تحتل زوايا التاج الأربعة (٤٦) مما يثبت انه كان يحاول ان يعبر فنياً في تيجان تلك الأنصاب عن فكرة دينية تتعلق بالاله شمش وليس فقط الأشارة الى قرون الأنصاب المقدسة .

ب- اما المثلث الذي يرمز الى الخصوبة وعضو التناسل الانثوي ، فقد ظهر على دمى الطين من دور العبيد في جنوب العراق (٤٧) ، وعندما اخترعت الكتابة في العراق القديم - ٣٥٠٠ق.م - كان المثلث الذي قمته الى الأسفل والمرسوم بهذا الشكل «▽» علامة تدل على المرأة ثم طور رسم هذه العلامة الى الشكل التالي ▵ (٤٨) . ووجد هذا المثلث منقوشاً في بعض تيجان أنصاب الحضر (ش١٧) ومما يؤكد هذا التفسير: الهيئة المجسمة التي اضفاها الفنان على شكل المثلث كما بدن النصب - اي العمود - منقوش بصورة ألهة يرجح أنها عشتار إلهة الخصوبة وهذا المضمون يلاحظ في المثلث الظاهر في الشكل (١٦) لاسيما وأن النصب المنقوش فيه هذا المثلث عثر عليه في معبد الألهة (آشربل) .

ج- المثلث الكبير : وهو المثلث الذي يشغل كل الجانب المواجه للناظر

(45) AAAO, PLs 11a, 28, 40, 72, 72, 97

(٤٦) الأشكال : ٧، ١٤ ، ١٥، ٢٠، ٢٣ ، ٢٨ ، ٢٩

(47) SPM, Fig. 218.

(48) MEA, No. 554. SPM, Fig, 311, P. 77.

الى تاج النصب (٤٩) ، ويلاحظ في هذا المثلث ان الضلع القاعدة يتكون من خط واحد ، بينما يتكون الضلعان الاخران – في اغلب الأحيان – من خطين متوازيين (٥٠) ونادراً ما يتكون كل منهما من خط واحد (ش ٢٠، ٢٩ ، رسم ٣١) ، وقد نقش كلا النموذجين في اعلى بعض مباني الحضر ، في الموضع الموجود فوق تيجان الأعمدة ، حيث يشغل شكل المثلث كل الجزء المواجه للمشاهد (٥١) كما في معبد (شحيرو) ومعبد (مرن) (٥٢) ففي اعلى الواجهة الأمامية لمعبد شحيرو نقش المثلث الذي يتكون فيه كل من الساقين من خطين متوازيين اما ضلع القاعدة فيتكون من خط واحد (رسم ٣١، ٣٢) ، ومثل هذا المثلث نقش في بعض انصاب الحضر (٥٣) اما في معبد (مرن) فإن المثلث المنقوش في اعلى الواجهة ، كل يتكون كل ضلع فيه من خط واحد (رسم ٣٢) ونقش هذا المثلث في بعض انصاب الحضر ايضاً (ش ٢٠، ١٢٩ أ) .

والذي يبدو ، ان وجود أشكال تلك الأنواع من المثلثات في الانصاب وفي اعلى واجهتي معبدي شحيرو ومرن ، يشير الى تمتعهما بقدسية خاصة ورغم ان التأثيرات اليونانية تبدو واضحة في كل من بناء المعبدين المذكورين إلا أن الأستقرار التاريخي يدل على أن تلك المثلثات الكبيرة كانت مستقاة من حضارة وادي الرافدين ، وقد ظهرت في تلك الحضارة منذ بداية العصر الحجري المعدني ، ففي موقع (حسونة) كشفت التنقيبات عن أسس المنازل الطينية ، وقد تخيل المنقب (وولي) لهذه المنازل سقوفاً مسنمة – اي على هيئة الجملون – (رسم ٣١) (٥٤) ، ومن المعروف أن السقف المسنم يتكون من طبقتين : الطبقة السفلى تتكون من الهيكل الخشبي والحصيرة ، اما الطبقة

(٤٩) الأشكال : ٧، ١٥، ٢٠، ٢١، ٢٢، ٢٣، ٢٤، ٢٥، ٢٦، ٢٧ ، ٢٩أ .

(٥٠) الأشكال : ٧، ١٥، ٢١، ٢٢، ٢٣، ٢٤، ٢٥ ، ٢٦، ٢٧ ، الرسم ٣١، ٣٣.

(٥١) مدينة الشمس ، المخطط ٥، ص ٣٣٩.

(٥٢) المرجع نفسه ،ص ٣٨١ ،ش ٣٣٨ ص ٣٩٢ ،ش ٣٣٩ ص ٣٨٢ ،ص ٣٨٨ .

(٥٣) الأشكال : ٧، ١٥، ٢١، ٢٢، ٢٣، ٢٤، ٢٥، ٢٦، ٢٧.

(٥٤) فؤاد سفر ، "حفريات تل حسونة" ،سومر ، ١٩٤٥/١ ،ج٢ ص ٣٤ .

التي تليها فهي طبقة الطين (رسم ٣١)، ويمسك جناحي السقف عارضة خشبية تحول دون انزلاقهما أو سقوطهما ، كما يحتمل وجود مساند خشبية بشكل أعمدة ترفع السقف الى الاعلى في موضع التقاء الجناحين ، ولعل الصورة المنقوشة في تاج النصب (شكل ٢٢) توضح ذلك . وجراء هذا النوع من السقوف تميز بناء الكوخ بوجود جدارين قصيرين متقابلين في اعلاهما شكل مثلث (رسم ٣١) . وصورة هذين الجدارين وجدت منقوشة على قطعة حجرية كانت بالأصل جزءاً من اناء أستخدم كمكحلة عثر عليها في موقع (تبه كورا) في الطبقة الثانية عشرة ويعود تاريخها الى الى عهد العبيد (٥٥). وفي مشهد نقش في ختم اسطواني يعود تاريخه الى دور (تبه كورا) يظهر شكل المثلث الكبير فوق صورة لباب المعبد (٥٦) . كما ظهر هذا المثلث في دور نينوى V (٥٧) . اما في عصر الوركاء فقد ازداد استخدام هذا الرمز ، حيث رسم العديد منه فوق بوابات المعابد التي بدورها صار لها معناً رمزياً مقدساً (٥٨) ، وقد نقشت مشاهد تلك البوابات في كثير من الاختام الأسطوانية التي تعود لهذا الدور (٥٩) . ويعتبر دور (جمدة . نصر) العصر الذي انتشر فيه هذا الرمز انتشاراً واسعاً حيث يوجد الكثير من المشاهد نقش فيها هذا المثلث فوق مداخل المعابد (٦٠) . ونلاحظ في هذه الأدوار الحضارية - التي تسبق عهد الحضر بثلاثة الاف سنة - وجود نوعين من هذا المثلث النوع الأول كل ضلع فيه يتكون من خط واحد ، والنوع الثا كل من الساقين فيه يتكون من خطين متوازين (٦١) ، اما ضلع القاعدة

(55) SPM, Fig. 149.
(56) SPM, Fig. 544.
(57) SPM, Fig. 590, 591: 35.
(58) SPM, P. 28.
(59) SPM, Fig. 242.
(60) SPM, Figs: 362, 365, 370, 376, 416. CySe, PL. 7:b, g, I., PL.6: I
(61) SPM, Figs: 358 364, 470. CySe, PL. 6: a.

فيتكون من خط واحد ، وهذان النوعان يتكرر وجودهما في الحضر كما مر بنا سابقاً .

عندما اخترعت الكتابة – ٣٥٠٠ ق.م. صار شكل المثلث الذي لفظ ▽،▽ باللغة السومرية (DU3) معناه: بنى ، كون ، شيد (٦٢)، ولكن شكل المثلث هنا منكوس أو مائل ، الا أن تلك الوضعية للعلامة في المرجع المرموز له ب (EMA) لا يفترض انها صحيحة ؛ لانه من المعلوم ان اولى العلامات لم تكتب على لوح الطين فوق تسلسل معين (٦٣) كماان الأخذ بما جاء من اراء في هذه الدراسة ، ووجود صلة بين عمل البناء والشكل المثلث هذا يحتم تصحيح رسم هذه العلامة في المرجع (MEA) فتصبح بالشكل التالي(△) ، اي مثلث قمته الى الاعلى ويستند على قاعدته .

استمر هذا الرمز في حضارة وادي الرافدين ، فتراه كعنصر ضمن مجموعة من العناصر الزخرفية التي تزين أحد جدران قصر الملك الاشوري (توكلتي ننورتا الأول) (٦٤) كما نقش هذا العنصر الزخرفي في ختم اسطواني اشوري يعود تاريخه الى القرن التاسع او الثامن قبل الميلاد (٦٥).

يستنتج مما تقدم شرحه ، ان هذا الرمز قد استمر استخدامه كعنصر زخرفي يراد به الأشارة الى بناء المساكن والمعابد ، ثم اقتبسه فنان الحضر ليزين به واجهتي معبد (مرن) و (شحيرو) مع الأبقاء على مضمونه او معناه . ولذلك يحق القول ان هذا المثلث عنصر زخرفي ورثته الحضر ضمن ما ورثت من حضارة وادي الرافدين ولا يشترك ان يكون مقتبس من اليونان او الرومان

(62) MEA, No. 230.

(63) Falkenstein, A, ARCHAISHE TEXTE, Aus Uruk, Berlin, 1936 PLs. Passim.

(64) AAALO, PL 74-b.

(65) CySe, PL. 34: J, and compare that with figurs from Jamdet Nasr period. SPM, Figs: 376, 416, 730.

أستخدام الحرف الهجائي كعنصر زخرفي

ميزت أربعة أنواع في المثلث الذي استخدم كعنصر زخرفي في تيجان الانصاب في الحضر ،وتم شرح ثلاثة منها ، أما النوع الرابع :فهو المثلثات المتكونة من تقاطع ساقي المثلث الكبير مع الخطين المنحنيين المواجهين للزاويتين الواقعتين عند قاعدة التاج . ويبدو أن الشكل الناتج أُريد به كتابة اسم الأله شمش ، لأن التدقيق في رسم حروف أبجدية الحضر يظهر لنا أن الحرف (ش) الآرامي كتب بشكل أقرب شبهاً بالمثلث .لكن الفنان ـ الكاتب في الحضر كان قد تصرف في كتابة حرف ا(ش) (∆)فظهرت له نماذج عديدة كما في الجدول : تسلسل (١ ـ ٥٤) .

واستفاد الفنان من رسم الحرف الذي يمكن تجسيده ، فجعل من قرون النصب التي حورها إلى أشكال عديدة ـ والتي شرحت في الصفحات السابقة ـ نموذجاً يجسدُ في الوقت نفسه رسم الحرف ا(ش) (∆) الآرامي .كما استفاد الفنانمن تقاطع الاضلاع والخطوط ـ والتي تقدم الحديث عنها ـ ليكتب بواسطة تقاطعها وبالنحت البارز حرفاً آخر من أبجدية الحضر الآرامية هو حرف ا(م) (×). وقد تصرف الكاتب في رسم هذا الحرف فكانت له عدة نماذج كما في الجدول : تسلسل (٥٥ ـ ٨٤) .

ومن المعروف أن اسم إله الشمس في مدينة الحضر هو شمش (شم ش) (∆ × ∆)،أي أن الأسم يتكون من ثلاثة أحرف: اثنان منهم حرف (ش)(∆) والوسطي حرف (م) (×) وحيث أن رسم حرف ا(م) (×) يتوسط شكل حرفي (ش) (∆) ـ المجسمين ـ على تيجان انصاب الحضر لذلك يمكن الأستنتاج أنه كان من السهل على الفنان أن يخلد في هذه الأنصاب اسم الأله ـ المالك لمدينة الحضر ـ شمش بواسطة النحت المجسم والبارز. والطريف ان قراءة اسم هذا الأله تمّ هنا من الجانب الايمن إلى الجانب الأيسر ومن الأعلى إلى الأسفل وبالعكس في الحالتين .

تعتبر هذه المحاولة من فنان الحضر في استخدام الحرف الأبجدي كعنصر فني لأغراض الزخرفة ، أولى المحاولات المعروفة لحد الآن في تاريخ الفن في الشرق الأدنى القديم ،ثم صار ذلك أمراً مألوفاً فيما بعد في عهد الحضارة العربية الاسلامية .

الخلاصة :

ظهر في هذا البحث أن العناصر الفنية التي نقشت في تيجان الأنصاب في الحضر هي : حرفين من الأبجدية الآرامية التي كتبت بها تلك المدينة،وشكل القرص (الدائرة) والوردة والمثلث .

ومن خلال دراسة معنى تلك الرموز وكيفية الأستفادة منها فنياً تم التعرف على القدرة الفنية العالية التي كانت لدى فنان مدينة الحضر والتي تمثلت بجمعه عدداً قليلاً من العناصر الفنية مع تحميلها معانٍ كثيرة .

أما بصدد المعتقدات الدينية الخاصة بالأله (شمش)إله الشمس في حضارة وادي الرافدين ، فقد اتسمت بعدم التبدل السريع وباستمرار تلك المعتقدات والأساليب الفنية المعبرة عنها خلال مئات السنين .

ولعل أبرز ماقدمته هذه الدراسة - بالأضافة إلى ماتقدم - شيئين :أولهما تحليل لمعنى الشكل المثلث الذي كثيراً ماظهر في الجزء الأعلى من مباني اليونان والرومان وبعض مباني الحضر . وثانيهما تحليل العناصر الفنية الذي نتج عنه التوصل إلى معرفة اولى المحاولات - المعروفة لحد الوقت الحاضر - التي استخدم فيها الحرف الهجائي كعنصر زخرفي .

المراجع

١ – باقر ، طه ، معابد العراق القديم » ،سومر ،٣/١٩٤٧.

٢ – حبيب ، جورج ، « معبودات الحضر» سومر ،٢٩ / ١٩٧٣ .

٣ – دراوود ،الليدي ،الصابئة المندائيون ،بغداد ،مطبعة الارشاد ١٩٦٩، ترجمة نعيم بدوي وغضبان الرومي .

٤ – سفر ،فؤاد « حفريات تل حسونة » ،سومر ،١ / ١٩٤٥ / ج٢.

٥ – ———« كتابات الحضر » ،سومر ، ١٧ /١٩٦١ و١٨ / ٩٦٢.

٦ – سفر ،فؤاد وعلي مصطفى ،محمد ،الحضر مدينة الشمس ، بغداد وزارة الاعلام ، ١٩٧٤ .

٧ – علي ، جواد ، المفصل في تاريخ العرب قبل الاسلام ، بيروت ،دار العلم للملايين – مكتبة النهضة ،بغداد ١٩٧٠ ،جا – ١٠.

٨ – نجم عبو ، عادل ، الصيانة وأساليب التسقيف في بوابة أدد الآشورية سومر ، ٣١ / ١٩٧٥.

٩ – يونس عبدالرحمن ،عبدالمالك ،عبادة الأله شمش في حضارة وادي الرافدين ، بغداد ، ١٩٧٥ ،رسالة ماجستير غير منشورة .

10 – Buren, E. Douglas Van, SYMBOLS OF THE GODS IN MESOPOTAMIAN ART, Roma, 1949 (=SGMA)

11 – ENCYCLOPEDIA OF WORLD ART, Mc Graw-Hill Book Company, Inc., New York, Toronto, London, 1959, Vols. 1-14, (=EWA).

12 – Frankfort, H., CYLINDER SEALS, London, 1939, Rep. 1965 (=CySe).

13 – ————————, THE ART AND ARCHITECTURE OF THE ANCIENT ORIENT, Penguin Books 1958, (=AAAO).

14 – Falkenstein, A., ARCHAISHE TEXTE AUS URUK, Berlin, 1936.

15 – Goff, Beatrice Laura, SYMBOLS OF PREHISTORIC MESO-POEAMIA, New Heaven and Lonoon, Yale, University Press, 1963 (= SPM).

16 – Hasting, J.(E.D.),ENCYCLOPAEDIA OF RELIGION AND ETHICS, Edinburgh, 1908-1966, Vols.1-13, .(ERE).

17 – Labat, Rene, MANUEL D'EPIGRAPHIE AKKADIENNE, Paris, 1959, (= MEA)

18 - Luckenbill, D., YNCIENT RECORDS OF ASSYRIA AND BABYLONIA, New York, Greenwood Press, 1968, (Chicago (1926) Vols. 1-2,

19 – Teixidor, Javier, '(The Altars Found at Hatra", Sumer, 21/1965,

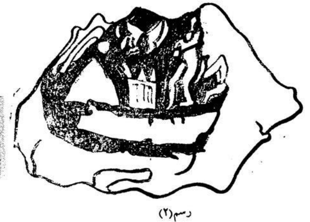


رسم(١)

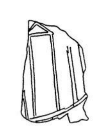
شكل(١)



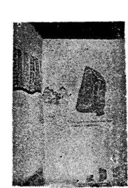
شكل (٢)

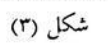


رسم(٢)



رسم(٣)





شكل (٣)



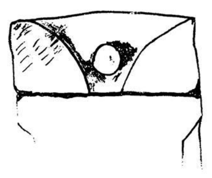
رسم(٤)



شكل (٤)

شكل (٥)

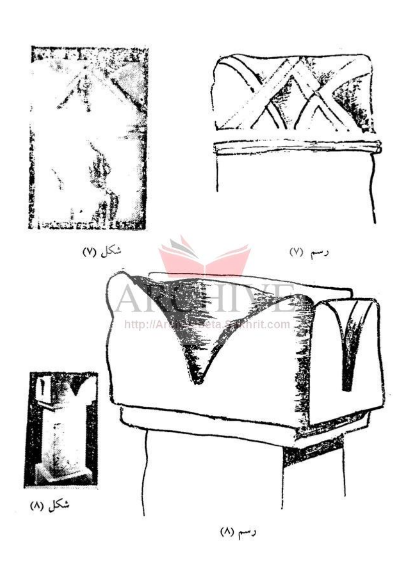
رسم (٥)



رسم (٦)



شكل (٦)



شكل (٧)

رسم (٧)

شكل (٨)

رسم (٨)



شكل (٩)





شكل (١٠)



رسم (١٠)



شكل (١١)

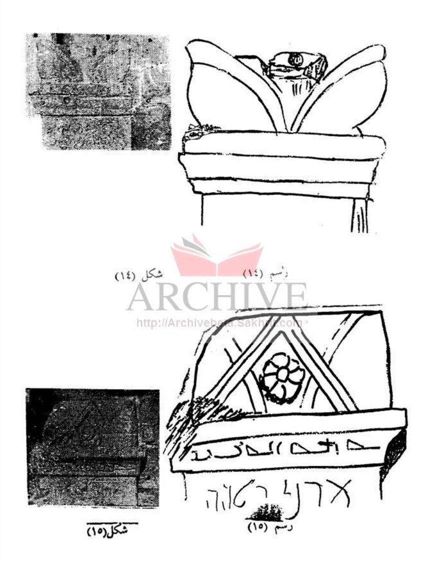
رسم (١١)

رسم (١٢)



شكل (١٣)

رسم (١٣)

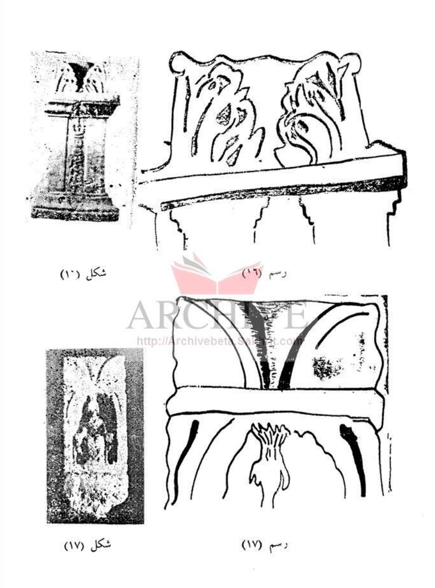


رسم (١٤)

شكل (١٤)

رسم (١٥)

شكل(١٥)

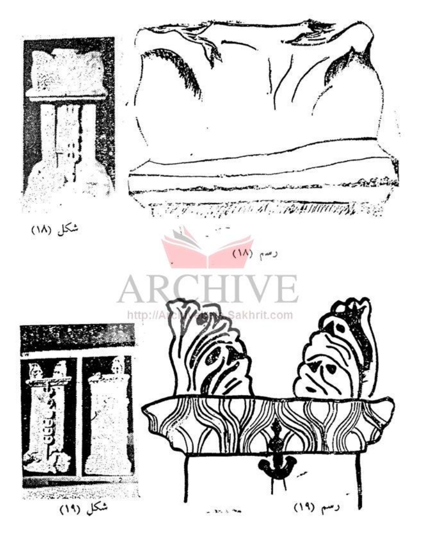


رسم (١٦)

شكل (١٠)

رسم (١٧)

شكل (١٧)



شكل (١٨)

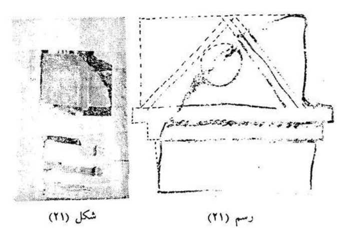
رسم (١٨)

شكل (١٩)

رسم (١٩)

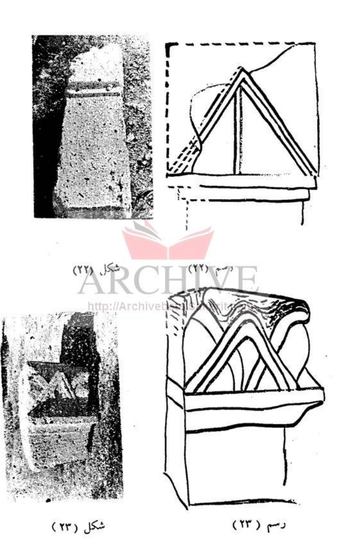
رسم (٢٠)

شكل (٢٠)



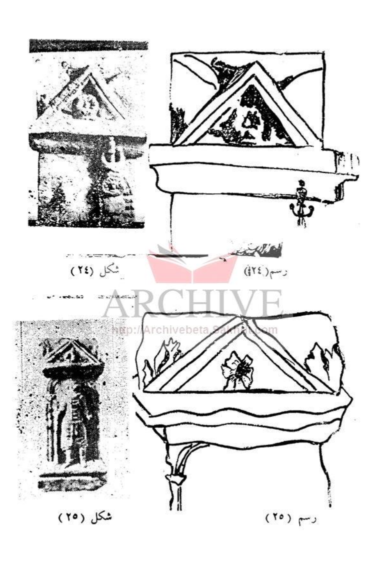
رسم (٢١)

شكل (٢١)



رسم (٢٢)　　شكل (٢٢)

رسم (٢٣)　　شكل (٢٣)

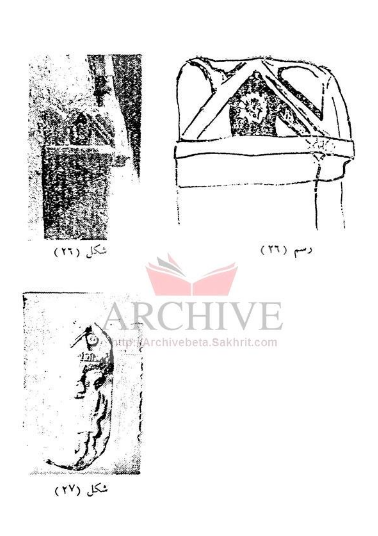


شكل (٢٤)

رسم (٢٤)

شكل (٢٥)

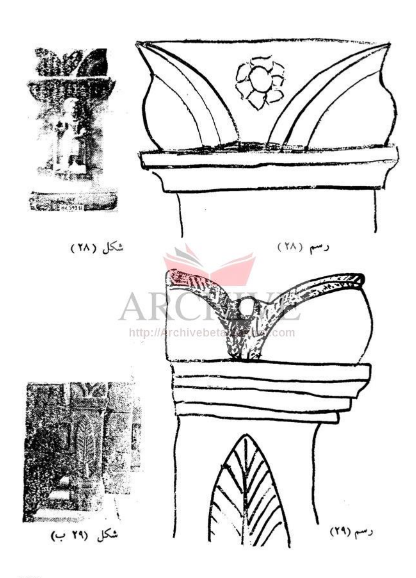
رسم (٢٥)



رسم (٢٦)

شكل (٢٦)

شكل (٢٧)

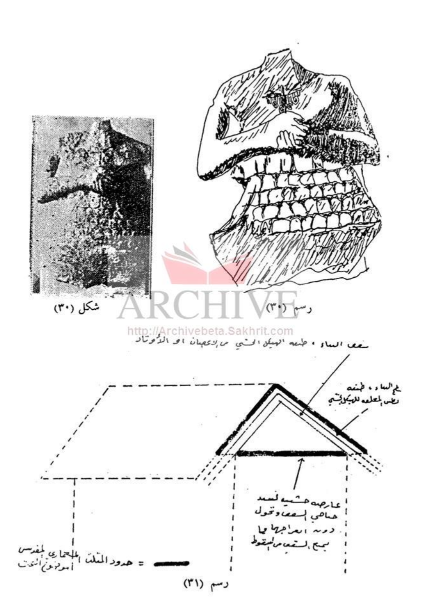


شكل (٢٨)

رسم (٢٨)

شكل (٢٩ ب)

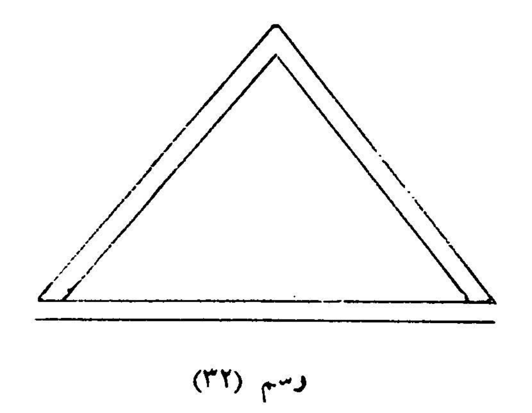
رسم (٢٩)



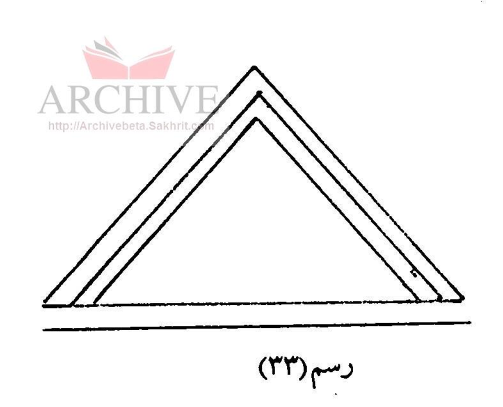
شكل (٣٠)

رسم (٣٠)

رسم (٣١)



رسم (٣٢)



رسم (٣٣)

التسلسل	عدد مجلة سومر	الصفحة	رقم الكتابة	اللوح	السطر	الحرف	رسمه
١	٩٥١/٧	١٧٢	١	١	١	شـ	
٢		١٧٣	٢	١	٢	=	
٣		١٧٣	٢	١	٢	=	
٤		١٧٣	٣	١	١	=	
٥		١٧٧	١٠	٢	١	=	
٦		١٧٧	١٠	٢	١	=	
٧		١٧٧	١٠	٢	١	=	
٨		١٧٧	١٠	٢	١	=	
٩		١٧٧	١٠	٢	٣	=	
١٠		١٧٧	١٠	٢	٣	=	
١١		١٧٧	١٠	٢		=	
١٢		١٧٧	١٠	٢		=	
١٣		١٧٨	١٥	٤	١	=	
١٤		١٨٠	١٨	٤	١	=	
١٥		١٨٠	١٨	٤	١	=	
١٦		١٨٠	١٨	٤	١	=	
١٧	٩٥٣/٩	٢٤٢	٤٥	٢	١	=	
١٨		٢٤٤	٤٩	٣	٢	=	
١٩		٢٤٤	٤٩	٣	٣	=	
٢٠		٢٤٤	٤٩	٣	٣	=	

جدول رقم (١)

التسلسل	عدد مجلة سومر	الصفحة	رقم الكتابة	اللوح	السطر	الحرف	رسمه
٢١		٢٤٦	٥٢	٤	١	ش	
٢٢		٢٤٦	٥٢	٤	٣	=	
٢٣	٩٥٥/١١	٥	٦٠	٢	١	=	
٢٤		٥	٦٠	٢	١	=	
٢٥		١٢	٧٢	٨	١	=	
٢٦	٩٦١/١٧	١٢	٧٩	١	٦	=	
٢٧		١٢	٧٩	١	٥	=	
٢٨		١٢	٧٩	١	٩	=	
٢٩		١٢	٧٩	١	١٠	=	
٣٠		١٨	٨٠	ص ١٨	٢	=	
٣١		١٨	٨٠	ص ١٨	٢	=	
٣٢		٢١	٨٢	ص ٢١	٣	=	
٣٣		٢٧	٨٥	ص ٢٧	١	=	
٣٤		٢٨	٨٨	ص ٢٨	١	=	
٣٥		٢٨	٨٨	ص ٢٨	٢	=	
٣٦		٢٩	٩١	ص ٢٩	١	=	
٣٧		٢٩	٩٢	ص ٢٩	١	=	
٣٨		٣٠	٩٤	ص ٣٠	١	=	
٣٩		٣٠	٩٤	ص ٣٠	١	=	
٤٠		٣٢	١٠٠	ص ٣٣	١	=	

جدول رقم (٢)

التسلسل	عدد مجلة سومر	الصفحة	رقم الكتابة	اللوح	السطر	الحرف	رسمه
٤١	٩٦١/١١	٣٧	كتابة من السعدية	ص ٣٧	٤	=	
٤٢		٣٧	=	ص ٣٧	٤	=	
٤٣		٣٧	=	ص ٣٧	٨	=	
٤٤		٣٧	=	ص ٣٧	٨	=	
٤٥		٣٧	=	ص ٣٧	٨	=	
٤٦		٤٢	كتابة من قبر ابو نايف	٢	١	=	
٤٧		٤٢	=	٢	١	=	
٤٨	٩٦٢/١٨	٣٦	١٢٣	ص ٣٦	١	=	
		٣٧	١٢٧	ص ٣٧	١	=	
٤٩		٣٧	١٢٨	ص ٣٨	١	=	
٥٠		٣٨	١٣١	ص ٣٨	١	=	
٥١	٩٦٥/٢١	٤٣	٢٣٠	ص ٤٣	١	=	
٥٢		٤٣	٢٣٠	ص ٤٣	١	=	
٥٣		٤٣	٢٣٠	ص ٤٣	٣	=	
٥٤		٤٣	٢٣٠	ص ٤٣	٣	=	
٥٥	٩٥١/٧	١٧٢	٢	١	٢	م	
٥٦		١٧٢	٣	١	١	م	
٥٧		١٧٧	١٠	٢	١	م	
٥٨		١٧٧	١٠	٢	١	=	
٥٩		١٧٧	١٠	٢	٣	=	
٦٠		١٧٧	١٠	٢		=	
٦١		١٧٩	١٦	٤	١	=	
٦٢		١٧٩	١٦	٤	١	=	

جدول رقم (٣)

التسلسل	عدد مجلة سومر	الصفحة	رقم الكتابة	اللوح	السطر	الحرف	رسمه
٦٣		١٧٩	١٦	٤	٢	م	
٦٤		١٨١	٢١	٤	١	=	
٦٥	٩٥٣/٩	٢٤٦	٥٣	٤	١	=	
٦٦	٩٥٥/١١	٨	٦٥	٥	٣	=	
٦٧		١٤	٧٧	٩	١	=	
٦٨	٩٦١/١٧	١٢	٧٩	ص ١٢	٥	=	
٦٩		١٢	٧٩	ص ١٢	٦	=	
٧٠		١٨	٨٠	ص ١٨	٢	=	
٧١		٢١	٨٢	ص ٢١	٥	=	
٧٢		٣٠	٩٤	ص ٣٠	١	=	
٧٣		٣١	٩٧	ص ٣١	١	=	
٧٤		٣٢	٩٩	ص ٣٢	١	=	
٧٥		٣٣	١٠١	ص ٣٣	٢	=	
٧٦	٩٦٢/١٨	٣١	١١٠	ص ٣١	١	=	
٧٧	٩٦٥/٢١	٣٤	٢١٥	ص ٣٤	٢	=	
٧٨		٤٠	٢٢٨	ص ٤١	١	=	
٧٩		٤٠	٢٢٨	ص ٤١	٢	=	
٨٠		٤٠	٢٢٨	ص ٤١	٢	=	
٨١	١٩٦٨/٢٤	١٤	٢٤١	ص ١٤	١	=	
٨٢		٢٣	٢٧١	ص ٢٤	١	=	
٨٣	٩٧١/٢٧	٨	٢٨٨أ	٢	٧	=	
٨٤		٨	٢٨٨ج	٢	٩	=	

جدول رقم (٤)



الأخبار العلمية

للسنة الدراسية ١٩٧٦/١٩٧٧



القبول في كلية الاداب :

تقرر اعادة فتح القبول في قسمي اللغة العربية والتأريخ وفي فرع اللغة الانكليزية ابتداء من السنة الدراسية القادمة (ايلول ١٩٧٧) ، كما تقرر قبول (١٤٠) طالبا في الكلية يوزعون على الشكل التالي : اللغة العربية (٢٥) ، التاريخ (٢٥) ، اللغات الاوربية — اللغة الانكليزية (٢٥) ترجمة (٣٥) اللغة الفرنسية (٣٠) .

الدراسات العليا :

قرر مجلس التعليم العالي والبحث العلمي في دورته الاستثنائية التاسعة عشرة بتاريخ ١٩٧٧/٦/١ فتح دراسة الماجستير في اللغة الانكليزية وآدابها وفي التاريخ وقد حدد عدد الذين يقبلون في الدراسة الاولى بخمسة طلاب وفي الثانية بثلاثة طلاب .

وقد حدد قسم اللغات الاوربية شروط القبول في دراسة الماجستير للغة الانكليزية وآدابها بما يلي :

١. ان يكون المتقدم متفرغاً للدراسة (التفرغ الكلي)
٢. ان يكون المتقدم حائزاً على درجة البكالوريوس او مايعادلها علميا وان يكون نوع اختصاصه مؤهلا بطبيعته لدراسة الماجستير في اللغة الانكليزية .
٣. ان لايقل معدله في السنتين الاخيرتين عن جيد .
٤. يفضل من له خبرة تدريسية او اشترك في دراسة او دورات دراسية بعد الشهادة الجامعية الاولية .
٥. يجري للمتقدمين امتحانات تحريرية وشفهية في اللغة الانكليزية ومقابلة في مواعيد معينة .
٦. تعطى نسبة ٧٠٪ لمعدل الطالب في السنتين الاخيرتين و ٣٠٪ للامتحان التحريري والشفهي والمقابلة .

٧. ان لايزيد عمر المتقدم عن (٣٥) سنة .

٨. ان يكون معفوا من الخدمة العسكرية او مؤجلا منها او دافعاً البدل النقدي على ان يقدم مايثبت ذلك .

٩. اذا كان موظفا يجب ان يقدم كتاباً من دائرته بعدم ممانعتها من قبوله في الدراسات العليـــا .

١٠ ان لايكون المتقدم ممن سبق ان قبل في الدراسات العليا في الجامعات العراقية والغي قبوله او ترك الدراسة وانسحب منها او فصل منها .

١١. ان ينجح في الفحص الطبي الذي تجريه الجامعة .

١٢. يشترط فيمن يتقدم للقبول تقديم الوثائق التاليـــة :

أ ـ شهادة الجنسية العراقية .

ب ـ شهادة عدم المحكومية .

جـ ـ ثلاث تصاوير حديثة .

د ـ ثلاث نسخ من وثيقة الدرجات الجامعية مصدقة حسب الاصول ومعنونة الى جامعة الموصل / كلية الاداب / لجنة الدراسات العليا .

هـ ـ خمس نسخ من استمارة طلب الانتماء للدراسات العليـــا .

و ـ يعفى الموظف من احكام الفقرتين أ . ب .

ز ـ يستثنى الطلبة العرب والاجانب من تقديم الوثائق الواردة في الفقرتين الاولى والثانية على ان يقدم طلبه عن طريق مديرية الوافدين في وزارة التعليم العالي والبحث العلمي .

١٣. يبدأ التقديم في ١٠/ ٧/ ٩٧٧ ولغاية ١٥/٨/ ٩٧٧.

كما حدد قسم التاريخ شروط القبول للماجستير في التاريخ بما يلي :

١. ان يكون المتقدم متفرغاً كليا للدراسة (التفرغ الكلي).

٢. ان لايقل معدله في السنتين الاخيرتين عن (جيد جدا) .

٣. يجري للمتقدمين امتحانات تحريرية باللغة العربية والانكليزية ومقابلة في المواعيد التي تحددها عمادة كلية الاداب لهم ويكون لهذا الامتحان والمقابلة ثلث الدرجة العامة للقبول .

٤. ان يكون معفوا من الخدمة العسكرية او مؤجلا منها او دافعا البدل النقدي على ان يقدم مايثبت ذلك .

٥. اذا كان موظفا يجب ان يقدم كتاباً من دائرته بعدم ممانعتها من قبوله في الدراسات العليا وتعهدها بمنحه اجازة دراسية .

٦. يقدم الطالب ثلاثة اسماء من اعضاء الهيئة التدريسية ممن قاموا بتدريسه لاستحصال التوصيات اللازمة بشأنه .

٧. ان لايزيد عمر المتقدم عن (٣٥) سنة .

٨. يشترط فيمن يتقدم للقبول تقديم الوثائق التالية :

أ- شهادة الجنسية العراقية .

ب- شهادة عدم المحكومية .

ج- ثلاثة تصاوير حديثة .

د- ثلاث نسخ من وثيقة الدرجات للدراسة الجامعية مصدقة حسب الاصول ومعنونة إلى جامعة الموصل / كلية الاداب / لجنة الدراسات العليا .

هـ- خمس نسخ من استمارة طلب الانتماء للدراسات العليا .

و- يعفى الموظف من احكام الفقرتين الاولى والثانية .

ز- يستثنى الطلبة العرب والاجانب من تقديم الوثائق الواردة في الفقرتين الاولى والثانية على ان يقدم مايدل على تأمين معيشته في القطر العراقي .

٩. ان لايكون المتقدم ممن سبق ان قبل في الدراسات العليا في الجامعات العراقية والغي قبوله او ترك الدراسة وانسحب منها اويكون قد فصل منها .

١٠. ان ينجح في الفحص الطبي الذي تجريه الجامعة .

الاساتذة الزائرون :

- زار الدكتور حسين علي محفوظ ، رئيس قسم اللغات الشرقية في جامعة بغداد ، قسم اللغة العربية في الفترة بين ٥/ ٤ إلى ٣٠/ ٤/ ٩٧٧ والقى عددا من المحاضرات على طلبة القسم تناولت اثر اللغة العربية على اللغات الفارسية والتاجيكية والاوردية ، كما القى محاضرة عامة في اثر اللغة العربية على اللغة التركيـة .
- زار السيد اثر هيوز المدرس في قسم الدراسات اللغوية بجامعة ردينك في انكلترا قسم اللغات الاوربية في الفترة بين ١٧/ ٤ إلى ٣٠/ ٤/ ٩٧٧ والقى محاضرات في اللغة الانكليزية على طلبة الصفوف الثالثة والرابعة لفرعي اللغة الانكليزية والترجمة ، كما القى محاضرة عامة عن اللهجات الانكليزية .
- زارقسم اللغات الاوربيه السيد بيترفالفي مسؤول اللغة الانكليزية في المركز الثقافي البريطاني حيث تم بحث عدد من القضايا منها تدريس اللغة الانكليزية العلمية وغيرها .
- استضاف قسم اللغات الاوربية السيد هنري جينو الخبير الثقافي في الملحقية الثقافية الفرنسية للاطلاع على سير تدريس اللغة الفرنسية بالطريقة السمعية البصرية الحديثة في القسم .

المؤتمرات العلمية

— شارك كل من الدكتور هاشم يحيى الملاح — عميد الكلية — والدكتور توفيق سلطان اليوزبكي رئيس قسم التاريخ والدكتور كاظم هاشم نعمة الأستاذ المساعد في قسم التاريخ في المؤتمر الفكري حول الصهيونية — المنعقد في بغداد في الفترة بين ٨ — ١٥ تشرين الأول/١٩٧٦ .

كما شارك الدكتور هاشم يحيى الملاح والدكتور توفيق سلطان اليوزبكي في المؤتمر الدولي لتاريخ شرق الجزيرة العربية المنعقد في الدوحة / دولة قطر في الفترة بين ٢١ — ٢٧ آذار / ١٩٧٧ .

– شارك الدكتور بكر هشام الصواف الاستاذ المساعد في قسم اللغات الأوربية في مؤتمر تدريس اللغة الأنكليزية المنعقد في اوكسفورد بانكلترا في الفترة بين ٤ – ٧ كانون الثاني ١٩٧٧ .

– شارك الدكتور عمر محمد الطالب والدكتور سالم أحمد حميد/الاستاذان المساعدان في قسم اللغة العربية في مؤتمر الخليج العربي الذي اقامته جامعة البصرة في الفترة بين ٢٩ – ٣١ / آذار = سنة ١٩٧٧ .

– اوفد الدكتور توفيق سلطان اليوزبكي الى المملكة المتحدة للمشاركة في دورة اللغة الانكليزية لأساتذة التاريخ التي تقيمها جامعة يورك في ٧/٤ الى ١٩٧٧/٧/٢٤.

الأبحاث العلمية :

– قسم اللغة العربية ، لقد انجزت الابحاث التالية في القسم :

مقدمة في الوقف والابتداء، الدكتور احمد خطاب العمر (آداب الرافدين)

القصة القصيرة في الخليج العربي (الكويت والبحرين)، الدكتور عمر الطالب، القي البحث في مؤتمر الخليج العربي .

– نفسية البارودي من خلال شعره ، الدكتور عمر الطالب (آداب الرافدين)

– ملامح النزعة العاطفية في شعر ابراهيم ناجي ، الدكتور سالم أحمد (آداب الرافدين) .

– افعال ثلاثية اصلها مزيد ، الدكتور حازم طه (آداب الرافدين)

– منهج الجلاليين في التفسير –القسم الثاني ، الدكتور كاصد ياسر (آداب الرافدين) .

– اسباب انتشار العامية ، الدكتور موسى بناي (آداب الرافدين) .

النشاط العلمي والادبي في عهد الاسرة الايوبية ، السيد ناظم رشيد(آداب الرافدين)

– منهج الدهلوي في كتاب حجة الله البالغة ، السيد عبدالرزاق قاسم (آداب الرافدين)

— الجملة الخبرية ودلالاتها البلاغية ، السيد جليل رشيد فالح (آداب الرافدين) .
— افصحية لهجة قريش بين النفي والاثبات ، السيد عبدالجبار علوان (آداب الرافدين) .

كما اتسم القسم بنشاط ملموس في مجال المحاضرات العامة فقام بالقاء محاضرات السادة .

— الدكتور أحمد خطاب العمر مع انيس فريحة في دعوته للعامية واللاتينية.
— الدكتور عرفه حسين ، اتجاهات البحث في اللغة في العصر الحديث .
— الدكتور عمر الطالب ، رحلة مع معلقة امرىء القيس .
— الدكتور كاصد ياسر ، الجرس الموسيقي في تعبير القرآن .
— الدكتور سالم أحمد ، البعث القومي في شعر محمود درويش .
— السيد انيس علي الداهش ، الظواهر العلمية في رسالة حي بن يقظان .
— السيد جليل رشيد فالح ، اضطراب الكلم عند طلبة الاختصاص .
— الطالب صباح نجم ، الاستاذ والطالب في مرحلة التحول الاشتراكي.

قسم اللغات الأوربية : تم انجاز البحوث التالية في القسم :

Some problems of English word stress for the Iraqi learner .

الدكتور يوئيل يوسف عزيز ، قبل البحث في مجلة

(Elt. Oxford University Press)

— مدخل الى تاريخ اليونان وآدابهم واثارهم ، ترجمة — الدكتور يوئيل يوسف عزيز .
— مدخل الى تاريخ الرومان وآدابهم واثارهم — ترجمة الدكتور يوئيل يوسف عزيز

A Remedial Language Laboratory Course for Arabic-Speaking University Students .

الدكتور هشام بكر الصواف (انجزت خلال سنة التفرغ) .

A Defence of Spoken English .

الدكتور هشام بكر الصواف .

Rules Determining the Occurence of the English /ɔ:/ Orthographically

السيد دنحا طوبيا (آداب الرافدين) .

قسم التاريخ : تم إنجاز البحوث العلمية التالية في القسم :

— دراسات في النظم الاسلامية — كتاب منهجي ، الدكتور توفيق سلطان اليوزبكي (مطبعة جامعة الموصل) .
— المطامع الاستعمارية في الخليج العربي — الدكتور توفيق سلطان اليوزبكي القى البحث في المؤتمر الدولي للتاريخ في الدوحة/دولة قطر .
— دراسات في تاريخ العلوم عند العرب ، المرحوم حكمت نجيب (مطبعة الجامعة) .
— الجانب الاداري في دولة عماد الدين محمود ، الدكتور عماد الدين خليل (آداب الرافدين).
— الرأي العام العراقي واتفاقية ١٩٣٠ ، الدكتور كاظم هاشم نعمة (آداب الرافدين).
— اوضاع العراق السياسية في عهد السلطان احمد الجلائري ١٣٨٢ — ١٤١٠م ،

السيد ابراهيم خليل (آداب الرافدين) .

مركز البحوث الآثارية والحضارية :

اولا: البحوث النظرية :—

انجز المركز العديد من البحوث النظرية المنشورة او المقدمة للنشر منها :—

١. القانون في العراق القديم :— الجزء الاول ، الدكتور عامر سليمان « كتاب» .

٢. نصوص مسمارية من مدينة تربيصو الاشورية عامر سليمان « كتاب »
٣. ترجمة كتاب عن العراق القديم من قبل الدكتور عامر سليمان وهو
The Greatness that was Babylon, by H. W. F. Saggs.
٤. Harvest Decuments from the Old Babylonian Period.
سومر العدد ٣٣
للدكتور عامر سليمان .
٥. الربط الايوبية في حلب، الدكتور عادل نجم عبو، مقدم للنشر في الحوليات السورية.
٦. الأصل المعماري ملقية ، الدكتور عادل نجم عبو ، بين النهرين .
٧. الزخارف الفنية على تيجان ، دكاك النار في الحضر ، اداب الرافدين .
عبدالمالك يونس
٨. اسماء الاعلام المركبة في العراق القديم ، بين النهرين : عبدالمالك يونس.
٩. المؤثرات الفنية بين العراق والمغرب خلال العصور الاسلامية .
الدكتور أحمد قاسم الجمعة .

ثـانيـاً : — المتحف : —

رغم التطوير الذي حصل على المتحف من الناحية الفنية الا أن تطوره اصبح محدوداً لضيق المبنى المخصص له .

ثالثـاً : — التنقيبات .

قام المركز بتشكيل هيئة علمية للتنقيبات الاثرية في منطقة تل أبو ظاهر وهو أحد المواقع الاثرية التي ستغمرها بحيرة سد الموصل المقترح ، وقد انتهى العمل من الموسم الأول الذي امتد بين شباط وحزيران ، وفي تخطيط المركز اجراء تنقيبات دورية في كل سنة وبنفس موعد الموسم الاول .
وقد نتج عن التنقيب الكشف عن عشر طبقات سكنية ولازالت هناك طبقات اخرى سيكشف عنها في الموسم القادم كما سيتم دراسة ما تضمنته هذه الطبقات من اثار ولقى من قبل اعضاء الهيئة خلال الفترة المنحصرة بين الموسمين

لتحديد تواريخها وعلاقتها ببقية المواقع بشكل علمي دقيق . كما سيباشر خلال الموسم المقبل بالعمل بموقع آخر يعتقد انه يرجع الى فترة السيطرة الرومانية .

رابعـاً : ـ الحرف والصناعات الشعبية : ـ

استكمالا لما هو معروض في متحف الجامعة فقد بدأ المركز بتصوير بعض الصناعات الشعبية على افلام سينمائية وثائقية يستفاد منها بالتبادل مع بقية الجامعات اضافة الى حفظها قبل انقراض هذه الصناعات .

خـامسـاً : ـ مكتبة الشرائح الفوتوغرافية « السلايدات »

شرع المركز منذ مطلع العام الدراسي بتصوير المواقع الاثارية وبعض المظاهر الفولكلورية والأحياء القديمة في مدينة الموصل على شرائح فوتوغرافية يقصد منها حفظ هذه المواقع اضافة الى الاستفاده منها للدراسة والمحاضرات العامـة .

سادساً : ـ المؤتمرات العلمية : ـ

شارك المركز خلال العام الدراسي الماضي بمؤتمر الاثار العربية المنعقد بالمغرب وقد اوفد احد منتسبيه وهو الدكتور أحمد قاسم جمعة وقام بتقديم بحث للمؤتمر .

سابعاً : ـ الدليل الاثاري لمحافظة نينوى : ـ

يوشك المركز على الانتهاء من اعداد دليل آثاري مصور عن محافظة نينوى للاستفادة منه في الأعمال السياحية والعلمية .

الدورات الدراسية : ـ قام قسم اللغات الاوربية في الكلية بارسال خمسة عشرة طالباً من الأوائل في فرعي اللغة الأنكليزية والترجمة الى انكلترا لحضور دورة اللغة الأنكليزية التي تقيمها كلية باري في الفترة بين ١٦ / ٧ الى ١٠ / ١٩٧٧/٩ .

الأساتذة الجدد : ـ ادناه اسماء الأساتذة الجدد الذين تم تعينهم اونقل خدماتهم الى الكلية في هذا العام .

- قاسم اسماعيل يحيي - مدرس مساعد - ماجستير في الفلسفة .
عماد أحمد عبدالصاحب - مدرس مساعد - ماجستير في التاريخ الحديث.
- محمد جمال الدين حسين - مدرس مساعد - ماجستير في الدراسات الفلسطينية
- محمد جلوب فرحان - مدرس مساعد - ماجستير في الفلسفة .
- فضيلة عباس مطلك - مدرسة مساعدة - ماجستير في الفلسفة .
- عبدالجبار علوان حسين - مدرس مساعد - ماجستير في اللغة العربية

